

جامعة ابوالقاسم سعد الله الجزائر 2

كلية العلوم الإنسانية

قسم التاريخ

دور رجال جمعية العلماء بالشرق
الجزائري في نشر و تطوير التعليم
العربي الحر (1391 – 6591)
(منطقة الأوراس أنموذجا)

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
أ.د/ مولود عويمر	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	رئيسا
أ.د/ جمال يحيوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر 2	مشرفا ومقررا
أ.د/ أحمد مريوش	أستاذ التعليم العالي	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة	مناقشا
د/ محمد لحسن زغدي	أستاذ محاضر	جامعة الجزائر 2	مناقشا
د/ محمد جلال	أستاذ محاضر	جامعة الجزائر 2	مناقشا
د. / حسان مغدوري	أستاذ محاضر	جامعة زيان عاشور الجلفة	مناقشا

إشراف الأستاذ الدكتور:

جمال يحيوي

إعداد الطالب:

محمد محادي

السنة الجامعية: 1437-1438هـ - 2017/2018 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ }

[فاطر: 28]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر)).

حديث نبوي شريف

الإهداء:

أهدي هذا العمل:

إلى روح والديّ عليهما رحمة الله.

وإلى روح أستاذيّ القديرين خمري الجمعي وحداد مصطفى رحمة الله عليهما .

وإلى كل نافع خدم الأمة والوطن

الشكر والعرفان:

من لم يشكر المخلوق لم يشكر الله ومن هذا المبدأ يطيب لي أن أشكر أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور بجاوي جمال على الثقة التي وضعها في من خلال قبوله الإشراف علي في هذا الموضوع، ولما أسداه لي من خدمات قيمة ونصائح هادفة وتوجيهات علمية كانت نبراسا أنار لي طريق البحث ووفر لي عناء الجهد، والتي مثلت كثيرها إضافة هامة في إنجاز هذا الدراسة بالشكل العلمي المأمول .

ونكبر فيه صبره معي وعليّ خلال كل هذه المدة الطويلة نسبيا والتي شاركني فيها معاناة ومشاكل البحث في هذا الموضوع، تعبيرا عن المسؤولية في موقفه على هذا الاختيار وفي نفس الوقت تشجيعا لي لإتمام الموضوع وإخراجه للنور وهو الموضوع البكر في كثير من أجزائه والشحيح المادة في أغلب فصوله.

فله مني كل التهاني والإحترام راجيا من المولى عز وجل تعويضه خير الجزاء.

كما لا يفوتني أن أشكر أهل الفضل علي في إعانتني خلال مسيرة إنجازي لهذا العمل وأذكر منهم الاستاذ الدكتور خمري الجمعي رحمه الله على ماقدمه لي من ملاحظات خصت معالجتني لبعض القضايا المرتبطة بالموضوع رغم ما كان يعاني من ألم المرض، وكذا الأستاذ حداد مصطفى رحمه الله على توجيهي لي لبعض المصادر والشخصيات التي كان له الفضل في التوسط لي لمقابلتها.

وأتوجه بالشكر لكل من قدم لنا يد العون ممن قبلوا مقابلتنا وأدلو لنا بمعلومات كانت إضافة هامة غطت جانبا كبيرا من بحثنا ماكان يتاح لنا لولا مزيتهم هذه، وأيضا لكل من فتحوا لنا قلوبهم وأبواب مكتباتهم خاصة أسر وعائلات الشخصيات المترجم لها،الذين منهم من أمدنا بوثائق ومخطوطات وتسجيلات هامة عوضتنا الوثائق الأرشيفية الرسمية .

كما لا يفوتني أن أشكر أساتذتي من لجنة المناقشة التي وقع إقتراح إختياري لهم لما أعتبرته شرفا لي في ورود أسماءهم على قائمة مناقشة عملي هذا، وكذا ما سوف تمثله ملاحظاتهم و مناقشاتهم من إضافة نوعية تسهم إلى حد بعيد في تحسين مستوى تناولي البحثي مستقبلا خاصة في موضوعات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وهم على التوالي:

الأستاذ الدكتور عويمر مولود الباحث المعروف في الوطن وخارجه لمايتمتع به من تكوين علمي ومعرفي خاصة في موضوع الإصلاح وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين والاستاذ الدكتور أحمد مريوش هو الآخر صاحب باع في البحث التاريخي وخاصة ماتعلق بنشاط قادة الجمعية والنضالات الوطنية في ميدان الحركة الطلابية والدكتور محمد لحسن زغيدي والدكتور حسان مغدوري والدكتور محمد جلال وهم المعروفون بدراساتهم المرتبطة أساسا بالنشاط الوطني للإتجاهات المختلفة للحركة الوطنية والثورة التحريرية.

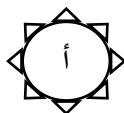
المقدمة

إن المتتبع للإنتاج الأكاديمي المهتم بتاريخ الحركة الوطنية الجزائرية خلال الحقبة الاستعمارية سيلاحظ وبشكل بارز قلة الأبحاث والدراسات التي تناولت المباحث الثقافية في مقابل كثرة تناولها للقضايا السياسية ورغم أن المسائل الثقافية تعد حقلًا خصبا في الدراسات التاريخية لما تمثله من أهمية بالغة كمدخل وجيه لتناول تطور المجتمع الجزائري خلال الفترة الاستعمارية، وهذا لما تطرحه من إشكاليات وتساؤلات مرتبطة بالتطور في الأفكار والذهنيات وأثر هذا في التحولات الاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية التي عرفتتها الجزائر. وقد كان التعليم إلى غاية الفترة الزمنية المدروسة، الفاعل الأساسي في إحداث تحولات جوهرية على الصعيد الثقافي والفكري حيث كان لهذه التحولات دور بارز في الحراك الاجتماعي والسياسي.

من هذه الأهمية التي اكتسبها "التعليم" من خلال دوره سابق الذكر، فإن الأطراف المتعارضة في جزائر الاستعمار ممثلة في "الإدارة الاستعمارية" و"المجتمع الأهلي المسلم" قد كان أحد أبرز ميدان للمواجهة بينهما، بكل آلياته ووسائله من "المعلم" ومؤسسات "المدرسة والمسجد والكتاب والزاوية" ووسائلها التعليمية وطرائق التعلم و"المنهاج" بمواده التدريسية التي تعكس مضمون المادة التعليمية وحمولتها الفكرية ومراميها المختلفة لما تهدف من تغيير في ذهن وسلوك الفرد المتعلم الناشئ ومنه المجتمع... وما إلى ذلك من وسائل أخرى حسب تطور كل طرف في هذا الجانب، وإن كانت هذه الإمكانيات غير متكافئة بين الطرفين بسبب التباين الكبير والهوة في تطور النظرية والعملية التعليمية وكذا ما تحتاجه من إمكانيات مادية، بين الطرف الاستعماري والطرف الأهلي المسلم.

وقد اشتدت حمى المواجهة في هذا الميدان بظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كمنظمة وطنية ساهمت في محاربة الاستعمار الفرنسي ثقافيا وحضاريا، بإعداد رجال من طلبتها التي وجهتهم لأداء رسالة التعليم والتربية من خلال مؤسساتها خاصة منها "المدرسة والمسجد" التي نشرتها في مختلف ربوع الوطن.

وتعد منطقة الشرق الجزائري أهم مناطق الوطن للحركة الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين لأسبقيتها في العمل التعليمي والتربوي فيها، زيادة على أنها المنطقة التي كانت تضم عاصمة الإصلاح قسنطينة التي بفضلها أشاعت وأنارت المناطق المجاورة لها، ولعل منطقة الأوراس إحدى هذه المناطق التي كان أبنائها متعطشين للتعليم العربي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لما وصلهم عنها من إخوانهم الذين أتاحت لهم فرصة الالتحاق بمدارسها بقسنطينة، وأيضا إيمان بعض أبنائها المزمكين من طرف علماء الجمعية بأهمية دورهم في نشر التعليم الإصلاحي في أوساط أفراد مجتمعهم، فأسسوا عدة شعب ونواد ومدارس ومساجد، باشرؤا من خلالها النهضة



مقدمة

التعليمية والإصلاحية التي تعدت إلى أدوار اجتماعية توعوية لإصلاح المجتمع والنهوض به، وذلك بالقضاء على بعض المظاهر السلبية واللامبالاة وتفعيل وإحياء المظاهر الإيجابية الموجودة به خاصة ما ارتبط بالحياة الثقافية، ومن هنا كان اختيار موضوع بحثنا الموسوم بـ " دور رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالشرق الجزائري في نشر وتطوير التعليم العربي الحر " 1931م_ 1956م " منطقة الأوراس أنموذجا .
حدود الدراسة :

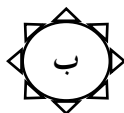
إنّ فترة بحثنا التي نتناولها بالدراسة تمتد من سنة 1931م إلى 1956م، وهي الفترة المحددة لميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 05 ماي 1931م والتي تعتبر الإطار التنظيمي للحركة الإصلاحية المعنية بدراستنا، ونهايتها سنة 1956م وهي تاريخ حل الجمعيات وأحزاب الحركة الوطنية وانضوائها تحت جبهة التحرير الوطني وقد كانت جمعية العلماء واحدة منهم، وإن بقي العمل الإصلاحي لجمعية العلماء في الميدان التعليمي والتربوي ساري المفعول على تراجعه وتضاؤله نسبيا حتى بداية الاستقلال 1962م.

هذه المرحلة التي عرفت فيها منطقة الأوراس تطورات على مستوى العمل التعليمي من بداية انتشاره المحتشمة عند بداية تأسيس أول شعبة إصلاحية بها إلى سيادته بشكل أصبحت لا تخلو قرية أوراسية من خدمة نشاطات جمعية العلماء المسلمين فيه، وفيها برز رجال خاضوا معترك النشاط التعليمي تحت غطاء جمعية العلماء مساهمين في نشره وتطويره برؤية حديثة وعصرية إلى حد ما، وهو ما استطاعت به جمعية العلماء التأثير والمساهمة في التغيير الثقافي والاجتماعي وامتد حتى إلى السياسي في المنطقة، ويظهر ذلك في استفادة أبنائها وساكنتها من التعليم والتوعية الثقافية والاجتماعية وقلب الكثير من المعطيات بها، كما استطاعت الجمعية من أن تصنع من أبنائهم روادا في العمل التعليمي حتى على المستوى الوطني.

إشكالية الدراسة:

أما الإشكالية التي حددتها لدراسة هذا الموضوع تمثلت في آلية الحراك التعليمي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي شهدته فعل التطوير والنشر من خلال دور رجالها بالشرق الجزائري ومنطقة الأوراس كحالة منها، وقد جاء سؤالها كالتالي :

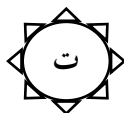
— فيما يتجلى الدور التعليمي الذي اضطلع به رجال جمعية العلماء المسلمين بالشرق الجزائري خلال الحقبة الاستعمارية الممتدة من 1931م إلى سنة 1956م وما أثر جهدهم هذا في منطقة الأوراس في نقل التعليم بها من حالة البؤس والإنحصار إلى حالة التطور والإزدهار و التوسع؟



مقدمة

وقد تفرع من هذا الإشكال الرئيس مجموعة من التساؤلات الأساسية ومن ذلك:

- 1- ماهي الظروف التي شكلت تهديد لجمعية العلماء ؟
- 2 - ماهي المنطلقات والخلفية الفكرية والدينية والسياسية والقومية للتعليم لدى جمعية العلماء ؟
- 3- ما هي أبرز جوانب التنظيم والتحديث الذي جرت على تعليم جمعية العلماء والتطورات التي عرفها في سبيل توطينه في المشهد الثقافي والاجتماعي للمجتمع الجزائري المسلم ؟
- 4_ ماهي الظروف الثقافية والاجتماعية للأوراسيين التي هيأتهم لاستقبال الفكر الإصلاحية لجمعية العلماء ؟
- 5_ ما هو سر الاحتضان الكبير والانتشار الواسع للنشاطات التعليمية في منطقة الأوراس، وهي المنطقة التي كانت أبعد ما يكون من حيث بناءها الثقافي والاجتماعي في استقبال مؤسسات جمعية العلماء وعلى رأسها مؤسسة التعليم ؟
- 6 - ما هو دور جمعية العلماء في نشر التعليم بالمنطقة، وإلى أي مدى حققت نجاحا في هذا الميدان؟
- 7- ما مكانة تعليم الجمعية من حيث تطوير الوعي والنهضة والمساهمة في استعادة وتعزيز مكونات الشخصية الوطنية في الأوراس ؟
- 8- ما هي جهود رجال جمعية العلماء في التعليم بالمنطقة ؟
- 9- كيف استطاع المشرفون والناشطون في التعليم لدى الجمعية رغم إمكاناتهم وعددهم المتواضع من تحقيق أهدافهم، والوقوف في وجه التحديات، وعراقل إدارة الاحتلال بإمكانياتها الضخمة ؟
- 10- ما هو أثر التعليم في الجمعية على تطور تعليم الجهات (التنظيمات) الأخرى ؟
- 11- ما الدور الفعال والحقيقي للعمل التعليمي لجمعية العلماء في إعادة بعث المجتمع الأوراسي ونهضته وبعث الروح الوطنية فيه، والدفع به في تيار التاريخ، وإخراجه من عزلته الجغرافية والزمنية والثقافية لتنهض وتقوم بأهم دور في استقلال الوطن؟
- 12- بماذا تميز التعليم لدى جمعية العلماء في الأوراس عن غيره في الجهات (المناطق) الأخرى من الوطن؟



مناهج البحث :

لما كان على الدارسين والباحثين في مجال الأبحاث والدراسات الأكاديمية خاصة في العلوم الإنسانية عامة وعلم التاريخ بوجه خاص الاستعانة بجملة من المناهج بهدف الوصول إلى حقائق علمية، وبطبيعة الحال فإن نوع الدراسة وطبيعتها تفرض منهجا معيناً أو عدة مناهج لتحقيق الغاية، انطلاقاً من هذا الموضوع قيد الدراسة فإنه قد فرض علينا الاستعانة بالمناهج التالية :

1- المنهج التاريخي: قد أعاننا في جمع المعلومات عن الأحداث والحقائق الماضية المرتبطة بموضوع بحثنا وفي فحصها ونقدها وتحليلها والتأكد من صحتها، وفي عرضها وترتيبها وتفسيرها واستخلاص التعميمات والنتائج العامة منها، والتي لا تقف فائدتها على فهم أحداث ووقائع الماضي فقط، بل تتعداها إلى المساعدة في تفسيرها، فهو بذلك عملية يحاول من خلالها العقل البشري استرجاع معطيات الماضي لتحقيق من مجرى وسير الأحداث، وذلك يتم من خلال بعض الحقائق والأحداث ومتابعتها تاريخياً مما أثبتته المؤرخون وأقرته المصادر التاريخية، وقد غطت حاجتي له كل مراحل الدراسة .

2- المنهج الوصفي: نهدف من خلال توظيف هذا المنهج في دراستنا للوصول إلى المعرفة الدقيقة والتفصيلية عن الموضوع انطلاقاً من وصف الأحداث وجمع المعلومات الدقيقة حوله وهو الآخر يكاد يغطي توظيفنا له جميع أطوار الدراسة.

3_ المنهج الإحصائي: قد فرض علينا موضوعنا خاصة في بعض جوانبه إلى استعمال أرقام وجداول قد تساعدنا في استنتاج قضايا تاريخية ومعرفية نخدم بحثنا .

4_ المنهج المقارن: يعد المنهج المقارن من أهم المناهج التي تساعد على توضيح الحقائق وتجلي القضايا والمواقف، قد أجد نفسي في مثل هذا الموضوع ملزماً به خاصة في مقارنة جهود رجال جمعية العلماء بالأوراس برجالها بالمناطق الأخرى لأقيم تقييماً علمياً، أو ليتضح إلى أي مدى وفق رجالها في مشروعها التعليمي .

5- المقابلات: تعتبر المقابلة من الأدوات الرسمية لجمع المعلومات والبيانات في دراسة الأفراد والجماعات الإنسانية، وقد يكون لدراستنا حاجة ماسة إليها لقلّة مصادرها المكتوبة وقربها زمانياً من بعض الشخصيات الحية التي يمكنها أن تمدنا ببعض المعلومات عنها وتسد لنا فراغات لا يمكن الوصول إليها من غيرها من المصادر مهما علت قيمتها.



- وصف البيبلوغرافيا:

تنوعت مصادر ومراجع بحثنا ولعل هذا يعود إلى اشتمال موضوعه لجوانب عديدة فرضتها الدراسة .

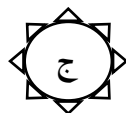
_ الوثائق والتقارير الأرشيفية :

كان اعتمادنا على الوثائق والتقارير الأرشيفية قليلا نسبيا، رغم جهدنا في البحث والوصول إلى هذا النوع من المادة المصدرية لما تمثله من أهمية وقيمة في البحث التاريخي، وهذا يعود لشحها في موضوعنا لأسباب تأتي الإشارة إليها في صعوبات البحث، رغم ذلك فقد اعتمدنا على وثائق أرشيف قسنطينة بالإطلاع على وثائق الإدارة المحلية لبلديات الأوراس، وقد تجديني في هذه الدراسة محتاجا للاعتماد عليها لقيمتها في منحي صورة مفصلة على الوضع الاقتصادي والوضعية المعيشية للسكان مزودة ببيانات إحصائية وهو ما سوف نعتده لإبراز الأوضاع التي اشتغل عليها المعلمون الإصلاحيون في الأوراس وأيضا قد تمكنني من تفسير العديد من النتائج والحقائق المرتبطة بهذا الجانب وما يليه فيما تعلق بالتعليم في الأوراس.

وكذلك ملف الشيخ محمد الغسيري وهو ملف مكون من مجموعة من الأوراق والكراسات التي دون فيها مذكرات دروسه وأفكاره، وقد استفدنا منها في إبراز جهده ومسيرته التعليمية، وفي بعض الأحيان حتى في تعزيز موقفنا في حدث أو رأي لاعتباره مثال جلي يعكس جهد الحركة لإصلاحية ونشاط التعليم فيها.

زيادة على اعتمادنا على وثائق الأرشيف الفرنسية والتي ساعدتنا في إبراز التحديات التي واجهتها نشاطات جمعية العلماء في الأوراس في ميدان التعليم والتضييق والملاحقة، وكذا في تسجيل أسماء المدارس ومناطقها ومعلميها.

وأیضا قد فرض علينا طبيعة ومحتوى بحثنا الاعتماد على صحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثار قادتها، وفي مقدمتها صحيفتي الشهاب والبصائر اللتان كانتا ذات حضور وافر خاصة في الفصول الأولى من الدراسة إضافة إلى أثار الشيخين ابن باديس والبشير الإبراهيمي ومذكرات محمد خير الدين وتوفيق المدني، وقد تم اعتماد مادة هذه المصادر كمصدر أولي وأساسي عوضنا إلى حد بعيد الوثائق الأرشيفية التي نقصت إلى حد كبير حول موضوعنا هذا خاصة ما تعلق بوثائق الأرشيفات الفرنسية .



مقدمة

زيادة على اعتمادنا على وثائق لبعض العائلات والأفراد التي نخدم موضوعنا، وقد كان الوصول إلى بعضها صعب استغرق منا جهدا ووقتا طويلا كان على حساب مدة إنجازنا هذا العمل في أجاله المقبولة، وهذا نظرا لثمنع وتحفظ أصحابها في وضعها في متناول الباحثين، والحمد لله لقد كان أخير مسعانا وجهدنا وإصرارنا مكمل بالتوفيق إلى حد بعيد، رغم أن هناك من الوثائق التي مازالت مدفونة في خزائن أصحابها قد تفيد في كتابة تاريخ المنطقة .

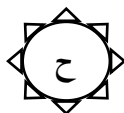
_ المقابلات والرواية الشفوية

تكتسي الرواية الشفوية والمقابلة أهمية بالغة في البحوث التي تناول موضوعات لفترة زمنية قريبة من الدراسة، ولاعتبار موضوعنا قريب زمانيا في أحداثه فقد كانت الرواية الشفوية والمقابلة إحدى مصادرنا فيه للاستفادة منها في إثراء مادة البحث والدراسة وهذا لما شملته من معلومات ومعطيات تعذر علينا في كثيرها الحصول عليها في الوثائق المختلفة، كما كان موضوعنا في كثير من أجزاءه في أمس الحاجة للجوء إلى المقابلات التي قد تكون مهمة وعديدة نستفيد منها في التحقيق في بعض الفراغات التاريخية التي قد لا نعثر عليها في المراجع والمصادر وكذلك في توضيح بعض الأحداث فضلا على أهميتها في تطعيم البحث، وقد نضطر إلى اعتماد مقابلات تعد مصادر ثانوية كشخصيات سمعت عن الشخصيات المعنية بموضوعنا فيقلل إلى حد ما في القيمة التاريخية والمصدرية لهذه الشهادات مما فرض علينا التعامل معها بحذر كبير رغم عدم قدرتنا الاستغناء عنها .

_ التأليفات والكتب

اعتمدنا على كتابات للباحثة فاني كولونا وأن لم تظهر بشكل كبير في مراجعنا غير أنني استفدنا منها الكثير واستطعنا من خلالها الاقتراب من بناء الماضي الثقافي والاجتماعي للأوراس خاصة بما يتعلق ببعض الممارسات والشخصيات التي أنقذتهم بمقالاتها من النسيان وهو ما حفزنا على النحو منحها محاولين محاكاتها منهجيا ومعرفيا مع الشخصيات اللاحقة زمانيا المرتبطة بموضوع بحثنا.

وبخصوص المراجع كان اعتمادنا على كتاب الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر (1925- 1940م) للأستاذ علي مراد الذي قد يفيدني في الخلفية الفكرية لموضوع دراستنا والجانب المنهجي وإنارة كثير من الزوايا في الموضوع الذي إتسم في دراسته بالشمولية .



مقدمة

وأطروحة عبد الحميد زوز الموسومة بـ "الأوراس إبان فترة الإستعمار الفرنسي (التطورات السياسية والاقتصادية والإجتماعية) 1837_1939، يعد هذا التأليف من الأهمية بمكان بالنسبة لمثل دراستنا للخلفية المعرفية التي يمنحها لنا في موضوعنا وهذا لاعتبار عدم تقاطعنا معها زمنيا .

وفعلا فقد استأنسنا بها في العديد من القضايا والمواقف التي احتاجتها دراستنا خاصة ماتعلق ببعض الحقائق عن المجتمع الاوراسي والتي تبيننا فيها تحليل وموقف أو رأي، وماعزز هذه القيمة فيها الثقة التي فرضتها لما تميزت به من جدية وتوثيق ارشيفي معتبر، زيادة على ماثلته من شمول لجميع جوانب الحياة ولفترة زمنية معتبرة، هذه الميزة للفترة الطويلة والتي غالبا ماتذهب بالدراسة للتناول الأفقي غير أن هذه الأطروحة لم تفقدها دراستها العمودية العميقة حيث يمكن وصفها بالعمل الموسوعي الذي خص منطقة ومجتمع الاوراس .

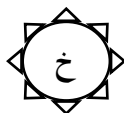
كما لايفوتنا التنويه والذكر لمؤلف محمد الطاهر فضلاء :المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر ،كل اجراءه الثلاث وإن كان اعتمادنا الاساسي على الجزء الاول لمايعنيه أكثر بمنطقة دراستنا .

اعتمادنا على مؤلفات رابح تركي عمامرة والتي تشابهت مادتها إلى حد بعيد ما جعل تركيزنا على مؤلفه "التعليم القومي والشخصية الجزائرية (1931_1956)" أكثر، وقد وفر لنا مادة خام للفصول الأولى ما جعل حضوره مهم فيها، زيادة على كتابات ابو القاسم سعد الله المختلفة والتي لا يمكن الاستغناء عنها في مثل موضوعنا هذا، وقد كانت حاضرة في أغلب فصول الدراسة وإن اقتصرنا في كثيرها على إشارات وومضات عززنا بها موقفنا أو تحليلنا أو سدينا بها ثغرة في الأحداث التاريخية للموضوع.

وبالمثل كان كتاب أحمد الخطيب "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر وغيره من التأليفات التي تناولت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

الدراسات السابقة :

ظهرت حتى هذه الفترة العديد من الدراسات العلمية والأكاديمية التي تناولت موضوع :دور الجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التعليمي على عمومهم، سواء تعلق الأمر بالجمعية من خلال دورها التربوي أو التطويري للمناهج والطرائق أو في نشر المدارس، أو بدراسات خصت جهود قادتها في هذا الموضوع، كالشيخ الرئيس عبد الحميد بن باديس أو الشيخ البشير الإبراهيمي أو الشيخ الطيب العقبي...أو دور الحركة الإصلاحية في جهة محددة من الوطن، ولكن لم يسبق لأي دراسة - فيما أعلم - أن تطرقت لموضوع: دور رجال جمعية العلماء



مقدمة

التعليمي من حيث جهد التطوير والنشر في منطقة الأوراس خلال الفترة (1931-1956م)، وبذلك فإن دراستنا تعد الدراسة الأولى في هذا الجانب من هذا الموضوع.

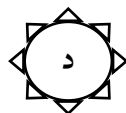
جدير بالذكر أن الدراسات قد كانت في بدايتها قليلة في هذا الموضوع، فلم تظهر إلا الدراسات التي تناولت الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين كموضوع متعدد الجوانب وكظاهرة وطنية وأن عرجت على دورها في التعليم فإنها لم تخصصه، بداية من دراسة الأستاذ علي مراد بالفرنسية ثم تتالت الدراسات من قبل الباحثين والمخابر الجامعية ومن بين الدراسات التي تناولت هذا الموضوع نأخذ بعض النماذج المختلفة مراعيًا مثال عن كل جانب درس فيها، وقد وقع اختيارنا على الدراسات التالية :

1 - دراسة الأستاذ علي مراد: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر (1925-1940م)، وهو بحث في التاريخ الديني والاجتماعي، ظهرت هذه الدراسة في الستينات باللغة الفرنسية وأعيد طباعتها العديد من المرات وقد تمت ترجمته إلى العربية من قبل الأستاذ محمد يحياتن عن دار الحكمة سنة 2007م، تناول الباحث في دراسته هذه ظروف ظهور الإصلاح الإسلامي في الجزائر الذي يؤرخ لبدايته بسنة 1925م ثم يتطرق إلى النشأة التنظيمية له في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، ثم تناول المرجعية الفكرية والفلسفية للحركة الإصلاحية في جميع الميادين التي اشتغلت عليها، وكيف عاجلت الإشكالات الأخلاقية والثقافية والاجتماعية في المجتمع الأهلي مبرزًا التحديات التي واجهتها وأيضًا مدى توفيقها في تحقيق أهدافها، كما استطاع تقييمها فأظهر ما لها وما عليها.

وعلى الرغم من عدم تخصيص الدراسة لجهود الجمعية في مجال التعليم إلا أنها تبقى من أهم الدراسات ذات القيمة العلمية لما اشتملت عليه من عمق وجدية في الطرح وشمولية المنهج .

كما تعد هذه الدراسة أهم الدراسات في هذا الموضوع، وهو ما تفرضه علينا قيمتها العلمية والتي نرى أنه لا يمكن لأي دراسة جادة تتناول موضوع الإصلاح في الجزائر إلا الاعتماد عليها والرجوع إليها، وقد تميزت بالعمق والشمول والمنهجية العالية والموضوعية العلمية، كما تميزت ترجمتها العربية بالأمانة والجدية في المحافظة على نقل الأفكار والمعلومات كما هي في الأصل إلى حد بعيد.

2_ دراسة رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الجزائرية (1931_1956) الصادرة عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، دراسة تربوية تاريخية تتكون هذه الدراسة من سبع فصول، تناول في بدايتها التأطير



مقدمة

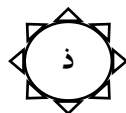
النظري للتعليم والمقومات الشخصية ودور المدرسة في بناء هذه المقومات. لينتقل لدراسة الوضع العام للمجتمع الجزائري خلال مرحلة الدراسة وفيها أبرز الباحث كيف أدت السياسات الاستعمارية إلى إضعاف المجتمع الجزائري ماديا ومعنويا وهو ما أثر على ثقافته وهويته ليكون لقمة سائغة لمشروع التجهيل والفرنسة الاحتلالي.

وبعد دراسة الوضع التعليمي لأبناء المجتمع الجزائري سواء التعليم الفرنسي أو التعليم العربي الحر الذي وصفهما بالضعيف والمحارب وبرداءة مخرجاته، فإنه انتقل لتتبع جهود جمعية العلماء التربوية والتعليمية بشكل موسع وفيها عرض مناهج هذا التعليم الذي كانت تسديه جمعية العلماء وإدارته وتمويله متتبعا للتطورات التي رافقت تنظيمه وتحديثه وكيف تعمم على كل القطر الجزائري ليصل لكل أبنائها خدمة لأهدافه الساعية لإحياء مقومات الهوية الوطنية .

وتجدر الإشارة إلى أنه عمل غزير المادة رجع صاحبها في أغلبها لمصادر جرائد جمعية العلماء وعلى رأسها الشهاب والبصائر، كما يحسب له تقدمها في الزمن فعدت مثال ومرجع للدراسات الموالية لها، غير أن هذه الدراسة تحسب عليها من جانب آخر غلبة العرض الوصفي والأفقي والتعميم على حساب التحليل .

3_ دراسة أحمد الخطيب تحت عنوان: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحية في الجزائر من خلال هذه الدراسة تناول الباحث الدور الذي لعبته جمعية العلماء في جميع ميادين الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية مركزا على إثرها الإصلاحية في المجتمع الجزائري معرفا بالدور الايجابي للحركة الإصلاحية الذي لعبته خلال فترة حرجة من تاريخ الجزائر كما تناول الباحث أيضا أهم الأعمال والمشاريع التي قامت بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها على المجتمع الجزائري سواء من الناحية السياسية أو الثقافية ليتوصل في الأخير إلى أن الإصلاح التربوي والديني الذي جاءت به جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كان له الأثر الكبير في الحفاظ على مقومات الشخصية العربية الجزائرية، وأن ظهور الجمعية عام 1931م كان بداية مرحلة جديدة من مراحل النضال الوطني في الجزائر .

4_ دراسة الأستاذ القرصو محمد بعنوان: الحركة الإصلاحية الجزائرية تأسيس ونشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة وهران (1931_1935م) ، دراسة تقدم بها الباحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ من جامعة وهران سنة 1977م، حاول الباحث في بحثه هذا أن يدرس القاعدة الاجتماعية للإصلاحيين في عمالة وهران والدور الذي لعبه أنصار الإصلاح في هذه العمالة لتوسيع قاعدتها كما تناول الظروف التي تأسس فيها الإصلاح ومدى تأثير هذه الظروف عليه، ثم تطرق بعد ذلك إلى القاعدة الاجتماعية لنشاط العلماء



مقدمة

في عمالة وهران وقد توصل الباحث إلى أن الانتشار الواسع الذي حققته الحركة الإصلاحية في غرب البلاد يعود بالفضل إلى تبني هذه الدعوة من قبل طبقتين؛ طبقة البرجوازية الصغيرة والبرجوازية المتوسطة في المنطقة، فهاتين الفئتين أو الطبقتين شكلتا العمود الفقري للحركة الإصلاحية في العمالة، كما توصل الباحث إلى أنه قد كان لهذه الحركة المساهمة البالغة في تنوير المواطنين وتوعيتهم وإشعارهم بالخطر والدور السلبي التي تقوم به الطرق الصوفية المنحرفة في المنطقة، زيادة على ما قامت به الحركة الإصلاحية من توفير لبعض الحقوق للأهالي التي كانت مغيبة من قبل الاستعمار كالتعليم والممارسات الدينية والأنشطة الثقافية المختلفة زيادة على مساهمتهم أيضا في إعطاء اللغة العربية الصبغة الوطنية والقومية في أذهان العامة في عمالة وهران .

وتعد هذه الدراسة من جانب آخر أول دراسة تتناول موضوع الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء بمنطقة محددة وفي إطار زمني محدد جدا، وهو ما يعد بادرة وسابقة حتى تلك الفترة في الدراسات الجزائرية إذ لم تعرف الأبحاث في الجامعة الجزائرية نوع الدراسات الدقيقة حتى مرحلة متأخرة، وهو ما يعكس تحقيق العمق والدقة في هذا العمل.

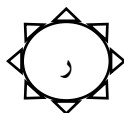
دوافع اختيار الموضوع:

ظلت الدراسات التاريخية التي تتناول و تتبع جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تركز في المقام الأول على دور الجمعية في الحواضر الكبرى كمدينة قسنطينة والجزائر العاصمة وتلمسان .

واعتقادا مني من أن جهود جمعية العلماء لم تقتصر على هذه الحواضر فحسب، بل وصلت إلى المناطق الريفية الصغيرة كمنطقة الأوراس، وجدت نفسي مشدودا إلى تتبع جهود العلماء في هذه المنطقة التي عرفت دورا بارزا ومعتبرا للعلماء بين ظهرائي الأوراسيين ومن هذه القناعات أردت أن أخوض في دراسة هذا الأمر.

والحقيقة أن موضوع التعليم لدى جمعية العلماء في الأوراس قد شديني منذ أن كنت طالبا في مرحلة التدرج ومطالعاتي فيما بعد، حيث وجدت أن الأوراسيين لم يحظوا بالقدر المطلوب في إبراز رجالاتهم الإصلاحيين ومعلميهم في مدارس العلماء وطلبتهم أيضا، وعليه أردت أن أساهم ولو بجهود متواضع قد يثري المكتبة الجزائرية والبحث الجامعي في هذا الميدان.

إلى جانب هذا توجد أسباب أخرى، تأتي في المقام الثاني هي بدورها حركت في الرغبة في تناول هذا الموضوع كالمصادر والدراسات الأكاديمية، فبالنسبة للمصادر فإن سجلات وصحافة العلماء غنية بالمادة الخيرية



مقدمة

التي تتحدث عن نشاط العلماء التعليمي في الأوراس، أما الدراسات الأكاديمية فأني أعجبت ببعض المقالات التي نشرتها الباحثة الفرنسية "فاني كولونا" التي حفزني في الأخذ باتجاهها في تناول شخصيات أوراسية مغمورة كانت لها مساهمات مهمة في المشهد الثقافي.

زيادة على شعوري بواجب الكتابة في هذا الفصل من التاريخ لهذه المنطقة مساهمة لإنقاذ هذه الحقائق من الضياع بالاعتماد على الروايات المحلية في هذا الشأن قبل استحالة تداركها بوفاة من يحملها، وبهذا أكون قد ساهمت في تسجيل شيء من تاريخ التعليم الإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ورجالاته بالمنطقة التي حفها التجاهل والنسيان إلى حد كبير .

أهداف الدراسة :

نهدف من وراء دراستنا إلى :

إمطة اللثام عن طور زمني في تاريخ منطقة الأوراس كان وضعية الانطلاق لما سوف تتولاه هذه المنطقة من دور ومهمة حاسمة في التاريخ الوطني " الثورة التحريرية"، وهذا من خلال الحفر في الحقائق التاريخية العميقة والتي نرى تجليتها في التاريخ الاجتماعي والثقافي للشعوب والمجتمعات، فكانت دراستنا جانبا من هذه المهمة .

إضافة إلى محاولة إنقاذ جانب مهم من تاريخ شخصيات أوراسية من النسيان كانت لها جهود وساهمت بقسط كبير في تاريخ المنطقة والوطن.

زيادة على محاولتي إظهار تاريخ الأوراس الثقافي في جانبه التعليمي للفترة المعاصرة وهو جانب مهم أهمل إلى حد ما من قبل الدارسين بسبب انحصار الدراسات والأبحاث التاريخية للمنطقة على تاريخ الثورة.

إضافة إلى إبراز دور وما مدى مساهمة تعليم جمعية العلماء المسلمين ومدرستها في التحولات التي عرفتتها الأوراس ودفعت بها إلى الثورة على المحتل.

فتح الباب للباحثين والدارسين من المؤرخين والطلبة ولفت نظرهم لدراسة تاريخ الأوراس بالتركيز على تناول القضايا والإشكاليات الثقافية والاجتماعية بداية للإنتقال للقضايا والإشكاليات السياسية والعسكرية وهذا لإعتقادنا أن ماهو سياسي وإقتصادي أو عسكري يأتي تاليا لإعتباره نتيجة ومخرج بعدي للثقافة والمجتمع، وبذلك



مقدمة

لا يمكن التأريخ للظواهر الاقتصادية والعسكرية والسياسية أو الوصول إلى معرفة وحقيقة تاريخية دون معرفة تاريخية اجتماعية وثقافية للمجتمع المدروس.

صعوبات العمل :

صادفتنا عند إنجازنا لهذا العمل عدة صعوبات، منها ما هو شائع في كل البحوث ومع كل الباحثين ومنها ما خص حالتنا مع هذه الدراسة، ولعل ما تعلق بالأخيرة تمثل في نقص الوثائق عن الشخصيات موضوع بحثي ولعل تأخر دراستنا مقارنة بحياة الفاعلين قد فوت علينا وعلى الحقيقة التاريخية شهادات من شخصيات عايشت أحداث ووقائع موضوعنا كانت قد تضيف الكثير لمادة الموضوع وتسهم في إجابات هامة لأسئلة إشكاليته.

كما أيضا اعترضتنا قلة المصادر والمراجع التي تناولت الجانب العملي والإجراءات التربوية والتعليمية لرجال التعليم في مدارس جمعية العلماء عموما ومن مارسها من الأوراسيين خصوصا، وإن تكلمت فإنها تقدم أوصافا عامة لا ترقى إلى العمق الذي نصل من خلاله إلى إبراز مساهمة الجمعية في نشر وتطوير العملية التعليمية والتربوية في تعليم الجمعية وهو ما يمثل في دراستنا أحد المحاور الأساسية لإشكاليته.

فقد يكون سهلا وفي المتناول الكتابة عن مواقف هؤلاء وأرائهم في التعليم، ولكن من الصعب الكتابة عن مساهماتهم؛ أداء، وتتبع ذلك من خلال فعلهم التعليمي ولعل هذا يعود لقلة ما نجده من أثر لهذه الممارسات سواء من قبلهم من خلال الكتابة عن تجربتهم أو من طرف ممن عرفوهم ووقفوا على تجاربهم كزملائهم أو ممن كانوا تلاميذ لديهم، وهو ما يعرض تجربتهم للضياع والتلاشي، فتصعب على من يؤرخ لها كحالتنا هذه، الكتابة عنها، وهو ما اعترضنا وكان تحديا كبيرا في إنجاز عملنا هذا الذي كان من صميمه تتبع تجارب ممارساتهم التعليمية التي ساهمت في تطوير ونشر التعليم العربي الحر.

فضلا عن قلة الوثائق الأرشيفية التي تخص موضوعنا بكل مؤسسات الأرشيف الوطنية والفرنسية وإن وجدت فإنها لا تزودنا إلا بمعلومات تخص أسماء المعلمين وأماكن المدارس أو تقارير عن هذه الشخصيات عولجت من الواجهة الأمنية وهو ما يتعد عن موضوعنا المرتبط أساسا بجهودهم التعليمية وما ساهموا فيه من خلال ذلك في تطوير ونشر للتعليم .



خطة العمل :

قسمنا عملنا هذا إلى مقدمة وبابان تضمننا أجمالاً سبعة فصول ومجموعة من المباحث بدورهم قسموا إلى مطالب وهذا حسب ما تمليه علينا الدراسة وأخيراً انتهينا إلى الخاتمة .

المقدمة عرضنا فيها التعريف بالموضوع وبين أهميته فأشكالية الدراسة وأسئلتها مروراً بمبررات البحث في هذه الدراسة والصعوبات التي واجهتنا فيها، كما وقفنا على المناهج التي اعتمدناها في البحث إضافة إلى الدراسات السابقة ووصف البيبلوغرافيا التي شكلت أهم المصادر والمراجع التي عدنا إليها ووجهت دراستنا إلى حد كبير وعرجنا على الخطة المعتمد في عملنا هذا و كذا الوقوف على أهم المصطلحات والمفاهيم الدراسة وأخيراً ما سوف تكون عليه الخاتمة.

قسمنا الدراسة إلى **بابان**، **الباب الأول** حمل عنوان : ج ع م ج (النشأة والمشروع) ، وبدوره قسناه لأربعة فصول، وفيه قدمنا فكرة ومشروع ج ع م ج مركزين الدراسة على الجانب التعليمي لعلاقته الرئيسية بموضوعنا، وجدير التنبيه أن هذا الباب عوضنا وأكفانا التطرق لإقليم الشرق وهذا تجنبنا للتكرار لاعتبار أن ج ع م ج كانت بدايتها ومركز نشاطها إقليم الشرق فما صدق عنها في الوطن كان في الشرق.

تناولنا في **الفصل الأول** الذي أخذ عنوان " الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين " ، جاء تحته أربعة مباحث رئيسية كان المبحث الأول قد تناول الحالة الساسية، والثاني قد تطرقنا فيه إلى الحالة الإقتصادية التي اظهرنا التحولات في القوانين الإقتصادية جراء السياسة الاستعمارية الجديدة التي فلبت التوازن الذي كان يحققه المجتمع مع بيئته واتبعه من نتائج والمبحث الثالث الحالة الإجتماعية، وهي الأخرى تناولنا فيها التحولات الاحتماعية التي كانت انعكاس للسياسات الاقتصادية والقوانين السياسية وحتى الثقافية أما المبحث الرابع تعرضنا فيه للحالة الثقافية وقد بينا واقع التعليم والثقافة والسياسة الثقافية الفرنسية

وعموماً بينا التحولات والظروف التي ظهرت فيها ج ع م ج في ظل الاستعمار من خلالها تعرفنا على السياق التاريخي الذي ظهرت فيه الجمعية وبنيت عليه مشروعها ونشاطاتها.

الفصل الثاني الذي أخذ عنوان المشروع الإصلاحي في الجزائر "الجزور والتوطين"، تناولنا في مبحثه الأول جذور الفكرة الإصلاحية في الجزائر وتطورها حتى ظهورها في إطار تنظيمي وقانوني تحت اسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ثم تطرقنا في المبحث الثاني إلى جهود الشيخ ابن باديس كرجل الإصلاح الذي كان له



مقدمة

الفضل في هذا التأسيس ووقفنا على مسيرته الإصلاحية من نشأته إلى اعتناقه الفكرة الإصلاحية إلى جهده في توطينه مبرزين خطته وموهبته في ذلك، ثم كان لنا في المبحث الثالث "نشأة جمعية العلماء" وفيه تناولنا فكرة الجمعيات في الوسط الأهلي فترة الاستعمار مبرزين التطورات التي عرفتها مؤسسة الجمعية كآلية حديثة جاءت مع الاستعمار كوسيلة غزو، حتى تبني المجتمع الأهلي المسلم لها وتطويعها كوسيلة مقاومة، وكيف اعتمدها الفريق الإصلاحي كمؤسسة وتنظيم لمشروعه، وبعد هذا تطرقنا إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتتبنا الخطوات والجهود المضنية التي مر بها الشيخ ابن باديس وفريقه لتأسيس جمعيتهم وكيف تطورت فكرة التأسيس نظريا وعمليا حتى ظهورها في الواقع عام 1931م، لنتقل بعدها لميلادها وتحدثنا على حيثيات هذه الولادة لنتبعها بعرض للمبادئ والأهداف التي سطرها في مشروعها هذا لتحقيق نخضة المجتمع الجزائري المسلم.

والفصل الثالث حمل عنوان الفكر والمشروع التعليمي عند م ج م ح وجاء تحته مبحثين، الأول تناولنا فيه الرؤية التعليمية لجمعية العلماء وقصدنا من خلاله إظهار المحددات التي وجهت التعليم لدى ج ع م ج لإحداث التغيير المقصود في المجتمع الجزائري وجوانب التحديث التي تبنتها ج ع م ج في التعليم وهي الجوانب التي خرجت بها في تعليمها من تعليم تقليدي إلى تعليم عصري وحديث قادر على حمل طموحات مشروعها في التغيير، والمبحث الثاني وقفنا فيه على التجارب الأساسية لقادة ج ع م ج في التعليم وهي التجارب التي أسست لتعليم الجمعية في كل مدارسها عبر كل القطر الجزائري معرفيا وطريقنا ومقاصد، فكانت بذلك المثال العملي والفكري للمعلم العربي عند ج ع م ج.

والفصل الرابع: تناولنا في المبحث الأول نظام التعليم وفيه تطرقنا إلى المقررات التي اعتمدها الجمعية في تعليمها خلال كل مراحلها، والمبحث الثاني تناولنا تنظيم الجمعية للتعليم من خلال الوقوف على رزمة العطل وكيفية توظيف معلمها والامتحانات والشهادات والتفتيش والتمويل والمبحث الثالث تناولنا فيه واقع مؤسسات التعليم من التعليم المسجدي إلى المدرسي وحتى روافده كالنوادي والكشافة، وقد تتبنا التطورات التي حصلت في تعليم الجمعية خاصة التعليم المدرسي .

أما **الباب الثاني** فعنوانه ب: تعليم ج ع م ج في الأوراس: الواقع والأثر قسمناه إلى ثلاثة فصول خصت النموذج المدرس وبذلك حضر فيها الجزء المهم للإشكالية كما كان الحضور الكبير لأسئلتها.

فصله الأول أخذ عنوان تطورات الأوضاع في الأوراس عشية حضور ج ع م ج في المنطقة، تناولنا في مبحثه الأول الحالة العامة الأوراس عشية ظهور جمعية العلماء وتتبع هذه الحالة التي أعطتنا صورة لما كانت عليه



مقدمة

الأوراس في جميع ميادين الحياة، وهي الأحوال التي انطلقت منها واشتغلت عليها شعب ورجال جمعية العلماء. وفي المبحث الثاني تناولنا فيه بوادر انتشار فكر ومؤسسات العلماء في الأوراس وهي الأفكار التي أسس لها شخصيات إصلاحية محلية سبقت الفكرة الإصلاحية الوطنية وقد ساهمت بقدر معتبر جهودهم في تهيئة العقول وحتى المؤسسات الثقافية وعلى رأسها التعليمية للتحويل القادم مع وفود الفكرة الإصلاحية لجمعية العلماء، ثم كيف تطورت الأوضاع لظهور الطلبة المستفيدين من الفكرة الإصلاحية بمباشرتها بالجامع الأخضر وكيف ساهموا في نقل هذا الفكر وتأسيس شعب جمعية العلماء م ج .

الفصل الثاني أخذ عنوان جهود رجال التعليم في منطقة الأوراس، وقد كان تركيزنا على هذا الفصل كبير لعلاقته المركزية مع سؤال الإشكالية وقد قسمناها إلى مبحثين، المبحث الأول خصصناها لرجال التعليم في مؤسسة المسجد وبيننا مساهمتهم الكبيرة في إشعاع مناطقهم الريفية، والمبحث الثاني تناولنا فيه جهود معلمي المدارس والذين كثروا لسيادة التعليم المدرسي في تعليم جمعية ع م ج، وقد كانت قائمتهم كبيرة فخصصنا لبعضهم ترجمة مفصلة والبعض الآخر تم ذكره بإختصار وقد أكفانا مذكرنا في مابقي من العدد الكبير الذي لم يأتي ذكر له في الدراسة.

الفصل الثالث جاء تحت عنوان مدرسة العلماء والمجتمع الأوراسي؛ حدود الأثر والتفاعل، وقسمناه لثلاثة مباحث واقع التعليم المدرسي لـ ج م ع ج بالأوراس وفيه وقفنا على المدرسة الإصلاحية بالأوراس تطوراتها وإنجازاتها ومصاعبها، وكان مدرسة النشء الجديد نموذجاً في دراستنا، أما المبحث الثاني فقد تطرقنا فيه للمدرسة الإصلاحية في الأوراس بين الأثر الثقافي والاجتماعي وبيننا أثرها الاجتماعي والثقافي والتحويلات التي أحدثتها في المجتمع أما المبحث الثالث تناولنا فيه دور تعليم ج م ع ج في تطوير التعليم المنظمات الأخر كالزوايا والاتجاه الاستقلالي وتعليم الثورة فيما بعد وحتى أثره في تعليم الشخصيات الحرة.

وفي الخاتمة: تناولنا فيها الاستخلاصات والنتائج التي توصلنا إليها في دراستنا محاولين الإجابة عن إشكالية البحث وأسئلتها التي طرحناها لدراسة.



المصطلحات والمفاهيم:

تعد عملية شرح وتحديد المصطلحات والمفاهيم من أهم الخطوات الأساسية في البحث العلمي، كما لها دور كبير في تحديد مسار البحث، وذلك بتناول المصطلحات ذات الصلة المباشر بموضوع الدراسة أو بعض جوانبه، أما فيما يتعلق بالمصطلحات والمفاهيم الأساسية التي اعتمدها في هذا البحث فكانت كالتالي :

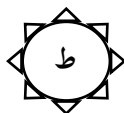
المجتمع الجزائري المسلم : فرض علينا الإطار الزمني للدراسة والذي يتحدد بالفترة الاستعمارية إلى وروده بمفردات وتسميات عديدة كالمجتمع الأهلي أو المجتمع المحلي، وهو تعبير عن الفئة الجزائرية المسلمة، وهذا لاعتبار أن مصطلح جزائري في الفترة الاستعمارية يأخذ مدلولها كل القاطنين في المستعمرة الجزائر من الكولون الأوروبيين إلى اليهود إلى السكان الجزائريين الأصليين، وتمييزا وتدقيقا ارتأينا تجنب استعمال المجتمع الجزائري لأن العديد من الدراسات خاصة الأجنبية تقصده كل ساكنة الجزائر بكل طوائفها.

الإصلاح: يعرفه الدكتور محمد البهي فيقول: يعني الإصلاح الديني في مجال الإسلام :محاولة رد الاعتبار للقيم الدينية ورفع ما أثير حولها من شبه وشكوك قصد التخفيف من وزنها في نفوس المسلمين ونعني به كذلك محاولة السير بالمبادئ الإسلامية من نقطة الركود التي وقفت عندها حياة المسلمين إلى حياة المسلم المعاصر حتى لا يقف مسلم اليوم موقف المتردد بين أمسه وحاضره عندما يصبح في غدة .

أما نحن فنعرفه بشكل أوضح وأبسط وحسب دراستنا على أنه : كل دعوة إلى أعمال العقل وتمجيده والنظر في إصلاح الأحوال الدينية والاجتماعية لمجتمعها مع ما يتماشى والعصر ويوافق الدين .

التعليم العربي الحر: هو التعليم الذي كانت تنظمه الجهات الأهلية ويؤطر تعليمه الطلبة والمعلمين والمشائخ العرب ويقام في العقارات التقليدية كالمساجد والكتاتيب والمدارس والزوايا و يتضمن محتواه تعليم اللغة العربية والعلوم الدينية أساسا تسهر على تسييره وتمويله تبرعات أهل الخير ومصادر الأوقاف ولا تتبناه الجهات الاستعمارية الرسمية ولا تشرف عليه إدارتها وهي بذلك لا تتولى تمويله ولا تسييره بل تحاربه وتعمل على التضيق عليه .

المدرسة الإصلاحية : ونقصد بها حسب السياق التعبيري في دراستنا ؛ تلك المدارس العربية الحرة التي كان يجري التعليم فيها باللغة العربية وأسسها رجال الإصلاح بداية ثم أشرفت عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال إدارة شعبها المحلية تسييرا وتنظيما وكانت تشتغل برويتها التعليمية وتعتمد برامجها ومناهجها .



مقدمة

وهو ما نؤكد عليه تجنبنا للالتباس الذي قد يحصل مع فكرة المدرسة الإصلاحية التي تعني المشروع والنظرية والمنهجية والرؤية الفكرية لإسلام التجديد، مثل ما يتداول في كثير من الدراسات الفكرية .

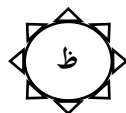
ناشط الإصلاح: ونقصد به تلك الشخصيات والأفراد التي تبنت الأفكار الإصلاحية وعملت على نشرها من خلال النشاط والنضال في مؤسسات " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين " للتمكين لها .

أنصار الإصلاح : هي تلك الشخصيات والأفراد التي كانت متعاطفة مع الفكرة الإصلاحية ومتعاونة مع نشاطاتها وقد كان أغلبها من البرجوازية الاقتصادية أو الثقافية أو حتى الاجتماعية الأهلية حيث ساهمت في تقديم خدمات ومعونات مختلفة للنشاط الإصلاحي من خلال مكانتها ونفوذها كالمساهمات المادية في بناء عقاراتها أو تأسيس جمعياتها و مؤسساتها أو حتى مؤازرتها إداريا في أوقات المضايقات الإدارية، فكانت سندها الاجتماعي الذي من خلاله نفذت للمجتمع المحلي خاصة في بداية التعريف بنفسها.

الوعي الوطني (القومي): هو وعي جماعي يمس الحياة الاجتماعية والعملية، يتقاسمه أفراد الجيل الواحد، بالإيمان به وتبني نفس المواقف، والمقصود بالوعي القومي الجزائري هو ذلك الوعي الذي عرفه المجتمع الجزائري المسلم بخصوص حقوقه وواجباته وأوضاعه، وكذا الوعي بعناصر شخصيته ومكونات هويته والمخاطر المحدقة بها وسبل بعثها وحمايتها .

الهوية الوطنية: وترد أيضا بمصطلح الشخصية الوطنية أو الجزائرية ونقصد بها المكونات الأساسية للشخصية الجزائرية التي تعرفها و تجعلها تختلف وتميز عن الأخر وخاصة؛ ضد الاستعماري، وتتكون من العناصر التالية: اللغة العربية والدين الإسلامي والتاريخ الوطني والعادات والتقاليد والثقافة العربية الإسلامية بكل أبعادها.

ولا يفوتني في الأخير غير التوجه لأستاذي الفاضل الدكتور جمال يحياوي الذي ما انفك يقوم عملي هذا ويمدني بملاحظاته التي تبين لي الخيط الأبيض من الأسود لأقف على ما هو أنصع وأجلى ، كما أتقدم بكامل الشكر وموفور الامتنان إلى اللجنة المناقشة على ما سوف تتجشمه من عناء القراءة وتسجيل الملاحظات وكذلك ما يقدمونه من توجيهات بناءة تخدم تكويننا العلمي .



الباب الأول

الباب الأول: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (النشأة والمشروع).

تفرض علينا دراسة نشأة ومشروع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التعرض إلى الحياة العامة بالجزائر للوقوف على الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي مهدت لنشأتها أو التي نشأت فيها، وهي الظروف التي ارتبطت بفكرة مشروعها أين سوف تشتغل الجمعية على هذه الظروف مقاومة وتصحيحا وتنمية، وللتعرف على مشروعها كذلك تحتم علينا الدراسة التطرق إلى فكرة الجمعية وأصولها الإصلاحية، وتأسيسها والمبادئ والأهداف التي اعتمدها في العمل على تحقيقها.

وقد خصصنا الدراسة للمشروع التعليمي الأهمية القصوى لما يفرضه عنوان عملنا وأسئلة إشكاليته فتناولنا الفكر التعليمي عند جمعية العلماء ومضموناته الوطنية والدينية التي كانت تمثل الفكرة المحورية فيه وتوجه مرامييه وأهدافه وترسم خلال كل التطورات التي عرفها سياساته، كما تتبعنا التجارب التعليمية لقادة الجمعية باعتبارهم مؤسسوه وموجدوه في المشهد الثقافي والاجتماعي الأهلي، إضافة إلى ما عنته هذه التجارب كأمثلة ومعالم لهذا النوع من التعليم الذي سوف ينخرط فيه باقي رجال جمعية العلماء في مختلف المناطق من حيث الطريقة والفكرة والمعارف والذي سوف يصبح التعليم السائد في الوسط الأهلي.

فضلا عن متابعتنا لما أقرته ج ع م ج في تعليمها من تنظيم وتحديد وذلك باستحداث مقررات وبرامج وتنظيم سير الدراسة من خلال اتخاذ تدابير العطل والتفويض الخ وهي جوانب تحديث جعلت من تعليمها يسد فراغا بين تعليم استعماري غريب عن الحاجات الثقافية والاجتماعية للمجتمع المسلم من حيث قيمه ومبادئه وتعليم تقليدي غريب عن زمانه وراهنه.

لقد كان هذا الباب بمثابة الإطار العام للدراسة أو مايمثله في الدراسات الاجتماعية إلى حد بعيد الدراسة أو الإطار النظري، وهو ما سوف يساعدنا على إسقاط تمثلاته وجوانبه على الباب الثاني الذي يمثل لنا دراسة الحالة، زيادة أنه يسمح لنا بدراسة خصوصية التعليم لدى ج ع م ج في الاوراس .

الفصل الأول

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

عرفت الجزائر مع الاستعمار الفرنسي لها، تحولات عميقة وجوهرية هزت كيان مجتمعا أهلي المسلم، ذلك لما اتخذته الإدارة الفرنسية من سياسات وقوانين مست جميع ميادين الحياة فيها، كما كان للوسائل الوافدة معه تأثيرها البالغ بحجم تلك السياسات والقوانين، وما إن تعدت العقد الأول للاستعمار حتى بدا التغير والتحول ظاهرا على حياة المجتمع الجزائري الذي أخذ فيه منحى الضعف والتهميش، رغم كل هذا أبدى هذا المجتمع حراكا أخذ بعد المقاومة تارة والتكيف والتعايش تارة ثانية والخضوع تارة أخرى، وقد سيطر المنطلق الحضاري والثقافي وكان المحدد الأساسي للمجتمع الأهلي في حراكه هذا، لأثر المقاربة الحضارية في توجيه العلاقة بين المجتمع الجزائري المسلم وفرنسا الاستعمارية.

لقد كان البعد الثقافي محركا أساسيا لكفاح الجزائريين، فالمقومات الشعبية ذات الطابع الحربي العسكري انبثقت من عمق الزوايا متأثرة بقيم الدين الحنيف الداعي إلى الجهاد، كما أن النضال السياسي للنخب المثقفة خلال الثلاثينات والأربعينات انطلق من رؤية ثقافية تبحث عن حلول لترقية المجتمع الجزائري في ظل الظرف الاستعماري مما ساهم في تعدد التوجهات تبعا للمشارب والتكوينات التعليمية والثقافية لأصحابها، وقد كانت أحد أهم هذه النضالات نضال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المسلمين والتي أخذت في نضالها للاستعمار وسياساته الوجهة الثقافية والحضارية البحتة.

المبحث الأول: الحياة السياسية.

عرفت الحياة السياسية في جزائر الاستعمار تطورات كبيرة، جراء السياسات المتبعة من قبل إدارة الاستعمار، ولقد كان توجهها في الغالب ضد المصلحة الأهلية ما كانت انعكاساتها سلبية إلى حد كبير على الأهالي، رغم كل المقاومات التي أظهرها المجتمع الجزائري المسلم للحفاظ على ما تيسر له من مصالح، غير أن التطورات لم تكن دائما لصالح الاستعمار رغم توليه زمام إرادتها، فقد ظهرت تطورات لصالح المجتمع الأهلي المقهور كتلك التي فرضتها الظروف على الاستعمار ومنها دخول الجزائريين النشاط السياسي وتكوينه لحركته الوطنية.

أولا: السياسة الاستعمارية الأهلية (1900 إلى 1930م).

كان تفكير الساسة الفرنسيين بعد إخماد المقاومة المسلحة الجزائرية أواخر القرن 19م متجها نحو تشكيل إمبراطورية استعمارية على أراضي الشمال الإفريقي، تشمل أطرافها الجزائر ولتحقيق هذه الغاية كان لزاما عليهم أن يتخذوا مجموعة من الإجراءات الواسعة، أو فرض سياسة معينة تضمن لهم السيطرة الكاملة على أركان الدولة الجزائرية: "الإقليم، الشعب، السيادة"، وتسخيرها لخدمة أطماعهم التوسيعية، وقد كان أهم قصد منها استبعاد الجزائريين من المشاركة في الحكم¹ وقد تمثلت تلك السياسات الاستعمارية في هذا المجال فيما يلي:

¹ - يوسف حميطوش: منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني، دار الأمة، الجزائر، ط2013، ص13.

1- سياسة الإدماج والتجنيس:

عمدت السلطات الفرنسية في سبيل القضاء على مقومات الهوية العربية الإسلامية في الجزائر إلى سن ترسانة من القوانين لتحقيق تلك الغاية، فبعد صدور دستور 4 نوفمبر 1848م الذي ألحق الجزائر إلحاقاً تاماً بفرنسا، صدر قرار دائرة الاستئناف بالجزائر في 24 فيفري 1862م والذي كان نتيجة مباشرة لذلك الدستور، فحسب هذا القرار فإن المسلم الجزائري فرنسي، لكن لا يمكن اعتباره وطنياً فرنسياً، لأنه يحافظ على قانونه الخاص لأحواله الشخصية، فهو بذلك رعية فرنسية لا يرقى لدرجة المواطنة، ويؤكد ذلك في قانون السيناتوس كونسيلت الشهير في 14 جويلية 1865م¹ والذي يعبر بذلك على التناقض الصارخ بين الذهنية الفرنسية والقانون الفرنسي²، أين ينص على أن الأنديجان المسلم يعتبر فرنسياً غير أنه يبقى خاضعاً لحكم الشريعة الإسلامية، كما أنه يميز بين "الأنديجان المسلم" الذي يعتبر رعية فرنسية حتى وإن لم يقدم طلب الجنسية، وفي هذه الحالة يبقى محافظاً على وضعه الشخصي والأصلي³، دون التمتع بالحريات والحقوق المدنية والسياسية التي كانت تضمنها مختلف الدساتير الفرنسية للمواطن الفرنسي⁴ وبين الأهلي الذي يختار صراحة الجنسية الفرنسية ويتخلى عن وضعه المسلم المنافي لقوانين فرنسا المدنية، فيمكنه عندئذ التمتع بنفس الحقوق التي تمنح للمواطن الفرنسي⁵.

ورغم صدور قانون 14 فيفري 1919م الذي يحتوي على بعض الإصلاحات النظرية فإنه لم يدخل على قانون 1865 م أدنى تحسين في هذا الجانب، وهكذا بقي الجزائري مجرد رعية من رعايا الدولة الفرنسية، وليس مواطناً له كافة الحقوق بل أنه عرق غير قابل للتربية حسب الذهنية الاستعمارية⁶.

ومع ذلك فقد اشتدت دعوة بعض الناشطين الوطنيين المثقفين من الجزائريين إلى التجنيس بالجنسية الفرنسية والتخلي عن أحكام الشريعة الإسلامية بعد مرور قرن على احتلال فرنسا للجزائر، حيث أصبح للتجنيس دعاء متحمسون من المجتمع الأهلي الذي سبق أن تجنسوا بالجنسية الفرنسية وازدادوا أن يكثر عددهم، هذا وقد بقي قانون 14 جويلية 1865م ساري المفعول إلى غاية سنة 1947م.

¹ - أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص488.

² - تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال، الجزائر، ط5، 2001، ص286.

³ - جمال خرشى: الاستعمار وسياسة الاستيعاب في الجزائر 1830-1962 ترجمة عبد السلام عزيزي، دار القصة، الجزائر، ط2009، ص241.

⁴ - محفوظ قداش: تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية 1919-1939 ترجمة: محمد بن البار، ج1، دار الأمة، الجزائر، 2008، ص34.

⁵ - جمال خرشى: المرجع السابق، ص241.

⁶ - محمد الهادي حسني: من وحي البصائر، دار الأمة، الجزائر، 2004، ص112.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

وللاشارة فإن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحزب الشعب قد عملوا وبشكل بارز على إلغاءه لما تضمنه من مساس بالوطنية ومقومات الشخصية الجزائرية وهو ما يناضلان من أجله ضد الاستعمار¹، وشكل عبر كل مسيرتهم مبدأ التعارض مع اتجاهات الحركة الوطنية الأخرى في صراعها مع إدارة الاحتلال.

2- قانون الأهالي.

لقد كانت سياسة الدمج التي جاءت بها فرنسا تعني من الناحية النظرية المساواة بين الجزائريين والفرنسيين سواء في الواجبات أو في الحقوق المكتسبة، لكن من الجانب التطبيقي فإن المسألة كانت خلافا لذلك، لأن سياسة الإخضاع هي التي طبقت عليهم (على الأهالي)²، ومن هنا جاء قانون الأهالي التعسفي في 28 جوان 1881م يكرس نظاما قانونيا حقيقيا خاصا بالأهالي الذي يعتبرهم طبقة سفلى من "الرعايا"³، فهو يعد أقصى إجراء في الوقائع الاستعمارية أن تسنه للضغط على رعاياها بهدف إذلالهم ونزع كل إرادة لهم، غير أنه من الجانب الإنساني يمكن اعتباره قانونا يحاكي القوانين القروسطية المتوحشة واستمرارا لمحاكم التفتيش، ولهذا السبب استذكره الفرنسيون لأنفسهم، باعتباره غير قانوني وغير إنساني⁴ حيث يعلن عن 41 مخالفة خاصة بهذا النظام ذات مفهوم واسع، وهذا يعد بمثابة التوقيع على بياض، يمنح ويزود السلطات الكولونيالية⁵ بشرعية قانونية لقمع كل السكان والإنسان الجزائري الأهلي بكل حرية وبلا حدود.

وقد سخرت لذلك كل الآليات والمؤسسات لإنجاز مهمة هذه القوانين التعسفية على أكمل وجه فطبق مبدأ عدم الفصل بين السلطات والذي تتحول بمقتضاه السلطة الإدارية إلى قضائية⁶ والعكس صحيح فإن محاكمة الجزائريين عند ارتكاب مخالفات المذكورة في قانون الأهالي فإنها من اختصاص المتصرف المدني في البلديات المختلطة وتكون من اختصاص قاضي الحكم في البلديات الأخرى.⁷

ورغم عدم شرعية قانون الأهالي وتحديد أجل انقضاءه لمدة سبع سنوات، غير أنه كان يتم تجديده كلما انتهى أمده⁸، حتى بقي ساري المفعول إلى سنة 1944م والذي تم إلغائه بموجب "الأمر الصادر في 7 مارس 1944م".

¹ تركي رابح: المرجع السابق، ص 96.

² شارل روبيير أجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة: عيسى عصفور، منشورات عويدات، باريس، ط 1، 1982، ص 104.

³ بوعلام بن حمودة: الثورة الجزائرية أول نوفمبر 1954: معالمها الأساسية، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2012، ص 71.

⁴ سعد الله أبو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 4، 1992، ص 84.

⁵ جمال خريشي: المرجع السابق، ص 241.

⁶ تركي رابح: المرجع السابق، ص 73.

⁷ بوعلام بن حمودة: المرجع السابق، ص 71.

⁸ أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 407.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

وبالمجمل فقد حولت هذه القوانين المجتمع الأهلي الجزائري إلى وضعية مساجين في أرضهم حيث لا يسعهم فعل شيء إلا بأمرية وتعليمية ورخص ولا تكاد هذه تمنح لهم، مما ضاق عليهم وطنهم بما رحب من مساحة، ولم تتوقف السلطات الاستعمارية عند هذه القوانين التي كانت لوحدها تقتل كل ما في الإنسان والمجتمع فراحت تسن قوانين أخرى تسخره لمصلحتها ولعل قانون التجنيد الإجمالي كان مثالا حيا على ذلك.

3- سياسة التجنيد الإجمالي:

تضاف إلى السياسات الاستعمارية السابقة عوامل فرضها الاستعمار الفرنسي على الشعب الجزائري وكانت شديدة الحساسية والانعكاس عليه، كسياسة التجنيد الإجمالي وذلك سنة 1912 أسوة بالأوروبيين بصفتهم رعايا فرنسيين جاء هذا القانون الذي خص شباب المجتمع الجزائري المسلم بعد أن لاحظت الحكومة الفرنسية نذر الحرب العالمية الأولى تلوح في الأفق.

شمل قانون التجنيد الإجمالي كل فرد بلغ ما بين 18 عاما إلى خمسين عاما، وبذلك كانت حصيلة المجندين من أبناء الأهالي الذين اقتيدوا إلى ميادين القتال في أوروبا نحو 250 ألف جزائري، توفي منهم 80 ألف في جبهات القتال¹، وعلاوة على ذلك فقد ذهب من مسلمي الجزائر وحسب الإحصاءات الموجودة إلى غاية 01 أوت 1914 نحو 87519 عامل² كيد عاملة في الشركات الفرنسية لتغطية النقص الذي شهده القطاع الاقتصادي.

هذا وقد كانت سياسة التجنيد هذه سببا في استياء شديد عم سائر طبقات المجتمع الأهلي الجزائري وخاصة الأعيان التقليديين الذين كانوا أكثر الناس معارضة لهذه السياسة³، فلما بلغت هذه الأخيرة ذروة قسوتها سنة 1911م، فضل الكثير من العائلات الجزائرية ترك الديار والهجرة إلى المغرب الأقصى وتونس وبلاد الشام على البقاء في موطنهم وأرضهم والرضوخ لذلك القانون الذي سنته فرنسا في عام 1912م والمتعلق بالتجنيد الإجمالي الذي شمل الرعايا الجزائريين⁴. خاصة أنه ولد إشكالية لدى المسلم الجزائري تمثلت في المقاتلة مع الكافر والذي قد يجعله في وضعية قتال أخيه المسلم الواقع في الجبهة الأخرى المناقضة.

4- سياسة الكولون في الاستقلال بالجزائر (هيمنة المعمرين)

لقد تكونت الطبقة الإقطاعية والرأسمالية في الجزائر من طوائف الجاليات الأوروبية التي هاجرت إلى الجزائر بتشجيع من فرنسا، ذلك أن سياسة ملء الجزائر بالأوروبيين هي السياسة الثابتة للمسؤولين الفرنسيين على اختلاف مشاربهم السياسية، حيث تبناوا مختلف الحيل السياسية والقانونية لانتزاع الأرض من أيدي الجزائريين

¹ - تركي رايح: المرجع نفسه، ص76.

² - محفوظ قداش: المرجع السابق، ص32.

³ - سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ص121.

⁴ - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص98.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

وتمليكها للفرنسيين والأوروبيين بهدف تنمية الاستيطان وللتشجيع على الهجرة إلى الجزائر، كانت إدارة الاحتلال تدفع لهم المساعدات المالية من أجل تحفيزهم على الإقامة الدائمة بالجزائر¹.

هذا وقد استمرت هجرة الأوروبيين إلى الجزائر في نمو مطرد وقد منحت الجنسية الفرنسية إلى جميع الأجانب الموجودين في الجزائر والذين يبلغ عمرهم عشرين عاما فأكثر، كما منحت قبل ذلك عام 1870م الجنسية الفرنسية لكل يهود الجزائر، فكانت النتيجة أن بلغ عدد الأوروبيين بالجزائر سنة 1911م إلى 746000 أوروبي، فأصبحت الجزائر خالصة لهؤلاء المعمرين وحدهم دون أن ينافسهم فيها أصحابها الشرعيين، فاستحوذوا على الثروة الوطنية بل أكثر من ذلك أن سيطرتهم دخلت مرحلة التحكم في السلطة ليتحول مجموعهم فيما بعد إلى حكومة خاصة، تطالب باستقلال عن الدولة الفرنسية العسكرية وحكم البلاد الجزائرية حكما مباشرا لا دخل لأهل البلاد فيه، فقد حاولوا السير بأرض الجزائر نحو نظام المستعمرات المستقلة "الدومنيون"².

وبهذه السياسات تكون فرنسا قد وطدت دعائم استعمارية في البلاد الجزائرية وبسطت يدها بكل قوة على أنفاس الشعب الجزائري، بحيث لم يعد في استطاعته أن ينتفض أقل انتفاضة ضد احتلالها الغاصب، ولكن وبانتهاء الحرب العالمية الأولى بدأ نوع آخر من الكفاح بظهور تنظيمات وحركات سياسية قادت الجزائر إلى طريق الاستقلال³.

ثانيا: ظهور الحركة الوطنية الجزائرية :

انتقل الجزائريون إلى النضال السياسي بشكله الواضح عقب الحرب العالمية الأولى، فكل الاتجاهات السياسية التي سيطرت على الحياة الجزائرية حتى ثورة التحريرية كانت تتفاعل خلال العشرينات، ذلك أنها لم تظهر للوجود في شكلها المنظم الحديث إلا بعد الحرب العالمية الأولى⁴، وخاصة بعد إصلاحات فيفري 1919م التي تعد من أهم الدوافع التي أدت إلى بروز نشاط الحركة الوطنية وتلك التنازلات الفرنسية جاءت نتيجة لعود السياسيين الفرنسيين وعلى رأسهم كليمنصيو وغيره الذين رغبوا في التعويض عن التضحيات التي قدمها المجندون الجزائريين تحت الراية الفرنسية⁵، غير أنها (الإصلاحات) لقيت معارضة شديدة من طرف مستوطني الجزائر، رغم ذلك عرف المجتمع المسلم الجزائري حراكا ونشاطا سياسيا أطر في تنظيمات وأحزاب تعددت اتجاهاته و ممارسوه⁶، تبعا لتعدد مشاربهم الثقافية والفكرية.

ومن أهم الأحزاب التي عرفت الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى وقبيل ميلاد جمعية العلماء المسلمين نذكر:

¹ - تركي رابح: المرجع السابق، ص 50، 72.

² - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 205. 207.

³ - أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1985، ص108.

⁴ - تركي رابح: المرجع السابق، ص76.

⁵ - أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص35.

⁶ - سعد الله أبوالقاسم: المرجع السابق، ص351.

1- حركة الأمير خالد (الحركة الاصلاحية):

لقد كان من أهم الأسباب التي أدت إلى تشكيل هذه الحركة هو وجود فراغ في القيادة بالجزائر، أضف إلى ذلك التحولات الدولية والتأثير بمبادئ الرئيس الأمريكي ويلسون التي تعطي للشعوب حق تقرير المصير¹، كان لهذا أن دفع الأمير خالد إلى قرار الدخول إلى المعتزك السياسي، وإن يصبح المتحدث الرسمي باسم الحركة الوطنية الجزائرية الناشئة حتى تلك الفترة²، ويسعى هذا الحزب الذي كونه مع رفاقه، والذي عرف باسم وحدة النواب المسلمين إلى إبلاغ صوت الشعب الجزائري إلى المسؤولين الفرنسيين في الجزائر وفي فرنسا والتعبير عن رغبته في الحياة الحرة.

ولتعميم أفكاره وأفكار جماعته امتدى إلى استعمال الصحافة فأنشأ الأمير خالد جريدة الإقدام التي تعد لسان حال هذا الحركة وتعبير على توجهاتها، وكانت تصدر باللغتين العربية والفرنسية³، أما أهداف حركة الأمير خالد فتمحورت في المطالبة بمنح الجزائريين الحقوق السياسية التي يتمتع بها جميع الأوروبيين، وإلغاء كل القوانين الاستثنائية والعودة إلى القانون العام، تطبيق قانون التعليم الإجباري على الأبناء الجزائريين مع إعطاء الحرية للتعليم الحر بالإضافة إلى تطبيق القوانين الاجتماعية والعالمية على الأهالي⁴.

ورغم اعتدال مطالبه فإن الرسميين الفرنسيين كانوا مشتبهين في حركة الأمير خالد خاصة بعد توالي الانتصارات التي حققها (في الانتخابات المحلية، المندوبيات المالية، المجلس العام)، فشنت عليه السلطة الاستعمارية حملة واسعة تهدف إلى اتهام الأمير خالد بالتحريض على الحرب الأهلية⁵، ثم تمكنوا في النهاية من نفيه من الجزائر وقمع حركته سنة 1925م، لكن أتباعه لم ينتظروا طويلا، ففي ربيع سنة 1926م أنشئوا حزبا ثوريا هو نجم شمال إفريقيا⁶.

2- حركة نجم شمال إفريقيا (دعاة الاستقلال):

تأسست حركة نجم شمال إفريقيا في باريس عام 1926 بفرنسا أخذ في البداية بعدا مغاريا حيث تشكل على يد جماعة من بلدان المغرب العربي، وإن كان أكثرهم جزائريين وعين الأمير خالد رئيسا شرفيا لها، لكن رئيسها الفعلي هو عبد القادر حاج علي ثم حل محله السيد أحمد مصالي الحاج، ولكن لم يدم مناضلي تونس والمغرب بالحزب مبررين انسحابهم باختلاف طبيعة و الظروف الاستعمارية بين بلدانهم والجزائر، ما يتوجب توخي

¹ - محمود السيد: تاريخ دولة المغرب العربي، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية، 2010، ص 179.

² - سعد الله أبو القاسم: المرجع نفسه، ص 360.

³ - تركي رايح: المرجع السابق، ص 80.

⁴ - محفوظ قداش: المرجع السابق، ص 137.

⁵ - بوعلام بن حمودة، المرجع السابق، ص 93.

⁶ - سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ص 372.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

كفاحهم على حسب ظروفهم الخاصة وبذلك أصبح نجم شمال إفريقيا منظمة جزائرية خالصة، وكان هدفه هو تحقيق الاستقلال التام لأقطار المغرب العربي الثلاثة (الجزائر، تونس، المغرب).¹

ونظرا للقيود التي اتخذتها السلطات الفرنسية ضد أعضائه في الجزائر، اعتمد النجم بشكل خاص على صحيفتان في الاتصال بالجزائريين، سواء في الوطن العربي أو في فرنسا وهما صحيفة "الإقدام الباريسي" والتي عرفت فيما بعد باسم "الإقدام الشمالي الإفريقي" وجريدة "الأمة".²

لقد مثل طرحه الجريء والحاد لمطلب الاستقلال في هذه الفترة قفزة كبيرة سوف تدفع النشاط السياسي للحركة الوطنية إلى التقدم الإيجابي تجاه القضية الوطنية، غير أن هذا الطرح المستفز للإدارة الاستعمارية قد جعل هذا الاتجاه عرضة لكل أنواع المضايقة والملاحقة التي لم تكن تنتظر ظهور حركة بمستوى الروح المطالبية الوطنية التي كان عليها هذا الاتجاه.

ورغم الاضطهاد الكبير الذي لاقته حركة نجم شمال إفريقيا من الحكومات الفرنسية فقد تمكنت من الحياة والاستمرار في كفاحها إلى أن حلتها حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا للمرة الثانية في 25 يناير 1937³، تحت تخوف فرنسا من أي حركة في وسط جماهير مستعمراتها عشية الحرب العالمية الثانية، ليظهر مرة أخرى بعد هذه الحرب بإسم جديد "حركة الانتصار والحريات الديمقراطية".

3- اتحادية المنتخبين المسلمين:

كانت هذه الحركة من الحركات الداعية إلى الاندماج على أمل أنه يشكل مرحلة الأولى من مراحل تحرير الشعب الجزائري في مفهومها السياسي، وقد تشكل هذا الحزب في 11 سبتمبر 1927 في الجزائر العاصمة، وهو معتدل في مطالبه السياسية والاجتماعية، مؤيد ومتحمس للسياسة الاندماج والثقافة الفرنسية.⁴

ومن زعماء هذا الحزب الدكتور بن جلول وفرحات عباس والأخضري ورايح الزناتي وغيرهم من أصحاب التعليم والثقافة الفرنسية، وكانت صحيفتهم "التقدم" هي معرض أفكارهم وأراءهم الإدماجية، التي تعلن عن مطالبهم التي تتمحور في المطالبة بالمساواة بين الجزائريين والفرنسيين عن طريق الاندماج في فرنسا مع المحافظة على الشخصية الإسلامية المتمثلة بالخضوع لقانون الأحوال الشخصية الإسلامي.

وعموما فقد كان بين هذا الحزب والمجتمع الجزائري الأهلي فجوة كبيرة في أفكاره لبعدها عن الحاجات والمطالب وتناقضها مع اهتماماتهم خاصة من خلال دعوته إلى الاندماج، والتي كان يعرضها على السلطات

¹ - تركي رايح: المرجع السابق، ص 82.

² - سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ص 373.

³ - تركي رايح: المرجع السابق، ص 83.

⁴ - سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ص 352.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

الفرنسية من أجل دخول حيز التنفيذ، ذلك أنهم اعتبروها (فكرة الاندماج) مقدمة لسلم الأمة الجزائرية من مقوماتها الأساسية¹.

ما يمكن أن نخلص إليه أن السياسات الفرنسية في الجزائر حتى مطلع الثلاثينيات من القرن 20م، كانت سياسات فرض أمر الواقع على المجتمع الأهلي المهزوم، وقتل كل روح حية فيه ترفض واقع الاستعمار فكانت القوانين الأهلية التعسفية، التي تتنافى مع كل إنسانية تزعمها فرنسا الحرة، وكل شعار للتمدين والحضارة التي تبرر بها غزو الجزائر، وحتى بعد السماح بظهور العمل السياسي فإن المبادرات الوطنية كانت محتشمة وقليلة الفاعلية رغم التطور في الروح المطالبة والحقوقية التي كانت تتقدم سنة بعد أخرى لصالح المجتمع الجزائري المسلم.

¹ - تركي رابح: المرجع السابق، ص 88.

المبحث الثاني: الحياة الاقتصادية

أولاً: الملكية العقارية و تأثيرها على الإنتاج الفلاحي

كان الاقتصاد الجزائري يقوم بالدرجة الأولى على استغلال الأرض، باعتبارها المورد الأساسي لعيش الأغلبية الساحقة من الأهالي، حيث يعيشون بطريقة مباشرة من ممارسة الزراعة وتربية الماشية¹، الأمر الذي جعل الاحتلال الفرنسي يعمل على تفويض أركان هذا الاقتصاد من خلال مصادره للأرض، فأول ما بدأ به بالموازاة مع الاحتلال العسكري، هو عملية نزع الأراضي الخصبة من الأهالي²، فشكلت بذلك قاعدة للحركة الاستيطانية الفرنسية، التي شهدت تجربتين: عرفت التجربة الأولى بالاستيطان الرسمي أو الموجه من طرف الدولة، أما الثانية فعرفت بتجربة الاستيطان الحر المعتمد على المبادرات الفردية، لذلك سارت عملية الاستيلاء على الأراضي بوتيرة متسارعة³.

هذا وقد نشطت عملية المصادرة، من خلال الترسنة القانونية، التي شرعت فرنسا في إصدارها لتقليص ملكية الأهالي والاستحواذ عليها، مثل قانون 16 جويلية 1851 المتعلق بالملكية في الجزائر، وقانون سيناتوس كونسيلت 1863 لتجديد مساحة وحدود الأراضي الجماعية وتقسيمها، بهدف زرع فكرة الملكية الفردية لدى الشركاء فيها، وتسهيل بيع ومبادلة الأراضي على أساس قانوني بالإضافة إلى قانون فارني(قانون المعمرين) 1873م والذي نشط الاستيطان الحر عن طريق محاربة الملكية الجماعية وتطوير القطاع الزراعي الخاص بالمعمرين⁴.

هذه المنظومة القانونية التي سنتها الإدارة الاستعمارية، والمتعلقة بالملكية العقارية في الجزائر، كان يسعى الاستعمار الفرنسي من خلال موادها الجائرة إلى إضفاء المشروعية على امتلاك الأراضي بالنسبة للأوروبيين من جهة، والقضاء على إحدى مقومات الاقتصاد الجزائري (الأرض) من جهة أخرى⁵.

وعلى غرار هذه القوانين التعسفية، وما نتج عنها من عمليات المصادرة للأراضي الخصبة، فقد ساهمت في انتقال ملكية الأرض من الأهالي إلى المعمرين والشركات الفلاحية التابعة لمختلف المؤسسات الفرنسية في المتروبول⁶، مجموعة من العوامل الطبيعية مثل جفاف 1908م الذي شمل معظم الجهات الداخلية الشرقية للبلاد،

¹ - نور الدين الدقي: المغرب العربي والاستعمار الفرنسي، سراسر للنشر، تونس، 1997، ص 24

² - تركي رابح: التعليم القومي والشخصية الجزائرية (1931_1956) دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1981، ص 2، ص 86

³ - نور الدين الدقي: المرجع نفسه، ص 69.

⁴ - شارل روبر أجيرون: المرجع السابق، ص 88.

⁵ - عبد الوهاب بن خليف: الوجيز في تاريخ الجزائر، دار بني مزغنة، الجزائر، 2005، ص 29.

⁶ - محمد العربي زيري: تاريخ الجزائر المعاصرة، إتحاد كتاب العرب، دمشق، 1999، ص 20.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

فتسبب في مبيعات قدرت بـ: 200000 هكتار في ظرف سنتين (1908-1910م) مع انخفاض في سعر الهكتار، إن لم يكن قد بيع مقابل أكياس من الأرز¹.

وبالإضافة إلى تلك العوامل الطبيعية، كانت هناك ظروف أخرى أشد قسوة على الجزائريين، تمثلت في الضرائب الجائرة التي كانت في تزايد مستمر، حتى أصبحت تقاسم الأهالي مصادر دخلهم، ففي سنة 1906م قدر متوسط دخل الفرد الأهلي بـ: 100 فرنك ومتوسط الضرائب المختلفة بـ: 50 فرنك²، ومن أجل تسديد تلك الضرائب، كان الأهالي مجبرون على بيع كل ما يجوزهم أو رهن أرضهم وبيعها في بعض الأحيان لمواجهة مصاعب الحياة³.

ويضاف إلى ذلك عمليات الحجز الإجمالي⁴، الذي يعد أقسى عقاب إبان الفترة الاستعمارية، حيث أصاب بشدة المجموعات النائرة بوسط وشرق البلاد خاصة في منطقة القبائل على أثر ثورة 1871م، وكذلك الغرامات خاصة غرامة اندلاع الحرائق في الغابات والتي كانت تخضع لمبدأ المسؤولية الجماعية⁵.

هكذا تضافرت مجموعة من العوامل، أدت إلى إحداث هوة كبيرة في حجم الملكية بين الأهالي والمعمرين، ففي سنة 1930م كان الأوروبيون يملكون 2350000 هـ بفضل الاستيطان الرسمي والمشتريات التي حققها المستوطنون الذين صاروا أثرياء، فتمخضت عنهم شركات استعمارية كبيرة، فيما تراجع عدد المالكين الزراعيين من الأهالي الجزائريين وتعززت مؤسسة الخماسة، حيث أصبح الجزائري الأهلي لا يملك شيئاً بل صار يعمل كخماس أو كأجير، أو كعامل موسمي في أرضه رغم أنه المالك الأصلي لها⁶.

كان من الطبيعي أن يكون للاستيلاء التدريجي على أراضي الفلاحين، آثار سلبية متعددة على الاقتصاد المعيشي للريفين⁷، حيث ضيق الخناق على الزراعة الأهلية والمتمثلة في زراعة الحبوب، فتقلصت مساحتها تقلصاً شديداً ما بين 1906م-1921م، يضاف إلى ذلك أن هذا الإنتاج القائم على الاكتفاء الذاتي لم يكن مؤهلاً للصمود في وجه الإنتاج القائم على التصدير والتسويق في أسواق الرأسمالية الغربية⁸، وهذا ما أثر على نمط الإنتاج

¹ - Charles Robert Ageron :l'Algérie algérienne de Napoléon 3 à Charles de Gaule, édition Sindbad ,France ,1980,p244.

².-Ibid, p197.

³- يوسف حميطوش: المرجع السابق، ص27.

⁴ - يحي بوعزيز: السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري 1830-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1991، ص133.

⁵ - جيلالي صاري ومحفوظ قداش: المقاومة السياسية 1900-1954 الطريق الإصلاحي والطريق الثوري، ترجمة عبد القادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1987، ص146.

⁶ - نور الدين دقي: المرجع السابق، ص61.

⁷ - جلال صاري: المرجع نفسه، ص168.

⁸ - يوسف حميطوش: المرجع السابق، ص25.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

ومردوديته لدى الفلاحين الجزائريين، فقد انخفض إنتاج الحبوب من 19.1م قنطارا سنة 1910م إلى 16م قنطارا سنة 1921م وما كاد يحل الاحتفال بمرور قرن على الاحتلال، حتى فقدت الجزائر قدرتها على تحقيق الاكتفاء الذاتي، وتحولت من منتج للحبوب ومصدر لها إلى بلد مضطر لاستيراد المواد الغذائية الضرورية لسد حاجات السكان¹.

هذا ولم تسلم الثروة الحيوانية من هذه الظروف القاسية، حيث شهدت الحياة الرعوية تدهورا ملحوظا نتيجة لقلة العلف بسبب حالة الجفاف و تقلص أراضي الانتجاع لإغلاق مراعي الغابات²، بالإضافة إلى ارتفاع أجور أراضي المرور و تحديد تنقلات البدو والرحل، فأفسر هذا التراجع في نمط العيش الترحالي تقلص مردود الإنتاج الرعوي، فتراجع عدد رؤوس الخرفان من 7.7م رأس عام 1885م إلى 6.3م رأس سنة 1900م، وكذلك الحال بالنسبة للأبقار المحلية التي تراجعت من 1071000 رأس سنة 1887م إلى 846000 رأس سنة 1900م³.

لكن بالمقابل شهدت الفلاحة الاستعمارية في الجزائر تطورا ملحوظا لاستحواذ المعمرين على أجود الأراضي الجزائرية، فقد وصل حجم الملكية العقارية لديهم إلى حدود 2.4 م هكتار سنة 1930م، وهذا التحول في الملكية العقارية وما رافقه من تحديث لهياكل الإنتاج، أدى إلى استغلال تلك الأراضي وبشكل خاص في الزراعات النقدية أو التجارية على غرار زراعة الكروم المنتجة لعنب الخمر⁴، والتي استحوذت حوالي نصف مليون هكتار سنة 1912م، وكانت تمثل 36% من قيمة الإنتاج النباتي و 40% من قيمة موارد التجارة الخارجية⁵، فأصبحت بالتدريج عماد الاقتصاد الزراعي الفرنسي بالجزائر والمصدر الأساسي لتراكم رأس المال⁶.

وتجدر الإشارة إلى أن انتشار مرض الفيلوكسيرا بجنوب فرنسا وإيطاليا يعد من أبرز العوامل التي انعكست إيجابا على زراعة الكروم في الجزائر، حيث قامت عدة محاولات لتعويض الإنتاج الذي فقدته فرنسا من جراء الأزمة، فاكتمت الكروم أخصب الأراضي الجزائرية نتيجة للارتفاع المتزايد للأسعار الخمر في الأسواق الخارجية (193 فرنك للهكتولتر الواحد سنة 1930م) ولانخفاض تكلفة الإنتاج والاستغلال، فازداد الإنتاج بسرعة حتى كاد يتسبب في أزمة وينعكس سلبا على حجم الإنتاج بالمتروبول⁷.

¹ - محمد العربي زيري: المرجع السابق، ص 20.

² - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 360.

³ - أحمد مهساس: الحقائق الاستعمارية والمقاومة، دار المعرفة، الجزائر، 2007، ص 112.

⁴ - محمد العربي زيري: الثورة الجزائرية في عامها الأول، دار البعث، الجزائر، 1984، ص 20.

⁵ - محفوظ قداش وجلالي صاري: الجزائر صمود ومقاومات 1830-1962، ترجمة أوزاينية خليل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012، ص 171.

⁶ - نور الدين دقي: المرجع السابق، ص 86.

⁷ - نور الدين الدقي: المرجع نفسه، ص 86.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

كذلك من الزراعات التجارية التي لقيت اهتماما وتشجيعا لدى المعمرين "التبغ"، فتوسعوا في زراعته باعتباره منتوجا مربحا وموجها للتصدير¹، فارتفع إنتاجه من 36867 قنطار بين (1900م/1908م) إلى 65550 قنطار بين (1909م/1914م) وبالرغم من ذلك فإن زراعته بقيت هامشية بالمقارنة مع الزراعات النقدية الأخرى²، ويضاف إلى تلك الزراعات "الحلفاء" حيث دخلت حيز الزراعات التجارية، فارتفع تصديرها من 766740 قنطار سنة 1901م إلى 940671 قنطار سنة 1908م³.

وبهذا يكون الاحتلال قد وجه القطاع الزراعي وجهة رأسمالية تجارية، ينتج للسوق الخارجية متجاهلا الضرورات وحاجات الغذاء الأهلية، فتحولت الأراضي الجزائرية لزراعة وإنتاج الكروم والحوامض والحلفاء بعدما كانت تزرع لإنتاج القمح والشعير.

وفيما يخص النشاط والإنتاج الرعوي الممارس من طرف المعمرين، فقد عرف هو الآخر تطورا كبيرا، حيث تضاعف قطع الأغنام سنة 1893م من 333892 رأس إلى 638221 رأس سنة 1913 م ، وكذلك نفس الأمر بالنسبة للأبقار التي ارتفع إنتاجها من 131768 رأس سنة 1984م إلى 175357 رأس سنة 1914م⁴.

وهذه المفارقات لم تكن لتحصل لولا وجود تباين واضح بين الفلاحة الأوروبية تعتمد على رؤوس أموال ضخمة وبنوك وشركات تمنحها كل ما يلزم، بالإضافة إلى أنها تسيطر على أجود الأراضي، وقطاع زراعي متدهورة يمارسها الأهالي على أراضي شبه قاحلة وبأبسط التقنيات وأفقر الإمكانيات⁵.

ثانيا: الثروة المنجمية وتأثيرها على الواقع الصناعي:

إذا كانت الصناعة الأهلية التقليدية مرتبطة في ازدهارها وانكماشها بالثروة الحيوانية، وذلك لما توفره هذه الأخيرة من مواد أولية (جلود، صوف...) تعد عماد بعض الصناعات التقليدية كصناعة الزرابي التي كانت أكثر انتشارا بـ 300 معمل تشغل نحو 3000 عامل⁶، فإن الصناعة الاستعمارية الحديثة ارتبط ظهورها بالشروع في استغلال الثروة المنجمية، لذلك فقد كانت عبارة عن صناعة استخراجية تقوم أساسا على استخراج المعادن وتحويلها إلى فرنسا وباقي الدول الأوروبية الأخرى التي تفتقر إلى تلك المعادن.

¹ - عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث والمعاصر محمد عبدو وعبد الحميد بن باديس نموذجان، دار الهدى، الجزائر، 2005، ص87.

² - محفوظ قداش وجلاي صاري: المرجع السابق، ص200.

³ - Ageron: Op.cit, p317.

⁴ - Ibid, p327.

⁵ - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص356.

⁶ - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص364.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

لقد مثلت الجزائر قطبا منجميا نشيطا، حيث أصبحت المنتجات المنجمية الصلبة موضوع مضاربات خارجية، الأمر الذي دفع فرنسا إلى تطوير القطاع من خلال سن التشريعات وتقديم التسهيلات فنشطت بذلك الصناعة الاستخراجية وأصبح باطن الجزائر الممون الرئيسي لأوروبا بالمواد الأولية عامة والحديد خاصة¹.

فمنجم الوزنة الذي يحتوي على 80% من معدن الحديد من النوعية الجيدة عالميا (نسبة معدن الحديد في خامه تفوق 50%) خضع لاستغلال شركة الوزنة منذ 1913م، وكان يساهم في الإنتاج الوطني بمقدار 765611 طن عام 1928م ومنجم بني صاف بـ 378136 طن في نفس السنة، وفي سنة 1929م استخرجت الشركات الفرنسية من مناجم وهران ووزنة وبوخضرة حوالي 2165000 طن من الحديد الخام تم تحويله إلى بريطانيا وألمانيا وبلجيكا عن طريق ميناء عنابة و وهران، وقدر الإنتاج الوطني من الحديد عام 1930م بـ 2233779 طن².

أما معدن الفوسفات فقد شرعت في استغلاله عام 1889م بمنجم الكويف عدة شركات (برج غدير، مزيتا، ورأس الواد، وجبل كوانك)، وقد بلغ إنتاج مجموعها 500000 طن عام 1920م، ولأهمية وجود هذا المعدن منحت 13 رخصة للبحث عنه في عمالة قسنطينة سنة 1921م³، فارتفع إنتاجه إلى 1800000 طن عام 1929م، بالإضافة إلى مناجم أخرى للزنك والرصاص و النحاس، ورغم أن عددها حوالي 40 مركز إنتاج إلا أنها كانت ضعيفة المردود ومشتتة عبر الجبال التلية⁴.

وتجدر الإشارة إلى أنه رغم التطور الكبير الذي شمل الصناعة الإستخراجية، فإن الجزائر لم تتحول إلى منطقة صناعية (صناعة تحويلية)، فقد كان معظم إنتاج الأرض يصدر خاما ليرفع من قيمة صناعة ما وراء البحر الأبيض المتوسط⁵، ذلك أن أنشطة المؤسسات الاقتصادية القائمة موجهة بالأساس إلى ذلك الغرض (التصدير)، والقيام بالتحويلات الضرورية المحلية لتلبية القليل من حاجيات الأسواق الداخلية⁶.

هذا وكانت السلطة الاستعمارية تبرر هذا التخلف الصناعي، بعجز الأسواق المحلية عن جذب الاستثمارات اللازمة لإقامة الصناعات التحويلية وافتقار المستعمرة لليد العاملة المختصة، لكن النوايا الحقيقية لهذا الاستعمار تتجاوز تلك المبررات إلى محاربة بكل قوة أي حركة ترمي إلى النهوض بالتصنيع المحلي، وهذا بهدف إبقاء الجزائر سوقا لترويج السلع الصناعية للمتروبول من جهة أولى، وضمان اليد العاملة الرخيصة حتى لا

¹ - نور الدين الدقي: المرجع السابق، ص 110.

² - المرجع نفسه، ص 110.

³ - عبد الرحمان رزاق: تجارة الجزائر الخارجية (تجارة الجزائر فيما بين الحربين العالميتين)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 25.

⁴ - جلالي صاري: المرجع السابق، ص 178.

⁵ - محفوظ قداش وجلالي صاري: المرجع السابق، ص 210.

⁶ - نور الدين الدقي: المرجع السابق، ص 113.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

تستوعبها الصناعة الجزائرية فتكون بذلك بروتيتاريا متفاعلة مع مبدأ تحرير الشعوب من جهة ثانية¹، وللإبقاء على التبعية الاقتصادية والصناعية للمنطقة من جهة ثالثة².

ورغم التخلف الصناعي والعجز عن استيعاب أساليب الإنتاج الحديثة فهذا لا يعني إطلاقاً أن المصانع يندر توفرها بالجزائر، فقد كانت هناك محاولات من بعض المؤسسات المحلية من أجل تحويل جزء من منتجات الجزائر الزراعية والمعدنية، فأقيمت بعض المنشآت الحديثة تمثلت في عدد من مصانع التعليب والتبغ والخمر ومطاحن الحبوب ومعامل الزيت والصابون، والصناعات التقليدية كنسيج الزرابي والتي تعتمد في أغلبها على وسائل تقنية بسيطة وتشغل يد عاملة كثيفة، إذ بلغ عدد عمال الصناعة بالجزائر سنة 1918 م 25 ألف³.

¹ - محفوظ قداش وجيلالي صاري: المرجع السابق، ص 200.

² - نور الدين الدقي: المرجع السابق، ص 113.

³ - المرجع نفسه، ص 113.

المبحث الثالث: الحياة الاجتماعية.

أولاً: مجتمع الكولون "تشكيله وهيمنته"

لقد شهد المجتمع الاستعماري تغيراً عميقاً، بسبب الحروب والموت من حيث التأثير على العمر والعرق من حيث التأثير على المستعمرات، هذا الأخير كان بمثابة المنهج الذي سار عليه الاستعمار خلال قرن من الزمن¹، في تثبيت أقدامه بالجزائر لفترة طويلة، حيث تزعزعت ثقة قادة الاحتلال في طريقة الاحتفاظ بالجزائر كجزء لا يتجزأ من التراب الفرنسي، في ظل صمود الشعب الجزائري ومقاومته، وهو الأمر الذي دفع بالجنرال بيجو في 14 ماي 1840م إلى مطالبة المتروبول بحافل من المعمرين من مختلف الجنسيات، اعتقاداً منه أن الاستيطان هو دعامة للاحتلال العسكري والسيطرة السياسية².

ولتجسيد ذلك الاستيطان الرسمي تم إصدار مرسوم وزاري في 22 مارس 1844م، وذلك بعد أن أعلن الجيش الاستعماري عن استعداداته لاستقبال كل الراغبين في تنفيذ فكرة الاستعمار الاستيطاني، وبدأت موجات الكولون تفتد إلى الجزائر من مختلف أنحاء أوروبا حتى بلغ عددها حوالي 150 ألف، وذلك في فترة عشرين سنة فقط، ثم أخذت تتكاثر بنفس الوتيرة إلى أن وصل عددهم سنة 1860م أكثر من 216 ألف، خصصت لهم أكثر من 211 مستوطنة³ وأكثر من 265 ألف هكتار، غير أن الموجة الأكبر من المستوطنين، كانت ابتداءً من سنة 1870م، وهي السنة التي انهزمت فيها فرنسا أمام بروسيا وما خلفه ذلك الانهزام من آثار سياسية واقتصادية كان أبرزها سقوط النظام الملكي، وفي نفس السنة تحولت الجزائر بعد قانون 1870/10/24م نحو نظام الحكم المدني، فكان ذلك إيذاناً بمزيد من السيطرة للمستوطنين، الذين بلغ نموهم مستويات قياسية، بحيث ارتفع عددهم من 833000 نسمة عام 1926م إلى 881000 نسمة عام 1931م، بنيت لهم 288 قرية استيطانية ووزعت عليهم 318770 هكتار⁴.

و بالموازاة مع سياسة الاستيطان الرسمي، بدأت فرنسا بسن وإصدار ترسانة قانونية، تمكنها من السيطرة على أراضي الجزائريين والاستحواذ عليها، وهي الترسنة التي حاولت من خلالها السلطات الفرنسية، خدمة مجموعة الأوروبيين بإضفاء الصبغة الشرعية على الوجود الأوروبي في الجزائر، هذا من جهة ومن جهة ثانية محاولة مسح الشخصية الجزائرية وتحطيم الكيان الجزائري اقتصادياً واجتماعياً⁵.

¹ - مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، دار القصة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2007، ص83.

² - نور الدين الدقي: المرجع السابق، ص45

³ - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص107.

⁴ - زوزوعبد الحميد: دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين 1919-1939، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، بدون ت، ص39.

⁵ - عبد الوهاب بن خليف: المرجع السابق، ص29.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

هذا وقد كان للحركة الاستيطانية تأثير على البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري وعلى تطوره، حيث حل المعمرون محل السكان الأصليين، فصادروا وسيطروا على أراضيهم، واستتبع هذا بإخلال في الانسجام الاجتماعي القائم بين أفراد القبيلة الواحدة، باعتباره يشكل خطرا على الوجود الاستعماري من ناحية وعلى العملية الاستيطانية من ناحية أخرى¹.

وهكذا بدا بالتدريج يتشكل مجتمع دخيل، له شخصيته المتميزة وقاعدته العقارية ونظامه الاقتصادي المميز، وعلى غرار الفرنسيين كان هذا المجتمع يتكون في معظمه من عناصر أجنبية ذات أصول متوسطية أوروبية، قامت فرنسا بتجنيس بعض فئاته من خلال قانون كريميو الصادر سنة 1889م، فأصبحت تجمع بينهم اللغة الفرنسية والمصالح الاقتصادية².

هذا وتجدد الإشارة إلى أن السلطات الفرنسية كانت تشجع المستوطنين على الاستقرار بالأرياف، لهذا كان التوزيع الجغرافي الأوروبي مرتبنا بالتوزيع المحلي للأرياف التي استولت عليها السلطة الاستعمارية، وهذا ما يفسر كثافة المعمرين بالمناطق التي يغلب عليها الاقتصاد الرعوي وبعض المناطق الساحلية المتميزة بضعف الكثافة السكانية، وذلك لصعوبة تدخل الاقتصاد الاستعماري في منطقة كثيفة السكان ومتمينة الروابط الاجتماعية³.

أما أهم ما ميز المجتمع الاستيطاني في بدايته هو الانغلاق والعنصرية، حيث كان يرفض الانصهار في المجتمع الأهلي، بالإضافة إلى الرغبة الجامحة في الإثراء بأية طريقة كانت، لأجل ذلك ركزوا مجهوداتهم على استنزاف الثروات وتسخير الأرض بدون حساب⁴.

ومادامت مصلحة المستوطنين تتماشى مع مصلحة فرنسا في الاستحواذ على مصادر الثروة وخاصة الأرض، فقد أصبح لزاما على السلطة الاستعمارية في نظرهم الحصول عليها بمختلف الوسائل مشروعة كانت أو غير مشروعة، لذلك نجد مستوطن الموجة الأخيرة في بداية القرن العشرين، يتميز حسب ما وصفته اللجنة الفرنسية التي أنشئت في 28 جويلية 1898م بكونه "سيد عظيم الشأن، ومالك من ذوي الجاه والغنى وشخص انتهازي يجب الأبهة يعامل الناس بمنتهى الوقاحة، شديد المكر بالآخرين، تلك هي صورة المعمر الذي تسامى فوق جميع المؤسسات، ودبر الأمور بكيفية تسمح له بتسخير غيره ممن يقوم على خدمته"⁵.

وهكذا برز الأوروبيون والمعمرون بصورة خاصة كأقلية عرقية نشطة، هيمنت على الاقتصاد الجزائري وكونت لنفسها امتيازات تمتعت بها وتسببت في تدهور الحياة الاجتماعية للسكان الأصليين.

¹ - يوسف حميطوش: المرجع السابق، ص32.

² - نور الدين الدقي: المرجع السابق، ص45.

³ - نفسه، ص45.

⁴ - محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص18.

⁵ - مصطفى الأشرف: المرجع السابق، ص17.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

ثانيا: تدهور الوضع الاجتماعي للمجتمع الأهالي.

باستيلاء الاستعمار الفرنسي على المورد الأساسي للأهالي المتمثل في الأرض، جعل الوضعية الاجتماعية للفئة التي كانت تعتمد عليه تتدهور، خاصة إذا علمنا أن الاحتكاك بالمجتمع الأوروبي لم يؤثر سلبا في السلوك الإنجابي للأهالي، بل أن تشييب المجتمع أدى إلى تأكد الخط التصاعدي للنمو الديموغرافي بالجزائر¹، حيث بلغت نسبة نمو السكان 11% سنة 1926، ووصل تعدادهم إلى 4 ملايين 897 ألف نسمة سنة 1921 بعد أن كان أربعة ملايين و700 ألف نسمة سنة 1911².

يضاف إلى ذلك أن أغليتهم الساحقة من سكان الريف يمارسون الفلاحة بنسبة 91%، أما سكان المدن من الأهالي فأغلبهم ينتمي إلى الطبقة المتوسطة التي تتكون من الحرفيين و التجار وموظفي الإدارة الفرنسية³، إذ مثل الجزائريون نسبة 14% من مناصب الوظيفة العمومي 7.29% من الإطارات العليا، وهي مناصب لا يصل إليها إلا من أعلن ولاءه للفرنسيين، ومع كل هذا فإن تردي الأوضاع الاجتماعية للأهالي كانت تهدد استقرارهم وأمنهم.

هذا وقد أعتبر التنظيم الاجتماعي التقليدي للأهالي العائق الأساسي لتحقيق الأمن والسلم، الأمر الذي جعل الحركة الاستيطانية تتجاوز استهداف التركيبة الديموغرافية للمجتمع الجزائري، إلى اختراق النسيج الاجتماعي والاقتصادي، فتفككت الروابط الاجتماعية القائمة على التضامن الاجتماعي بين أفراد الأعراش والقبائل باعتبارها وحدات اجتماعية متماسكة، فألغيت هذه الأخيرة واستخلفت بالدوار المصطنع الذي وضعه المستعمر الفرنسي لوقف تطور المجتمع الجزائري وإضعافه⁴، وهذا ما يؤكد "كال فيلي" كرجل قانون حيث ذكر أنه تم بين 1900م - 1934م تشكيل 180 دوار في 113 قبيلة، وقد شمل المسح ما مجموعه 124 مليون هكتار، وبتفكيك المجتمع وتحول الملكيات من الصيغة الجماعية إلى الصيغة الفردية بعد دخول قانون مجلس الشيوخ الصادر سنة 1863م حيز التنفيذ، اضطر الفلاح الجزائري إلى بيع أرضه وعقاراته تحت وطأة الضغوط المختلفة، ليفسح المجال للفرنسيين والأوروبيين للتوغل في قلب الريف الجزائري ومن تم تخريب وتدمير للبنى القاعدية لهذا المجتمع، ليتحول بعدها الفلاحون الجزائريون إلى مجرد خماسين أو أجزاء موسمين أو إلى أناس عاطلين تماما عن العمل⁵.

وهكذا تحول الجزائريين بشكل منظم إلى مجموعة بطالين هذه الأخيرة بلغ حجمها مستويات مخيفة، إذ قدر عدد البطالين عام 1911م ب 1386510 ن من مجموع 4700000 ن، وهو الأمر الذي كان له تأثير كبير

¹ - نور الدين الدقي: المرجع السابق، ص45.

² - علي الشنوبي: حفظ الشعائر وتغيير المناكر دعامة من أهم دعائم حركات التحرير الوطني في الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، مجلة الثقافة، العدد 79، الجزائر، فيفري 1984، ص160.

³ - شارل روبر أجيرون: المرجع السابق، ص128.

⁴ - يوسف حميطوش: المرجع السابق، ص33.

⁵ - محمد العربي زيري: المرجع السابق، ص19.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

على عملية الهجرة سواء الداخلية من الأرياف نحو المدن أو خارجية، إذ ارتفع عدد المهاجرين الجزائريين الفارين من حالة الفقر والتخلف التي وصل إليها المجتمع الجزائري، بحثا عن حياة أفضل إما في الدول العربية والإسلامية وحتى البلاد الأوروبية وخاصة فرنسا التي دخلها ما بين سنة 1914م و1917م ما لا يقل عن 62521 جزائري، وذلك بغية تحسين أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية¹، إذ كانت المناطق الأشد فقرا في الجزائر هي الأكثر تصديرا للمهاجرين².

وعليه فقد بلغ الفقر والجوع ذروته، حتى دفع بأغلبية الأهالي إلى التسول والعيش على الأعشاب والنباتات التي تجود بها الطبيعة خاصة نبات التلغودة³، وأما بيوت الجزائريين فهي شبيهة بأقفاص من القصب، فانعكس هذا الوضع على العائلات الجزائرية بتفشي الأمراض الوبائية، الناجمة عن تدهور الأوضاع الاقتصادية مثل مجاعة 1920م وما ترتب عنها من عواقب صحية⁴، لكن حقيقة هذه الأخيرة كشف عنها السيد (فيوليت) في كتابه "هل تحيا الجزائر" عندما ذكر إحصائيات استخراجها من التقارير العسكرية، تبين إلغاء تجنيد 8268 جزائري بمدينة الجزائر عام 1927 من مجموع 18607 شاب لبي دعوة السلطة العسكرية، وذلك لأن حالتهم الصحية تمنعهم من الخدمة العسكرية⁵.

وبالتالي فإنه لم يسلم من هذا الوضع المزري، إلا العائلات المقربة من السلطات الاستعمارية، نتيجة لحرصها على تلقين أبنائها اللغة الفرنسية، التي كانت تسمح لهم بتقلد وظائف في الإدارة الفرنسية، لكن بالرغم مما تحظى به من امتيازات وما تمتلكه من متاع فإنها لا ترقى إلى مستوى أحط الأوروبيين شأننا وأقلهم ثروة⁶.

¹ - الجيلالي صاري: المرجع السابق، ص220

² - عبد الحميد زوزو: المرجع السابق، ص27

³ - محمد العربي زيبيري: المرجع السابق، ص19.

⁴ - نور الدين الدقي: المرجع السابق، ص39.

⁵ - أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص336.

⁶ - محمد العربي زيبيري: المرجع السابق، ص25.

المبحث الرابع: الحياة الثقافية.

كان مشروع الاحتلال الفرنسي في الجزائر يسير على خطين متوازيين، الاحتلال المادي جنبا إلى جنب مع الاحتلال المعنوي، هذا الأخير الذي كان يعني معالم الفكر والثقافة في المستعمرة الجزائر، من خلال تجهيل وتخطيم مقومات المجتمع والتي يأتي على رأسها الدين الإسلامي واللغة العربية على اعتبارها المكونان اللذان يحدثان التعارض بين الثقافة العربية الإسلامية الجزائرية والثقافة الغربية المسيحية الفرنسية، وبذلك يمثلان العائق لأهداف المشروع الاستعماري بأكمله.

أولا: حالة التعليم في الجزائر.

كانت الجزائر عشية غزوها وحتى السنوات الأولى للاحتلال، تكثرت بمؤسسات التعليم والثقافة والتي كانت تتمثل في المساجد والزوايا والكتاتيب والمدارس، وهي التي كان يقصدها كل فئات المجتمع الجزائري المسلم؛ أبناء وحتى كبارا، وقد توفرت على مختلف المستويات التعليمية من الابتدائي إلى الثانوي حتى العالي ويذكر أبو القاسم سعد الله أن مراحل التعليم العربي كانت تكمل بعضها البعض حيث تتواصل برامج كل مرحلة بالأخرى¹، وقد عرف هذا التعليم المراحل والمؤسسات التالية.

1_ المؤسسات التعليمية الأهلية.

الكتاب: يعد الكتاب في التعليم العربي التقليدي في الجزائر المرحلة القاعدية الأولى والمنطلق الذي يبدأ به الطفل التعليم، فمراحل مكفولة بالتصدي لمهمة أخذ الصبية للمبادئ الأولية كالكتابة وحفظ القرآن الكريم وصولا إلى مؤسسة التعليم المسجدي.

يتولى أمور التعليم بالكتاب جماعة مخصوصة تتوفر على تكوين أخلاقي واستقامة تضمن ثقة العائلات في رعاية وتربية أبناءهم زيادة على مستوى معرفي يكفل لهم القيام بمهامهم اتجاه المتعلمين من الصبية والتي تتمحور أساسا في التكفل بمهمة التهذيب والعناية بالصبية وبإصلاح أحوال الأبناء موازاة مع تعليمهم المبادئ الأولى للقراءة والكتابة وحفظ القرآن وتقول فيهم إيفون تيران أيضا: ((...والطالب كان يلعب دور المعلم والراهب في آن واحد، وهو في الحقيقة يؤدي الصلاة ولأنه يعرف الكتابة والقراءة فغالبا ما يحكم في المسائل العائلية...))²

يستغرق المتعلمون من الأطفال في هذه المؤسسة عادة مدة تتراوح ما بين خمسة إلى ستة سنوات، وفيها يبدأ بحفظ القرآن وتعلم الحروف الأبجدية للعربية قراءة وكتابة حتى يصل إلى إتقان فن الخط وكذا الإمام بالمبادئ الأولى للغة العربية من قواعد ونحو وصرف وحتى مبادئ العد والحساب.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1830_1954، ج3، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص23.

² - إيفون، تيران: المجامع الثقافية في الجزائر المستعمرة المدارس والممارسات الطبية والدين 1830-1880، ترجمة: محمد عبد الكريم أوزغلة، دار القصة للنشر، الجزائر 2007، ص 130.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

والطريقة المعتمدة في التعليم بالكتاب هي أن يقوم المدرس بقراءة آية قرآنية معينة ثم يرددها الصبية المتعلمون وبكم من المرات حتى يتم حفظها لديهم، وفي طريقة أخرى يجلس المعلم ويحلق حوله الطلبة في شكل أنصاف دوائر جلوسا على الأرض التي قد تكون مفروشة بحصير أو جزء منها فقط وقد تكون عارية بدون فراش، ويبدأ في إملاء الآيات القرآنية لتكتب على اللوح من قبل كل متعلم والآية المعني بها بتنظيم يفرضه توالي وضعية الجلوس. وعند التفرق من كتابة وجه اللوح يتقدم الطلبة إلى المعلم للنظر في كتابتهم ويقوم بتصحيحها تصحيحا إملائيا ونحويا، موجهها ومنبها للأخطاء التي وقعوا فيها، ثم يقرأون هذا الوجه حتى يقطعون شوطا مهما في حفظه إن لم يتم حفظه كاملا تسهيلا لعرضه للحفظ بعد عرض آيات الوجه السابق له بالمساء، وهكذا دواليك يتم الانتقال للآيات التي تليها حتى يبلغ كل طالب ما شاء من القرآن كل حسب حرصه وانضباطه وقدرته على الحفظ.

أما مبادئ اللغة والتربية فكانت تقدم شفويا في شكل دروس أو تدخلات قصيرة المدة أو ملاحظات عند تصحيح اللوح في حالة ما يعني اللغة العربية، أما جوانب التربية قد تكون هي الأخرى تدخل من قبل المعلم لتقويم سلوكيات بعض المتعلمين فيذهب إلى تقييمها وتقويمها مستندا عليها في حث الأطفال على التحلي بالمحاسن والأخلاق الحميدة وتجنب المثالب مستدلا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسيرة النبي "صلى الله عليه وسلم" والصحابة، في حين يكفي التلاميذ في أغلب الأحيان بالإنصات والاستماع دون كتابة، وهو ما يجعل هذه الدروس شفوية ولا تخضع لبرنامج مرتب سلفا من قبل المعلم.

أما الوسائل المستعملة فهي بسيطة وقليلة التكلفة تتمثل في لوح خشبي لكتابة الآيات القرآنية على وجهه وقلم خشبي وحرير الصمغ وعند محي اللوح يستعمل الماء والطين لغسلها ثم تعرض في الهواء وأشعة الشمس لجفافها وصلاحتها للكتابة من جديد.

قد تكون هذه واحدة من طرق عدة مثل ما أورد أبو القاسم سعد الله الذي اعتمد على وصف الزوار الأجانب الذين وقفوا على طرق ومناهج هذا التعليم، والذي عرض وصف بولسكي وأدولف جوان¹، ولكن يبقى الاختلاف بسيطا وغير جوهرى وهذا يعود إلى أنها طرائق موروثه من الفترة الإسلامية حافظت عليها المجتمعات المغاربية كل طول هذه الفترة ولم تحدث بها تغيرات كبيرة رغم طول المدة وتغير الظروف.

المسجد: تعد مؤسسة المسجد المؤسسة الثقافية والتعليمية والدينية الأولى لدى المجتمع الأهلي الجزائري²، وبذلك عرف على المساجد أنها مؤسسة العلم والتعليم بامتياز، وقد تصدت لهذه المهمة منذ فجر الإسلام وحافظت على هذا الدور في بلاد المغرب عموما والجزائر خصوصا من بداية الفتوحات الإسلامية حتى مجيء الاستعمار، وقد كان

¹ - أنظر أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، المرجع السابق، ص 41_42.

² - أحمد مريوش: الحياة الثقافية والاجتماعية في الجزائر خلال العهد العثماني، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 11.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

المسجد قلب القرية في الريف وروح الحي في المدينة، وبذلك كثرت المساجد في الجزائر حتى أنه مع دخول الاستعمار تذكر المصادر المختلفة أن هذه المؤسسة لم تكن تخلو من قرية وحي في كل البلاد.

والجدير بالإشارة أن المساجد قد عرفت تراجعاً كبيراً في العدد والدور منذ بداية الاحتلال وهذا لمبلغ الأهمية التي اكتسبتها وأدركتها الإدارة الاستعمارية فيها من خلال ما كانت تضمنه من دور في الحفاظ على الهوية والدين للمجتمع الأهلي المسلم، وقد كان هذا التراجع قد مس الحواضر بداية ثم طال الأرياف تبعاً لمراحل توغل الاحتلال فيها¹.

كان العنف الموجه ضد أهم مؤسسة ثقافية للأهالي قد ألقى بظلاله بعد سنوات قليلة على التعليم حيث قل عدد المعلمين والمتعلمين، فالموت في الجهاد والمقاومة أو النفي والهجرة والتهجير قضت على أبرز علماء ومعلمي مساجد الجزائر، والوضع الاقتصادي ومضاعفات السياسات الاستعمارية الأخرى ترك الجزائري يجعل من تعليم أبناءه أمراً ثانوياً، كل هذا جعل من الثقافة تنضب في الوسط الأهلي بشكل جعل الأمية والخرافة هي السمة البارزة على هذا المجتمع الذي أثقلته عادات زمن الاحتلال على كل قطاعاته².

غير أن هذا لا يعني أن المجتمع الأهلي بقي راضياً على هذا الوضع الذي آلت إليه مؤسساتهم الدينية والثقافية المركزية، فهم الآخرون كانوا يخوضون غمار التحدي بما أتاحت لهم من حيلة وإمكانية لبناء مسجد، التي كانت تواجه محاربة كبيرة من المستعمر لكن ذلك لم يمنع من تشييد الأهالي لمساجدهم في الأرياف من حين إلى آخر.

هذا الإصرار الأهلي على التحدي أمام توجهات ورغبة الإدارة الاستعمارية بشأن الثقافة والمرافق التعليم العربي الإسلامي، جعلها تنتصر أو على الأقل تحد من الهجمة العنيفة والتعدي المتوحش المبرمج تجاه الثقافة الأهلية ومؤسساتها ورجالها.

غير أن هذه المؤسسة على وجودها العقاري "المادي" والذي كان يتوسع بعد فترة تراجع، لم يستعد دوره الثقافي والتعليمي ولعل هذا يعود لضعف مؤطريه من الأئمة والمعلمين الذي خلفته السنوات السابقة لتراجع الثقافة والتعليم العربي الإسلامي بسبب العوامل سابقة الذكر، حيث اقتصر أكثر معلمي المساجد على شخصيات ذات مستوى متواضع تعتمد في تدريسها على كتب وحواشي لمؤلفات قديمة قد لا يكون له نصيب في فهمها، ويقتصر على قراءتها كما وردت مكتوبة.

والحق أن هذا الحال قد عبرت عنه مساجد المناطق الريفية والتجمعات السكانية النائية أكثر، في حين عرفت بعض مساجد المدن والحواضر الكبرى ظهور شخصيات ومشايخ تمتعوا بدرجة من العلم وذوي توجهات عقلية متطورة، بفضلها منحوا المساجد التي انتصبوا فيها مكانة علمية بارزة كمساجد قسنطينة والجزائر وتلمسان.

¹ - أنظر أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، المرجع السابق، ص 30.

² - المرجع نفسه، ص ص 27_28.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

فحاضرة قسنطينة التي نشطت فيها ثلة من المعلمين كالشيخ المداسي وحمدان لونيبي وعبد القادر المجاوي وابن الموهوب¹ جعلوا من مساجدها منارات للعلم والثقافة الإسلامية وأصبحت مقصدا للطلبة من مناطق الوطن الأخرى خاصة القريبة منها.

كما عرفت مساجد العاصمة وتلمسان هي الأخرى هذه الأهمية وهذا الدور، وبذلك تصدت للجهل في أقاليمها، وبعد فترة من جهد علماءها توسعت إقامة المساجد لتطال المناطق الريفية وتسترجع مؤسسة المسجد عودتها في الوسط الأهلي ولو بشكل يسير حتى وصول الحركة الإصلاحية إليها بعد عقد الثلاثينيات من القرن 20م.

والحقيقة أن مستوى التعليم في المساجد لم يكن واحدا بل عرف تفاوتاً كبيراً، فقد يصل في بعضها إلى التعليم المتوسط والثانوي وفي أخرى إلى العالي، وهناك من المساجد من بقيت بيد معلمين تقليديين لا يفهمون ما يقرؤونه على طلبتهم، كما كانت التعليم المسجدي لا يعتمد منهاجاً واضحاً ومحدداً وقد لا تعرف الاستقرار وبذلك فهي خاضعة لمستوى وشهرة المدرس².

المدرسة: تعد مؤسسة المدرسة في المجتمع الأهلي الجزائري مؤسسة تعليمية قديمة، إذ عرفت انتشاراً وتوسعا منذ العهد العثماني، وكانت بداية نشوء وظهور المدارس كملحقات بالمساجد والجموع الكبرى لتستقل وتكون شخصيتها الخاصة ووظيفتها التعليمية البحتة بعد فترة من الزمن.

والحق أنه رغم ما عرفته بعض المدارس من شهرة وسمعة من العهد العثماني واستمرت حتى بعده مع الفترة الاستعمارية كالكتانية التي أسسها صالح باي بقسنطينة، إلا أن المدارس العربية لم تعرف تطورها وتوسع عددها إلا مع الفترة الاستعمارية على الرغم مما اعتراها في بداية هذه المرحلة من تضيق وغلق حالها حال كل مؤسسات التعليم الأهلي الأخرى.

وقد كان هذا التطور مع التجارب التي أخذتها تلك الشخصيات الأهلية المتعلمة والمثقفة على عاتقها، التي كانت ترنو للخروج بالتعليم العربي الحر من أزمتته وبؤسه، ومحاوله محاكاة التجارب التي كان يعرفها التعليم في البلدان العربية والإسلامية الأخرى أو حتى ما كان يلاحظ على تعليم المدارس الفرنسية.

وعند ذكر المحاولات التأسيسية الأولى التي كانت تقارب التطوير والعصرنة، فإننا لا يمكن أن نتجاوز التجربة المبكرة للشيخ محمد أطفيش ببني يزقن بوادي ميزاب على ما كانت تحمله من إرث تقليدي لكنه استطاع إدخال تحسينات حديثة وجديدة على تعليمه ومدرسته كبادرة نحو التحديث والعصرنة³، سوف تكون ثمارها

¹ - عن هؤلاء وآخرون ودورهم التعليمي انظر بوصفصاف عبد الكريم: الفكر العربي الحديث والمعاصر المرجع السابق، ص 137_153.

² - أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، المرجع السابق، ص 57.

³ - عن هذه التجربة يمكن العودة ل عبد القادر جغلول: الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، تر سليم قسطون، دار الحدائنة لبنان، ط1، 1984، ص ص 11-16.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

لاحقا مع رجال العلم والإصلاح بوادي ميزاب¹، وكذلك مشروع المدرسة الذي أسسه الشيخ عباس بن حمانة بتبسة في مطلع القرن 20م والذي استوفى فيه كل عناصر التحديث من تأييد وتنظيم وتسيير وطريقة ومناهج وغيرها، غير أن هذه التجربة الجاهزة والكاملة لم يكتب لها البقاء بسبب اغتيال صاحبها بعد مدة وجيزة من مباشرته لها، مما فوت على المجتمع الأهلي تجربة رائدة كانت سوف تكون مثال ونموذج ترحمه الوقت الكثير في التأسيس لتعليم عربي عصري².

حتى فترة الحرب العالمية الأولى ومع هذين المثالين بقيت المدارس العربية التي هي تحت ملكية المجتمع الأهلي متعثرة تقدم تعليما ضعيفا من حيث المحتوى والطرائق وحتى التسيير والتنظيم مشدودة بالتقليد والجمود، وتكتفي بالمناهج القديمة والعقيمة مستهدفة ملكة الحفظ وحشو العقول بالمعارف دون استيعاب من قبل المتعلم حالها في هذا حال كل مؤسسات التعليم العربي الأخرى³.

غير أنه مع الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى وما عرفه الوسط الأهلي في الجزائر من هزات، على أثارها السلبية إلا أنها كانت لها إيجابياتها نحو نمو الوعي وظهور روح المبادرة من لدن مجموعات فيه تتبنى من خلالها مبادرات لصالح تطوير هذا المجتمع، وقد كان التعليم أحد أهم هذه المجالات والأكثر استفادة.

فقد كان لعودة مجموعات من شخصيات جزائرية من المهجر خاصة تلك التي تعلمت بجوامع الشرق، الأثر الكبير والفضل في تبنيهم فكرة تأسيسهم لمدارس عصرية وحديثة خرجت من التقليد والعقم السابق التي كانت عليه المدارس العربية الحرة، وهذا يعود لما لاحظوه ونشؤا عليه أثناء تعليمهم وتكوينهم ووقفوا فيه على الفارق الحاصل مع هذا النوع من المدارس.

ويجدر التذكير أيضا أن من صلب الفكرة الإصلاحية التي كان يحملها هؤلاء المثقفون العائدون هو إصلاح التعليم والذي كان الركن الأساسي والعمود الفقري في المشروع الإصلاحي الذي انتصرت فيه فكرة ومنهج التغيير بالتعليم والتربية، فمشروع الإصلاح عند محمد عبده أو المشروع التعليمي للشيخ محمد الطاهر الجزائري أو المشاريع القائمة للجوامع الكبرى في العالم الإسلامي كالأزهر والزيتونة والقرويين، لم تكن غائبة على ذهن المثقفين الجزائريين العائدين من هذه البيئات التعليمية.

إضافة إلى ذلك لا يمكن أن ننكر فضل مثال المدرسة الفرنسية وما كانت عليه من ميزات عصرية إيجابية وقف عليها المثقف الجزائري مباشرة من خلال ما استفاده بعضهم أثناء تعلمه ودراسته بها⁴، فلقد لاحظ فاعلية التسيير والتنظيم ونجاعة الطريقة والمعاملة والوسائل، فكانت المدرسة الفرنسية ولوجودها القريب جدا في الوسط الأهلي والاحتكاك المباشر بها، أثرها في انتقال الكثير من حسنها إلى الأمثلة الجزائرية في المدرسة العربية الحر التي

¹ - أنظر أثر هذه التجربة في الجهد الإصلاحي لابراهيم بيوض، عبد القادر جفلول: المرجع نفسه، ص ص 49_54.

² - عن هذه التجربة يمكن العودة لأبوالقاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3 مرجع سابق، ص ص 242-246.

³ - ايفون تيران: المرجع السابق، ص 51.

⁴ - أنظر اعتراف مالك بن نبي في كتابه: مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر المعاصر، لبنان، بلات، ص 76

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

سوف تظهر، كما كان كثير من المعلمين الاهليين خاصة من كان يمارس الوظيف الرسمي يخضع لمراقبة وتوجيهات بيداغوجية عصرية لمفتشين فرنسيين من خلاله تطور أداءهم، وهذا أكيد ما كان له أثره وطريقه للانتقال حتى للتعليم العربي الحر¹.

هكذا إذا ومع تضافر هذه العوامل وظهور إرادة التحديث والعصرنة في القطاع التعليمي، انتصرت وبوضوح في مؤسسة المدرسة فكان ظهور المدارس العربية الحرة بروح جديدة، كان مشروع المدرسة لابن باديس والذي تبني تطويره الشيخ مبارك الميلي بعد عودته من تونس²، وأيضا كانت مدرسة سطيف للشيخ إبراهيمي 1920م ومدرسة الخلدونية ببسكرة للشيخ خير الدين سنة 1925م، وهكذا كانت تتوالد المدارس العربية الحرة بكل القطر الجزائري حتى تعممت وأصبحت المثال السائد مع ظهور جمعية العلماء وتبنيها المدرسة في مشروع تعليمها³.
الزوايا: تعد مؤسسة الزاوية من أهم المؤسسات الاجتماعية والثقافية في المجتمع الجزائري المسلم، لما تحلت به من أهمية ودور في الوسط الأهلي، فلم يخلو تجمع سكاني منها مهما كانت طبيعته بين المستقر أو المرتحل البدوي أو نصف البدوي أو الحضري أو الريفي.

كانت الزاوية تسدي لشباب المجتمع الأهلي مهمة التعليم والتثقيف والتعريف بدينهم، وقد مثلت أغلبها الحلقة التعليمية بين الابتدائي الذي كانت تتيحه الكتاتيب وبعض أنواع المساجد والتعليم العالي في المعاهد الإسلامية العليا بخارج الجزائر كالزيتونة والقرويين والأزهر والجامع الدمشقي.
والحق أنه رغم ضعف تعليمها وتراجع أداءه ومضمونها خلال الفترة الاستعمارية لما فرض عليها من مراقبة بتهمة أنه تعليمها مصدر للكراهية والمقاومة⁴، فإن بعض الزوايا غطت نقصا فادحا في التعليم تركته هذه الظروف الداخلية زيادة مانتج عن قطع الصلة مع المشرق العربي الإسلامي.

وجدير بالتنويه أن أخرى منها قد حافظت على إسدائها تعليميا يعكس المستوى المحترم الذي كانت عليه كزاوية بشطارزي بقسنطينة أو زاوية خنقة سيدي ناجي أو طولقة وأولاد جلال وزاوية شلاطة بيجاية وحتى زاوية الهامل ببوسعادة، لقد كانت هذه الزوايا مراكز إشعاع في أقاليمهم للتعليم والثقافة العربية الإسلامية التي عمل الاستعمار على تحفيفها في الوسط الأهلي.

لقد توفرت هذه الزوايا على مشائخ وعلماء على مستوى علمي ومعرفي والتزام ديني أهل مؤسسائهم لأن تكون قطبا يقصدها الطلبة من كل أنحاء مناطق إقليمها ومنها ما كانت ذات بعد وطني، وقد أعدت هذه الزوايا نفسها لهذه المهمة من خلال توفير المأوى والمأكل للطلبة الوافدين والقاصدين أخذ العلم منها⁵.

¹ - أنظر ابن القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3 مرجع سابق، ص 102_ 156.

² - انظر المبحث اللاحق التجربة التعليمية للشيخ مبارك الميلي: ص 127.

³ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3 مرجع سابق، ص 251

⁴ - علي مراد: مرجع سابق، ص 63.

⁵ - عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي مرجع سابق، ص 127.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

فعرف على أكثر أصحاب الزوايا التعمق في العلم والتأليف في مختلف فنونه فكان الأمير عبد القادر شيخ طريقة ومؤلف موسوعي اشتملت كتاباته التصوف والفقه والسياسة والشعر ومثله الشيخ محمد بن عبد الرحمان القشتولي والذي سارى على خطاه جل تلاميذه كالشيخ مصطفى باش تارزي* وعبد الحفيظ الخنقي** ومصطفى بن عزوز البرجي*** وعلي بن عمر بن عثمان الطولقي****.

وقد تبنت هذه الزوايا مناهج وبرامج تعليمية في اللغة والأدب والمنطق والتفسير والفقه، جعلت من علوم العربية والإسلامية وثقافتها باقية في تصدي وتحدي لكل محاولات الإضعاف والحو، وقد ساهمت زيادة على تخريج العديد من الطلبة الذين نبغوا في مختلف أنواع فنون العلم ومنهم من تصدى للتعليم والفتوى في جهاتهم أيام عز المتعلم في الوسط الأهلي ومنهم من واصل تعليمه بنجاح في جامعات المشرق الأخرى بفضل التعليم القاعدي الذي أخذه من هذه الزوايا.

لكن تبقى أغلب الزوايا المنخرطة في الطرق الصوفية قد حادت وجانبت مهمتها ودورها التعليمي، لصالح خدمة الإدارة ولم يبق من دورها غير ذلك الدور البائس في تقديم معارف ميتة وبطريقة بائسة لا تخدم حاجات المتعلم العقلية ولا الحياتية، ما زاد في ضعف وجمود الثقافة في الوسط الأهلي.

2_ واقع التعليم العربي الحر

وإن عازتنا الإحصائيات الدقيقة على واقع التعليم العربي الحر، فإن وضعيته جعلت من المجتمع الجزائري قليل الأمية عارف بالكتابة والقراءة مثل ما أشارت العديد من التقارير الفرنسية والأجنبية غداة الاحتلال، فهذا دوماس(Dumas) مدير شؤون الجزائر يصف وضع التعليم بالجزائر عام 1850: ((.. أن التعليم الابتدائي كان أكثر انتشارا مما نعتقد عموما، وقد أظهرت علاقاتنا مع أهالي المقاطعات الثلاثة، أن متوسط عدد الأشخاص من جنس الذكور الذين يعرفون القراءة والكتابة يساوي على الأقل المتوسط الذي أعطته الإحصائيات عن أريافنا... فهناك حوالي 40% من دون شك... لقد كان لجميع القبائل والأحياء الحضرية معلم مدرسة قبل

*- عبد الرحمان باش تارزي توفي 1807م من أصول تركية من أهل الجزائر العاصمة تتلمذ واخذ العلوم والطريقة على يد عبد الرحمان الأزهري تم أمره للتوجه لناحية قسنطينة لنشر الطريقة وفيها أقام وأسس زاويته التي أصبحت مركز اشعاع رحماني بالإقليم

** - عبد الحفيظ بن محمد الخنقي 1789-1850 أخذ الطريقة على يد الشيخ محمد بن عزوز ثم أسس زاويته بأمر من معلمه ونشر الطريقة على طلابه الذين قصدوه من نواحي عديدة وخاصة من الزيان والأوراس.

*** - محمد بن عزوز البرجي 1757-1818 حفظ القرآن واخذ العلم على يد والده احمد بن يوسف ثم اتصل بالشيخ عبد الرحمان الأزهري واخذ عنه تعاليم الطريقة ثم واصل التربية بقسنطينة على يد الشيخ باش تارزي وأمره بالعودة إلى منطقتة لنشر الدعوة الرحمانية وهناك أسس زاويته وتصدى للتدريس بما فاشتهر أمره فقصدته الناس ونشر تعاليم الطريقة على تلاميذه واتي نقلوها إلى مناطقهم فوصل إلى الجنوب والاوراس.

**** - علي بن عمر الطولقي 1754 أخذ الطريقة على يد محمد بن عزوز ولما بلغ من العمر 28 سنة أمره بتأسيس زاوية ببلدته طولقة لنشر العلم وتعاليم الطريقة والتي أصبحت قبلة لطلبة العلم، كما أوصى محمد بن عزوز بخلافته توفي اثر إطلاق رصاصة خطأ حين كان يبادر لحل خلاف بين قبيلتين متناحرتين.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

الاحتلال الفرنسي...))¹، وقد قدر أيضا "دوماس" عدد المزاولين للدراسة في المدارس القرآنية للدروس المتوسطة في كل مقاطعات الوطن ب حوالي 2000 أو 3000 بينما حسبه يصل عددهم من أولئك المتمكنون من دراسة علوم القانون وعلوم الدين إلى حوالي مابين 600 إلى 2800.

وبذلك يمكن أن نصف أن التعليم في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي، كان ذو توسع كبير حيث انتشرت عبرها أكثر من ألفي مدرسة للتعليم الابتدائي والثانوي والعالبي، يتولى التدريس فيها نخبة من الأساتذة الأكفاء، ويقصدها طلاب للدراسة بها متعطشون للتزود بالعلم والمعرفة، بالإضافة إلى تواجد مئات المساجد والزوايا التي كانت تسدي تعليما للعلوم الشرعية والنقلية ولغة العربية لطلابها³، فهي تسهر بذلك على أداء مهمة تثقيفية ودينية ووطنية تجعل من المستفيد منه يعي ذاته الحضارية.

ولما كانت تسديه هذه المؤسسات من معارف في مختلف العلوم الدينية والعربية، فقد منحتهم قدر من المستوى الفكري والثقافي في الدين والعربية، وبذلك كان المجتمع الجزائري يتقدم في هذا الأمر حتى على تلك المجتمعات المتقدمة⁴.

هذه الوضعية الزاهرة التي وجد عليها التعليم الأهلي تركت هدف القضاء عليه إحدى المهام الرئيسية في إستراتيجية السياسة الثقافية للاستعمار التي بها يمكن التمكين من الجزائر، لأن القضاء على التعليم العربي هو وسيلة لمحو هوية المجتمع الجزائري المسلم بكل عناصرها " الدين، اللغة والوطنية"، من خلال إدراكه أهمية ما تلعبه اللغة والدين في حفظ كيان المجتمعات المسلمة.

جاء مخططه لتدمير اللغة العربية والدين وإضعافهما بإعلان حرب عنيفة عليهما من خلال إعاقة التعليم الذي كان القناة التي تتكفل بهما، فعمد الاستعمار إلى سياسة التجهيل التي تعد جريمة في حق هوية هذا المجتمع لا تقل عن جرائمه العسكرية والاقتصادية، وذلك لما أقدم عليه من خطط ممنهجة، والتي تمثلت في استيلائه على الأوقاف الإسلامية التي كانت تمثل المورد الأساسي - الممول الأساسي للمدارس التعليمية والمتعلمين في الجزائر- كما قام بإصدار قرارات وقوانين تقضي بغلق المدارس العربية الحرة والكتاتيب، وحصر التعليم على المساجد التي هي الأخرى تعرضت أغلبها للتدمير والتحويل لعقارات أخرى ككنائس أو كنائس وحتى تلك التي بقيت تزاوّل مهمة التعليم فإنه عمل على تحجيمه فيها من خلال حصره في تحفيظ القرآن للصبية فقط⁵.

ومن أجل ذلك سنت ترسانة من القوانين كقانون 24 كانون الأول-ديسمبر 1904م الذي ينص على:

¹ - ايفون تيران: المرجع السابق، ص 135.

² - المكان نفسه.

³ - بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، ط2، دار النفائس، (دت)، 1983، ص 48.

⁴ - أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص 62.

⁵ - أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر مرجع سابق، ص 95.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

— عدم السماح لأي معلم مسلم أن يتولى إدارة مكتب لتعليم اللغة العربية بدون رخصة، يمنحه إياها عامل الولاية أو قائد الفيلق العسكري، ويعد فتح مكتب بدون رخصة اعتداء على حدود القوانين الخاصة بالأهالي¹. وتجدر الإشارة أن هذه الرخصة التي فرضتها الإدارة الفرنسية كانت قائمة على شروط من الصعب توفرها من جانب المعلم الجزائري المسلم، وأرفقت هذا القانون بإجراءات المراقبة الشديدة والصارمة على رجال التعليم ومؤسساته من خلال معاينة مضامين المواد المعنية بالتدريس والتي حددتها في ما يلي:

- 1- حصر التعليم على تحفيظ القرآن.
 - 2- عدم التعرض بأي وجه كان إلى تفسير الآيات القرآنية ومنها تلك التي توحى بالجهاد أو تنمي الوعي إلى محاربة الظلم والاستبداد.
 - 3- منع تدريس تاريخ وجغرافية الجزائر والأمة العربية الإسلامية.
 - 4- استبعاد الأدب العربي بجميع فنونه والامتناع عن تعليم المواد العلمية الرياضية.
- ساهمت هذه الشروط في إضعاف فاعلية التعليم العربي، بسبب ما نتج من تراجع في محتوى مقرراته التي كانت تعد محور العملية التعليمية، وبذلك تراجعت الثقافة العربية الإسلامية و تنامي الجهل. كل هذا كان هدفة إضعاف الهوية الجزائرية لدى ساكنتها، حتى تكون مرحلة لتعظيم الثقافة الفرنسية من حيث لغتها وتاريخها ودينها، وبذلك يسهل التحكم فيهم ومسح هويتهم وشخصيتهم بسهولة. وواصلت التبعات القانونية لسياسة التضييق على التعليم العربي، فنص القانون أيضا على أنه لا يجوز لمكاتب تعليم العربية أن تفتح أبوابها للأولاد الذين هم في سن التعليم أثناء ساعات التعليم في القسم الفرنسي، وذلك في المناطق التي تبعد ثلاث كيلومترات عن المدرسة الفرنسية².
- لقد صدر هذا الجزء الأخير من القانون بعدما لاحظت الإدارة الفرنسية عزوف أهالي المجتمع الجزائري المسلم في إرسال أبناءهم للمدارس الفرنسية، فرأت أن فتح مؤسسات المساجد والكتاتيب لتعليم العربي تعتبر منافسة لمدارسها، لذلك قررت غلق كل الأبواب التي ترى أنها يمكن أن تكون عائقا في تنفيذ مشاريعها. وبسبب هذه السياسة الاستعمارية التي أفرغت الفضاء التعليمي والثقافي الأهلي من كل عوامل البقاء والحياة، وأحاطته بأجواء الجهل والتخلف الثقافي، مما أحدث اضطرابا كبيرا في مجال التعليم ولفترة طويلة جعلت من وجوده صعب على المتعلمين والمعلمين³.
- وتجدر الإشارة هنا إلى أن السلطات الفرنسية قامت بفتح مدارس للتعليم الفرنسي وذلك منذ سنة 1883م والتي اعتبرتها كبديل عن المدارس العربية التي أغلقت معظمها.

¹ - بسام العسلي، المرجع السابق، ص50.

² - المرجع نفسه، ص51.

³ - المرجع نفسه، ص52.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

والحق أن تعليم الجزائريين في هذه المدارس الفرنسية لم يكن من أجل رفع مستواهم الثقافي، بل هدفها الوحيد هو نشر الثقافة الفرنسية¹ أو إيجاد موظفين بالسلك الديني بتكوين ثقافي وديني يخدم سياساتها أو قد تكون ترمي من خلاله إيجاد إسلام رسمي " فرنسي " يتماشى والثقافة الفرنسية ومصالح السياسة الاستعمارية ويعوض الإسلام الجزائري.

ونخلص مما تقدم حول وضع التعليم الذي كان الرافد الأساسي للثقافة في الجزائر، أن حركته في بداية الاحتلال كانت مزدهرة وهي تلك الوضعية التي ورثها المجتمع الجزائري عن الحقبة العثمانية، غير أنه تعرض لصعوبات جعلت منه ينحصر في وجوده ونوعه حيث لم تمر عقود من الاحتلال حتى أصبح التعليم العربي تعليماً دينياً بحتاً وفي أغلبه أولي لا تتعد مهتمته القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم، ولا يمتلك أصحابه له خطاً أو برنامجاً بل لفته العشوائية والعفوية، ما تركه بئساً لا يثير فضول المتعلمين ولا ينمي ملكاتهم الجميلة ولا يتماشى وحاجات الناس حتى أن مخرجاته غير مؤهلة للإيفاء بالحاجات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمجتمعهم، على الرغم مما كانت تمثله مؤسساته هذه الضعيفة من قيمة ودور في بقاء التراث والثقافة العربية الإسلامية في الوسط الأهلي حية حتى تولى رواد الإصلاح والتجديد زمام المبادرة في نهضة ثقافة وحضارة هذا المجتمع المعتدى عليه، فانطلقوا من هذا الجهد ليطم تطويره بمثال العصر حتى يكون فعالاً وحياً يتماشى وقضاياها.

ثانياً: الصحافة في الجزائر.

تعد الصحافة وسيلة عصرية فعالة وفضاء حيويًا للنشاط والنضال الثقافي والسياسي، دخلت الصحافة الجزائر مع الاحتلال الفرنسي لها وبذلك لم يعرفها المجتمع الجزائري المسلم إلا معه، فكانت بدايتها مع الصحف الفرنسية، وقد وظفت لمهام الغزو أين كانت سياستها العامة ومواقفها تتوافق مع السياسات العسكرية والاقتصادية الرامية لاحتلال الجزائر.

ذلك أن مضامينها كانت تعني اهتمامات مصالح الإدارة الفرنسية ومجتمعها الكولونيالي، في حين غاب عنها كل ما يعني المجتمع الجزائري المسلم، وهو ما كان يعكس توجهها وحمولتها الأيديولوجية الاستعمارية²، هذا الخط الاستعماري للصحافة جعل منها غريبة عن المجتمع الجزائري المسلم.

مع الزمن والإحتكاك وما نتج من تثاقف فرضه الواقع وتطوراتها شيئاً فشيئاً دخلت الصحافة اهتمامات الجزائريين، وانتقلت إليهم كوسيلة دعابة ونشاط ثقافي وحتى ميدان نضال سياسي ووطني

وتجدر الإشارة إلى أن أول ظهور لها بالجزائر يؤرخ له عام 1848م كان بعنوان " جريدة المبشر " والتي صدرت باللغتين العربية والفرنسية، وكانت تتولى نشر النصوص التشريعية والأوامر والبيانات الحكومية، كما كانت موجّهة للقضاء على روح المقاومة ورجاها، ثم تلاها صدور جرائد وصحف أخرى حملت نفس التوجه، فظهرت

¹ - أحمد توفيق المدني: مرجع سابق، ص 97.

² - أحمد الخطيب: مرجع سابق، ص 1.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

سنة 1903م صحيفة الأخبار ل"فيكتور باروكان" التي أضافت إليها ملاحق باللغة العربية، ثم أصدر "ألبير فونتانة" جريدة المغرب باللغة العربية في نفس العام¹.

لم تبادر النخب الجزائرية في إنشاء الصحافة إلا في أواخر القرن التاسع عشر (19م)، ويذكر لسليمان سمر أول مبادرة أين قام بإصدار أول جريدة باللغتين الفرنسية والعربية، وهي جريدة الحق التي صدرت في تاريخ 30 جويلية 1893م.

أما عن الجرائد ذات التوجه الوطني فلم تظهر في الجزائر ابتداء من عام 1908م، وذلك عندما أصدر الفنان عمر راسم جريدة بعنوان "الجزائر" بتاريخ 27 أكتوبر 1908م التي كانت تحمل الهموم والقضايا الوطنية للمجتمع الجزائري المسلم، ولم تعمر هذه الصحيفة طويلا، إذ تعرضت للمنع بعدما صدر منها عددان فقط².

بعد هذه المبادرة الجريئة والأولى التي قام بها عمر راسم* بإصداره لأول صحيفة وطنية باللغة العربية، توالى من بعده جرائد أخرى من هذا النوع، فصدرت جريدة الفاروق بتاريخ 28 فيفري 1913م والتي كانت برئاسة عمر بن قدور، الذي يعتبر من أتباع مدرسة الإصلاح الإسلامي المتأثر بالشيخ محمد عبده ومجلة المنار للسيد رشيد رضا. فكان يحاكي تجربتها في محاربة البدع والخرافات وتحريض الوعي بقضايا الأمة.

وبتاريخ 05 أكتوبر 1913م يجدد عمر راسم إصداره صحيفة محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغاني، ولم يكتب لهذه الصحيفة البقاء، إذ مع إعلان الحرب العالمية الأولى أوقفت الجريدة وألقي القبض على عمر راسم بتهمة الاتصال بالعدو³.

حتى هذه الفترة ظهرت أقلام ثقافية وفكرية جزائرية اشتغلت على الصحافة كفضاء ومساحة ثقافية جديدة لتبليغ أفكارها، معالجة من خلالها مشاكل وإشكاليات المجتمع الأهلي، خاصة ما تعلق بالمسائل الحضارية والوعي والإصلاح، ولعل اللجوء للصحافة من قبل هذه النخب هو الوعي بأهميتها البالغة كوسيلة متحركة سريعة الانتشار والبلوغ لأماكن بعيدة، لا يمكن أن توفرها الفضاءات الساكنة كالمسجد والمدرسة اللذان كانا الفضاءات الأكثر احتكارا لإنتاج وتلقي الثقافة والفكر عند المجتمع الجزائري المسلم.

من هذه الميزة كان بالإمكان للصحافة الجزائرية أن تمثل منطلق نخضة علمية وقومية واسعة لضرب الركون والجمود الثقافي والحضاري الذي كان يسود المجتمع الأهلي، غير أن القوانين الجائرة والسياسات الاستعمارية التي كانت تتكفل بوضع العراقيل والعوائق في وجه أي مبادرة من شأنها أن تفتح أفق التقدم والتطور للأهلي، كانت وراء التضيق والحرمان والتوقيف الذي عرفته الصحافة الوطنية الناشئة والأقلام المناضلة تبعا لقانون الاندماج الجائر الذي أصدرته وحرمت به الجزائريين من حرية تناول قضاياهم.

¹ - تركي رايح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر مرجع سابق، ص 137.

² - أحمد الخطيب: مرجع سابق، ص ص 71-73.

³ - تركي رايح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، مرجع سابق، ص 140.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

والحق أنه عقب الحرب العالمية الأولى كانت هناك نتائج عدة مثلت فوائدها على الصحافة الجزائرية، ذلك أنه ما تبعها من تغيير في الأحوال وهذا بناء على ما أفرزته من تطورات فكرية، ضمنيتها دعوات حركة الحرية العالمية والتي تسرب النزير اليسير منها إلى الجزائر والذي تأكدت مع تلك الإصلاحات الشحيحة لقانون كليمنصو في فيفري 1919م، فكانت حرية الصحافة أهم جانب فيها والتي مكنت الجزائريين من إصدار عدد معتبر من الجرائد التي افتكت شهرتها وتوسعتها في الوسط الأهلي¹ كالنجاح والإقدام والمنتقد والشهاب لتتزايد عدد الصحف ذات البعد الوطني عام بعد آخر تبعاً للحراك والنشاط الوطني المتزايد، متولية مهمة النضال في القضايا الوطنية المتطورة والمتنوعة.

هكذا إذا كانت الصحافة الوطنية فضاء جديداً للجزائريين لحمل قضاياهم والتعريف بها ومجالاً للنضال ومنبراً للوعي من خلالها كانت النخب المثقفة والسياسية تعدها ساحة نشاط فعال يوصل بينها وبين المجتمع الأهلي المعني بنضالهم مع مختلف فئاته وأطيافه ومناطقه من جهة وحتى الإدارة الاستعمارية من جهة ثانية.

لقد ساهمت الصحافة كوسيلة نضال عن الجزائريين في تحريك الجو الراكد الذي كان سائداً لدى المجتمع الأهلي، فدفعت من خلالها كوامن القوة والحياة، واستغلها بذلك كل طرف وجهة ثقافية أهلية للنضال وتبليغ أفكارها، وقد كان أحد أهم هذه الجهات التيار الإسلامي الإصلاحية الذي كانت فلسفته على ما يبدو مبنية على استغلال كل الوسائل والإمكانات في معركته مع التخلف والجمود والاستعمار.

فكانت الصحافة عندهم مساحة لنشاطهم السياسي ومنبراً لمعالجة القضايا الاجتماعية وميدان نضال في معركتها مع الاستعمار، والأكثر من ذلك مدرسة ومسجداً للتعليم، من خلالها تم التعريف بالأفكار الإصلاحية بطريقة تعليمية مميزة، أخذت صفة الجودة والتجديد؛ في لغتها ومحتواها ومنهجية معالجتها.

ثالثاً: السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر.

لم تقتصر السياسات الفرنسية الاستعمارية على الجانب الاقتصادي والعسكري والسياسي بل عرف الجانب الثقافي هجمة شرسة لا تقل ضراوة عن الجوانب السابقة الذكر، ولأن الاستعمار الفرنسي كان استعماراً استيطانياً ينوي ويعمل على التعمير في أرض الجزائر إلى الأبد، فقد كانت سياساته شاملة ومركبة لا تنفصل الواحدة عن الأخرى، ولذلك عملت فرنسا على تكريس ثقافتها من خلال المحاور التالية.

الفرنسية: خاضت فرنسا مشروع الفرنسية في الجزائر تحت فكرة رسالة التمدن المنوطة لفرنسا اتجاه مستعمراتها الجزائر، والحقيقة أن معنى التمدن كان يعني حسب الأدبيات الفرنسية التي تغنى بها سياساتها ومفكراتها، هو حمل المجتمع الجزائري المسلم على القيم والثقافة الفرنسية بدءاً من لغتها وعاداتها وأخلاقها، وبذلك عملت فرنسا على

¹ - أحمد الخطيب: مرجع سابق، ص 76.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

نشر اللغة والثقافة الفرنسية في الجزائر في نية محاولة طبع الجزائر بالطابع الفرنسي، وقد اشتغلت في هذه الغاية على محور التعليم والمعاملات الرسمية متجاهلة الثقافة الأهلية الجزائرية.

فأما عن التعليم فقد سارت السياسة الفرنسية في مجاله على فرنسة شاملة في مختلف مراحلها، من مناهج ونظم وكتب ولغة تدريس وإدارة تعليمية وسياسة تربوية عامة، وكان الهدف منها صبغ البلاد بصبغة فرنسية حتى تنقطع جميع الصلات التي تشد الجزائر بماضيها العربي الإسلامي¹.

ومن جهة أخرى كان الخطاب التربوي المدرسي الموجه لأبناء المجتمع الأهلي قد ركز على التأكيد على الدور الحضاري لفرنسا اتجاه المستعمرين وتذكير هؤلاء الآخرين بواجبهم الأخلاقي الذي يتضمن " الحب والتقدير والوفاء للوطن فرنسا".

لقد كان التاريخ مجالا بالغ الأهمية للتوجيه؛ لذلك سهر علماء التاريخ والآثار الفرنسيين في البحث عن تاريخ الجزائر تحت الحكم الروماني، وفي عهد الاستعمار الفرنسي فقط، وعدم الاهتمام بالفترات الواقعة ما بينهما، وهذا من أجل توجيه قناعة الجزائريين بأن بلدهم فرنسية حاضرها ومستقبلها ورومانية في ماضيها، وتجاوز فترة الحضور العربي والإسلامي في نية لمحو التكوين الحضاري لهذه الحقبة.

ومما جاء أيضا في مناهج التدريس، التركيز على تاريخ وجغرافية فرنسا، لأن مادتي التاريخ والجغرافيا من المواد التعليمية ذات الإستراتيجية الخطيرة في بناء الكيان القومي والوطني للمتعلمين، فلم تقتصر مهمة تدريس التاريخ على مجرد التعرف على الأحداث الماضية بل كان يهدف من وراءها إلى تحقيق فكرة التفوق والإعجاب بفرنسا مقابل الدونية لجهة الأهلي ويبدو واضحا ذلك مثلا من خلال إدراج كثير من المفاهيم تجعل تاريخ الجزائر يرتبط ارتباطا وثيقا بالتاريخ الفرنسي أو تهميشه أحيانا كثيرة، نستحضر مثلا عبارة كواحدة على هذا التوجه الذي كثرت به كتب التاريخ المدرسي: ((كانت بلادنا قديما تسمى الغال، وكان أجدادنا يسمون الغاليين...))²، أو جعله في وضعية مقارنة بين الحالة ما قبل الاستعمارية وأثناءها، وذلك بورود نعوت تصف الجزائر قبل الاحتلال 1830م "بجالة الهمجية والبربرية Barbare" وهو ما يدعم النظرة الاستعلائية والعنصرية التي تدفع المتعلمين من أبناء الأهالي إلى الإعجاب بقوة الجنس الآري وإنجازاته خلال كل الفترات التاريخية.

كما مس هذا التوجه الاستعماري تاريخ الجزائر في المدارس العربية الحر للمجتمع الجزائري المسلم، التي كان من المفروض أن تتبع رؤيتها؛ أفكار وتوجهات أصحابها وممن سهر على إقامتها وتمويلها، غير أن شروط رخص فتح المدارس من الإدارة الفرنسية³ هو ما فرضه هذا الواقع.

¹ -Ali Merred, le réformisme musulman en Algérie, les éditions el Hikma, Alger, 1999, pp170-171.

² - رابح تركي: التعليم القومي، مرجع سابق، ص 116.

³ - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 1، ط 1، دار الغرب الإسلامي 1996، ص 26.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

وقد فرضت فكرة فرنسة الجزائر ونشر اللغة الفرنسية كلغة مهيمنة نفسها على المسؤولين الفرنسيين فكانت التعليمات والأوامر التي صدرت في أوائل أيام الاحتلال بعد الشروع في تنظيم الإدارة كلها تؤكد ذلك، فجاء في أحد التصريحات ما يلي : ((إن أريالة الجزائر لن تصبح حقيقة مملكة فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا هناك لغة قومية، والعمل الجبار الذي يترتب علينا إنجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي بالتدرج إلى أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة بينهم الآن.)).

وفي نص آخر صدر سنة 1849 جاء فيه ما يلي: ((لا ننسى أن لغتنا هي اللغة الحاكمة فإن قضاءها المدني الجزائري والعقابي يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللغة يجب أن تصدر بأعظم ما يمكن من السرعة جميع البلاغات الرسمية، وبها يجب أن تكتب جميع العقود وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا..)).¹

هذا وقد أدت السياسة الفرنسية في التعليم الفرنسي بالجزائر إلى تشكيل نخبة جزائرية مفرنسة متعلمة باللغة الفرنسية، وكثير منهم انبهر بالثقافة والحضارة الغربية منها والتقاليد الفرنسية واتجه خطه الفكري والثقافي على نحو الفكر الغربي الفرنسي، فأصبحوا من المتحمسين لسياسة الإدماج والتجنيس، غير أنه هناك جانب إيجابي لهذه الظاهرة حيث برز في هذه الجماعة من برع في الميدان الثقافي والأدبي باللغة الفرنسية فظهرت لهم إبداعات مختلفة رائعة في القصة والرواية والشعر التي نافست أشهر الكتاب الفرنسيين، ومنهم من بقي متمسكا بأصوله وأسهم فيما بعد في نشر الوعي الوطني بعد تأسيس الأحزاب السياسية الجزائرية مسخرا ثقافته وتعليمه لخدمة القضية الوطنية. ورجال الطرق الصوفية المنحرفون الذين اشتغلوا بالدعاية للسياسة الفرنسية، ومحاربة كل محاولات الخروج عن طاعة فرنسا ونشر الفتاوى المظلمة وغير ذلك من ممارسات الشعوذة والأكاذيب والأباطيل والبدع والخرافات، كل هذه الأعمال استغلها الاستعمار الفرنسي لتحقيق أهدافه في تشويه صورة الإسلام في أنظار المواطنين، وخاصة منهم الشباب المتخرجين من المدارس الفرنسية الذين فروا من الدين الإسلامي إلى فكرة الإلحاد من جراء ذلك، ومن أجل أن يحافظ على هذه الفائدة عمل على ترويج أفكار الطرق وترسيخ مفاهيمها في نفوس الناس.² أما مجال المعاملات الرسمية والتي أخذت فيها المعاملات الإدارية الحيز الكبير فقد كان لاعتماد اللغة الفرنسية في المعاملات المكتوبة والمنطوقة لاعتبارها القانوني اللغة الرسمية الوحيدة، أثرها في توسع اللغة الفرنسية واستقوائها وتهميش اللغة العربية، فقد كانت وثائق العقود المختلفة والمنشورات الرسمية وحتى الصحافة ولغة الثقافة والمعرفة، أن نظر إليها بعد عقود من الزمن الاستعماري أنها اللغة الفاعلة التي تقضى بها الحاجات وبذلك تعلق قيمتها النفعية من أهميتها وحاجة تعلمها واستخدامها في حين تتراجع اللغة العربية التي ضيق عليها وتم إضعافها للحاجات التعبدية التي هي الأخرى تناقصت بفعل سياسة التجهيل تسهيلا للدمج.

¹ - رابح تركي: التعليم القومي المرجع السابق، ص 108، نقلا عن ساطع الحصري: ماهية القومية، ط4، دار الملايين، بيروت 1963.

² - مبارك الميلبي: رسالة الشرك ومظاهره، ط5، دار الغرب الإسلامي، 2000، ص22.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

التنصير:

كان العامل الديني أحد أهم دوافع الاحتلال، وقد أكدت وقائع الحال طيلة سنوات الاستعمار ممارسات وسياسة فرنسا لتنصير المسلمين الجزائريين، ذلك أنه من البداية كانت حملتها العسكرية على الجزائر، مصحوبة بعدد معتبر من المنصرين، ثم تواصلت في سنوات الاحتلال بفسح الإدارة المجال واسعا أمام البعثات التبشيرية التي كانت تقيم مراكزها في كل منطقة يتم احتلالها، لقد كانت رعاية التنصير بالغة من قبل قادة الاستعمار، جاء في تصريح الحاكم العام دوبورمون* لمجموعة المبشرين الذين رافقوا الحملة: ((لقد جئتم لتعيدوا معنا فتح الباب على مصراعيه لتدخل المسيحية إلى إفريقيا وإننا لكبيروا الأمل أن تعم دياتنا هذه الربوع قريبا لنعمل من جديد على ازدهار المدينة التي انطفأ نورها منذ عدة قرون.))¹.

كما كانت فرنسا تتكلم مصرحة بهدفها في الجزائر قائلة: ((إن جبال الأطلس هي جبال الألب، وإن نهر الشلف هو نهر السين وإن الصحراء هي المروج، وإن اللغة العربية هي الفرنسية، وإن الإسلام هو المسيحية وإفريقيا هي أوروبا.))

كل هذه الشعارات توحى إلى الغاية الحقيقية التي تسعى فرنسا لتحقيقها في الجزائر، وهي القيام بتغيير كل شيء فيها حتى يتحول إلى أملاك فرنسية، أي أن تتحول الجزائر بصفة عامة إلى قطعة من فرنسا ماديا وحضاريا. كان المبشرون يستغلون كل فرصة يجودونها مناسبة لتطبيق مخططهم التنصيري، ومن ثم كان استغلالهم للمجاعة التي حلت بالجزائريين سنة 1867م، التي كانت كنتيجة للأعمال الشنيعة التي قامت بها فرنسا عندما طبقت على الجزائريين سياسة الأرض المحروقة التي خلفت أزمات بشرية واقتصادية حادة، فقد كان الكاردينال لافيغري (أسقف الجزائر)** حينها يطوف عبر الأنحاء التي فتكت بها المجاعة والأمراض، والصليب في يمينه والخبز والدواء في شماله، وجمع طائفة كبيرة من الأيتام لتربيتهم في ظل الكنيسة².

وبالإضافة إلى هذا فقد توافرت شواهد كثيرة أجمعت كلها على أن المبشرين الذين سبقوا الحملة الاستعمارية، مثلوا أبشع تمثيل لعقلية الاستعمار البغيضة والقائمة على التقتيل الجماعي، وتعميم الفوضى في المغرب الإسلامي عامة والجزائر خاصة، كل هذا من أجل أن يتموضع الجزائري أمامهم في موضع ضعف فيستغلونه

*- دوبورمون: هوليس ذي منازل الملقب بالكونت ديبورمون عين وزيرا للحربية بعد أن اختاره الملك شارل العاشر لمهمة قيادة الحملة العسكرية على الجزائر.

¹- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج4، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص320.

** - شارل لافيغري: هو كاردينال فرنسي عمل أستاذ تاريخ بجامعة السربون بباريس، انتقل إلى الجزائر 1867م، حيث أصبح من أكبر أساقفتها واهتم بالتبشير.

²- تركي رابح، الشيخ عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر مرجع سابق، ص68.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

بقهر، بربط شرط إعانته بالتخلي عن الدين الإسلامي، واعتناق المسيحية كما قام المبشرين باستغلال الأطفال ببناء دور الأيتام وإدخالهم فيها ملء أدمغتهم بالمسيحية وتزييف ومحو صورة الإسلام¹.

زيادة على هذا عمد المستبشرون المسيحيون أيضا إلى فصل المناطق التي لا تزال تتحدث باللهجة البربرية عن بقية الوطن، بدعوى أن الجزائر مكونة من عنصرين العرب والبربر (الأمازيغ)، فزعمت بأن هؤلاء الأمازيغ لم يبلغ الإسلام إلى قلوبهم، وهم أميل إلى التحاكم إلى أعرافهم بدلا من الأحكام الإسلامية، ومن هذا جاء قرارها بإلغاء المحاكم الإسلامية في القبائل واستبدالها بالجماعات القضائية، كل هذا من أجل إثارة الفتنة بين الجزائريين لتمزيق وحدتهم التي صنعها الإسلام، كما سعوا من هذا-خدمة لمصالحهم- بكسب العنصر الأمازيغي وتنصيره، فقد جاء في إحدى المجلات الكاثوليكية: ((...إن البرابرة قريبون من الإنجيل، وأساطير الإنجيل التي تفيض بحياة الرجل تصف حياة شبيهة بحياتهم، وأمثال الإنجيل تشبه كثيرا أمثالهم، وإن حياتنا الخلوقة الفرنسية قد كيفتها وصبغتها الفرنسية فلما لا يكون الإنجيل إذا مركز الروح الذي تلتقي فيه الروح البربرية بالروح الفرنسية اللتان تنشدا إحداهما الأخرى))².

بهذه الأساليب كانت فرنسا تسعى إلى جذب أكبر عدد من الجزائريين لإخراجهم من الإسلام وتنصيرهم، ولم تكن فرنسا لتستسلم لأنها وفي مخططها الذي طمحت إليه، إذا لم ينجح دعاة التبشير في إقناع المسلمين بتبديل دينهم، فلا أقل من صرفهم عن إسلامهم والعمل على تشويه الإسلام ذاته بالخرافات والبدع باستعانتها بالمنظومة الطرقية المنحرفة حتى تحقق مقصدها³.

وبالمجمل لقد عرف المجتمع الجزائري المسلم تحولات كبيرة في مختلف ميادين الحياة خلال العقود الأولى للقرن 19م قلبت حياته جذريا، بفعل السياسات الاستعمارية التي مورست عليه، أين تجاهلت هذه السياسات وقوانينها حقوقه وخصوصيته، فأدت في بدايتها إلى تهديم بناه ومنظوماته التي كان يحقق بها توازاته وحاجاته مع بيئته وفي الوقت نفسه لم يقيم الاستعمار بإبداله بنظام جديد فأفرغه من كل منظومة ما جعله يفقد وتيرة النظام والاستقرار وبذلك أصبح في وضعية تيه انتهت به باللامبالاة واللاوعي بحاله ومصيره.

لقد كان أثر ذلك عميق في المجتمع الجزائري المسلم المستكين لعهود طويلة إلى حياة تقليدية وبطيئة التحول نسبيا، غير أنها تتماشى وحاجاته المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فكانت تحقق توازنه وتضبط وتيرة حياته بشكل من الاستقرار، حتى جاء الاستعمار الذي قدم بسياساته التي يمكن أن نصفها بمشروع التهديم الذي لم يستطع المجتمع الجزائري المسلم الاستفاقة منه ويستدرك عواقبه إلا بعد فترة طويلة، فيها فرض عليه التكيف والتحول عنوة، فإنته به إلى امتلاك وسائله واستثمارها في محاولة للتخفيف من جانب واحد، فكان تمكينه من

¹ - بسام العسلي، مرجع سابق، ص42.

² - المرجع نفسه، ص44.

³ - عمار عمورة، الجزائر بوابة التاريخ إلى 1962، ج2، دار المعرفة، الجزائر، 2006، ص320.

الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

استيعاب شيء ما من وتيرة الحياة الجديدة التي فرضها الاستعمار وتطورات العصر الحديثة، وبذلك بدء بفعل المعركة والمقاومة والتحدي لكل الأوضاع التي جعله فيها الاستعمار في موقع المواجهة، فدخل معترك الحياة السياسية وفق المنظومات الجديدة وعلى قوانين الاستعمار مؤسسا للأحزاب والجمعيات كوسيلة لاستعادة حقوق الجزائريين المهضومة وأيضا حاول تحسين أوضاعه الاقتصادية وفق النظام والمعطيات التي استحدثتها الاستعمار ونفس الشيء مع حاجاته الثقافية.

لقد ولج المجتمع الجزائري المسلم الحداثة مكرها، دفعته في ذلك معطيات الحياة الجديدة، أيضا هذا الدخول الأعرج والمعزول من كل الإمكانيات لم يكن يعون الاستعمار رغم ما تضمنته خطاباته على أنه جاء بمشروع التمدين والتطوير، لقد دخل المجتمع الجزائري المسلم هذه الحياة الجديدة مقاوما لوضعيات الحياة الصعبة التي رمتها في أتونها سياسات الاستعمار وبقي يواصل وبكل أشكال المقاومة للحفاظ على وجوده المادي والمعنوي الحضاري، ولقد كان هذا الأخير (الوجود الحضاري) هاجسا لعدد من النخب وفعاليات المجتمع لاعتباره المقوم الأساسي للوجود المادي وذوبان والخصوصية الحضارية هي المظهر الأول لضياح مجتمع عنوانه الجزائري المسلم لذلك هبت شخصيات ومجموعات في مختلف فترات الاستعمار تناضل لحماية هذه الخصوصية وقد كان أهم فريق من ناحية فاعليته هو ذلك الذي حمل المشروع الإصلاحية المحلي الخصوصية.

الفصل الثاني

الفصل الثانى: المشروع الإصلاحى فى الجزائر (الجزور والتوطن)

جاء هذا الفصل لما تفرضه إشكالية موضوع الدراسة للتطرق للخلفية الإصلاحية لجمعية العلماء وهي الخلفية الفكرية لتعليمها، وقد تناولنا فيه جذور الفكرة الإصلاحية فى الجزائر وتطورها حتى ظهورها فى إطار تنظيمى وقانونى تحت اسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ثم تطرقنا إلى جهود الشيخ ابن باديس كرجل الإصلاح الذى كان له الفضل فى هذا التأسيس ووقفنا على مسيرته الإصلاحية من نشأته إلى اعتناقه الفكرة الإصلاحية إلى جهده فى توطينه مبرزين خطته وموهبته فى ذلك، رغم ما كانت تمثله الظروف من صعوبات فى طريقه، وهو ما كان له فيه الفضل من إنجاز فى تغيير الأوضاع لصالح مشروعه، وقد جاء فصلنا هذا لاعتبار الفكرة الإصلاحية هي مرجعية وموجه الرؤية التعليمية لجمعية العلماء.

ثم تطرقنا لنشأة جمعية العلماء م ج وتناولنا فكرة الجمعيات فى الوسط الأهلى فترة الاستعمار مبرزين التطورات التى عرفتها مؤسسة الجمعية كآلية حديثة جاءت مع الاستعمار كوسيلة غزو، حتى تبني المجتمع الأهلى المسلم لها وتطويعها كوسيلة مقاومة، وكيف اعتمدها الفريق الإصلاحى كمؤسسة وتنظيم لمشروعه، وبعد هذا تطرقنا إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتبعنا الخطوات والجهود المضنية التى مر بها الشيخ ابن باديس وفريقه لتأسيس جمعيتهم وكيف تطورت فكرة التأسيس نظريا وعمليا حتى ظهورها فى الواقع عام 1931م، لنتقل بعدها لميلادها وتحدثنا على حيثيات هذه الولادة لتتبعها بعرض للمبادئ والأهداف التى سطرها فى مشروعها هذا لتحقيق نهضة المجتمع الجزائرى المسلم.

المبحث الأول: جذور الفكرة الإصلاحية فى الجزائر

نقصد هنا صلة الفكر الإصلاحى الجزائرى بفكر رواد الإصلاح فى العالم الإسلامى لما احتلوه هؤلاء من موقع فى تشكيل رؤية وتوجهات الفكر الإسلامى الحديث، تلك الفكرة التى أسس لها هؤلاء رواد التجديد الإسلامى خلال القرن التاسع عشر ميلادى من محمد بن عبد الوهاب الذى استهدف من خلال حركته محاربة الشعوذة والخرافات والممارسات المختلفة للطرق الصوفية التى أفسدت نقاء الدين والعقيدة، إلى جمال الدين الأفغانى وتلميذه محمد عبده حتى خليفتهما محمد رشيد رضا، الذين وسعوا فى هذا الفكر والحركة ليستكمل الجوانب الأخرى من حياة المسلمين؛ الاجتماعية والسياسية والثقافية، وإن ركز جمال الدين الأفغانى على وحدة المسلمين ومواجهة الخطر والمد الاستعمارى الأوروبى على الأمة الإسلامية، بينما تحول محمد عبده عن العمل السياسى إلى العمل التعليمى والتربوى كطريقة وأسلوب فى التغيير*.

* - جاء هذا التحول من قبل محمد عبده بعد تجربته السياسية وقد كانت محطة الثورة العرابية التى عرفتها مصر عام 1881م وويلاته قد أكدت له أن الوضع والواقع الذى تعرفه المجتمعات الإسلامية يجب أن يتقدم فيها إصلاح الفرد والمجتمع من خلال التعليم والتربية وتأهيله حتى ينتقل ويصبح قادرا على القيام بالإصلاحات الأخرى.

والجدير بالتنويه أن هؤلاء المصلحين الآخرين قد تميزت أفكارهم ونظرياتهم الإصلاحية وحركتهم بالشمول والعمق، أين قاربوا قضايا المجتمع الإسلامى واشكالياته الحياتية المختلفة بين الدين ومبادئ الإسلام وروح العصر المنبعث من الغرب، ومنها انتقلت أفكارهم ومقارباتهم الإصلاحية لبقية العالم الإسلامى حتى أصبحت أفكارهم النموذج الحديث للإسلام المعاصر.

وقد كانت الجزائر إحدى الأقطار والمجتمعات التى مستها هذه الأفكار وإن كان انتقالها بطيئاً لما كانت تعيشه من احتلال فرض عليها قطيعة مع العالم الخارجى عموماً والمشرق العربى خصوصاً، فكيف وصلت الأفكار الإصلاحية للجزائر وما هى التطورات التى عرفها هذا الفكر حتى تبلور واتضح فى شكله النهائى فى تنظيم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؟.

إذا اعتبرنا الإصلاح؛ كل دعوة إلى أعمال العقل وتمجيده والنظر فى إصلاح الأحوال الدينية والاجتماعية لمجتمعها مع ما يتماشى والعصر ويوافق الدين، فإن العديد من الدعوات ظهرت من قبل علماء جزائريين دعوا إلى ذلك وتبنوا فى طروحاتهم التى بشروا بها عبر تأليفاتهم أو دروسهم التى ظهرت فيها أفكارهم إلى وجوب إصلاح مختلف قطاعات الحياة وتجديدها على نحو مسير للعصر، رغم ما كان من حالة الركود التى كانت تسود الجزائر تبعاً لسنوات الاحتلال الأجنبى الطويلة وهذا لبقاء الجزائر بعيدة بعض الوقت عن التيارات السياسية والفكرية التى ولجت المشرق خلال القرن الـ 19 م، لكن إن صح القول لم تكن بعيدة كلياً عن تأثير هذه التيارات¹.

حوالى سنة 1877م؛ إذا استطعنا أن نقدر أهم مرحلة فى الإصلاح الإسلامى فى الجزائر وخلال هذا القرن، فإن عالم جزائري نشر كتاب من ثلاثون (30) صفحة تحت عنوان "إرشاد المتعلمين"، كان محتواه موجه كمنصائح للطلبة والحكومة العامة بالجزائر، وهو ما أسس لموضوع نقاش بين الجزائريين ونخب الإدارة الفرنسية وعلى رأسهم مسؤولى الحكومة العامة².

كان الموضوع الرئيسى لهذا الكتاب يدور حول الإصلاح الاجتماعى للمجتمع الجزائرى المسلم، مؤلفه الشيخ عبد القادر المجاوى* والذى يدعو فيه المسلمين إلى محاربة الجهل والنهوض من جديد بتبنى مبادئ الحضارة الحديثة، كما يهتم خاصة بالجانب الاجتماعى الدينى للمجتمع، وقد عالج الشيخ عبد القادر المجارى العديد من المواضيع فى هذا الجانب.

¹- MOSTFA, Hadad: L'Emergence de L'Algérie moderne le constantinois entre les deux guerres 1919-1939 Tome I 1ere édition Guerfi Batna 2001 p74.

²_ Hellal Amar, Le mouvement réformiste algérien les hommes et l'histoire (1831-1957), O.P.U, Alger, 2002., p172.

*- عبد القادر المجاوى 1848-1914 عالم ومصلح جزائري ولد بتلمسان وكان تعليمه الأولي بها لينتقل إلى طنجة فيطوان حتى جامع القرويين، بعودته للجزائر عين معلماً بقسنطينة ثم انتقل مدرساً بالمدرسة الثعالبية بالعاصمة سنة 1858م توفي بقسنطينة في إحدى زيارته لها، له العديد من التأليفات فى علم الكلام وعلوم التربية وعلم الاقتصاد وفيها إبان على دعواته ونظراته الإصلاحية.

ومن أجل الترويج لأفكاره اعتمد بالإضافة إلى مختلف الكتب التى نشرها، الصحافة كوسيلة جديدة للتعبير عن أفكاره وأرائه مثل "كوكب إفريقيا والمغرب" والتى كانت مواضيعها تدور حول محور واحد: إصلاح المجتمع، والذى يدعو فيه المسلمين إلى وجوب تعلم اللغتين العربية والفرنسية معا، زيادة على دعوته إلى الاحتكاك بالحضارة الغربية التى لم تكن بعيدة عنهم، والبحث بواسطة كل الوسائل عن طرق لتعلم ودراسة الحضارات الأخرى التى يستطيعون الاحتكاك بها مباشرة وهو ما يعنى الدعوة للانفتاح على الآخر القادم وعدم الانكفاء عليه.

لم تتوقف آراءه عنده بل يبدو أنه نقلها؛ فهناك العديد من تلاميذ المجاوى تبنا أفكاره ولعل أشهرهم "ابن الموهوب" والذى كان وبدون منازع المكمل له فى مخطط حركته، ولأن حركة الإصلاح تيار دينى و سياسى وفكرى كانت حتى هذه الفترة غريبة عن الوسط الجزائرى بسبب تراجع نضجه الثقافى مما عجز على استيعابها وهو ما أدى إلى تبنيها من قبل أقلية من المفكرين الجزائريين فقط قبل الزيارة التى قام بها "عبدو" إلى الجزائر سنة 1903م. ولعل أغلب من أرخ للفكرة الإصلاحية فى الجزائر يستشير تاريخ هذه الزيارة للشيخ محمد عبده عام 1903م كنقطة بداية فعلية لالتفات علماء الجزائر لهذا النوع من الأفكار الذى كان حتى هذا التوقيت مازال بكرا حتى على البيئات الأكثر تقدما وملائمة لاستقباله وتواجهه*.

فعند عودته من فرنسا إلى مصر ومرورا بالشمال الإفريقى، توقف "محمد عبده" عند أهم حاضرتين فى الجزائر؛ مدينى الجزائر وقسنطينة، إذ وجد الأبواب مفتوحة لتجوله فىهما أين كانت له العديد من اللقاءات مع مثقفى ومتعلمى هاتين المدينتين، وكان العديد منهم يتبع نظرياته الإصلاحية ولعل مرجع انتقالها لهم يعود إلى ما وصلته فكرته من توسع فى الجارة تونس وما للأثر الذى كانت تمثله تونس كبوابة وحيدة للجزائر على تيارات المشرق، وزاد فى نفوذ هذه الأفكار ما ساهمت به مجلة "المنار" التى كانت تدخل الجزائر بطريقة سرية بعد زيارة "محمد عبده"، فكان عدد قراءها يرتفع بوتيرة متزايدة من قبل المتعلمين، ومع ذلك بقى سريان الحركة الإصلاحية إلى حد هذه الفترة محدودا عند بعض هؤلاء المتعلمين فقط¹.

*- ينفى مالك بن نبي أهمية زيارة محمد عبده للجزائر فى التفات علماء الجزائر والجزائريين للفكرة الإصلاحية وينكر كل فضل لها فى ذلك، بينما يشيد الباحث على مراد بالأهمية البالغة لها وبعدها الرمزي الذى جعل من تاريخ حدوثها بداية حقيقية، تعرف من خلالها الجزائريون على الفكرة الإصلاحية وارتباطهم بالشرق الجديد عبر صحافته وعلماءه ومدارسه حتى تطورت وتوسعت وظهرت فى شكلها الأخير جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

¹ _ Hella Amar, Op.cit, p173.

بمثل "المنار" تعرف الجزائريون على عدد كبير من الجرائد ذات النزعة الإصلاحية الوافدة من المشرق، مثل "المؤيد"^{*} و"اللواء"^{**} و"الشعب" وغيرها، لكن المنار لم يجد المساوي لها وبقيت مدة طويلة على مستوى المذهب الإسلامى التجديدي والإصلاحى كتجربة فريدة من نوعها، أهلها موقعها هذا للارتباط الكبير بها من قبل المثقفين الجزائريين ذوي النزعة العربية الإسلامية¹.

زيادة على الصحافة والأشياء المكتوبة المتنقلة التي وفدت من المشرق إلى الجزائر، كان لظاهرة الهجرة التي عرفها المجتمع الجزائري المسلم جراء الإكراهات والتعسف الاستعماري² أثرها الكبير في وصول فكر النهضة عموماً والإصلاح خصوصاً لما ساهمت فيه من وصل بين البيئتين، فقد أصبحت بلدان المشرق تعد الامتداد الطبيعي الذي يوفر للجزائريين المحضن الحضاري الذي فقدوه في وطنهم.

ساهمت هذه البيئة الجديدة "المشرق" التي كانت متقدمة في النهضة والإصلاح من استفادة كثير من الشخصيات الجزائرية التي وفدت لها، من وضعها الثقافي والفكري والتعليمي ومنهم حتى من كان أحد رموزه وساهم في إثراء ولعل من أبرز الأمثلة في هذا؛ الشيخ الطاهر الجزائري^{***} الذي بنى مشروع نهضة التعليم فأسس مدرسته العصرية ومكتبة وصحافته والتي كانت كلها تأخذ بالمعايير العصرية وأضحت نموذجاً ومثالاً يعتد به في كل العالم الإسلامي.

كما استفاد أبناء هذه العائلات مما كان يحدث من نهضة تعليمية وثقافية ورواج لفكر الإصلاح في هذه المهاجر وقد مثل كثيرهم همزة وصل وجسر لانتقال هذا الفكر والحيوية إلى الجزائر إما من خلال المراسلات والتي لا نستبعد أن تكون تتوفر في مادتها هذا النوع من هذه الأفكار أو ما كان يحدث من اتصال بين العائلات في مواسم الحج وأهم تلك الشخصيات التي رجعت واستقرت في الجزائر وبادرت من خلال نشاطاتها في التبشير لهذه الأفكار.

*- أسسها الشيخ علي بن يوسف سنة 1889م واستمرت حتى 1913م عرفت بنزعتها الوطنية عملت عبر محتواها على بث أفكار النهضة والوعي ومحاربة التخلف والجمود بالدعوة لإصلاح أحوال الأمة العربية الإسلامية كما دعت إلى محاربة الاستعمار والاستبداد عرفت رواجاً كبيراً في بلدان المغرب العربي.

** - يومية سياسية مصرية أسسها مصطفى كمال زعيم الحزب الوطني سنة 1900م واصلت صدورها حتى بعد وفاته إلى 1910م، كانت مقالاتها تخص كثيراً الجزائر وكان عمر بن قذور مراسلها وعرفت بدعوتها لمحاربة الاستعمار بالبلدان المغربية.

¹ _ Hella Amar, Op.cit, p174

² - أنظر عن هذا ابوالقاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص301.

^{***} - محمد الطاهر الجزائري من أصول جزائرية كما يظهر في اسمه، ولد في دمشق 1851 أخذ تعليماً عالياً في اللغة العربية، كان أيضاً نابغة في اللغة التركية والفرنسية وغيرها من اللغات. مطلع على العديد من العلوم الغربية الحديثة، أسس مكتبة دمشق وعمل سنة 1878 تحت مدحت باشا في المنطقة المدرسية لسوريا أين كان يعيش. قاد النضال ضد الوجود العثماني ومات سنة 1919 في القاهرة أين كان قد جاء. أسس جريدة الزهراء التي التحقت بالمجلة السلفية بين سنتي 1924-1929م بمجلة الفتح التي نشرتها المكتبة السلفية كانت كآلة دفاع عن الإسلام.

كما كان لموسم الحج الذى كان فرصة للجزائريين فى الاطلاع على أخبار وأحوال العالم ومنه الأفكار الجديدة التى كانت أصحابها يعتبرون موسم الحج هو الفرصة لدعايتهم ونشر أفكارهم لما سوف يجدونه من قوميات مختلفة المناطق وهو ما يمثل فرصة لإشاعة فكرهم وإبصاله لمختلف الأمصار الإسلامية كمرحلة للتعرف عليه وتوطينه فيما بعد.

ولعل الأفكار الإصلاحية قد كانت أحد هذه التيارات الجديدة التى اعتمد أنصارها استغلال موسم الحج للدعاية لها إما من خلال الحوارات الجوارية لتجمعات الرحلات للمناطق المختلفة من العالم الإسلامى أو مما كان يحضون به بعض علماءها من فرصة فى التدريس بمساجد مكة والمدينة، ولعل حالة انتقال الفكرة الوهابية للجزائر تعكس هذه الظاهرة فيذكر أن بداية انتقالها من الحجاز إلى بلد الجزائر كانت فى تلك الحادثة التى عرفت مع أبو رأس الناصري والذى يعود تأثيره بها إلى اجتماعه مع أحد تلاميذ محمد بن عبد الوهاب ودعاة فكره فى أحد مواسم الحج التى قصدها¹.

كما كان أيضا للهجرة العلمية التى عرفها الجزائريون خاصة مع مطلع القرن 20م دورا بارزا فى نهضة الجزائر واكتشافها التيارات الفكرية المعاصرة التى وصلت البلاد العربية الأخرى وعلى رأسها الفكر الإصلاحى التجديدي فأهم مركزين علميين قصدهما الجزائريون كانا الزيتونة والأزهر، وهى المراكز التى ضمت فطاحل العلم الذين تقدموا فى فكرهم نحو اعتناق الأفكار الإصلاحية الجديدة لما وجدوا فيها من توافق مع الشرع والعقل والحياة، فبفضل هذا النوع من المشائخ والعلماء تحولت بيتنا الأزهر والزيتونة إلى البيئتين العلميتين مصدر ونواة الفكرة الإصلاحية اللتان تصدحان وتشعان الفضاءات الأخرى بالفكر الإصلاحى للإسلام الجديد².

كل هذه العوامل وعلى أهميتها ما كانت لتنتهى بتطور الفكرة الإصلاحية بالجزائر بمثل ما انتهت إليه لولا دور البيئة التونسية وخاصة مؤسساتها التعليمية وعلى رأسها جامع الزيتونة فى تغذيتها ومدتها بأسباب النمو والحياة، ولعل هذه الأهمية مثلتها تونس لما كانت تشكله من عمق حضارى واجتماعى، وجد فيه الجزائريين ما فقدوه فى بلادهم بسبب الاستعمار.

لقد مثلت المؤسسات التعليمية بتونس قبلة الراغبين لأخذ العلم والثقافة العربية الإسلامية من الجزائريين بدءا من زاوية نفطة ومدرسة الصاديقية إلى جامع الزيتونة الذى كان يتزايد فيه عدد الطلبة الجزائريين³ بصورة جعلتهم يشكلون الأغلبية الكبير و يتفوقون فيه حتى على الطلبة المحليين من التونسيين أنفسهم.

ساهمت الطبيعة الإصلاحية للزيتونة وما ضمته من علماء أجلاء اتسموا بسعة علمهم وثقافتهم الواسعة والجديدة وطريقة تدريسهم الحديثة فى إثراء وصقل عقول الوافدين من الطلبة الجزائريين وتهيئتهم الفكرية لتبني

¹ - المهدي البوعبدلي: عبد الرحمان الأخضرى وأطوار السلفية فى الجزائر، مجلة الأصالة، العدد 53، ص30.

² - أنظر مبحث شخصيات إصلاحية وتعليمية باكرة فى الاوراس ص ص 248_256.

³ - Archives National de Tunisie, carton N°271, Dossier N°06 administration général, indigènes algériens instruction interdiction du territoire résidence au Tolbas Algériens.

الفصل الثاني: المشروع الإصلاحى فى الجزائر (الجدور والتوطن)

واستقبال الفكرة الإصلاحية، وقد أشاد جل هؤلاء الطلبة بأسانذتهم ونوهوا بفضلهم عليهم*، فتاريخ الزيتونة ودوره النهضوي لا يمكن أن يتخطى جهود هؤلاء العلماء كالبشير صفيير ومحمد النيخلى وسالم بوحاجب ومحمد الطاهر بن عاشور الذين مثلوا أعمدة الإصلاح فيه.

كما لا يمكن أن نتجاوز أثر زيارة الشيخ العالم محمد الخضر حسين** إلى الجزائر التي تكاد تصل في فضلها زيارة الشيخ محمد عبده، عرف الشيخ بزيارتين مهمتين عامي 1903م و1904م نقلته من تونس موطن إقامته إلى مدن الشرق الجزائري أساسا ومدينة الجزائر، خلالها جاب منطقة سوق أهراس وتبسة وعين البيضاء وقسنطينة وباتنة فمدينة الجزائر¹ وحتى منطقة وادي سوف بالجنوب الجزائري²، وقد تميزت الزيارتين بمتابعته للوضع الثقافي والديني في الجزائر وهو ما تعكسه المرافق والمؤسسات التي قصدها فقد تحددت تنقلاته إلى المساجد والمكاتب، فعرف عنه أن خلالها حاضر وحضر دروس في الفقه والحديث والتفسير وكانت له جلسات أدبية، قد يكون من خلال هذا قد استطاع أخذ صورة جلية تعرفه على الوضع الثقافي الذي آلت إليه في الجزائر وما تملكه من مقومات يمكن تفعيل الجو الثقافي من خلالها في الجزائر³.

كما لم يفوت أثناء جولاته هذه فرصة الالتقاء مع أهم الشخصيات العلمية والثقافية في الجزائر، فكان له لقاء مع محمد بن الشنب وعبد القادر المجاوي وعبد الحليم بن سماية وأحمد بن مراد صاحب المكتبة الثعلبية والشيخ السعيد بن زكري ومحمد بن مصطفى بن الخوجة⁴.

يدل هذا العدد الهائل من الشخصيات التي حصل له لقاءها ونوعيتها على الأهمية البالغة لفكرة الرحلة ومشروع هذه الزيارة، فقد مثلوا أقطاب العلم والفكر في جزائر هذه المرحلة، يبدو أن زيارته كانت مقصودة لتحقيق مجموعة من الأهداف الثقافية التي ترمي إلى تحسين الوضع الثقافي بما يتماشى مع التحولات التي تعرفها وعرفتها بلدان العالم الإسلامي.

* ذكر أغلب رواد قادة الحركة الإصلاحية بالجزائر فضل مشائخهم بالزيتونة عليهم ولعل أوضح عرفان ما جاء عن الشيخ ابن باديس، أنظر عبد الحميد بن باديس: الشهاب، عدد خاص، 4-5 جويلية 1938 والبصائر، العدد 16، السنة الأولى، 24 أبريل 1936.

** محمد الخضر حسين: 1876-1958 جزائري الأصل ولد بنقطة التونسية تعلم بجامع الزيتونة أنشاء مجلة السعادة العظمى عمل أستاذا بالزيتونة ثم بالثانوية الصادقية كما درس اللغة العربية بالمدرسة السلطانية، استقر آخر حياته بمصر رأس تحرير مجلتي الأزهر (نور الإسلام ولواء الإسلام، اختير عضوا لمجمع اللغة العربية وعضوا في هيئة كبار العلماء كما تولى مشيخة الأزهر له العديد من المؤلفات منها رسائل الإصلاح ومدارك الشريعة الإسلامية وآداب الحرب في الإسلام وبلاغة القرآن ومحمد رسول الله وحياة اللغة العربية والخيال في الشعر العربي وخواطر الحياة وديوان شعر.

¹ - محمد موعدة: محمد الخضر حسين حياته وآثاره، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974، ص 45.

² - عاشوري قمعون: زيارة الشيخين العلامة محمد المكي بن عزوز والشيخ الخضر بن حسين لبلدة سوف وأثرهما في نشر العلم والثقافة فيها عام 1905م، مجلة المنهل المجلد 2 العدد 1 جوان 2016، ص 93-110.

³ - محمد موعدة: المرجع السابق، ص 45.

⁴ - المرجع نفسه، ص 240.

ومن المؤكد أنه أثناء لقاءاته هذه يكون قد تباحث مع أصحابها عن أحوال الثقافة والدين والتعليم والشؤون الأخرى المختلفة المرتبطة بالجانب المعنوى للجزائريين مستعرضين للصعوبات فى حديثهم الذى حتما تطور إلى الحلول وإقتراح سبل النهضة وبعث الثقافة العربية الإسلامية بها، وهو ما يجعل هذه الزيارة مفعمة بالفائدة لصالح الأفكار الإصلاحية والنهضة المعنوية خاصة ما تعلق بمسائل التعليم والتعلم.

وفى اتجاه آخر كانت لزيارات شخصيات جزائرية إلى تونس أهمية بالغة ذات قيمة تحضوية والتي نشطت مع بداية القرن 20م، ولعل أهمها زيارة كانت لعمر بن بريهمات التي فيها حظي بالإطلاع على أهم المراكز والمؤسسات الثقافية كمدرسة الصادقية وجامع الزيتونة، وجالس مثقفيا وعلمائها فتعرف على مدى ما وصلت إليه نهضتها الفكرية والتعليمية، فكان فيه أثرها حيث أسس حلقة تعليمية وقد عرف بنبوغه فيها حتى كون تلاميذ وأنصار ينتصرون لرؤيته العصرية والإصلاحية¹.

مع العقود الأولى للقرن 20م احتفت الساحة الجزائرية بشخصيات كانت لها مساهمات هامة فى إشاعة الفكر الإصلاحى وكان نضالها فى هذا الميدان ذو قيمة إما عبر الصحافة أو التعليم، نذكر منها " محمد راسم" الفنان والصحفي الذى سخر مواهبه وقدراته هذه للتعبير عن الفكرة الإصلاحية والتعريف بها، فكان تأسيسه لصحافة ذات البعد العربى الإسلامى، عرف ببدايته مع صحيفة " الجزائر " ثم " ذو الفقار " التي أسسها وتبنى فى خطها النظرية الإصلاحية على منهج محمد عبده حتى كان يعتبره مديرها الدينى والروحى وهو ما يظهر فى عددها الأول الذى جاء فيه أنها "جريدة عبدوية إصلاحية"²، وتأكد هذا التوجه مرة أخرى فى العدد الثالث من نفس الجريدة بورود صورة للشيخ محمد عبده من رسمه³، زيادة على هذه المظاهر والعلامات الصريحة الدالة على التأثير الكبير لمحمد عبده على أفكاره، كانت أعمدها تتضمن مقالات ذات محتوى إصلاحى عبدوي، ولا نستبعد هذا التأثير الكبير لمحمد عبده على عمر راسم فى هذه الفترة المبكرة للفكرة الإصلاحية بالجزائر أو حتى سن عمر راسم نفسه، إلا إذا علمنا أن الشيخ محمد عبده قد خص بلقاء من عائلة راسم، وقد يكون عمر حظي بحضور هذه الجلسة ولا نستبعد جلسات أخرى كتلك التي أقيمت لمحمد عبده فى أماكن وعند شخصيات مختلفة بمدينة الجزائر.

ومثله سار رفيقه عمر بن قدور فى العمل الصحفى، وإن عرفت هذه التجارب صعوبات لحداثة الوسيلة "الصحافة" فى الوسط الأهلى التي اعتمدت فى الدعاية لهذه الأفكار إلا أنها عادت الطريق لما سيأتي من صحافة إصلاحية فكانت النجاح عام 1919م ثم المنتقد والشهاب عام 1925م لتصبح الصحافة فيما بعد أهم وسائل

¹ - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وأراء فى تاريخ الجزائر، ج4، دار الغرب الإسلامى، ط1، 1996، ص166.

² - عمر راسم: مقاصد الجريدة، ذوالفقار، ع1، 05 أكتوبر 1913، ص2.

³ - عمر راسم: مدير الجريدة الدينى والروحى، ذوالفقار، ع3، 14 جويلية 1914، ص8.

التوطن والتمكن للفكرة الإصلاحية فى البلاد وميدان صراع اعتمدها المشروع الإصلاحى فى معركته مع الاستعمار وقوى الجمود والتقليد والإدماج.

عرفت الفكرة الإصلاحية شخصيات أخرى أخذت نشاطاتها المختلفة بعد الترويج والدعاية لها، وقد غلب عليها نشاط التعليم لما كان يمثل هذا الميدان حتى هذه الفترة من توسع وفاعلية فى الوسط الأهلى مازالت النشاطات الأخرى لم تنافسه أو حتى تشاركه فيها، فظهر سعيد بن زكري وعبد الحليم بن سماية ومولود بن الموهوب وآخرون عديدون ذكرتهم العديد من الدراسات وأبرزت تبني المبدأ الإصلاحى فى فكرهم ودعوتهم له من خلال نشاطاتهم*، إلا أن هذه المجموعة الكثيرة من الأعلام تفاوت حضور الإصلاح عندهم من عالم لأخر، غير أنه يكاد يقع الإجماع على التميز الذى وقعه مولود ابن الموهوب بعد شيخه عبد القادر المجاوى الذى أسلفنا تقديمه كأول دعوة للإصلاح¹.

والحق أن ابن الموهوب قد احتل موقعا مميذا حتى بداية القرن 20م لما انفرد به من وضوح فى الفكرة وشمول فى النشاط ولعل هذا يعود لطبيعة تكوينه الذى جمع بين التعليم الفرنسى فى المدرسة العربية الإسلامية التى أنشأها فرنسا لتكوين السلك الدينى الجديد، والتعليم العربى الإسلامى مع البيئة العائلية المحافظة والعريقة فى العلم الشرعى، هذا التكوين المزدوج جعل من ابن الموهوب يحظى بمخرج فكرى يوفق فيه بين المرجعية الدينية وثقافة الإسلام وبين ثقافة العصر والعلم الحديث، فلم يكن تقليديا جامدا حبيس القراءات الدينية والهزيلة للإسلام التى شاعت عند أصحاب التعليم العربى التقليدى البحت زمانه، كما لم يكن منسلخا ناكرا لكل وصوله الدينية والثقافية مثل ما عرف عند عدد معتبر ممن حظيوا مثله بالتعليم بالمدارس الفرنسية، فكانت أفكاره هى إجابات لإشكاليات تطورات الحياة التى فرضها تبعات الاستعمار على الواقع الجزائرى المربوط بالإرث والتقاليد الجزائرية وفق متطلبات العصر والعلم وهو ما يسمح لنا أن ندرجه بالإصلاحى بامتياز.

حتى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى يمكن لنا أن نعتبر ابن الموهوب الزعيم الأول لكنلة المحافظين لما اتسم به من تأثير بالغ فى الحياة الدينية والثقافية للمجتمع الجزائرى المسلم، وأيضا لما كان يتوفر عليه من نشاط وما ساهمت فيه تلك المناصب التى تولاها واستطاع توجيهها لخدمة إصلاح وترقية مجتمعه ثقافيا وحضاريا، فكانت بدايته بتولى منصب الإفتاء بقسنطينة والذى دام فيه نحو ثلاثين عاما 1908_1939م وتدرسه بالجامع الكبير بقسنطينة ثم انتقل لمنصب مفتى مسجد باريس ما يعكس مكانته العلمية الشرعية والدينية والاجتماعية، إضافة إلى

*- منهم حمدان بن لونيلى ومحمد الحفناوى ومصطفى بن خوجة ومحمد بن أبى الشنب وصالح بن مهنا القسنطيني... الخ هؤلاء كانوا على قدر كبير من العلم والفكر والنشاط الثقافى الذى اختلف بين الصحافة والتعليم ونشاط النوادى والجمعيات كما كان منهم الموظفون الرسميون ومنهم الأحرار عرفوا بخروجهم عن الأدوار التعليمية التقليدية العقيمة إلى أدوار إصلاحية تعالج واقع مجتمعاتهم مع مقتضيات الشرع والعصر أنظر أبو القاسم سعد الله المرجع السابق، ص 152-201. وعبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائرية وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى (دراسة تاريخية وإيديولوجية مقارنة، ط2، دار مداد، الجزائر، 2009، ص 136-159.

¹- أنظر ثناء مالك بن نبي عليه فى هذا الخصوص، شاهد القرن، مصدر سابق، ص 75.

مزاولته التعلیم كاستاذ للفلسفة والأدب العربى والعلوم الدينية بالمدرسة الكتانية وقد نوه مالك بن نبي كتلميذ له بجهوده التعلیمیة فیها وتأثيره الإصلاحى على الطلبة المسلمین حینها¹.

كانت الصحافة هی الأخرى أحد میادین نشاطه ودعايته لأفكاره الإصلاحیة كجريدة "المغرب" والتی كان أبرز أقلامها وقد نحت هذه الجريدة التوجه الإصلاحى ما یعكس أثره فیها وأیضا مع صحیفتی "كوكب إفريقيا" و"النجاح" وقد كانت هذه الجرائد لها أثرها البالغ فی الرأى العام ومساهماتها فی طرح قضايا المجتمع برؤية إصلاحیة. فضلا عن نشاطه الباهر بنادى صالح باى عبر المحاضرات والدروس التی كان یلقیها وقد تضمنت أفكاره التی تميز فیها بمحاربة البدع والخرافات والعوائد الفاسدة التی كانت تعیق التطور الاجتماعى والحضارى للمجتمع المسلم والدعوة للعلم ونبذ العصبیة والتحلی بالتضامن والإخاء فحول به بذلك إلى فضاء للثقافة العربیة الإسلامیة. وتضمنت تألیفاته المختلفة فكره الذی كان یقصد به معالجة أوضاع المجتمع على نحو إصلاحى.

هذه الجهود والمستوى الفكرى الذی أظهره من خلال كل هذه النشاطات جعلته یحوز على إحترام النخبین الأهلیتین المحافظة واللیبرالیة، واستطاع بنشاطه الوطنى وثقافته العالیة افتكاك رضى كل الاتجاهات الوطنیة على التناقضات التی كانت بینهم، ویبنى أفكاره من قبل عدد معتبر من المتعلمین والمثقفین وتشیع حتى عند العامة فی المجتمع الجزائرى المسلم.

والجدیر بالإشارة أن ابن الموهوب وبقیة مشائخ العلم وإن بدرت فیهم فكرة الإصلاح وكان لهم مزیة المساهمة فی وضع بذرة الإصلاح الأولى بتعبیدهم الطریق وتهیئتهم العقول بقدر، لاستقبال الفكرة الإصلاحیة ویضمنون للفكرة الإصلاحیة صفة الدوام والاستمرار مثل ما یدهب المفكر مالك بن نبي²، غیر أن جهودهم هذه لم ترقى للتأسیس للمشروع الإصلاحى ولعل هذا یعود بالإضافة إلى القیود التی كانت تحد من حریاتهم بسبب تبعات المناصب الرسمىة التی تولوها أهمهم _ فكانت تسقف إرادتهم وطموحهم _ زیادة عن الظروف العامة للمجتمع الجزائرى المسلم حتى زمانهم، فإن الجهد الفردى الذی تميزت به كل هذه التجارب كانت تنتهی بوفاة صاحبها لعجزهم على توریثها لتلاميذهم، وهو ما یوحى بأن هؤلاء كانت تنقص فكرتهم تبني تصور لحركة منظمة تكفل التعلیم المستمر والدائم والمحدد الأهداف، والذی لم تعرفه الفكرة الإصلاحیة إلا مع مجيء الشیخ عبد الحمید بن بادیس الذی كان مشروع الإصلاح جد واضح عنده وأكثر استعدادا على تحقیقه وهو ما كان العامل الرئیسی فی نجاحها ودهومتها.

¹ - مالك بن نبي: شاهد للقرن مصدر سابق، ص ص 74-76.

² - نفسه، ص 75.

المبحث الثانى: ابن باديس وعوامل توجيهه الإصلاحى

ولد عبد الحميد بن باديس يوم 04 ديسمبر سنة 1899م بقسنطينة فكان الولد البكر لأسرته¹، ينحدر الشيخ من عائلة عريقة فى الجاه والحكم والثقافة وكذا العلم، وتتمتع بمكانة اجتماعية واقتصادية وسياسية قديمة²، استمرت بها حتى فترة الحكم الاستعماري وقد أعلنت ولاءها المبكر لإدارة الاستعمار، وبهذا تعد إحدى العائلات الأرستقراطية الحضرية لقسنطينة التى حفظت لنفسها مكانتها ووجهاتها، فلقد تقلد الكثير من أبناء العائلة مناصب سامية خلال الفترة الاستعمارية، فجدده "المكي بن باديس" عمل قاضيا وتولى منصب أول مستشار عام بقسنطينة لدى الفرنسيين³، وكذلك أب الشيخ عبد الحميد، مصطفى بن باديس واحد منهم إذ شغل مندوبا ماليا وعضوا فى المجلس الأعلى وباشاغا شرفيا ومستشارا بلديا⁴، كما استفاد أخيه مولود الزبير من فرصة التعليم الفرنسى حتى أصبح محاميا⁵.

إن المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لعائلة ابن باديس كانت من المألوف والطبيعى أن يحظى أبناءها بالتعليم فى المدارس الفرنسية، وتدخل أوساطهم العائلية الكثير من العوائد والسلوكات الغربية، فضلا عن أن وضعها الاقتصادى يجعل من أفرادها يعيشون الحياة الرغدة والرفاهية التى لا يعرفها باقى أبناء العائلات الأهلية، وبذلك لا يشعرون بعوزهم وآلامهم، إضافة إلى أن مكانتهم الاجتماعية أيضا التى وفرتها طبقتهم لا تسمح لهم بمخالطة أبناء عائلات الطبقات الأخرى _ التى كانت تشكل السواد الأعظم من المجتمع الأهلى المسلم _ وتعلمهم يشعرون بالاستعلاء والتميز عنهم زيادة على أن وضعهم السياسى الذى يوفر لهم كل الامتيازات والحماية التى لا تشعرهم بظلم الاستعمار وهو ما ينتهى بهم إلى عدم الإحساس بحاجات باقى المجتمع، وهذا تماشيا مع الطبقات الارستقراطية والبرجوازية التى تعمل على بقاء وضع الطبقات الأخرى على هذا الحال ولا تنتبه إلى تحسينه لأنها تربط حضورها وامتيازاتها وتنامي مصالحها على أنقاض هذه الطبقات.

إن هذه المميزات التى عرفت بها عائلة ابن باديس، كان من المستبعد أن ينحدر منها شخصية يمثل الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذى يحمل الثقافة العربية الإسلامية ويسخر كل حياته لإحيائها ومقاومة ثقافة الفرنسة والتغريب، ويشعر بحاجات مجتمعه الذى استدعى منه تسخير كل حياته لمشروع تنظيم خطة لهضته، وعزوفه عن

¹ - عبد الكرىم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائرية وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى مرجع سابق، ص 80.

² - محمد المنصور الغسيري: صورة من حياة ونضال الزعيم الإسلامى المصلح الدينى الكبير الشيخ ابن باديس، تقديم وتعليق مسعود فلوسى، ط1، مطابع عمار قرني، باتنة، 2006، ص 72.

³ - بوصفصاف عبد الكرىم: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية لأخرى مرجع السابق، ص 80.

⁴ - عبد الكرىم بوصفصاف: الفكر العربى الحديث والمعاصر (محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجان، ج1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2005، ص 187.

⁵ - مقابلة شخصية مع السيد عبد الحق بن باديس الأخ الصغير للشيخ عيد الحميد، مؤسسة ابن باديس قسنطينة 21 مارس 2015.

التمتع بكل الامتيازات التى حظيت بها عائلته لأجل الانشغال بخدمة مجتمعه، فهذه المفارقة بين الظروف العائلية لابن باديس وشخصيته تستدعى منا البحث عن المؤثرات والعوامل التى وجهته هذه الوجهة بهذه الشخصية.

الحق أن أهم هذه العوامل هى استعداداته الشخصية التى تمثلت فى نقاء فطرته وميله الدينى الذى توافق مع ذكاء قلبه وهو ما سوف يجد توافقا مع العلم الذى سوف يأخذه عبر مسيرته التعليمية، كما ن سجل أيضا أثر الوسط والبيئة التى عاش فيها، إن الوقوف عند التاريخ الاجتماعى لبيئته ووسطه مدينة قسنطينة خلال الفترة الاستعمارية قد يساهم شيئا ما فى تفسيرنا لهذه المفارقة، فالطبقة الأرسقراطية القديمة لقسنطينة، استطاعت أن تحافظ على وجودها وتكون فى منأى من التهديم التى تعرضت له الكثير من عائلات هذه الطبقة فى المدن والحواضر الجزائرية الأخرى، مما ساهم فى محافظتها على خصائصها بما فيها الثقافة، وهذا ما يثبت عند العائلة الأرسقراطية لابن باديس، حيث بقى فيها مد الثقافة العربية الإسلامية قويا، كما أن الأصل والمكانة العلمية والثقافية للعائلة التى تظهر من خلال الشخصيات العلمية التى خرجت منها لدليل على أنها تمتلك تقاليد العلم والثقافة التى مهما تغيرت الأوضاع لا تستطيع أن تزيلها بسهولة، الأمر الذى ساهم فى بقاء هذه العائلة متمسكة بتوجيه أبنائها للعلم الدينى والثقافة العربية الإسلامية والتى ساعدتها فيها محافظة المدينة على تقاليدها العربية الإسلامية من خلال بقاء المؤسسات الثقافية والدينية واستقطابها لأشهر و أنبغ علماء ومصلىحي الفترة.

ولعل أيضا مصطفى بن باديس قد قصد عمدا توجيه ابنه عبد الحميد هذا التوجيه فى تحصيل العلوم والثقافة الإسلامية، حتى تتمكن العائلة من الاستشارة أيضا من القيادة الدينية فى المدينة، لاعتبار أن العائلة تعتبر نفسها أحق فى تمثيل هذه المكانة وتولى المناصب الدينية من العلماء الوافدين، أو بهذا يتم لها تعزيز مكانتها فى المدينة التى كانت تتنافس فيها مع العائلات الأرسقراطية القسنطينية الأخرى، وخاصة لما رآه مصطفى بن باديس من سهولة المهمة هذه مع ابنه عبد الحميد الذى لاحظ فيه الميل إلى التدين والأخلاق وأيضا وامتلاكه لقدرات نفسية (إيمانية) و روحية وعقلية فى هذا الاتجاه.

والحقيقة أن أغلب الباحثين يجمعون على أثر والد الشيخ فى توجيهه وتنشئته هذه، وهو الآخر يصرح بما فى كلمته بمناسبة حفل ختمه تفسير القرآن سنة 1938م فىقول: ((.. إن الفضل يرجع أولا إلى والدى الذى ربانى تربية صالحة، ووجهنى وجهة صالحة ورضى لى العلم طريقة اتبعها ومشربا أردته وقاتنى وأعاشنى وبرانى كالسهم ورأشنى وحمانى من المكاره صغيرا وكبيرا وكفانى كلف الحياة...))¹.

¹ - عبد الحميد، بن باديس: كلمة المحتفل به، الشهاب، ج4 و5، المجلد 14، جوان - جويلية 1938، ص ص 307-310.

والحق أن مسيرة التوجيه التى عرفها ابن باديس خلال مراحلها التعليمية لتدل على ذلك، فبعد بلوغه سن التعلم ألحقه أبوه بالمدرسة الفرنسية لتلقى المبادئ الأولى فى اللغة الفرنسية*، ولعل حتى هذا السن لعبد الحميد مازال مصطفى بن باديس لم يقرر شيئاً بشأن مشروع توجيهه بين المدرسة الفرنسية أو التعليم العربى. يبدو أن مصطفى بن باديس بعد أن حسم أمره فى توجيه ابنه إلى التعليم العربى الإسلامى، ألحقه بالكتاب لتحفظ القرآن عند أشهر المحفظين بالمدينة الشيخ حسن بن السودانى، ثم ألحقه بالدروس المسجدية للشيخ حمدان لونيى¹، الذى عرف بغزارة علمه وخدمته للحركة التعليمية وإخلاصه فيها²، فأخذ عليه قسطاً كثيراً من علوم الدين المختلفة وعلوم اللغة العربية وخاصة أن الشيخ حمدان لونيى خصه بالعناية والتوجيه لما رآه فيه من نبوغ وحب للعلم، مكنته هذه الدروس من تقدير اللغة والثقافة العربية.

وفى سنة 1908م أين بلغ الشيخ سن التاسعة عشر (19) من عمره غادر إلى تونس للدراسة بجامعة الزيتونة لاستكمال دراسته الثانوية³، وفى الزيتونة كان له مشوار آخر فى تكوينه، فالبيئة الزيتونية كانت تتوفر على ظروف علمية وثقافية ملائمة كغناء مكتبته بالكتب القيمة التى ترضى نهمه فى المطالعة والبحث، بالإضافة إلى وجود مشايخ أجلاء ساهموا فى تفتيق مواهبه وإتمام قدراته الكامنة ويعاونون فى رسم توجهه الفكرى الجديد، فالشيخ ابن باديس يذكر أثر أساتذته من الزيتونيين عليه فيعترف بفضل الشيخ محمد النخلى** الذى يذكر أثره عليه فى التفسير فيقول عنه: ((...وأذكر للثاني*** كلمة لا يقل أثرها فى ناحيتى العلمية.. ذلك أنى كنت متبرماً بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية فى كلام الله، ضيق الصدر فى اختلافهم فيها لاختلاف فيه من القرآن.. وكانت على ذهنى بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى فى دين الله وكتاب الله، فذاكرت يوماً الشيخ النخلى فيما أجده فى نفسى من التبرم والقلق فقال: (اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح)، فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة على ذهنى أفاقاً واسعة لا عهد له بها..))⁴، بهذه النصيحة والفكرة من قبل الشيخ النخلى تكون قد بعثت فى تلميذه ابن باديس المبادرة الذاتية فى مباشرة الفهم شخصياً دون الإستكانة للموروث

* - يذكر الأستاذ عبد الكريم بوصفصاف عن عبد الحق بن باديس أن أخيه عبد الحميد لم يلتحق بالمدرسة الفرنسية وكان يجيد اللغة الفرنسية، ونحن لا نشاطر هذا الرأي ونستبعد أن يكون ابن باديس يجيد الفرنسية ولم يتعلمها فى المدرسة، زيادة على أن وضعية أسرته وقربها من الإدارة الفرنسية ووعيتها بالواقع لا يفوتها تفويت فرصة تعليم ابنها فى المدرسة الفرنسية على الأقل المرحلة الابتدائية، انظر عبد الكريم بوصفصاف: رواد النهضة والتجديد فى الجزائر 1889-1965، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2007، ص9.

1 - محمد المنصوري، الغسيري: المصدر السابق، ص73.

2 - محمد المهدي، بن شعيب: المرجع السابق، ص318.

3 - عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج1، ط1، دار اليقظة العربية، بيروت 1968، ص75.

** - محمد النخلى 1869-1924 من القيروان احد اعلام النهضة العلمية بالزيتونة واحد ابرز رواد الدعوة الإصلاحية بتونس.

*** - يقصد الشيخ محمد النخلى.

4 - عبد الحميد بن باديس: الشهاب، عدد خاص، 4-5 جويلية 1938.

والتقليد دون قناعة ومراجعة، وهو ما قد لم يتوقف عند ابن باديس فى التفسير فقط بل تعداه إلى كل المواقف والأحوال والأفكار المتصلة بالواقع، ثم ينتقل أيضا إلى ذكر فضل الشيخ محمد الطاهر بن عاشور* عليه والذى تميز أثره عليه فى الآداب واللغة والثقافة العربية فىقول عنه: ((... وإن أنسى فلا أنسى دروسا قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور، وكانت من أول ما قرأته عليه حىبى فى الأدب والتفقه فى كلام العرب، بثت فى روحا جديدا من فهم المنظوم والمنثور وأحيت فى الشعور بعز العروبة والاعتزاز بها كما أعتز بالإسلام))¹، وكذلك أيضا يضيف أثر أستاذه بشير صفر فىقول: ((... وأنا شخصا أصرح بأن كراريس.. الصغيرة الحجم الغزيرة العلم هى التى كان لها الفضل فى إطلاعى على تاريخ أمتى وقومى والتى زرعت فى صدري هذه الروح انتهت بي اليوم لأن أكون جنديا من جنود الجزائر..))².

من خلال الاعترافات السابقة للشيخ ابن باديس يظهر فضل أساتذته هؤلاء الذين نقلوه وخطوا فهمه الجديد وهو ما سوف ينير دربه وييسر له طريقه فى الإصلاح والتجديد، إضافة إلى هذا ساهمت السنة الخامسة له بجامع الزيتونة والتى كانت حسب نظام الدراسة تعطى للطالب للتدريس بهدف تدريبه على التعليم الذى سوف يكون مهمته ومحور نشاطه الإصلاحى .

والحق أيضا أنه كان لمكتبة الجامع وما احتوته من كتب ومؤلفات عديدة ومتنوعة³، أثرها من خلال ما وفرته له من معارف عمقت تحصيله ونمت فيه المنهج والأسلوب اللذان سوف يكونان أهم أسلحته فى معركة العمل التعليمى والإصلاحى إجمالا الذى سوف يخوضه من خلال الصحف والخطب والمحاضرات والدروس التعليمية.

والحقيقة أن تكوينه وتوجيهه لم يتوقف مصدرهما عند المدارس والدراسة فى جامع الزيتونة، بل ساهمت رحلته الثانية التى قصد فيها بلاد المشرق سنة 1912م، وكانت لها أثرها البالغ فى تبلور ووضوح تصوراتته لمشروع الإصلاحى، فمن خلالها تعرف والتقى العديد من مشاهير الإصلاح فى العالم الإسلامى، فكانت محطاته الأولى المدينة المنورة أثرها الروحى عالية للقداسة التى امتلكتها من قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) والذى وقف عنده وتوجه إليه بالخطاب قائلا: ((... يا رسول الله هذا عهد بينى وبينك، لأعشن فى سبيل دينك وأمتك مجاهدا ولأمتن

* - محمد الطاهر بن عاشور كبير شيوخ الزيتونة عين سنة 1932م شيخا للإسلام وعين عضوا فى مجمعي اللغة العربية بالقاهرة ودمشق له عدة مؤلفات منها: مقاصد الشريعة الإسلامية - أصول النظام الاجتماعى فى الإسلام - التحرير والتنوير فى التفسير، كان له تأثير بالغ فى الحياة العلمية فى الزيتونة وعلى طلبتها ومنهم الطلبة الجزائريون.

¹ - عبد الحميد ابن باديس: البصائر، العدد 16، السنة الأولى، 24 أفريل 1936.

² - المصدر نفسه.

³ - عبد الكرىم، بوصفصاف: رواد النهضة والتجديد فى الجزائر 1889-1965، مرجع سابق، ص 20.

فى سبيل دينك وأمتك شهيدا والله على ما أقول وكيل.))¹، هذا العهد الذى قطعه على نفسه مع الرسول (ص) يكون قد رفع إلتزامه الإصلاحى والعمل على تحقيقه بكل ما أتى من جهد، كما قد يكون ترك فيه العزيمة التى ظهرت عليه فى خدمة الإصلاح بكل تفانى وحماس على ما إعترى مسيرته من صعوبات وإكراهات جمّة، إضافة إلى ذلك كان فيها لقاءه بأستاذ طفولته الشيخ حمدان لونيسى وهناك أيضا حصل لقاءه بالعديد من العلماء المقيمين بها مثل الشيخ أحمد حسين أبادى الهندي* والشيخ العزيز الوزير التونسى وغيرهم، وأثناء هذا اللقاء أخذ نصيحتين أثرت على مستقبل عمله، فالنصيحة الأولى كانت من الشيخ حمدان لونيسى فيقول عنها ابن باديس: ((وإني لا أذكر للأول** وصية أوصاني بها وعهدا عهد به وأذكر ذلك العهد فى نفسى ومستقبلى وحياتى وتاريخى كله فأجدي مدينا لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر، فقد أوصاني وشدد علي ألا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت، ولا أتخذ علمي مطية لها كما يفعله أمثالي فى ذلك الوقت.))²، وأيضا تكررت عليه هذه النصيحة من قبل الشيخ أحمد حسن أبادى الهندي لاعتبارها قيد، كما نصحه أيضا بالعودة إلى بلاده للعمل والدعوة فيها³، وقد لاقت هذه التوجيهات من قبل الشيخ ابن باديس الاقتناع والقبول فقرر عائدا- من المدينة المنورة التى كان عازما على البقاء الدائم فيها - إلى الجزائر أثناء رحلة عودته قصد بلاد الشام التى إلتقى وتعرف فيها على جهابذة الفكر وأعلام النهضة العربية حينها⁴، أمثال الشيخ الطاهر الجزائرى الذى يكون قصد عمدا الشام للقاءه، ذلك أن تأثيره عليه كان سابقا لهذا اللقاء من خلال مطالعته لمؤلفاته، فيكون قد أدرك أهمية مشروعه النهضوى التعليمى، فأراد التعمق والاستزادة منه مباشرة⁵، أو قد تكون هناك أسئلة قد تحمرت فى ذهنه أراد جوابا لها من عنده.

ولاشك أن هذا اللقاء قد حصل من خلاله الشيخ على ما يريد فأطلعه على مشروعه التعليمى وبين له أهمية النهضة التعليمية كمقدمة لأي إصلاح ناجح، كما كانت له لقاءات مع عدد من أصحاب الفكر والعلم والأدب والسياسة والدين كعبد القادر المغربى الصحفى والعالم اللغوى المعروف بنصرته للتجديد ومن المتأثرين بفكر

¹ - أحمد توفيق، المدينى: ابن باديس الرجل العظيم، مجلة الأصالة، العدد 44، السنة 6، أبريل 1977 وزارة الشؤون الدينية، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، 1977، ص63.

* - أحمد حسين أبادى الهندي احد علماء المسجد النبوى بالمدينة المنورة فى مطلع القرن 20 معارض الثورة العربية بقيادة شريف حسين مما أدى إلى نفيه إلى جزيرة مالطا ثم إلى الهند أين تولى بها رئاسة العلماء بمدينة ديوبند.

** - يقصد الشيخ حمدان لونيسى.

² - البصائر، العدد 4-5 جوان -جويلية 1938

³ - محمد المنصورى، الغسبرى: المصدر السابق، ص75-76..

⁴ - محمد بهى الدين سالم: ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، ط1، دار الشرق، مصر، 1999، ص34.

⁵ - أنظر أسس مشروعه التعليمى فى الدراسة الأكاديمية التركىة التالية: Abdullah Emin Çimen: Tahir el-Cezairi ve

Tefsir İlmindeki Yeri Sayfa Dijital Baskı İstanbul 2008 s s 48-58

الفصل الثاني: المشروع الإصلاحي في الجزائر (الجدور والتوطين)

جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، والعالم محمد كرد علي* والعالم عبد القادر المبارك** وخلييل مردم*** وفارس الخوري****¹.

وبعد أن قضى حاجته في بلاد الشام قصد مصر، أين إلتقى بالشيخ محمد بنحيت المطيعي****، صديق أستاذه حمدان لونيسي والذي حمّله رسالة منه لتزكيته، ويعلق الأستاذ علي مراد على أثر هذا اللقاء فيقول: ((...لكن كانت الإجازة تشكل، على الصعيد المدرسي الصرف، شهادة على قيمة صاحبها الفكرية، فهي من شأنها أيضا أن تكون ذات قيمة معنوية وروحية، فإن نظرنا إلى الإجازة من حيث بعدها الديني، فهي تطابق حينئذ رسالة طاعة، ولاشك أن الأمر يتعلق بهذا البعد، إذن حظي ابن باديس بما يشبه الاعتبار والاحترام الإصلاحي من قبل شخص أمسى منذ وفاة محمد عبده الأستاذ الأكثر احتراماً في مصر والذي كان يمارس بمعية رشيد رضا سلطة وأستاذية المدرسة الإصلاحية.))²، زيادة على ذلك كانت له لقاءات مع محمد الخضر حسين وأبو الفضل الجواهري***** وتعرف إلى قادة الحركة الوطنية كمصطفى كامل*****³.

والحق أن هذه الرحلة إلى بلاد المشرق قد خصبت وأثرت عقله وأضافت له الكثير في بناء ونضج مشروعه الإصلاحي ودعمت فكرته في جانبه الحركي والتنظيمي، فالمشرق الذي كان على احتكاك كبير بالغرب بالإضافة إلى تقدم النهضة والفكرة الإصلاحية به، استطاع أصحابها أن يفصلوا في كثير من القضايا المستجدة الناتجة عن

*- محمد علي كرد 1876-1953 صحفي وأكاديمي جامعي سوري ولد وتعلم بدمشق هاجر إلى مصر سنة 1901 اصدر بما مجلة المتقرب ولما عاد إلى سوريا سنة 1908 اصدر صحيفة بنفس العنوان، ساهم في إنشاء المجمع اللغة العربية بدمشق 1919 عين وزيرا للتعليم والمعارف بحكومة فيصل 1920 له مؤلفات منها: خطط الشام وكنوز الأجداد.

** - عبد القادر مبارك 1881-1945 عالم لغوي سوري من أصول جزائرية درس العلوم الإسلامية والأدب العربي والتاريخ، كان عضوا بمجمع اللغة العربية بدمشق وعضو لجنة التعريب في عهد فيصل له الفضل في تعريب العديد من المصطلحات الإدارية والعسكرية كما شارك في وضع مناهج اللغة العربية وآدابها في عهد فيصل وعمل أستاذا للغة العربية بالمدرسة السلطانية بدمشق والمدرسة الحربية ودار المعلمين.

*** - خليل مردم: 1895-1959 أديب وشاعر سوري تولى رئاسة المجمع العلمي العربي ووزير للمعارف السورية من مؤلفاته أئمة الأدب - الديوان - صاحب كلمات النشيد السوري.

**** - فارس الخوري: 1877-1962 سوري اشتغل بالسياسة تولى الوزارة ومثل سوريا بالأمم المتحدة كما شغل بالحماة ودرس الحقوق بدمشق وعين عضوا في مجمع العلمي العربي من مؤلفاته أصول المحاكمات الحقوقية وموجز في علم المالية.

¹ - محمد المنصوري، الغسيري: المصدر نفسه، ص 77-78.

**** - محمد بنحيت المطيعي: 1856-1920 عالم ومصلح مصري درس بالأزهر وأصبح من كبار شيوخه، من أنصار الفكر الإصلاحي ومؤيدي فكر محمد عبده الذي أضحي خليفته الأول بعد وفاته.

² - علي مراد: المرجع السابق، ص 96.

***** - ابوالفضل الجواهري 1847-1920 عالم مالكي مصري تعلم بالأزهر عين شيخا عليه ومن مؤلفاته الطراز الحديث في فن المصطلح الحديث تحقيقات شريعة-حاشية مع شرح العضدية.

***** - مصطفى كامل (1908) أحد رواد نهضة مصر الوطنية تخرج من الجامعة الفرنسية بشهادة الحقوق، أحد مؤسسي الحزب الوطني.

³ - محمد المنصوري، الغسيري: المصدر السابق، ص 79.

صدمة الغرب كما قد وضعوا آليات العمل لنهضة الأمة، ولعل فكرة التنظيم والعمل الجماعى التى تميزت بها دعوة الشيخ ابن باديس عن من سبقه من العلماء والمصلحين الجزائريين تكون قد انتقلت إليه من خلاهم أو على الأقل نضجت وتبلورت جيدا تحت تأثير هذه الاتصالات.

فكرة التنظيم وجدت فى فكر الكثير من الإصلاحيين الأوائل التى يكونون قد توصلوا لتبنى العمل بها لما أدركوه فى فاعلية التنظيمات الحديثة التى جاء بها الغرب الاستعماري، فنظروا لها أنها الفكرة الأنسب لاعتمادها فى مواجهة الظاهرة الاستعمارية المعقدة ذات البعد الاقتصادى والحضارى والفكرى.

وقد تجلت واضحا فكرة التنظيم فى ذهن ابن باديس وأدرك أهميتها فيقول عنها: ((...إنما ينهض المسلمون بمقتضات إيمانهم بالله ورسوله، إذا كانت لهم جماعة تفكر وتدبر وتتشاور وتتآزر لجلب المصلحة ولدفع المضرة متساندة فى العمل عن فكر وعزيمة.))¹، هنا الشيخ يشير إلى وجود جماعة تقوم بدور التفكير والتدبير فى وضع المسلمين لحماية وجلب المصلحة لهم، وهو ما تقوم به ووجدت له التنظيمات الحديثة التى تنتخب مجموعة من الأفراد يسهرون على تدبير الأمور على نحو يضمن ويحلب لها مصالحها.

كما استلهم الكثير من الأفكار من التجارب الإصلاحية الأولى أمثال الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغانى من خلال مؤلفاتهم وتراثهم الذى خلفوه أو ما وقف عليه عند أتباعهم، وأيضا كان مجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا الأثر البالغ فى تزويده ورفع حسه الإصلاحى والحفاظ عليه حيا متفاعلا مع الراهن.

ونافلة القول أن رحلة ابن باديس منحه فرصة الاحتكاك بمختلف الأفكار والتجارب الإصلاحية التى ساهمت بلا شك فى تطور وتبلور فكرته الإصلاحية وتميزها وذلك من خلال مراكمته كل أفكارهم ودمجها فى ذهنه مع تكييفها وتفاعلها مع الواقع الجزائرى بمعطياته المختلفة عن الواقع العربى والإسلامى فى كثير من الخصوصيات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية بفعل اختلاف عمق الاستعمار وطبيعته بينهما، فولدت فكرته الإصلاحية ذات الشمول التى كان مشروعها نابعا من حقائق مجتمعه ويعبر عن قيمه وإتجاهاته، كما لم يبق مشروع هذا فكرة نظرية وفلسفية بل حولها إلى فكرة عملية بالنزول بها إلى الميدان والتبشير بها من خلال نشاطاته التعليمية والدعوية بمختلف المؤسسات التى أنشأها لذلك.

¹ - عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم النذير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط1، الجزائر، 1983، ص428.

المبحث الثالث: جهود الشيخ ابن باديس فى توطن الفكر الإصلاحى فى الجزائر

ما لا يمكن أن نتجاهله أو نغفل عنه، أن الفكر الإصلاحى بالجزائر سابق فى الوجود عن الشيخ عبد الحميد بن باديس، وقد ظهرت هناك شخصيات إصلاحية من علماء الجزائر حملت دروسها وتآليفاتها ونشاطاتها العلمية المختلفة الفكرة الإصلاحية مثل ما أسلفنا الذكر، ولكن الجدير بالإشارة أن هذه الأفكار لم تشهد التوطن والدخول إلى المشهد الثقافى والدينى بالشكل الذى أصبحت عليه كرافد ومرجعية أساسية للثقافة والدين فى الجزائر وفى تعارض وتنافس مع نظريات أخرى لإسلام المجتمع الجزائرى المسلم، بدءا من الإسلام التقليدى _ خاصة فيما تعلق بما وسم به من ممارسات شعبية منحرفة عن الأصل الأول للدين والذى عبرت عنه الطرق الصوفية ولم يكن يعرف المجتمع الجزائرى إسلام خارجه "الإسلام الطرقى" حتى هذه الفترة، والإسلام الرسمى أو ما يمكن أن نطلق عليه الإسلام الفرنسى، الذى كانت الإدارة الفرنسية تعمل على التأسيس له من خلال مناهج ومضامين المدارس الفرنكوعربية الثلاث التى أسستها فى مدن الجزائر وتلمسان وقسنطينة، والتى كانت تأمل منها فى تكوين خريجين جزائريين بمناصب ومهام دينية كقضاة ومفتين وفقهاء للإسلام يؤسسون للإسلام الفرنسى المتوافق مع السياسة الثقافية والحضارية والدينية لفرنسا فى مستعمراتها الجزائر وغير المتعارضة مع المصالح الشاملة للاستعمار، إلا مع تلك المساعى والجهود التى بذلها الشيخ ابن باديس، والذى سخر حياته وكل طاقاته وجهوده لهذا المشروع الذى كان ينظر له أنه الحقيقة الدينية والزمنية التى يجب أن يكون عليها الحال الحضارى للمجتمع الجزائرى المسلم لاستعادة نهضته وتقدمه وتحرره.

ولاغرو أن يعد الشيخ ابن باديس صاحب نظرية إصلاحية متميزة راعت الخصوصية التى كانت عليها الجزائر ميدان عملها ومجالها، ذلك أنها اشتغلت وبنّت سماتها من الظروف والخصائص التى كانت تعيشها الجزائر ساعية من خلالها إلى تلبية حاجات مجتمعها المسلم، فلم يعرف عنها أنها كانت تقليدا أعمى أو اقتباسات جامدة لنظريات رواد أو مدارس الإصلاح الإسلامى، وإن كانت فكرتها لا تخرج عن الإطار العام لحركة الإصلاح والتجديد الإسلامى الذى عرفها العالم الإسلامى فى النصف الثانى من القرن 19م مع محمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا، وغيرهم ممن نسبوا للإصلاح والتجديد الإسلاميين، ويتأكد جوهر الاستثناء لهذه الحركة فى بعدها العملى أين نزل بها إلى الميدان¹، وقد تجلّت فى تلك المشاريع التعليمية والاجتماعية التى ظهرت لها مؤسسات كالمدارس والمساجد والنوادي والصحف والفرق الكشفية والمسرحية والإنشاد مبتعدة على التنظيمات البعيدة عن العمل، فما كان نظرية عندها وجد له انعكاس فى الممارسة للنشاط الإصلاحى.

¹ - أندري ديرليك: عبد الحميد بن باديس 1307 - 1358 هـ 1889 - 1940 م مفكر الإصلاح وزعيم القومية الجزائرية، تقديم وترجمة مازن بن صلاح المطبقاني، عالم الأفكار، الجزائر 2013، ص 167.

كما ربط أيضا الشيخ ابن باديس الفكرة الإصلاحية فى الجزائر بالفكرة الوطنية حتى كانت دائرتها متطابقتان، فالشيخ لم يكن يرى أى تعارض بين القومية الجزائرية وعلمية الإسلام¹، فالنشاطات الإصلاحية كانت طريقة نضال ضد الاستعمار فى أعمق تجل له بالجزائر المستعمرة، وبذلك غطت الحركة الإصلاحية جانبا مهما فى النضال الوطنى كان غائبا أو على الأقل منقوصا فى فكر وممارسات باقى اتجاهات الحركات الوطنية التى غلب على مسيرتها الطريق السياسى البحت.

والحق أن الشيخ ابن باديس قد تبنى الفكر الإصلاحى عبر مسيرته التعليمية وتكوينه الطويل الذى سخره لطلب العلم، ولا نذكر فضلا لأستاذ بعينه فى اعتناقه للمبدأ الإصلاحى أو أثرا لحادث بعينه جعله يعتنق الفكرة الإصلاحية، ونميل نحن إلى عامل ما توافر عنده من ميزات شخصية؛ عقلية وروحية جعلته مهيبا لاعتناقها، إضافة إلى جهد الملاحقة والمتابعة فى تأملاته للحقائق الدينية التى كانت سائدة فى بعض الممارسات والاعتقادات الدينية للإسلام الجزائرى، ما جعلها تكون محل تساؤل ونقد على مستواه الشخصى² لما رآه فيها من مفاصد وتناقض مع صور فطرته للدين، خاصة مع ما وصل له الإسلام الشعبى من انزلاق وانحراف بين عن الأصل.

كانت هذه الوضعية تخلق عناء داخليا ومتاعب صراع بين حقيقة تصنعها قوة الواقع بممارساته الواسعة من جهة، وحقيقته العقلية والروحية المدعمة بحقائق فطرته السليمة من جهة أخرى، وما كان يزيد فى معاناته بقاء هذا الصراع داخله دون معين يشاركه عبأ ألم هذا الغموض، فحتى هذه الفترة من عمره ومسيرته التعليمية لم تكن معارفه تؤهله فى المساهمة بالتخفيف عليه أو تنير له طريقا وتضعه فى بدايته، وإن خلقت فيه هذه الوضعية دافعا لمتابعة هذه الحقائق بالتأمل والبحث عن صحيحها وخطئها.

هكذا كانت تتواضع عنده حقائق جديدة عن الدين غير التى عرفها فى وسطه، وتتراكم حتى صنعت حقيقة فكرته الإصلاحية، التى قام أيضا بتنميتها وتطويرها لديه من خلال ما وفرته البيئة الزيتونية ومنها الاحتكاك بمشائخه فى تونس أو أثناء رحلته للمشرق ومطالعته العميقة لأمهات الكتب الدينية أو الكتابات الإصلاحية وعلى رأسها مجلة المنار³، إضافة إلى اجتهاداته الخاصة، حتى استطاع بذلك الفصل فى الخيارات والبدائل للفكرة الدينية واستقرت فكرته بقناعة راسخة وجليه غير قابلة عنده للريب أو التشكيك أو المقايضة، وقد ساهم فى يقينية الفكرة الإصلاحية عند الشيخ ابن باديس ما وجده متوافق مع طبيعته وفطرته، وكأن الشيخ عبد الحميد بن باديس لو لم تكن هذه الأفكار قد وجدت حتى زمانه ذلك لجزمنا أنه كان يمكن أن يكون من موجوديها وباعثي ظهورها فى العالم الإسلامى.

¹ - مولود عومر: عبد الحميد بن باديس مسار وأفكار، جسور للنشر والتوزيع، ط 2001، ص 20.

² - استشفينا هذه الحالة من خلال ما أورده بصدد ما كان يعنيه من عياء لفهم المفسرين "أننى كنت متبرما بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية فى كلام الله"، أنظر عبد الحميد بن باديس: الشهاب، عدد خاص، 4-5 جويلية 1938، مصدر سابق.

³ - انظر مبحثنا السابق ابن باديس وتوجيهه الإصلاحى، ص 71.

إذا كانت الفكرة الإصلاحية عند الشيخ بهذا اليقين والعمق فى الفهم، وهو بمستوى هذه الشخصية من التكوين النفسى والعقلى؛ فإنه كان يصلح لأن يكون رجل فكر ونضال، أو بالأحرى رجلا رساليا كلف وأناط نفسه بمهمة الإصلاح فى مجتمعه، ولأنه كذلك؛ فإنه عمل على تمثلها بكل ما أوتي من قوة فى المجتمع الجزائرى المسلم، فكانت الفكرة الإصلاحية التى يحملها هدفا يسعى أن يكون العمل بها كمنظريه دينية للإسلام الجزائرى ووسيلة لنهضة المجتمع عنده.

والحقيقة أن الشيخ ابن باديس قد أدرك دوره التأسيسى ومهمته تجاه فكرته ومجتمعه، فإذا كانت ميزاته الشخصية مثل ما أسلفنا التقديم قد ساهمت فى اعتناقه الفكرة الإصلاحية، فكان لها أيضا الأثر البالغ فى نشر أفكاره، فقد كان يتمتع بكاريزما خاصة تصل إلى درجة السحر تجعل من أفكاره وآراءه لمحاوريه ومحدثيه سهلة الوصول والافتناع بها فالتبني والدعوة لها.

كما كان يتحلى بموهبة فى التخطيط والتصور لتنفيذ مشروعه، فهذا كله ساعده على توطين الإصلاح بالجزائر فى تلك الفترة التى كانت أبعد فى ظروفها ما تكون أن تستقبل هذا النوع من الفكر والحركة. فكيف استطاع ابن باديس النجاح فى نشر فكرته الإصلاحية وتوسيعها لحركة تعم مختلف الوطن الجزائرى وتقلب الكثير من الحقائق المعنوية خاصة تلك المتعلقة بالثقافة والدين والهوية، وتصبح طرفا ندا فى معركة الصراع مع التقليد والاستعمار ومنتوجاته؟.

كان الشيخ ابن باديس مع ظهوره كمعلم عام عودته من تونس 1913م، لم يرض بهذا الدور وحسب بل كان يرى فى نفسه أنه مناط بمهمة الزعامة لنهضة مجتمعه مما يتوجب عليه تنصيب نفسه مصلحا صاحب مشروع للتغيير والنهضة.

ويبدو أن عبد الحميد ابن باديس مع نهاية تكوينه العلمى بالزيتونة ورحلته للمشرق عام 1913م يكون قد اتضح له طريقه الإصلاحى وفصل فيه، فملك مشروع الإصلاح جوانب حياته ولم تعد هناك مساحة لحياته الخاصة*، فإيمانه امتلاء بالعمل والتفكير فى إنجاح وإفشاء الفكرة الإصلاحية فى وسط المجتمع الجزائرى المسلم، خاصة أن الشيخ كان إيمانه بفكرته بقناعة ووعى حرضه عليه التزامه وتكوينه الدينى وليس مثل ما ذهب الأستاذ علي مراد فى أنه انعكاسات نفسية لترضية ضميره فى تعويض استغلال الطبقة الارستقراطية التى ينحدر منها للطبقة الكادحة من الجماهير الأهلية الجزائرية¹.

وبعودته واستقراره النهائى عام 1913م وحتى 1940م تاريخ وفاته يكون الشيخ قد كون مسيرته الفعلية للتأسيس وتوطين فكره الإصلاحى الذى واصل بعده فريقه مهمة التمكين لفكرته.

*- تعكس حياته الشخصية وقصر مدة زواجه وطلاقه المبكر من زوجته وكذا استغناؤه على امتيازات عائلته زيادة على جهده ومرابطته للنشاطات الإصلاحية دون سواها هذه الفكرة.

¹ - انظر علي مراد: المرجع السابق، ص ص 94-95.

لم يكن الشيخ صاحب مشروع مرتجل أو متسرع كما لم يكون مشروع شخص حالم، لقد كان الشيخ يتمتع بروح إصلاحية يراعى الواقع فىحلل وأضاعه يقف على مدى سوءه وعلى ذلك لم يدفعه لليأس من تغييره، وبنظرة المصلح العميقة والعالمة يبني خطته للعلاج التي راعى فيها الزمن والإمكانيات.

هذه جعلت من مشروعه يتحرك بخطى ثابتة ومدروسة عبر مرحلية واقعية تراعى ظرفية المجتمع وإمكانياته، وهو ما جعل مبادرته الإصلاحية تحقق جل أهدافها فى زمن قياسي رغم كل التحديات التي كانت لا تدفع إلا على التشاؤم فى نجاح أي مبادرة نحو هذا المشروع، ولعل هذا تأكيد على الروح الإصلاحية التي تمتع بها الشيخ كما لم يكن حالما متجاهلا للواقع، لم يكون أيضا متشائما من واقع مجتمعه الذي لم تكن حتى تلك الفترة تلوح به أي بادرة لنمو وإنبات أي فكرة أو حركة نحوى التغيير.

كانت أولى خطواته فى هذا المسعى الإصلاحى، هو الاطلاع على الواقع عن كثب، لإدراك حقائق المجتمع، حقائق أوضاعه المزرية كما أيضا حقائق القوة التي يباشر منها عمله، فكانت زيارته العديدة وغير المنقطعة وعبر برنامج مدروس لكل أنحاء الوطن فرصة لاكتشافها، لحاجته فى تحليل أوضاعها ومعرفة مواطن وحجم الخلل فيها وتقييمها على نحو دقيق كما كانت فرصة أيضا لمعرفة مزاياها والتعريف بنفسه إلى أهلها، وهو ما يساعد على بناء لكل منطقة خططها وتحديد الشخصيات التي يعتمدها فى مشروعه.

ومما كان مهم من خطته إعداد إمكانيات للجهاز الإصلاحى من خلال البدء فى تكوين الإطار البشرى الذي سوف يقاسمه ويشاركه حمل هذا المشروع، فكانت حلقة التعليم التي نصبها بعودته مباشرة، تستهدف بالإضافة إلى نشر العلم والمعرفة؛ انتقاء فريديات بميزات شخصية ونفسية ومواهب فكرية وعقلية قادرة على حمل المهمة.

فكانت مبادرته إرسال ثلثة منهم للزيتونة، وهي البيئة التي تتوفر على قدر من العلم والإصلاح وتتوفر على نماذج القدوات من علماء ومشائخ، وهو ما يساهم فى تكوينهم على النحو الذي كان يريده منهم، كما كان يعمل أيضا على اكتشاف طلبة جزائريين آخرين عهدتهم الزيتونة، فىعمل على التواصل معهم وتوجيههم حتى يتسنى له أثناء رجوعهم الاستفادة منهم بمناطقهم فى مشروعه، فكان يتابع بارتياح كبير بداية ثماره من الطلائع الأولى للزيتونة لتتعهد كما كان يخطط لها تحمل مسؤولية الإصلاح وتوسيع مشروعه.

والحقيقة أن الشيخ ابن باديس استطاع أن يوفق فى هذه المبادرة أيا توفيق، ذلك أنه أحسن اختيار التلاميذ الذين كان يعول عليهم فى مشروعه، ولم يخيبوا ظنه، بل كانوا سواعده الذي كسب الرهان بهم¹، فما أن عادوا إلى الوطن حتى تدعم صف الإصلاح بهم مثل الشيخ مبارك المليلى وخير الدين وغيرهم.

¹ - الجابري: المرجع السابق، ص 36.

كما كانت فكرة بعثاته العلمىة إلى الزيتونة قد رسمت مسلكا وتحولت إلى ظاهرة ثقافية عند الجزائريين، فكانت تزداد سنويا¹، وإن كانت هذه المهجرات الطلابية ليست لبعضها التوجيه المباشر من قبل الشيخ ابن باديس إلا أنها كانت تحاكي وتجاوى خطته ومقاصده، ذلك أن هؤلاء سوف يسهل الانتفاع بهم فى مشروعه لطبيعة تكوينهم العلمى والفكرى الإصلاحى الذى سوف يأخذونه أو يتأثرون به من البيئة الزيتونية وأيضا لما كانت تقاسمه فى الكثير من الأهداف مع مشروعه وأقلها توسيع التعليم والثقافة العربىة والإسلامىة.

ومع عقد العشرينات من القرن 20م مثل هؤلاء الطلبة وآخرون ممن تعلموا فى مراكز التعليم بالشرق، عددا معتبرا لذوى الثقافة العربىة الإسلامىة الجديدة، كان الشيخ يدرك أهمية جهودهم فى مشروعه، فراح يعمل على تفعيل أدوارهم وتوجيههم نحو المقصد الإصلاحى.

كانت لقاءاتهم الحثيثة واتصالاته المستمرة، تحبب فىهم الثقة فى النفس وتنمى فىهم الوعى برسالتهم وتوظف فىهم الهمة، وهكذا استطاع ابن باديس ومن خلال علاقاته التى بناها مع هؤلاء أن ينشئ تجمعا متناعما فى تصوراتهم لمجموعة معتبرة من أصحاب الثقافة العربىة الإسلامىة الجديدة والموزعين على مختلف مناطق الوطن، وينخرط بهم فى مشروعه بتصورات وأهداف موحدة.

وتزامنا مع ما كان يحضره فى تلاميذه للمستقبل، أقدم الشيخ ابن باديس بربط صلوات وثيقة مع ما وفرته تلك الفترة من علماء تقدمت عندهم الفكرة الإصلاحىة وأدركوا رسالتها، وبدت لهم نشاطات لأجلها فى مناطق إقاماتهم، فتقرب إليهم وقربهم لبعضهم فى مسعى لتوحيد جهودهم وتنظيمها، لوعيه أهمية التنظيم فى تحقيق هكذا مسعى فى ظل ظروف المجتمع الأهلى وقبضة استعمار مركب، فكانت لقاءاته ونقاشاته مع الشيخ الإبراهىمى حول هذا المشروع فى المدينة المنورة وزادت اتضاح بلقاءات التزاور أثناء العودة بسطيف، ونفس الأمر أقدم عليه مع الشيخ الطيب العقبى ببسكرة وخير الدين ومبارك الميلى وكل من تواعد فىه الإيمان بالإصلاح من أصحاب العلم فى الجزائر.

كان تعويل الشيخ ابن باديس على جهود هؤلاء العلماء كبير فى نشر المشروع الإصلاحى ونهضة المجتمع الأهلى خاصة بعد وقوفه على علمهم وحرقتهم لفكرة إصلاح ونهضة المجتمع، فما كان منه إلا أن يضع لمستته التنظيمىة، بالقيام بتوزيعهم على مناطق رئيسىة فى الوطن حتى يتمثل الإصلاح فى كل ربوع الوطن، وتقرب أو تصل الفكرة لكل ساكنة الجزائر من المجتمع الأهلى، فوجه الشيخ البشير الإبراهىمى إلى تلمسان²، فأصبحت بذلك عاصمة الإصلاح فى الغرب الجزائرى ومصدر إشعاعه، ونقل الشيخ الطيب العقبى للعاصمة³ وأبقى على

¹ - Archives National de Tunisie, carton N°271, Dossier N°06 administration général, indigènes algériens instruction interdiction du territoire résidence au Tolbas Algériens.

² - أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص152.

³ - المرجع نفسه، ص161.

الشيخ خير الدين بقرى وواحات الزاب¹ وكان العربى التبسى بتبسة²، وتوافقت خطته مع وفود الشيخ مبارك الميلى بعد عودته من تونس إلى الأغواط ليتصدى لنشر الفكرة الإصلاحية بالجنوب³، أما فى الغرب فقد وجه الشيخ السعيد الزموشى أصيل عين البيضاء إلى معسكر⁴، فى حيلة لتدعيم جهد الشيخ الإبراهيمى.

وبهذا عملت إستراتيجية الشيخ ابن باديس هذه على ضمان زرع فكرته وتوزيعها على مختلف أنحاء الوطن، فى مسعى أن نشاطاتهم التى سوف يتحلون بها _ من تعليم مدرسى ومسجدي ووعظ وإرشاد وأدوار دينية واجتماعية أخرى _ بالوقت سوف تساهم فى انتقال فكرتهم وامتدادها لجوار وضواحي مناطقهم للأجزاء النائية منها، حتى تتصل ببعضها كشبكة مترابطة، وحينها يكون قد وطد فكرته وجذرها فى المجتمع والوطن، وهذا ما كان فعلا وخلال سنوات قليلة لم تتجاوز العقدين من بداية التأسيس لمشروعه، لتظهر هذه الفكرة كحركة تتميز المشهد الثقافى والاجتماعى والسياسى فى الجزائر ويكون لها أثرها البالغ على التطورات المختلفة حتى الاستقلال وبعده.

إضافة إلى العامل السابق فإن الشيخ بن باديس كان يعمد أثناء زيارته المختلفة لمناطق الوطن إلى البحث واكتشاف الشخصيات من مشائخ الزوايا والأئمة المؤهلين والمستعدين فكريا وعقليا لتبني فكرته أو محاولة إيجادها، فالشيخ كان يعلم أثر التطورات التى كانت تحدث فى البيئات العلمية والدينية للبلدان المجاورة وأثرها على الطلبة الجزائريين الذين كان لهم حظ التعلم فيها فى العقود المبكرة للقرن العشرين.

فعرف عن الشيخ منذ زيارته الأولى للمناطق المختلفة من الوطن أنه كان أهم ما يستهدف فيها هو زيارة المعلمين والأئمة، مجالسا لهم ومشجعا لجهودهم ومبرزا لأهبيتهم ودورهم فى خدمة مجتمعاتهم، إضافة إلى تحسس أفكارهم ومدى منحاهم وموقعها بالنسبة للفكرة الإصلاحية، حتى يتبين له قدر وسبيل الاستفادة منهم، فالشيخ كان من حكيمته، النظر إلى الأشياء الإيجابية فى الأشخاص ومحاولة تفعيلها لخدمة مشروعه، ولم يكن إقصائيا يبحث عن الكمال فى من يضمهم لمشروعه، ولقد وجد من هؤلاء بتفاوت فى مساحة أفكارهم فى الإصلاح، وهم لكبر سنهم وقدم مجالسهم التعليمية، قد أصبحوا بذلك أصحاب نفوذ ومرجعية علمية ودينية فى مجتمع إقاماتهم، وما لهذا من أثر فى توجيه الناس والتأثير عليهم، فكان الشيخ يدرك هذه المكانة والأهمية لهؤلاء وقيمة استثمارها واستغلالها فى المشروع الإصلاحى، الأمر الذى جعله يصارح من كان يرى فيهم فكرته ويبادر بإقحامهم فى مشروعه، ومن كان غير ذلك كان يتعامل معهم بحكمة " أن الذى تنفق عليه أكثر مما نختلف فيه "، وقد ورد له فى هذا المعنى أثناء زيارته للغرب الجزائرى فيقول: ((..وأن لا تجعل القليل مما نختلف فيه سببا فى قطع الكثير مما

¹ - محمد خير الدين: مذكرات المرجع السابق، ص 86.

² - أحمد الخطيب: المرجع السابق، 169.

³ - المرجع نفسه، ص 164.

⁴ - محمد القرصو: الحركة الإصلاحية الجزائرية: تأسيس ونشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى عمالة وهران 1931-1935، شهادة الدراسات المعمقة فى التاريخ، جوان 1977، جامعة وهران، ص 49.

نتفق فىه، وإن الاختلاف بين العقلاء لا بد أن يكون ولكن الضرر والممنوع المنع البات هو أن يؤدنا ذلك الاختلاف إلى الافتراق...¹.

بهذا استطاع الشىخ أن يطمن هذه الطبقة لفكرته وىجبها عنادهم وخصومتها وما أثر ذلك فى توفير جهد وطاقه للبناء لا للصراع، فكانت كثير من لقاءاته بهم وحتى مراسلاته لمشاىخ الطرق فى الجزائر ىخاطب فىهم المشترك وىحى فىهم أدوارهم الصالحة وىشجعهم فىها لخدمة المجتمع .

كما كان الشىخ يدرك أهمية السند الاجتماعى فى توسيع وتوطن مشروعه، فالنفوذ الاجتماعى حاجة وضرورة لكل حركة اجتماعية، لذلك لم يهمل الشىخ أثناء زيارته للمناطق الجزائرية التوقف عند الأعيان والعائلات الكبيرة ومشاىخ الطرق والزوايا²، لمعرفته أثر هؤلاء البالغ فى النفوذ على المجتمع الأهلى، وقد اعتبرهم البوابة التى ىدخل منها إلى مجتمعاتهم، وفعلا من خلال هذا كان الشىخ يعبر عن حس اجتماعى عال، ما كان لىغيب عن مصلح ىرغب فى التغيير الاجتماعى وخاصة بحجم مشروع ابن باديس .

إضافة إلى الرحلة والتنقل التى عرف بها الشىخ ابن باديس لكل أنحاء الوطن للتعريف بفكرته وتهيئة النفوس إليها، فإنه كذلك اعتمد الصحافة كوسيلة لدعوته، ولعل الشىخ لم تفته خطورة دورها لذلك نجده سرعان ما انخرط بقلمه فى الصحافة، فلم ىدخر أى جهد على ضيق وقته فى تخصيص وقت مهم من عمله للكتابة الصحفية، فكانت بدايته كقلم بارز فى صحيفة النجاح سنة 1918م التى أسسها الشىخ الهاشمى³، ولا نستبعد أثره فى توجه خطها الإصلاحى فى البداية، ودورها فى خدمة قضايا المجتمع الأهلى المسلم حتى تحولت إلى النقيض بانسحابه منها، نشر أول جريدة له تحت اسم " المنتقد " فى أول جويلية 1925م لكنها أوقفت بسبب الاحتلال⁴، تلاها مباشرة تأسيسه للشهاب فى نوفمبر من نفس السنة وأصبحت فىما بعد مجلة شهرية ودامت حتى سنة 1939م، التى سوف تمثل طيلة هذه المدة المنبر الأساسى ولسان حال هذه المدرسة الجديدة للإسلام الجزائرى .

ىحيلنا تأسيس الشهاب على معنى أراده الشىخ ابن باديس وهو؛ الرغبة فى وجوب أخذ زمام المبادرة الذاتية فى الداخل الجزائرى فىما يتعلق بالفكرة الإصلاحية وأذان بفظامها عن الحركة الإصلاحية فى العالم الإسلامى، وتوفير مصدر للدعاية له يعوض المجلات والمنشورات الوافدة من المشرق التى كانت حتى هذه الفترة مصدر التغذية

¹ - ابن باديس: فى بعض جهات الوطن، الشهاب، نوفمبر 1931.

² - أنظرا مثلا عن هذا زيارته ورحلاته لإقليم الغرب الجزائرى لمحمد القرصو: المرجع السابق، ص 24-32.

³ - رابح تركى: الشىخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده فى التربية والتعليم 1900-1940م، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص115.

⁴ - Hella Amar, Op.cit, p110.

الفكرىة لأنصار الإصلاآ بالجزائر*، وهو فعلا ما سوف تعرفه المرحلة القادمة من ميلاد فكر ومشروع إصلاآى بملامآ جزائرىة بآتة، فى استقلالرىة كاملة عن النماذآ المشرقىة.

كانت الشهاب من آلال مضامىنها اللى اآتوتها أعمدتها، منبرا للآعوة للفكر الإصلاآى والتعرفى به، ومرجعا للتغذى الفكرىة والمنهآىة لأنصاره، والسند الفكرى لتعزىز قناعتهم وتقوىة آرائهم، كما ساهمت فى توسىع هذه الفكرة والوصول بها إلى مناطق عدىة من الجغرافىة الواسعة للقطر الجزائرى واللى كان ىتعذر للشىآ الوصول إىها، فوجد الشىآ فى الشهاب قناته وقنطرتة اللى ىصل بها وىتواصل من آلالها بعدىد الناس على اآآلاف إقامتهم وبعدها.

إن المكانة والأهمىة اللى اآآلتها الشهاب فى نشر الفكرة الإصلاآىة وتوطنىنها، جعلت من الشىآ ىبند من آلالها قلمه وىآتهد فىها لإبراز هذا الفكر والتعرفى به، كما آآ فرىقه على المساهمة الفعالة فىها، وفتحها أمام الأقالم الجزائرىة فى تفاعل وآوار ساهم بشكل آطىر فى توطىد الفكر الإصلاآى.

لم ىكآف الشىآ عند إنشائه الشهاب، فراح ىوسع هذا النوع من الصآافة فأنشأ الصراط المستقىم والسنة المآمىة**، كما آرض فرىقه على ركوب هذا المىدان الذى ىىدو أنه قد مثل عندهم أآآ الحلبات الآطىرة فى معركة الصراع من الاستعمار وآلفاءه.

لقد وآدت آعوتة وقآوتة هذه آثرها فى الواقع إذ سرعان ما ظهر هذا النوع من الصآافة وازآهر وآاول تغطىة كل آاجات آماهىره فظهرت للوجود إلى آانب الصآافة الإصلاآىة باللسان العربى صآافة أخرى باللسان الفرنسى وأخرى مزدوجة اللغة، كل هذا آآى تفى بآاجة آمىع المتلقىن على اآآلاف لغة قراءتهم، وبذلك تكون الصآافة الإصلاآىة كما آاولت تغطىة كل الرقعة الجغرافىة لفتاآها المستهدفة فإنها أىضا عملت على تغطىة كل فتاآها الثقافىة، آآى أنها عرفت عآدا كبرى من القراء المتآزمىن بها فى المهآر آاصة من المهاآرىن والطلبة الجزائرىىن فكانت بذلك تمثل لهم مآدا فكرىا ومعرفىا وإآبارىا ىصعب توفىره فى مثل ظروفهم.

هذا الازآهار فى العآد والتنوع والمضامىن فى الصآافة الإصلاآىة، جعل منها حلبة صراع فكرى بىنها وىبن آمىع التىارات الفكرىة السائآة والأفكار المتعارضة والمضادة لها، واللى هى الأخرى وآآبت إلى آد ما هذا التطور فى صآافتها، إلا أن الآىوىة والنضالرىة اللى كانت علىها الصآافة الإصلاآىة، لم آرد الفكر الإصلاآى إلا صلابة وتوطدا وتوسعا آآى أنه بعد فترة قصىرة من الوقت أصبآ ىشكل صلب الفكر الإسلامى فى المشآه اللىبى والتقافى فى الجزائر.

* آآى هذه الفترة كان أنصار الفكرة الإصلاآىة فى الجزائر ىآزودون فكرىا بالمآلات الإصلاآىة المآآلفة الوافآة من المشرق العربى وعلى رأسها " المنار، السلفىة، الزهراء الفآآ الجمعىة الإسلامىة، الآآآرام، المرشآ، العربىة "

** تم توفىف اآلب الصآف الإصلاآىة بعد أآداد قلىلة من صآورها من قبل إدارة الاستعمار، لقد كانت إدارة تتابع التطورات المهمة للآركة الإصلاآىة ومبلغ الآآر اللى تمثله صآفها على سىاساآها.

هكذا إذن استطاع الشيخ أن يلبي حاجة المشروع الإصلاحى فى تغطية جانب دعايته، ويصل بصحافته إلى مصاف المنشورات الإصلاحية الكبرى والشهيرة فى العالم الإسلامى، بل ومصدر إلهام للعديد من التجارب الإصلاحية الأخرى فيه.

وما إن حل العقد الثالث من القرن التاسع عشر 19م وبلغت بذلك جهود الشيخ المضنية فى سبيل مشروعه الإصلاحى فى الجزائر حوالى عقدين، حتى لاحظ ثماره فى الواقع بنجاحه فى تأسيس إطار تنظيمى عصري وقانونى سوف يعتمد عليه فى نشاطاته الإصلاحية، بفاعلية ودور كبير.

فكان ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، هو تبنى جديد لثقافة المؤسسة فى العمل الإصلاحى وتجاوز الثقافة التقليدية التى تعتمد على الأشخاص، والتى يرتبط مردودها واستمراريتها وكذا مصيرها بهم، مما يعكس أن الشيخ كان يعي لحظة التاريخية وحاجاتها من أدوات العمل ومدى أهمية المؤسسة فى المجال العام فى عصره.

كل هذا جعل من الشيخ يوطر مشروعه فى تنظيم قانونى، يتجاوز بنتائجه جهود الأشخاص وأعمارهم، وفعلا استطاعت الجمعية التكفل بنجاح فى مد المشروع الإصلاحى وتعزيزه وتبنى واجهته السياسية والثقافية والاجتماعية، من خلال نشر الثقافة العربية الإسلامية فى سائر أوساط المجتمع الجزائرى المسلم وتبنى دور التنوير والتوعية وإصلاح الرأى العام الأهلى.

توفى الشيخ ابن باديس فى أبريل 1940م وقد ترك مشروعه فى نمو وتوسع بفضل فكرته، بإنشاء جمعية تتولى المشروع الإصلاحى، فهما منه أن عمر المجتمعات أكبر من عمر الأشخاص والأفراد، وأن المشاريع الاجتماعية الطموحة تتجاوز جهود وطاقت شخص أو حتى مجموعة من الأشخاص خلال فترة زمنية محددة، فكانت تدبير فكرة الجمعية كمشروع عمل مؤسسة حتى تستوعب بعمرها وجهودها المجتمع الذى تتفاعل معه من خلال ما يمنحه لها من أفراد، مجددا دماؤها بأجياله المتعاقبة، وهى بدورها مواصلة مدها فى الانجاز من خلالهم بخدمتهم له بروح مواكبة ومتجددة لمتطلبات التغيير والتحول، وهو ما حدث فعلا مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، إذ لم يتوقف العمل الإصلاحى مع وفاة صاحبه أو مجموعة فريقه الأول والمؤسس مثل ما عرف عن التجارب السابقة، بل استمرت الجمعية من خلال نشاطاتها تعلم وتتفاعل مع قضايا المجتمع مساهمة فى حركته وتطوراته وفى بعضها حيناً وفى كثيرها أحيانا القسط الكبير.

كل هذه الجهود التى بذلها الشيخ ابن باديس فى التوطن للفكر الإصلاحى كانت فى ظل ظروف وتطورات لمسيرة الاستعمار فى الجزائر وما انطوى على ذلك من مخاطر وتهديد للنظام الاجتماعى، وما انجرا عنه من مأزق حقيقى هدد ثقافته، وهو ما مثل ظروف أهلية غاية فى التحدي لاستقبال الفكر الإصلاحى كما تطرقنا، ولكن هذه الظروف نفسها قد سمحت بشكل أو آخر فى توسع الفكرة الإصلاحية، وهذا بفعل مساهم به فشل الخطاب الاستعمار الذى كان يحمل وعود التطوير والتمدين للمجتمع الأهلى وخيبة أمل هذا المجتمع مما وصل إليه

الفصل الثاني: المشروع الإصلاحي في الجزائر (الجدور والتوطين)

جراء سياسات الاستعمار، ويتأكد خصوصا مع فشل المشروع الفرنسي في استيعاب الفرد الأهلي حتى ذلك المندمج والذي توفر فيه الكثير من المعيار الذي تطلبه إدارة الاستعمار، وهذا ما يعكس جوهر المشروع الاستعماري الفرنسي العنصري القائم على كل نقيض لمصالح المجتمع الجزائري المسلم، وعدم رغبة الدولة الفرنسية استيعاب المسلم الجزائري في مشروعها الحضاري.

هذا منح الفرصة لحد بعيد للمشروع الإصلاحي وخطابه بالنفوذ إلى الأوساط الأهلية كتعبير مقاومة وإحياء في ظل فراغ تركه الطرف الاستعمار أو عجز على استغلاله من جهة، وضعف المشروع التقليدي الأهلي الذي كانت تتبناه الطرق والزوايا بسبب تجاوز التطورات الحياتية والراهن لهذا المشروع الذي بدا عقمه واضحا في الإجابة عن الحاجات المختلفة للمجتمع.

وبذلك جاء المشروع الإصلاحي لابن باديس في اللحظة التاريخية المناسبة أو قد يكون قد ساهم بعقريّة المصلح في تهيئة ظروف المجتمع المسلم التي لم تكن تشيء حتى بداية عزمه إلقاء مبادرته إلى الميدان أن هذا المجتمع يمكن أن يتقبل ويستقبل هذا المشروع كما حدث فعلا في واقع الجزائر.

المبحث الرابع: نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

فى هذا المبحث نتناول التطورات والمراحل التى عرفتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حتى ميلادها، وذلك بالوقوف على الفكرة من بداية جنينيتها فى مجتمع أهلى كانت بعيدة عنه آلية العمل الجمعى كوسيلة نضال أو إطار للنشاط إلى مخاض التأسيس الذى عرفته حتى ظهورها عام 1931م بمبادئها وأهدافها.

المطلب الأول: فكرة الجمعيات بالوسط الأهلى فى فترة الاستعمار:

إن فكرة إنشاء الجمعيات كتنظيم لم تكن غريبة على الوسط الأهلى المسلم فى جزائر الاستعمار، ذلك أن الجماعات الدينية المتمثلة فى الطرق الصوفية والزوايا، تمثل جمعيات دينية وروحية مؤطرة ومهيكلتة التنظيم من القمة إلى القاعدة فى شكل منظمة، توسعت ووصلت إلى قاعدتها عن طريق هذا التنظيم، ولعل هذه الجماعات هى الأخرى لم تتبدع هذه الفكرة وهذا الشكل من التنظيم (المنظمة) بل نجدها قديمة عند أغلب المجتمعات الإنسانية، وقد تبرز جليا مع الأديان، فكان التنظيم الهيكلى وسيلة فعالة لتوصيل الدين تعاليمه وعقائده وانتقالها إلى القاعدة على امتداداتها الفتوية والجغرافية، وفيها أيضا يشعر أصحاب الفكرة الواحدة بالانتماء إلى بعضهم البعض وبقرابة تجمعهم حول هذه الفكرة والعقائد المشتركة بينهم، فيسهرون على الدفاع عنها أو العمل على التبشير بها وتبليغها. والإسلام كدين من هذه الأديان مثل أصحابه منذ البداية جماعة انتظمت كجمعية أو حزب¹ تهدف إلى الأخذ بتعاليمه وتعزيزها لديهم والسهر على نشرها، وبذلك مثل أصحابه جماعة تختلف عن الأكثرية العامة من مجتمع شبه الجزيرة العربية.

وبقى الشعور عند جماعة المسلمين بأنهم حزب واحد تتحدد ماهيتهم بتلك القواسم المشتركة التى تجعل منهم مختلفون مع الآخر غير المسلم أو بالأحرى مثل ما يرد فى الأدبيات الإسلامية " الكافر "، وقد كان أهم محدد لصفة المسلم الانتماء إلى الإسلام هى تلك التى تتعلق بالعقيدة والتى بدأت بوحدانية الله وربوبيته والشهادة على نبوة رسالة رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم).

ومع الابتعاد عن زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتوسع رقعة الدولة الإسلامية وما نتج عن ذلك من زيادة فى عدد سكانها وتنوع ثقافتهم وإرثهم الحضارى وما انطوى عن ذلك من اختلاف فى الفهم للنصوص الأساسية للإسلام (القرآن والحديث) التى طالت الشريعة والعقيدة، أذكت هذه الخلافات تلك الصراعات والاختلافات السياسية التى ظهرت بعد موقعة صفين 37هـ فى ظل الخلاف حول مشروعية الحكم بين علي ومعاوية رضى الله عنهما، والتى انتهت بظهور الفرق والتنظيمات الدينية التى يجتمع أفرادها حول فكرة ومفهوم عقدي مشترك يختلف عن فهم الجماعات الأخرى²، وبذلك أصبحت جماعة المسلمين تنحدر تحتها جمعيات أدنى

¹ - علي مراد: المرجع السابق، ص 145.

² - عبد الاله بلقزيز: تكوين المجال السياسى الإسلامى (النبوة والسياسة، ط1، مركز الدراسات للوحدة العربية بيروت، 2005، ص 45.

وفى تعارض عقائدى متفاوت إلى حد ما¹، تعمل كل واحدة منها على توسيع أفكارها لتضمن أكبر عدد ممكن من الناس بدافع تنجيتهم من النار حسب تصورهما، لاعتقاد كل جماعة فى علوها عن كل ضلال وزلل ويقينها بزيف الأخرى، فضلا عن اعتبار كل تنظيم، مسؤولية التبليغ والدعوة للهداية مناهة بكل مسلم.

ولأن أغلب التنظيمات الدينية تكون خارج الحكم فإن سيف المتابعة والملاحقة كان يطالها من الجماعة الحاكمة، لذلك انتظمت فى هيكل يضمن لها السرية وفى الآن نفسه توسيع فكرتها بسعيها لتجنيد أكبر عدد من المؤمنين بها.

وهكذا أصبحت فكرة التنظيم واقع يحرس جماعة مذهبية ما، يوفر مزية التغذية الفكرية لاتباعها على النحو العقائدى الذى أسسته وتؤمن به، فضلا عن حمايتها من الأخطار الخارجية، أمرا شائعا فى تاريخ مجتمع الإسلام وأضحت شيئا من تقاليد الحضارة العربية الإسلامية لما شهدته من ذبوع وانتشار خاصة فى العهد الأموي والعباسي واستمرارها إلى فترة الاستعمار الأوروبي الحديث، حيث ارتبطت بتسمية مغايرة تمثلت فى مصطلح الجمعية.

وإن كانت تطرأ تعديلات وتغيرات فى بنية ووظائف الجمعية عبر هذا الزمن الطويل بسبب التحولات التى تعترى المجتمع المسلم خاصة فى بناءه الاجتماعى، إلا أن خصائصها الأساسية بقيت راسخة، وقد حافظت الجمعية على وجودها كتتنظيم إلى العصر الحديث مع ظهور الطرق الصوفية والزوايا فى المجتمع المسلم.

حافظ المجتمع الأهلى الجزائري على هيكل التنظيم أو الجمعية فى الفترة الحديثة كما أسلفنا الذكر فى صور تنظيمات دينية ممثلة فى الطرق الصوفية والزوايا وحتى فى المجموعات المهنية والحرفية، حيث كانت هذه الجمعيات تتوافق مع بناءه الاجتماعى والثقافى والسياسى وحتى الاقتصادى حتى بدايات الاحتلال، إلا أنه مع هزة الاستعمار وبداية المساس ببنى ومؤسسات المجتمع الأهلى التقليدية، توارت المجموعات الحرفية وغدة غير موجودة، عرفت معها الجمعيات الدينية بداية تراجع فى فعاليتها ونفوذها وبذلك أدوارها، فالتنظيم الإدارى العصري وتراجع الملكية الجماعية والاستغلال المشاع لها لصالح الملكية الخاصة، ونمو الروح الفردية على حساب حياة القرابة والعائلة والقبيلة، وتراجع ساكنة الريف بنزوحهم إلى المدينة، وكذا ظهور المؤسسات الثقافية الحديثة التى تحتكر التعليم والعبادة؛ بموجب مراسيم وقوانين تفرض أداءها تحت وصاية سلطة إدارة دولة الاحتلال، زيادة على التحولات فى النمط والقوانين الاقتصادية، كلها ظروف كانت وراء ظهور واقع جديد فى الجزائر بقوة أشياءه، فانسحبت تعبيرات الأشياء والتنظيمات والأساليب التقليدية والقديمة لصالح تعبيرات وأساليب جديدة، فرضت على المجتمع الأهلى بعث تنظيمات تتوافق والترتيبات الجديدة هذه.*

¹ - عبد الاله بلقرين: الدولة فى الفكر الإسلامى المعاصر، ط1، مركز الدراسات للوحدة العربية بيروت، 2002، ص23.

* - هذه التحولات التى عرفها المجتمع الجزائرى قد استندنا فى مرجعية فكرتنا إلى الدراسة السوسيوثقافية الرائعة ل عدى الهوارى: الاستعمار الفرنسى فى الجزائر سياسة التفكك الاقتصادى والإجتماعى 1830-1960، ترجمة جوزيف عبد الله، ط1، دار الحدائة لبنان، 1983.

كانت إدارة الاستعمار بالإضافة إلى ما أحدثته من تحولات ارتبطت بسياساتها وقوانينها المتعارضة جذريا مع قوانين الحياة الأهلية، قد استقدمت أيضا وسائلها الحديثة المنتجة من واقعها الحضارى والقانونى وتطوراتها التاريخية، والتي أرادت بما تأطير المجتمع الأهلى فى محاولة لاستيعابه على نحو يتوافق مع إدارتها ومصالحها وأغراضها، فكانت إحدى هذه الآليات هي الجمعيات.

ككل الوسائل العصرية التي استقدمها الاستعمار أو جاءت معه، فإن المجتمع الجزائري بعد عقود من الزمن الاستعماري قد جذبته هذه الأخيرة، فبعد أن كانت ضده كوسائل غزو استطاع أن يحولها إلى جانبه ويطوعها كآليات مقاومة، قد يكون فعل الاحتكاك أو التأثير أو المثاقفة الحاصل بالتفاعل بين الجانبين أو وعى ثلة بأهمية هذا الجديد الوافد أو قوة هذا الوافد في فرض نفسه، هو الذي استدعى انتقاله إلى الجانب الأهلى.

هكذا إذا الجمعية بمفهومها المعاصر، بهيكلتها وخصائصها العصرية الجديدة، وكنمط من المشاركة في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية¹، قد ارتبطت بالفترة الاستعمارية في الجزائر، وكانت نتاجا لاحتكاك المجتمع الأهلى الجزائري بالظاهرة الاستعمارية الفرنسية الوافدة على البلاد، فأصبحت من تعبيرات وتنظيمات البيئة الأهلية، التي كانت تتطور وتتوسع طرديا مع الزمن من حيث عددها أو طبيعتها ووظيفتها أو حتى امتدادها الجغرافي.

والحقيقة أن تأسيس الجمعيات في البداية بالجزائر كان بمبادرة شخصيات فرنسية حرة، مع انخراط فئات أهلية، ليتطور الأمر مع توسع عضويتهم فيها إلى تأسيس جمعيات أهلية خالصة بمساعي شخصيات جزائرية، كان هذا هو الحال بالنسبة للجمعية الراشدية² التي أسسها "بارو" بالعاصمة العام 1902 م ونادي "صالح باي" برئاسة "اريب" Arripe بقسنطينة 1907م، والذي ضم نخب أهلية مسلمة كالشيخ ابن الموهوب ومصطفى باش ترزي ومحمد ابن باديس، وكذا "نادي الشباب الجزائري" بتلمسان و"دادية العلوم العصرية" بخنشلة و"جمعية الأخوة" بمعسكر و"الجمعية التوفيقية" بالجزائر²، ويعد ظهور "نادي التقدم الصحاري" بجامع الصهاريج التابع لبلدية مقلة بتزي وزو، الجمعية الأولى التي عرفت النور بمبادرة خالصة من جانب الأهالي الجزائريين³.

كان تأسيس هذه الجمعيات في البداية يعبر عن الوعي النهضوي والتحديثي الجديد لأصحابها، لذلك ظلت ولفترة من ظهورها مقصورة على العناصر الأهلية المثقفة ثقافة فرنسية من خريجي التعليم الفرنسي، والذين كان هدفهم إقامة نشاطات ثقافية تستهدف الأهلى، لتحسين أوضاعهم _ أمام ما شهدوه من ركود وتخلف _ بما هو متاح من وسائل لديهم.

¹ - المنصف وناس: الحياة الجمعياتية في المغرب العربي، التاريخ والأفاق (الجزائر، المغرب الأقصى)، تونس، المجلة العربية لحقوق الإنسان، السنة الرابعة، العدد 4، فيفري، 1997، ص 137.

² - شارل روبري أجيرون: الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871-1919، ج2، دار الرائد للكتاب، الجزائر، ص 710.

³ - شارل روبري أجيرون: المرجع نفسه، ص 710.

وإذا كانت الجمعيات الأهلية الأولى فى البلاد العربية من مهامها الأساسية إنشاء المدارس ونشر التعليم¹، فإن الجمعيات الأهلية الجزائرية وعلى تأخر ظهورها مقارنة مع نظيراتها العربية، كانت نشاطاتها قد اقتصرت على الجوانب الثقافية والاجتماعية البسيطة، كإلقاء المحاضرات و الندوات و الدروس* ولعل هذا يعود إلى عجز واقع المجتمع الجزائري المسلم، وما كان ينوء به من معضلات ثقافية واقتصادية واجتماعية _ والتي تعمقت مع الفترة الاستعمارية كما أسلفنا الذكر _ على استقبال مشروع المدرسة خاصة بشكلها العصري.

وعلى الرغم من ذلك كله فإن الجهود التي كانت تقوم بها هذه الجمعيات من نشاطات خيرية وأعمال علمية وثقافية، قد ساهمت فى نشر الوعي وتحريك الجمود الاجتماعى والثقافى الذى أصيب به المجتمع الجزائرى المسلم عامة، كما مثلت أيضا أداة فعالة لمواكبة التحولات التي من شأنها أن تصيب الإنسان الجزائرى المسلم كي لا يفقد بوصلة زمنه، إضافة إلى ذلك فإن هذه النشاطات قد حولت الجمعيات إلى وجهة للشباب الجزائرى² ليتفاعل مع واقعه، وبذلك تكون هذه الجمعيات قد جلبت هؤلاء كفئة معنية بالتغيير إلى صلب الاهتمامات والقضايا الرئيسية التي يعانى منها وسطهم الاجتماعى، محاولة القضاء على ما وسم المجتمع من لامبالاة و إهمال بقضاياها.

والحقيقة أن ظهور أسماء أهلية مسلمة ضمن قائمة عضوية هذه الجمعيات كان من شأنه لفت النظر إلى أهميتها، وقد تأكدت هذه الحقيقة خاصة مع ظهور رموز لنخب مثقفة ثقافة عربية إسلامية بحجم الشيخ ابن الموهوب، ما أدى إلى تدعيم حضورها فى فضاء ونشاطات المجتمع الجزائرى المسلم، حتى نقلها إلى صلب اهتمامات المثقفين ثقافة عربية إسلامية، فكان ذلك إيذانا لتكوين جمعيات خالصة لأفكارهم، وتتضح هذه المساعي جليا مع الشيخ ابن باديس من خلال تدايره لانتشال أوضاع مجتمعه المتردية وإخراجه مما يعيش فيه من بؤس وجمود وتحلف.

والواقع أن دلائل جهوده الهادفة إلى تكوين قوى فاعلة لمناهضة هذا الوضع، ينم عن إدراك الأهمية البالغة التي تفرضاها الضرورة الزمنية، من منطلق أن بناءات المؤسسات التقليدية للمجتمع المسلم، قد أضحت عاجزة على التفاعل الإيجابى والمفيد مع وسطها الاجتماعى، مما استدعى منه التفكير وبجدية فى التنفيذ العملى بتبني الشكل العصري للمؤسسات كأطر لنشاطاته، ولعل على رأسها مؤسسة الجمعية والتي كان يرنو من خلالها إلى تكريس الفاعلية فى الجهد؛ الهادف إلى تجاوز العطل الذى شهدته الحياة العامة للمجتمع الجزائرى المسلم، والمفضى إلى تحريك دواليبه الحضارية والثقافية، فكان نادي الترقى بالعاصمة عام 1926م بداية لفريقه فى هذا المضمار، والذى

¹ - رضا الغول: الجمعيات الخيرية فى تونس قبل الاستقلال الهياكل والوظائف، مذكرة لنيل الكفاءة فى البحث، جوان 1993، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ص 26.

* - هناك عديد الدراسات التي تناولت دور الجمعيات فى الجزائر نهاية القرن 19م ومطلع القرن 20م كلها تشير لاقتصارها على النشاطات التي ذكرناها فقط، انظر على سبيل المثال ابوالقاسم سعدالله وخمري الجمعي وأحمد صاري .

² - شارل روبرج أجرون: المرجع السابق، ج2، ص711.

أبان على نشاط وحيوية هذا الفضاء والإطار فى توسع أفكارهم الإصلاحية، وهو ما كان أرضية موحية وصلبة لتوجيههم نحو السعى والحرص لتأسيس جمعية أوسع وأعمق؛ أهدافا ووسائل وجغرافية، وبحجم طموحاتهم، وفعلا تكفل هذا المسعى الحثيث إلى النجاح بظهور جمعيتهم سنة 1931م التى أسماها " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين".

المطلب الثانى: مخاض تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ترتقى فكرة تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مع تبلور ووضوح الفكرة الإصلاحية فى ذهن الشيخ ابن باديس، والتى نرجعها إلى قبيل عودته وإتمامه لدراسته بجامع الزيتونة، ذلك أنه مباشرة أثناء عودته إلى أرض الوطن ومدينته قسنطينة باشر نشاطه التعليمى الذى استقر به بالجامع الأخضر بإستراتيجية تنم على حمله لتصوير ومشروع أكبر مما كان يعرف على أهداف وأبعاد حلقات التعليم المعروفة حتى ذلك الوقت، ولعل هذا يبرز فى ذلك التدبير الذى كان يقوم به بشأن انتقائه من جموع طلبته، أفرادا خصهم بالعباية والتوجيه لما لاحظهم من نباهة وذكاء وقدرات ومهارات تؤهلهم أن يكونوا سواعد لمشروع ثقافى وإجماعى، وحرصه على متابعة تعليمهم بإرسالهم للزيتونة وبقائه على حالة التفقد والتعهد لهم حتى رجعتهم.

كما تؤكد أيضا جهوده الحثيثة منذ عودته من الزيتونة من خلال رحلاته التى قصد بها مختلف مناطق وأحاء الوطن، للإطلاع على أوضاعها وخصوصا ما تعلق بجانب التعليم فيها، وذلك بالوقوف عند مراكز التعليم من زوايا وكتاتيب وكذا العائلات أصحاب المكانة العلمية والتعليمية والشخصيات المتعلمة للثناء على نشاطاتهم مركزيا لأدوارهم ومشجعا لجهودهم، محاولا بالإضافة إلى دفعهم للصمود فى وجه العوائق إلى ربطهم به واستيعابهم فى مشروعه.

تؤكد هذه البداية المبكرة لفكرة جمعية العلماء فى ذهن الشيخ عبد الحميد بن باديس مع ما قد اعتبرها الإبراهيمى الأسس الأولى لتأسيس هذه الجمعية والمتمثلة فى تلك اللقاءات المتكررة التى تمت بينه وبين ابن باديس أثناء تواجدهما بالحجاز والتى كانت بدايتها موسم حج للعام 1913م ودامت نحو ثلاثة أشهر _ وهى المدة التى قضها ابن باديس بالحجاز _ بعد كل صلاة العشاء والتى تتواصل أحيانا إلى أوقات متأخرة فى بيت الشيخ الإبراهيمى ويذكر الشيخ الإبراهيمى فى هذا الصدد: ((وأشهد الله أن تلك الليالى من عام 1931م هى التى وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتى لم تبرز للوجود إلا عام 1931م))¹، وخلالها كان يتداولون الأوضاع التى آلت إليها البلاد ويعيشها المجتمع الجزائرى والمخاطر التى تهدده بخصوصية ما تعلق بهويته وانتماءه الحضارى وسبل نمطته.

¹ محمد البشير الإبراهيمى: فى قلب المعركة 1952-1954، تصدير أبوالقاسم سعد الله، ط1، دار الأمة، 1994، ص 216.

وتعد سنة 1924م هى البداية الفعلية للتأسيس والعمل من أجل ظهورها كإطار تنظيمى وقانونى فى الميدان، وذلك لاعتبارين: الأول هى تلك الزيارة التى قام بها الشيخ ابن باديس فى هذه السنة إلى مدينة سطيف قاصداً الشيخ الإبراهيمى والتى تم فيها إبداء الشيخ ابن باديس عزمه على إنشاء جمعية تضم شمل العلماء والطلبة تعرف باسم "الإخاء العلمى"، وقد عهد للبشير الإبراهيمى وضع قانونها الأساسى¹ والذى أنجزه فى تلك الليلة وتم عرضه عليه فى الصباح وقد أثار إعجاباه وغبطته، ونقله بعودته إلى قسنطينة عارضا إياه على هيئة من أصحابه والتى هى الأخرى نال استحسانها

والاعتبار الثانى هو ذلك النداء الذى أطلقه الشيخ ابن باديس عبر جريدته الشهاب للعام 1925م، من خلال هذا النداء وجه ابن باديس دعوة إلى سائر العلماء فى القطر الجزائرى لتقديم اقتراحاتهم عساها تنفع فى تأسيس جمعية وطنية تضم جميع المصلحين فجاء فيه.

((...أيها العلماء المصلحون المنتشرون بالقطر الجزائرى، إن التعارف أساس التآلف والاتحاد شرط النجاح فهللوا إلى التعارف والاتحاد بتأسيس حزب دينى محض، غايته تطهير الدين مما ألصق به الجاهلون من الخرافات والأوهام والرجوع به إلى أصلي الكتاب والسنة. إننا نرغب من كل من يستحسن هذا الاقتراح ويلبى هذه الدعوة من أهل العلم ثم من كل من يجب الإصلاح أن يكاتبنا لإدارة الجريدة تبيان رأيه حتى إذا رأينا استحسانا وقبولاً من عدد كاف شرعنا فى التأسيس والله ولي التوفيق.))²

إن اقتراحه على العلماء الذين سيتاح لهم الاطلاع على نداءه هذا؛ مكاتبته إلى عنوان الجريدة "جريدة الشهاب"، جعل الردود المؤيدة والاقتراحات العملية تتوالى عليه، وكأن كل واحد منهم كان يحمل نفس الهم والفكرة، فقط ينتظر نقطة الإشارة ليسيروا نحوى هذه المبادرة، ولعل أهمهم الشيخ الطيب العقبي والمولود الحافظى ومبارك الميلي³.

وبالرجوع إلى تلك الاقتراحات والآراء نقف على حقيقة وضوح فكرتهم وعمقها⁴، فهى بذلك تعكس أن فكرة تأسيس حركة أو جمعية دينية كانت تساور أغلب علماء الجزائر.

كما يدفعا الاعتقاد أن هذا النداء وإن كان الأول المنشور والمكتوب، إلى تغليب الضن أن تكون هناك مشاورات ونقاشات ونداءات سابقة له، وإلا كيف نفسر ظهور اقتراحات بذلك التقدم على مستوى العمق والوضوح وفى مدة زمنية وجيزة.

¹ - محمد البشير الإبراهيمى: سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام ببنادي الترقى بالجزائر، دار الكتب، ط2، 1982، ص83.

² - الشهاب: العدد 3، 26 نوفمبر 1925.

³ - انظر مثلاً اقتراح المولود الحافظى، الشهاب، العدد 09، 07 جانفي 1926.

⁴ - على مراد، المرجع السابق، ص144.

كما نذهب أن النداء كان يعبر على إستراتيجية الشيخ ابن باديس التى كانت فى ما تهدف له، تعميم الفائدة وتوسيع الدعاية للحزب القادم وأيضا لتلافي كل تجاهل أو نسيان _ وما ينجر عنه من اعتراض بحجة الإقصاء _ لشخصيات قد يكون نفعها كبير على العمل الإصلاحى، وهذه ليست غريبة على تفكير قادة هذا الفريق الإصلاحى وعلى رأسهم الشيخ ابن باديس الذى كان يدرك الأهمية العددية والكثرة، فى مثل هذه المشروع جغرافية وطن مثل الجزائر وبخطورة المهمة فى مجتمع غائر فى الجهل واللامبالاة بمصيره.

كما نظيف ماساهم فيه إنشاء جريدة الشهاب من قبل الشيخ ابن باديس والتى بفضلها مثلت حلقة جمعت من حولها المثقفون ثقافة شرقية على اختلاف وبعد إقامتهم، زيادة على أثرها فى توحيد أحاسيسهم وطموحاتهم وآمالهم، بالإضافة إلى ما مثلته كفضاء تعارف بينهم، فضلا عن أنها كانت نواة استقطاب للباقي وإنتاج لأجيال يحملون نزعتها ومصدر تغذية فكرية لهم، كل هذا كان يعزز لدى الفريق الإصلاحى عزيمة التجمع فى حزب أو حركة وفى الآن نفسه مبرزا حاجة ذلك لتحقيق مساهم¹.

ومن جهة أخرى كان لتأسيس نادي الترقى عام 1926م مساهمة هامة فى تفعيل العمل الجماعى لعلماء الجزائر وجمعهم²، إذ مثل مؤسسة علمية وثقافية نظمت جهودهم وقربتهم إلى بعضهم البعض وفعلت نشاطاتهم، فكان بذلك لفتة لهم وتنبية لأهمية العمل فى أطر مؤسساتية حديثة.

كما نسجل أيضا أن سنة 1928م قد عرفت فى هذا الشأن مبادرة أخرى من قبل الشيخ ابن باديس تمثلت فى استدعاء أفضل العناصر التى يثق فيها من خريجي الزيتونة وجامعات المشرق والتى ضمن ولاءهم للنزعة والفكرة الإصلاحية، من أمثال الشيخ الإبراهيمي ومبارك المليى والطيب العقبي والعربي التبسي وسعيد الزاهري ومحمد خير الدين.

¹ - علي مراد: المرجع نفسه، ص 91.

² - Ali Merred, Op.cit, p 120.

لب هذا الفريق الدعوة تحت رئاسة ابن باديس بمكتب جريدته الشهاب بقسنطينة، وكان هدف هذا الاجتماع لأجل التأسيس المقبل لجمعية العلماء الجزائريين، وقد أسفر هذا الاجتماع على برنامج عمل لتحقيق هدف النجاح فى التأسيس للجمعية¹.

كما يذهب شارل روبرت أجيرون وتتأكد هذه النظر أيضا مع محفوظ قداش إلى أثر ممارسة الجزائريين للنشاط السياسى فى إطار أحزاب تأخذ الشكل العصرى الأوروبى كاتحاد المنتخبين المسلمين ومنظمة المعلمين الأهالى، فبذلك يكون قد استمد العلماء مبادراتهم فى تشكيل تنظيم يؤطر جهودهم من تلك الأمثلة السابقة للهيئات السياسىة التى ظهرت بما المجموعة المسلمة، فتشجع الإصلاحيون على السير على هذا النحو فى نشاطاتهم².

وبالعودة إلى تلك الخطوات المتقدمة التى عرفها مسعى تأسيس الجمعية سوا مع فكرة "الإخاء العلمى" أو "النداء الذى قدمه ابن باديس فى الشهاب لعام 1925م"، والتى كانت تشى بالفجر القريب لميلاد جمعية فى مدة قصيرة وليست المدة التى شهدت تأخر ظهورها حتى 1931م، هل نذهب إلى اعتبار تلك المبادرات قد تعرضت للفشل؟، أم ماذا وراء هذا التأخر؟.

يذهب أبو القاسم سعد الله إلى أنه كان هناك اختلاف بين مشروعين عند العلماء، مشروع يقدم البعد التعليمى للجمعية المأمولة ويقول بأهمية وألوية نشر التعليم فى أوساط الجماهير الأهلية المسلمة، والمشروع الثانى ذو بعد دينى عقدي يقول بمهمة محاربة البدع والخرافات وتصحيح العقيدة والدين³.

إذا كان هناك فعلا هذا الخلاف الذى يقول به أبو القاسم سعد الله خاصة فيما تعلق بالمشروع الثانى فإنه سوف يجد اعتراضات لعدم توحيد النظرة الدينية والعقدية بين علماء النزعة الإصلاحية والنزعة المرابطية خصوصا فى هذا الموضوع، وهو ما سوف يتبعه من انسداد فى مسيرة تحقيق ظهور جمعية.

إلا أننا نرجح تأخر ميلاد جمعية فى وقت كانت كل المؤشرات تنبئ بظهورها القريب، إلا إلى طبيعة التريث والحذر التى كانت تتملك الشيخ ابن باديس وفريقه وإدراكهم جسارة العمل الذى نظروا إليه مثل ما يذهب الشيخ البشير الإبراهيمى إلى أن الأذهان مازالت غير مستعدة لاستيعابه⁴، وهو أيضا ما يقودنا إلى عدم استبعاد دور إرادة مقصودة من قبل الشيخ ابن باديس وأصحابه فى تأخيرها حتى يضمّنوا تفوق نزعتهم فى هذه الجمعية.

¹ - Hella Amar ,Op.cit, p114.

² - محفوظ قداش: المرجع السابق، ص 436 وشارل روبرت أجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة (من انتفاضة 1871 إلى اندلاع حرب التحرير 1954 ترجمة جمال فاطمي وآخرون، المجلد 2، شركة الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص 534.

³ - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930 ج2، دار الغرب الإسلامى، الجزائر ط4، 1992، ص389.

⁴ - محمد البشير الإبراهيمى: سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مصدر سابق، ص 83.

ولكن ما لا يمكن نكرانه أن تأسيس جمعية من قبل علماء الجزائر كان شغلهم الشاغل، ذلك ما تثبتته أعمالهم ونضالاتهم الميدانية التي قاموا بها خلال كل هذه السنوات بهدف تهيئة أرضية مناسبة وسانحة بشروط عالية لظهور جمعية بحجم مشروعهم من ناحية و واقع الجزائر من ناحية ثانية .

وبالمجمل فإن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت عسيرة الولادة وتتنوع الجهود مضنية وتضحيات عظيمة، وهذا يتأكد بخصوصها فيما ذهب إليه أبو القاسم سعد الله : ((.. إن ميلا أي حركة هو عملية طويلة وفي بعض الأحيان مؤلفة قبل أن يستطيع الناس رؤيتها وتقديرها.))¹، ومع ذلك يبدو أنها كانت تحتاج إلى حادث ودفعة لنقلها من عالم الفكرة والمسعى إلى عالم الوجود والظهور الفعلي، وبالعودة إلى السياق الزمني والتاريخي الذي ظهرت فيه جمعية العلماء لا نجد مثل ما ذهبت كل الدراسات التي تناولت نشأتها وميلادها وأكدته قيادات الجمعية نفسها من حادث الاحتفالات المؤية للاحتلال التي نظمتها إدارة الاستعمار كحدث حافظ لتلك الجهود والدافع لإرادة أصحابها، فيقول أحمد توفيق المدني بهذا الصدد : ((.. إن احتفال الفرنسيين بمرور قرن على احتلالهم أرض الجزائر قد قدم القضية الوطنية عشرين سنة على الأقل.²))، لقد كانت هذه الاحتفالات التي نظمتها الإدارة الاستعمارية وما حشدت لها من إمكانات مادية كبيرة وتحضيرات طويلة تجاوزت الستة أشهر، تظهر نشوة الانتصار الفرنسي على الآخر المهزوم المسلم الجزائري، والتي كانت حتما استفزازية لمشاعره، وعمقت فيه جروح المأساة التي عاشها على مدى قرن أي طيلة كل الفترة الاستعمارية، كما حملت استعراضاتها رمزيات الكبر والهيمنة الاستعمارية، والشعور بالإذلال والإهانة للطرف الجزائري المسلم³، كل هذا أدى إلى صدمة في ضمير المثقف المسلم الذي راء أجوب التحلي بمسؤولية إنقاذ أمته، لذلك كان الإسراع إلى تأسيس وميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

المطلب الثالث: ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

كان مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين قد راكم جهود وتصورات سنين من السعي لتأسيس جمعية أو حزب ديني للمثقفين ثقافة عربية إسلامية كما أسلفا الحديث، و كان حادث الاحتفالية المؤية لمرر مائة عام على احتلال الجزائر هو الدفعة التي أخرجت الجمعية الى الحياة يوم 05 ماي 1931م وبهذا الصدد يقول إبراهيمي : ((..تكونت في شكلها القانوني أواسط عام 1931م ميلادية، وكان الله جعلها نقيضا لاستعمار، فقد كان نشوانا بغمرة الفرح لمرور مائة سنة على استقراره في الجزائر، وقد قضى السنة التي قبلها في مهرجانات صاحبة دعا

¹ - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص114.

² - أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر، مرجع السابق، ص166

³ - عبد الرحمان بن إبراهيم العقون: الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر (الفترة الأولى 1920-1936، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص306.

إليها العالم كله فما لبي إلا القليل، فما دخلنا السنة الثانية حتى فوجئ بتكوين جمعية العلماء في غمرة من ابتهاج الأمة بهذا المولود الجديد.¹

أما عن حيثيات تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فيذكر الشيخ خير الدين في مذكراته أنه بحضوره والشيخ مبارك الميلي، استدعى الشيخ ابن باديس بمكتبه بقسنطينة محمد عباسية - مؤسس جريدتين عربيتين "المرصاد" و"الثبات" - وطلب منه القيام بدعاية كبير من أجل تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كما نبهه إلى اختيار مجموعة من المساعدين تكون بعيدة عن شكوك الحكومة الفرنسية وعداوة أصحاب الزوايا². بعودته محمد عباسية إلى العاصمة في نفس اليوم، جند لهذا العمل بعض الأعلام الممتازة في الكتابة بالعربية منهم، عمر إسماعيل، محمد دلاسي، الشيخ العاصمي وأحمد توفيق المدني، وبعد تحرير النداء تم نشره في جريدة الشهاب³.

ونسجل أن عمر إسماعيل أقدم على مبادرة يذهب الشيخ خير الدين أنها كانت بإيعاز من الشيخ ابن باديس ومحمد عباسية، تمثلت في نشره مقال في جريدة الشهاب لشهر فيفري 1931م⁴، مفاده أنه من يقدم على تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين له جائزة قيمتها ألف فرنك فرنسي⁵، وقد يكون الهدف من هذا المقال هو رفع الدافع والحافز لدى الجزائريين للاتجاه بأكبر حزم وجدية لتأسيس هذه الجمعية.

ويذكر توفيق المدني أنه خط بيده مائة وعشرون دعوة لعلماء القطر الجزائري بهدف اجتماع بمقر نادي الترقى بالعاصمة لتأسيس "جمعية العلماء"، تضمنت الدعوات شروحا وافية لأهداف الجمعية، وقد جاء رد مائة وتسعة من المدعون بالموافقة، ثم أعيد إرسال دعوات جديدة لهم تم فيها تحدد تاريخ ومكان الاجتماع⁶.

في الخامس من ماي سنة 1931م تحت مبادرة وتخطيط من الشيخ عبد الحميد بن باديس، اجتمع العلماء في مقر نادي الترقى بالعاصمة بإدارة الشيخ عمر إسماعيل من تأسيسهم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هذا الاجتماع الذي ضم علماء إصلاحيين ومرابطين وطلبة زيتونيين وطلبة درسوا تعليما عاليا في المشرق⁷، وفيه تمت عملية انتخاب مكتب الجمعية والذي انتهى بانتخاب الشيخ ابن باديس رئيسا غيايبا، ليلتحق في اليوم الثالث

¹ - محمد البشير الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ج4، ص 164-165.

² - محمد خير الدين: مذكرات خير الدين، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص105.

³ - المكان نفسه.

⁴ - محمد خير الدين: مذكرات خير الدين، ج2، مؤسسة الضحى، الجزائر، 2002، ص105.

⁵ - عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945، ط1، دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة الجزائر، 1981، ص 94.

⁶ - أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، ج2، مرجع سابق، ص179.

⁷ - HELLAL Op.cit, p117.

الفصل الثاني: المشروع الإصلاحي في الجزائر (الجدور والتوطين)

ويلقي خطابه الذي أثنى فيه على الجميع وأنقص من حدة تشنج المناوئين، وأيضا تم تعيين القانون الأساسي للجمعية وتعيين مجلسها الإداري الذي كان على الصورة التالية¹:

- _ عبد الحميد بن باديس. رئيس.
- _ محمد البشير الإبراهيمي. نائبه.
- _ محمد الأمين العمودي. كاتب.
- _ الطيب العقبي. معاونه.
- _ مبارك المليي. أمين المال.
- _ ابراهيم بيوض. معاونه.
- _ المولود الحافظي. مستشار.
- _ مولاي بن الشريف. مستشار.
- _ الطيب المهاجي. مستشار.
- _ السعيد اليجري. مستشار.
- _ حسن الطرابلسي. مستشار.
- _ عبد القادر القاسمي. مستشار.
- _ محمد الفوضيل اليراتي. مستشار.

ونظرا لأن تشكيلة مكتب الجمعية هذا كان في أغلبية أعضائه من مناطق مختلفة وبعيدة عن العاصمة، ويهدف استمرار عملها، اهتدى إلى تكوين لجنة العمل الدائمة التي تشكلت من المقيمين بالعاصمة وضواحيها وقد ضمت الشخصيات التالية²:

- _ السيد عمر إسماعيل. رئيس.
- _ السيد محمد المهدي. كاتب.
- _ السيد آيت سي أحمد عبد العزيز. أمين المال.
- _ السيد محمد الزمري. عضو.
- _ السيد الحاج محمد العنق. عضو.

ومثل ما سبق الإشارة أن التأسيس الأول للحركة الإصلاحية لجمعية العلماء سنة 1931م قد ضم إلى جانب الإصلاحيين بعض الشخصيات الطرقية في محاولة للتقارب.

¹ - في اجتماع (جمعية العلماء المسلمين بالعاصمة، الشهاب، المجلد 7، السنة السابعة، 1931، ص385-386.

² - المصدر نفسه، ص336.

إلا أن عدم القدرة على التوفيق وتوحيد الأفكار والمبادئ والأهداف للجمعية بسبب الاختلافات الجوهرية بينهما، جعل من السنة الموالية سنة 1932م، تاريخ انفصالهم عن بعضهم البعض وعن هذه القضية يقول الشيخ ابن باديس: ((... ما أكملوا السنة الأولى حتى فروا من الجمعية وناصبوها العداة واستعانوا عليها بالظلمة ورموها بالعظائم... ذلك لأنهم وجدوا كثيرا من الآفات الاجتماعية التي تحاربها الجمعية هم مصدرها وهي مصدر عيشتهم، ووجدوا قسما منها مما يغضب محاربة سادتهم ومولاتهم))¹.

يتبين من كلام الشيخ ابن باديس التعارض الكبير بين القوتين للإسلام الجزائري قد أفضى إلى الصراع والانقسام وبذلك كانت سنة 1932م قد أصبحت فيها جمعية لعلماء حركة إصلاحية خالصة توجه فيها كل نشاطاتها على أهدافها ومبادئها التي سطرها وفق الوجهة الإصلاحية البحتة.

المطلب الرابع: أهداف ومبادئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

من المعلوم أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد ظهرت في محيط استعماري، أحاط المجتمع الأهلي بقوانين استثنائية خصت جميع الميادين، ما أثر على تطوره المادي والمعنوي، وأوشك بهذه السياسات الجائرة والطويلة الأمد أن تقضي على شخصيته²، ومن هذه الوضعية التي آل إليها هذا المجتمع بنت جمعية العلماء المسلمين كحركة إصلاحية أهدافها ومبادئها المتوخاة من نضالها التي سوف تظهر بها في نشاطاتها المختلفة. وبذلك كانت أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مرتبطة بالأوضاع التي كان يعيشها المجتمع الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي، وخاصة في ما يتعلق بأوضاعه المعنوية (الثقافية والحضارية)، فالت على نفسها القيام بأدوار حاسمة في الحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية، ويبدو أن هذا الدور قد تجسد في حماية الدين الإسلامي و شريعته التي تعرضت للتشويه والمحاربة، لاسيما وأن الاستعمار الفرنسي كان يسعى جاهدا لتشويه الدين الإسلامي ومبادئه الحنيفة، وهذا انطلاقا من محاربة اللغة العربية وكل ما من شأنه إعادة بناء الشخصية الإسلامية للشعب الجزائري³.

والملاحظ أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هي في الأصل جمعية دينية تهذيبية قائمة على الشريعة الإسلامية في سيرها ونشاطاتها، ومما لا ريب فيه أن الجمعية تستند على غايتين شريفتين وهما إحياء مجد الدين

¹ - ابن باديس: آثار الإمام ابن باديس، ج4، دار الطباعة للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 1991، ص198.

² - محمد القرصو: المرجع السابق، ص57.

³ - محمد العربي الزبيرى، الثورة الجزائرية في عامها الأول، (د.ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص57.

الإسلامى واللغة العربىة¹، مع العلم أنها قد انطلقت فى أعمالها فى إطار منظمة تعليمية ذات أهداف ومبادئ مسطرة تسعى إلى تحقيقها على مستوى القطر الوطنى².

أولاً: أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين :

يبدو أن الحديث عن أهداف جمعية العلماء قد ارتبط إلى حد كبير بإصلاح الشعب الجزائرى، وهو ما أشارت إليه مجلة الشهاب فى عددها الصادر فى شهر ماي بأن هدف الجمعية يتمثل بالدرجة الأولى فى إصلاح الشعب الجزائرى العربى انطلاقاً من الجانب الدينى باعتباره الدعامة الرئيسة مع التركيز على الجوانب الأخرى الوطنىة، والأدبىة والعلمىة، والمقصد من ذلك تكوين مجتمع جزائرى قائم على أسس عربىة إسلامىة³.

وواقع أن أهداف الجمعية قد كانت محل نقاش بين المؤرخين، ففي نظر البعض أن أهدافها قد اقتصرت على التعليم العربى ومحاربة الخرافات بينما يرى البعض الأخر أنها ارتبطت تعدت ذلك إلى النشاط السياسى ومواجهة الاستعمار والسعى مستقبلاً حتى إلى الاستقلال وتكوين دولة جزائرىة إسلامىة.

لكن تبقى نظرة البعض للعلماء هى الأكثر غرابة فمنهم من يعتبر هؤلاء طائفة من المثقفين قد ولجت إلى الجزائر من الخارج حاملة مذاهب و أفكاراً أجنبية من شأنها التأثير بسلبىة على المجتمع الجزائرى وقد روج لهذا العديد من خدام الفكرة الاستعمارىة من الاستعمارىين أنفسهم مثل جاك سوستال الذى يقول: ((. إن حركة العلماء ارتبطت كلياً "absolutisme" مع الرابطة العربىة الإسلامىة مسوق بلا تسامح والعداء ورفض الأجنبى. .تأثيرها مورس ضد التقارب بين المجتمعين الأهلى والفرنسى الذى كان يعيش فى الجزائر.))⁴، من خلال هذه النظرة نصل إلى مدى التحامل الذى واجهته جمعية العلماء لما كان ينظر لها من توجه حضارى عربى إسلامى مثل خطراً على الغايات السياسىة والثقافىة للاستعمار.

بينما نظر إليها الوطنىون حتى من أبعد الاتجاهات الفكرىة والثقافىة التى كانت فى تعارض معها، نظرة إنصاف واعتراف بحقىة نضالها، وفى سياق هذا الحديث ذكر فرحات عباس حدود أهدافها فى إطار تجديد الدعوة إلى الإسلام، ومجاهمة المرابطين إلى جانب تهىئة إطارات الثقافة العربىة⁵. وبالمجمل يمكن أن نذهب لما ذهب إليه الدراسات السابقة التى اعتبرت برنامج الجمعية يرتكز على هدفين :

¹ - محمد البشىر الإبراهىمى، أثار الإمام محمد البشىر الإبراهىمى، ج1، ط1، جم وتق: احمد طالب الإبراهىمى، دار الغرب الإسلامى، 1997 ص133.

² - أبوالقاسم سعد الله، الحركة الوطنىة الجزائرىة 1900-1930، ج2، ط4، دار الغرب الإسلامى، بىروت، 1992، ص397.

³ - عمار بوحوش، التاريخ السياسى للجزائر من البداىة ولغاية 1962، (د.ط)، دار الغرب الإسلامى، بىروت، 1997، ص245-ص246.

⁴ - Jacques Soustelle: Aimée et souffrante Algérie, Paris typographie; plan 8 rue Garancière; 1956 p70.

⁵ - أبوالقاسم سعد الله، الحركة الوطنىة الجزائرىة 1930-1945، ج3، ط4، دار الغرب الإسلامى، بىروت، 1992، ص86.

هدف نعتته بقربى المدى : يهدف إلى تصفية الإسلام مما علق به من شوائب، وإزالة الجمود عن الزوايا، وإحياء اللغة العربية، من خلال نشر المدارس والمساجد، إلى جانب فصل الدين عن الدولة والتصدي لأي محاولة من شأنها القضاء على الشخصية الجزائرية.

هدف وصف ببعيد المدى : يهدف إلى استرجاع سيادة الجزائر، وتكوين دولة وطنية بخصائص مقوماتها العربية الإسلامية.

لكن يظل تحديد أهداف جمعية العلماء من مسؤولية أعضائها وهو ما لخصه رئيسها الشيخ عبد الحميد ابن باديس فى قوله : ((القرآن إماننا، والسنة سبيلنا، والسلف الصالح قدوتنا وخدمة الإسلام والمسلمين وإيصال الخير لسكان الجزائر غايتنا))، ولم تقتصر أهدافها على تعليم الشباب الجزائري وتلقينه مبادئ الشريعة الإسلامية¹، فقد أدرك العلماء ضرورة النهضة الدينية والعلمية فى الجزائر وكلاهما لا يتم بمعزل عن السياسة، وفى هذا الصدد يقول العلامة ابن باديس : ((من البديهي الجمع بين السياسة والعلم فلا ينهض العلم والدين حق النهوض إلا إذا نهضت السياسة بجد...))².

وقد تم تحديد هذه الأهداف من قبل زعماء الجمعية فى الفترة الممتدة ما بين (1931-1939)، فمعظم الزعماء الذين ظلوا على قيد الحياة بعد الاستقلال قد اجتهدوا لإبراز أهدافها بوجه آخر وفى مقدمتهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ومن وجهة نظره أن البلاء الذي وقع على عاتق هذا الشعب المسكين، آت من جهتين متعاونتين وبعبارة اصح من استعمارين مشتركين.

الأول استعمار مادي وهو الاستعمار الفرنسي الذي يعتمد على الحديد والنار بينما الاستعمار الثاني يتجسد فى الاستعمار الروحي والمتمثل فى الطرقية ومدى تأثيرها فى الشعوب ويبدو أن هذين الاستعمارين كلاهما يؤيد الطرف الآخر ويسعى إلى تجهيل الأمة وتفقيرها وبالنظر إلى هذا التحليل والتفسير فان جمعية العلماء قد حددت هدفها الأول المتمثل فى محاربة الاستعمار الثاني لأنه الأسهل³.

والحقيقة أن أعمال جمعية العلماء وجهودها الحضارية تكمن فى الأهداف النهائية التالية :

- إحياء الدين الإسلامى وتطهيره من الشوائب العالقة به
- العمل من اجل بعث وتطوير الثقافة العربية الإسلامية
- السعى إلى توحيد أبناء الشعب الجزائري تحت راية العروبة والإسلام
- توعية الشباب الجزائري بالشخصية الجزائرية وتهيئته للنضال
- إقامة جسور للتعاون بين الجزائر والدول العربية الإسلامية

¹ - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية ج3، نفسه، ص89.

² - عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودوره فى تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931_1945، ط2 دار مداد للطباعة والنشر، قسنطينة، 2009، ص98.

³ - عبد الرشيد زروقة، المرجع السابق، ص130.

— الدعوة إلى العمل المشترك مع أبناء تونس والمغرب

— نشر تعليم عربى مستوحى من الوحدة العربية الإسلامية¹.

وبهذه الأهداف المعروضة تكون جمعية العلماء تأسست دفاعا عن الإسلام والعروبة لهذا القطر "الجزائر" ومجتمعه المسلم وقد كانت هذه الأهداف التى تسعى لها تعمل تحت أرضية من المبادئ

ثانيا: مبادئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين :

لقد تميزت جمعية العلماء عن غيرها من الحركات الإصلاحية التى عرفها العالم الإسلامى وإن نعتت بأنها نسخة منها، فبرزت كحركة دينية ووطنية فى ذات الوقت، وهذا يتضح جليا فى مبادئها التى أخذتها كمرتكزات أساسية فى تسيير حركتها الإصلاحية والملخصة فى شعارها المشهور: ((الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا))، حيث يمثل هذا الشعار المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية التى لطالما ناضل العلماء من أجل الحفاظ عليها وفى هذا السياق يقول العلامة ابن باديس: ((العروبة والإسلام والعلم والفضيلة هذه هي أركان نخصتنا وأركان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهي مبعث حياتنا ورمز نخصتنا فمازلت هذه الجمعية تفقهنا فى الدين وتعلمنا اللغة وتنيرنا بالعلم وتحلينا بالأخلاق الإسلامية العالية وتحفظ علينا جنسيتنا وقوميتنا وتربطنا بوطنيتنا الإسلامية الصادقة))².

والظاهر أن الشيخ ابن باديس قد وضع مجموعة من الأسس والمبادئ اشتهرت بها دعوة الجمعية القائمة على الرجوع إلى الشريعة الإسلامية المتمثلة فى كتاب الله وسنة نبيه والعمل على محاربة الطرقية واستنكار الاستعمار الفرنسى، وهذا من أجل خلق مجتمع موحد وفاعل وواعى بشخصيته فى إطار المبادئ العربية والإسلامية. وبالنظر لهذه المبادئ فإن الإسلام لم يكن فى فكر العلماء مجرد طقوس تؤدى فى أوقاتها وأماكنها، وإنما هو اعتقاد يترجم فى سلوك وأفعال يتوجب على الفرد الالتزام به باعتباره المقوم الأساسى الذى يضبط اهتمامات المسلم الجزائرى فى حياته الدينية والدينية ويظهره ذلك الإنسان الفاعل والايجابى النافع فى الحياة ولدى البشر بمساهمته فى وقع الحضارة والعصر.

أما اللغة العربية لسان هذا المجتمع ولغة حضارته وتراثه فهي تشكل الرابط الوحيد والكفيل بربط الشعب بدينه وتاريخه وثقافته، التى تتعارض مع اللغة الفرنسية لغة المحتل، وفيما يتعلق بالوطنية التى أشار لها شعار "الجزائر وطننا" فهي فى نظر ابن باديس لا تقتصر على الأرض أو الطبيعة المادية للوطن كالجبال والغابات فقط فهي تشمل تاريخ وحضارة وقيم مجتمع هذا الوطن، فالوطن هو قبل كل شيء، لذلك جاء من مبادئها الأساسية غرس

¹— عمار بوحوش، التاريخ السياسى، المرجع السابق، ص246.

²— رابح تركى، جمعية العلماء المسلمين التاريخية 1930-1956 ورؤساؤها الثلاثة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ط1، 2004، ص35.

الروح الوطنىة فى كل نفس جزائرىة وقد كان التعللىم احد قنوتاتها فى ذلك أو ماىمكن ان نختصره بالتفاعل المعنوى لقمم ومبادئ ورح المجتمع على هذه الرقعة المادىة الجغرافىة المحددة والمعرفة بالوطن الجزائرى.

سطرت جمعىة العلماء أهدافاً ومبادئ انعكست بوضوح فى قانونها الأساسى، وظهرت من خلال نشاطاتها فى مختلف القطاعات لتى اشتغلت عليها، وقد برزت جلىبا على أعمدت صحافتها التى عبرت عن وجهات نظرها المختلفة إتجاه الإدارة الاستعمارىة الفرنسىة، موضحة بذلك مىولات الجمعىة سواء السىاسىة منها أو الإصلاحية.

وما يمكن أن نخلص له أن الفكر الإصلاحي الإسلامى الذى عرفته العدىد من المجتمعات العربىة والإسلامىة فى الفترة الحدىثة والذى كان يهدف إلى النهضة والتجدىد والخروج من التخلف الشامل الذى وسمت به هذه المجتمعات، كان بعيد الوصول للبىئة الجزائرىة لما كانت تعىشه الجزائر من ظروف استعمارىة حولت أوضاعها الاجتماعىة والثقافىة إلى شروط صعبة لاستقبال أى فكر يشىء بالنهضة والبعث والتجدىد، وهذا لما اعتمده فرنسا من عزل للمجتمع الجزائرى عن العالم عموما والعالم الإسلامى خصوصا، زىادة على أثر وتبعات سىاساتها علىه والتى جعلت منه كىان ضعىف مادىا ومعنوىا غير مؤهل لاستىعاب وقع الحىاة الراهنة.

غير أن ما غىض للجزائر من فردىات إصلاحية بداة ساهمت فى وضع لبنات للإصلاح قد حافظت على شعلة النضال لتحدى كل الظروف المأسوىة التى كان عليها المجتمع الجزائرى المسلم، لىمتد هذا الجهد من عالم ومصلح لأخر حتى يظهر الشىخ ابن بادىس الذى طور مسىرة سىر الإصلاح ونظمه فنقله من وقعه البطىء والمحتشم فى البىئة الجزائرىة إلى ظاهرة تتوسع أفقىا عبر كل الوطن والشرائح الاجتماعىة فىه وعمودىا بالإىمان بفكره والنشاط فىه والانتماء إلى تنظىمه الذى عول علىه فى تمثىل مشروع الإصلاح ونجاحه وهو فعلا ما أصبح اسم (جمعىة العلماء المسلمىن الجزائرىىن) فاعل فى المشهد العام للجزائر.

الفصل الثالث

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند ج م ج .

نستعرض في هذا الفصل الرؤية التعليمية التي تبنتها ج م ج، وهي الأفكار التي بنت عليها فلسفتها التعليمية وكانت موجهها في التغيير التي تريد أحداثه في المجتمع الجزائري المسلم، ومصاحبها من أفكار التحديث للمجال والفضاء التعليمي وكذلك التجديد الذي مس دور المعلم لاعتبارهما الركيزة الأساسية في العملية التعليمية، إضافة إلى وقوفنا على التجارب الأساسية لقادة التعليم لدي ج م ج التي أسست إلى المثال التعليمي معارف ورؤية وأداء.

المبحث الأول: الرؤية التعليمية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

كان النشاط الإصلاحي لجمعية العلماء في مجمله مبني على رؤية واضحة، ذلك أن القادة الإصلاحيين في الجزائر ومن خلال تجاربهم الفردية أو من تأملاتهم للتجارب الإصلاحية الأخرى السابقة لهم زمنا أو حتى من خلال تبادل الأفكار والآراء والإحتكاك الحاصل بينهم وبين التجارب المزامنة لهم، زيادة على درايتهم وفهمهم للواقع المحلي والوطني به كل هذا ترك في إدراك الفريق الإصلاحي مشروع مكتمل الأبعاد مرسوم الأهداف والخطى.

هذه الفضيلة التي تميز بها جعلت من هذا المشروع أن يكون مشروع عملي وواقعي بعيد على كل مثالية حاملة، فنظرياته وآدبياته كانت قابلة للتمثل في الواقع والميدان، وكانت فكرة التربية والتعليم قاعدته جوهر خطته عندهم، وعليه تبني العمل التعليم خطة ميدانية مضبوطة تعكس إدراكها لأهمية التعليم ودوره الهام وقد تجاوزت بذلك عشوائية التعلم الحر الذي كان سائدا آنذاك.

والحق أن الجمعية في هذا الإطار قامت بإصلاح وتحديث للتعليم الذي تبنته، ما يعكس حجم مسؤولية هذا النشاط فيما كانت تعول عليه في المشروع الإصلاحي، ذلك أن التعليم الإصلاحي لجمعية العلماء يعبر على الفكر والتصور الذي كانت تنشده في مشروعها من أجل تمثله في المجتمع، ومن أجل ذلك أخذ الفكر التعليمي للجمعية ثلاثة أبعاد رئيسية، عبرت هذه الأبعاد على التحديث والإصلاح الذي كانت تبناه الجمعية في تعليمها بعد مس خلفيته التربوية الشاملة، وقد ساهمت هذه الأبعاد في تحول للمفاهيم التعليمية سواء تعلق الأمر بالفضاء أو الجهاز التعليمي، أو الإطار البشري (المعلم)، من خلال تغير في لأدوارهم وتعميقها من خلاله استطاعت أن تقفز به إلى تعليم فعال يحاكي التطورات والحاجات المطلوبة في راسها، وبفضل هذا عبرت الجمعية على التعليم كفعل إصلاحي.

المطلب الأول: الفكرة الوطنية والدينية في الرؤية التعليمية للجمعية

لقد كان مشروع الحركة الإصلاحية مؤسسا على التربية والتعليم، كما كانت تعول عليه كوسيلة فعالة من أجل توعية الجماهير وتوجيههم الروحي الصحيح، ولا نستغرب هذا الإجراء على حركة تعتمد النصوص والتاريخ

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

الإسلاميين مصدر لاستلهم أفكارها، فالأدبيات والنصوص الرئيسية كالقرآن والسنة كلها تشيد بأهمية العلم والتعليم معتبرة إياه بداية لأي مشروع مجتمع جديد، فالقرآن الكريم يشير إلى أن الله عز وجل لما خلق آدم قام بتعليمه، قال تعالى: وعلم آدم الأسماء كلها¹، وبذلك كانت المعرفة بداية مسيرة الإنسانية في هذا الكون، كما أن أول كلمات نزول الوحي الإلهي على النبي محمد (ص) كانت بالأمر بالقراءة قال تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)²، كما تحضر في الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية إشارات توجه المسلم إلى أفضلية وأهمية العلم وصاحبه واعتباره أمرا شرعيا، ويتأكد دور التعليم كأهم وسيلة للمعرفة الدينية الصحيحة من خلال السيرة النبوية في إقامة الرسول (ص) عند بداية دعوته لحلقة تعليم بدار الأرقم.

من هذه الاعتبار كان التعليم في مشروع جمعية العلماء، واجبا شرعيا وفعل حضاري وعته نخبها وقادتها مما ترسخ في أذهانهم من فضائل التقدم والتطور البشري بفضل العلم، ودافع وطني حتمته مسؤوليتهم التي إلتزموا بها تجاه مجتمعهم الغارق في الأمية والتخلف.

أسست جمعية العلماء منظومتها التعليمية التي حملت عدة قضايا وقيم وجهت مراميها الكبرى وأهدافها لما كانت ترنو له في إعادة صياغة وتغيير أو تقويم في مجتمعها، فالدراسات والبحوث التي تناولت هذا المشروع* ووقفت على حقيقة البعد العلمي والتنظيم العصري له، هذا يعني أنها أسست إلى تعليم منظم ومخطط مرسوم المرامي والأهداف بتصورات بعيدة المدى ولم يكن تعليما مرتجلا أو عشوائيا، لقد كان واقع المجتمع الجزائري المسلم هو منطلق هذه الرؤية ومقارنته، فقضايا المجتمع وحاجاته هي محاوره الرئيسية وتتأكد ذلك في الأبعاد المختلفة التي ميزته، فقد كان تعليم يهدف إلى بعث الهوية وتقوية مقاومتها التي كانت شعارها في كل نشاطها الإصلاحية " العربية لغتنا والإسلام ديننا والجزائر وطننا"***.

كما كان التعليم الإصلاحية يحمل من خلال مضمونه ومناهجه ثورة قومية هدفها التحرير الثقافي والوجداني من الاستعمار، ومن ثم تم التركيز على تعليم اللغة العربية وذلك لارتباطها الوثيق بالدين الإسلامي، فاللغة العربية في نظرهم تتجاوز كونها لغة تواصل بين الناس إلى أنها لغة الدين الذي لا يمكن أن تقام شعائره إلا بها كالصلاة أو قراءة القرآن تلاوة وفهما وتفسيرا وغير ذلك، فالدين واللغة في أدبيات الجمعية شيان متلازمان.

¹ - سورة البقرة: الآية 116.

² - سورة العلق.

* - جدير بالإشارة إلى أن العديد من الدراسات والبحوث الأكاديمية في مختلف التخصصات في الجامعة الجزائرية، كعلم النفس التربوي او علم الاجتماع التربوي أو الفلسفة وحتى التاريخ قد خاضت في تجربة التعليم والتربية لدي جمعية العلماء ووقفت على حقيقة رؤية هذا المشروع وابعاده التي تذهب لها النظريات المعاصرة في التعليم وتعمل بها الدول والمجتمعات المعاصرة.

** - شعارها الذي اتخذته الجمعية ولخص أقصى أهدافها وقد ظهر جليا في كل خطابات قادة الجمعية وتكرر عند تلاميذهم وقد برز في شعار أهم منبر صحفي جريدة الشهاب.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

من هذه الاعتبارات تأتي القداسة الدينية لهذه اللغة وهذا ما يعبر عنه الشيخ مبارك الميلي بقوله: ((...ومن أعرض عن اللغة العربية فقد اعترض عن ذكر ربه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعبا.))¹، ومن هذا يأتي الوجوب الشرعي لتعلمها وممارستها حتى أنها تتقدم اللغات المحلية للشعوب غير العربية في حبها وتعلمها ودراستها. كما أن جهل المسلمين للغة العربية أدى بهم إلى جهلهم ما جاء في كتب دينهم وبذلك فإن نهضتهم الدينية لا تتم إلا بنهضة هذه اللغة.

أما الاعتبار الآخر فهو اعتبارها مكونا أساسيا للشخصية والهوية الجزائرية ومحدد لمعاملها الوطنية وتنمي الروح النضالية ضد مشاريع الإدماج والفرنسة، فكان من الجمعية أن ركزت على اللغة العربية من خلال تبيان أهميتها الدينية والحضارية والقومية للمجتمع الجزائري المسلم.

والحال أن هذه القيمة والأهمية التي كانت تحملها الجمعية للغة العربية وتعمل على تبليغها للجماهير لم تكتف بتقديمها في خطاب وعظي فحسب بل فرضتها كفعل وممارسة حتى توجدتها فعلا في الحياة العامة عند الناس، فكان إدراجها كلغة خطاب في الدروس المدرسية والمسجدية المختلفة الوعظية والتعليمية ولغة كتابة، كما تظهر إستراتيجية الجمعية تجاه اللغة العربية في التركيز عليها كمادة أساسية من خلال إعطاءها الحجم الساعي الكبير وتدريس كل علومها وفنونها وفي مختلف مراحل ومستويات تعليمها حتى وسم بها فيمكن نعتها بأنه تعليم لغوي عربي².

هدفت الجمعية من وراء كل هذا إلى تمكين النشأة من امتلاك ناصية العربية بامتلاكهم التعبير الصحيح والبلغ بها وجعلها لغة الإطلاع على العلوم الأخرى وخاصة تاريخهم وثقافتهم، كما هدفت الجمعية من خلال تعليمها إلى ترقية اللغة العربية بشكل يجعلها تتطور في استعمالاتها لدى المتعلمين ورفع ذوقها عندهم والأعتزاز بها وتبجيلها عن اللغات الأخرى³.

فضلا عن هذا ولأن الحركة الإصلاحية كانت ذات جوهر ديني فإن نشاطاتها التعليمية كانت كلها منذورة لقضايا الدين، فكانت تقدم دروسا أخلاقية وشرعية لأحياء الدين في النفوس وتصحيح ما علق به من شوائب، وبالنظر إلى العدد الهائل للمواد الدينية المقررة للدراسة تظهر لنا المكانة الهامة التي أولتها الجمعية لتعزيز الثقافة الدينية لدى الجماهير المسلمة*.

¹ - مبارك الميلي: الدعوة إلى تعليم اللغة العربية، الشهاب ج6، مجلد 12، أوت وسبتمبر 1936، ص305.

² - انظر مبحثنا اللاحق مبحث مقررات ومناهج التعليم ص ص 152_159.

³ - محمد البشير الابراهيمي: فضل اللغة العربية على العلم والمدنية، الشهاب، ج1، المجلد5، فيفري 1939.

* - شملت المواد الدينية على التفسير القرآن وتجويده والحديث النبوي الشريف والفقهاء والعقيدة والآداب والأخلاق الإسلامية، أنظر مبحث مقررات ومناهج التعليم ص ص 152_159

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

كما نظرت الحركة الإصلاحية إلى التعليم كوسيلة للتنوير وهو سلاح فعال لتحقيق أهدافها في الإصلاح فكثير من الاعتقادات الفاسدة التي ترسخت في فترة هيمنة المرابطة بسبب الساذجات لا تحتاج إلى سجال ونقاشات بقدر ما تحتاج إلى تنوير لعقول الجماهير الذين سوف يفتنونها ببساطة، وبذلك يكون الرهان في المستقبل في الصراع بين الاعتقادات الطرقية الفاسدة التي عششت في ظروف سيادة الجهل وسذاجة العقول إلى صالح الاعتقادات الإصلاحية المبنية على العقل المنثور بفضل التعليم.

بالإضافة إلى اعتماد الجمعية كتب¹ خاصة بما للثورة على المفاهيم والسياسة التعليمية الفرنسية المشوهة لحقائق التاريخ والجغرافيا الوطنية الهادفة إلى استعمار عقل وفكر ووجدان الجزائري، وبذلك بذلت جهود كثيرة هادفة ومنظمة توجت بتأليفات للتاريخ الوطني وكانت تعتمد كمقررات دراسية في مدارسها مثل " كتاب الجزائر " لأحمد توفيق المدني الذي ظهر سنة 1930م، وكتاب " تاريخ الجزائر القديم والحديث " للشيخ مبارك الميلي الذي ظهر في جزأين الجزء الأول سنة 1929م والثاني سنة 1932م و" تاريخ الجزائر العام " لعبد الرحمان الجيلالي².

يبدو أن جمعية العلماء قصدت من وراء بعدهم التعليمي لهذه التأليفات، تنمية الروح الوطنية فالمضامين التي كانت تحيل إليها هي ربط الجزائر ثقافيا وحضاريا بالأمة الإسلامية ويظهر جليا في الحجم التي خصت به تاريخ الفترة الإسلامية بالجزائر وكل بلاد المغرب، كما أيضا كان التوجيه المقصود في قراءة الأحداث والتاريخ الذي كان يستهدف الفكر والتصورات التي تربط العقل والوجدان وتوصل الجزائر بالأمة الإسلامية*.

كما نقرأ في هذه تأليفات التاريخ القديم للمنطقة، عرض الفترة الأمازيغية وإنجازاتها الحضارية ومقاومات الأجداد للأجنبي الروماني والبيزنطي والويندالي، لقد كانت هذه المحطات تعيد إحياء شعور التعدي من قبل الأوروبي واستدعاء روح المقاومة له، وتغرس من جهة أخرى فكرة عدم الرضى بالمحتل الفرنسي فهو نسخة عن أجداده فمقاومتنا له هي مقاومة لنا في حاضرنا ومقاومة لنا عوض أجدادنا**.

كما تميز التعليم الإصلاحي بالتنظيم العصري للعملية التعليمية من حيث طرائق التدريس وتحديث المضامين والمناهج، وإقامة دورات تكوينية للمعلمين ولجان مراقبة المناهج وتنظيم التفطيش، كل هذا ضمن استمرار المسعى التعليمي لخدمة حاجات الواقع الجزائري.

وأهم تطور حصل في تعليم الجمعية هو إدخال الكتاب المدرسي وهو مايعزز استعاب الجمعية الوظيفة التربوية للكتاب، وأهميته التحديثية في العملية التعليمية، فسارعت إلى إدخال الكتاب كوسيلة بيداغوجية لا غنى

¹ - راجح تركي: التعليم القومي والشخصية الوطنية، المرجع السابق، ص ص 331، 332.

² - راجح، تركي: التعليم القومي والشخصية مرجع نفسه، ص ص 334-335.

* - أنظر التأليفات المشار إليها.

** - يمكن الوصول الى هذه الحقائق بالإطلاع على هذه التأليفات.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

للمدرسة عليه في تحقيق أهدافها، فالكتاب يمثل أهم الوسائل التربوية المدرسية الأكثر فعالية في تكوين وعي ومدارك المتعلمين وصناعة توجهاتهم ومواقفهم الأخلاقية والاجتماعية والثقافية كما صاغت الهيئة المنتجة له. فالكتاب من زاوية الممارسات التعليمية التحتية (القاعدية) التي تعنى بالمتعلم مباشرة فإن أخرجها في شكله وأسلوبه وجانبه التوثيقي يعمل على تحفيز دافعية التعلم لدى المتعلم وتسهيل الفهم وتعميق الاستيعاب لما يمتلكه من قدرة توضيحية، ويعني للمعلم أو المشرف على العملية التعليمية مرجع هام ذو حمولة قيمية وأخلاقية ومعرفية توجه للمتعلم قصد بناء تصوراتهم وقناعاتهم.

والحال أن جمعية العلماء استطاعت بعد أن كانت تعتمد كلياً على كتب ومقررات من بلدان مشرق العربي إلى إصدار كتب من إعداد وتأليف كبار علمائها، كما سايرت مرامي وسياساتها التعليمية الانتقال الثقافي للواقع الجزائري، فمن هدف محاربة الجهل ونشر التعليم القاعدي والوصول به إلى كل أبناء الجزائر في البداية، إلى هدف تنوير العقول وإيقاظ الهمم مواصلة إلى تحرير العقل والفكر والوجدان من الاستعمار من خلال زرع الأخلاق الإسلامية وإحياء الشعائر الدينية وبعث التراث العربي والإسلامي¹، ثم إلى إرسال البعثات العلمية إلى الجامعات الإسلامية الكبيرة بهدف توفير إطارات علمية وتعليمية يمكن الإعتماد عليها في بناء إطار نظري وفكري لمشاريعها والتعويل عليه في حل مشكلات ومعضلات الواقع.

المطلب الثاني: تحديث جهاز التعليم

نقصد بجهاز التعليم؛ الفضاء والإطار التعليمي الذي يمثل القاعدة والبناء الذي تتم فيه وبه العمليات التعليمية، ولأن جمعية العلماء كانت تهدف إلى إنشاء تعليم صلب يتحمل المسؤولية الملقاة عليه في التغيير والإصلاح، فإنه هو الآخر مسه الإصلاح بشكل عميق من أجل إعطائه فعالية أكبر وصلابة اشد، ولعل هذا الإصلاح كان مؤسس على خلفية التناقضات التي وصل إليها التعليم العربي الحر من عقم وهشاشة حتى أصبح لا يفي بحاجات الواقع.

والحق أن جهاز التعليم تعرض لإصلاح عميق وتحديث شامل، وبذلك يمكن أن نقيم أن الجمعية استطاعت نقل هذا الجهاز إلى مصاف الأجهزة التعليمية العصرية، وقد ظهر هذا في المفاهيم الجديدة التي حملتها هذه الأجهزة، والتي أخذتها من الأدوار التي تكفلت بها:

أولاً- الفضاء التعليمي: قامت جمعية العلماء بالتركيز على الفضاء التعليمي وتوسيعه، وإعطاء بعداً عصرية مستأنسة في ذلك بالمثل الفرنسي خاصة فيما يتعلق بالمدرسة والفضاءات الأخرى الحديثة التي جاءت مع الاستعمار كالنادي والمسرح...، أما المسجد فعملت على إعادة الحياة له بمثل فترة مجد الحضارة العربية الإسلامية.

¹-Mostfa, Hadad: Op.cit, p 207.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

ولقد ركزت الجمعية على المدرسة كفضاء أساسي أكثر من الفضاءات الأخرى وان لم تهملهم، ولعل هذا يعود لشيوعها في هذه الفترة كفضاء تعليمي من جهة وتماشيا مع قوانين الإدارة الاستعمارية لهذه المهمة من جهة ثانية، وكذلك الوظيفية الكبيرة للمدرسة في أداء مهمة التعليم مقارنة بالفضاءات الأخرى التي تتداخل فيها جوانب مختلفة تقلل وتحدد من تركيزها للفعل التعليمي.

والجدير بالذكر أن العلماء استطاعوا تحديث مفهوم المدرسة، انطلاقا من تحديث دورها وأهميتها الاجتماعية، فكانت تعد لديهم قلعة من قلاع المجتمع والتي تعمل على الحفاظ على كيانه وتزود أجياله بالقيم والمثل وكذلك تسهر على صقل مواهبهم وتنمية خبرات ومعارف ناشئته.

لم تبقى المدرسة عند جمعية العلماء بالمفهوم البائس والذي ترسخ لعقود في المجتمع الأهلي، بل خرجت به إلى مفهوم أكثر عمقا متجاوزة النظر إليها من زاوية التجهيز العادي؛ كمكان مجهز بقاعات وأثاث مادية بسيطة، إلى اعتبار المدرسة ذلك الفضاء المشبع والمشح بالقيم، الذي ترتقي بفضلها إلى مهمة المحدد الأساسي للمضمون الحضاري والثقافي للمجتمع.¹

فالبرامج التعليمية التي تحملها المدرسة هي ذلك المشروع الثقافي الذي يمارس ميدانيا من خلال المواد التعليمية وأدائها التي يسهر على تنفيذها المعلمون.

وبهذا المفهوم والوظيفة استطاعت جمعية العلماء أن تسموا بمدارسها إلى المفهوم العصري لها كمؤسسة تعليمية، وكذلك كمؤسسة اجتماعية يتشكل فيها طباع الفرد وشخصيته.²

وعلى الرغم من سيطرة تغيير مفهوم المدرسة، من المفهوم المادي لها كعقار إلى المفهوم المعنوي الحضاري، إلا أن الجمعية أدخلت تحسينات على مستوى تجهيزات مدارسها بما هو متاح لها من إمكانيات معتبرة ذلك مساهمة في تحول لمعنى ومفهوم المدرسة أيضا، فقامت بإدخال تعديلات جوهرية على تصميمات وهندسة المدرسة أين جمعت في هندسة بنائها بين العصرية في الوظيفة والأصالة الحضارية والإسلامية في زخرفتها، فكانت مدارس الجمعية التي بنتها تتوفر على قاعات للدراسة وفناء للراحة ومساحة كميدان لممارسة مادة الرياضة وكانت جدرانها مزينة بزخارف إسلامية، وأيضا قامت بتحديث أثاثها بتعويض الحصير ولوح الكتابة إلى طاولات وكراسي وصبورة، كما عززت الفضاء بلوحات حائطية كموضوع للمجلات المدرسة.

وبهذا التحديث على مستوى التجهيز تكون كثفت من جهد المدرسة وأعطتها دورا أكثر حيوية في بعث القيم وإشعاعها، والخروج بها من تلك الصفة التقليدية البائسة والرتيبة إلى المعنى والمضمون العصري القادر على حمل مشروعها التغييري.

¹ - مالك بن نبي: شروط النهضة، دار الفكر المعاصر الجزائر، ط1، 1999، ص82.

² - نفس المرجع، ص ص 83-85.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

ثانياً_ الإطار التعليمي

كان المعلم في التعليم الإصلاحى يعد ركيزة أساسية في بناء العملية التعليمية، فحتى تلك الفترة مثل المعلم المصدر الرئيسى للمعرفة والقيم، والمنظم والموجه للعملية التعليمية، فمحرورية الدور الذى كان يقوم به، جعلته محل اهتمام من قبل الجمعية، لذلك ركزت الجمعية على التدريب الحسنى للمعلم وتزويده بمجموعة من القيم الأخلاقية التى يتحتم عليه حملها والتحلى بها وكانت تعتبرها سر نجاح عمله ومدرستها، فما هي أهم ما ألزمت به جمعية العلماء معلمي مدارسها؟.

كانت جمعية العلماء تعطي أهمية قصوى للتكوين المعرفى للمعلم، فبقدر ما كان المعلم صاحب باع في العلم كلما كان أكثر فائدة وعطاء، وقد كان المثال التاريخي حاضرا لعلماء الحضارة الإسلامية في ذهن المعلم الإصلاحى، لما تميز به هؤلاء علماء الإسلام كمعلمين من تبحر في الدين و موسوعية في مختلف العلوم الأخرى. كان المعلم الإصلاحى يجتهد منذ أن كان طالبا لجمع أكبر قدر ممكن من العلم والمعرفة، مثلها للإطلاع على أشهر الكتب التى اشتهرت قراءتها في تلك الفترة وخاصة ما كان مرجعا لأساتذتهم في دروسهم أو كان حاضرا في استشهاداتهم.

كما ساهم قادة الجمعية من خلال تجاربهم التعليمية لأن يكونوا مثالا في اتساع معارفهم، فبذلك كان تلاميذهم كمشاريع معلمين إصلاحيين في المستقبل، يعتقدون بقوتهم لتمثلهم في المستقبل، وقد كان هذا الطموح يغذي دافع الاطلاع والتكوين المعرفى.

والحق أن جمعية العلماء توفر لديها ثلة من المعلمين من التكوين المعرفى، خاصة في العلوم الإسلامية والعربية ما ساهم في نجاح مدرستها وتحقيق مقاصدها التعليمية.

بالإضافة إلى شرط المعرفة والعلم، كانت الجمعية تؤكد على معلمها أثر حضور الرسالة والمتمثلة في مجموعة الأفكار والقيم الإصلاحية الثقافية والاجتماعية والدينية والسياسية التى كان ينشدها التعليم الإصلاحى لنقلها للتلاميذ وهي ما تتوافق مع الأهداف العامة للمناهج والبرامج التعليمية والتربوية لتعليم الجمعية.

زيادة عن هذا استطاعت جمعية العلماء أن توجه معلمها وتجعل منهم مصدر حقيقي للمعرفة الحية المرتبطة براهن الحياة اليومية والحاجات المعاشة للناس متجاوزين بذلك تلك المعرفة الماضوية البائسة التى غلبت على أغلب معلمي التعليم التقليدي، ولقد كان في هذا قادة الإصلاح مثلا يحتذون به من خلال اعتماد في دروسهم معالجة قضية معاشة من راهن حياة الناس وتنزيل الآيات القرآنية أو نصوص الحديث النبوي الشريف أو ما تعلق بالسيرة والتراث في علاجها ما جعل المعلم الإصلاحى حقيقي للمعرفة.

كما أكد التعليم الإصلاحى على نموذج القدوة والذي كان يتحل به المعلم المسلم حتى في التعليم التقليدي، وبخصوص مثال المعلم التى كانت تنشده الجمعية يقول الشيخ البشير الإبراهيمي في وصية للمعلمين: ((..إنكم تجلسون من كراسي التعليم عن عروش ممالك، رعاياها أطفال الأمة، فسوسوهم بالرفق

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

والإحسان، وتدرجوا بهم من مرحلة كاملة في التربية إلى مرحلة أكمل منها، إنهم أمانة الله عندكم، وودائع الأمة بين أيديكم، سلمت إليكم أطفالاً لتردوهم إليها رجالاً، وقدمتهم إليكم هياكل لتنفخوا فيها الروح، وألفاظاً لتعمروها بالمعاني لتملؤها بالفضيلة والمعرفة.¹ من هذا القول نفهم الأهمية والدور البالغ الذي كانت تعول عليه الجمعية في المعلم من خلال وظيفة التعليم والتربية ويذكر إبراهيمي بجسارة المسؤولية التي أودعتها الأمة على المعلم.

ومن هذا ترى الجمعية وجوب إظهار السلوك الحسن للمعلم الذي يبلغ من خلاله الأثر على عقول تلاميذه الذين يرون فيه مصدر كل قيمة وسلوك صحيح، ويرون أنها لا تنتهي عند التلاميذ فقط بل تتعدى هذه القدوة إلى الوسط والمحيط الاجتماعي لما كان يتحلى به المعلم من مكانة اجتماعية نبيلة، فهذا فرض على المعلم أن يتبرأ من كل نقيصة أو خلل أخلاقي فكان المعلم الإصلاحية يجهد نفسه لان يماثل الكمال.

كما كانت الجمعية تعمل على أن تكون من معلمها أفراداً يسخرون كل جهودهم ووقتهم وطاقتهم لنجاح عملهم، فالتضحية كانت الجمعية تراها ضرورة الظرفية التي تعيشها الجزائر فكانت أثناء تكوين المعلم وهو طالب تودع فيه الكثير من قيم تحمل المسؤولية وإثارة مصلحة المجتمع والأمة على المصلحة الفردية، وقد وجد في هذه الدعوة أمثلة حية ومشاهدة عند قادة التعليم لما كان يراه من نكران للذات، فكان ابن باديس والشيخ إبراهيمي والعقبي والتبسي والميلي وكل رواد التعليم الإصلاحية للجمعية أمثلة في هذا المضمار.

وفعلاً استطاعت الجمعية أن تتخرج من يؤطر مدارسها، معلمين ضحوا من أجل رسالتهم فكان كثيرهم يقبل الغربية بعيداً عن إقامته إلى مناطق أخرى لفتح أقسام ومدارس في ظروف صعبة، فلا يتردد في قبول قرار جمعية العلماء، ويتجشم كل أنواع العوائق والصعوبات لإنجاح مهمته فهم كما جاء في وصف جمعية العلماء لها: ((..أساتذة لا يقصرون عن كمال، ولا يدفعون عن أولوية..))².

فكثير منهم فتح فوجاً تربوي في أوساط اجتماعية ريفية كانت بعيدة الإدراك بأهمية التعليم حتى ذلك الوقت، ولم يكتفي بخطوة التأسيس بل وطن هذا التعليم فوسعه وطوره وأصبحت مدرسته جزء من المشهد الاجتماعي والثقافي لهذا المجتمع الذي كان إلى وقت قريب بعيداً عن هذه الممارسات.

فأمن المعلم الإصلاحية بالرضى بالقليل المادي على أن يشعروا بزهو الروح ويشاهد ويراقب أبناءه من تلاميذه وهم يتطورون وتكبر المعرفة والعلم لديهم.

¹ - محمد البشير الإبراهيمي: آثار البشير الإبراهيمي، ج2، مرجع سابق، ص161.

² - سجل جمعية العلماء المصدر السابق، ص65.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

المبحث الثاني: نماذج من التجارب التعليمية لقادة ج م ج

المطلب الأول: التجربة التعليمية للشيخ عبد الحميد بن باديس:

أولاً_ جهده التعليمي

كان أول ظهور للشيخ ابن باديس في العمل العام في الجزائر، هي تلك الدروس التعليمية التي انطلق بها من الجامع الكبير بقسنطينة، مباشرة بعد استكماله الدراسة في الزيتونة وعودته من تونس عام 1912م، و الذي لم يطل مدته به حتى تم توقيفه لاعتراض الشيخ مولود بن الموهوب القيم على المسجد آنذاك¹، لينتقل إلى الجامع الأخضر بنفس المدينة بعد إذن من الإدارة الفرنسية التي كان وراءها وساطة والده² وعن هذا يرد قائلاً: ((...ابتدأت القراءة بقسنطينة بدراسة الشفاء للقاضي عياض بالجامع الكبير، حتى بدا لمفتي قسنطينة الشيخ ابن الموهوب، أن يمنعنا فمنعنا، فطلبنا الإذن من الحكومة بالتدريس في الجامع الأخضر فأذنت لنا...))³.

تم هذه البداية للشيخ ابن باديس عن فلسفته الإصلاحية التي انتظمت منها مسيرته في إصلاح المجتمع الجزائري وأسلوب التغيير المنشود الذي كان يمثل ضرورة ملحة لتوعية المجتمع الغارق في ظلام الجهل والغفلة والذي حال دونه ودون التقدم والتطور.

فالتعليم كان الركن الأساسي في نظرية الإصلاح للشيخ وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين فيما بعد باعتباره مصدر إلهامها و تتأكد هذه النظرة في هذا القول الذي أورده في جريدته الشهاب ((...لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماءهم... ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره، فإذا أردنا أن نصلح العلماء فنلصق التعليم))⁴.

كما يستدعينا القول إلى حقيقة التجربة التعليمية للشيخ ابن باديس، وتتمثل في أن حضوره التعليمي لم يقتصر على تنصيب حلقة دراسية للتعليم فقط بل كان له فيه الفضل في انتشار شبكة المدارس التعليمية عبر كل ربوع الوطن فيما بعد، وتشخيصها بعمق، أين جاء بتعليم بروح جديدة، يكفل حدوث تحول لإفراد المجتمع المسلم وبذلك كانت فكرة التعليم تعني عنده زيادة عن إيجاد كحلقة دراسية وتوسع وجوده ليصل إلى أكبر عدد ممكن من أبناء الجزائر إلى حمله إلى طبيعة ونوعية تفيد في تأهيل لفهمهم ووعيهم قضاياهم وتغير في سلوكهم على نحو يتجه بهم نحو الفاعلية والايجابية التي تدفع بهم إلى الخلاص من كل مظاهر الانحطاط والتخلف من السلبية واللاوعي واللامبالاة بأحوالهم.

¹ - ابن باديس: كلمة عن الجامع الأخضر عمره الله، الشهاب، ج4، م5، جوان-جويلية 1938، صص 323-324.

² - المكان نفسه.

³ - آثار ابن باديس، آثار ابن باديس، ج4، ص69.

⁴ - ابن باديس: إصلاح التعليم أساس الإصلاح، الشهاب، ج11، م10، 10 أكتوبر 1934، صص 535-538.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

وبالعودة إلى بعض الأحداث المتعلقة بمسيرة الشيخ ابن باديس التي تؤكد لنا العديد من إشاراتها على أن بوادر التعليم كانت متقدمة في ذهنه، وسيلة وهدفا في مشروعه الإصلاحية الكبير والتي كانت تنمو كما يبدو ضمن فكرته الإصلاحية التي سوف يكون رأسها في الجزائر.

والحق أن تلك المحاولة التي تقدم فيها بانتقاد طرائق التعليم التقليدية والمناهج التدريسية التي كان عليها جامع الزيتونة¹، وهو الجامع الذي كان حتى تلك الفترة أحد أكبر المنارات التعليمية في العالم الإسلامي، تدل على رغبته الملحة في إصلاح الحركة التعليمية، وما يؤكد على تقدم هذه الفكرة هو زمن طرحها، ذلك أنه أثناء دراسته بالزيتونة وهو مازال طالبا وصل إلى تقييم طرائق ومناهج تعليمه وتقدم بانتقاداته هذه لإدارة الجامع فيقول: ((... هذا هو التعليم الديني السني السلفي، فأين منه تعليمنا نحن اليوم وقبل اليوم...))، فقد حصلنا على شهادة العالمية في جامع الزيتونة ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله، ولم يكن عندنا أي شوق أو أدنى رغبة في ذلك، ومن أين يكون لنا هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا منزلة القرآن من تعلم الدين والتفقه فيه ولا منزلة السنة النبوية من ذلك. هذا في جامع الزيتونة فدع عنك الحديث عن غيره مما هو دونه بعدد المراحل...²))، كما يؤشر مضمون الانتقادات التي مس بها طبيعة التعليم الزيتوني من حيث مناهجه وطرائق التدريس التقليدية التي كان معروف بها أغلب أساتذته، وأيضا التوجيهات التي جاء بها من أجل تصحيح هذا التعليم³، على نضج ووضوح فكرة ما يجب أن يكون عليه التعليم العربي الإسلامي الفعال والمحدث للتغيير.

كما تؤكد مرحلة السنة الخامسة التي كان يقضيها عادتا طالب الزيتونة المتفوق في التدريس بهدف منحه خبرة وإطلاع على المهنة التي سوف يكون عليها في المستقبل⁴، على أن الشيخ قد أبلى بها البلاء الحسن في النجاح في مهمة التدريس، ويبدو أن الشيخ خرج في درسه عن المؤلف الذي كان عليه أساتذة الزيتونة وقد أظهر تفوقا واستشارة لطلبه وإعجاب أساتذته، ذلك لعمله بما كان يحمله من قناعة و تصور للعملية التعليمية، وهو ما يؤكد أيضا أن ابن باديس لم تتوقف فكرته على التصور الذهني لها والتنظير بها بل تعدتها إلى الممارسة والنزول بها إلى الميدان.

ويذكر الشيخ نفسه أنه أثناء إقامته بالمدينة المنورة قد ألقى دروسا عديدة في المسجد النبوي⁵، وهو المسجد الذي يتوق له فطاحلة علماء الإسلام للتشرف للتدريس به أو إلقاء درسهم فيه، مما يخلق جوا من الازدحام والتنافس، وهذا على أنه لا يجرو على التقدم والعزم للانتصاب للتدريس فيه إلا من ذاع صيته وتضلع في كل فنون الدين، ذلك أنه لا يتاح فيه شرف التدريس إلا لمن أثبت تميزا ونبوغا، وبذلك تتأكد لنا أن حصول الشيخ ابن

¹ - انظر عبد الحميد، ابن باديس: إصلاح التعليم بجامع الزيتونة عمره الله، الشهاب، ج10، م7، أكتوبر 1931، صص 601-605.

² - الشهاب، ج11، مجلد 10، 10 أكتوبر 1934، المصدر السابق، صص 537-538.

³ - عبد الحميد، ابن باديس: إصلاح التعليم بجامع الزيتونة عمره الله، المصدر السابق، ص 605.

⁴ - مصطفى حميداتو: عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، ط1، كتاب دار الأمة، قطر، 1997، ص75.

⁵ - ابن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص481.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

باديس شرف التدريس ومرات متكررة وهو الزائر العابر الذي لم تطل مدة مكوثه أكثر من ثلاثة شهور إلا على ما أثاره علمه وأسلوب تعليمه من تميز باهر الذي لا يكون إلا من جدارة طريقته التعليمية.

كما أيضا كانت دروسه التي انتصب لها بعد عودته من تونس مباشرة بالجامع الأخضر وسيدي قموش¹، فرصته على تأسيسه الجديد لنوع التعليم الذي كان يأمله من حيث الطريقة والمنهاج، ويظهر ذلك جليا في ما أقره من مقررات وكتب جديدة والتي كان يصبوا من وراءها إلى الأهداف التي يتوخاها في تعليم طلبته، وأيضا طريقته التي كانت تستهدف تنمية العديد من الملكات التي كانت مهمة في حلقات التعليم التقليدي السابق له.

فضلا عما سبق فإن إصلاح الشيخ مسّ التعليم واستحدث مؤسسات جديدة كالصحافة والنوادي والكشافة والمسرح... وأصبحت كل هذه الفضاءات ميادين ومنابر للتربية والتعليم، فأعاد للمسجد دوره الأول في التعليم، والذي عرف به في عز ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، بعد توقف طويل إثرى انخراطها، فقد وجد الشيخ أن المساجد في الجزائر يقتصر دورها على حلقات دروس في الوعظ والإرشاد بمعاني مينة وطريقة بئسة لقلّة من مرتادين من كبار السن، كما أيضا جدد دور المدرسة العربية وأعطاهها معنا عصريا، من حيث عمارتها وطريقة تنظيمها وعملها، زيادة على دورها البيداغوجي والتربوي مستلهما ذلك من محاسن نظام وعمل المدرسة الحديثة التي استقدمها الاستعمار.

كما عكست جرائده وجرائد الجمعية التي حافظت على منهجه، من حيث مضمون أعمدتها ومقالاتها ولغتها التي كتبت بها، دورا تعليميا إضافيا لدور المدرسة والمسجد، فكانت هذه الجرائد تعد بمقام مدارس متحركة تصل الناس إلى بيوتهم ومجالسهم، مهما بعدت إقاماتهم، فضلا عن استحداث نظام النادي وفعل دوره باتجاه المقاصد التربوية والتعليمية لفكرته الإصلاحية للشباب الجزائري المسلم، ومثله فعل بالكشافة والمسرح، وبذلك استطاع الشيخ أن يغطي كل الفضاءات المتصلة بالمجتمع الجزائري المسلم، وبمس كل شرائحه ليصل تعليمه إلى غايته².

بعد انقطاع لمدة قصيرة قضاها في رحلته إلى المشرق سنة 1913م، فيها ترسخت قناعاته في أهمية التعليم كمنهج إصلاحي، وأيضا تعمقت خطة التعليم لديه، كل ذلك مثل ما أسلفنا تناول بفضل احتكاكاته ولقاءاته بعلماء وأقطاب الفكر والأدب والإصلاح والتربية التي كانت تكثر بهم بلاد المشرق³، ليعود أكثر قناعة وأوضح تصور وأقوى إرادة وعزيمة في تطبيق مشروعه.

¹ عبد الحميد زوزو: الثقافة والتعليم الحر والرسمي في العهد الفرنسي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2017، ص72.

² مقابلة شخصية مع السيد عمار طالي أحد تلاميذ جمعية العلماء وباحث في تراث رئيسها ابن باديس، عين ارنات سطيف 27 نوفمبر 2015.

³ أنظر مبحثنا السابق ابن باديس وعوامل توجيهه ص 65_71.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

هذه العودة كانت الاستقرار النهائي له في الوطن حتى وفاته العام 1940م، وخلال هذه المدة كلها كان سعيه الفعلي والجددي للتأسيس والتوطين لمشروعه التعليمي برؤيته التربوية التي كان يقتنع بمجداها في تحقيق نهضة المجتمع الجزائري المسلم المأمولة، والتي أصبحت قاعدة الرؤية التعليمية لمدارس ومعلمي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فيما بعد وحتى العديد من الجهات الوطنية الأخرى التي قدمت التعليم كخدمة للمجتمع الأهلي كأحزاب الحركة الوطنية أو حتى الزوايا وبذلك حول المثال التعليمي الإصلاحي معلما يهدى به¹.

بهذه العودة استأنف الشيخ ابن باديس دروسه التي كان يلقيها بالمسجد الأخضر قبل رحلته، ليبدأ ذلك المشوار الطويل وغير المنقطع في التدريس، والذي كان يتوسع ويكبر مع الزمن تبعا لخطة مشروعه الذي بدأه من حلقة دراسية ضيقة لصغار الأطفال ودرس مسائي مقتصر مرتاديه على قلة من كبار السن لحي المسجد الأخضر إلى أستاذ لعلماء ولرجال التعليم والإصلاح في القطر الجزائري، وحول المسجد الأخضر من مسجد صغير متواضع للصلاة إلى منبع إشعاع فكري للثقافة العربية الإسلامية²، وطور مدينته قسنطينة إلى قطب لمركز التعليم والإصلاح التي سوف تشهدها مدن وأرياف وقرى ومدنا كل القطر الجزائري.

اعتمد الشيخ ابن باديس في بداية مسيرته التدريسية خطة تعليمية منظمة ومحكمة، كان يرنو من وراءها تحقيق أقصى الفوائد والأهداف، حيث قسم جهده التعليمي على فئتين من المتعلمين مراعى فيها سن كل فئة، مستدركا بذلك قدرة كل واحدة منه وحاجتها المعرفية والتعليمية، فالفئة الأولى ضمت الكهول والشيخوخ والثانية خصها لفئة الشباب أو الصبية والتي بدورها قسمها إلى مستويات، وقد وزع وقت تدريسه بينهما على أن يكون لكل واحدة وقتها الخاص وقد حظ الشباب بالوقت الأوفر.

وقد وصفت لنا بعض المراجع صفحة من يوميات الشيخ التعليمية، فتذكر أن دروسه تستغرق معظم اليوم، أين كانت دروسه تبدأ بعد طلوع الفجر لتستمر طول اليوم ولا تتوقف إلا مع منتصف الليل وكانت تخللها انقطاعات لمدة وجيزة قصد تناول الوجبات اليومية أو لأداء الصلاة أو راحة قصيرة أو عمل في مكتبه بجريدة الشهاب³.

كان هذا الجدول المتبع من قبل الشيخ ابن باديس يعكس بلا ريب الكم الكثيف من الدروس ويعبر عن الجهد التعليمي الكبير الذي تجاوز حظ الاستفادة منه طلبته المباشرين إلى محيط المدينة، كما كانت هذه المرحلة حاسمة جدا وذلك لما اتسمت به من قبل الشيخ بالعمل الجاد والمتقن والكثيف، ترك أثرا بالغا على الحياة الثقافية لقسنطينة، وفي مدة وجيزة لا تتعدى شهور تجاوزها للجوار، وبفضل مواصلته لهذا الجهد وما نتج عنه من سمعة

¹ - أنظر فصلنا الثالث في الباب الثاني المبحث دور ج م ع ج في تطوير تعليم الهيئات الأخرى ص ص 370_376..

² - جيلالي صاري: المرجع السابق، ص 244.

³ - أحمد شرقي الرفاعي: مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، دار البعث، 1981، قسنطينة، ص 28.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

ساهمت في توسع دائرة تأثيره إلى المناطق الأخرى من الوطن على بعدها وتلك التي حتى هذه الفترة كانت مازالت منطوية على نفسها.

كان هذا التوسع هو اعتراف لابن باديس بسمعته العلمية وبفكرته، كما كان بداية لافتكاكه الزعامة الفكرية والدينية في المجتمع الجزائري المسلم، وما فتئت تزداد هذه السمعة وتتوسع، ويسرعة ساهمت إلى الالتفات إلى قيمته ومكانته العلمية التي أصبح طلب الاستفادة منها حتى من قبل من كان المفروض يعترضون على هذا النوع من التعليم الذي أوجده خاصة من أوساط المرابطين والزوايا، فقد عرفت حلقة تدريسه التحاق أبناء مقدمي زوايا وطرق صوفية من مختلف نواحي إقليم قسنطينة*، ولم يتوقف حدود نجاحه هنا بل تجاوزها إلى خارج حدود الجزائر، حتى ضمت دروسه بعض الطلبة المغاربة.

كانت هذه الميزات في صالح مشروعه ولعلها كانت من صلب تخطيطه، لذلك نجد الشيخ لم تفاجئه الأعداد المتزايدة من الملتحقين التي ضاقت بها مدرسته الأولى ليسارع إلى إحداث أكثر من مدرسة بقسنطينة**، زيادة عن المدرستين الرئيسيتين بمسجد سيدي الأخضر وسيدي قموش، كما عمل على توسيع مستوى تعليم طلبته، أين كان يسدي لبعضهم تعليماً عالٍ، وهذا لإدراك الحاجة إليهم في الاعتماد عليهم وتجهيئتهم لمساعدته في التعليم أمام الضغط المتزايد لعدد الطلبة الملتحقين بدرسه¹، وقد اعترفت كل الجهات والمؤسسات الفرنسية أو حتى المحلية بقيمة ومستوى تعليمه وأن الشيخ ابن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين يقدم دروساً عالية المستوى في الجامع الأخضر وسيدي قموش لطلابه الذين سوف يمثلون مستقبلاً أساس دعوته.

زيادة على ذلك فإن مساهمة الشيخ ابن باديس لم تتوقف في تطويره للتعليم العربي عند هذا الحد، بل تجاوزها إلى إدخال التعليم الثانوي ضمن تعليمه، فقام سنة 1917م بفتح مدرسة مسجد سيدي فتح الله²، لتكون أول مدرسة ثانوية ضمن المسيرة التعليمية التي عرفها التعليم العربي في الجزائر، وبذلك يكون الشيخ ابن باديس قد غطى فجوة كانت تعرفها مراحل التعليم العربي الإسلامي مع قدوم المستعمر.

ثانياً_ موصفات الدرس الباديسي

تميز الدرس الباديسي مثل ما أسلفنا الذكر بخروجه عما عرف به التعليم التقليدي من بؤس وعقم، بل مثل جهد إصلاحي وتجديدي للفعل التعليمي في التعليم العربي الحر، فكانت دروسه منظمة تعتمد منهجية واضحة، يأخذ كل درس موضوع واحد ومحدد يتناوله بمنوال مدرسي بيداعوجي يتضمن فكرة شرعية أو اجتماعية حية

*- تابع دراستنا هذه سوف نقف على العديد من النماذج من منطقة الأوراس التي تعكس هذه الظاهرة.

** - وصل عدد الطلبة الذين يحضرون الدروس للشيخ سنة 1937 حوالي 300 قادم من كل أنحاء إقليم قسنطينة، انظر Mostfa, Hadad: Op.cit P,202 .

¹ - Ibid, p204.

² - أندري وليلك، المرجع السابق، ص170.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

ومعاشة، يستند في تفكيكها وشرحها إلى النصوص القرآنية وأحاديث النبي وسنته وسيرة السلف والتاريخ الإسلامي.

كما اجتهد إلى تقديم أفكار درسه بطريقة مبسطة دون أن يفقده عمقه حتى يكون في متناول الفئات المتلقية لها، والتي كان يحسب لها سوءا من الفئات الشعبية ضعيفة المستوى أو الأمية، وهذا ما جعل درسه يختلف عن ما عرفه التعليم التقليدي من إثقال لعقل المتعلم بالحشو، متجاوزا بذلك تنمية ملكة الحفظ دون فهم إلى استهداف تنمية ملكات عقلية أخرى تثري بناءه الفكري والتي تنتهي إلى هدف تطوير ضميره الاجتماعي.¹

كان الشيخ ابن باديس يعمل على أن تساهم دروسه التعليمية على توسيع مدارك طلبته وتخصيب عقولهم وفتح آفاقهم إلى آفاق جديدة في استيعاب وفهم القضايا والظروف المحيطة بهم، كما أيضا كان يهدف من وراء درسه إلى تنمية قدراتهم على البحث والتنقيب والتنفيذ لأجل الوقوف على الحقيقة مهما خالفت أو حالفت المؤلف، وهو بذلك يساهم في تحرير العقل، تحريره من عبودية الأحكام البالية والمنمطة والمسبقة، إدراكا منه أن بداية تحرير الإنسان من كل أشكال العبودية والاستعمار إنما تبدأ بحرية العقل فالوجدان وصولا إلى تحريره مما خارج عنه من مسلوب (الأرض، الوطن).

وكان أثناء تدريسه يسعى جاهدا إلى تكوين طلبته على العديد من الفضائل العلمية كالكتابة في الشعر أو أغراض النثر الأخرى والمقال الاجتماعي والسياسي والخطابة والتواصل مع الناس... الخ، وتنمية ملكة التفكير والتدبير فيها، وقد رسم في ذهنه لكل فضيلة من هذه خططها حتى تتعمق لديهم ويتملكون مهارتها، فتصبح سلاحهم ووسيلتهم في نقل رسالتهم وعملهم الموعود، كما كان يوحى لهم بالأفكار والمعاني الجديدة التي يبلغونها وتحملها رسالتهم لها.

زيادة عن ذلك كان الشيخ يعدهم إلى العديد من المهام والوظائف التي توسعت في زمنهم على خلاف ما عهد على التعليم التقليدي، الذي كانت أسمى غاية له أن يتخرج الطالب الناجح معلما قابعا بين جدران مكان درسه في جمود عن أي حركة ونشاط على رأس حلقة رتيبة وساكنة لا حياة فيها، فهو بذلك يكون قد وصل بطلبته حتى إذا ما انتهت فترة تكوينهم إلى معلمين وصحفيين ووعاظ وأئمة وناشطين اجتماعيين وسياسيين...، فكانت هذه المهارات قد شجعتهم إلى إنشاء وسائل دعوتهم كالمدارس والمساجد والجرائد والأندية والفرق الكشفية والمسرح والإنشاد والموسيقى وحتى الفرق الرياضية والتي مست كل أرض من الجزائر.

كل هذا كان يريد من وراءه إلى خلق أفراد يوزعهم على جبهات الصراع مع الاستعمار المركب، فكان يرى أنه من البساطة مغالبة ومحاربة استعمار بوسائله المعقدة والمتطورة الفاعلية والعصرية، وبفلسفته الفكرية والتقنية بالبساطة والتقليدية التي شاهدها وتشاهدها نضالات الجزائريين.

¹ - الشهاب، أكتوبر 1934، ص 180-181.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

وهو فعلا ما يسجل للشيخ ابن باديس أن أغلب طلبته كوّنهم وأعدهم حتى توفرت لهم المقدرة على العمل والوصول بهم إلى ما كان يأمله في تدريبهم عليه، ومنه أطلقهم كالجند في ساحة الميدان، وقد كان ميدان التعليم أوفر الميادين حظا منهم، أين توجه أغلبهم إلى إنشاء المدارس أو الانتصاب كمدرسين فيها مغطين حاجة التعليم الإصلاحي في الوطن بأكمله، فحقق بهم أهداف نظرية جمعية العلماء الإصلاحية والمتمثلة في نهضة المجتمع الجزائري المسلم وبعث شخصيته الوطنية والعربية الإسلامية من جهة ومبطل لكل سياسة تعمل على مسخها وتخلفه من جهة أخرى.

المطلب الثاني: التجربة التعليمية للشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

أولا- نشأته وتكوينه

ولد محمد البشير الإبراهيمي يوم الخميس 14 من جوان 1889م، برأس الوادي ناحية مدينة سطيف في الشرق الجزائري أين تقيم قبيلته أولاد إبراهيم، وحسب ما ذكره شخصيا فإن نسب عائلته يرتفع إلى النسب الشريف المنحدر من " إدريس بن عبد الله " المعروف بإدريس الأكبر الجد الأول للأشراف الأدارسة مؤسسي الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى¹، ويزيد الشيخ الإبراهيمي في نسب قبيلته "أولاد إبراهيم " إلى العرب ويرجعها بالضبط إلى قريش أو هلال بن عامر فيقول: ((...مما لاشك فيه أن نسبنا عربي صميم، إن لم يكن من قريش فهو في هلال بن عامر لأن موطننا الحاضر من المجالات الأولى التي كانت بني هلال فيها مضطرب واسع لأول هجرتهم من صعيد مصر في أوساط المائة الخامسة..))²، إن هذا النسب كان دائما يجعل من أفرادهم يعملون على الالتزام والتظاهر بالخصال العربية والمحافظة عليها، وقد كانت محل تقدير عند باقي القبائل لالتصاق كثير من هذه الخصال بالإسلام، هذا مما يجعل بقاء اللغة وكثير من العوائد العربية في أوساط هذه القبيلة والتي تعد ثقافة تحرص إلى حد ما على ما فقدته في الأوساط الجزائرية بسبب الركود الحضاري أو هجوم الاحتلال عليها وهو ما صدق مع عائلة الإبراهيمي.

فقد عرف عليها أنها عائلة علم وتعليم بقي فيها متوارث أبا عن جد منذ حوالي خمسة قرون³، هذا جعلها ككل العائلات صاحبة العلم، مقصدا لطالبي العلم من مختلف أنحاء الجهات والمناطق خاصة تلك القريبة منها، فكانت تسدي هذه الخدمة (التعليم) بسعي كبير، فتوفر لهم مرقدتهم وإيوائهم وتعليمهم، ويؤكد الإبراهيمي هذا الدور التعليمي والديني والاجتماعي لعائلته فيذكر لها: ((...كان لأجدادي تاريخ قديم في العلم يرجع إلى قرون،

¹ - محمد البشير الإبراهيمي: في قلب المعركة 1954-1964، جمع وتصدير أبو القاسم سعد الله، ط1، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1995، ص205.

² - المصدر نفسه: ص89.

³ - المصدر نفسه، ص90.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

وكانوا مرجعا في الفتوى الدينية، والصلح بين العشائر مهما ينجر بينهم من خلاف، وكانوا ملاذا لطلبة العلم فتحوا بيوتهم لعشرات من طالبي العلم يرحلون إليها من أقاصي البلاد، فيقومون بإطعامهم وتعليمهم، ومنهم من لا يخرج إلا عالما..)).¹

كما تقدم نصل إلى حقيقة، أن عائلة الإبراهيمي عريقة في النسب قديمة في العلم، نالت مكانة و احترام اجتماعيين وسمعة علمية جعلتها مقصدا لطلاب العلم والمعرفة، ففي ظل هذا الوسط الثقافي والاجتماعي الملائم الذي توفر للإبراهيمي، نشأ وترعرع تربي وتعلم، فنهل من علمها وأخذ من سلوكها وتربيتها وأخلاقها². كانت بداية الشيخ الإبراهيمي في التربية والتعليم على يد عمه محمد المكي الإبراهيمي الشقيق الأصغر لوالده، الذي عرف بعلمه الغزير وتضلعه في مختلف فنون العربية نحو وصرفا³، حيث أتم حفظ القرآن الكريم على يد عمه الذي اكتشف مواهبه المبكرة، فكان له الفضل الأكبر في تربيته وتكوينه. وما زاد في نفع عمه له هو التصاقه به كل أوقات يومه يأخذ عنه، فاستفاد من علمه الوافر، هذا ما ساهم في توسيع مداركه ونمو قدراته وتفتق ملكاته، ولعل ما تميز به الشيخ الإبراهيمي من ذاكرة وحافظة قويتين يعودان فيهما الفضل في أغلبها إلى ظروف هذا التكوين.

أتم الإبراهيمي حفظ القرآن في عمر الثماني سنوات، بالإضافة إلى حفظه ألفية ابن مالك وتلخيص المفتاح، وما إن بلغ التاسعة من عمره حتى أصبح يتفنن في فهم مفردات القرآن وغريبه. كما عرف عنه شغفه لطلب العلم وتعطشه للمطالعة وقراءة الكتب في مختلف التخصصات والمجالات⁴، فحفظ أمهات الكتب في الأدب وفروعه المختلفة، وشعور الإبراهيمي بميزاته العقلية والذهنية هذا حمله إلى تعزيز الثقة في نفسه والإعجاب بها، وخاصة لما تنصب مبكرا للتعليم خلفا لعمه فيقول في هذا الشأن: ((..وما إن أشرفت على الشباب حتى أصبت بشر آفة يصاب بها مثلي وهي آفة الغرور والإعجاب بالنفس... وكادت أهلك لولا طبع أدبي الكريم، ورحلتي إلى الشرق التي كان فيها شفائي من تلك الآفة)).⁵

ما يمكن ملاحظته في شخص الإبراهيمي هي استعداداته الخاصة التي ساهمت بشكل خاص في استغلال ظروفه العائلية على نحو إيجابي استطاع بها تجاوز كل العوائق والصعوبات التي كانت تعتري كل الوسط الأهلي

¹ - محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام البشير الإبراهيمي 1954-1962، ج3، جم وتق أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص289.

² - محمد البشير الإبراهيمي: في قلب المعركة المصدر السابق، 90.

³ - محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 1929-1940، ج1، جم وتق أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ج1، ص9.

⁴ - محمد البشير الإبراهيمي: في قلب المعركة المصدر السابق، ص90.

⁵ - المصدر نفسه، ص ص 91-93.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

الجزائري في هذه الفترة التي اشتد فيها انعكاسات السياسة الاستعمارية فانتشر الجهل ونضبت كل موارد العلم، وهو ما جعله في مدة وجيزة يستوعب الكثير من المعارف في علوم مختلفة كانت تتجاوز قدرة سنه بكثير. فلما هاجر جده الشيخ السعدي الإبراهيمي إلى المدينة المنورة عام 1908م، فرارا من ويلات الاستعمار الفرنسي، لحقه عام 1911م، ونزل بمصر حيث التقى بالعديد من العلماء والأدباء وحضر بعض دروس العلم في الأزهر الشريف.

بعد وصوله واستقراره بالمدينة المنورة درس بها عند الشيخين محمد الشنقيطي اللغوي المعروف وحمدان الويسي فأخذ خلال هذه الفترة التي دامت عشر سنوات¹، علوم التفسير والحديث والتراجم و علم أنساب العرب وأدبهم ودواوينهم، كما درس علم المنطق والحكمة المشرقية، وأمّهات كتب اللغة والأدب، حتى بلغ به هذا التحصيل أن تأهل لإلقاء الدروس للطلبة في الحرم النبوي مع بحثه الحثيث في أوقات الفراغ في المكتبات العامة والخاصة فيما استهواه من المخطوطات⁽²⁾.

في هذه البيئة الجديدة استفاد الإبراهيمي من النشاط العلمي والتعليمي الذي كان بأوساطها، وخلالها استطاع أن يترحل في مناطقها المختلفة تشده في انتقالاته البلوغ إلى العلماء وأهل الأدب والفكر، هذا ما أتاح له فرصة مخالطة وحضور عديد الدروس لعلماء أجلاء خاصة مع زيارته لمصر التي أقام خلالها مدة ثلاثة أشهر، وفيها تعرف إلى الشيخ سليم البشري "1867_1917" والشيخ محمد بخت "1854_1935" والشيخ يوسف الدجوي "1940_1960" والشيخ عبد الغني محمود المتوفى 1929 وسعيد الموجي والشيخ السمالوطي، وقد عرف هؤلاء بنبوغهم العلمي في العلوم الدينية ومكانتهم العلمية في الأزهر وبنزعتهم الإصلاحية.

ولميله وموهبته الشعرية اتصل الإبراهيمي بفحول الشعر العربي الحديث كحافظ إبراهيم وأحمد شوقي ولا نستبعد أن يكون لهم من الأثر عليه في إبداعه الشعري فيما بعد، إضافة إلى هذا استطاع انتهاز فرصة تواجده بمصر بحضوره دروس الشيخ محمد رضا التي كان يقيمها في دار الدعوة والإسلام.

والحال أن هذه اللقاءات والحضور مكنته حقيقة من الإطلاع على الأفكار الحديثة والإصلاحية والنهضوية التي كانت تحفل بها البيئة العربية في جزءها الشرقي، والتي كان لها الفضل مؤكدا في توجيهه الفكري والحركي الذي ميز مساره في المستقبل³.

فرحلته إلى المشرق قد زودته بما لم يكن يتسنى له توفره في وسط الجزائر لما كانت تعرفه من جفاف ثقافي وبؤس علمي وجمود فكري بسبب الاستعمار، فهذه الرحلة وسعت مداركه العلمية والفقهية ونمت مواهبه خاصة الأدبية وفتحت أمامه أفقا سوف تعود على بلده الجزائر ومجتمعها بالخير.

¹ - محمد القرصو: المرجع السابق، ص 36.

² - محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 1929-1940، ج1، المصدر السابق: ص 11-12.

³ - محمد القرصو: المرجع السابق، ص 36.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

كان عودته إلى الوطن من جديد عام 1920م¹، وانقطاعه للخدمة العامة مع الشيخ ابن باديس الذي شاركه في فكرة ومشروع نهوض الأمة الجزائرية مشاركة مطلقة²، فبعودته إلى مسقط رأسه سطيف وجد أوضاعها أسوأ مما تركها، فالاستعمار عاث فسادا حالها حال الوطن، وعن هذا الحال قال واصفا: ((... إنه يفرق الناس في البلاد طرائق قددا ليضمن لنفسه البقاء والسيادة إلى أن كان من أمرنا وأمره ما تعرفون...))³.

فما كان من أمر الإبراهيمي بعد استقراره النهائي إلا القيام ببناء مدرسة ومسجدا بسطيف نشط فيها عمله الإصلاحية والتعليمي والذي دام فيه حتى انتقل لتلمسان ليتولى أمر قيادة الإصلاح من خلالها بالغرب الجزائري كله، وقد يكون الانتقال إليها بتوجيه من الشيخ ابن باديس في إطار خطته الإصلاحية ليمارس نشاطه المكثف وأسس فيها عام 1937م مدرسة "دار الحديث"⁴ التي كانت مركز تعليمه.

ثانياً_ مواصفات الدرس التعليمي للشيخ الإبراهيمي:

أبان الشيخ الإبراهيمي مهارة كبيرة في تدريسه من حيث الطريقة والمضمون وهذا ليس بعيد عن مثل من تعرض أثناء تعليمه وتكوينه للعديد من تجارب التعلم التي اختلف عليها من خلال العديد من المشائخ والأساتذة والبيئات التي تعلم بها، كما لا يمكن أن نغفل أثر من خالطهم من المعلمين زائرا أو عابرا على مؤسساتها، إضافة إلى قدرته الاستيعابية واتساع أفقه وملاكاته المتعددة من أثر في امتلاكه مهارة التعليم.

كما سبق وفوده للجزائر توليه تجربة التدريس بمدارس عربية معروفة بمستواها التعليمي والتي لا يحظى شرف هذه المهمة بها إلا لمن كانت له جدارة علمية وكفاءة تعليمية، فقد درس بالمدرسة السلطانية وشارك في تقديم دروس بالمسجد الأموي⁵، وقد عرف عليه خلال هذه التجربة النبوغ والتأثير على طلبته الذي كان منهم فيما بعد أعلاما للأدب والفكر والفلسفة في المنطقة العربية كالفيلسوف جميل صليبا.

كان لدروس الإبراهيمي ومحاضراته التي كان يلقيها، روح التجديد من حيث طريقة الإلقاء أين كان يختار موضوعا محددًا ثم ينتقل فيه بتدرج منطقي وعقلي، يثير خلاله التساؤل ويترك بذلك للمستمع ومتلقيه يعمل عقله ويتدبر في فكرته، حتى يأتيه بعدها بفكرة وليدة لما سبق، وهو بهذا يكون معززا لملكة التفكير والاستنتاج ويبني الإيمان بثقافة القناعة في تبني أي فكرة ورأى.

¹ - باعيز بن عمر: من ذكرياتي من الإمامين الرئيسيين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، منشورات الحبر، الجزائر، 2006م، ص 95.

² - محمد القرصو: المرجع السابق، ص 41.

³ - باعيز بن عمر: المصدر السابق، ص 95.

⁴ - محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 1929-1940، ج1، المصدر السابق، ص 11.

⁵ - محمد لقرصو: المرجع السابق، ص 37.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

وقد كان لتجربته هذه أثرها حتى من خلال محاضراته في ليالي رمضان على الجماهير المقبلين عليها على اختلاف مستوياتهم، وبعد انتهاء الدرس يتم الالتفاف حوله فينتقل بهم إلى فنون القول والأدب والتعليق على الأحداث.¹

فضلا عن ذلك كانت دروسه تدور حول التذكير بالقرآن والسنة وما في التاريخ من عبر، ونضع أيدينا- كما يقول- على مكامن الإحساس والشعور في جماهيرنا ونستنهض الجميع إلى المسارعة إلى كل ما يعود عليهم بالخير والنفع في دينهم وديناهم، ويخرجهم من ظلمات الاستعمار والجهل والضلال، إلى نور العلم والهداية وحياة العزة والكرامة والقضاء على الخرافات، ويواصل كلامه فيزيد فهمهم على ما حل بأمتنا من الويلات كان عقابا على إعراضهم عن هداية القرآن.²

لقد تميزت دروسه بالبراعة في إسقاط موضوعاتها على الواقع المعاش والحياة اليومية موجها أهدافها نحو مقاصد عدة عنده مسبقا، متدرجا في أهدافها من المعرفية لتنمية ثقافتهم وزادهم العلمي إلى العقلية لتوسيع مداركهم وتنمية قدراتهم التفكيرية إلى الوجدانية ملامسا حسهم الديني والوطني.

وقد كان الشيخ ماهرا في استحضار الشواهد القرآنية والنصوص المختلفة للحديث النبوي الشريف وكل ما اتصل بالتراث الإسلامي والتاريخ والسيرة الإسلامية، وهذا لما تمتع به من قوة ذاكرة وحافظة وقوة بلاغته اللغوية، هذه الميزات أعطت لدرسه متعة وقوة جذبت إليه العديد من الراغبين في التعلم منه من مختلف شرائح المجتمع الأهلي على مختلف مستوياتهم الثقافية والعمرية.

وتأكد هذا ما أقتبسه أبو بكر الأغواطي من درس الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أنه متأسف عن ضياع تلك الدروس القيمة والمحاضرات العامرة التي يلقيها الرئيس في جولاته بربوع الوطن تلك التي لا تنقطع طول السنة وما أشبهها إلا بنهر عذب جار يستقي منه القريب ولا يحرم منه البعيد.

كما أن الكتاب يأخذون بالسماع ويندهشون فلا يكتبون شيئا، وكانت النتيجة ضياع كنوز العلم والحياة لا تقوم بمال كما يواصل أبو بكر كلامه أن دروسه-يعني الإبراهيمي- لكنوز من العلم والحكمة غالبا³.

يصف أحمد طالب الإبراهيمي درس أبيه فيقول: ((... كان والدي لا يكمل ولا يبالي بالتعب، فعند الفجر كان يلقي دروسا في حلقة من خمسين شابا من شباب تلمسان، وبعد الظهر كان يحطّب في ناد حول ماضي الجزائر أو مستقبلها، وفي المساء كان يجمع حوله أتباعه بعد درس تفسير القرآن الكريم، من أجل تجسيد المشروع الذي طالما راوده وشرع في تنفيذه وهو بناء "دار الحديث"، وهو مجمع تربوي وديني حقيقي يضم قاعة للصلاة في

¹ - باعزير بن عمر: المصدر السابق، ص 120.

² - نفسه: ص 121.

³ - الإمام محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 1929-1940، ج2، جم وتق أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص ص 296، 297.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

الطابق السفلي، لأن الإدارة الفرنسية منعت من الوعظ والإرشاد في المساجد الرسمية، وقاعة للمحاضرات في الطابق الأول وقاعات للتدريس في الطابق الثاني.

وقد سماه "دار الحديث" تيمنا بالمدرسة التي تحمل الاسم نفسه في دمشق (التي أسسها نور الدين زنكي). وعموما فإن هذه المؤسسة ترمز إلى عمل جمعية العلماء في الجزائر المتمثل في بناء مدارس للأطفال لتدريس اللغة العربية والتاريخ والعلوم...¹

وبذلك كان الإبراهيمي مثل رفيقه ابن باديس قد خصصوا كل جهدهم للتعليم ووهنوا أعز أوقاتهم لذلك وهو يدرك أهمية جهده هذا في التأسيس للتعليم الإصلاحية الذي كان يعده مهمة ومسؤولية يجب توطئها في هذا المجتمع الغائر في الجهل والتقليد.

وقد استغل كل منابر وفضاءات التعليم التي كانت موجودة بتلمسان، وهذا بغية الوصول لأكبر عدد ممكن من الأهالي ولعل أهمها نادي السعادة الذي كان يرأسه المحامي حسن بوقلي، وقد عرف الشيخ الإبراهيمي بتنشيطه فيه لدروس التفسير والتوحيد وبذلك مثل نادي السعادة فضاء آخر وفسحة لدروسه الحرة لتبليغ أفكاره وعلمه في الوسط الأهلي التلمساني.²

والحق أن الشيخ الإبراهيمي قد عمل على تأسيس مشروع تعليمي كبير بتلمسان من خلال مدرسة الحديث التي أنشأها ونشط بها دروسه لتصبح مركز إشعاع لكل الغرب الجزائري، ولاعتبار البشير الإبراهيمي قد عهدت له رئاسة الإصلاح بكامل الغرب الجزائري فإن جهده لم يتحدد بحاضرة تلمسان فقط بل كان يختلف على كل مناطقها راحلا ومتجولا للتعريف بالفكرة الإصلاحية مستغلا مؤسسات الثقافة والتعليم لإلقاء محاضراته فيها.

وقد كانت المدن لهذه الجهة محطات رئيسية لنشاطاته ودعايته، كمدينة وهران وتيارت ومعسكر وسيدي بلعباس، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر نشاطه بنادي الشباب الأدبي بمعسكر الذي نشط فيه عدة محاضرات سنة 1934م بحضور أعداد غفيرة من سكان المنطقة ونفس الشيء عرفته مدينة سيدي بلعباس، أين نشط الشيخ الإبراهيمي محاضرة في تفسير آيات من القرآن الكريم بنادي النجاح.

وقد عرفت فترة وجوده في قيادة الإصلاح بالغرب نشره للعديد من المدارس التي شملت كل المدن الكبرى بما وكثير من قرأها، فكان جهده من الأهمية بمكان في توطئ مدارس جمعية العلماء المسلمين في منطقة الغرب الجزائري التي كانت إمكانياتها لا توحى بهذا التطور لصالح جمعية العلماء.*

¹ - أحمد طالب الإبراهيمي: مذكرات جزائري أحلام ومحن 1932-1965، ج1، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2006-2007م، ص23.

² - القرصو، المرجع السابق، ص56.

* - عن هذا ارجع بتفصيل أكثر للدراسة الرائعة لمحمد القرصوني الحركة الإصلاحية المرجع السابق

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

وكان يسعى الإبراهيمي لتوسيع دائرة التعليم، وذلك من خلال مراسلته لجميع المعلمين الذين ينشطون تحت غطاء جمعية العلماء، حيث بعث لهم بأن يضعوا برنامج موحد، كما وضع درجات وشهادات لمتعلمي الجمعية بداية من شهادة التعليم العربي الابتدائي¹، ثم شهادة التعليم الثانوي فإلى.

وعلى الصعيد الوطني فإن التعليم الإصلاحية لجمعية العلماء زمن تولى الشيخ الإبراهيمي رئاسة الجمعية قد عرف تطورا وانتشار بفضل الإجراءات التي اتخذها ومشروع التحديث الذي سهر على تنفيذه، حيث ازداد عدد التلاميذ في جميع مراكز القطر وهذا يعكس مدى الإقبال على التعليم والعناية به من طرف جمعية العلماء في شخص الإبراهيمي الذي وضع المبادئ والقوانين التعليمية للجمعية.²

وقد تمكنت الجمعية خلال العشرين سنة الأخيرة من تكوين نخبة عربية إسلامية بالقطر الجزائري، وقد تخرج منها منذ ما يزيد عن المائة والخمسين ألفا من الطلبة. وعدد تلاميذها من طلبة وطالبات كان يشمل يوم إعلان الثورة التحريرية نحو الخمسين ألفا، وهذا راجع إلى طريقة تدريس علماء الجمعية التي حولت التعليم البائس القديم إلى تعليم حديث وفعال يستهدف واقع الإنسان.³

ثالثا_ التعليم عند الإبراهيمي (المرامي والغايات)

يرى الإبراهيمي أن التعليم هو المطية والوسيلة، أما التربية فهي الغاية، لذلك كان يوجه معلمي مدارس ج ع م ج ويحرص على تزويدهم بالعلم وكيفية ممارسته لتعليم الطلبة، ويظهر هذا من خلال الطريقة التي يستخدمها في التبليغ وعلاقتها بالمحتوى المعرفي والمواد التي تدرس من طرف المعلم، والمسؤولية الملقاة على كاهله، فلا بد على المعلم أن يكون على دراية بواجبه التربوي الذي يربي العقل ويزكي النفس ويقوم الأخلاق، ودليل هذا ما نجده في أقواله التي يوجه بها المعلمين ومنها قوله: ((...احرصوا على أن تكون التربية قبل التعليم، واجعلوا الحقيقة الآتية نصب أعينكم، وهي أن الجيل الذي أنتم منه لم يؤت في خيبته في نقص العلم، وإنما خاب أكثر ما خاب من نقص الأخلاق، فمنها كانت الخيبة ومنها كان الإخفاق...)).⁴

لذلك وضع الإمام الإبراهيمي نظرة وتصور عام لكي يصل إلى الغاية، إذ وقف على ضرورة الاهتمام بنوع الأثر الذي تحدته المعلومات المقدمة والمعرفة إلى التلاميذ، أفضل من كثرة المعلومات التي تحشى بها أذهانهم ويقول

¹ - الإمام محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 1929-1940، ج2، المصدر السابق، ص 109

² - صالح بن نبيلي فركوس: تاريخ الثقافة الجزائرية من العهد الفينيقي إلى غاية الاستقلال 814ق.م- 1962م، ايدكوم للنشر والتوزيع- وزارة الثقافة، الجزائر، 2013م، ج2، ص 198، 199.

³ - أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر مرجع سابق، ص 120.

⁴ - الإمام محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 1929-1940، ج3، المصدر السابق، ص 264.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

بهذا الصدد: " كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس خلال اجتماعنا في المدينة حول تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما على تربيته على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل"⁽¹⁾.

كما أنه كان حريص على شخصية المتعلم وذلك من خلال الاهتمام بكيفية تقديم المعرفة حتى يتمكن من تحقيق الغاية الأسمى والكبرى هي إحداث أثر في سلوك المتعلم ووجدانه، فكان تصور الإبراهيمي في هذا السياق أن يكون التعليم والتربية قائمة على فهم أسباب الأمور واستنباط نتائجها. فيستهدف هنا تنمية ملكات العقل والتفكير كالتحليل و التعليل والاستنتاج والربط والتركيب.... ونحو ذلك من الملكات الخادمة في المتعلم.²

زيادة عن ذلك كان الإبراهيمي يرى بأن التعليم مسؤولية الجميع والتي تكفلت الجمعية بها، فحرص على التبليغ ونشر التعليم، فنجده يوضح للمعلمين أعباء هذه المسؤولية فجاء في كتاب الآثار: ((... للجيل الآتي علينا حقوق أولية مؤكدة لا تبرأ ذمنا منها عند الله، ولا تسقط شهادة التاريخ بها، إلا إذا أديناها كاملة غير مبخوسة، وملاك هذه الحقوق أن نعددهم للحياة على غير الطريقة التي أعدنا بها آباؤنا. فالأخلاق والآداب والأفكار والإحساسات والاتجاهات العامة والمستخصات الخاصة هي " الأمتعة" التي يرثها جيل عن جيل...))³، هكذا يحث الشيخ الإبراهيمي ويذكر المعلمين برسالتهم اتجاه الأجيال المتعلمة لنقل قيم ومشاعر أمتهم إليهم وتنميتها وهي المقاصد الكبرى لأي تعليم في أي مجتمع وهو ما تؤكدته حتى النظريات التعليمية الحديثة.

المطلب الثالث: التجربة التعليمية للشيخ الطيب العقبي

ولد الشيخ الطيب بن محمد بن إبراهيم بن الحاج صالح العقبي سنة 1890م، بسيدي عقبة أحد مناطق حاضرة بسكرة الواقعة بالشمال الشرقي للزيان، وإليها ينسب، وقد نشأ في أسرة متوسطة الحال، وفي سنة 1895م هاجرت عائلته إلى المدينة المنورة وهو لا يزال في سن الخامسة من عمره، هذه الهجرة التي يذكر عنها أنها كانت بدافع الحج.⁴

ونظرا لما تكتسبه المدينة المنورة من مكانة ومقام ديني، باعتبارها مدينة هجرة الرسول (ص)، فقد كانت مقصد العلماء المسلمين من مختلف أصقاع العالم الإسلامي، وفيها يستقرون لنيل فضل التعليم والتدريس بمسجدها النبوي، هذه الميزة التي تمتعت بها المدينة المنورة جعلت منها مدينة علمية ودينية حافظت على الكثير من التقاليد الدينية والثقافة الإسلامية.

¹ - محمد البشير الإبراهيمي: أثار الإمام البشير الإبراهيمي 1954-1962، ج5، جم وتق أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص 280.

² - نفسه: ج3، ص 272.

³ - نفسه: ص 273.

⁴ - عبد الكريم بوصفصاف : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مرجع سابق ، ص96.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

ولعل مترجمنا واحد منهم، فقد نشأ الطيب العقبي بها حيث يذكر عن نفسه نشأته العلمية، ففي مرحلة الصبا حفظ القرآن الكريم على يد أساتذة مصريين، وفي بداية مراحل التعليمية تزامن عمره مع ما عرفته المدينة المنورة من ازدهار حلقات العلم والدروس، وهو ما تؤكدُه العديد من المصادر التي تؤرخ للمدينة المنورة في هذه الفترة، فهي تذكر أن المدينة المنورة قبيل الحرب العالمية الأولى، عرفت هجرة كثير من علماء الإسلام إليها، فكثر بها حلقات الدروس وعمرت مكاتبها بالمؤلفات.

وقد سمحت هذه الظروف الثقافية للبيئة التي شب فيها الشيخ لعقبي أن يستفيد منها، فأخذ العلوم الشرعية في الحرم

المدني على يد مشايخ ذلك الزمان، وقد كان منهم الشيخ حمدان الونيسي القسنطيني الذي هاجر إلى الحجاز عام 1911م.

ورغم ما أصاب الطيب العقبي بفقدانه والده في سن الثالثة عشر في هذا العمر الحرج، إلا أن هذا المصاب الجلل لم يؤثر على مسيرته التعليمية، فقد بقي متصلا بحلقات الدرس بالتزام ومثابرة ملحوظتان، وهو ما يعكس فضل دور أسرته في توجيهه هذا، ويتضح هذا الدور من موقف أمه في مساهمتها في تفرغه للعلم، فقد أعفي من مهام القيام بشؤون الأسرة وتكالييفها وحولتها إلى أخيه الأصغر، مع أن العرف والتقاليد كانت تفرض هذه المهام على الابن الأكبر.

كان هذا التوجيه والتخطيط لأسرة العقبي بشأنه قد توافق مع رغبته الشديدة في التحصيل، وأيضا طبيعته الجادة والمثابرة إضافة إلى استعداداته وقدراته العقلية، علاوة على ذلك ما وفرته المدينة المنورة من بيئة ثقافية ساهمت في تحصيله العلمي، ما جعله يطوي مرحلة التعلم في اقصر مدة، لتظهر عليه علامات النبوغ في العلوم التي أخذها كالشريعة والبلاغة، وهو ما أهله للالتحاق بعلماء ومدرسي المسجد النبوي.

فضلا عن ذلك فقد سمحت له مؤهلاته بتقلده عدة أدوار هامة منها رئيسا لجريدة القبلة والمطبعة الأميرية¹، وهو ما يعكس دائما المكانة والجدارة العلمية والثقافية الذي حظي بها، وكذا فعاليته ونشاطه العملي الذي كان يرغب في المساهمة به في المجتمع.

وقد كانت لهذه الأدوار التي قام بها فضلا كبير في اكتسابه خبرة في مجال التعليم والإصلاح، وفهما للأدوار التي سوف يطلع بها مستقبلا بعودته إلى الجزائر.

عاد العقبي إلى الجزائر سنة 1920م، و تحديدا إلى مدينة بسكرة عاصمة الزيبان التي كانت بداية مستقر مقامه، ليباشر فيها تأسيس حلقة تعليمية له بمسجد سيدي منصور وهو المسجد الكبير والمركزي بهذه الحاضرة، كما عرف عنه أنه كان يجوب العديد من المساجد الأخرى لتقديم الدروس والمواظ.

¹ - أحمد مريوش: الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية، دار هومة، الجزائر، 2007، ص 45.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

كانت دروسه هذه قد تبني فيها نهجا جديدا من حيث الطريقة والمضمون لم تعهدها من قبل دروس وحلقات التعليم بالمساجد والزوايا في بسكرة، لقد كان لفضل ما أخذه من علم وطريقة في مرحلة تعلمه وتعليمه بالمدينة المنورة انعكاس كبير فيما سوف يظهر على دروسه في حلقاته التعليمية بالجزائر.

والحقيقة أن أداء الدروس قد تميز بمنهجية خرج فيها عن المضمون والطريقة التعليمية القديمة البائسة والعقيمة التي اعتادها رجال العلم والتعليم في الجزائر، والتي تعتمد على التلقين والحشو على مستوى الطريقة والخرافة والمعارف البعيدة عن الواقع المعاش من حيث المضمون.

فقد كان يستهدف في خطابه العقل لتأكيد معارفه كقناعات راسخة، وهذا من خلال إثارة السؤال ثم إتباعه بجواب منطقي، في ترتيب، بانبا بذلك حوارا عقليا، وفي نفس الوقت مستعملا آلية التحليل تارة والتركيب تارة أخرى، منتهيا للاستنتاج والخلاصة المنطقية والعقلية، وهو بهذه الطريقة يدرّب عقل المتلقي والمتعلم على التفكير العقلاني والسليم الذي يناقش كل ما يعرض عليه من أفكار ومعارف، كما يساهم في إنماء ملكة التفكير، التي يقصد من وراءها تدريب المتعلم على التفكير الذاتي والوصول إلى حقائق وأفكار مما توفر له من معارف، ومنها يبني أحكاما وقناعات شخصية وعقلانية محاربا كل ما كان يتميز به اغلب المتعلمين من سذاجة في الاعتقاد وإيمان بالخرافة وتبعية في الأحكام.

أما على مستوى المضمون فإن الشيخ العقبي ولما عرف به من هيمنة الاهتمام بالموضوع العقدي لخلفيته التعليمية بالحجاز، والتي تركز على تصحيح العقيدة ومحاربة الشرك على ما كان سائدا لمنهج محمد بن عبد الوهاب، فإن الشيخ ولما هاله من مخالقات عقديّة وجد عليها المجتمع، هذا الأمر أكد له أهمية الاشتغال على تصحيح العقيدة، فكانت أغلب دروسه مكرسة لهذا الموضوع، مجندا كل ملكاته ومهاراته اللغوية والخطابية وكذا معارفه العلمية لهذا الغرض.

وبهذا كان تعليم الشيخ الطيب العقبي من خلال دروسه ؛ تعليما دينيا بحثا تبعا لتكوينه التعليمي، حيث كانت مواضيعه مهما اختلفت مادتها إلا أنها تأخذ البعد الديني، فنجد منها التاريخ الإسلامي، وقد كان يرمي من وراء هذه المادة التعريف بأجداد الأمة والإشادة بتاريخها هادفا من وراءها إعادة الثقة في النفس والهوية للمجتمع الجزائري المسلم، الذي أصبحت أوضاعه تعبر على حالة الهزيمة النفسية والوجدانية، والمسلوبة الروح بسبب ما لاحظته من انقطاع بين حاضرها وماضيها، بالإضافة إلى محاربة نزعة التشكيك التي كانت الدوائر الفكرية والثقافية الفرنسية تنتهجها ضد تاريخ وثقافة المجتمع الأهلي.

كما كان أيضا للسيرة النبوية حظا وافرا في دروسه، وهذا ما ليس غريب عن صاحب مدرسة تنظر إلى صلاح الأمة بما صلح سلفها وقدوة بنبيها محمد صلى الله عليه وسلم، فكانت هذه الدروس دعوة صريحة للناس لتمثل حياة وأخلاق وأعمال النبي وصحابته باعتبارهم المثال الصحيح في الإسلام.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

لقد التف من حوله الكثير من الطلبة الذين وعوا فعالية درسه وتميزه، فذاع صيته ليزداد عدد طلبته من مختلف الأعمار والفئات يوماً بعد يوم، خاصة وأن التعليم فيها كان بأئسا يجري على الطريقة القديمة التي تستهدف ملكة الحفظ ولا تهتم بالفكر والتقليد وتلغي الاجتهاد، عكس ما تعلمه وعاشه في بلاد الحجاز، وكان هذا الوضع هو السائد في تلك الفترة وكانت الزوايا هي من تتولى هذا الأمر، فشرع العقبي في تنفيذ ما تعلمه وما اكتسبه، فكانت المساجد هي فضائه الوحيد، فاتخذ من المنبر وسيلة لإيصال كلماته وخاصة العامة منهم، وكان يرى ضرورة إصلاح هذه الفئة كمرحلة أولى، ولم يهتم بفئة النخبة باعتبار أن فلسفة الإصلاح عنده تتجه من الكل إلى الجزء.¹

بدأ العقبي في نشر نهجه التربوي داخل مسجد "سيدي منصور" في بسكرة القديمة، وركز فيه على تلقين دروس العقيدة وخاصة أن المنطقة كانت تستحوذ عليها العقائد الطرقية الخرافية التي كان ينشرها بعض دعاة التصوف، وكذلك ركز أيضاً على الإشادة بالتاريخ الإسلامي وتتبع مراحل السيرة النبوية، وكان هدفه من إحياء التاريخ هو تطعيم وتوعية الشباب بماضيهم المشرق والمضيء وزرع وتعزيز الوازع الديني والوطني في نفوسهم، وكان في دروسه هذه يربط بين الدين والدنيا وبين التأصيل والواقع، ولهذا سرعان ما انتشرت أفكاره وطريقته الجديدة في التعليم، فتواكبت الجموع الغفيرة إلى سماع دروسه وأفكاره وكان من بينهم شعراء وأدباء منهم محمد الهادي السنوسي، وأحمد بن العابد العقبي وغيرهم، وأصبح مسجد سيدي منصور لا يتسع للحاضرين فانتقل العقبي إلى جامع "بركات" ثم إلى مسجد "بكار" الذي يتوسط المدينة الجديدة مقر إقامة الجالية الأوربية، لقد حول العقبي نظرة المجتمع إلى المسجد من مكان للعبادة فقط إلى مكان لإلقاء الدروس والمحاضرات والإرشاد العام، ومعالجة القضايا الاجتماعية المتعددة بل وجعل منه ملتقى الجماهير بمختلف مشاربها.

وقد تنوعت طرق ونشاط العقبي التعليمي بتنوع فئات المجتمع، فكان شاملاً لجميع الطبقات، فمنها مجالس التكوين للطلبة، وخاصة الذين درسوا في الزيتونة، فدرس لهم الجوهر المكنون في البلاغة، وقطر الندى في النحو، وهذا من أجل تقويم اللسان بقواعد اللغة العربية التي أصبحت مهمشة، كما طاف مساجد المنطقة لعقد مجالس الوعظ والتذكير للعامة، ودرس تفسير القرآن الكريم² أيضاً، وقد اختار له الشيخ تفسير المنار للشيخ المجدد محمد رشيد رضا، ذلك انه كان يسقط القضايا التي عاجلها القرآن على الواقع المعاش ويجد لها الحلول، كما كان يمتاز بالبساطة والسهولة وسرعة الاستدلال دون تكلف ولا تعقيد، وكان منها المجالس الأدبية في «جنيئة البايليك» أين كان يجري الحوار الأدبي يومياً في شتى أنواعه وألوانه، ويحضره أدباء ومثقفون أمثال الأمين العمودي ومحمد العيد آل خليفة وغيرهم، كما كان يغتنم المناسبات التي يجتمع فيها الناس كالولائم لدعوة الناس إلى التوحيد وإلى الرجوع

¹ - أحمد مريوش، المرجع السابق، ص 84.

² - عبد الكريم بوصفصاف، المرجع السابق، ص 97.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

إلى القرآن والسنة، ولم يغفل عن الرحلة إلى المناطق المجاورة حتى ذاع صيته، وانتشرت دعوته في منطقة الزيبان كلها.¹

ولم تقتصر دعوة العقبي في التعليم على الذكور فقط بل كان من أوائل الداعين إلى تعليم الفتاة وهي دعوة جريئة في مجتمع محافظ يرفض فكرة تعليم النساء وخروجهم في المشاهد العامة حتى تلك الفترة، فقد قال في مقال له في جريدة الشهاب " عندما أقول لهم علموا بناتكم وأدبوهن على حسب ما تقتضيه الشريعة الإسلامية حتى يتمكن لأزواجهن أن يعيشوا معهن عيشة راضية ويجيوا جميعا حياة طيبة"²، وبالإضافة إلى تعليم المرأة دعا العقبي إلى تعلم اللغة الفرنسية وذلك أن جهلها لا يخدم الشعب الجزائري ودعا إلى تعلمها من أجل فهم ما يدور حولهم من مكاييد المستعمر، وكذلك للتعبير عن مطالبهم وحقوقهم للحكومة حسب رأيه.³

لم يكن العقبي بإلقاء الدروس والمحاضرات في المساجد والنوادي بل تعداه إلى الصحافة واستفاد من تجربته في بلاد الحجاز، فأسس جريدة الإصلاح في يوم 8 سبتمبر 1927م⁴، وكان قبلها يكتب في جريدة "صدى الصحراء" التي كان يحررها أحمد بن العابد العقبي، وكان العقبي من ضمن المؤسسين لها، كما كان يرأس جرائد أخرى منها جريدة الجزائر، وهذا الاهتمام بالجرائد والصحف للعقبي كان سببه رؤيته العميقة لدور الإعلام في نهضة الأمة ورفقيها.

وبعد الإقامة في بسكرة بضع سنين انتقل إلى مدينة الجزائر سنة 1929م⁵، وهناك بدأ مرحلة أخرى من صفحاته المشرقة، باعتبار أن العاصمة كان الوضع فيها يختلف عما كان عليه في منطقة الزيبان، فبدأها بنادي الترقى فعمره بعلمه وإرشاده وخطبه ومحاضراته إذ بلغ عدد المحاضرات التي يلقونها أسبوعيا بالنادي أكثر من خمسة محاضرات، هذا علاوة على الحلقات والندوات التي كان يعقدها من حين إلى آخر مع جماعة النادي وبعض الأعيان من مختلف الولايات الأخرى التي كانت تقصد العاصمة، وكل هذا لم يشغله عن دوره في المسجد، فقد كان يلقى المحاضرات الدروس في الفقه واللغة والتوحيد وتفسير القرآن الكريم في الجامع الجديد بعد صلاة الجمعة وصلاة العصر من كل يوم أحد.⁶

ولما تأسست جمعية العلماء المسلمين سنة 1931م أصبح من بين أعضائها البارزين وعين نائب الكاتب العام وممثلا في عمالة الجزائر، وتولى رئاسة تحرير صحف الجمعية (السنة والشريعة والصراط)، ثم جريدة (البصائر)، ولكن سرعان ما وقع خلاف بينه وبين الشيخ ابن باديس، فاستقال من الجمعية، وكذلك منعه من إلقاء الدروس

¹ - أحمد مريوش، المرجع السابق، ص 90.

² - كمال عجال: الفكر الإصلاحي في الجزائر: الشيخ الطيب العقبي بين الأصالة والتجديد، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص 74.

³ - نفسه، ص 75

⁴ - عبد الكريم بوصفصاف، المرجع السابق، ص 97.

⁵ - أحمد توفيق المدني: حياة كفاح مذكرات 1925-1954، المصدر السابق، ص 112

⁶ - ابوالقاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1930-1945، ج 3، ط 3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 89.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

والمحاضرات في مساجد العاصمة بسبب رفضه منصبا إداريا في الإدارة الجزائرية وكان مقصودا بمنشور ميشال سنة 1933م¹، ولكن لم يتوقف نشاطه في مجال التعليم والإصلاح، فمن نشاطه خارج الجمعية مساهمته في توجيه مدرسة الشبيبة الإسلامية التي كان لها الدور التعليمي والتربوي، وهي مدرسة أسسها أعيان الجزائر سنة 1927م في حي باب الواد الجديد²، ولم تقتصر هذه المدرسة على تعليم البنين والبنات اللغة العربية وبعض العلوم الشرعية، بل قاموا أيضا بتعليم البنات فنون التدبير المنزلي³.

كذلك أنشاء سنة 1950م منظمة "شباب الموحدين"، التي كانت تنشر الدعوة السلفية من خلال تعليمها ومناهجها، ولم يتوقف الشيخ العقبي عن نشاطه إلى أن أقعده المرض سنة 1958م، وألزمه الفراش حتى وفاته سنة 1961م.

إن المتأمل في سيرة العقبي التعليمية في الجزائر يجدها مليئة بالمتاعب والصعاب والعقبات والمضايقات بسبب الوضعية التي كانت عليها الجزائر وما كان ينتهجه من تجديد في الوسائل والمعارف التي لم ترضى إدارة الاستعمار والمؤسسات التقليدية كالزوايا الإدارة الفرنسية ومشايخ الزوايا ثم ما أعقبها من اختلاف مبكر مع جمعية العلماء وانسحابه منها تحت ضغط إكراه الأزمة التي تعرض لها من قبل الإدارة بعد اتهامه في قضية قتل المفتي كحول.

المطلب الرابع: التجربة التعليمية للشيخ مبارك الميلي.

أولا _ نشأته وتكوينه:

ولد مبارك بن محمد بن رابح الإبراهيمي الميلي حوالي عام 41896 بدوار أولاد مبارك بجبال الميلية إحدى مناطق الشمال القسنطيني، عرف الطفل مبارك حياة يتم الأبوين منذ سنوات طفولته الأولى فكفله جده رابح⁵ الذي عرف بالتدين وحبه للعلم والعلماء، فقد حج ثلاثة مرات فيها قد يكون اطلع على ما كان يجري من نهضة في الأمصار العربية والإسلامية التي مر بها ولا نستبعد جلوسه لحلقات بعض العلماء والمصلحين، هذا ما سوف يترك أثره في توجيه حفيده مبارك للتعلم فأرسله لكتاب القرية لحفظ القرآن وتعلم الكتابة، وقد تدعم هذا التوجه للجد رابح لما لاحظته على الابن مبارك من نباهة وذكاء وسرعة في الحفظ⁶، وقد كان تعليمه في هذه المرحلة على يد الشيخ أحمد بن الطاهر بن المزهود الذي قال عنه: ((..مبارك الميلي من تلاميذي في الكتاب، ابتداء حفظ كتاب الله علي... وأنا الذي علمته الحروف الهجائية، وواصل حفظه للقرآن حتى ختمه، وأعاد حفظه

¹ - عبد الكرم بوصفصاف، المرجع السابق، ص 97.

² - أحمد مريوش، المرجع السابق، ص 297.

³ - مولود عويمر: مدارس ومعاهد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، جريدة البصائر، عدد 786، 2015.

⁴ - مبارك الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، ص 5.

⁵ - أحمد بوزيد قصبية: حياة رجل الإرادة مبارك الميلي 1945-1998م، البصائر، ع 8، 26 مارس 1948، ص 2.

⁶ - محمد علي دبوبز: أعلام الإصلاح، ج 3، ط 1، المطبعة العربية، 1969، ص 33.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

واستظهاره.¹)، غير أن الجد رايح وأثناء رحلته الرابعة للحج توفي بمكة التي دفن بها حوالي العام 1908م، ومنها انتقلت كفالته لعميه علاوة وأحمد أبناء الحاج رايح المليي، الذي سدا عليه طريق مواصلة التعلم وقد كانا يرياني في خدمة فلاح الأرض ورعي الماشية أولى وأفيد له من طلب العلم² وهو اليتيم الذي شارف على البلوغ والزواج. وقد لزم مبارك رغبة عمه أحمد حوالي أربع سنوات والتي كان خلالها يعاني صراع الشعور بالضيق والنفور وعدم الراحة لما أجبره عليه من جهة ورغبة مواصلة تعليمه من جهة أخرى، ليغلب رغبته ويستجمع إرادته فارا لزاوية الشيخ الحسين التي كانت تفصلها على إقامته مسافة 25 كلم من طريق جبلية وعرة، إلا أنه لم يقضي بها أسبوعين حتى لحقه عمه وأرجعه ليجبره مرة أخرى على العمل معه في فلاح الأرض، ورغم إصرار عمه ومراقبته الشديد له إلا أن الشاب مبارك كان يتحين فرصة الفرار، وفي أحد أيام الشتاء الثلجة لعام 1912م فر إلى معهد الشيخ محمد معنصر المليي أين استقر لطلب العلم مدة ستة سنوات وخلالها سار على مراحل التعلم التي كان يعتمدها المعهد وكانت ثلاثة؛ قسم للمبتدئين ويتناولون فيه النحو الأجرومية وقسم المتوسطين، يدرسون خلاله كتاب قطر الندى لابن هشام وقسم الكبار يدرسون الألفية لابن مالك وقد عرف تدريس الفقه مثل هذه المراتب والكتب.³

مثلت مرحلة الدراسة لمبارك المليي عند الشيخ محمد بن معنصر المليي منعطفًا فكريًا وعقليًا في مسيرته العلمية لما وجده في شيخه من غزارة علم وأخلاق ومنهجية تدريس إضافة إلى ما كان يحرص فيه من توجيه وتنبيه لطلبته لمطالعة الكتب والاستفادة منها، وما وجده منه من اهتمام شخصي خصه به لما رآه فيه من ذكاء ونبوغ وحرص على الأخذ والتعلم، وقد تطور هذا الاهتمام حتى قربه له وتولى كفالته العلمية وزاد من حضه ما عرفه خلال مشواره هذا من تولى السيد مصطفى بوالصوف أحد أعيان ميلة ووجهائها أمر الإنفاق عليه ليتفرق لطلب العلم والاستمرار في أخذه، ففي سنة 1916م حدث أن عوض عنه دفع مال مكان إعفائه من التجنيد ليواصل تعليمه بميلة⁴ ثم الجامع الأخضر بقسنطينة فالزيتونة بتونس.

التحق الطالب مبارك المليي بدروس الشيخ ابن باديس عام 1918م وكان عمره اثنين وعشرون سنة، استفاد خلال مدة مكوثه بالجامع الأخضر التي دامت أربع سنوات من المعارف التي كان يخصصها الشيخ ابن باديس لطلبته في برنامجه التعليمي الذي تميز بالجدة والمعارف الهادفة التي قصد منها إنماء القدرات العقلية كالتفكير والنقد وتطوير العديد من المهارات الثقافية كالكتابة والخطابة وبناء الشخصية بتعزيز الروح الوطنية والدينية

¹ - نفس المرجع، ص25.

² - أحمد بوزيد قصبية: المصدر السابق، ص2.

³ - مبارك المليي: رسالة الشرك ومظاهرة، ط3، دار البعث قسنطينة، الجزائر، 1978، ص ص 152-153.

⁴ - أحمد بوزيد قصبية: المصدر السابق والصفحة نفسها ومحمد علي ديبوز: أعلام الإصلاح، ج3، ص72.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

والاستقلال في الرأي، وذلك بإفهامهم قواعد العلم وتطبيقاته حتى تحصل لهم ملكة استعماله¹، وقد تدعمت مرامي الشيخ في درسه من نوعية التعليم وطريقة التدريس ومنهجيته العلمية.

والحق أن الطالب مبارك المليبي قد وجد حاجته الفكرية والعقلية في هذه الدروس كما وجد نفس الاهتمام والرعاية من قبل معلمه الشيخ ابن باديس التي عرفها من معلمه السابق محمد معنصر المليبي ولا يمكن أن نفسر هذا الاهتمام إلا لما انتبه له وفرض ملاحظته على الشيخ ابن باديس في تلميذه من ميزات عقلية ونفسية وشخصية كالذكاء والنباهة والصلاح والعلم وقوة الشخصية وصلابتها، وهي الخصال التي كان يبحثها ويهدف إلى بعثها في طلبته حتى يتسنى له تكوين فريقه الذي يعول عليه في حمل مشروعه.

ما أشرفت نهاية الربع سنوات حتى تكون لمبارك المليبي قاعدة علمية صلبة وتبلورت عنده الفكرة الإصلاحية التي كان يبشر بها معلمه ابن باديس واقتنع بدوره المستقبلي في المشروع الإصلاحي، هذه الميزات جعلت من مبارك المليبي يكون من أوائل الطلبة التي خصها الشيخ بالبعثة إلى جامع الزيتونة للمزيد من العلم والمعرفة والصلاح لإعدادهم لمهمات النشاط الإصلاحي.

انظم الطالب مبارك المليبي إلى صفوف طلبة جامع الزيتونة في سبتمبر 1921م² ليستمر مكوثه فيه مدة أربع سنوات، خلالها استفاد من التعمق في المعارف الدينية و علوم العربية وآدابها والإطلاع على الأفكار الإصلاحية التي كانت حتى هذه الفترة قد حفلت بها العديد من المنابر الحوارية كالمدارس والجامعات والأندية ومختلف دور الثقافة وحتى المقاهي والتجمعات الشعبية في تونس وغطت حيزا مهما من الكتابات الصحفية والمؤلفات حتى غدت ظاهرة ثقافية وحركية يتميز بها الفضاء الثقافي والديني والعلمي التونسي حاله حال ما كان بالمشرق وهذا ليس بعيد عن بلاد كانت تعد حتى هذه الفترة بوابة و واجهة المغرب العربي على المشرق.

وقد كان مبارك المليبي على اتصال مباشر بهذه الأفكار وعلى قرب منها بسبب ما كان يمثله أساتذته المباشرين له من مصدر لهذا الحراك والفكر كالشيخ محمد الطاهر بن عاشور وبلحسين بن النجار وأيضا ما كان يعنيه جامع الزيتونة مكان دراسته من موقع إشعاع إصلاحي وتنويري لهذه الثقافة الدينية الجديدة.

وكان خلالها طالبا مجدا مستغلا كل جهده ووقته للتكوين والاستزادة بالمعارف المختلفة التي كان يخصصها برامج ومقررات مناهج الزيتونة على يد علماء ومجتهدين كالشيخ محمد الطاهر بن عاشور صاحب التجديد في التفسير "التحرير والتنوير" والشيخ النخلي القيرواني وعثمان بن الخوجة ومحمد بن يوسف وبلحسين النجار.³

أنهى مبارك المليبي دراسته بالزيتونة عام 1925م متوجا بشهادة التطوع وقد أكمل تكوينه المعرفي والفكري الذي ساهم في بلوغه مكانة علمية رفيعة , قال فيها عنه الشيخ البشير الإبراهيمي ((.. إن الذي بلغ به تلك

¹ - ابن باديس: الشهاب، ج 8، مج 11، نوفمبر 1935، ص 508.

² - مبارك المليبي: رسالة الشرك، المقدمة، ص 5.

³ - عبد الحفيظ الجنان: أطوار من حياة الشيخ مبارك، البصائر، ع 27، 15 مارس 1948، ص 7.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

المكانة من العلم أربعة أشياء ما اجتمعت في طالب علم إلا رفعت به بالعلم إلى تلك المرتبة، استعداد قوي، وهمة بعيدة، كبيرة، وانقطاع عن الشواغل الفكرية والجسمية إلى حد التبتل¹ وبذلك أصبح مبارك المليي جاهزا لمباشرة المسؤوليات التي أرسل من أجلها ليتولى مهام الإصلاح والتعليم وفق المنهجية الإصلاحية التي تربي عليها واقتنع بها.

ثانياً_ جهوده في التعليم.

بعد عودته إلى الجزائر التزم الشيخ مبارك المليي العمل بقناعاته فانتمت إلى المشروع الإصلاحي الذي كان قد تكون فيه واقتنع به، وقد باشر مهامه الإصلاحية الأولى كمعلم إلى جنب أستاذه ابن باديس بقسنطينة، فأسس سنة 1925م قسمين دراسيين على النمط العصري؛ الأول بسيدي بومعزة والثاني بسيدي فتح الله² وقد اجتهد خلال الأربعة عشر شهرا التي قضاها في قسنطينة من هذه المرحلة على إحداث ثورة تجديد في دروسه وتعليمه ككل والتي كان يراها ما يجب ان تتبناه الحركة الإصلاحية في تطوير تعليمها.

وقد ظهر مشروعه التجديدي وثورته الإصلاحية فيما أقدم عليه من تشخيص للحالة التي وجد عليها التعليم العربي وما قدمه من تصور بديل خط فيه النقاط العريضة لنجاح مهمة تطوير وتقديم التعليم العربي وخروجه من أزمة عقمه وبأسه التي عرفها طوال فترة القرون الأخير وعلى رأسها عقود الاحتلال.

وقد وصف مبارك المليي في مقال له بجريدة الشهاب عن الحالة التي كان عليها التعليم بقسنطينة فترة مباشرته لمهمة التدريس بها حيث وقف على نسبة التمدرس الضعيفة لأبناء المجتمع الجزائري المسلم والتي قدرها بأقل من نصف فرد بالمائة ويضيف أن حتى هؤلاء المتدربين يتضاءلون ليصلوا لأقل عدد مع نهاية الموسم، كما يعرف حضورهم قلة الإنضباط فلا يجتمع إلا نصفهم أو أقل في الحصة الواحدة ويرجع ذلك إلى عدم تحلي الأولياء بالمسؤولية المتابعة التي يفرضها الحرص والوعي بأهمية تعليم أبناءهم³، ثم يتطرق إلى النظام التعليمي وانعدام الوسائل التعليمية الضرورية كالكتاب والحجم الساعي الذي كان يراه من الضالة ما لا يساهم في نجاح التعليم وتحقيق أهدافه المنشودة⁴.

وفي كلمة ألقاها الشيخ مبارك المليي أمام لجنة أولياء التلاميذ عبر خلالها لفهمه وتصوره على ما يجب أن يكون عليه التعليم، كما لا نستبعد أن تكون نظريته هذه قد نزل بها للتطبيق أثناء تدريسه في هذه المرحلة والتي جاء فيها.

¹ - محمد البشير الإبراهيمي: مبارك المليي، البصائر، ع 26، عدد خاص، 8 مارس 1948، ص 1.

² - أحمد بوزيد قصبية: المصدر السابق، ص 3.

³ - أنظر مبارك المليي: المكتب الابتدائي العربي بقسنطينة حالته الحاضرة، الشهاب، مج 1، ع 31، 27 جوان 1926، ص ص 621-622.

⁴ - انظر المكان نفسه.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

تقسيم طلبته إلى طبقات حسب مستواهم من جهة وحسب الانتظام بين الملتزمين بالمدرسة الفرنسية والمنتظمين من جهة أخرى، وقد عين الحجم الساعي للدراسة خلال اليوم والذي حدده بخمس ساعات بتوقيت من الثامنة إلى الحادية عشرة خلال الفترة الصباحية ومن الثانية حتى الرابعة خلال الفترة المسائية، بينما خصص للتلاميذ بالمدارس الفرنسية توقيت المساء بعد خروجهم من دوامهم بالمدرسة الفرنسية وأيام محددة خلال عطلة الفصلية والسنوية.

ولا نستبعد أن يكون الشيخ مبارك المليي قد اعتمد جرد تلاميذه وهي الآلية المعتادة التي أصبحت جارية حتى عند المعلمين الأقل تطورا وتنظيما، وهو يدرك ما يترتب على هذا الجرد من مراقبة ومتابعة لطلبته من حيث السلوك والانضباط وحتى التحصيل.

كما لم يفوته تزويد أقسامه بما تيسر له من وسائل حديثة كالسبورة والدفاتر والأقلام إضافة إلى تزويد الحجرات بطاولات وكراسي، وقد كان له طموح في اعتماد الكتاب للتلاميذ¹ لإدراكه أهمية الكتاب كوثيقة بيداغوجية تساهم لحد بعيد في ترسيخ المعارف وتثبيتها.

أما من الناحية البيداغوجية فالشيخ قد اعتمد طرق تعليمية حديثة حيث قسم الحصص إلى مواد وراعى في توزيع تدريسها طبيعتها؛ بين ما هي مواد حفظ وما هي فهم، زيادة على سهره على اعتماد طرق تدريسية سهلة وفعالة تعتمد على بناء الفهم أكثر من الحفظ وعلى الحوار من خلال السؤال والجواب أكثر من التلقين، فكان الشيخ ((... يكتب لتلاميذه جزءا من القرآن الكريم على السبورة ويفسره حتى يفهموه ويحفظوه...))². ولقد واصل إجراءاته التنظيمية للعملية التعليمية بإدخال الامتحانات لتلاميذه لنيل شهادة الابتدائي التي بفضلها كان يسمح للحصول عليها التسجيل بجامع الزيتونة.

كانت هذه الإجراءات التي اعتمدها الشيخ مبارك المليي تعبر على رغبته وطموحه في نقل تصورات مشروع تطوير التعليم العربي الحر إلى الميدان وجعله أكثر تنظيما، رغم اصطدامه بالواقع من ناحية شح إمكانياته وقلة وعي المجتمع العربي المسلم، إلا أننا نستطيع أن نقول أن الشيخ مبارك رغم صعوبة توفيقه في مشروعه بما كان يطمح فيه _ وهو ما نوه به للجنة المسيرة للمدرسة بتركه مهمة التعليم كخيار يجعله أبقى للإخلاص وأحفظ للكرامة³ _ قد أسس حتى هذه الفترة لبنة التعليم العربي العصري الذي سوف تشاع تقاليده وتصبح هي المثال في التعليم لكل أنحاء الوطن.

¹ - عبد الملك مرتاض: نخضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954م، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 504.

² - محمد علي دبور: نخضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ط1، المطبعة العربية، 1969، ص 264.

³ - مبارك المليي: المكتب الابتدائي العربي بقسنطينة حالته الحاضرة، المصدر السابق، ص 623.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

تعليمه بالأغواط:

انتقل الشيخ مبارك المليبي من قسنطينة التي اعترضت ظروفها حتى هذه الفترة نجاح مشروعه في إصلاح التعليم كما كان ينشده وهي المدينة الحضارية التي من المفروض أن تكون الوسط الأكثر استعدادا لتقبل مشروعه الحديث، متوجها إلى الأغواط بالجنوب الجزائري وهي البيئة التي كانت يغلب عليها طابع البداوة وبذلك ما سوف تكون الأقل استعدادا لتقبل مشروعه وهذا ما يحيلنا إلى التساؤل عن دواعي خياره هذا.

تختلف الروايات في أسباب ودواعي مغادرة الشيخ مبارك المليبي حاضرة قسنطينة قاصدا مدينة الأغواط وللغرض نفسه الذي سعى لإنشائه والمتمثل في تأسيس مدرسة للتعليم العربي الحر بمقاييس عصرية، فمنها من يقول بدعوة زميله الزيتوني له شيخ الطريقة القادرية عبد العزيز بن سي الهاشمي* بتولي التدريس بالمدرسة التي أقامها بالأغواط بوصية من والده عام 1922م**، وقد نجد لهذا الرأي كثير من الدعم نحو حقيقته إذا علمنا أن الشيخ سي عبد العزيز قد آمن بالفكرة الإصلاحية وانتمى إلى تنظيمها - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - ولاقى في سبيلها الكثير من المعاناة جراء مواقفه الإصلاحية من قبل الإدارة الفرنسية حتى بلغت سجنه لحوالي ثمانية سنوات من 1938م إلى 1945م وهو من كان موقعه يوفر له الامتيازات والحماية - فلعله كان يرى في دعوة مبارك المليبي هو عمل لخدمة الفكرة الإصلاحية بتوفير فضاء لها يسمح لها بالتوسع والانتشار، فضلا عن هذا فإن سي عبد العزيز قد زامل مبارك المليبي في فترة دراستهم بالزيتونة فيكون قد خبر قدراته العلمية ومنها التعليمية فتكون دعوته له من قبيل الاستفادة منه لصالح مؤسسته، أو قد يكون أثناء تواجدهم بتونس قد تباحث موضوع وضعية التعليم العربي وسبيل تطويره كما يكون مبارك المليبي قد كاشف عبد العزيز على رغبته في تنفيذ مشروع تطوير وعصرنة مدرسة عربية حرة حين عودته الجزائر، وهو ما لاقى استحسان من قبله فعرض عليه وعد مساعدته وما إن وجد فرصة له لتقديم يد العون له حتى استدعاه.

أما الرأي الآخر فيقول بعمل الشيخ ابن باديس بإستراتيجية توسيع الإصلاح في الجزائر فوزع قادة فريقه على مختلف النواحي وكان خياره في مبارك المليبي لمنطقة الأغواط.¹

*- سي عبد العزيز بن سي الهاشمي ولد سنة 1898م بالبيضاة الوادي من عائلة شريفة تنتسب إلى الطريقة القادرية أخذ تعليمًا زيتونيا وخلالها تعرف على الأفكار الإصلاحية بعد عودته تولى رئاسة الزاوية القادرية بعميش، ولتوجهاته الإصلاحية تقرب من جمعية العلماء ثم انتخب عضواً بمكتبها الإداري عام 1937م ليعرف بعدها مشاكل مع الإدارة انتهت بسجنه بسجن الكدية بقسنطينة من 1938م إلى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية لموقفه من قانون 8 مارس 1938م.

** - للتوسع أكثر في الموضوع أنظر الدراستين الرائعتين لكل من Hella Amar, op.cit, pp15-40 وأحمد صاري: شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصرة، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 2004، ص ص 45-60.

¹ - محمد الحسن فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر القطاع الجزائري، ج2، ط1، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، 1999، ص 174. وأحمد صاري: المرجع السابق، ص 36.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

وأن كان الرأيان لا يتعارضان لأنه قد تكون هناك دعوة من سي عبد العزيز للشيخ مبارك المليلي لتولى التدريس بمدرسة الأغواط وهو ما اتفق مع رغبة الشيخ ابن باديس ووجدت استحسانا من قبله لما رأى فيها من فائدة لمشروعه بما تحققه له من توسع للفكرة في منطقة الجنوب وهي المنطقة التي يصعب فيها توفير شخصية إصلاحية حتى هذه الفترة.

حل مبارك المليلي بالأغواط سنة 1926م¹ واستهل مشواره التعليمي بها بمسجد الجيلاني التابع للزاوية القادرية والتي أعد له مقدمها محل خاص به لإقامته²، وفيها باشر دروس الوعظ والإرشاد التي شملت التفسير والعقيدة وكان أثناء دروسه يوجه أفكاره لإثراء الوعي الديني وبناء قاعدة من الجماهير الأغواطية تستوعب خطابه وأفكاره بطريقة ذكية لا تصدم الأعراف الطرقية المتفشية والمتكلسة في عقول ساكنة الأغواط رغم أنها كانت محل موضوعاته.

والحق إن الشيخ مبارك المليلي بعد مدة قصيرة من مباشرته دروسه قد وقف مراجعا لخطته وراسما خطة جديدة لبرنامج التعليمي تتماشى و مستوى مستمعيه ويذكر تلميذه أبوبكر الأغواطى أن الشيخ عدل في أسلوبه الذي بدأه لأول وهلة لما رآه فيه من صعوبة عند مرتدي درسه فنزل بأسلوبه إلى لغة سهلة وأسلوب مبسط على عدم تنازله على المحتوى والرسالة³.

وقد كانت دروسه تتناول العقيدة والفقهاء والعبادات وقد أخذ في معالجته الجدة والخروج من التقليد، كما يذكر مراسل جريدة النجاح بالأغواط والذي يبدو أنه كان متابع حريص لأخبار الشيخ مبارك المليلي أنه اعتمد في دروسه شرح الأربعين النووية⁴، ولعل اختياره للأربعين النووية لما كانت تحتويه أحاديثها من تنوع و شمول لمختلف جوانب الحياة وهو ما يسمح له بمعالجة مختلف المشاكل التي كان يلاحظها في واقع هذا المجتمع بطريقة شرعية وبذلك يجعل الناس يربطون واقعهم بدينهم.

والحق أن الشيخ مبارك المليلي قد أعطى لدروسه هذه جاذبية كبيرة بما تميز به أسلوبه البسيط وأمثلته المعاشة من واقعهم وعلمه الوافر ما أكسبه اهتمام ومتابعة أعداد كبيرة من الناس التي كانت تتزايد حتى ضاق بهم مسجد الزاوية فاضطر إلى الانتقال للمسجد العتيق لاتساع مساحته ورحابة فضاءه.

حتى هذه المدة التي قضاها مبارك المليلي في الأغواط بين ساكنتها مدرسا وإماما لم تضعف عنده فكرة إنشاء مدرسة عصرية، بل كان يرى أن طموحه هذا يحتاج إلى التخطيط وهيأت الناس له فالوضع الثقافي والوعي بأهمية

¹ - محمد الحسن فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر القطاع الجزائري، ج2، المرجع نفسه، ص 174.

² - مراسل النجاح بالأغواط: النجاح، ع 347، 6 سبتمبر 1926.

³ - ابوبكر بن القاسم الأغواطى: عصامية الشيخ مبارك المليلي رحمه الله، البصائر، ع8، 26مارس 1948، ص7.

⁴ - مراسل جريدة النجاح بالأغواط: اختتام الأربعين النووية، النجاح، ع364، 5نوفمبر 1926.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

التعلم والعلم ليست بالمستوى في هذا المجتمع حتى يقدم على تبني هذا النوع من الأعمال بحجم مشروعه، ولعل الشيخ مبارك المليبي مازالت تجربته السابقة في قسنطينة حية في ذاكرته وعقله.

كانت خطة الشيخ مبارك المليبي لأجل إيجاد فكرته ترجمة في الواقع بداية هو توجيه دروسه ومواعظه ومسامراته لتوعية الناس لأهمية العلم في حياة الأمم والمجتمعات¹ وهو ما يتوجب تعليم الأبناء وقد كان يربط ذلك بشواهد من التاريخ والدين والواقع.

زيادة عن هذا فإن مبارك المليبي قد إجتهد في جمع الطبقة المثقفة من الأغواطيين لمشاركته دعوة توعية أهاليهم بشأن إقامة مدرسة عربية، وقد استفاد من مسيرته المبكرة في الأغواط لإنشاء جماعة من حوله تنهض معه بمختلف مشاريع الإصلاح، ذلك أن فكرة العمل الجماعي فكرة ليست غريبة عنه وهو تلميذ ابن باديس الذي كون فريقه على التنظيم والجماعة وكان يراها جوهر نجاح المشروعات، فمبارك المليبي قد أمن بها وعمل على تمثلها في الواقع وعن هذا يقول تلميذه أحمد قصيبة: ((... كان اجتماعيا يرى أن عمله لا يتم له معنى إلا مع عمل غيره ولا تحصل النتيجة العظمى للعاملين أمثاله بإنفرادهم إلا بضم الجهود وتوحيد المواجهة لكفاح الدائم))² وهو فعلا ما يسر له العديد من الإنجازات وعلى رأسها تحقيق إنشاء المدرسة التي كانت بعيدة كل البعد عن واقع المجتمع الأغواطيين.

تأسيس مدرسة الشيبية:

بعد جهود مضيئة في الدعوة إلى إقامة مدرسة عربية عصرية لتعليم الأبناء نجح الشيخ مبارك المليبي في إقناع ساكنة الأغواط بمشروعه هذا، وهبوا بما يستطيعون من إمكانات مادية ومعنوية لتحقيق بناء مدرسة لتعليم أبناءهم، وما جاءت الشهر الأول من السنة الجديدة لعام 1927م حتى صادقت الإدارة العسكرية على اللجنة الإدارية للمدرسة والتي تشكلت من الأسماء التالية:

رئيساً	دهينة بن الحاج عيسى
كاتب عام	الحسين بن الحاج عيسى
أمين مال	عطالله بوعامر
عضو مساعد	الطاهر بن الحاج الطاهر
عضو مساعد ⁴	أحمد بن عبد الرحمان

بينما خص الشيخ مبارك المليبي بإدارة الشؤون التربوية والبيداغوجية.

¹ - أنظر محمد الحسن فضلاء: : المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر القطر الجزائري، ج 2 المرجع السابق، ص 174.

² - أحمد قصيبة: المصدر السابق، ص 3.

³ - مبارك المليبي: مقدمة رسالة الشرك، مصدر سابق، ص 5.

⁴ - أحمد بوشمال: الاحتفال بافتتاح مكتب عربي بالأغواط، الشهاب، العدد 58، مج الثاني، السنة الثانية، 24 فيفري 1927، ص 855-858.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

وقد بادرت هذه اللجنة إلى تنظيم احتفل افتتاح المدرسة والذي تم في جو من الفرحه حضرته شخصيات إدارية وعلمية و الوجهاء الاجتماعيين من سكان الاغواط، وقد توالى الكلمات والتي كانت كلها تنوه بالمجهودات والإنجاز داعين إلى المزيد من تقديم يد العون للمدرسة وفي خطاب الشيخ مبارك بين غاية المشروع وفائدته في تمدن الأهالي¹.

نظر الشيخ مبارك المليلي للمدرسة فرصة لتطبيق نظريته في عصرنة التعليم العربي، فانكب مباشرة على تنزيل إصلاحاته وتمثلها في الميدان، فقسم المدرسة إلى ثلاثة أطوار راعي في هذا التقسيم مستويات التلاميذ، كما أعد لكل طور برنامجه ومواده مراعي القدرات العقلية لأعمارهم، إضافة إلى وضعه كتب مدرسية لمختلف المواد والأطوار وقد يكون استعان ببعض الكتب المدرسية لمدارس الدول العربية والتي كان يرى فيها أهداف رؤيته التعليمية. وقد حدد الحجم الساعي للدراسة خلال اليوم والذي عينه بخمس ساعات موزعة على فترتين الفترة الصباحية من الساعة الثامنة إلى الحادية عشر والفترة المسائية من الساعة الثانية إلى الرابعة مساء كما خصص وقت بعد هذا الدوام للطلبة المنتظمين بالمدرسة الفرنسية²، وهذا الحجم الساعي بدوره قسمه إلى حصص لكل حصة مادة موزعا تدريجيا حسب طبيعتها الاستيعابية حيث فضل مواد الفهم في وضع الساعات المبكرة من الدراسة وساعات الحفظ في آخر التوقيت.

زيادة عن هذا فإن إنجازاته الجديدة مست عصرنة أثاث المدرسة من خلال اتخاذ السبورة والطاولات

والكراسي عوض الحصير، والدفاتر والأقلام بدل الألواح الخشبية والصمغ.

أما من ناحية الممارسة التعليمية فقد اعتمد الشيخ مبارك أسلوبا بيداغوجيا حديثا استعمل فيه الاختصار

والإيضاح والحوار فكانت طريقته في عرض الدرس تأخذ شكل السؤال والجواب متدرجا في إنتاج المعارف من

البسيط إلى الصعب ومن الكل إلى الجزء، وهي الطريقة الحديثة لإنماء ملكة التفكير وبناء العقل ويظهر هذا جليا

في مقال له بالبصائر الذي نبه إلى تجنب المعلمين حشوا أدمغة تلاميذهم بالمعارف والمعلومات دون اختبار فهمهم

لها عن طريق السؤال: ((..إنه لا يحسن به أن يهين دروسه ويسمعه تلاميذه من غير أن يختبر أفهامهم بتكرار

سؤالهم ويستطلع اتجاههم بالإصغاء إلى أسئلتهم...)).³

ومن جهة أخرى سهر الشيخ مبارك المليلي على غرس الأخلاق والتربية والمعاملة المحترمة، فكان الشيخ

يعامل تلاميذه بلطف وتقدير كبيرين لم تعهد التربية التقليدية التي كانت تميل إلى القسوة والغلظة والفضاضة، ولعل

هذه التربية والتنشئة كان يراها ضرورية في أخلاق المسلم عامة والمربي خاصة الذي يعد قدوة، إضافة إلى محاولة محو

وتجاوز تصورات المعاملات الخاطئة سابقة الذكر الملتصقة بصورة المعلم التقليدي ويؤكد على المعلم أهمية الأخلاق

¹ - المصدر نفسه.

² - محمد الحسن فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر القطاع الجزائري، ج2 المرجع السابق، 174.

³ - مبارك المليلي: المعلم، البصائر، ع5، 125، أوت 1938، ص7.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

فيقول: ((وأي معلم لم ينتج تلاميذه غسل العرفان الذي فيه شفاء للناس فلا يرجع باللائمة ؛ على نحلة وليفتش على علة الخيبة في زهرة وإنما هو بين أمرين أهونهما أن طريقتة في التعليم عقيمة وأدهاها ما أنه مصاب في أدبه مؤثرز بالأوزار وهذا الثاني يجب إبعاده وذاك يتعين إرشاده.))¹.

كان يرى أن هذه المعاملة ضرورية لأثرها في تحبيب التلاميذ لمعلمهم ومدرستهم وهو ما شأنه أن يزيد في رغبتهم وتشجيعهم على التحصيل والنجاح، كما لا نضن أن تفوته أثرها هكذا معاملة في تعزيز الثقة في نفس الناشئة من التلاميذ وما تنتهي إليه هذه بدورها إلى بناء شخصية قوية فيه وهو ما يحتاجه المجتمع في أفراد.

وقد أدخل الشيخ على المدرسة نظام الامتحان كآلية لانتقال من مستوى لآخر وكشف مستوى التحصيل لدى طلاب المدرسة، وقد جرب أول امتحان لتلاميذ المدرسة بعد ثلاثة سنوات من انطلاقتها، تحت إشراف لجنة علمية حرة حتى يكون التقييم موضوعي، وقد حضرته شخصيات علمية من المنطقة وأولياء التلاميذ، كانت نتائجها مبهرة لما أظهره الطلاب من معارف ومستوى علمي ولغوي ما نال إعجاب وسرور اللجنة والحاضرين وفي هذا أوردت الشهاب ما يلي: أنشأت اللجنة... واستمرت في استجواب التلاميذ مدة مديدة... وفق التلاميذ في أجوبتهم، بل ومما أعجب به الجمهور الحاشد واللجنة، سرعة الإجابة وطلاقة اللسان.. وقد سر أولياء التلاميذ وعموم الحضور بهذه النتيجة التي أسفر عنها الامتحان ولهجت الألسن بالثناء على ما بذله القائمون بالمشروع من الجهود...))².

ومن جانب آخر كان نجاح المدرسة قد لوحظ منذ البداية مما عزز الثقة بينها وبين محيطها الاجتماعي فتزايد عدد المنتحقين بها من الذكور والإناث³ ولعل التحاق عنصر البنات بالمدرسة العربية يعد إنجاز باهر يسجل لمبارك الميلي في مسيرة مساهمته الإصلاحية والتطويرية للمدارس الإصلاحية، لأنه حتى هذه الفترة كان المجتمع الجزائري المسلم يعرف حضور محتشم وبشكل يؤول إلى الانعدام في التحاق البنات بالتعليم حتى في المناطق الحضرية فما بالك بمنطقة الأغواط المعروفة بطابعها البدوي ولعل هذا يعود إلى جهد الشيخ مبارك الميلي في ما أحدثه من تحول في ذهنية ساكنة الأغواط بفضل دعايته لصالح تعليم المرأة.

والجدير بالإشارة أن الشيخ مبارك الميلي قد واصل دروسه في المسجد العتيق بنفس الروح والمقاصد وقد شملت التفسير والفقهاء والعقيدة والحديث والأخلاق⁴ وكانت له مواضيع في محاربة الكسل وكل ما من شأنه فساد المجتمع، لقد كان يرى أن توسيع فكرة الإصلاح وتوطينها يحتم استغلال كل المنابر وتفعيلها اتجاه هذه الغاية ولم تفوته دعوة قيادات الإصلاح للأغواط فزاره فيها الشيخ ابن باديس والإبراهيمي وكان للشيخ إبراهيم بيوض وقفه

¹ - نفس المصدر والصفحة.

² - الشهاب، مج 6، السنة 6، نوفمبر 1930، ص ص 694-698.

³ - محمد الحسن فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر القطاع الجزائري، ج2: المرجع السابق، ص 174.

⁴ - عبد الرحمن الجيلالي: من وحي ذكرى مرور أربعة عقود سنوية على وفاة العلامة النابغة الشيخ مبارك الميلي، مجلة الثقافة، ع 80، ص ص 188-189.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

بها¹ وهو جاره في ميدان الإصلاح بالجنوب الميزابي، وقد كان لهؤلاء أثناء زيارتهم دروس ومحاضرات دعمت جهده الشيخ مبارك وزكت أفكاره.

وعرف عنه كذلك أنه أثناء فترة تواجده بالأغواط لم يكن منعزلاً فيها بل مد نشاطه إلى مختلف المناطق المجاورة فقصده بوسعادة التي درس بمساجدها ونفس الشيء فعله بالجلفة وأفلو² وقد كانت غايته في هذا الجهد والمسعى التبشير بالإصلاح ونشر العلم ووعي الناس بحقائق الدين الصحيحة.

هذه النجاحات التي أحرزها الشيخ مبارك الميلي زادت من غيظ المناوئين له والذين بادروه بعداوتهم له منذ الوهلة الأولى في عمله، لما شكلته نشاطاته وأفكاره الإصلاحية والتعليمية من تهديد لنفوذهم على الجماهير الذين كانوا يستغلون جهلهم وضعف وعيهم، فلم يدخروا أي جهد وحيلة لوضع مختلف المكار في طريق تنفيذ ثم نجاح مشروعه وهو ما أظهره الشيخ مبارك في تدخله أمام الحاضرين بمناسبة الامتحان سالف الذكر: ((..من واجبه أن لا يشاركهم في الإعجاب بهذه النتيجة، إذ يرى أن النتيجة تكون أعظم وأجل لولا الدعايات المغرضة التي يقوم بإذاعتها أعداء الصالح العام منذ تأسيس المدرسة.))³

تطورت المضايقات اتجاه مبارك الميلي بتدخل الإدارة التي أصبحت تعادي كل نشاط له، ولعل هذا الموقف منها لما لاحظته من تغيير في وعي وثقافة الناس على نحو لا يخدم السياسة الاستعمارية بالمنطقة، فراحت تضع له كل الإزعاجات بهدف تثبيطه ووصل الأمر في إلى تدبير محاولة اغتياله، وأمام هذا الوضع المرعب والمخيف ما كان من الشيخ مبارك الميلي إلا العزم على الرحيل ومغادرة الأغواط بعد حوالي سبعة سنوات (1927_1933م) من العمل والنشاط الإصلاح ترك خلالها أثارا وثمارا.

كانت السنوات التي قضاها الشيخ مبارك الميلي قد منحتها فرصة تنفيذ مشروعه وظهور كثير من نتائجها وهو ما لم تمنحه له قسنطينة رغم ما باشره فيها من نفس الإصلاحات، فكان لهذه السنوات أن ما جذرت الفكرة الإصلاحية في الأغواط ووطنها على نحو قلصت بشكل كبير جبهة الطرقية التي كانت حتى وقت مجيئة تنفرد بسكانها، وهو ما يلاحظ على تراجع الأفكار وممارسات الخرافة والبدع لصالح أفكار وممارسات العلم والوعي.

كما يعود له الفضل في ربط المنطقة بمشروع الإصلاح الوطني، فأبقى في ساكنة الاغواط أنصار للحركة الإصلاحية يمثلونها من خلال مزاولة نشاطاتها ويواصلون تحقيق طموحه في تطوير التعليم ففي سنة 1947م أسسوا مدرسة عربية جديدة سميت " مدرسة التربية والتعليم " ظهرت بستة حجرات وإدارة وساحة شاسعة وهو ما يعكس حتى بقاء أثره في عصرنة التعليم وقد أشرف عليها تلاميذته.⁴

¹ - محمد الحسن فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر القطاع الجزائري، ج2 المرجع السابق، ص174.

² - المرجع نفسه، ص174.

³ - الشهاب، مج6، السنة 6، نوفمبر 1930، المصدر السابق، ص ص 694-698.

⁴ - محمد الحسن فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر القطاع الجزائري، ج2، المرجع السابق، ص176.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

كما ترك ثلة من طلبته منهم من واصلوا تعليمهم عند ابن باديس وفي الزيتونة وأصبحوا قامات في الحركة الإصلاحية على المستوى المحلي والوطني وبذلك مثلوا امتداد له بمواصلة دربه، فقد كان لهم فضل أداء أدوار التعليم على نحو إصلاح كالشيخ أحمد قصبية* الذي أسس فوج الرجاء الكشفي بالأغواط و منهم من ساهم في تطوير التعليم والمدرسة العربية بتعديل مدرسة الشبيبة وتوسيعها إلى ستة حجرات وإدارة وساحة شاسعة ومرافق أخرى تابعة لها، وقد تم افتتاحها سنة 1947م بحضور الشيخ البشير الإبراهيمي وتولى الإشراف عليها وإدارتها تلاميذته أحمد الشطة** ثم عوضه ابوبكر الأغواطى*** وقد وفر هؤلاء المشرفين لها طاقم من المعلمين تمثل في:

الحسين بن الحاج محمد _ عطالله كزاوي _ الحسين ابن زاهية _ محمد فلاي _ الزهراء بن عية _ خديجة الصادق.¹ ويلاحظ أن المدرسة قد تبنت التجديد والتحديث في مختلف أدوارها وهو ما يتماشى مع التطور التي كانت تعرفه مدارس جمعية العلماء والتي كان للشيخ مبارك الميلي نصيب فيه. وما يضاف لجهوده في فترة مكوثه بمنطقة الأغواط ذلك الإنجاز التأليفي في تاريخ الجزائر الذي يعد عمل فكري مهم يحسب للجمعية العلماء في مقارعتها للسياسة الثقافية والتعليمية الفرنسية التي كانت تتبنى في كتابتها لتاريخ مستعمرتها الجزائر أو حتى من خلال المنهاج المدرسي لمادتي التاريخ والجغرافيا نكران الوطنية الجزائرية وتحطي فصول تاريخية للأمة الجزائرية تلك التي تتعلق بماضيها العربي والإسلامي، فجاء مؤلف الشيخ مبارك الميلي تاريخ الجزائر الذي ظهر في جزأين عملا مدرسيا بامتياز ذلك أنه سوف يخدم برنامج التعليمي لمدارس للجمعية العلماء وفق رؤيتها التربوية ويعتد في دروس مادة التاريخ ويصبح بذلك المرجع الأساسي الذي يؤسس للهوية الوطنية من خلفيتها التاريخية.

* - أحمد ابوزيد قصبية من مواليد 1919م أخذ تعليمه على يد مبارك الميلي ثم ابتعثه لزيتونة بعد عودته انتمى للحركة الإصلاحية وعين كاتباً عاماً لجمعية العلماء سنة 1946م كما كان له فضل تأسيسه فوج الرجاء الكشفي بالأغواط وله العديد من المقالات في جرائد جمعية العلماء ومنها البصائر.

** - أحمد بن التهامي الشطة ولد سنة 1908م بالأغواط أخذ تعليمه الأول على يد عبد الله بن الركزة ثم انتقل لدروس مبارك الميلي الذي ابتعثه للزيتونة سنة 1929م ومنها عاد إلى الأغواط أين درس بمسجد سيدي عبد القادر ثم إنشاء حلقة تعليمية سرية بعد منعه من التعليم، ثم عين مديراً لمدرسة التربية والتعليم بالأغواط فممثل لجمعية العلماء بالوحدات ما بين 1951-1958م، توفي تحت التعذيب سنة 1958م وجعل قبره.

*** - ابوبكر بن الحاج الأغواطى: ولد سنة 1912 بوادي سوف تعلم بالكتاب ثم المدرسة الفرنسية ثم التحق بدروس الشيخ مبارك الميلي الذي أرسله للزيتونة سنة 1929م بعودته اشتغل كمعلم بالجامع الأخضر ثم عاد إلى الأغواط لبيباشر الوعظ والإرشاد والإمامة بمسجد سيدي عبد القادر كما عمل كاتباً لجمعية العلماء ما بين 1946-1951م وعين مديراً لمدرسة الرشاد بالبلدية ومعلماً بمدرسة التربية والتعليم بالأغواط ومديراً، سجن ما بين 1958 إلى 1960م له تأليفات ومقالات عدة في البصائر.

¹ - المكان نفسه.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

تعليمه بميلة:

بعد مغادرته الأغواط سنة 1933م استقر بميلة التي وجدها تعيش حالة من الجمود والركود فباشر بها نشاطاته الإصلاحية التي ساعدته في نجاحها خبرة تجاربه السابقة وأيضا إقبال أهل ميلة على تنفيذ أفكاره ومشاريعه، كانت بدايته بدعوته لتأسيس مدرسة عربية عصرية في خطاب حث فيه على البذل والعطاء من أجل هكذا مشاريع وأضاف فيه أهمية تعليم البنات فكان خطابه محرك الضمائر وموقض للهمم فهبوا متبرعين جادين لإقامة بناء المدرسة.¹

سرعان ما ظهر بنیان المدرسة وتعود سرعة تنفيذها لمكانة الميلي عند سكان ميلة وقد اعتبروه ابنهم وأيضا ما كان يلاحظه ويسمع عنه المليون من توسع للمدارس العربية التابعة للعلماء فرغبوا أن يكون لهم مثل ما هو جاري في جوارهم من نشاط إصلاحى، غير أن ترخيص فتحها عطلته الإدارة لما ورد في تشكيلة رئاسة مكتبها الشيخ مبارك الميلي وقد دام هذا التعطيل قرابة ستة أشهر ولما أدرك الميلي أن اسمه هو السبب عدل الطلب باسم غيره فلم يمكث أن ردت الإدارة بالإيجاب بعد ثلاثة أيام فقط.²

وقد كانت هذه المدرسة مثل ما دعى لها مبارك الميلي ؛ تأخذ في برامجها ومنهج تسييرها النمط الحديث وقد ترأس إدارتها أحمد بوعروج بمعية ثلة من المعلمين وهم: الهادي بن الشيخ الميلي — أحمد بن الأزرع — إبراهيم مرزوق — السعيد بن المعلم — العرجي ذياب — علي مزهود.³

بينما استأثر الشيخ مبارك الميلي الإشراف التربوي حيث نظم المدرسة وفق نظريته الإصلاحية التي طبقها في تجاربه السابقة بقسنطينة والأغواط.

والحق أن ما لاحظته الشيخ مبارك الميلي من سرعة استجابة الميبيين لأفكاره زاد طموحه فتقدم بطلب بناء مسجد حر حتى تتاح له فرصة التدريس والوعظ والإرشاد به بسبب ما اتخذته الإدارة من منع استعمال المساجد الرسمية لغير موظفيها، فتقدم السيد الحاج محمد بن ناصف⁴ أحد محسني البلدة بدار فسيحة لإقامة المسجد بها وقد تكاثفت الجهود من أجل هذا القصد حتى ظهر المشروع وفيه تولى الشيخ دروس الوعظ والإرشاد بطريقته المميزة متناولا مواضيع التفسير والحديث والفقهاء والعقيدة حتى تحول مسجده لقبله كل سكان ميلة دون المساجد الأخر وهو ما أثار حسد الإمام الرسمي " بوفمة" الذي فرغ مسجده من المصلين فشكاه للإدارة بتهمة الدعاية للوهابية.⁵

¹ - محمد الحسن فضلاء: المسيرة الرائدة المرجع السابق، ج1، ص81.

² - حديث المتجول: البصائر، ع 8، 107، 8 أبريل 1938، ص6.

³ - المرجع نفسه، ص82.

⁴ - حديث المتجول: البصائر المصدر السابق، ع 8، 107، 8 أبريل 1938، ص6.

⁵ - أحمد صباري: المرجع السابق، ص 42.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

رغم ما لحقه أيضا من مضايقات في ميله إلا أنه واصل نشاطه وأسس نادي سمي "النادي الإسلامي" وترأسه رئيس بلدية ميله بعد إقناع السيد عمار بن عميرة له¹ ولعل هذه المبادرة الذكية كانت تهدف من قبل جماعة النادي حتى لا يتعرض نشاطه للمراقبة والتضييق، وهو النادي الإصلاحي الذي كان إنشائه في إطار سلسلة توسيع تأسيس الأندية من قبل جمعية العلماء كمؤسسات تثقيفية تستهدف الشباب الذي تجاوز سنه التمدرس ومن غير مرتدي المساجد ولعل هذا حتى تستوعب دعوتهم كل فئات المجتمع الجزائري المسلم.

وفي سنة 1934م أسس الميلبي وأنصار الإصلاح بميلة جمعية "حياة الشباب" وقد ترأسها السيد بن عميرة² وكان هدفها تربية الشباب في ميله على قيم الإسلام وثقافته ومحاربة مظاهر الفساد التي كانت تحيط بهم كالمخدرات والخمر ومختلف آفات الجريمة كالسرقة.

والحقيقة أن أهم إنجاز للميلبي بميلة زيادة على ما أنشأه من مؤسسات التعليم والتثقيف التي حولت ميله من مدينة صغيرة جامدة إلى مركز ثقافي هو ذلك التأليف الذي أصبح المرجع الأساسي في الفكر العقدي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وقد وسم عنوانه بـ "رسالة الشرك ومظاهره" الذي ظهر في بدايته على شكل مقالات منشورة على صفحات البصائر ثم تطور لكتاب مطبوع.

نخلص إلى أن التجربة التعليمية للشيخ مبارك الميلبي قد كانت تجربة بدأت بفكرة ومشروع طموح وتصور حديث لصالح التعليم الإصلاحي، غير أن هذا التصور كان غريب عن الواقع الجزائري من حيث استعداده وذلك لما كان يريزو به من معضلات ثقافية وفقير في الوعي وحاجات اقتصادية وتخلف اجتماعي، غير أنه لم يبأس ويتوقف عن طموحه في إيجاد هذا المشروع وتطبيقه في الواقع، فراح بعقوبة المصلح يجتهد لتغيير الواقع من خلال تغيير الذهنيات نحو الوعي بفكرته ثم يرمي بمشروعه لهم فيسهرون هم على النهوض به.

وقد كان لفكرته هذه أكلها في مدينة الأغواط التي بنى فيها مشروعه وممكنه حتى أصبح جزء من المشهد الثقافي والاجتماعي للمجتمع الأغواط الذي كان أبعد ما يكون على استقبال هذا المشروع، إذ بعد مغادرته الأغواط واصل تلاميذه وأنصار فكرته تشييد المدارس وتطويرها والتعليم في كل ما كان فضاء للتعلم.

وبعدها انتقل لميلة ليؤسس تعليمه ويفعل بالخطة التي جرت معه في الأغواط وبعدها ينتقل لقسنطينة ليتولى مهمته في معهد ابن باديس والذي دام به حتى وفاته.

لقد كانت تجربته إضافة هامة في الجهد التعليمي لجمعية العلماء سواء من حيث التأسيس أو التوسيع أو التطوير الذي مس به مختلف جوانب العملية التعليمية إدارة وطريقة وتنظيم وتجهيز وحتى مضمون وفكرة.

¹ - نفس المرجع ص ص 42-43.

² - نفس المرجع، ص 43.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

المطلب الخامس: التجربة التعليمية للشيخ العربي التبسي

أولا_نشأته وتكوينه

العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات التبسي ولد سنة 1895م، بضواحي منطقة أسطح جنوب غرب تبسة¹ من قبيلة النمامشة الشاوية، نشأ في أسرة فقيرة تمتهن الفلاحة²، لكنها كانت تتوفر على قسط من التعليم، هذا ما سمح لها على تشجيعه لطلب العلم منذ نعومة أظفاره وربته على حب مبادئ الدين وتعلم اللغة العربية وفي هذا يرد محمد علي دبوز: ((...كانت أم العربي وأبوه في شدة الغرام بالعلم...فغرسا حب العلم في ابنهما بوجودهما وحديثهما وعلمهما في طفولته الأولى فنشأ محبا للعلم كأبيه...³)). يبدو أن هذه التنشئة الأولى قد حددت العربي التبسي توجهه وميله في الحياة الذي سوف يكون فيها محبا للعلم ومجاهدا في تحصيله وطلبه.

بدأ تعليمه الأول في السابعة من عمره على يد والده فتعلم عنه القراءة والكتابة وياشر معه حفظ القرآن الكريم ومبادئ العقيدة، وبعد وفاة والده رعاه عمه عمار الذي تزوج أمه و واصل معه تحفيظه القرآن ثم انتقل إلى كتاب قريتهم التي دام بها أربع سنوات، تقدم فيها في حفظ القرآن حتى بلوغه الثانية عشر من عمره لينتقل إلى زاوية سيدي ناجي بالحنقة وفيها تعلم بعض العلوم الشرعية واللغوية على المنهاج الذي كانت تتبعه في تدريسها وأتم حفظ القرآن كاملا وأعادته ثلاثة مرات حفظا وكان قد وصل إذاك من العمر خمسة عشرة سنة.

إن حبه للعلم الذي نشأ عليه وذكاءه واستعداداته الأخرى، قد تكون وراء سعيه للتوسع في العلم الديني، فنجد الطالب العربي بعدما شعر بالكفاية في زاوية سيدي ناجي بدأ تفكيره في البحث عن مركز علمي يوفر له حاجته في المزيد من العلم فقصد زاوية نفطة بتونس، وقد يكون وراء توجهه هذا إلى هذه الزاوية نصيحة أحد مشائخه في زاوية الحنقة للعلاقة الروحية والعلمية بين الزاويتين أو لما كان يسمعه عنها من سمعة علمية ودينية بالمنطقة، خاصة أن هذه الزاوية كانت قريبة من موطنه تبسة و مقصد الكثير من طلاب العلم من الشرق الجزائري حتى تلك الفترة.

كانت زاوية نفطة التي وصلها الطالب العربي التبسي في الخامسة عشر من عمره تتوفر على مشائخ وعلماء صنعوا سمعتها العلمية والروحية كالشيخ إبراهيم بن الحداد والشيخ محمد بن أحمد والشيخ التابعي بن الوادي والشيخ ابن أحمد النفاوي، فأخذ عنهم القرآن والتفسيره وعلوم الفقه والتوحيد والعقيد⁴، بهذا قد كان من حظه فضل التلمذ على يدهم وأخذ العلم والأدب عليهم وما لهذا من أثر في تكوينه العلمي والروحي خاصة ما يذكره عن أثر الشيخ ابن أحمد النفاوي عليه علميا وأديبا.⁵

¹ - محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج1، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص45.

² - محمد الحسن فضلاء: من أعلام الإصلاح في الجزائر، دار هومة، ج1، الجزائر، ص19.

³ - محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص52.

⁴ - عبد السلام بوشارب: تبسة معالم ومآثر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والتوزيع، وحدة الطباعة الروبية، الجزائر، 1996، ص19.

⁵ - المكان نفسه.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

حتى هذه المرحلة من مسيرته التعليمية كون العربي التبسي قاعدة علمية صلبة في فترة تعلمه بزوايتي خنقة سيدي ناجي ونفطة، وبعدها شدته الرغبة في المزيد من التحصيل بالانتقال إلى جامع الزيتونة وهو الجامع الذي كان يشد كل متطلع للزيادة في العلم والثقافة من كثير شباب المجتمع الجزائري المسلم.

تميز العربي التبسي في رحاب الزيتونة بجديته وأخلاقه العالية في طلب العلم مما جعله مقربا من أساتذته وهذا ما أثر على تحصيله العلمي والفكري وفي هذا يرد محمد علي دبوز: ((... وكان أساتذته لإعجابهم بصلاحه وبره العظيم بهم، وبجده وتقدمه في العلم، ولسنه أيضا وما أورثه من النضوج، يحبونه حبا جما، ويرونه صديقهم فيقربونه، فيزرونه في بيته ويحضرونه في مجالسهم الخاصة، وكان مشائخه هؤلاء الشيخ عثمان بن المكي الأستاذ المصلح الإجتماعي، وكان العربي وزملاؤه النجباء شديدي الصلة به خارج الدرس)).¹

تعكس هذه التجربة الزيتونية التي دامت سبع سنوات، ما كان عليه العربي التبسي من مكانه في طلب العلم وما أحاطته من ظروف سانحة للتحصيل والتثقيف مدة سبع سنوات حتى تتويجه بشهادتها الثلاث الأهلية والتحصيل والتطويح.²

في سنة 1920م والتي كان فيها العربي التبسي في عمر خمس وعشرون سنة، انتقل إلى مصر ليستفيد من مراكز التعليم هناك التي شاعت بسبب ما عرفته مصر من تحسن في أوضاعها عقب الحرب العالمية الثانية: ((.. لقد أتت نفضتها الحديثة المباركة التي ابتدأت في عهد محمد علي الكبير، وأنعشها بعض حفدته أكلها كاملا في هذا العهد وبعده، وأثمرت مساعي أعلام الإصلاح في مصر الشيخ محمد عبده وعلي باشا مبارك وغيرهما، فكثرت مدارسها العربية المختلفة، ونشأت جامعاتها المباركة وازدهر الأزهر بفضل المصلحين له: الشيخ محمد عبده وتلاميذه من بعده فتخلص من كثير من جهوده فاختر الكتب النافعة للدراسة والطرق الناجعة في التدريس، وكثرة فيه المدرسون العلماء الماهرون المخلصون، فسطع نجمه وظهرت نتائجه العظيمة وأنجب طبقات العلماء الفحول والأدباء البلغاء فاتجهت إليه الأنظار من العالم الإسلامي، فتدفقت عليه البعثات العلمية من أنحاء فكثر طلابه...)).³

إن انتقال العربي التبسي إلى مصر والذي قصد فيها جامع الأزهر بعد استكمالها الدراسة بالزيتونة يعد استثناء إذ لم نعهد كثيرا على طلبة العلم من الجزائريين الجمع في الأخذ من الزيتونة والأزهر معا، مهما بلغت فيهم رغبة العلم ذروتها، فحمل مشاق رحلتين أمر عسير، ولعل التربية الأسرية التي عرفها العربي التبسي في حبه للعلم كان زادها مازال يبعث فيه كل هذه الطاقة والقوة لتجشم شقاء السفر والغربة والسهر للتعلم.

¹ - محمد علي دبوز: المرجع السابق، 66.

² - أحمد عيساوي: منارات من شهاب البصائر "1891-1957"، مطبعة الوليد، الجزائر، 2006، ص30.

³ - محمد علي دبوز: المرجع السابق، ص74.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

وفي الأزهر الذي زامنه العربي التبسي في مرحلة إزدهاره العلمي وتوسع الفكر الإصلاحية فيه، أخذ العلم على يد فطاحلة علماءه ومشائخه الذين كان أغلبهم ذوي نزعة إصلاحية، فتزود بالعلوم الشرعية و فلسفتها وكذا العلوم اللغوية و زاد في التعمق فيها بما سمحت به مطالعته لأمهات الكتب التي جادت بها مكاتب الأزهر الشريف¹.

لا شك أن بيئتي الزيتونة والأزهر قد كان لهما من عظيم الأثر في تكوين شخصية العربي تبسي الإصلاحية، ذلك أن هذين البيئتين كانتا قلاع العلم والفكر والإصلاح ومصدرا إشعاعهم في كل العالم الإسلامي. والحق أن الشيخ العربي التبسي رغم ظهوره المتأخر نسبيا في المشهد التعليمي والإصلاحية بالجزائر حيث كانت بدايته مع عودته للوطن سنة 1927م، إلا أنه استطاع افتكاك منزلة متقدمة ضمن الصف الأول مع رواد الإصلاح الجزائري جنبا إلى جنب مع الشيخ ابن باديس والإبراهيمي والعقبي والميلي.

ثانياً_ جهوده التعليمية.

كانت سنة 1927م هي السنة الأخير في مسيرة تكوينه التعليمي الطويل، التي عاد فيها الشيخ العربي التبسي من الأزهر إلى وطنه الجزائر، أين استقر به المقام في البداية ببلدته تبسة وفيها انتصب بمسجدها إماما ومدرسا² ليجود بما حصله من علم ومعرفة على أهله الذين كانوا في أمس الحاجة لهذه الخدمة، وإن سبقته فيها محاولة مبكرة للشيخ عباس بن حمارة سنة 1913م، غير أنها فشلت بعد بضعة أشهر لما عرفه صاحبها من تضيق ومحاصرة واغتيال من قبل الإدارة وأعاونها³، فبقي حال تبسة بما عرفه وضعها الديني والثقافي من تخلف جراء السياسات الاستعمارية.

وبالمسجد الذي باشر فيه نشاطه، نظم الشيخ جهده فوزعه بين تعليم الصغار نهارا وتعليم الكبير مساء بعد صلاة العشاء، أما بخصوص تعليمه للصغار وإن لم نعر عن معلومات بخصوص تجربته هذه، على ما يدلنا على مضمون موادها التعليمية وطريقته وإلى حد ما تنظيمه لها، إلا أن معرفتنا السابقة بمشواره التعليمي الذي مر فيه على الزيتونة والأزهر وهي المراكز التعليمية الأولى في العالم الإسلامي التي عرفت تطورا جراء الإصلاحات والتحديث الذي عرفته منظومتها التعليمية، وأيضاً ما كانت تعرفه تونس طيلة العقود السابقة من انبعاث للمدارس العصرية⁴ والتي وصلت نماذج منها إلى مناطقها القريبة من تبسة فلا بد أن يكون لهذا أثرها في تطبيقاته على محاولته التدريسية هذه.

¹ - المرجع نفسه، ص ص 75 و78.

² - محمد الطاهر فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، ج 1، القطع القسنطيني، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، ط 1، 1999، ص 77.

³ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي المرحع السابق، ج 3، ص 243 ومالك بن نبي: مذكرات شاهد للقرن المرحع السابق، ص 262.

⁴ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ج 3 نفس المرجع، ص 242.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

كما لا يمكن أن نغفل أثر تجارب التجديد التعليمية التي حفل بها المشهد التعليمي في الجزائر لرواد الإصلاح حتى هذه الفترة، والتي أصبحت سمعة بعض حلقاتها تتجاوز حتى حدود الجزائر، كذلك التي عرفتها حلقة الشيخ ابن باديس والإبراهيمي والطيب العقبي، وبذلك يكون الشيخ العربي التبسي قد منحه هذه التجارب جرأة ودفعة نحو انتصاب حلقاته التعليمية بالمثال الذي يتصوره كما تمليه عليه رؤيته الإصلاحية وتكوينه التعليمي.

زيادة على هذا؛ يذكر المؤرخ أبو القاسم سعد الله أن الوجه التعليمي الذي مارسه الشيخ العربي التبسي يعود إلى تأثيره بالتجربة المبكرة للشيخ عباس حمّانة والتي وجد فيها وجه المحاكاة لما تمثله لديه من مثال يتوافق مع أفكاره وطموحه، وهو ما لا نستبعد لقربها من واقعه في أثرها، على الرغم من قصر مدتها، لأن التجديد الذي بعثه الشيخ عباس حمّانة مثل ما جاء في هذا الوصف لأبي القاسم سعد الله: " وكانت للمدرسة مكتبة وصيدلية ومطبخ.

واعتمدت في تعليمها برنامجا حديثا يهتم بالتربية الإسلامية وبالقرآن والأخلاق، والتاريخ الإسلامي _ بما في ذلك تاريخ الجزائر _ والجغرافية، كما اشتمل على المواد الرياضية والرياضة البدنية واللغة الفرنسية. ونص البرنامج على أن تكون مدة الدراسة ثماني سنوات. وللتلميذ الواردين من بعيد قسم داخلي للإقامة... وللمدرسة قانون داخلي طبع بتونس، نص على أن هدفها هو إحياء اللغة العربية بتبسة وهكذا تبلور المشروع ثم انطلق يحقق أهدافه.¹ وإذا كانت هذه المبادرة بهذه الثورية من ناحية التجديد والعصرية لا بد أن تكون صدمتها ذات ارتدادات بعيدة الزمن ما من شأنها أن تصل الشيخ العربي التبسي وقت عزمه إقامة حلقاته التعليمية سنة 1927م.

وعموما مهما كانت محصلات تأثير الشيخ العربي التبسي إلا أننا نكاد نجزم على أن دروسه كانت تأخذ منحى التجديد والإصلاح من حيث المضمون والمواد المقررة والطريقة والهدف والتنظيم وحتى التجهيز وهو ما يتدعم فيما عرف عنه في دروسه المسائية للكبار.

أما تعليمه الكبار فقد خصص لهم وقت بعد صلاة العشاء وهي الفترة اللائقة للكبار لتوافقها مع أوقات تفرغهم من أشغالهم ووجباتهم النهارية، ويذكر عن الشيخ أن درسه تميز في طريقته ومضمونه، إذ كان يختار نصا من القرآن أو حديثا نبويا شريفا ويقوم بشرحه منزلا عبره ومعانيه على قضية اجتماعية معاشة في واقع تبسة خصوصا والجزائر عموما، يرمي إلى علاجها أو التنبيه لها.²

وكان يعتمد الأسلوب السهل والمستساق ولا يميل إلى الاستطراد والتشعب في الموضوع منتقلا بين الأفكار بطريقة تدريجية يحل بينها السؤال لتلد الأخرى وهو بذلك يكون بيني الحجة والبرهان في الأحكام للوصول إلى القناعة.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي المرجع السابق، ج3، ص142

² - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي المرجع السابق، ج7، ص13.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

هذه الطريقة بالإضافة لثقافته الدينية الواسعة استطاع بها جلب عدد كبير من ملتزمي درسه وقد ساعده في ذلك ما تركه الشيخ عباس حمّانة من تلاميذ أصبح منهم الشاب المقبل على الكهولة ومنهم الكهل وأيضاً حتى الشيخ يفهمون ما كان يجري في درسه ويدركون ميزته ومزيتته وبذلك تكون أفكاره وجهده هذا قد وجد من يذلل له صعاب وتحدي الغرابة التي كان يشكلها هذا النوع من الأفكار والطرح الديني في الوسط المجتمع الجزائري المسلم حتى هذه اللحظة ويذكره.

غير أن هذا النشاط الذي لم يصل عمره السنة الواحدة بدا أثره على المجتمع التبسي ما لم تتسامح معه الإدارة، فسارعت لنصب كل الإكراهات في طريقه¹ لتنتهي محاولته هذه بمثل ما آلت سابقها تجربة الشيخ عباس حمّانة، غير أن الشيخ ابن باديس الذي زكى هذه الحلقة واستحسنها لما رأى فيها من توافق لخطه وفائدة لمشروعه، قد تخوف من تبديد طاقة كالعربي التبسي في المشروع الإصلاحية إذا حصل تورطه في مشاق ومتاهات المحاكم، فتقدم بطلبه له الوفود إلى منطقة سيق بسيدي بلعباس للتعليم والإصلاح فيها² تلبية ووفاء منه في الاستجابة لطلبهم له إرسالهم إماماً ومعلم يتعهد أمر بلدتهم التعليمي والديني وقد يكون تماشياً مع خطته في تعزيز الإصلاح وتوطيد أركانه في مناطق الغرب الجزائري.

في سيق التي قدم إليها سنة 1929م، اجتهد العربي التبسي بمثل ما بدر منه في تبسة وسار على نفس الخطة أين نصب حلقة تعليمية للأطفال ودروس مسائية للكبار، وقد كان من خلالها يرمي إلى توطين الفكرة الإصلاحية بما الذي أصبح انخراطه في مشروعها معلناً و بمعايير قادة فريقها³.

اشتمل درسه لطلبته على المواد التعليمية المرتبطة بالعلوم الشرعية كالعقيدة والفقه والتفسير والحديث والتاريخ الإسلامي وعلوم اللغة كالنحو والصرف والبلاغة والإنشاء، وقد كان الشيخ يراعي في تنزيل معارفه التوفيق بين مستوى طلبته ومقارنته للرؤية التعليمية الإصلاحية.

إما دروسه المسجدية فقد مثل الشيخ بجهده فيها دوراً تجديدياً لم تعهده هذه المنطقة ولا وصلهم عن مثل هذا النوع من التعليم لا من ناحية مضمونه ولا طريقته حتى من مناطق المدن الكبرى المجاورة، ذلك أن دروسه كانت تمس اهتمامات الناس المرتبطة مع واقعهم، ما جعل سكان سيق يزيد توافدهم على درسه وتفاعلهم معه⁴، فكانت دروس العقيدة تهب بالشيخ إلى تصحيح مفاسدها كمظاهر ما كان يعتبره شرك من زيارة القباب والتوسل للأضرحة والنذر للأولياء وهو ما كانت طقوس شائعة واعتقادات متجذرة في سيق خاصة ومناطق غرب الجزائر عامة.

¹ - محمد الطاهر فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، ج1 المرجع السابق، ص77.

² - المكان نفسه.

³ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي المرجع السابق، ج7، ص13.

⁴ - محمد الطاهر فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، ج1 المرجع السابق، ص77.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

زيادة على توظيف دروس الفقه والتفسير لتصحيح العادات والمعاملات السيئة ومحاولة استبدالها بأخلاقيات الإسلام السمحة، وقد كان الشيخ بدروسه يرنوا إلى إفشاء معرفة دينية في وسط سكان سيق تتمثل في تطبيقاتهم اليومية خاصة ما تعلق بما يجري في حياتهم وعاداتهم الاجتماعية كالبيع والشراء والزواج والطلاق والعبادات كالصلاة والصوم والحج.. الخ، إضافة إلى تركيته وبعثه للعادات والأخلاق الكريمة التي وجد عليها أهل سيق كالجود والكرم والشجاعة والتزاور والتضامن وهي الموضوعات التي دأبت عليه الدروس الوعظية و الخطب الدينية لكل رجال الإصلاح وقد كان التبسي من أبرزهم.¹

ولم تخلو دروسه من التوعية السياسية إذ كان ينزل بعض تفاسير الآيات وشرح الأحاديث وكذا التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية لتوجيه متلقيه للظلم والتعدي على الحقوق المادية والمعنوية للاستعمار الفرنسي على المجتمع الجزائري المسلم.

وبعد رجوعه إلى تبسة من مدينة سيق تحت طلب أهلها الذين هالهم الفراغ الذي تركه بمغادرتها²، أعادى حلقاته التعليمية من جديد، وقد عرفت إعادة بناءها بسهولة كبيرة من جانب الشيخ لما مثلته التجربة السابقة من تمهيد هيب له الظروف وحتى المجتمع والطلبة، فكانت هذه الحلقة بحق تمثل امتدادا لإنجازات المرحلة السابقة وهو ما يعنى لدى الشيخ التفكير هذه المرة في الانتقال لمنجز التطوير والإثراء لخطته التعليمية.

ولعل أبرز إنجاز كان له في بداية هذه المرحلة هي بناء مدرسة التهذيب للبنات والبنين وهو الانجاز الذي دعى فيه المجتمع التبسي لإيجاد فضاء لائق لتنفيذ مشروعه التعليمي، ففرع أهل تبسة لتنفيذ طلبه وبالمقاييس التي كان قد اشترطها³.

والجددير بالذكر أن الفترة التي قضاها بين عودته حتى افتتاح المدرسة في تعليمه كان قد إستغل معملا لصناعة التبغ والشمة، تبرع به السيد الحاج محمد حواس وهو أحد المحسنين من أنصار الإصلاح بتبسة، عدل في بناءه لإنشاء مجموعة من القاعات للتدريس ريثما تنتهي المدرسة الجديدة من أشغالها.⁴

وما جاءت سنة 1934م حتى كانت المدرسة قد أقيم بناءها بستة قاعات⁵ على النمط الحديث وبمرافق عصرية تستطيع أن تكون فضاء ومجالا للنشاط التعليمي الذي يطمح في توطينه في تبسة وفي الآن نفسه وفق التصور الإصلاحي الذي نادى به جمعية العلماء في بناء عقارات مؤسستها المدرسية.

كان الشيخ العربي التبسي يمثل فيها الإدارة التي تسهر على التسيير وتغطية حاجيات المدرسة التربوية والمادية والاجتماعية وكذلك المعلم الذي يعمل على تعليم الطلبة، وقد نظم المدرسة كمدير منذ الوهلة الأولى وفق

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي المرجع السابق، ج7، صص 13-14.

² - محمد الطاهر فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، ج1، المرجع السابق، ص77.

³ - المرجع نفسه، ص77.

⁴ - محمد الطاهر فضلاء: المرجع السابق، ص78.

⁵ - المكان نفسه.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

القوانين الحديثة التي تعتمدها جمعية العلماء في مدارسها، من توفير التجهيزات العصرية واعتماد الطاولات والكراسي والسيورة والأقلام وكذا الدفاتر، إضافة إلى ضبط توقيت الدخول والخروج وتحديد الاستعمال الزمني للمواد وتحديد الدروس لكل مادة ومستوى إضافة إلى تحديده للعطل في أوقات معلومة وثابتة كان أغلبها يتوافق مع المناسبات الدينية.

زيادة على جرده الطلبة وتفويجهم إلى مستويات ورصد التأخرات والغيابات ومتابعة ذلك بعقوبات تأديبية، وإدخال التقويم في التحصيل التعليمي للطلبة باعتماد نظام الامتحانات التي كانت معيار الانتقال وتقييم الطلبة.

وقد جلب للمدرسة معلمين أكفاء ذوي نزعة إصلاحية تكون جلهم بالجامع الأخضر أو الزيتونة، يتوافق تكوينهم مع أهداف مشروعه التعليمي الذي وضعه للمدرسة، وكان أهمهم الشيخ محمد الشبوكي وعبد الحفيظ بدري وحامد رواجية والحفصي جدري والعيد مطروح ومعر علية والطيب كواسمية ومحمد سحيري.¹ وقد وزع الشيخ العربي التبسي على هذا الطاقم الكبير من الأساتذة المواد المقرر في المدرسة _ ولا نستبعد أن يكون قد راع ميل وقدرات كل واحد في ذلك _ التي كانت تماثل إلى حد كبير ما كان شائعاً في مدارس جمعية العلماء وقد عرفت المواد التالية:

_ المواد الدينية: حفظ القرآن _ التفسير _ الفقه والحديث النبوي الشريف _ العقيدة _ التاريخ الإسلامي.
_ مواد اللغة والأدب العربي: النحو والصرف _ البلاغة _ الإنشاء.

كما أدخل مادة الحساب وتاريخ الجزائر والجغرافيا، بينما استأثر هو بتدريس مادة الأدب العربي² ولعل هذا الاختيار كان لما يراه من قيمة لهذه المادة في تكوين الطلبة وهو فعلاً ما نراه في مكانتها وأهميتها في مقررات تجارب قادة الإصلاح وعلى رأسها حلقة الشيخ ابن باديس وفيما بعد مقررات الجمعية التي يظهر في حجمها الساعي وتفرع وتعدد مواده.³

وجدير بالإشارة أن الشيخ العربي التبسي لم يفارق نشاطه في المسجد بل بقي ملتزماً به وفيه كان يؤدي دروسه المسائية في العقيدة والفقه والتفسير والحديث بمثل ما عرف عنه في تجربته الأولى.

والحق أن هذا الجهد المميز الذي كان يسديه الشيخ العربي التبسي بالمدرسة والمسجد قد جعل تبسة مقصداً للراغبين في طلب العلم من أبناء مختلف المناطق خاصة القريبة منها، بغية الأخذ عنه حتى حول مدرسته إلى مركز تعليمي يحتل الاهتمام الثاني بعد حلقة ابن باديس في الشرق الجزائري، ولعل هذا يعود لما عرف عن الشيخ من سعة علمه في عديد من ألوان العلوم الشرعية واللغوية وتبحره فيها ونجاحه في أداء رسالتها التعليمية

¹ - محمد الطاهر فضلاء: المرجع نفسه، ص78.

² - محمد الطاهر فضلاء: المرجع نفسه، ص78.

³ - أنظر مبحثنا مقررات مدارس الجمعية ص 152_159.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

وجديته وإخلاصه فيها، وأيضاً لسمعة المدرسة التعليمية مما زاد عدد الوافدين عليها حتى بعد سنوات قليلة اضطرت إدارتها لإضافة قاعتين دراسيتين.¹

لم تقتصر إصلاحاته عند هذا الحد بل تجاوزها إلى محاولة توسيع تعليمه ليشمل عنصر المرأة، إدراكاً منه أهمية تعليم المرأة وتوعيتها وهي النظرة التي اشترك فيها جميع قادة الفريق الإصلاحي وكانت من صلب اهتمام رؤيتهم الإصلاحية، والشيخ العربي التبسي ولما كان يعرفه من موقف المجتمع المتحفظ على تعليم المرأة وخروجها من البيت إلى فضاءات كانت إلى حد ذلك الوقت حصراً على الذكور، فإنه بادر في دعوته لتعليم البنات إلى إرسال ابنته²، كان هذا الفعل مثال عملي في تحفيزهم وتجاوز الأفكار الاجتماعية المتكلسة في عقل المجتمع الجزائري المسلم عن المرأة، وقد كان لهذه الدعوة والمبادرة أن ساهمت في إلحاق أعداد معتبرة من البنات إلى مدرسته، وبذلك يكون تعليمه قد مس به فئة مهمة في المجتمع تعد خلفيته القاعدية لتربية النشء.

هذا المركز العلمي الذي أسسه الشيخ العربي التبسي افتك حتى اعتراف إدارة الجمعية فبعد وفاة الشيخ ابن باديس بادر الشيخ البشير الإبراهيمي بإجراء نقل طلبة الجامع الأخضر إلى الشيخ العربي التبسي، تعكس هذه الخطوة المكانة التي كانت عليها جهود الشيخ في التعليم الإصلاحي لجمعية العلماء والثقة التي كان عليها لدى إدارة الجمعية في تحميلة مسؤولية بحجم خلافة ابن باديس فيما يتعلق بدور التعليم وهي المهمة الصعبة في تعويض مؤسس وباني فلسفة هذا النوع من التعليم الذي شاع في كل أصقاع الوطن وأصبح يشكل جبهة منافسة للتعليم الفرنسي الرسمي بكل ثقله، إضافة إلى مستوى الطلبة الذي كان يمثل أعلى مستوى في تعليم جمعية العلماء.

وفي هذا المقام الجديد الذي أنيط للشيخ ومن أجل أداء مهمته على أجلي صورة لها حاول الشيخ محاكاة تجربة ابن باديس، فسهر على المحافظة على مقررات دروس الجامع الأخضر إضافة إلى تطلعه للحفاظ على منهجية الشيخ ابن باديس وقد وفق إلى حد كبير في ذلك مما لاقى رضى طلبته الوافدين عليه من قسنطينة والذين كان منهم من تقدمت به سنوات الدراسة عنده فتشبع بالعلم والمعرفة.

والحق أننا لا يمكن أن نفسر رضى هؤلاء الطلبة وتزايد عدد الوافدين بعد سنوات إلا بالمستوى الذي كانت عليه حلقات الدروس التي كان ينظمها الشيخ التبسي بشكل غطى الفراغ الذي تركه الشيخ ابن باديس في هذا الميدان، وهو ما يحسب للعربي التبسي بأنه استطاع أن يحافظ على حياة مشروع التعليم الذي أسسه ابن باديس خاصة في مستوى حلقاته العليا التي كان يمثلها الجامع الأخضر.

وبهذا؛ خلال السبع سنوات للفترة الممتدة من 1940 إلى 1947م عرفت حلقة الشيخ التبسي استقطاب طلبة المدارس ابتدائيات ومتوسطات جمعية العلماء من مختلف المناطق، لاعتبارها مرحلة تعليمية عليا في تنظيم تعليم جمعية العلماء بنفس المرتبة التي كانت عليها حلقة الشيخ ابن باديس كما أسلفنا الإشارة، ويذكر محمد

¹ - محمد الطاهر فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، ج 1 المرجع السابق، ص 78.

² - المرجع نفسه، ص 77.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

الأمين بشيشي أحد طلبته الموفدون من أحد ابتدئيات جمعية العلماء بسدراتة، أن الشيخ نظم حلقة الدراسية للمهام التي ألقى لها، فقام بتقسيم طلبته إلى مستويات بعد فحص مستوياتهم المعرفية وقد تولى مع ثلة من مشائخ الإصلاح مسؤولية التعليم كالشيخ السعيد الزموشي الذي تكفل بتدريس الفقه والحديث النبوي الشريف وعلم التجويد.

أما الشيخ العيد مطروح فتولى تحفيظ القرآن ومراجعة الدروس التي سبق تناولها بينما أسندت له تدريس الأدب والتاريخ ووصول الفقه وقد عين الشيخ معمر كقيم يشرف على نظام ومتابعة الطلبة بمهمة مراقب عام¹. بعد تأسيس معهد ابن باديس بقسنطينة وافتتاحه سنة 1947م منحت إدارته للشيخ العربي التبسي الذي انتقل مع طلبته إلى قسنطينة ولعل هذا الاختيار الذي خص به من قبل إدارة الجمعية يعكس مكانته العلمية وهو ما يتأكد في قول الشيخ البشير الإبراهيمي: ((...نحن قوم نقرأ لكل شيء حسابه، ولا نقدم لجلائل الأعمال إلا الأكفاء من الرجال، وقد كنت مدخرا لإدارة المعهد كفاها الممتاز وجديها المحنك الأخ الأستاذ العربي التبسي...))².

ولقد كانت له في تجربة الإدارة بهذا المعهد الجديد مهام ثقيلة تمثلت في التأسيس لتقاليد تعليمية وتسييرية تحقق طموح الجمعية في إدارته خاصة لما تميز به المعهد عن مؤسسات التعليم الأخرى للجمعية فقد كانت ينفرد باستقلالية عن لجنة التعليم العليا ما يعني الدور الخطير للمدير في الإشراف والتقويم الإداري والبيداغوجي له. كانت صلاحيات ومهام المدير ثقيلة فقد تعين عليه تولى مسؤولية النظام العام عليه وهو ما يتطلب جهودا عضلية وعقلية ونفسية كبيرة، كما عليه الاتصال بلجنة التعليم العليا للجمعية المحلية للمعهد لتنسيق العمل بينهما فيما يتقاطعان فيه.

زيادة على إشرافه على قبول الطلبة بعد اختبارهم وتسجيلهم وكذا متابعتهم أثناء الدراسة بالعقوبة تطبيقا لنظام العام وتوزيع الأساتذة على الأقسام ومواد التدريس ويشرف على تطبيق المناهج وطرق التدريس مع الأساتذة.

وقد بلاء الشيخ العربي التبسي البلاء الحسن في ذلك حيث نظم إدارته وهيكلها على نحو عصري يكفل للمعهد القيام بمهمته التعليمية والتربوية، فأنشأ مجلس للإدارة يتشكل من ثلاثة هيئات وهي الهيئة العلمية وتتكون من أساتذة المعهد تسهر على وضع البرامج واختيار الكتب والامتحانات لكل سنة، وهيئة المراقبة والضبط تتكون من رئيس وثلاثة أعضاء³ تسهر على تسجيل التلاميذ ومراقبة انضباطهم داخل وخارج المعهد وتطبيق اللوائح

¹ - محمد الأمين بشيشي: ذكريات مع العلامة الشهيد العربي التبسي - طيب الله ثراه - وشذرات عما عرفته من مسيرته، أشغال الملتقى الوطني للفكر الإصلاحي في الجزائر، الجمعية الثقافية العربية التبسي ولاية تبسة، أبريل 2003، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2003، ص 18-20.

² - محمد البشير الإبراهيمي: أثار البشير الإبراهيمي، ج2 المرجع السابق، ص217.

³ - البصائر: العدد 28، 26 سبتمبر 1947، ص6.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

المنظمة للمعهد¹ كما تتابع نظافة وصحة التلاميذ ومشاكلهم الأخرى من شجار وخلاف بينهم وهيئة المالية مهامها جمع المال وضبط نفقاته على مختلف مصالح المعهد وقد كانت أغلب موارد المعهد من تبرعات المحسنين من الشعب وقد استحدث ذلك صندوق للطلبة² سمي بصندوق التعليم وأنشأ له حساب يريدي لتسهيل وصول التبرعات إليه من الراغبين على مختلف بعد مناطقهم³، كما أطر إدارة المعهد فعين الشيخ خير الدين نائبا له للمعهد ومولود النجار مراقبا عاما وأحمد رضا حوحو كاتباً.⁴

إضافة إلى هذا الجانب التنظيمي على مستوى الإدارة كان الشيخ العربي التبسي يسهر بنفسه على متابعة كل مرافق المعهد بالتجوال على قاعاته ومصالحه وفضائه مراقبا السير الحسن فيه، كالتأخرات وسير الدروس ومراقبة الطلبة في أكلهم وسير مراجعتهم ونومهم واستيقاظهم في إقامتهم بالمعهد.

إذا قضى الشيخ العربي التبسي عامين على رأس المعهد استطاع التأسيس فيها لتقاليدته التعليمية التي سوف يسير عليها حتى سنة إغلاقه وتعطيله من قبل الإدارة الاستعمارية 1957م، وقد أشاد رئيس الجمعية الشيخ البشير الإبراهيمي بجهوده هذه فقال عنها: ((...الأستاذ التبسي كما شهد الاختبار وصدقت التجربة، مدير بارع ومرب كامل خرجته الكليتان الزيتونة والأزهر في العلم، وخرجه القرآن والسيرة النبوية في التدين الصحيح والأخلاق المتينة...)).⁵

زيادة على جهده الإداري بالمعهد الذي ملء وقته إلا أنه كان يساهم بالتدريس كلما أتاح الوقت لذلك فضلا عن أنه كان يحضر دروس أساتذة المعهد موجهها لهم معرفيا وبيداغوجيا.

هكذا حتى أخذ المرض منه فانتقل إلى العاصمة أين سوف يباشر مهام أخرى على صعيد إدارة جمعية العلماء وبعد اندلاع الثور ولموقفه المدعم لها تم اختطافه من منزله ونقله لوجهة مجهولة في 4 أبريل 1957م أين تم اغتياله ليعلم بعد أيام عن استشهاده من قبل أهله.

كان هذا الجهد الكبير والطويل في مدته له عميق الأثر في التعليم الإصلاحية وتطويرا وتدعيما، فكانت مخرجاته من طلبته طيبة أين تخرج على يده ثلة من الإصلاحيين الذين غطوا فراغا كبيرا في ساحة الإصلاح والتعليم في الجزائر فترة الاحتلال أو بعدها بثقافة وتكوين عربي إسلامي.

وبالمجمل استطاعت جمعية العلماء أن تؤسس إلى تعليم على رؤية واضحة الأهداف يخدم أفكار مشروعها الإصلاحية الذي كانت تريد تمثله في المجتمع الجزائري، والذي كانت خلفيته مقومات هذا المجتمع الدين والعروبة والوطنية، ومن أجل نجاحه في مهمته هذا كانت ترى فيه وجوب تمتعه بالقوة والصلابة للوقوف في وجه التحديات

¹ - رايح تركي: التعليم القومي، المرجع السابق، 291.

² - محمد خير الدين: مذكرات خير الدين، ج1، مصدر سابق، ص208.

³ - محمد خير الدين: المصدر نفسه، ص208.

⁴ - محمد حسن فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر القطاع القسنطيني، ج1، المرجع السابق، ص56.

⁵ - محمد البشير الإبراهيمي: آثار البشير الإبراهيمي، ج2، المرجع السابق، ص217.

الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند الجمعية

وأيضاً حتى يتحمل حمل مشروعها الكبير والعميق في مهمة التغيير المنوطة به، فسعت إلى تحديثه من خلال إعطاء معنى المجال والفضاء والإطار البشري الذي تتم فيه العملية التعليمية فخرجت بالمدرسة والمسجد من معنى العقار والمبني المادي إلى المعنى الحضاري بداية من تصميمه وهندسته التي كانت تبعث فيها البعد التاريخي للحضارة العربية الإسلامية إلى استغلال الفضاء في توظيفه كمجال حركي وتعليمي للتلاميذ، وكان للمعلم لأهميته كمصدر للعملية التعليمية والموجه الأساسي للتربية قسطاً وافراً في تنمية وتوسيع وظيفته بالخروج به من الوظيفة التقليدية إلى وظيفة فعالة وإيجابية متعددة ومتنوع الأدوار.

كما كانت للتجارب التعليمية التي أسسها قادة الإصلاح دورها في تأسيس التعليم العربي الحر الذي تبنته جمعية العلماء والذي سوف يصبح التعليم الأول في المشهد الثقافي والاجتماعي في الجزائر متجاوزاً للنوعي التعليمين السابقين التعليم العربي التقليدي والتعليم الرسمي الفرنسي، وهذا يعود لما توفرت عليه هذه التجارب من تجديد راهنت به العصر وقوت به التعليم حتى أصبح قادر على تحمل مشروع الحياة، فلبى حاجات المجتمع إلى حد بعيد.

الفصل الرابع

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

تدفعنا إشكالية بحثنا للتطرق في هذا الفصل إلى نظام العملية التعليمية لدى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهذا بالوقوف على ما استحدثه العلماء في جانب التعليم العربي الحر من تحسينات وتغييرات مختلفة جعلت منه تعليما متميزا عن التعليم العربي الحر للفترة السابقة له، ولأجل هذا سوف نحاول الوقوف على مضمون ومحتوى مادته الدراسية وإمكانياته وهياكله.

فضلا عن أن الدراسة تحتم علينا التعرض إلى مؤسسات التعليم التي اعتمدها الجمعية وما هو التطور الذي أحدثته فيها، كل هذا للوقوف على الأثر الذي ساهمت فيه هذا التحديث للتعليم من قبل الجمعية في تطور التعليم العربي الحر وإنتاج تعليما فعالا يسهم إلى حد ما في تحقيق الأهداف التي كانت الجمعية تتوخاها منه وتعول فيها عليه.

المبحث الأول: المقررات والبرامج:

كان تعليم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يختلف في إستراتيجيته ومناهجه ووسائله ومضمونه عن التعليم الفرنسي الاستعماري، كما أيضا اختلف عن التعليم العربي الحر التقليدي السابق له خاصة الذي كانت تحت إشراف الزوايا والكتاتيب والمساجد، فتعليم الجمعية يعد مثلا مغايرا عبر عن حالة جديدة تبحث عن استجابة لحاجات أنتجتها الظرفية الاستعمارية على المجتمع الأهلي المسلم.

يظهر هذا الاختلاف في سعي الجمعية على تطوير العملية التعليمية التي تكفلت بها، بخلق تعليما أكثر تنظيما من ناحية البرامج والأساليب وإدخال الكتاب المدرسي، واستحداث مهمة التفيتش والتسيير الإداري حتى يتسنى لها مراجعة النقائص التربوية والمادية والإدارية، لضمان حالة التطور والتوسع والسير الحسن له، وبذلك البلوغ به أقصى الأهداف والغايات المتوخاة من إقامتها لهذا التعليم، كما أيضا حاولت جاهدة إلى إخضاعه لنظام عام موحد بكل مدارسها ومعاهدها، حتى يتسنى لها إعطاءه البعد الوطني، وتحقيق وحدة المرجعية الفكرية والذهنية للمجتمع الجزائري المسلم.

فضلا أن ما نعهده تميزا حقيقيا في المشروع التعليمي لجمعية العلماء هو ما تنبعت له وتبنته من مقررات وبرامج لمؤسساتها التعليمية وعبر كل المراحل الدراسية، وبذلك خرجت بالتعليم العربي من العشوائية والتذبذب الذي عاشه التعليم العربي الحر ردحا من الزمن، للتأسس لتعليم مخطط ومرسوم الأهداف والمرامي وهو ما يخدم أفكار مشروع نهضتها الذي كانت تعول على التعليم فيه.

أولاً - المقررات والبرامج في التعليم المسجدي.

اعتمد التعليم المسجدي للجمعية على الكتب المقتبسة من التراث العربي والإسلامي، وجاء في إحدى نشریات جريدة البصائر هذه المواد التعليمية التي كانت تدرس بالجامع الأخضر في سنة 1936م:

1_ التفسير والحديث والفقہ.

2_ الفرائض والعقائد والأدب والمواعظ والتجويد

3_ الأصول _ المنطق _ النحو _ الصرف _ البلاغة.

4_ محفوظات ومطالعات ودراسة إنشائية والحساب والجغرافيا والتاريخ¹.

نلاحظ أن هذه المقررات تعكس التطور في المستوى التعليمي وحتى النوعي للمادة المدرسة والتوسع في المقررات وهذا ما لم يكن يشهده تعليم المساجد حتى مع معلمين كبار عرفتهم مساجد الوطن من قبل. وإن كانت هذه المواد الواردة تعني الجامع الأخضر والتي كان يعتمد عليها الشيخ ابن باديس في دروسه ولا تعكس تماما ما كان يجري مع المساجد الأخرى إلا أن مسعى التنظيم والتوحيد الذي كانت تناشده الجمعية وكذا طموح معلمي المساجد بالاقتداء بالشيخ والأخذ بمثاله يجعلنا نجزم أن هذه المقررات كانت تكاد تكون المواد المعمول بها في أغلب المساجد التابعة للجمعية خاصة بعد وضوح المشروع التعليمي لجمعية العلماء.

ونشير أن الجمعية وسعياً منها لتحقيق هدف تطوير تعليمها كانت دائماً تعرض مقرراتها وكتبها للتعديل، فالشيخ ابن باديس كان يجتهد كل سنة دراسية جديدة يقوم فيها بتعديل المواد الدراسية. فضلاً عن أن التعليم المسجدي كان يشمل أربع مستويات للمتعلمين، تبتدئ بالسنة الأولى وتنتهي بالسنة الرابعة وهي السنة الأخيرة بالتعليم المسجدي للجامع الأخضر وكانت لكل مستوى مقرراته من الكتب كما وردة في مقال الشيخ ابن باديس بصحيفة البصائر تحت عنوان "بيان عن الحركة العلمية بالجامع الأخضر"².

ثانياً- المقررات والبرامج في التعليم المدرسي:

عنت الجمعية ببرامج ومقررات التعليم المدرسي وعملت على تحسينها وتقويمها دورياً تماشياً مع ما يخدم رؤيتها وفلسفتها التعليمية، كما صبت كل اهتماماتها وجهدها في تطوير المدرسة وتنظيم تعليمها وضبطه لاعتبارها الفضاء الأوسع والمحوري لباقي الفضاءات التعليمية الأخرى.

¹ - عبد الحميد بن باديس: الحركة العلمية في الجامع الأخضر وثقافتها، البصائر، عدد 47، السنة الأولى 1936، ص5.

² - المكان نفسه.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

والجدير بالإشارة أن التعليم الابتدائي كان التعليم الأوسع ومرحلة طويلة من عمر نشاط الجمعية في هذا المجال، وإن ألقته بالمرحلة المتوسطة فإنها كانت قليلة ولم يظهر فيها التعليم الثانوي إلا في أواخر الأربعينيات من القرن 20م مع تأسيسها لمعهد ابن باديس، هذا على أن الجمعية كانت تطمح من عهد الشيخ ابن باديس في تأسيس معهد عالي يعادل في مكانته ومستواه جامع الزيتونة والأزهر والقرويين ليكون للجزائر ما للمجتمعات العربية الإسلامية الأخرى من منابر للعلم والثقافة، وإن عجزت على تنفيذ هذا الطموح لقلّة الإمكانيات وتحديات أخرى متعلقة بظرفية المجتمع الجزائري المسلم، إلا أنها ربطت مدارسها بجامع الزيتونة وفيما بعد بجامعات العالم العربي الإسلامي لتحقيق طموح أبناءها في التعليم والثقافة.

كانت المرحلة الابتدائية في مدارس جمعية العلماء، تقضي ستة (6) سنوات مقسمة إلى ثلاثة أقسام كل قسم تدوم مدة التمدرس فيه سنتين وهي: القسم التحضيري ثم القسم الابتدائي، وفي الأخير القسم المتوسط¹. ولكل قسم له جداول استعمال زمني لمقررات المواد الخاص به مع كتب محددة والتي كانت كالتالي:

1_ القسم التحضيري:

يعد القسم التحضيري أول قسم يستقبل تلاميذ المرحلة الابتدائية، وقد جاءت تسميته من دوره في تحضير التلاميذ للمراحل التالية له، تكون الدراسة فيه على مدار الأسبوع لمدة ثلاثين ساعة، كون الحصّة الواحدة تستغرق ثلاثون دقيقة، والجدول التالي: يوضح المواد التعليمية والكتب المدرسية وعدد الساعات المخصصة في برنامج القسم التحضيري في طور التعليم الابتدائي²:

عدد الساعات	الكتب المقررة	المواد المقررة
2	كتاب سمير الأطفال للهوراي	التعليم الديني والخلقي
7.5	الجزء الأول من القرآن الكريم	قراءة
2.5	الجزآن الأول والثاني من كتاب (مبادئ القراءة الرشيّدة أو القراءة المصوّرة)	لغة (محادثة)
5	الجزء الأول من الإنشاء العربي	الخط العربي
0.5	المحفوظات المدرسية للهوراي	محفوظات وأناشيد

¹ - رابع تركي: التعليم القومي المرجع السابق، ص276.

² - أنظر البصائر: الكتب المقررة في مدارس جمعية العلماء، البصائر، العدد 59، 6 ديسمبر 1948، ص7. ورابع تركي، المرجع السابق، ص271-272.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

5	الجزء الأول من كتاب (الحساب العربي)	حساب
1.1	مكتبة كامل كيلاني للأطفال أو ما يقابلها من المؤلفات الموجودة	رسم (تصوير)
1		أشغال يدوية
5 المجموع 30 سا		تمارين رياضية واستراحة

من معطيات الجدول يمكن أن نستخلص الملاحظات التالية:

1_ توسع وتنوع المواد الدراسية وهي مواد تعني ببناء القدرات العقلية القاعدية لمثل هذا العمر والمستوى التعليمي.

2_ حظيت حصة القراءة بحجم زمني قدره 5،7 سا، وهو ما يعكس هدف الجمعية من تمكين الأبناء من النطق السليم بلغة عربية فصيحة وتوسيع استعمالها في الوسط الأهلي تعويضا للعامية خدمة لهدف بعيد وعميق وهو إحياء اللغة واللسان العربي وتجنيد الهوية العربية في الأبناء.

3_ في حين قدر الحجم الزمني لمادتي الخط العربي والحساب ب 5 سا لكل واحدة منهما، فالأول تمكن التلميذ من امتلاك مهارة الكتابة والتدوين وأهميتهما في القراءة والكتابة.

والثانية (الحساب) لما تلعبه من دور في تنمية القدرات العقلية وملكات الذكاء والإدراك والفهم، وهو ما يؤهل إلى تحرير العقل من كل قيد وأيضا ما يحتاجه التلميذ في هذا العمر من عد للأشياء في تعبيراته اليومية.

4_ إقرار كتب محددة للمواد الدراسية يعكس إدراك الجمعية لأهمية الكتاب واعتماده كوثيقة بيداغوجية تعمل على تسهيل التحصيل والاستيعاب.

فضلا عن تسهيل مهمة المعلم في وصوله لنتائج مرضية خاصة أن هذه الكتب راعت مستوى المرحلة التعليمية وكذا خدمة السياسات العامة التعليمية والتربوية للجمعية*.

2_ القسم الابتدائي:

ويتكون هذا القسم بدوره من سنتين، ويتضمن نفس المواد السابقة للقسم التحضيري مع بعض التوسع والتعمق فضلا عن استحداث كتب مدرسية تخدم أهداف هذا المستوى.

* عن أهمية الكتاب المدرسي لدى جمعية العلماء أنظر مبحثنا الرؤية التربوية لـ ج م ج ص ص 98.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

والجدول التالي يعرض لنا مقررات هذا المستوى¹:

المواد التعليمية	الكتب المقررة
1_ التعليم الديني والأخلاقي	_ كتاب "الإسلام ديني" و "كتاب الفقه الواضح"
2_ قراءة	_ كتب مكتبة الأطفال (القراءة) لكامل كيلاني أو الأبراشي أو العريان، أو كتاب (القراءة واللغة العربية)الأستاذين صادق السبعي وأحمد صقر.
3_ لغة عربية	_ النحو الواضح الابتدائي الأول و الثاني.
_ نحو	_ كتاب "التصوير الحديث للسيد سعدي حكار.
_ محادثة	_ كتاب كراريس الخط العربي للأستاذ الخماسي.
_ إملاء	_ الإنشاء الصحيح " و كتاب كيف اكتب المقرران في المدارس اللبنانية.
_ محفوظات	
_ الخط العربي	
4- التاريخ والجغرافيا	_ كتاب "دروس التاريخ الإسلامي" للخياط بالنسبة للتاريخ العام وكتاب مبارك المليي وأحمد توفيق المدني بالنسبة لتاريخ الجزائر.
5- الحساب	_ كتاب "الجديد في الحساب" الثاني والثالث.

القسم الابتدائي كانت الحجم الساعي له 30 ساعة أسبوعياً، تم توزيعها بترك مادة التعليم الديني والخلقي بحجم ساعتين في الأسبوع مع تخفيض حصص كل من مادتي القراءة والخط العربي فبعد أن كانت بمقدر 7.5 ساعة للأولى في الطور التحضيري أصبحت خمس ساعات، أما الثانية فقدر عدد حصصها بساعتين، ولعل هذا يعود إلى تغطية المرحلة السابقة جزء مهم من برنامج هاتين المادتين ووصول التلميذ على حد معتبر في حاجته لهما.

¹ - رابع تركي: المرجع نفسه، ص ص 271-273

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

إضافة على ذلك فهناك مواد أعطي لها الوقت الكافي في التدريس كمادة الحساب التي حافظت على حجمها الساعي المخصص له في الطور السابق بـ5 سا وهو ما يعكس أيضا بقاء نفس الأهداف من تدريسها، أما عن اللغة العربية فقط تميزت بـ6 ساعات؛ وزعت على مادتي النحو والمحادثة بمقدار 5 سا¹، أما مادتي الإملاء والمحادثة بمقدار ساعة واحدة أضف إلى ذلك استحداث تدريس كل من مادتي التاريخ والجغرافيا، وهو ما يشير إلى دخول المدرسة عند الجمعية في هذا القسم مرحلة التوجيه لبناء الهوية الوطنية خاصة لما عرفت به محتويات مادتي التاريخ والجغرافيا من مضامين مفندة للطروحات الفرنسية.

أما عن الكتب المعتمد عليها في المقرر الدراسي نجد على سبيل المثال لا الحصر كتاب "الإسلام ديني"، كتاب الفقه الواضح، كتاب التصوير الحديث للسيد سعدي حكار وكتاب "الإنشاء الصحيح" وكتاب كيف أكتب؟، وأيضا كتاب "دروس التاريخ الإسلامي" للخياط، إلى جانب كتاب مبارك المليبي وأحمد توفيق المدني بالنسبة لتاريخ الجزائر²، وهي كتب كانت كلها تتماشى مع مستوى تلاميذ هذا القسم وتتوفر على التوجيه الذي تضطلع به الرؤية التربوية للجمعية.

2_ القسم المتوسط:

القسم المتوسط وهو المرحلة الأخيرة من التعليم الابتدائي تكون مدته هو الآخر سنتين وقد تضمن المواد التالية³:

المواد التعليمية	الكتب المقررة
1_ الدين والأخلاق	1) القرآن من المصحف والحفظ: يعتمد فيه كثيرا على المنزل في برنامج الواجبات المنزلية.
2_ المطالعة	2) التعليم الخلقى يعتمد فيه على كتاب "الأخلاق والواجبات" للأستاذ المغربي يحضر منه المعلم دروسه.
3_ لغة عربية:	3) الفقه "كتاب المقررهو الجزء الثالث من كتاب (الإسلام ديني).
_نحو	4) كتاب القراءة و اللغة العربية.
_تمارين نحوية	5) كتاب "الجديد في دروس الحساب" الجزء الرابع للسنة الأولى و الخامس للسنة الثانية.
_ محادثة	6) الجغرافيا: جغرافية القطر الجزائري "للأستاذ توفيق المدني " كتاب
_إملاء	
_ محفوظات	
_إنشاء	

¹ - رابع تركي، المرجع السابق، ص278.

² - نفسه، ص279.

³ - رابع تركي: المرجع نفسه، ص275-276.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

4_ تاريخ وجغرافيا	الجغرافية الحديثة "الجزآن الثالث والرابع.
5_ خصائص الأشياء وعلوم طبيعية	(7)التاريخ" الأثري "فيرجع لأحسن ما عرف في التفاسير والصحاح
6_ حساب	وكتب التاريخ عند تعرضها للنصوص القصية المتعلقة بموضوع الدرس.
7_ رسم	
8_ أشغال يدوية	
9_ رياضة بدنية	

أما القسم المتوسط الذي يعد الطور الأخير للتعليم الابتدائي، فقد قدر حجمه الساعي للحصص الدراسية بـ 30 سا في الأسبوع.

والجديد في الأمر هو استحداث مادة المطالعة بمعدل 3 ساعات في الأسبوع، ومادة خصائص الأشياء والعلوم الطبيعية لمدة ساعتين، وهما مادتين تعملان على توسيع الذهن والعقل وتعكس توجه التعليم في هذا القسم للتعليم الذاتي والتطبيقي أين يكون للتلميذ حظ في الوصول إلى المعارف واكتساب المهارات وتنمية قدراته بممارساته التعليمية*.

ونذكر أن مادة التعليم الديني والخلقي عرفت تغيير اسمي فقط لتسمى بمادة الدين والأخلاق.

أما عن مادة اللغة العربية فحظيت بزيادة ساعتين وخمسون دقيقة¹، بمعنى أنها أصبحت تدرس بمعدل 8 ساعات وخمسون دقيقة في الأسبوع وتتفرع الدراسة فيها إلى دروس النحو والمحادثة، ودروس للإنشاء، مع حصة الإملاء والمحفوظات مستعينة في ذلك بالقرآن الكريم كمصدر أساسي للتدريس في حل الواجبات المنزلية².

وأما عن شرح مقاصد الآيات فتترك مسؤوليته للمعلم أثناء الحصة إلى جانب كتاب "الإسلام ديني" للجنة التأليف الإسلامي اللبنانية وكتاب النحو الواضح، كتاب المطالعة المغربية، كليلة ودمنة وروضة في السنة الأخيرة إلى جانب كتاب دروس التاريخ الإسلامي للخياط مع إلزامية كتاب تاريخ الجزائر للأستاذ الميللي أو المدني.

والجدير بالإشارة إن جمعية العلماء لم تغفل عن فئة المتدربين في المدارس الحكومية الفرنسية إذ وفرت لهم جدول دراسي يتزامن وأوقات فراغهم، حيث خصصت لهم قسمين مع التركيز على تدريس

*- يشير ويدل هذه الأهداف التعليمية التي وصلت إليه المنظومة التعليمية لـ ج م ج على عصريتها وسبقها حتى النظريات التعليمية والتربوية المعاصرة التي تبنت هذه الأهداف فيما يسمى بالمقاربة بالكفاءات حتى العقد الأول من القرن 21م.

¹- رابح تركي: المرجع السابق، ص 280.

²- نفس المكان.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

القرآن، والدين، والنحو، والمطالعة ابتداء من الساعة 6.5 ساعة إلى 7.5 سا في الفترة الصباحية، أما في الفترة المسائية من 5.5 سا إلى غاية 6.5 سا.

وهي المواد التي تغيب في المدارس الرسمية والتي يمكن أن يحتمي بها التلميذ الجزائري للحفاظ على مقوماته الشخصية وتبطل بذلك مرامي السياسة التعليمية التي تهدفها برامج المدارس الفرنسية التي يتعرضون لها أثناء دراستهم بها.

3_ المرحلة التكميلية:

المرحلة التكميلية في نظام تعليم جمعية العلماء هي المرحلة التي تلي المرحلة الابتدائية وتمتد لأربع سنوات، وقد عرفت بمدارسها القليلة وانتشارها الضيق وظهورها المتأخر مقارنة بمدارس المرحلة السابقة:

مقررات وبرامج المرحلة التكميلية:

وتضمن منهاجها الدراسي المواد التالية:

- مادة اللغة العربية وكانت تحوي النحو والصرف والقواعد والإملاء وما يتعلق بالنصوص التطبيقية، وقد اعتمدت مجموعة من الكتب خدمة لبرنامج هذه المواد فقرر للسنة الأولى كتاب الأجرومية لابن أجيروم الصنهاجي والسنة الثانية كتاب قطر الندى وبل الصدى، أما السنة الثالثة فقد عين لها كتاب ألفية ابن مالك الجزء الأول وفي السنة الرابعة قرر الجزء الثاني من ألفية ابن مالك. زيادة عن هذه الكتب المقرر كان أيضا يعتمد كتاب النحو الواضح والبلاغة الواضحة التي قام بتأليفها علي الجارم ومصطفى أمين¹.

- المواد الأدبية وشملت النصوص والبلاغة وما يرتبط بها
- مادة العلوم الشرعية ويتناول فيها الفقه والتوحيد والسير النبوية والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.
- العلوم الاجتماعية وقد تضمنت مادتي التاريخ والجغرافيا وقد أتمد أهم كتابين وهما كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني وكتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك الميلي.
- العلوم المدنية وكان على رأسها الرياضيات والتي اشتملت الحساب والجبر إضافة إلى مواد النشاطات الرياضية والثقافة زيادة على تعلم اللغة الفرنسية².

¹ - مصطفى عشوي: المدرسة الجزائرية إلى أين؟، دار الأمة، الجزائر، بلات، ص ص 57-59.

² - مصطفى عشوي: المرجع نفسه، ص ص 55-59.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

ما يمكن أن نقرأه من البرامج والمقررات التعليمية لمدارس جمعية العلماء أنها اتسمت بعكست الرؤية التعليمية لجمعية العلماء، ومحاولة إيجاد تكامل بين المواد المدرسة في السنة الواحدة وبرنامج المادة الواحدة عبر السنوات حتى نهاية مراحلها التعليمية.

زيادة على ذلك يلاحظ غلبة الطابع اللغوي والأدبي والديني على تعليمها حيث اشتملت على المواد اللغوية والدينية، وهذا تماشياً مع مرامي جمعية العلماء وحاجة الظرفية الاجتماعية للمجتمع الجزائري المسلم إلى تعليم يبعث المقومات الوطنية من لغة ودين وتاريخ وكذا ينمي الوعي بالذات والراهن، فضلاً عن تميز تعليمها باستعمال اللغة العربية كلغة تدريس في جميع المواد وهذا لتحقيق مسعى إحياء اللغة العربية في المجتمع الجزائري المسلم وهو ما تحقق فعلاً وأنقذها من الضمور والزوال لتصبح لغة تفاعل واستعمال وإبطال هدف السياسة الاستعمارية التي عمدت إلى إقصائها من كل تعامل واستعمال نفعي (رسمي؛ إداري وإقتصادي).

كما كانت هذه البرامج والمقررات تتميز بالترابط فيما بينها بشكل متسلسل ومرحلي من سنة إلى أخرى ومن مرحلة إلى أخرى وهو ترابط عضوي ترجم من خلال مضمونات المواد ومقرراتها. فضلاً عن اتساع أفق المقررات وعمقها ويظهر ذلك من خلال مضمون المواد وحجمها الساعي خلال كل المستويات.

وزيادة على تميز المناهج بتلاؤمها مع قدرات التلاميذ من حيث مدركاتهم العقلية والوجدانية وهو ما يعكس تلك المرحلة في المناهج والمقررات عمقا وأهدافا ومعرفة وحجم زمني، وتوظيف المواد والأنشطة التي تمنح للتلميذ الراحة الجسمية والعقلية والنفسية.

التجديد الدوري للبرامج والمناهج والمضامين مراعاة لمتطلبات التحولات والتطور الذي كان يعرفه المجتمع الجزائري المسلم في جميع جوانبه وحتى مواكبة تطور إمكانياته المادية والبشرية وهو ما يمكن أن نصفه انه تعليم واقعي.

نجاح جمعية العلماء في إدراج مادتي التاريخ والجغرافيا في تعليمها وفق رؤية وطنية وإيجاد لها مراجعها من تأليف رجالها وهو ما كان يعد ثورة على السياسة الفرنسية والتي لا تسمح به.

أما ما يحسب على هذه المناهج أنها كانت فقيرة من العلوم والمواد العلمية والتقنية وكذا اللغات الأجنبية ولكن إذا ما راعينا خصوصية ظرفية المرحلة الاجتماعية التي وجد لها وفيها هذا التعليم فإن غاياته كانت منصبه على بعث الشخصية الجزائرية ومحاربة الأمية وإنماء الوعي بالحاضر والوطنية وهو ما يفرض على مقرراتها أن تكون ذات أهداف معنوية ووجدانية من نوع تعليم جمعية العلماء.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

المبحث الثاني: التنظيم التربوي والتعليمي

أولاً- تنظيم العطل الأسبوعية والسنوية

قامت " لجنة التعليم العليا " بمساعدة رئيس الجمعية والمجلس الإداري للجمعية بوضع اللوائح والقوانين والضوابط المنظمة للعملية التعليمية، إدارياً وفنياً من جميع النواحي، فراحت تصدر اللائحة الداخلية للمدارس في بدايات عام 1949م احتوت على واحد وثلاثين بنداً، جاء فيها كيفية تنظيم العمل الداخلي للمدارس¹، وذلك من حيث نظام التلاميذ وطريقة قبوهم إضافة إلى العطل الدراسية الأسبوعية والسنوية وكيفية إعداد الدروس.

وقد بين البند الثلاثين من اللائحة عطل مدارس الجمعية والتي كانت كالتالي²:

عدد الايام	العطل
60 يوماً	1_ العطلة الصيفية
80 يوماً	2_ يومان من كل أسبوع (الخميس _الأحد)
01 يوم	3_ رأس السنة الهجرية (1 محرم)
01 يوم	4_ عاشوراء (10 محرم) عيد ديني
07 أيام	5_ المولد النبوي الشريف
07 أيام	6_ يوم بدر (17 رمضان)
06 أيام	7_ عيد الفطر (عيد ديني ثلاثة أيام قبل العيد وثلاثة بعده)
06 أيام	8_ عيد الأضحى (عيد ديني ثلاثة أيام العيد وثلاثة بعده)
01 يوم	9_ ذكرى وفاة الشيخ عبد الحميد ابن باديس 16 أفريل 1940م.
165 يوم	10_ مجموع أيام العطلة في السنة
365 يوم	11_ مجموع أيام السنة.
200 يوم	12_ الحد الذي يحضره التلميذ مائتا يوم ضرب 6 ساعات في اليوم
1200 ساعة	13_ مجموع عطل السنة الدراسية

¹ - البصائر، العدد 57، السنة الثانية، 24 جانفي 1949، ص8.

² - البصائر، العدد 11، السنة الأولى، 20 أكتوبر 1947، ص8.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

وقد أشارت الجمعية إلى أن التلميذ الذي تنقص أيام حضوره عن مائتي يوم بعشر أيام بدون مبرر مقبول وغير مؤيد بشهادات موافقة المدير، يحرم من حضور الامتحانات وبالتالي لا يحق له الانتقال إلى القسم الأعلى.

من المعطيات السابقة بالجدول نلاحظ أن الجمعية كانت عطلها ذات طابع ديني تتماشى وثقافة المجتمع الجزائري المسلم، ولم ترد عطل تتعلق بالمناسبات الرسمية الفرنسية أو ثقافتها كعطلة رأس السنة الميلادية أو اليوم الوطني للدولة الفرنسية، وهو ما يعزز أن الجمعية حتى في تنظيماتها للتعليم كانت تتوجه إلى أن تعكس الانتماء وثقافة المجتمع الجزائري المسلم.

وأيضاً ما يمكن أن نلاحظه على عطل الجمعية، ارتفاع عدد أيام العطل في الموسم الدراسي إلى أكثر من الثلث أي ما يقارب النصف لكامل الموسم الدراسي، وهو ما يقصر عمر الموسم الدراسي وما ينعكس سلبي على تكوين المتعلمين.

ثانياً: توظيف المعلمين

كانت جمعية العلماء أول ما تبتدئ به عند اختيارها لمعلمي مؤسساتها التعليمية، هو دراسة شخصية المعلم من جهة أخلاقه و قابلية تطور كفاءته في التدريس والقدرات المعرفية التي يكتسبونها خلال مسيرة ممارستهم للتعليم.

وتتجلى الصفات التي كانت تبتغيها في مدرسيها بالتحديد في النقاط التالية التي وردت في إحدى نشریات جريدة البصائر تحت عنوان " من زاوية التعليم"¹:

- 1_ أن يكون أباً قبل أن يكون معلماً.
- 2_ حسن الصلة بين المدرس والتلميذ والذي أساسه الاحترام المتبادل بين الطرفين، وإشعار التلميذ بنوع من الاهتمام بشخصيته وأعماله، يعد خطوة أساسية نحو الخارج.
- 3_ عناية المعلم بالطفل وذلك بالإطلاع على تأليفات مبادئ التربية الحديثة وعلم نفس الطفل.
- 4_ شعور المعلم بالواجب نحو التلميذ وأن يكون مثلاً للنزاهة والعدل بين تلاميذه أي بمعنى عدم التمييز بينهم على أي اعتبار.
- 5_ التشبع بروح التربية الحديثة وممارستها أثناء أداء مهمة التعليم، وتنفيذ المبادئ الصالحة في التربية والتعليم.

¹ - محمد العربي عبد السلام: من زاوية التعليم، البصائر، العدد 330، 26 أوت 1955، ص1.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

نخلص من خلال النقاط السابقة أن الجمعية كانت تنشده في معلمها أثناء ممارسته لمهنته مع تلاميذه أداء أدوارا حديثة تتماشى ونظريات التعليم الحديث الذي يخضع ممارساته لعلم التربية الحديثة وبذلك أردت به الخروج من الأدوار التقليدية العقيمة والبائسة التي كانت سببا في تراجع العلم والمعرفة في التعليم التقليدي، ولا نستبعد وصول وتبني هذه القناعات أن نجاح مدارس جمعية العلماء وتنافسيتها لمدارس الاستعمار لا تتم إلا بتولي مناهج جديدة وتحديثها لمدرستها وتعليمها وهو بدوره لا يأتي إلا بدون تحديث دور المعلم.

أما من جهة اختيار المعلمين من حيث الشهادات، وان طالت مدة عدم اشتراط الشهادة في توظيف المعلم بمدارسها وهذا قد يعود إلى العجز في توفر العدد الكافي من المعلمين حتى سنة 1951م، أين قررت " لجنة التعليم العليا " وبالإجماع اعتبار الشهادات العلمية كشهادة التحصيل من جامع الزيتونة شرطا أساسا في قبول المعلمين بمدارس الجمعية.¹

وفي سنة 1953 أصبحت عملية قبول المعلمين للتدريس في مدارس الجمعية تخضع زيادة عن الشهادة إلى امتحان خاص أطلقت عليه اسم امتحان " أهلية التعليم " ويشتمل على ما يلي²:

1_ إلقاء درس على جمع من الطلبة من مناهج التعليم لمدارس جمعية العلماء.

2_ موضوع إنشائي.

3_ سؤال شفوي³.

وبذلك أصبحت الجمعية تقوم كل سنة بمسابقة للمعلمين الذين يرغبون في الانخراط في سلك التعليم بمدارسها، ولأول مرة في حياتهم من الحاصلين على شهادة التحصيل من الزيتونة، أو على شهادة العالمية من جامع القرويين بالمغرب الأقصى، وكان برنامج المسابقة غالبا ما يدور حول الموضوعات التالية:

1_ موضوع كتابي له صلة بمهنة التعليم.

2_ درس في موضوع يختار من مناهج التعليم لمدارس الجمعية.

3- أسئلة في مسائل تتعلق بالتربية والتعليم⁴.

استطاعت الجمعية بفعل هذه الإجراءات المتعلقة في اختيار معلمي مدرستها أن تصل إلى تطور ملحوظ في إطارها التعليمي الذي يعمل على نجاح مدرستها ومنه مشروعها التعليمي.

ثالثا: الامتحانات والشهادات

¹ - البصائر العدد 168، السنة الرابعة، السلسلة الثانية، 3 سبتمبر 1951، ص8.

² - لجنة التعليم العليا: البصائر، العدد 239، السنة السادسة، 4 سبتمبر 1953، ص8.

³ - المصدر نفسه. المكان نفسه.

⁴ - البصائر، العدد 329، 29 أوت 1955، ص6.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

إضافة إلى الأعمال سابقة الذكر والخاصة بنظام التعليم نجد أن الجمعية قامت بإدخال نظام الامتحانات لتقويم وتقييم تحصيل تلاميذ مدارسها، وكذا اعتماده كآلية للانتقال إلى الأقسام الأعلى والحصول على الشهادات مثل ما هو معمول به في المدارس الحديثة، ولذلك قامت الجمعية بإجراء امتحانات سنوية عبر مختلف مدارسها مع منح شهادات علمية تثبت متابعتهم للدراسة في نهاية المراحل الابتدائية والتي تعرف باختبارات الشهادة الابتدائية.

في سنة 1947م قامت الجمعية بتوحيد الامتحانات السنوية في جميع مدارسها وقد علقت بجريدة البصائر على ذلك الحدث الهام فقالت: ((..عممت جمعية العلماء الامتحانات السنوية لهذا العام في جميع مدارسها على ترتيب بديع، ونظام محكم بدأت الامتحانات يوم واحد، وهو 25 جوان 1947م ثم كان يوم 13 منه يوم الاحتفال بتوزيع الجوائز على الناجحين من تلاميذها، فكانت هذه الاحتفالات في كثير من المدن مزدانة بأعضاء الجمعية المحلية، وأعضاء شعب جمعية العلماء، وآباء التلاميذ، وأنصار العلم والإصلاح، وكانت الأجواء كلها ابتهاجا بالعلم وتقديرا لرجال التعليم، ومزحا بالجيل الزاحف للحياة السعيدة من أبناء الأمة))¹.

وفي سنة 1952م قررت الجمعية لأول مرة في تاريخ نشاطها التعليمي إحداث انتهاء دروس التعليم الابتدائي العربي في مدرستها على خلاف السنوات السابقة، حين كان يتابع التلاميذ دراستهم حتى نهاية السنة السادسة ثم يغادرون المدارس أو يتابعوا في الأقسام التكميلية (الإعدادية)، لتركوا المدارس دون أن يحصلوا على أية شهادة نظر لعدم حاجتهم إليها في حياتهم العملية. وذلك أن إدارة الاحتلال الفرنسي في الجزائر كانت مفرسة لا تقبلهم في سلكها الإداري².

وبعد أن كثر عدد المتخرجين من مدارس الجمعية سنويا، وأصبح لها تعليم إعدادي و آخر ثانوي في معهد عبد الحميد بن باديس، أعلنت جريدة البصائر: ((... أن المنتظر أن تلي شهادة التعليم الابتدائي العربية، شهادة التعليم الثانوي والعالي، عندما تنهياً الأسباب لها وتتم الواجبات.))³.

وقد جرى امتحان الشهادة الابتدائية لأول مرة في العام الدراسي (1950_1951م)، أين قامت الجمعية بتقسيم القطر الجزائري إلى خمس مراكز وكانت كالتالي⁴:

إسم المركز	رئيس لجنة الامتحان	عدد التلاميذ المشاركين	عدد التلاميذ
------------	--------------------	------------------------	--------------

¹ - البصائر العدد 4، السنة الأولى، 29 أوت 1947، ص1.

² - عبد اللطيف سلطاني: البصائر، العدد 244، السنة السادسة، 23 أكتوبر 1953.

³ - البصائر، العدد السابق، ص 8.

⁴ - نفس المرجع والصفحة.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

الناجحين	في الامتحان		
15	29	العباس بن الشيخ الحسين	1_ مركز الجزائر العاصمة
86	117	محمد المنصوري	2_ مركز قسنطينة
18	29	أحمد حماني	3_ مركز وهران
20	82	نعيم النعيمي	4_ مركز بسكرة
24	35	أحمد حسين	5_ مركز تلمسان
163	482	_ المجموع

بينما في امتحان شهادة الابتدائية العربية لعام 1954م، فإن الجمعية قامت هذه المرة إلى تقسيم القطر الجزائري إلى ثمانية مراكز كالتالي¹:

عدد التلاميذ الناجحين	عدد التلاميذ المشاركين في الامتحان	إسم المركز
16	24	1_ مركز الجزائر العاصمة
37	53	2_ مركز قسنطينة
12	29	3_ مركز وهران
41	50	4_ مركز باتنة
41	55	5_ مركز تلمسان
07	15	6_ مركز الاغواط
31	41	7_ مركز سطيف
18	28	8_ مركز تبسة
203	295	9_ المجموع

ما يمكن أن نستنتجه أنه رغم نقص عدد المترشحين عن المرة السابقة إلا أن عدد الناجحين قد زاد عددهم بشكل ملحوظ وقد يعود هذا إضافة إلى نجاح التعليم والتحصيلي الدراسي وهو ما يعبر عن تطور تعليم الجمعية إلا أننا نضيف فضل زيادة مراكز الامتحان على قربها لإقامات التلاميذ وأثر ذلك على نتائجهم في هذه الامتحانات.

¹ - البصائر، العدد 262، السنة السادسة، 22 مارس 1954، ص 8.

رابعاً: التفتيش والمهام البيداغوجية

كانت لجان التفتيش تقوم بدور متابعة العملية التعليمية بجدية وبطرق عملية من خلال الزيارات الميدانية وفيها يطلعون على المحيط والظروف التي يتم فيها تدرس التلاميذ وعمل المعلمين وتقدير الإمكانيات والحاجات التي من شأنها تطوير العملية التعليمية.

كما كانت الزيارات التفتيشية تمس مباشرة تقييم وتقويم العملية الدراسية بالحضور إلى دروس المعلمين ومتابعتهم من حيث طريقة عرضهم وأدائهم المعرفي والبيداغوجي، سعياً منهم في تقديم توجيهات بهدف تحسين الأداء التعليمي لكل معلم، وقد كانت تتم هذه التوجيهات شفويا بعد انتهاء الحصة ثم ترفق بتقرير يرسل نسخة منه للمعلم المعني بالأمر¹.

زيادة على هذا الدور للمهمة التفتيش فإن المفتش منوط بدور الوقوف على التسيير الإداري وتزويد طاقمها بالتعليمات والتوجيهات الكفيلة بضبط العملية التعليمية وانتظامها وفق القوانين الأساسية لمنظومة التعليم في الجمعية إضافة على سهرهم على توصيل ومحاوله الوقوف على مدى تنفيذ وتطبيق القوانين الجديدة.

وقد لعب العديد من المفتشين دوراً هاماً في تطوير مدارس الجمعية خاصة تلك التي كانت تعترضها مشاكل أو تعثرت في بداية الطريق، بالأخذ بيد طاقمها لاستكمال إجراءاتها القانونية والتنظيمية، فكانت الزيارات تهدف إلى استقامة الجانب الإداري بالمدارس التي تعاني من مشاكل والوقوف على العجز المالي بها للوصول بها إلى مدرسة تحقق أهداف الجمعية إما من ناحية القدرات العلمية والمعرفية للتلاميذ، أو المستوى التعليمي فيها من جهة وتذليل المشاكل التي كانت محل شكاوى الأولياء أو المعلمين من جهة أخرى².

ولقد أخذ هذا الجانب أهمية بالغة من قبل المشرفين على العملية التعليمية لدى جمعية العلماء، فقد كانت متابعة سير عمل المدرسة هما وهاجسا اقتضاه طموح الجمعية التعليمي لتجاوز النقائص والبلوغ بها إلى مدارس نموذجية كما تتصورها من خلال رؤيتها التعليمية والتربوية.

حتماً أن يلفت انتباه مسيروا ومسؤولوا مدارس الجمعية إلى أهمية التنظيم والتطور الإداري في تطور مدرستهم، وفعلاً بادرة الجمعية في إتخاذ إجراءات عملية في تطوير التسيير وإدخال تحسينات دورية على المدارس والعملية التعليمية بها، وقد كانت المتابعة التي يقوم بها المفتشين تدخل تحت هذا المضمار.

¹ - مقابلة شخصية مع مسعود بن عبيد تلميذ ومعلم سابق بمدارس جمعية العلماء ومحافظ سياسي بالثورة التحريرية، باتنة 28 أوت 2017.

² - نفس المقابلة.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

إن الطموح التي كانت تنشده الجمعية في مدارسها بنقلها من مدارس تقليدية ضعيفة التكوين والمستوى إلى مدارس عصرية تأخذ بميزات التعليم الحديث ذو الكفاءة والتأهيل الذي ينتهي بها إلى مردود في التكوين لا بأس به ومستوى معتبر، كانت تراه يجب أن يمر على تطويرها من حيث التنظيم والتسيير. كانت مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مقسمة من ناحية التفتيش إلى ثلاث مناطق رئيسية وهي:

1- منطقة الغربية، وتشمل عمالة وهران.

2- المنطقة الشرقية، وتشمل عمالة قسنطينة.

3- المنطقة الوسطى، وتشمل عمالة الجزائر العاصمة.¹

ففي سنة 1949م نشرت لجنة التعليم العليا قرارا في صحيفة البصائر يتضمن استبدال نظام التفتيش الذي سار العمل بمقتضاه بالنظام القديم ووضع نظام جديد لسنة (1949-1950)، يقوم على أساس الجهات ويشترك فيه أعضاء لجنة التعليم العليا جميعا، كل في الجهة القريبة من المدرسة التي يديرها، على أن يرفع كل واحد منهم تقريرا إلى المكتب الدائم بمجرد ما ينتهي من زيارة كل مدرسة من المدارس التي تقع في المنطقة المحدد له.²

ونجد نوعان من المفتشين:

مفتشون جهويون تشمل اختصاصهم نواحي معينة فقط، ومفتشون عامون تمتد اختصاصهم عبر مدارس العمالة بأكملها ومن هؤلاء نذكر: محمد الغسيري المنصوري، محمد صالح رمضان، وعلي مرحوم والشيخ إبراهيم مزهودي، وصادق حماني، أحمد حماني، وأحمد بن ذياب.

وكان هؤلاء المفتشون قبل عام 1953م يختارون المعلمون في مدارس الجمعية الذين تتوفر لديهم الخبرة الكافية بالتعليم، والإيمان الراسخ بفكرة الجمعية القومية والدينية.

أما بعد عام سنة 1953م فقد صدر قرارا من لجنة التعليم العليا ينص على جانب الخبرة والإيمان بفكرة الجمعية، على واجب إجراء مسابقة لكل من يرشح نفسه للتعليم في سلك التفتيش العام أو الجهوي على شرط أن يكون من درجة (أ) و(ب) المسجلة في بطاقة المعلم، وقد حدد بلاغ اللجنة الصادرة في سبتمبر 1953م مواد هذه المناظرة في الموضوعات التالية:

أ- موضوع إنشائي في التربية والتعليم.

¹ - رابع تركي: المرجع السابق، 301.

² - إسماعيل العربي: قرار لجنة التعليم العليا، البصائر، العدد 93، السنة الثالثة، السلسلة الثانية، 1949، ص 8.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

- ب- تفتيش قسم أمام لجنة المناظرة و تقديم تقريراً عنه.
ج- إلقاء محاضرة في فنيات التعليم على اللجنة وبحضور جمع من المعلمين.
د- سؤال شفوي حول الحركة الجمعية العلماء وتطورها العلمي.
هـ- سؤال تطبيقي في الثقافة العامة¹.

خامساً- تمويل التعليم:

كان التعليم العربي الحر الذي تتولاه جمعية العلماء بكل مؤسساته التعليمية يعتمد في حاجاته التمويلية على التبرعات المختلفة الأنواع والأشكال من لدن أفراد المجتمع، فضلاً عن اعتماده على أموال الزكاة والأوقاف لأهل البر والإحسان ولعل هذا ما كان معروفاً على التعليم العربي من عهود بعيدة وظل حتى خلال الفترة الاستعمارية رغم تولي الدولة الفرنسية الإشراف على مؤسسات التعليم توجيهها وتمويلها وتسييرها.

ويشير الشيخ البشير الإبراهيمي عند حديثه عن مالية جمعية العلماء أن مآليتها تأتيها من موردين: اشتراكات الشعب الشهرية والتبرعات غير المحدودة، ولما ارتفعت مآليتها قامت بتقسيمها إلى أقسام، وكانت مالية بناء المدارس لا تدخل خزينة الجمعية، بل تقبضها الجمعية المحلية التي تنفقها على بناء وتشيد المدارس التعليمية².

ويؤكد علي مرحوم في مقال له في جريدة الصائر في هذا الصدد فيقول: ((... لها في الميزانية العامة التي تمدها الأمة النصيب الأوفر من الدخل، ولكنها تحرم من الاستفادة منها... لأن شريعة الاستعمار في هذا الوطن، تعتبر اللغة العربية لغة أبناء البلد أجنبية...))³.

وقد كان تمويل النشاطات التعليمية بكل أوجهها لجمعية العلماء المسلمين بالطريقة التالية:

- __ ما يدفعه أولياء التلاميذ نظير دراسة أبنائهم في المدارس.
__ مردود الزكاة وتبرعات المحسنين وجهد الجمعيات المحلية في جمع الأموال
__ إيرادات النوادي الحرة و حصيلة المهرجانات الثقافية التي تقيمها المدارس خلال المواسم الدينية والوطنية⁴.

¹ - البصائر: العدد 239، السنة السادسة، 4 سبتمبر 1953، ص 8.

² - محمد البشير الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي ج 5، المصدر السابق، ص 287.

³ - علي مرحوم: واجب الآباء: البصائر، ع 101، السلسلة الثانية، 2 جانفي 1950، ص 97.

⁴ - رابع تركي: التعليم القومي مرجع سابق، ص 311.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

وقد بلغت ميزانية مدارس جمعية العلماء في العام الدراسي (1950_1951) ب: 39.340.546 فرنك، أما ميزانية معهد عبد الحميد بن باديس فإنها مستقلة عن ميزانية مدارس الجمعية. ويتضح لنا أن عملية تمويل التعليم العربي "الحر" كانت تشكل عقبة كبرى لدى جمعية العلماء، وانتشار وتطور حركة التعليم العربي الحر الأمر الذي أصبح يتطلب مصاريف ضخمة تزيد عاما بعد عاما. فقد كتب البصائر في هذا الموضوع تقول: ((تعاني المدارس الحرة أزمت مالية شديدة، وقلما أن تسلم منها مدرسة، اللهم إلا تلك المدارس التي كفل حياتها مشروع عمومي، تتغذى من ريعه وتعيش من فيضه... فإذا أردنا أن نخرج بمدارسنا من ذلك الجو الراكد... فعلينا أن نفكر جماعات وأفراد في مشاريع اقتصادية يعود ربها على المدارس حتى لا تبقى في سجنها الحديدي العتيق، ففي استطاعة أية جمعية محلية لأية مدرسة حرة أن تجمع رأس المال، ولو تأخذ قرضا وتجعل بذلك المال دار للسينما أو ناديا، أو مقهى أو حماما أو نزلا أو محلا تجاريا، أو سيارات نقل، أو أي مشروع من شأنه أن يعود بالفائدة على المدرسة ويمثل هذه المشاريع الحية تنتعش حالة المدرسة المادية، وبانتعاش الحالة المادية تزدهر حياة المدرسة الفنية والعلمية)).¹

والشيء الملاحظ أن الشعب الجزائري كان يقبل على التبرع لحركة التعليم العربي "الحر"، وذلك لإيمانه العميق أن السبيل الوحيد للحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية هو الاهتمام بالتعليم ووعيه أن التطور المعنوي لا يحدث إلا بالتعليم.

¹ - عمر شكيري: البصائر، ع94 سنة 1949، ص10.

المبحث الثالث: المؤسسات التعليمية لجمعية العلماء (1931 الى 1956).

استحدثت جمعية العلماء تعليما جديدا يختلف عن المنظومات التعليمية التي كانت سائدة في تلك الفترة بالجزائر، فقد فرضت مهمة مشروعها الإصلاحي لتأسيس منظومة تعليمية تختلف عن المنظومة التعليمية الفرنسية في مراميها وأهدافها وهو ما تبع الاختلاف الجذري معها في المناهج والمضمون، وأيضا كان تعليما يختلف عن التعليم العربي التقليدي من حيث التنظيم والتحديث ومستوى المعارف والوسائل لما تفرضه طموحاتها في التغيير لإيجاد تعليم فعال.

وبذلك كان تعليم جمعية العلماء يعبر عن حالة جديدة تسعى من خلاله جمعية العلماء على إعداد جهاز يمتلك القدرة على حمل مشروعها ويعمل على تحقيق أهدافه الكبرى، وهذا استجابة لحاجات ومتطلبات الصراع الذي سوف يكون ميدانه مع المشروع الثقافي الاستعماري، فكان مطلب تنظيم العملية والجهاز التعليمي ينظر على أنه عماد أي مشروع يهدف إلى الخروج من المأزق الثقافي وتحريك الوعي وامتلاك وسائل الصراع في المعركة.

المطلب الأول: التعليم المدرسي.

أولت جمعية العلماء اهتماما كبيرا بالمدرسة كفضاء ومؤسسة للتعليم أكثر من المؤسسات الأخرى، رغم أن بداية التعليم لرجالها وقادتها كان المسجد وحتى عند بداية مباشرتهم للتأسيس والتوطين تعليمهم كان من المؤلف والشائع في الأوساط الأهلية التعليم المسجدي، غير أن الإصلاحيون ركزوا على المدرسة وقاموا بتوسيعها في الوسط الاجتماعي للمجتمع الجزائري المسلم واتخذوها المؤسسة الأولى لوظيفة التعليم ولعل هذا جاء مجارات مع راهنهم حيث أصبحت المدرسة هي المؤسسة العصرية التي تسدي التعليم للصيبة وكذا تماشيا مع القوانين الإدارية الاستعمارية المنظمة لتعليم الناشئة.

وقد ازدهرت التعليم بمدارس جمعية العلماء حتى أصبح يشكل تعليما متفوقا أو منافسا على الأقل للتعليم الفرنسي لدى الأهالي، هذا الازدهار والتطور عرف على مراحل فيها نقلت جمعية العلماء تعليمها المدرسي من المأمول إلى الواقع بخطى وخطى ثابتة، تعكس ما كانت تمتلكه من إستراتيجية محكمة في هذا المشروع، وللوقوف على هذا واقع هذا التعليم يجدر بنا تتبع تطورات عبر مراحلها التي عرفها.

أولا- مراحل تطور التعليم المدرسي لدى الجمعية:

عرف تعليم جمعية العلماء تطورا وتوسعا من مرحلة إلى أخرى، وقد لوحظ هذا التطور خاصة في التنظيم والتحديث الذي مس جميع أوجه العملية التعليمية وما يتصل بها، بدءا بالتوسع في عدد مؤسساته

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

الذي فرضته طموحها للوصول لكل المناطق الجغرافية لإقامات أبناء المجتمع الجزائري المسلم إضافة إلى زيادة عدد المتعلمين في المدرسة الواحدة، مروراً بالمضمون وطريقة التدريس نهاية إلى التأسيس العصري وكذا الهيكلة والتسيير، وانطلاقاً من هذه المعايير يمكن للباحث في التحول والتطور الذي عرفه تعليم الجمعية أن يقف على ستة مراحل أساسية ومهمة.

والجدير بالإشارة إلى إن هذه الإشكالية تطرق إليها العديد من الباحثين في هذا الموضوع وعلى رأسهم رابح تركي عمامرة في دراسته المتخصصة والموسومة بـ " التعليم القومي والشخصية الجزائرية " ¹، ولتقدم إنجاز هذه الدراسة زمنياً عن الدراسات الأخرى فإن أغلبها جارياً وتبنت رؤيتها *، غير أننا نجد أنفسنا نختلف معها لحد ما خاصة فيما تعلق في التحديد أو التقسيم الزمني لهذه المراحل، وهو ما يحتم علينا مناقشته حتى نبرر هذا الاختلاف.

قسم الباحث رابح تركي عمامرة مراحل تطور جهود جمعية العلماء التعليمية إلى ثلاثة مراحل كانت كالتالي:

المرحلة الأولى (1931م _ 1939م): تبدأ من سنة تأسيس الجمعية إلى بداية الحرب العالمية الثانية وهو ما سوف يكون لها من آثار على عمل ونشاط الجمعية، ويرى الباحث أن هذه الفترة تميزت في أغلبها بالتأسيس للمدارس من خلال وسائل الدعاية المختلفة.

وقد ركز الباحث في هذه المرحلة أكثر على جهود جمعية العلماء التعليمي في فرنسا مبيناً المهام التي كانت ترنوا إليها الجمعية من وراء تعليم أبناء المهاجرين ²، وقد غطت هذه الفكرة أغلب عرضه، متغافلاً عن جهودها في الداخل.

المرحلة الثانية (1939_1944م): برر الباحث إطارها الزمني بفترة الحرب العالمية الثانية، وأشار إلى فكرة توقيف نشاطات الجمعية بموجب قانون الأحكام العرفية الذي فرضته الإدارة الاستعمارية في البلاد، ووفاء رئيس الجمعية الشيخ عبد الحميد بن باديس، وأثر كل هذا على الجهد التعليمي للجمعية، ولم يقدم لنا أي فكرة عن إنجازات الجمعية على محدوديتها، مما يجعلنا نحسب أن الجمعية لم تستطع إنجاز أي تقدم يحسب لها في هذا المضمار خلال هذه المرحلة ³.

¹ - رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الجزائرية مرجع سابق، ص ص 202-207.

* - لعل أهمهم المؤرخ عبد الكريم بوصفصاف المتخصص في موضوع جمعية العلماء أنظر كتابه: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945م، مرجع سابق، ص ص 156-157.

² - رابح تركي: المرجع السابق، ص ص 203-206.

³ - رابح تركي المرجع السابق، ص ص 206-207.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

المرحلة الثالثة (1944_1956م): وصفها الباحث بالفترة الأخيرة مبرراً نهايتها بتوقف نشاطها النهائي عام 1956م، وأشار إلى أن هذه الفترة تعد فترة الانطلاق الواسع النطاق في نشر التعليم وتكوين المدارس.¹

من خلال ما تقدم يمكن الوقوف على مجموعة من الملاحظات التي تجعلنا نعيد النظر في التقسيم الذي قدمه الباحث رابع تركي:

- 1_ عند دراسته وجه القارئ من خلال عنوان مبحثه لتطور التعليم العربي الحر بعمومه لجمعية العلماء في حين أن مضمون مبحثه كان يغلب فيه التعليم المدرسي
 - 2_ ترمين المراحل بطريقة غير مقنعة، أين قدم مبررات فضفاضة لبداية كل مرحلة ونهايتها وهو ما انعكس على الحصر غير الصحيح لمراحل التعليم في نظرنا.
 - 3_ اقتصار تطور تعليم الجمعية على معيار زيادة عدد المدارس وتوسعها الجغرافي، في حين أهمل التطور الكيفي والنوعي للتعليم المتعلق بتحسين العملية التعليمية من حيث المناهج والطرائق والوسائل والتسيير وحتى هيكل البناء، وهو ما يحسب للجمعية في هذا الميدان وما يجعل جهودها ذات قيمة مضافة.
 - 4_ لم يقدم لنا أمثلة واستشهادات عن أهم المدارس التي أنجزت في كل مرحلة رغم أهميتها خاصة في المراحل الأولى لإظهار مدى مساهمة الجمعية في جهد توسيع التعليم.
 - 5_ الإشارة للمرحلة الأخير بنهايتها بعام 1956 معتبرا هذه السنة هي نهاية لنشاط الجمعية في التعليم، ولكن الحقيقة أن سنة 1956م هي سنة انضواء الجمعية الرسمي وككل أطراف وأحزاب الحركة الوطنية للثورة إلا أن نشاطاتها بقيت مستمرة خاصة منها العمل التعليمي إلى الاستقلال 1962م وظهور التعليم العمومي الذي تولته الدولة الجزائرية، وإن أصبح عدد لا بأس به من مدارس الجمعية في فترة الثورة تحت تبعية جبهة التحرير الوطني.
- ومن خلال الاعتبارات السابقة نعتد في تقسيمنا لتطور تعليم الجمعية سبعة مراحل من المرحلة ما قبل تأسيس الجمعية إلى توقف نشاطها التعليمي النهائي بإعلان الاستقلال 1962م.

مرحلة التأسيس:

بداية يجب التنويه أنه لا يجوز تناول هذه المراحل دون الوقوف على مرحلة التعليم السابقة لتأسيس الجمعية، وهذا لاعتبارنا أن تعليم الجمعية لم يبدأ مع التأسيس القانوني لها وظهورها كإطار تنظيمي للنشاطات الإصلاحية المختلفة في الواقع الجزائري، بل كان يمثل امتداد لتلك الحلقات والجهود التي ظهرت

¹ - المرجع نفسه، ص 207.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

مع بداية الحلقة التعليمية التي باشرها الشيخ ابن باديس بعد استقراره النهائي في الوطن عام 1913م وعزمه على المهمة الإصلاحية التي نذر نفسه لها، وكذا أيضا مع التفريجات المنفرقة لحلقات التعليم التي تلتها خاصة تلك التي بادر بها قادة الفريق الإصلاحي بعد عودتهم للوطن كحلقة الشيخ العقبي ببسكرة والإبراهيمي بسطيف والميلي بالأغواط، والتي مثلت معالم ومرجعية لما سوف يعرفه المشهد التعليمي في الجزائر من تكاثر وازدهار لحلقات التعليم العربي الحر في مختلف مناطق الوطن، والتي ظهرت في تلك المبادرات التي تولاها المتعلمين العائدين من مراكز التعليم في العالم الإسلامي أو من أولئك المتعلمين التي بدأت ثمار حلقات التعليم للقادة الفريق الإصلاحي تنتجهم وعلى رأسها حلقة الشيخ ابن باديس.

يمكن أن نطلق على هذه المرحلة وصف مرحلة التأسيس وهذا بالنظر إلى تلك الجهود والمسااعي المضنية التي تميزت بها هذه السنوات من قبل رواد الإصلاح في الجزائر لإيجاد هذا النوع من التعليم في الواقع الجزائري، هذا النوع من التعليم المرتبط بأهداف ومشروع الذي يعد حتى هذه الفترة حالة غريبة يختلف عما سبقه من حلقات تعليمية للتعليم العربي الحر التي عرفته الوسط التعليمي للمجتمع الجزائري المسلم الذي سوف تتولى زمامه جمعية العلماء.

بينما نجد صعوبة في التأريخ لهذه المرحلة خاصة ما تعلق بسنة بدايته، هل نعتبر سنة تأسيس الشيخ ابن باديس لأول حلقة له هي بداية هذه المرحلة أم مع السنوات القريبة الموالية لها والتي تميزت بظهور حلقات لأقطاب هذا التعليم موزعة على رقع جغرافية ومناطق متباينة من الوطن وان كانت على محدوديتها، أم سوف نرجح سنة 1925م كبدية لأهمية هذه السنة في كل المشروع الإصلاحي في الجزائر، وذلك لما عرفه من وضوح المشروع وبداية التفكير الفعلي في تمثل مؤسساته في الواقع خاصة مؤسسة التعليم*، وهو ما تشير إليه أحداث ووقائع عديدة كان لها الأثر الكبير في تقدم المشروع الإصلاحي ككل، وأيضا ما يمكن أن يكون هذا النوع من التعليم قد وصله في هذه السنة من ازدهار في عدده وانتشار في جغرافيته عبر الوطن إلى أن بدى يلوح في واقع المجتمع الجزائري كظاهرة ثقافية لم يعتدها.

ونحن نميل إلى اعتماد سنة 1925م للاعتبارات السابقة، وهي السنة التي بدء التعليم الإصلاحي يظهر بجرأة في المشهد الاجتماعي للمجتمع الجزائري المسلم وبداية تلقفه من هذه الأوساط.

كما نعتمد سنة 1931م سنة تأسيس الجمعية سنة نهاية هذه المرحلة، وهذا لما سوف تعرفه المرحلة التالية لها من تقدم في هذا الميدان نظرا للأرجحية التي تمتع بها الفريق الإصلاحي بالإعلان عن نفسه من

* - تمثل هذه السنة 1925م أهمية بالغة ومفصلية في المشروع الإصلاحي عامة في الجزائر بظهور الشهاب والدعوة لتأسيس جمعية تضمن فريق المثقفين ثقافة عربية إسلامية، انظر مبحثنا تأسيس جمعية العلماء.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

خلال مباشرتهم لنشاطاتهم بشكل قانوني متجاوزين ما كانت تفرضه عدم قانونيتهم من تأخر وتباطؤ في البحث على الحيل وخلق الفرص أو انتظارها لفتح مدارسهم التي كانت تمنعها وتضيق فرضتها القوانين الفرنسية.

تميزت هذه المرحلة فيما يتعلق بتوسع التعليم خلالها بين الحذر والإقدام، وهذا نظرا لحدائته في البيئة الأهلية وما سوف يعترض ازدهاره وتوسعه موقف التحفظ حيناً والرفض أحياناً والذي يتدعم مع مواقف المؤسسات التقليدية كالمرابطة والطرقية منه وأثر ذلك على أفراد المجتمع لموقف الرفض للنفوذ الذي كانت تمثله الطرق على الناس حتى هذه الفترة، وأيضاً قلة الأفراد المؤهلين لتأطير هذا النوع من التعليم أو جهل الفريق الإصلاحي ببعضهم حتى تلك اللحظة، إضافة إلى الشروط القانونية التي كانت تفرضها الإدارة الاستعمارية في ما يتعلق بمنع فتح المدارس من جانب المعلم العربي إلا برخصة والتي كانت تمثل عوائق بسبب صعوبة توفرها لدى المعلم الأهلي.

كل هذا ترك حلقات التعليم الإصلاحي في السنوات الأولى لهذه المرحلة يعرف ظهوراً محتشماً ويتوسع بوتيرة بطيئة وإن كان يلحظ عليه التقدم والتحسن من السنة إلى السنة الموالية لها حتى ما وصلت هذه المرحلة نهايتها بدا بكيانه المتميز والمعلن عن نفسه في الواقع.

والجدير بالإشارة أن هذه المرحلة رغم أهميتها في المساهمة في توسع حلقات التعليم عبر الوطن سواء تلك الحلقات التي نشطها أفراداً أحراراً أو مناصري الفكرة الإصلاحية، إلا أنها تميزت بشكل عام بالاضطراب والارتجال وضعف التنظيم ولعل هذا يعود حتى هذه الفترة إلى ضعف جاهزية الفريق الإصلاحي وعدم نضج رؤيته التعليمية واكتمالها وأيضاً افتقاره للإمكانات المادية التي كانت العائق الكبير في إيجاد بنية تحتية لهذا التعليم خاصة وأن أغلب العقارات الدينية والتعليمية كانت خارج يد الفريق الإصلاحي وأنصاره وهذا يرجع لحدائته ظهورهم حتى هذه اللحظة.

كما لا نغفل تشتت جهدهم وتركيزه على هدف تأسيس جمعيتهم التي أخذت منهم طاقة كبيرة، جعلت من نشاطاتهم الأخرى تفتت أمام تحدي تأسيس الجمعية كإطار قانوني بمقاييس رؤيتهم.

كانت هذه المرحلة في نظر قادة الإصلاح تمثل مبادرة لا بد منها، سعى من خلالها الفريق الإصلاحي بالدفع بهذا النوع من التعليم إلى الوجود في واقع المجتمع الجزائري المسلم، كحتمية للتأسيس له لإيجاده في بيئة كانت تفتقر للثقافة التعليمية التي نضبت مع ما قترفته السياسية الاستعمارية في حقها، كما كانوا يرون أن هذه التجربة لا بد منها حتى على ظهورها الضعيف وما يلحقه من نقص فيها على المثال الذي صمموه لها في تصورهم، واضعين نصب تفكيرهم ما يتطلب من إجراء دوري لعمليات تقويمية

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

وتحسينية من شأنها تطويرها كلما توفرت ظروفها حتى تصل إلى ذلك الطموح في المثال التعليمي الإصلاحي الذي خططوا له.

وأیضا كان لدافع ربح الوقت وتدارك الفرص أهم رهان لعب عليه الفريق الإصلاحي في تأسيس كل مشاريعه ولعل مشروع التعليم الذي يعد قاعدة المشاريع والنشاطات الإصلاحية الأخرى كان الأولى بالبداية في التأسيس والتوطين.

كما يمكن أن نلاحظ أن بداية هذه المرحلة غلب عليها التعليم المسجدي عند الإصلاحيين، ليستلوا من الحلقات التعليمية المسجدية مدارس كانت تنمو وتتوسع وتتطور وظيفيا شيئا فشيئا، فمن الحلقة ومشروعهم في وسطهم الاجتماعي، وهذا ما نلاحظه أثناء تتبعنا لتطور مدارس قادة الإصلاح، فالشيخ ابن باديس بعد انتقاله من المسجد الأخضر إلى مسجد سيدي قموش أسس حلقاته التعليمية ثم سرعان ما ألحق بالمسجد مدرسة لتعليم الفتية لتتطور المدرسة وتستقل في شكل مدرسة التربية والتعليم وهو تقريبا ما عرفته التجارب التعليمية الأخرى للفريق الإصلاحي حتى هذه الفترة.

وأهم المدارس التي ظهرت وأخذت في طبيعتها هذا النوع من التعليم، مدرسة سيدي قموش بقسنطينة¹ الذي تولى تأسيسها والتعليم فيها الشيخ ابن باديس وقد كانت المثال والنموذج للمدارس الأخرى ومدرسة الخلدونية ببسكرة التي أسسها الشيخ خير الدين بعد عودته من الزيتونة سنة 1925م² والمدرسة التي أسسها الشيخ الإبراهيمي بسطيف بعد عودته إلى أرض الوطن من المشرق سنة 1920م كما يمكن أن نعتبر المدرسة التابعة للمسجد الجديد بباتنة التي أسسها الشيخ الطاهر الحركاتي بداية العشرينيات واحدة من هذه الأمثلة.³

المرحلة الأولى (1931_1937م): تبدأ هذه المرحلة مع تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م أين بدت جهود الجمعية واضحة ومعلنة في هذا المسعى وقد ساعدها في ذلك الصفة القانونية التي أصبحت عليها وطبيعتها التهذيبية الثقافية التي تسمح لها بالنشاط الثقافي عموما والتعليمي خصوصا مثل ما نص عليه ميثاقها المصادق عليه من قبل السلطات الفرنسية والذي يجرى بشكل واضح وصريح على نشر التعليم⁴، ويمكن أن نضع تاريخ 1937م سنة نهايتها لاعتبار التغيير الذي شهدته هذه السنة في

¹ - عبد الحميد زوزو: الثقافة والتعليم، المرجع السابق، ص72.

² - محمد خير الدين: مذكرات، ج1، ص74.

³ - انظر مبحثنا السالحي حول الدور التعليمي للشيخ الطاهر الحركاتي. ص ص 277_286.

⁴ - مهديد إبراهيم: الجزائريون في القطاع الوهراني بين 1900-1948 الجذور الثقافية والهوية الوطنية والنشاط السياسي، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ المعاصر والحديث، جامعة وهران، 2000، ص331.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

التوسع الهائل لمدارس الجمعية عددا وجغرافية أين ظهرت فيها أهم المدارس الكبرى وفي أهم حواضر ومدن الجهات والولايات في الوطن وأيضا محاولات التطوير والتحسين النوعي لهذه المدارس والتعليم والتي تظهر مع انعقاد مؤتمر المعلمين الأحرار 1937م الذي تضمنت توصياته في هذا الشأن.

ورغم كل هذا التطور في الوضع الذي كان من شأنه المساهمة في توسع التعليم ومدارسه إلا أننا أثناء قيامنا بعملية مسح لمدارس الجمعية في جريدة البصائر خلال كل هذه المرحلة لم نحصل على نتيجة مرضية، وهو ما يعكس أن هذه المرحلة كما يبدو قد عرفت صعوبة وهو ما يتأكد في قول محمد العيد آل خليفة في أحد أعمدة البصائر، إذ نوه أنه منذ تأسيس الجمعية إلى غاية 1936م تميزت بقلة المدارس، بل وخالية في كل القرى والمدن، وأن وجدت المدارس فإنها لم تكن تقم بدور التربية والتعليم بعناية كافية¹.

توجهنا للملاحظة التي أبدتها الشيخ محمد العيد آل خليفة إلى ضعف وتراجع إنجازات الجمعية في الميدان التعليمي حتى عن الفترة السابقة، ولكن هذه الملاحظة يبدو الشيخ بناها على ما كانت تطمح له الجمعية في تطور تعليمها في هذه المرحلة بعد إطلاق يدها في هذا الميدان وكذا الجهود التي بذلها الفريق الإصلاحي في الدعاية المختلفة لبناء المدارس والزيارات المرطونية التي كانت تقوم بها وفود الجمعية وقادة الفريق الإصلاحي لمناطق ومدن كل القطر الجزائري لدعوة ساكنتها وتشجيعهم على إنشاء المدارس وضرورة تعليم أبنائهم.

وعلى الرغم من كل هذا إلا أن الجمعية استطاعت أن تنجح في تأسيس مدارس ذات أهمية وعبر أنحاء الوطن على قلتها، نستعرض أهمها كنماذج لهذه المرحلة.

1- مدارس المنطقة الشرقية "عمالة قسنطينة"

- مدرسة التهذيب بالميلية:

يرجع الفضل في تأسيس مدرسة التهذيب إلى السيدان دريوش محمد وعلاوة طالب - قاضي المدينة - مع ثلة أخرى من انصار الإصلاح من البلدة²، تأسست بين عامي 1933-1934م، أين تم كراء محل وفيه كونوا مدرسة من قسمين، باشر فيها عملية التدريس كل من الشيخان: درويش محمد وبن عتيق محمد الصالح، إلا أن المدرسة توقفت عن العمل بمجرد مغادرة هذا الأخير ميلا لتعود للاستقبال التلاميذ بعودته تلبية لطلب الشيخ عبد الحميد بن باديس.

¹ - محمد العيد آل خليفة: التربية المدرسية وأثرها في المجتمع، البصائر، العدد 2، السنة الأولى 1936، ص3.

² - محمد الحسن فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، ج1، مرجع سابق، ص83.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

__مدرسة تهذيب البنين بتبسة 1934م:

المدرسة كانت عبارة عن محل تبرع به أحد رجال الإصلاح والذي كان في أصله مصنعا للتبغ وتعود مزية إنشاءها إلى اشتراط الشيخ العربي التبسي تأسيس مدرسة ومسجد مقابل العودة إلى تبسية، بعد أن كان قد غادرها في سنة 1929م¹ إلى سيق بدعوة من الشيخ ابن باديس، ونظرا لما عرفته تبسة من جفاف في التعليم بعد غيابه أصر ساكنتها على طلب عودته غير أنه هو الآخر أصر على شرطه السابقة، وبهذا تمت المبادرة في بناءها لتظهر عام 1934م للوجود ب6 أقسام ليضاف لها قسمان فيما بعد وتم تجهيزه وتأثت من قبل وتمويل من قبل الجمعية المخلية ويشرع بعدها في بناء مسجد بجوارها.²

- مدرسة الشباب بالميلية:

كان وراء تأسيسها الشيخ مبارك الميلي الذي دعى إلى إنشاء مدرسة ومسجد وقد تجاوب معه أنصار الإصلاح الناشطون في جمعية الشباب بالميلية وبذلوا كل ما في وسعهم لتظهر عام 1936م، وتستقل البنين والبنات، وأدارها الشيخ أحمد بوعروج وعلم فيها مجموعة من المعلمين أهمهم:

الهادي بن الشيخ الميلي وأحمد بن الأزعر وعلي مزهود³

- مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة 1936م⁴:

كانت في بدايتها عبارة عن حلقة تعليمية للشيخ ابن باديس بمسجد سيدي بومعزة ثم أنشأت كمدرسة مولت من قبل المحسنين وأصحاب التبرعات⁵ وتم شراء عقار للتدريس وأمام توافد الكبير للمتدربين وزيادة عددهم، اضطرت الشيخ ابن باديس إلى البحث عن مبنى اخر استأجره أعضاء الجمعية وأصبح يعرف بـ "مكتب التعليم العربي" غير أنهم الاستقرار تحولوا عنه بسبب بيع مالكي الدار للمبنى الأمر الذي دفع "الحاج بوصاع" أحد أتصار الإصلاح في المدينة إلى شراء مبنى من ماله الخاص وضمه إلى حبوس ج م ج و مجرد تمكن جمعية التربية والتعليم تحت رئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس من شراء عقار في

¹ - أنظر مبحث التجارب التعليمية لقادة جمعية العلماء تجربة العربي التبسي ص ص 144_145. ومحمد الحسن فضلاء المرجع السابق، ص 77.

² - المرجع نفسه، ص 78.

³ - أنظر مبحث التجارب التعليمية لقادة جمعية العلماء تجربة مبارك الميلي ص ص 137_138. و محمد الحسن فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، ج 1، مرجع سابق، ص 82.

⁴ - المرجع نفسه، ص 58.

⁵ - المكان نفسه، ص 58.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

نُهج الأربعين شريفا حولته لمدرسة التي أخذت اسم الجمعية وقد شملت 6 أقسام ومبنى للإدارة وعدة غرف وقاعة للاجتماعات زيادة على توفرها مرافق أخرى¹.

مدارس المنطقة الوسطى "عمالة الجزائر".

- مدرسة الشبيبة بتيزي وزو:

انبثقت هذه المدرسة عن نادي السلام الذي كان مركزا للنشاط الثقافي للشباب ثقافة عربية إسلامية ومزامنة مع تأسيس الجمعية المحلية سنة 1934م التي رأسها في البداية محمد حموتن المعلم الرسمي بالمدرسة الفرنسية ونظرا للمضايقات التي تعرض لها يتنحى ليخلفه محمد الصغير فرج، قامت الجمعية بإستئجار محلا متواضعا إحتوى على حجرة واحد²، أثت بتجهيزات المدرسية كالصبورة والطاولات والكراسي، أدارها محمد حموتن ثم محمد الصغير فرج وعين حمزة بوكوشة مدرسا، غير أن طلبه للرخصة الإدارية الفرنسية رفض بحجة أنه عربي لا يقبل له مزاولة عمل التدريس في مناطق القبائل، غير أن الجمعية المحلية استدرأكت الأمر بالإعتماد على معلمين محليين كان لهم الفضل في بقاء مشروع المدرسة.

- مدرسة الشبيبة الإسلامية بالجزائر العاصمة:

تأسست كمثيل لمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة في 1936م، توفرت على ثمانية حجرات واسعة تجهزت بتأثيث عصري وضمنت كل شروط الاستقبال³، كانت بها ساحة فسيحة أبن يقضي فيها التلاميذ استراحتهم كان لها شرف الإشراف عليها من قبل الشيخ الطيب العقبي وبقت المدرسة تسدعى معارف علوم الدين والحضارة العربية لمرتديها طول فترة عمرها، تولى محمد العيد آل خليفة إدارتها ويحسب لهذه المدرسة ماتميزت به في تخصيص أفواج للشباب وأخرى للكهول⁴، لقد كانت فائدتها عظيمة للتناجح التي حققتها في الوسط الأهلى في التعليم ولعل هذا يعود لفضل البيئة الحضرية التي وجدت بها مدينة الجزائر.

¹ - المرجع نفسه، ص 60.

² - محمد الحسن فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، ج2، مرجع سابق ص 156.

³ - المرجع نفسه، ص 43.

⁴ - نفسه، ص 45.

_مدارس المنطقة الغربية عمالة "وهران":

- المدرسة الإصلاحية بوهران:

بعد تأسيس الجمعية الإصلاحية بوهران في أواخر 1935، قامت بفتح قسم واحد متعدد المستويات¹ وأسندت مهمة التدريس إلى الشيخ محمد السعيد الزاهري فكان المدير والمعلم والمرشد في آن واحد، ويذهب علي مراد أن محمد السعيد الزاهري ساهم في تنشيط الجو الثقافي من خلال تأسيس نادي ثقافي حرك من خلاله المدينة مما أضف عليها نشاط مميز في الفترة ما بين 1932-1938²، غير أن محمد القرصو يذهب إلى أن الزاهري لم يطل به الأمد في العمل تحت غطاء جمعية لعلماء ليتحول عام 1936 إلى مخالف ومناصب العداة لقادة فريقها³، وهو ما يكون قد أثر على جهود التعليم في مدينة وهران حتى هذه الفترة إضافة إلى ما لاحظته الإدارة الفرنسية من ثمار لهذا النشاط على مستوى الوعي الوطني ونشر الثقافة والحضارة الإسلامية فبادرت في إنشاء مدارس تبشيرية⁴، بجانب مقر الجمعية.

ولم تكتفي عند هذا الحد بل راح المبشرون لتحقيق أهدافهم في إفشال المدرسة وجهود الزاهري إلى جلب أبناء المسلمين من خلال السماح لهم بالإقامة في المدارس التبشيرية وجعل وجبات الغذاء مجانية كمحاولة إغراء لهم مع تقديم الهدايا والهبات⁵، وأمام هذا كله قامت الجمعية بمضاعفة جهودها بتخصيص قسم كبير يتم فيه التعليم مجاناً بما في ذلك فئة اليتامى الأكثر استهدافاً من قبل المبشرين ووزعت عليهم الكتب والأدوات المدرسية، إلى جانب تكثيف دروس الوعظ والإرشاد.

_ مدرسة دار الحديث بتلمسان 1936م:

تأسست هذه المدرسة بفضل المجلس الإداري لجمعية العلماء م ج تولى شأنها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من عام 1936م⁶، وتم افتتاحها يوم الاثنين 27 سبتمبر 1937م، في جو احتفالي بهيج أرادته الجمعية أن يكون حدثاً كبيراً، حضره ما يزيد عن عشرين ألفاً من كل جهات الوطن، وكان شرف الافتتاح للشيخ بن باديس أصبحت هذه المدرسة قطبا تعليميا في كل الغرب الجزائري بفضل جهود رجالها وعلى رأسهم الشيخ البشير الإبراهيمي الذي حمل على عاتقه مهمة إلقاء دروس الموطأ بعد صلاة الفجر،

¹ - محمد الحسن فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر القطر الوهراني، ج3، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1999، ص43.

² - Ali Merred, Op cit, p112.

³ - محمد القرصو: المرجع السابق، ص47.

⁴ - محمد الحسن فضلاء: المرجع السابق، ج3، ص44.

⁵ - نفسه، ج3، ص43.

⁶ - نفسه، ج3، ص15.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

ودروس التفسير بعد الغروب ، وقد احتضنت الفتيات والفتيان¹ وما إن حلت سنة 1938م حتى تم غلقها من طرف الإدارة الفرنسية ليعاد فتحها من جديد² بمسعى مطالب من النواب واحتجاج من ابن باديس. والحق أن هذه المدارس مثلت أهمية بالغة في مستقبل التعليم المدرسي للجمعية، أين سوف تصبح نماذج وأمثلة لما سوف يظهر من مدارس خلال المراحل التالية، كما تكمن أهميتها في وجود مدارس كبرى ومركزية في كل قطاع كمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة لقطاع الشرق ومدرسة الشبيبة الإسلامية بمدينة الجزائر لقطاع الوسط ودار الحديث بتلمسان لقطاع الغرب، هذه المدارس مثلت "مدارس أم" استطاعت أن تساهم في تكاثر نوعها في نواحيها.

المرحلة الثانية: (1937_1939م):

أثمرت الجهود السابقة لقادة الفريق الإصلاحي وأصبحت نتائجها ظاهرة في واقع المجتمع الجزائري المسلم، فأغلب البيوت الجزائرية أضحت مقتنعة بالفكرة الإصلاحية وما كان لهذا من أثر في التجاوب الايجابي مع نشاطاتها³ خاصة في ميدان التعليم، وقد تعززت هذه الانجازات بالتزايد المستمر للمدارس القرآنية العصرية والمدارس التعليمية وتشجيع التعليم في المساجد وإنشاء النوادي الثقافية⁴.

بينما يصف البشير الإبراهيمي وضع التعليم في السنوات الأولى للجمعية بقوله أن جمعية العلماء المسلمين قامت بإحياء اللغة العربية وقد كانت المدارس لم تنته إلى العشر مدارس، ولكنها بعد تنشيط الحركة التعليمية وتأثر الشعب الجزائري بها واشتد التنافس في المساهمة بتقديم مساعدات مادية من أجل زيادة بناء المدارس، فانتقل عددها من عشرة إلى عشرات وفيها الكبير والفخم الذي يقل نظيره في المدارس الفرنسية، وفيها ما يحتوي على ثمانية عشر فصلا وجميعها مستوف للشروط الكافية وعلى أحدث طراز.⁵

ولعل هذا التوسع الهائل في المدارس يعود أساسا لمبادرات خريجي الجامع الأخضر الذي زاد عددهم في هذه المرحلة ووجههم شيخهم ابن باديس عمدا إلى التعليم موثرا بقاءهم في الداخل لتنشيط التعليم على مواصلتهم التعليم في الزيتونة أو الأزهر، وقد تميزت هذه المرحلة بنوع من الاتجاه نحو التنظيم والتحكم من قبل الجمعية في هذه المدارس من خلال شعبها المحلية التي كانت تسهر على إنشاء المدارس ومتابعة سيرها،

¹ - عبد الملك مرتاض: نغمة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، 1925-1954، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1983، ص54.

² - محمد الحسن فضلاء، المرجع السابق، ج3، ص22.

³ - الشهاب، ج1، أبريل 1936 من 1-4.

⁴ - مهديد إبراهيم: المرجع السابق، ص331.

⁵ - محمد البشير الإبراهيمي: آثار البشير الإبراهيمي، 1952-1954، ج4، ط1، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997، ص ص 174-175.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

إضافة إلى ظهور معلمين بها ذوي مستوى لا بأس به وتوجهات تربوية قريبة من بعضها لما كان من أثر عليهم في توجيه ابن باديس لهم.

غير أن هذه الانطلاقة المريحة لم تعمر طويلا بفعل بوادر الحرب العالمية الثانية وما انجر عليه من تضيق على النشاط الوطني من قبل الإدارة لتراجع هذه الإنجازات.

ـ مدارس المنطقة الشرقية "عمالة قسنطينة":

ـ مدرسة التربية والتعليم باتنة 1937م:

باشرت هذه المدرسة العمل عام 1937م¹ نتيجة الجهد الذي قامت به الجمعية المحلية بباتنة من خلال استئجار دار فصلت بثلاثة أقسام وإدارة وقسم لتعليم القرآن وعدة غرف مع وجود مرافق مستوفاة على الشروط الضرورية ومن الذين أشرفوا على التعليم فيها عمر دردور و محمد يكن الغسيري ومحمد الحسن فضلاء كانت بدايتها موفقة حيث استقبل ما يقرب مائة وخمسين تلميذ وتلميذة.²

ـ مدارس المنطقة الوسطى عمالة الجزائر:

ـ مدرسة الرشيدية بشرشال 1937م:

وصفها محمد حسن فضلاء بأنها كانت "باكورة من بواكير الإصلاح"³، تأسست في 1937م بنهج باستور وقد كانت مبنى مستغل عن طريق الكراء، احتوت على قسم واحد تحيط به ساحة فسيحة متوفرة على شروط التدريس، تم تنظيم التدريس بها بتقسيم التلاميذ إلى أفواج ولكل فوج حصصه الخاصة به⁴، أشرف الشيخ علي المغربي على التعليم بها بوصية من الشيخ الطيب العقبي.

ـ مدارس المنطقة الغربية " عمالة وهران":

ـ مدرسة التربية والتعليم بني صاف.

أسستها الجمعية في عام 1938 بشرائها حوش ضمنته قسم واحد ومن معلمي هذه المدرسة الشيخ العباس الذي كرس كل وقته للتعليم فيها مركزا على صغار السن وقد ضلت تستقبل متمدرسيها الذين يتزايد عددهم كل سنة حتى جاء قرار غلقها بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية⁵.

ـ مدرسة التربية والتعليم بالجزوات:

¹ - محمد الحسن فضلاء ، المرجع السابق، ص93.

² - المرجع نفسه.

³ - نفسه، ص136.

⁴ - محمد الحسن فضلاء ، المرجع السابق، ج2، مرجع سابق، ص137.

⁵ - محمد الحسن فضلاء ، المرجع السابق، ج3، مرجع سابق، ص69.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

تأسست سنة 1937م عندما تم فتح مدرسة ضمت قسم واحد استأجرته الجمعية وفي 1939م اشترت هذه الأخيرة أرضا لبناء مدرسة ومسجد غير أن ظروف الحرب العالمية الثانية واندلاعها شل حركة المشاريع التعليمية¹، التي كان أحد انعكاساتها ظاهرا في هذا المشروع.

المرحلة الثالثة (1939م _ 1945م): ويعني بهذه الفترة زمن الحرب العالمية الثانية وهي الفترة التي كانت صعبة على الجزائر، إذ حجبت الإدارة الفرنسية نشاط كل الاتجاهات الوطنية وتعرض قادتها إلى ألوان مختلفة من المضايقة كالنفي والاعتقال، وقد كان للجمعية نصيب من هذا التعسف، وما زاد الأمر تعقيدا لها وفاة رأس مشروع الجمعية الشيخ ابن باديس عام 1940م، مما مثل عائق كبير أمام تقدم جهود الجمعية في مسعى التوسع والتقدم.

مع هذه التحديات إلا أن الجمعية استطاعت أن تحقق مكاسب في هذا الميدان خلال هذه الفترة وأن تراجعت وتيرة الإنجاز عن الفترات السابقة، فظهرت لها عدة مدارس عبر ربوع الوطن مما يعكس ان الشيخ ابن باديس نجح في إيصال قناعاته إلى القاعدة الجماهيرية للمجتمع الجزائري المسلم، الذي أصبح يتحدى كل عائق ويبادر بمحض إرادته في تنفيذ واجباته كإنشاء المدارس وهذه عينات مهمة لبعض النماذج التي تعكس انجازات الجمعية خلال هذه المرحلة وعبر كل قطاعات الوطن.

مدارس المنطقة الشرقية عمالة قسنطينة:

- مدرسة الحياة بالشرية:

تأسست هذه المدرسة بالشرية أحد مناطق تبسة التي تبعد عنها بحوالي خمسين كلم وهو مايسهل وصول تأثيرات دعوة وتعليم مدرسة العربي التبسي، بادر أهل الشريعة الأشغال في بناء المدرسة يوم 14 نوفمبر 1944م² وذلك بعد كراء محل اعدو تصميمه إلى أقسام، باشروا بها الدروس التعليمية وحولوا من حجرة واحدة كقسم لتحفيظ القرآن، وقد تعهدت جمعية العلماء م ج بالمدرسة رعاية ووصيانة، وقد كان الشيخ العربي التبسي يأخذ بأيديهم ويعضدهم مواصلا دائما حثه ونصحه على استمرارهم في مشروع مدرستهم.

- مدرسة التهذيب بشلغوم العيد:

¹ - محمد الحسن فضلاء ، المرجع السابق، ج3، مرجع سابق، ص69.

² - محمد الحسن فضلاء ، المرجع السابق، ج1، مرجع سابق، ص

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

تأسس مدرسة التهذيب بفضل الجهود الجبارة للجمعية المحلية لجمعية العلماء بشلغوم العيد أين قامت بجمع التبرعات وتم شراء بمبلغه منزل من طابقين الذي حولته إلى مدرسة ضم طابقها العلوي خمسة أقسام وإدارة ومسكن¹، والسفلي ضم محلات تجارية ومرآب، تاريخ الإعلان عن افتتاحها رسمياً سنة 1945م، ومن حسن حظ سكان شلغوم العيد أن المديرية لم تتعرض لإجراءات الغلق أو مساءلة المشرفين عنها وهذا لانشغال السلطات الفرنسية بحوادث 8 ماي 1945م زيادة على خوفها من تصاعد الغليان والغضب .

وقد درس بها الأديب أحمد رضا حوحو، وكان من شرفها أن أظرن التعليم فيها معلمات وهن نعناعة شكيري، مالكة عامر، خريجتا مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة²، وهو ما يكون مثال للمجتمع في تدريس بناتهم و يبرز إسهام المرأة الجزائرية كمعلمة خاضت بنجاح النضال التعليمي واهتمام الإصلاحين بتعليم المرأة وإقحامهم في الواجبات الوطنية لتغطية كل جوانب النضال مع جميع الفئات، كما يعكس اهتمام جمعية العلماء بدور المرأة في نضال جمعية العلماء.

– مدرسة العرفان بعين ميله:

كانت بدايتها الأولى قبل الحرب العالمية الثانية حين تبرع أحد أنصار الإصلاح بالمنطقة بقسم أرادته لتعليم أبناء البلدة مبادئ اللغة العربية والمعارف الدينية كالعقيدة الإسلامية وشيء من التفسير، غير أن هذه المبادرة تعرضت للمضايقة والضغط.

فيما بعد تكفلت الجمعية المحلية لعين ميله ببناء مدرسة وقد ظهرت من حيث بناء عمارتها بالشكل العصري سنة 1945م³، ضمت أربعة أقسام وإدارة ومرافق أخرى وخلال وقت قصير وصل عدد مرتديها من التلاميذ ما يقارب 300 تلميذ توافدوا عليها من مختلف الضواحي.

مدارس الوسط عمالة الجزائر:

– مدرسة نادي الرشاد بالقصبة:

يعود تاريخ إنطلاقها إلى سنة 1940م⁴ بعدما اقتصرت الجمعية المحلية لـ ج م ع ج بالمنطقة شقة في عمارة سكنية ذات طابقين وقد ضمت ستة حجرات صغيرة ومسكن، ومظراً لتزايد المقبلين عليها الذي من

¹ – محمد الحسن فضلاء، المرجع السابق، ج1، مرجع سابق، ص175.

² – نفس المرجع، ص176.

³ – نفس المرجع، ص177.

⁴ – محمد الحسن فضلاء: المرجع السابق، ج2، ص90.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

التلاميذ اضطرت الجمعية المحلية إلى استحداث ثلاث ملحقات أخرى الأولى في نادي الموصلية و ثانية بباب الجديد المعروف بالخلدونية وملحقة الثالثة قرب جامع فارس.

عرف عن مسؤولي المدرسة استماتتهم الدائمة لتطورها وإنجاحها وهو ما ظهر جليا عنها¹، وعبرا عنه الشيخين البشير الإبراهيمي والعربي التبسي عند زيارتهما.

- مدرسة الصادقية بسلام باي "صلامي".

يرجع الفضل في التحريض لتأسيس هذه المدرسة إلى الأستاذ محمد الطاهر فضلاء كما يشير في مؤلفه²، تأسست على إثر إنشاء جمعية الصادقية من شهر أبريل 1941م فاستأجرت الجمعية محلا بادرت فيه التأسيس لتعليم الناشئة دون تحديد منها لأعمار المتوافدين إليها وهذا لتعميم الفائدة بين أوساط المجتمع ومع تطور عددهم بسبب كثرة أعداد المتوافدين واستمرار الإلتحاق بها وعندما ضاقت المدرسة بهم، اضطرت الجمعية إلى بناء أقسام جديدة مع بناء مسجد للمدرسة في الطابق العلوي³، أما عن طريقة تنظيم العمل بالأفواج فكانت الدراسة بالتناوب وبعد شراء دار جديدة تم إلحاقها بالمدرسة وفيها خصص أربعة أقسام للذكور ومثلهم للإناث.

- مدرسة الثبات بالجزائر:

تتبع هذه المدرسة إلى جمعية الثبات كان الفضل في ظهورها لمبادرة من أعضائها المحسنين سنة 1944م، وقد كانت بدايتها بتكريم أحد الخيرين من أفرادها بالتبرع بمحل قصد اتخاذه مدرسة، ثم تم تجهيزها واستقبال التلاميذ فيها حتى استأجر محل آخر يتسع لأربعة أقسام وإدارة⁴، غير أنه مع الوقت ومثل ماكان يحدث مع مدارس الجمعية سرعان ما زاد عدد تلاميذها لتجد نفسها أمام تحدي هذه الأعداد.

مدارس العرب عمالة وهران:

- مدرسة التربية والتعليم والإرشاد بسبدو:

عرف عن مدينة سبدو إحدى مناطق حاضرة تلمسان توفرها على شخصيات ناصرت الإصلاح وأيدت فكرته ودعمت نشاطاته وكانت وراء مشاريعه ماديا ومعنويا فبادرو بإنشاء جمعية التربية والإرشاد بالمنطقة بطلب من ج.ع.م.ج، وعلى إثر إنشاء هذه الأخيرة قامت باكتري محل وجعله مكانا للتعليم وقد

¹ - نفس المرجع، ص91.

² - نفس المرجع، ص90.

³ - نفس المرجع، ص92.

⁴ - نفس المرجع، ص101.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

كانت إنطلاقته يوم 27 مارس 1945¹، أين تم إلقاء الدروس التعليمية للراغبين من مختلف الأعمار إلى جانب دروس الوعظ والإرشاد والتثقيف دعماً للنشاط التعليمي.

- مدرسة التربية والتعليم بالرمشي:

يرجع الفضل في ظهور هذه المدرسة إلى جهود المعلم المخلص الهبري المجاوي من سنة 1943م²، في مدينة الرمشي بتلمسان إذ نشط فيها التعليم وأشرف على رآسة جمعيتها مع توليه مهمة دروس الوعظ والإرشاد بمسجد الرمشي ، ومع محدودية المدرسة وتوفرها على قسم واحد فقط غير أن توفره على جميع الشروط فإن المعلم الهبري قام بتفويج التلاميذ ذكورا وإناثا والعمل في تدريسهم وفق نظام ساعات محددة.

- مدرسة التربية والتعليم بمستغانم:

كانت بدايتها بمبادرة فردية من أحد أنصار الإصلاح وقد كان مكان تأسيسها بحي المطمر بمستغانم عام 1944م، ثم تلتها جهود ومساعي جماعية جمعت شخصيات من حزب الشعب وجمعية العلماء ، ضمت المدرسة خمسة أقسام، مع أنها سارت على الرؤية التعليمية لـ ج م ج وهو ما عكس بالإضافة روح التعاون في نشر العلم والمعرفة أثر الثقافي للجمعية على باقي اتجاهات الحركة الوطنية.

لم تتوقف جهود جمعية العلماء بمقاطعة مستغانم على هذه المدرسة فقط، بل عرفت تأسيس مدرستين الأولى مخصصة للذكور بأربعة أقسام و ثانية للإناث بخمسة أقسام و هذا ببلدية غليزان لتتوسع مدارسها فيما بعد³.

المرحلة الرابعة (1945_1956م): يمكن أن نعتد سنة 1946م بداية لهذه المرحلة حيث فيها عاد النضال السياسي والثقافي لأحزاب وجمعيات الحركة الوطنية، وبادرت بذلك في نشاطها الذي كان محظورا في السنوات السابقة، وأقرينا نهاية هذه المرحلة بنهاية سنة 1956م وهي سنة انضواء جمعية العلماء بشكل تنظيمي إلى الثورة حيث عرف نشاط جمعية العلماء انحسار بسبب الملاحقات والمضايقات التي لحقتها من قبل إدارة وجيش الاستعمار، كما عرف عدد معتبر من نشاطيها ومعلميها الالتحاق بالثورة مما أثر على سير مدارسها فجاء في أحد التقارير الفرنسية ما يؤيد هذا: ((منذ الفاتح من نوفمبر 1954م لم تتوقف جمعية العلماء من تقديم كل أنواع المساعدة سرا ثم علنا للحركة التمردية...وزودت الجمعية لصالح حزب جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني محافظين سياسيين وقضاة وأئمة ومناضلين...))⁴.

¹ - محمد الحسن فضلاء: المرجع السابق ج3، ص29.

² - نفس المرجع، ص64.

³ - القرصو: نشاط، مرجع سابق ص 74.

⁴ - ANOM/: 93/4496 Le problème des Oulama et la question religieuse.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

تميزت هذه المرحلة بطول فترتها مقارنة بالمراحل السابقة وحتى اللاحقة لها إذ دامت حوالي إثني عشر سنة وهو ما أعطى صفة الاستقرار الذي سوف تكون نتائجه حسنة على الجهد التعليمي والتثقيفي لجمعية العلماء، وفعلا عرف التعليم فيها أريحية وازدهار ملحوظين كان من مظاهرها التطور النوعي الذي شمل الأداء في العملية التعليمية وكذا تطور في اتجاه التنظيم الإداري والتسييري والبدagogي إضافة إلى مواصلة التطور العددي.

لعل هذه النتائج مثل ما تقدمنا ترجع زيادة على الاستقرار في هذه المرحلة، ما لحق جانب المجتمع الأهلي المسلم من حقوق جاء بها القانون الخاص 1947م، والذي تضمن في بعض أجزاءه حقوق معنوية أعطى مساحة للتعليم العربي الحر واللغة العربية وهو ما استثمرته جمعية العلماء.

زيادة على ذلك فضل السياسة التي تبناها الشيخ البشير الإبراهيمي بعد حوادث 8 ماي 1945م، حيث ساهمت نتائج هذه المجازر وما رافقها من اعتقالات ومتابعات في صفوف الوطنيين وناشطي العلماء جزء مهم منهم، في وصوله لقناعة؛ تقديمه وتوجهه للعمل التعليمي والتربوي والابتعاد عن العمل السياسي بقدر، ذلك أن الإبراهيمي حسب قراءته للمشهد راء أن خيار المواجهة المباشرة سياسيا وعسكريا غير ممكن حتى هذه الفترة وبناتج وخيمة على مشاريع جمعية العلماء، وأن فرصة التغيير تتم عن طريق توسيع وتطوير التعليم والتركيز على الجانب الثقافي.

فالإبراهيمي يكون قد قراء خريطة النضال في الساحة الوطنية التي راء فيها أنها غير متوازنة وذلك لغلبة النضال السياسي لمختلف أطراف واتجاهات الحركة الوطنية ويكاد يفرغ من النضال الثقافي والتعليمي وهو ما يدعم فكرته ويتماشي مع فلسفة مشروع الإصلاح الذي يقدم التحرير الثقافي عن السياسي. وبالمجمل عرفت هذه المرحلة تطور في مؤسسات التعليم وعلى رأسها المدارس يظهر هذا في ذلك التنظيم والضبط الكبير الإداري والتسيير، فقد تم وضع اللوائح والقوانين كاللائحة الداخلية سنة 1947م التي جاء فيها تنظيم العطل الأسبوعية والسنوية¹، زيادة على اشتراط الشهادة في توظيف المعلمين منذ سنة 1951م وفي سنة 1953م تطور الأمر لإخضاعهم لامتحان.

زيادة على إدخال نظام الامتحانات لتقويم وتقييم التحصيل الدراسي للتلاميذ و توحيد الامتحانات في كل مدارس الجمعية عبر القطر الجزائري منذ سنة 1947م، وتلاها استحداث مراكز لامتحان شهادة التعليم الابتدائي عبر الوطن وهذا سنة 1950م وتم توسيع هذه المراكز سنة 1953م.²

¹ - أنظر المبحث التنظيم التربوي والتعليمي مطلب تنظيم العطل للفصل الحالي ص 159 .

² - أنظر المبحث التنظيم التربوي والتعليمي مطلب الامتحانات والشهادات للفصل الحالي ص 163 .

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

وفي هذه المرحلة عرف ظهور معهد ابن باديس سنة 1947م¹ الذي عبر عن التطور العمودي لمستوى التعليم عند الجمعية فقد مثل المرحلة الثانوية في التعليم العربي الحر ومن خلاله يمر الطالب بعد حصوله على شهادة تؤهله لفرصة الدراسة بالزيتونة والجامعات العربية الأخرى، وأيضاً يعد تحقيق حلم الشيخ ابن باديس الذي راوده طويلاً في تأسيس معهد ديني يعادل المعاهد الكبرى التي كانت موجودة في الحواضر العلمية في العالم الإسلامي كالأزهر والزيتونة.

زيادة على تزايد البعثات العلمية إلى ثانويات وجامعات الدول العربية وقد حققت الجمعية نجاحاً معتبراً في هذا بفضل تلك الجهود والاتصالات التي قام بها رئيس الجمعية البشير الإبراهيمي.

وقد مس التطور أيضاً التطور البيداغوجي من خلال تطوير العملية التعليمية لحلقات الدروس على نحو حديث ينمي ويبنى ملكات الفهم و العقل محاولين تجاوز الأداء وطريقة الإلقاء والحشو الذي تميز به التعليم التقليدي، لذلك كانت مؤتمرات التعليم لجمعية العلماء تبحث في إشكالية التطور والأخذ بالتحديث والعصرنة، فكان بعثها لجنة التعليم ولجان التفتيش التي تسهر على متابعة تطور طرائق التدريس وتقوم المعلمين وتكوينهم دورياً.

أما عن التطور العددي فقد شهدت هذه المرحلة تزايد كبير في نمو مدارس جمعية العلماء عبر كل مناطق الوطن، ولكثرتها يمكن أن نورد الجدول إحصائي يعبر على نفوذ الثقافي والمدرسي لمناطق الجزائر عوض ورود أمثلة للمدارس بعينها.

ويذكر أبو القاسم سعد الله أن جمعية العلماء وصلت في بداية 1947م إلى عدد 90 مدرسة يتلمذ فيها نحو 700 طالب مؤهلون للإلتحاق بجامع الزيتونة ليقفز سنة 1954م إلى 124 مدرسة تعلم نحو 40 ألف طالب²، تعكس هذه الأرقام القفزة الكبيرة التي حققتها مدرسة جمعية العلماء في زيادة عددها وأيضاً توسع عدد أفواجها حيث تضاعف عدد متمرسيها بأعداد خيالية ما يعكس نجاحها الاجتماعي من خلال استيعاب المجتمع الجزائري المسلم لهذه المدرسة.

المرحلة الخامسة 1954_1956م: تبدأ هذه المرحلة من تاريخ اندلاع الثورة إلى انعقاد مؤتمر الصومام تتميز بقصر مدتها وفيها بدأت تأثيرات الحرب بين جبهة التحرير والجيش الفرنسي تلقى بضلالها على مدارس جمعية العلماء والجدول التالية يوضح لنا المحلات التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى غاية أكتوبر 1955م، ومن بينها مدارسها³:

¹ - أنظر فصل الرابع الباب الأول معهد ابن باديس، ص ص 190_194.

² - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1954-1962، ج 9، عالم المعرفة الجزائر، 2015، ص 25.

³ - ANOM: 11H74 Synthèse des renseignements généraux Alger-

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

المجموع	المدارس	عدد المساجد	عدد النوادي	عدد الشعب	العمالة
101	45	04	10	42	الجزائر
97	44	19	02	32	وهران
188	81	46	14	47	قسنطينة
24	11	---	08	05	أراضي الجنوب
410	181	69	34	126	المجموع

تعكس أرقام الجدول مؤسسات التعليمية لجمعية العلماء في مختلف مناطق عمالات الجزائر لسنة 1955م، ما يمكن أن نصل إليه أن عدد مدارس جمعية العلماء كانت أعدادها مضاعفة لما ورد في هذه الإحصائيات وهذا لاعتقادنا أن هذه الإحصائيات لا تعبر على كل المرحلة حيث نجد أن حتى بداية اندلاع الثورة كانت مدارس جمعية العلماء في توسع ونمو بسبب ظروف الاستقرار.

بينما نلاحظ التراجع في السنوات الأولى للثورة، لما لحق هذه المدارس من تضيق وملاحقة ومتابعة لناشطي جمعية العلماء ومعلميها، للاعتقاد الذي كانت تربطه الإدارة الاستعمارية بين جمعية العلماء والثورة¹.

وأيضاً نعتقد أنه حتى في هذه السنة 1955م لم تنزل مدارس جمعية العلماء لهذه الأعداد، وتؤكد وجهة نظرنا عند الوقوف مثلاً عند عدد مدارس عمالة قسنطينة الذي يورد فيه هذا الإحصاء 81 مدرسة، وهو ما تستبعده، فإذا كانت منطقة الأوراس وهي واحدة من مناطق عديدة تابعة لعمالة قسنطينة قد يصل عدد مدارسها إلى هذا الرقم، وهذه الملاحظة تصدق على كل عمالات الجزائر.

غير أننا نعتقد أن هذا الإحصاء اعتمد على الإحصاء الإداري للمدارس المسجلة قانونياً والمرخص لها، في حين قد يكون قد أهمل المدارس غير المرخصة والتي كان ناشطي الإصلاح يزاولون فيها التعليم دون المراعاة للإجراءات القانونية التي تمنح فتح مدارس عربية بلا ترخيص إداري رسمي وفق قانون شوطان. ويقر أبو القاسم سعد الله هذا الرقم في عدد المدارس 182 مدرسة، ويعتمده في تحليله وبضيف إلى أن عدد التلاميذ تراجع إلى 11 ألف طالب².

¹ - ANOM: 93/4496.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج9، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص26.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

المرحلة السادسة (1956_1962م): تبدأ هذه المرحلة من تاريخ انضواء جمعية العلماء للثورة حتى سنة الاستقلال، هذه المرحلة وإن لا تعني الإطار الزمني لدراستنا، ولكن لباس من الإشارة لها ولو باقتضاب حتى تكتمل الصورة للتطورات التي عرفها تعليم جمعية العلماء.

هذه المرحلة تأثرت بظروف الثورة والحرب بين جبهة التحرير الوطني والجيش الفرنسي، حيث تراجعت عدد مدارس جمعية العلماء في كل مناطق الجزائر خاصة في القرى والأرياف التي كانت أكثر حضور للثورة، وهذا يعود إلى التحاق الكثير من ناشطي جمعية العلماء ومعلمي مدارسها بالثورة من جهة وبسبب المdahات والملاحقة التي تبعها الجيش الفرنسي والإدارة الاستعمارية اتجاه هذه المدارس.

وقد تبعت الإدارة ضغوطها على مؤسسات جمعية العلماء بإصدار قرارات غلق لمدارسها وقد كان أهمها ذلك القرار الذي قصد معهد ابن باديس سنة 1957م والذي يعد ضربة قاسمة لتعليم جمعية العلماء فلم يبقى منها إلا تلك المدارس القليلة والضعيفة التي كانت تدبل وتراجع في أداءها وتطورها شيئاً فشيئاً، وهذا تبعاً لآثار الحرب بين جبهة التحرير الوطني والجيش الفرنسي التي كانت تزداد انعكاساتها السلبية على التعليم والثقافة ومؤسساتها الأهلية.

زيادة على أن كثير من المدارس والمعلمين باندلاع الثورة تحولوا إلى تبعيتهم لجبهة التحرير، وأصبحوا يسدون أدوار تعليمية خاضعة لرؤية جبهة التحرير والتي عرفت فيها ظروف أخرى رغم محاسنها للمثال التعليمي لجمعية العلماء¹.

من خلال تتبع تطور التعليم العربي الحر لجمعية العلماء المسلمين الجزائري نصل إلى حقيقة النجاح المبهر الذي حققته رغم الظروف التي وجد فيها، وما لآثارها من انعكاس على ثني عزيمة كل فرد أو مجموعة لإقامة مشروع كان حتى في تلك البداية ضرب من المستحيل، لكن الإستراتيجية المحكمة لفريق جمعية العلماء وإيمانهم الكبير بمشروعهم سخر كل نضالاته وتضحياته لتجاوز كل تلك العوائق والتحديات.

وبذلك استطاع في مدة وجيزة الانتقال بتعليمه من تصور نظري إلى واقع معاش، يتحلى بالقبول من قبل كل أفراد المجتمع وفي مختلف المناطق، ويعترفون بمزيتته وفائدته، ذلك يظهر في ما حققه من توسع وتزايد في عدد مدارس هذا التعليم وأيضاً في التطور النوعي البيداغوجي والإداري الذي نقل التعليم العربي الحر من حالة البؤس والتخلف الذي عاشها لزمان طويل إلى تعليم عصري فعال منوط بمسؤولية التغيير الاجتماعي.

¹ - أنظر مبحثنا دور تعليم جمعية العلماء في تطور تعليم الثورة، ص 371_377.

ثانياً_ تطورات أخرى في ميدان تعليم جمعية العلماء

لم يتوقف مشروع التعليم عند جمعية العلماء في تلك المبادرات الأولى التي خصت تأسيس ونشر مدارسها ذات التعليم القاعدي " الابتدائي " لدى المجتمع الجزائري المسلم في داخل الوطن، بل نجدها بعد فترة من نجاحها هذا، انتقل طموحها لتحقيق نجاحات أخرى كتأسيس وتطوير تعليمها الداخلي بإنشاء معهد ابن باديس الذي كان يعبر عن تطور في مستوى تعليمها بالانتقال إلى مستوى التعليم الثانوي، وأيضاً استكمال ذلك بتنظيم بعثات علمية لطلبتها لثانويات وجامعات عربية، زيادة على تنظيمها لتعليم الجالية الجزائرية في بلاد الهجرة بفرنسا بغية الحفاظ على هويتهم وثقافتهم.

1_ البعثات التعليمية:

لقد تواصل نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين خلال هذه المرحلة في سبيل نشر العلم وتوسيعه، وكان من البديهي بعد انتشار حركة جمعية العلماء التعليمية وشمولها لمراحل التعليم العام داخل الوطن، من خلال انتشار سعت جاهدة إلى توسيع نشاطها خارج الوطن، وكانت وجهة بعثتها الطلابية نحو المشرق العربي كما وسعت من إنشاء مدارسها حتى تصل أبناء العائلات الجزائرية في المتربول:

_ إرسال بعثات الجمعية إلى الدول العربية:

لقد فكرت الجمعية في عام 1951 في توجيه البعثات العلمية إلى المعاهد والجامعات العربية الإسلامية¹، فقد بلغ عدد بعثات الجمعية إلى جامع الزيتونة في تونس حوالي 1700 تلميذ، ولها في جامع القرويين بمدينة فاس في المغرب الأقصى حوالي 200 تلميذ²، هذا فيما يخص دول المغرب العربي أما خارج نطاق هذه الدول، فكانت أول بعثة أرسلتها الجمعية هي باتجاه مصر وكان ذلك في العام الدراسي 1951_1952، والتي ضمت 25 طالباً وطالبة واحدة توزعوا على مختلف أقسام كليات الآداب ودار العلوم وكليات الأزهر وبعض ثانويات القاهرة³.

واستمرت البعثات في السنوات التالية ل (1951_1952) بتوسيعها على بلدان أخرى من الوطن العربي تم إرسال بعثة أخرى إلى العراق للموسم الدراسي (1952_1953) وصل عدد الطلبة فيها إلى 11 طالباً والتحقوا كلهم بدار المعلمين ببغداد ماعداً طالباً واحداً التحق بكلية الحقوق.

¹ - البصائر: العدد 262، السنة السادسة، السلسلة الثانية، ص8.

² - محمد البشير الإبراهيمي: أثار البشير الإبراهيمي /المصدر السابق، ج4، ص255.

³ - البصائر: العدد 240، السنة السادسة، السلسلة الثانية، 11 سبتمبر 1953، ص5.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

كما تطلعنا جريدة البصائر على إرسال بعثة أخرى هي الثالثة في نفس السنة إلى سوريا وتكونت من 10 طلاب، التحقوا كلهم بمدارس دار المعلمين الابتدائية في دمشق وحلب، وفي نفس السنة 1953م أرسلت بعثة رابعة إلى مداس وثانويات الكويت وتكونت هذه البعثة من 14 طالباً¹.

وتشير نشرات جريدة البصائر التي عنت بإعلان أخبار البعثات العلمية أن هذه الأخيرة تواصلت وتوسعت وجهاتها لمختلف بلدان الوطن العربي من مصر وسوريا والعراق والكويت والمملكة العربية السعودية، فوصل عدد بعثاتها إلى معاهد المشرق العربي بعد قيام الثورة في عام 1954م إلى عدة مئات².

جهود تعليم جمعية العلماء في فرنسا:

لم تقصر جمعية العلماء المسلمين نشاطها التعليمي على داخل الجزائر، بل عملت توسيع حركتها التعليمية وإيصال مدارسها إلى أبناء الجزائريين الموجودون بأعداد كبيرة في فرنسا، فكان منها أن أرسلت ممثلين عنها لتولي مسؤولية تدابير نشاطها هناك³.

فكرت الجمعية من البداية في أهمية مسألة التعليم لأبناء الجالية الجزائرية في فرنسا لما يمثله المحيط الاجتماعي والمدرسي لهم من أخطار على تنشئتهم وشخصيتهم الوطنية والعربية والإسلامية، ولأجل هذا اختارت للقيام بهذه المهمة مجموعة من أجمع أعضائها المقتدرين، فكان من أبرزهم الشيخ فوضيل الورتلاني الذي تم إرساله في بداية سنة 1936م⁴ ليلتحق به الشيخ سعيد صالح ولعل هذا الاختيار يعكس العناية الكبيرة للجمعية في هذه المهمة.

وفعلا استطاع مكتب الجمعية بباريس وتحت إدارة الورتيلاني وسعيد صالح من تحقيق نجاحات باهرة تعكس الجهد الكبير والمتواصل فظهرت مدارسها وأندية تؤدي رسالة التعليم، لتعليم اللغة العربية ومبادئ الإسلام⁵، لجماهير الجالية الأهلية المتعطشة والمتعلقة بهويتها التي كانت تراها مهددة في هذه البيئة التي لا تتوفر على ما يساهم في نموها والحفاظ عليها، فاضطرت الجمعية إلى بعث المزيد من مؤسساتها الأمر الذي حتم عليها إرسال المزيد من معاونين فأرسلت ثلاثة من أبرز نشاطاتها الشيخ محمد الصالح بن عتيق الزيتوني التعليم ومحمد الزاهري الميلي وسعيد البيباني أحد طلبة ابن باديس⁶.

¹ - البصائر: العدد 262، المصدر السابق، ص8.

² - المكان نفسه.

³ - يوسف لمعاني: البصائر عدد 108، السنة الثانية، 15 أبريل 1938، ص2.

⁴ - البصائر، العدد 172-173، السنة الرابعة، 15 أكتوبر 1951، ص5.

⁵ - عبد الكرم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية 1931-1945 المرجع السابق، ص310.

⁶ - البصائر: العدد 46، السنة الثانية، 23 أبريل 1937، ص8.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

وقد ساهمت تلك الإرساليات في تنشيط وتنمية هذه الحركة، حيث وأصبح حوالي 70 ألف جزائري يزاولون تلك المؤسسات التعليمية من اجل اكتساب العلم والتربية¹، هذا فيما يخص نشاط رجال الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء في فرنسا خلال الفترة ما بين 1936_ 1939 م.

في بداية سنة 1951م عملت الجمعية على إحياء حركتها التعليمية، فقامت بتكوين المدارس وتأسيس النوادي والمساجد، ويتضح ذلك من خلال التقرير الأدبي الذي نشرته في جريدة البصائر لنفس السنة حيث "تعتبر المسألة كبيرة.....ومسؤوليتها عند الله وعند الناس ثقيلة"².

وقد تمثلت المهمة التي قامت بها الجمعية سنة 1951 في إلقاء الدروس التعليمية التي كانت تنظم لأبناء العمال الجزائريين في غير أوقات دراستهم بالمدارس الفرنسية لتلقينهم مبادئ القراءة و الكتابة بالغة العربية، و مبادئ الدين الإسلامي حتى يرتبط ويتأثر هؤلاء الأطفال منذ الصغر بالحضارة والقيم العربية الإسلامية ويتمسكون بوطنهم الأصلي "الجزائر" حتى لا يذوبوا في الوسط الذي يعيشونه، خاصة أنه أصبحت هناك أعدادا منهم مولودون لآباء جزائريين وأمهات فرنسيات³، الأمر الذي كان يشكل خطورة كبيرة على شخصيتهم القومية بعد أن ينشأوا تنشئة أوروبية.

ولقد ذكرت صحيفة البصائر أن أعمال رجال جمعية العلماء لم تقتصر في مكان محدد في فرنسا دون الآخر نشر العلم والمعرفة بل تواجدت في باريس بشكل كبير لكنها توسعت وانتشرت في مختلف المناطق الموجودة في فرنسا.⁴

وهكذا يتضح بان النشاط التربوي والتعليمي لجمعية علماء المسلمين لم يكن خاصا بأبناء الجزائر الذين يعيشون داخل الوطن، بل امتدت إلى ما وراء البحار، وذلك من خلال الاهتمام بأبناء الجالية الجزائرية المقيمة في فرنسا و التي ظل عددها يزداد، و قد لعبت دورا كبيرا فيما بعد في نقل الثورة من الجزائر إلى داخل فرنسا.

2_ معهد ابن باديس (التأسيس والتطور)

بعدها اتسع نشاط جمعية العلماء في تخرج عشرات الآلاف من الحاصلين على شهادات ذات المدارس الابتدائية، أصبحت الحاجة ماسة إلى تأسيس معهد ثانوي لضم هؤلاء المتخرجين بغية إتمام مشوارهم التعليمي وتطوير جهازها المدرسي.

¹ الفضيل الوترلاني: البصائر، العدد 49، السنة الثانية، 1 جانفي 1937، ص8.

² محمد البشير الإبراهيمي: التقرير الأدبي لجمعية العلماء، البصائر، العدد 172-173، السنة الرابعة، 15 أكتوبر 1951، ص5.

³ عبد الرحمان العلاوي: تقرير عن حالة العمال الجزائريين بفرنسا، البصائر، العدد 286، المصدر السابق، ص ص 7-8.

⁴ سعيد البيباني: من أعمال جمعية العلماء بباريس، البصائر، العدد، 286، سنة 1954، ص5.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

الأمر الذي دعى الجمعية بقيادتها الجديد بعد وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس في 16 أبريل 1940، في التفكير بمواصلة جهودها في سبيل نشر التعليم العربي الحر وتطويره، وتعزيز فكرها من خلال برنامج تعليمي أعلى وفيه يتم بعث مقومات الشخصية القومية الجزائرية، فجاء مشروع إنشاء معهدا في قسنطينة، أطلقت عليه اسم الشيخ ابن باديس، حيث كانت بمثابة الجسر الذي يمر عليه المتدربين الذين قطعوا، مرحلة التعليم الابتدائي إلى التعليم الثانوي.¹

يذكر الشيخ البشير الإبراهيمي في أحد مقالاته أن جمعية العلماء المسلمين أقدمت على بناء معهد ثانوي ذو 5 سنوات والذي يشكل استجابة لحاجة المجتمع الأهلي الجزائري، وقد تم ذلك عن طريق جمع المال بواسطة التبرعات التي كانت تساهم الأمة في دفعها من أجل بناء معهد لها². وقد تأسس معهد عبد الحميد بن باديس سنة 1947م وفتح أبوابه للدراسة في شهر ديسمبر من نفس السنة³. ويعتبر هذا المعهد الخطوة الثانية إلى النهضة العلمية العتيدة كما ذكر الشيخ البشير الإبراهيمي.

وقد نشرت جمعية العلماء مقالا في جريدة البصائر سنة 1947م، تحدثت فيه عن الإدارة العامة للمعهد والذي يتشكل من ثلاث هيئات متضامنة وكل واحدة منها مسؤول فيما يخص الأعمال للمجلس الإداري لجمعية العلماء وكانت كالتالي.

الأولى: الهيئة العلمية.

الثانية: الهيئة المالية.

الثالثة: هيئة المراقبة.

وقد رأس الشيخ العربي التبسي الذي كان نائبا لرئيس الجمعية جميع الهيئات للمجلس الإداري آنف الذكر، وعليه كانت ترجع كل الأمور.⁴

وصل عدد التلاميذ بمعهد ابن باديس سنة 1947م حوالي 330 تلميذ، وقد أمر الشيخ العربي التبسي قبل انتظام الدراسة بالمعهد بإجراء امتحان لاختيار هؤلاء، وقد كانت النتيجة حسنة رغم ضعف إمكانيات المعهد كونه في سنته الأولى، حيث التحق به 240 تلميذ الذين وزعوا على أربع طرق، والسنة

¹ - محمد البشير الإبراهيمي: البصائر، عدد 173.172، السنة الرابعة من السلسلة الثانية، 15 أكتوبر 1951، ص 4.

² - محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: محمد طالب الإبراهيمي، ج 4، ط 1، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، 1997، ص 176.

³ - البصائر: العدد 16، السنة الأولى، السلسلة الثانية، 22 ديسمبر 1947، ص 3.

⁴ - محمد البشير الإبراهيمي: معهد قسنطينة، البصائر، العدد 8، السنة الأولى، 26 سبتمبر 1947، ص 1.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

الثانية نحو 70 تلميذ. فلم تسمح الظروف بتقسيمهم، فكانت طريقة واحدة أما السنة الثالثة فقد بلغ عدد الناجحين إليها 20 تلميذ، وقد عرفت الدراسة في السنة الأولى طريقتان كانت بمسجد "سيدي بومعزة الحر" و"سيدي قموش، والسنة الثانية و الثالثة وهي طريقة من الأولى كانت بأقسام من الدار العظيمة التي قامت الجمعية بشرائه لهذا الغرض.¹

وفي سنة 1948 عرف معهد عبد الحميد بن باديس زيادة نسبة التلاميذ ويتضح ذلك من خلال أسماء الناجحين حيث قامت الجمعية بنشرها على جريدة البصائر والذي قدر عددهم الإجمالي ب: 214 تلميذ عبر مختلف السنوات الدراسية.²

وقد قدم أحمد حماني نتائج الامتحانات التي أجريت في تلك السنة، حيث كان عدد المنخرطين في المعهد حوالي 530 تلميذا، انتظم في سلك الدراسة بشكل مستمر 380 تلميذ وطرده منهم 5 تلاميذ لسوء أخلاقهم وتوفي تلميذ واحدا وقد تابع الدراسة إلى نهاية السنة 331 تلميذ³، هذا في فيما يخص عدد التلاميذ، أما عدد الأساتذة فقد بلغ عددهم 15 أستاذ في نفس السنة⁴ وكان أغلبهم من حاملي الشهادات العليا من جامع الزيتونة.⁵

حيث رأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ضرورة أن يكون "معهد عبد الحميد بن باديس مرتبطا بجامع الزيتونة علميا تحقيقا لهدف كبير ترمي من خلاله إلى توحيد التعليم فالمعاهد العربية الإسلامية الكبرى في الوطن العربي، وذلك تمهيدا لوحدة الفكر، فقد لب أساتذة جامع الزيتونة رغبة الجمعية وقبلت أن يكون معهد ابن باديس فرعاً لجامع الزيتونة.⁶

ويذكر البشير الإبراهيمي أن معهد ابن باديس عرف في السنة الثانية (1948_1949) إقبالا كبيرا من طرف التلاميذ الأمر الذي فرض إدارة المعهد تضيق شروط الالتحاق به.

ويمكن إجمال الخصائص التي عرفتتها السنة الثانية لمعهد ابن باديس فيما يلي:

1- زيادة عدد التلاميذ الذي بلغ عددهم 600 تلميذ أي ضعف ما كان في السنة الأولى لمعهد ابن

باديس.

¹ - أحمد حماني الميلي: افتتاح معهد عبد الحميد بن باديس، البصائر، العدد 5، 18 جانفي 1948، ص 1.

² - البصائر، السنة الثانية، سنة 1948، ص 10-11.

³ - المصدر نفسه، ص 10.

⁴ - البصائر، ع 90، السنة الثانية، السلسلة الثانية، 5 سبتمبر 1948، ص 1 و 13.

⁵ - محمد البشير الإبراهيمي: آثار، ج 4، المصدر السابق 177.

⁶ - محمد خير الدين، ارتباط معهد ابن باديس بجامع الزيتونة تحقيق للوحدة المنشودة، أرجع البصائر، ع 44، السنة الثانية، السلسلة الثانية،

السنة 1948، ص 12.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

- 2- إنشاء السنة الرابعة التي يحصل التلميذ في نهايتها على الشهادة الأهلية.
 - 3- زيادة ثلاثة مدرسين أكفاء محرزين لشهادة التحصيل من كلية الزيتونة.*
 - 4- تحسين برنامج الرياضيات و علوم الحياة بإسناد تعليمها مدرستين أكفاء.
 - 5- تحسينات واسعة ذات أثر في النظامين الداخلي و الدراسي
 - 6- تشديد المراقب على التلاميذ من جانب السلوكات الأخلاقية
 - 7- شراء ثلاث منازل حبسا للمعهد، اثنتين منها لسكن الأساتذة المتأهلين وواحدة للتلاميذ والتي تضم 160 طالبا. وقد بلغت قيمة شراء هذه المنازل بـ 10 مليون فرنك.
- ونظرا للجهود التي قامت بها جمعية العلماء المسلمين في تحسين وتطوير التعليم في معهد ابن باديس فقد حققت نتائج إيجابية وذلك يتضح من خلال نتائج الامتحانات التي نشرت على جريدة البصائر فيمكن تلخيصها في الجدول التالي¹:

عدد التلاميذ الذين تقدموا لامتحان	الناجحون من السنة الأولى	المؤجلون إلى الدورة الثانية	الراسبون	الناجحون من السنة الثالثة	الراسبون
486	237	09	48	53	2

فخلال سنته الثالثة (1949_1950)، ارتفع عدد تلاميذ المعهد بشكل غير عادي، فيذكر الشيخ العربي تبسي مدير المعهد أن عددهم قد زاد عن 700 تلاميذ، وهذا الارتفاع يدل على التطور والتقدم الذي شهده المعهد أي أن التعليم فيه يسير من الحسن إلى الأحسن، وقد قامت إدارة المعهد في 1950 بإرسال أوراق النتائج الدورية إلى جميع أولياء التلاميذ حتى يتمكنوا من معرفة المراحل التي يقطعها أبناءهم في الدراسة².

* ورد في البصائر أسماء عبد القادر الباجوري وعبد اللطيف القنطري وعبد الرحمان شيبان، ارجع البصائر، العدد 59، السنة الثانية، السلسلة الثانية، 6 سبتمبر 1948، ص1.

¹ - البصائر: العدد 90، السنة الثانية من السلسلة الثانية، سنة 1949، ص15.

² - العربي التبسي: معهد ابن باديس، العدد 108، السنة الثالثة من السلسلة الثانية، 1950، ص2.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

أما السنوات المتبقية خلال مرحلة الدراسة، فإن جمعية العلماء المسلمين ركزت فيها على نظام التعليم في معهد ابن باديس وتحديد شروط الالتحاق بالمعهد، ووضع الشروط التي يجب أن تتوفر في البعثات العلمية لجميع العلماء نحو المشرق والمغرب.

المطلب الثاني: التعليم من خلال المساجد و النوادي والكشافة الإسلامية

تعد المساجد من أهم المؤسسات التعليمية التي أسهمت جمعية العلماء في تكوينها منذ البداية، لإدراكها لأهميتها ودورها التعليمي الأمر الذي جعلها تركز عليها في نشر اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية كما مثلت النوادي والفرق الكشفية كمؤسسات عصرية وجديدة على الوسط الأهلي أحد الروافد البالغة الخطورة في التعليم.

أولاً_التعليم المسجدي:

قامت جمعية العلماء بتأسيس التعليم المسجدي ونشره عبر مختلف القطر الجزائري مجازات للتقاليد الإسلامية والأهلية التي كانت ترى في المسجد المؤسسة التعليمية والتربوية الأولى التي تتصدى لمهمة التعليم والتربية، فكانت بداية الفريق الإصلاحية هي محاولتهم الوصول لمواقع المساجد العتيقة والكبرى المعروفة بارتداد أكثر عدد وقصدهم لمراكز المدن، غير أن الصعوبات التي واجهتهم مع رغبتهم في التوسع خاصة مع رفض الإدارة لهم وكذا القوى المحافظة التي كانت تسيطر على هذه المؤسسات، جعلتهم يعتمدون خطة بناء مساجد حرة خارجة عن سلطة الإدارة أو أي جهة أخرى حتى يتسنى لهم دفع نشاطهم إلى الوجود، وقد بادرت بواكير الفريق الإصلاحية في هذه الخطة مستغلة الفراغ الذي كانت يشهده الساحة الثقافية والتعليمية من المتعلمين بالوصول إلى بعض المساجد، كما عملت على حث السكان الأهالي في بناء المساجد، وبذلك شهد بناء المساجد تطوراً في العدد والأمكنة كما طوروا مهمتها فلم تقصرها على أداء فريضة الصلاة فقط _ مثل ما آلت إليه كثير من المساجد بفعل سياسات الاحتلال _ وإنما فعلت فيها مهمة ودور نشر العلم وإيقاظ الوعي الوطني، فنجد أن سنة 1936م عملت الجمعية على تنشيط الحركة العلمية ببعض المساجد والجوامع على نحو إحياء لجمود والركود الذي كان يسودها و محاولة إعطاء وجه عملي للمسجد لينتقل مثالها لعامة وكافة المساجد في كامل القطر الجزائري، فيذكر الشيخ عبد الحميد بن باديس أن الجامع الأخضر عرف حركة عالمية غير عادية، حيث بلغ عدد التلاميذ الذين يزاولون التعليم فيه حوالي 300 تلميذ، كانوا يدرسون بمختلفة المواد من الحديث، تعبير، تاريخ، فقه، جغرافياً...¹

¹ عبد الحميد بن باديس: بيان الحركة العلمية بالجامع الأخضر ونفقاتها، البصائر، العدد 47، السنة الأولى، 1936، ص5.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

زيادة على ذلك نجد أن الجمعية فكرت في نفس السنة (1936م) في تأسيس كلية لعلوم الدين لتخريج موظفي المساجد من أئمة وخطباء ومدرسين ومؤذنين وقيمين وغيرهم¹، وذلك من خلال النص الذي قدمه رئيس جمعية العلماء لمكتب المؤتمر الإسلامي الجزائري العام والذي اختص بالدين واللغة العربية. وفي سنة 1937م بقي عدد التلاميذ في الجامع الأخضر 300 تلميذ وكانوا منقسمين إلى أربع مستويات، يدرسون كل الفنون التي تدرس بمختلف المعاهد الإسلامية، أما الأساتذة فكان عددهم 6 فكان العدد القليل منهم يقدمون 4 دروس في اليوم أما أكثرهم فيلقون 6 أو 7 دروس كل يوم.

وقد كان عبد الحميد بن باديس من بين هؤلاء الأساتذة حيث كان يحضر درسه عامة الناس وما يميز سنة 1937م هو قيام الجمعية بوضع اختبارات بالجامع المذكور وهو أول أمر كانت به على خلاف السنوات السابقة بالإضافة إلى الجامع الأخضر نجد مساجد أخرى مثلت مراكز إشعاع حضاري ساهمت في تطور ونمو الفكر الجزائري وهي مسجد سيدي عبد المؤمن والمسجد الكبير وسيدي فتح الله بقسنطينة والتي مازالت إلى يومنا الحالي وهذه المساجد كان عبد الحميد بن باديس يقوم بتعليم الصغار نهارا والكبار ليلا². والحق أن جمعية العلماء قد اتبعت عبر هذه المساجد أثر السلف الصالح في الوعظ والإرشاد، وكان أسلوبه في التعليم الديني هو الاهتمام بالمعنى والنفوذ إلى صميمه في أقرب سبيل يؤدي إليه، متبعين طرق علمية تطبيقية مبتعدين عن الزخرف في الألفاظ وكل من شأنه إمتاع وإبعاد المعنى وتشويشه بالإطناب والإستطرادات المتعبة³.

أما عن التعليم المكتبي فالجمعية قد عهدت به إلى أساتذة أكفاء يلقنون الصبية بداية القواعد البسيطة وتعليمهم أسهل التراكيب في اللغة العربية وتدريبهم عنها بتمارين عملية حتى يسهم في بناء قاعدة للقدرات التعبيرية للتلاميذ.

كما يدخل في التعليم المكتبي قراءة القرآن بتحفيظه، وقد كانت هذه المهمة من أكبر اهتماماتها⁴، ولعل هذه المكانة للقرآن في هذه المرحلة يعود إلى هدف اكتساب الطالب لعدد الألفاظ والكلمات العربية كثرة ومخزون تعدد للتعبير بها كما أيضا تسهم آيات القرآن في منحه قدرة الاستشهاد. وقد كانت الجمعية تقوم بنوعين من التعليم المسجدي:

¹ - عبد الحميد بن باديس: البصائر، العدد 24، السنة الأولى، 1936، ص 2.

² - أنظر مبحثنا التجربة التعليمية للشيخ ابن باديس ص 107_113..

³ - محمد البشير الإبراهيمي: سجل جمعية العلماء، مصدر سابق، ص 62.

⁴ - المصدر نفسه، ص 62-63.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

النوع الأول: وتمثل في تلك الدروس المنظمة التي كانت تقام في بعض الجوامع الكبرى من الوطن التي كان يسديها أقطاب علماء الحركة الإصلاحية كالشيخ ابن باديس والبشير الإبراهيمي و الطيب العقبي والعربي التبسي و مبارك المليي وغيرهم، ونذكر منها جوامع قسنطينة وتبسة وسطيف وتلمسان ومازونة والعاصمة، وقد كان يتعلم بها عدد معتبر من الطلبة وكانت تعد هذه الجوامع ولمستوى دروسها ثانويات.

وقد كانت تحاكي من حيث محتوياتها وطرق وأساليب التعليم فيها ما كان معروفا في الجوامع الكبرى من العالم الإسلامي كالأزهر والزيتونة والقرويين ودمشق، فمثلت هذه المساجد حلقة وصل معرفية مع العالم الإسلامي كما واكبت الجزائر الحركة الفكرية والثقافية التي كان تعيشها الأمة العربية الإسلامية.

النوع الثاني: شمل هذا النوع دروس الوعظ والإرشاد التي كان يقصد بها عامة الناس والتي كانت غالبا ما تقام بالليل بعد صلاة المغرب إلى العشاء، وأيام الجمعة كل أسبوع وهي تقليد سابق عن الجمعية عرفته مساجد الجزائر وسارت عليه الجمعية لفائدته ومنفعته في أداء غرض التعليم لفئة الكبار.

كما أضافت الجمعية دروسا للوعظ والإرشاد أثناء العطل الصيفية كفرصة لملء أوقات فراغ الناس بالعلم والمعرفة الدينية خاصة، إضافة إلى تنشيط دروس شهر رمضان مستغلة ارتفاع المستوى الروحي للصائمين الذين تعمر بهم المساجد¹.

وإن لم نعذر على إحصاء للمساجد التي كانت تشغلها الجمعية في هذا الجانب، رغم أملنا في ذلك من خلال تتبعنا لنشرية جريدتها البصائر مثل ما فعلنا مع المدارس، إلا أن المعروف عنها أنها عنت بالمساجد واهتمت باستغلالها وتفعيل أدوارها والخروج بها من العبادة فقط إلى التعليم والوعظ والإرشاد، وقد كانت منتشرة عبر أنحاء ومناطق الوطن ويعزز ملاحظتنا ما أورده الشيخ الإبراهيمي في إحصاء جزئي فيما يتعلق بمساهمة الجمعية في تشييد المساجد ما بين سنتي 1952 و 1954م أنها بلغت نحو 70 مسجدا قصد أداء الشعائر وإلقاء الدروس الدينية².

ثانيا _ النوادي:

التفتت الجمعية إلى مؤسسة النادي كفضاء ومؤسسة جديدة على الوسط الأهلي ولإدراك أهميتها في نشر الوعي والثقافة، فإنها عملت على تأسيسها ونشرها جنبا إلى جنب مع باقي مؤسساتها، وقد اعتمدتها كرافد للمدارس خاصة لفئة الشباب حتى تقيهم من آفات الخمر والفجور وضياع الأوقات في الأزقة،

¹ - رابع تركي: المرجع السابق، ص ص 228،229.

² - محمد البشير الإبراهيمي: أثار الإمام البشير الإبراهيمي 1952-1954، ج4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997، ص344.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

فجاءت ببديل النادي حتى يكون فضاء لتبليغ الثقافة العربية الإسلامية وتعزز فيهم الدين فكانت النوادي وجهاً آخر للتعليم.¹

ولقد تظن قادة الفريق الإصلاحي باكراً لأدوار النادي التعليمية والتربوية، حتى قبل تأسيسهم للجمعية فكان نادي الترقى سنة 1925م بالعاصمة، الذي وضعت فيه بذرة النهضة الجزائرية، وقد نشطته ثلة من العلماء الجزائريين وعلى رأسهم الشيخ الطيب العقبي الذي انتقل من بسكرة للإقامة بالعاصمة بتوجيه من الشيخ ابن باديس لهذا الأمر²، فحفل بالمحاضرات والندوات والدروس، وكان الشيخ ابن باديس كلما زار العاصمة إلا وكانت له به نشاط.³

وفي سنة 1936م أسست جمعية حياة شباب ميله "النادي الإسلامي" كانت تهدف من وراءه إلى ترقية عقول المجتمع الأهالي كباراً وصغاراً بالعلوم العربية والفرنسية وتهذيب أخلاقهم بالآداب الإسلامية⁴، كما أفتتح "نادي الإرشاد" بسطيف⁵ الذي اتخذته جمعية العلماء مركزاً لحركتها الإصلاحية ونشاطاتها في المنطقة، كما تم تأسيس نادي آخر بسكيكدة عرف باسم "نادي العمل"⁶، وهو نادي أدبي علمي يقوم بجمع شمل أبناء هذه المنطقة ويعمل على توحيد فكرهم وإخراجهم من دائرة العزلة أين كان يقوم بأداء رسالة التنوير والتوعية حتى يصل المستفيدون من نشاطه إلى الوعي بالتضحية في سبيل الوطن والدين. والحق أن النوادي الإصلاحية لجمعية العلماء لم تقتصر على المدن الشمالية والكبرى منها فقط بل تعدتها إلى أغلب المناطق الجزائرية وهذا يعود إلى ما عرفته النوادي من انتشار وتوسع عبر مختلف القطر الجزائري تماشياً مع خطة جمعية العلماء، فنجد في السنة 1937م تم تأسيس نادي بالجلفة الذي عرف "بالنادي الإسلامي"⁷، وبالأغواط تم فتح نادي آخر في نفس السنة حمل اسم "نادي الأدب"⁸، وكان هذا بمثابة المؤسسة الثقافية، وذلك من خلال جمع رجال العلم والفكر ومن أجل خدمة الإسلام والعروبة،

¹ - البصائر، العدد 270، السنة السادسة، السلسلة الثانية، 7 ماي 1954، ص1.

² - أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص161.

³ - عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث والمعاصر محمد عبده وعبد الحميد بن باديس أمودجا، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2005، ص393.

⁴ - مبارك بن محمد الميلي: حركة العلم والدين، البصائر، العدد 7، السنة الأولى، سنة 1936، ص3.

⁵ - البصائر، العدد 8، السنة الأولى، سنة 1986، ص7.

⁶ - البصائر، العدد 21، السنة الأولى، سنة 1936، ص8.

⁷ - البصائر، العدد 90، السنة الثالثة، سنة 1937، ص3.

⁸ - مبارك بن محمد الميلي: حركة العلم والدين، البصائر، العدد 7، المصدر السابق، ص3.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

إضافة إلى نادي التقدم بالبليدة والنجاح بسيدي بلعباس والشبان المسلمين بقالة¹، واستهدفت كل هذه النوادي تكوين جيل يتقن اللغة العربية الفصيحة وتمسك بدينه الإسلامي.

وتعد هذه النوادي من معاهد التعليم العربي الحر، ذلك أن جمعية كانت تنظر إلى النوادي الإسلامية التي تؤسسها أو تشرف عليها هي بمثابة همزة الوصل بين المدرسة والمسجد لأن هناك فئة واسعة من شباب المجتمع الأهلي لا تجد الجمعية لها طريق ولا وسيلة لتبليغهم دعوة الدين والعلم إلا في تلك النوادي²، إضافة إلى توجيهها لتكوين الشباب الأهلي وتنمية ملكاته ومهاراته الرياضية والفنية من خلال إقامة الفرق الرياضية والمسرحية والموسيقية والكشافية³.

ويجدر بنا التذكير أنه تكرر معنا نفس الإشكال الذي وقعنا فيه في عدد المساجد المتعلق بعدم العثور على إحصاء لعدد النوادي في جريدة البصائر أو مصادر الجمعية الأخرى، إلا أن هناك بعض المراجع أشارت إلى ذلك وأكدت أن للجمعية تمتلك ناديا واحدا على الأقل في كل مدينة من الوطن⁴، ويذكر الشيخ البشير الإبراهيمي في أحد مؤلفاته أن جمعية العلماء قد أنشأت في كثير من المدن والقرى نوادي التهذيب والتربية الإسلامية قدر عددها بثمانون (80) ناديا سنة 1953م⁵.

ولم تقصر الجمعية تأسيسها للنوادي داخل الوطن فقط بل وصلت مبادراتها لخارج الوطن وتحديدًا فرنسا أين قام الفضيل الورتلاني جهودا جبارة لتأسيس أكبر عدد ممكن من النوادي، فراح يتصل بالعمال الجزائريين والجالية هناك، داعيا إياهم إلى المساهمة وتدعيم جهود الجمعية في هذا المسعى.

والحق أن المهاجرين الجزائريين استقبلوا هذه الدعوة باستجابة كبيرة قدوة بما عرفته دعوة مشروع المدرسة لديهم، فعملوا على تأسيس نوادي عدة فظهرت "جمعية نادي التهذيب" بباريس وضواحيها وقد ضم قانونها الأساسي تأسيس فروع لها في مناطق أخرى من فرنسا وفتح نوادي للتربية والتعليم بها⁶، وهو ما وسع نشاطها وسد فراغا كانت تعرفه الجالية الجزائرية في فرنسا.

¹ - أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص 229، 228.

² - محمد البشير الإبراهيمي: البصائر، العدد 10، السلسلة الثانية، 25 جوان 1947، ص 3.

³ - أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص 229.

⁴ - رابح تركي: التعليم القومي المرجع السابق، ص 229.

⁵ - محمد البشير الإبراهيمي: أثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج 4، مصدر سابق، ص 229.

⁶ - سعيد بوزيان: نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فرنسا 1936-1954، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، بلات ط، ص 78.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

وتجدر الإشارة أن الجمعية استطاعت أن تصل إلى إحدى عشر (11) ناديا ما بين 1936_1940م بباريس وضواحيها حسب ما ذكره الشيخ الإبراهيمي¹، وهذا العدد يعد إنجازا معتبرا، فمنها ستة نوادي بباريس لوحدها التي كان يكثر بها عدد الجالية الجزائرية وقد توزعت هذه النوادي جغرافيا على دوائرها بالشكل التالي: كليشي (Clichy) وبولون (Boulogne) وبير شيز (Père Lachaise) وبلاس دي طالي (Place D Italie)².

كانت النوادي التهذيبية بباريس تضم قاعات للمحاضرات يتم فيها إلقاء مواضيع خاصة ما تعلق بالدين وما يربط المهاجر بهويته ووطنه وقاعات للتعليم يتدارس فيها الجالية اللغة العربية وأمور الدين والعبادة وقاعة للصلاة إضافة إلى فضاء لالتقاء العمال الجزائريين وشرب المشروبات المباحة.

وقد عرف عن هذه النوادي أنها كانت تمول من تبرعات وإعانات المهاجرين الجزائريين وأصحاب الأعمال الحرة منهم كالتجار وأصحاب المقاهي والمطاعم³، ولم تتلقى أي إعانة من السلطات الفرنسية ولعل هذا كان مقصودا من قبل إدارتها حتى تبقى بعيدة على تدخل الإدارة الفرنسية في توجيهها والتأثير على سياستها، وهو فعلا مما أتاح لها حرية العمل والنشاط في نشر الثقافة العربية الإسلامية واللغة العربية وهو ما كان مقصده تعزيز الهوية لدى هؤلاء الغرباء على ثقافة بيئتهم.

وخلال عام 1947م واصلت الجمعية جهودها في نشر التعليم العربي الحر بفرنسا بمساهمتها في إقامة النوادي وغيرها من المؤسسات التعليمية، وكانت تعد ذلك "مسألة كبيرة... ومسؤوليتها عند الله وعند الناس ثقيلة"⁴، إلا أن العجز المسجل في عدم توفر المال الكافي كان عائقا أمام تسجيل فتح نوادي جديدة بالعدد الذي كانت تطمح فيه الجمعية كما ذهب إلى ذلك الشيخ الإبراهيمي⁵.

ثالثا_الكشافة الإسلامية.

توجهت الجمعية اهتماماتها إلى الكشافة الإسلامية معتبرة إياها وعاءا مهما للشباب في ملء أوقات فراغه فيما يفيد إضافة إلى أهميتها في توجيههم التربوي وتشبيعهم بالروح الوطنية والدينية وذلك من أجل تهيئتهم للمستقبل والوقوف أمام حملات التيارات التغريبية والفرنسية التي شاعت في تلك الفترة وأصبح الشباب الأهلي عرضة وفريسة لها.

¹ - محمد البشير الإبراهيمي: البصائر، العدد 172-173، 15-17 أكتوبر 1951، ص1.

² - سعيد بوزيان: المرجع السابق، ص79.

³ - سعيد بوزيان: المرجع نفسه، ص ص 79_80

⁴ - محمد البشير الإبراهيمي: التقرير الأدبي لجمعية العلماء، البصائر العدد 171-172، 15-17 أكتوبر 1951، ص5.

⁵ - محمد البشير الإبراهيمي: أثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج4، مصدر سابق، ص345.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

والكشفافة كمؤسسة جديدة وفدت إلى الوسط الأهلي متأخرة وكأحد التأثيرات الإيجابية التي قدمت مع الاستعمار فإن الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء وكمثيلتها من حركات الإحياء العربية والإسلامية التي كانت تستوعب كل وافد إيجابي ومفيد في نشاطها قد تبنتها كواجهة لتكوين وتأطير شبان مجتمعها على مقاصد وأهداف مشروعها.

والجدير بالذكر أن أول ظهور للكشفافة في الجزائر كان للحركة الإصلاحية دورها الكبير فيها فمحمد بوراس رائد الكشفافة الإسلامية الجزائرية كان من أصدقاء الشيخ ابن باديس وأحد الرجال المقربين من الحركة الإصلاحية والمتأثرين بمشروعها.

فأول فوج كشفافي بادر محمد بوراس لتأسيسه كانت مبادئه وتوجهاته وأهدافه تحمل تأثيرات المشروع الإصلاحي وكان لابن باديس والعقبي دورا في الدفع به وإن معنويا، حتى أن الجمعية بعد تأسيسها شجعت الشباب على توسيع تكوين الجمعيات الكشفافية، وذهب مايتأكد من قول محمد الصالح رمضان: ((إن الكشفافة نشأت وترعرعت في أحضان الحركة الإصلاحية العامة... كما تبنت معظم أفواجها وأكثر جمعياتها في أوساط وبيئات إصلاحية، إلى جانب المدارس الحرة الشعبية، بل كان أغلب فتيان الكشفافية وقادتها ومسيريتها من تلاميذ هذه المدارس أو من أعضاء جمعياتها المحلية وكان مرشيدوها جميعا من معلمي تلك المدارس... وكان أقطاب الحركة الإصلاحية وأئمتها يشجعونها ويساعدونها... كإبن باديس في قسنطينة والطيب العقبي في العاصمة والإبراهيمي في تلمسان...))¹.

استطاعت الجمعية أن تتقدم في هذا الشأن إذ عملت على توحيد الكشفافة تحت لوائها وأقامت لها مؤتمرات كان الأول سنة 1939م وحمل شعار شعارها " الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا "، كما التزم برنامج أفواج الكشفافة الجزائرية مع برنامج جمعية العلماء وتقاسما الاهتمامات في تنشئة أفرادها على الثقافة العربية الإسلامية وتنمية الروح الوطنية ومحاربة ثقافة التغريب و تياراته.

وقد بزر الشيخ الغسيري بعد إتمام تكوينه الباديسي وعودته لقسنطينة ليشرف على الأفواج الكشفافية بقسنطينة ويبدل جهدا معتبرا في تطويرها حيث وضع مناهج تعليمية كانت تعكس الرؤية التعليمية لجمعية العلماء ومقاصدها الكبرى².

وقد كانت الكشفافة مؤسسة تعليمية ورافد آخر للمدارس والمساجد في نشاطات المتعددة كانت تهدف إلى تنمية وتعزيز عناصر الهوية الوطنية لدي أعضائها وتنمي الرابطة القومية مع الأمة العربية

¹ - أحمد الخطيب: المرجع السابق ص 230 نقلا عن محمد الصالح رمضان: الحركة الكشفافية وتاريخها "مخطوط"

² - AWC. Inventaire analytique des archives privées saisies en Mai 1945 boîte N° 05 Mohamed ben Ahmed El Mansouri El Ghassiri Constantine.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

الإسلامية ويظهر ذلك من خلال التكوين التربوي عبر الدروس الدينية والوطنية وأيضا محتوى الأناشيد والمحفوظات التي كانت تتغنى بالأمجاد وتشيد بالعروبة والإسلام و الأعمال المسرحية التي كانت من وضع أدباء وشعراء الجمعية أمثال محمد العابد الجليلي ومحمد العيد ال خليفة والتي هي الأخرى حفلت موضوعاتها بالتربية الأخلاقية والوطنية.

ومجمل القول أن الجمعية قد سعت إلى تعميق دورها التعليمي والتربوي لما ترى له من أهمية بالغة في التغيير وتحقيق أهداف مشروعها، متحدتينا العوائق المادية و المضايقات القانونية من قبل ادارة الاحتلال، فتمكنت من تشييد العديد من المؤسسات التعليمية والتربوية ووسعت فضاءاته ووجهتها لإحياء اللغة العربية والدين الإسلامي وتنمية الروح الوطنية ونشر الوعي فالنادي والكشافة كان يعملان جنبا إلى جنب مع المدرسة في تحقيق أهداف التعليم الإصلاحى للجمعية ولكل فئات المجتمع صبية وشباب وكهول وشيوخ نساء ورجال.

المبحث الرابع: موقف الإدارة الاستعمارية من تعليم الجمعية العلماء

مع التوسع الذي عرفته مدرسة العلماء وتنامي عدد تلاميذها بشكل لافت وفي مدة قصيرة، يبدو أن من هذا الوضع كان له أن يثير قلق ويربك الإدارة الاستعمارية وقد أشعرها بخطورة هذا النوع من التعليم على مستقبل ثقافتها التي كرس لها منذ دخولها كل الإمكانيات بل تعدى الأمر عند بعض الرسميين الفرنسيين إلى القول بتهديد وجودها.

ذلك أن الإدارة قد نظرت إلى التعليم العربي الحر منذ السنوات الأولى للاحتلال على أنه تعليم يقف أمام مشروعها الثقافي بل وحتى تقدمها في أرض الجزائر، فبادرت بالتضييق عليه من خلال ترسانة من المراسيم والقوانين ولعل أهمها قانون 24 ديسمبر 1904م "والذي يحظر على كل جزائري يتولى فتح أو إدارة مدرسة أو كتاب عربي إلا بترخيص من عامل العمالة وكل مخالف للقانون فرد أو جماعة فيعرض لعقوبة الحبس أو الغرامة"¹، وبالنظر لتقييم الفترة التي أعقبته على مستوى وضع الثقافة والتعليم الأهلي فيمكن أن نقف على حقيقة النجاح الذي حققه هذا المرسوم حيث جفف منابع الثقافة المحلية وأضعفها بقدر كاد فيه ينعدم حتى من يعرفون رسم حروف العربية قراءة أو كتابة.

غير أن هذه الحقائق بدت في التحول والإنقلاب مع مدارس التعليم المعتمدة من قبل جمعية العلماء التي نظرت لها الإدارة الفرنسية على أنها ذات مناهج تسدي معرفة مناقضة ومتعارضة مع المعرفة التي تتبناها المؤسسات التعليمية والثقافية الفرنسية، فالحمولة المعرفية؛ الدينية والقيمية الأخلاقية والثقافية والاجتماعية للجمعية تتعارض مع معرفة المؤسسات الفرنسية "الإسلام والعربية والوطن الجزائر مقابل المسيحية واللغة الفرنسية والإدماج..."، ويتأكد هذا فيما ورد على واجهة غلاف كتب الجغرافية المقررة لتلاميذ مدارس الجمعية "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا"²، وهو ما إعتبر من قبل الإدارة على أنه إحالة للمجتمع الجزائري المستعمر إلى صورة ثقافية للجزائر هي فكرة الماضي المقابل الاستعماري الزاهر وهو ما يمثل خطرا على الاستعمار.

وفعلا لقد مثلت مدارس جمعية العلماء بعددها المتزايد وتضاعف المتدربين فيها كيانا موازيا للمؤسسات التعليمية الفرنسية خاصة لدى تلك الشرائح الاجتماعية التي لم تصلها المدرسة الفرنسية ذات العدد الكبير، مما سوف ينتج عنه أجيالا مناقضة ومتناقضة للتعبيرات الثقافية والسياسية الفرنسية، وهو

¹ - رابح تركي: ابن باديس مرجع سابق، ص154.

² - أزغيد محمد لحسن: مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956-1962، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص38.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

كذلك ما ينتج عنه تلقائيا بعد حركة الاسترداد الثقافي والحضاري حركة سياسية تنتهي بالمطالبة والعمل على الاستقلال¹.

أفرزت هذه المخاوف المتزايدة إلى اتخاذ العديد من الإجراءات لعرقلة النشاط المدرسي للعلماء في محاولة من قبل الإدارة منذ البداية حيث اصدرت منشور "ميتشال"^{*} عام 1933م للقضاء عليه نهائيا أو محاولة إضعاف تأثيره، غير أن مفعوله كان ضعيف مما فرض على الإدارة متابعته بخطوة أكثر جدية وهي تلاحظ ذلك التنامي لمدرسة العلماء فألحقته بمرسوم 08 مارس 1938م أو مرسوم شاطون والذي يعد أهم تلك الإجراءات وأخطرها على العمل المدرسي للعلماء.

والذي تضمن مجموعة من الإجراءات تستهدف كلها التعليم العربي لمدارس المسلمين وأهم ما جاء فيه²:

— تفتيش مدارس المسلمين الحرة

— تطبيق الإدارة رقابة صارمة وحازمة على هذا النوع من المدارس

— اشتراط الرخصة الرسمية على أي مدرسة لمزاولة نشاطه

— اشتراط على المعلم لفتح مدرسة رخصة قانونية أو حتى التدريس فيها

جاء هذا المرسوم كما أسلفنا الذكر لما عرف عن جمعية العلماء من تطور ونجاح في ميدان التعليم وتوسع مدارسها وكموقف من سياستها التعليمية ذات المضمون والتوجه العربي والإسلامي (تعليم الإسلام واللغة العربية).

وبذلك كان مرسوم شوطان هدفه الرئيسي إلزام كل المعلمين الذين لم يحصلوا على تراخيص لمزاولة التعليم أو حتى الذين حصلوا عليها منذ سنوات التقدم من جديد لطلب وتجديد تراخيصهم مرفقينا بمؤهلات لشهاداتهم³.

وقد كانت هذه التراخيص مشروطة على طالبها بأن يتقدم مع طلبه شهادة كفاءته تكون مدموغة ويبين عليها كل مؤهلاته والأماكن التي سبق له التدريس بها.

¹ - البصائر: العدد49، السنة السابعة، سلسلة2، ديسمبر1953، ص142.

^{*} - شغل منصب الشؤون الأهلية والكاتب العام للولاية العامة للجزائر، ومنشوره هذا هو تعليمية ادارية موجهة لمكاتب الامن والادارة في كل القطر الجزائري تفيد بمراقبة نشاط العلماء ومنعهم من النشاط تحت طائلة بث الأفكار الوهابية والمذهب الشيعي

² - يسام العسلي: المرجع السابق، ص 50_51.

³ - رايح تركي: ابن باديس مرجع سابق، ص154.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

ومن الملاحظ أن الإدارة الاستعمارية كانت جادة في مسعاها أينما جدية حيث وضعت بطاقات فنية (تقنية) تحصي كل النشاطات السياسية والجمعوية (المدنية) السابقة والحالية لكل طالب ترخيص، وعرض لسيرتهم والإشارة إلى مدى وفائهم أو خطورتهم على فرنسا كما كانت تتبع هذه النشاطات بتقارير أمنية مفصلة عن كل منطقة من جهة وعن معلمين كانت ترى فيهم الخطر أو التهديد لمشروعها.

بالإضافة إلى القيام بدورات تفتشية تأخذ الطابع البيداغوجي والأمني وإن كانت غايتها الطابع الأخير أكثر، بهذه الإجراءات كانت الإدارة كما يبدو تسعى إلى وضع مدارس جمعية العلماء ونشاطاتها تحت الرقابة خاصة لما لاحظته من تضاعف لإعدادها بداية من تأسيسها.

كما أيضا ليتسنى لها حصر وتحديد قائمة بمعلميها وجردهم من خلال القوائم التي وضعتها لهم ليسهل عليها تتبعهم خاصة ما تعلق بنشاطاتهم وولائهم السياسية وتحديد خطورتهم على جانبها، ينمو هذا المرسوم وتبعاته من الإجراءات سابقة الذكر على إدراك الإدارة للخطورة التي أصبح يمثلها تعليم ومدارس جمعية العلماء، فهذا المرسوم تعبير على انزعاج إدارة الاحتلال على النجاحات التي حققتها الجمعية ولم تكن تتوقها في ميدان التعليم وكذا خطورة سياستها التعليمية عليها.

ففي بضع سنوات من تأسيس الجمعية 05 ماي 1931م وتاريخ صدور هذا المرسوم 08 مارس 1938م، هذه المدة الوجيزة وكيف استطاعت الجمعية أن تجذب أعدادا هائلة من أبناء المسلمين الجزائريين وهو ما حورب من قبلها على طول سنوات تواجدتها¹.

كما أيضا يعبر على تخوفها من خطورة هذه المدارس في إحداث تغيير في الوجه الثقافي للمسلمين الجزائريين و إثماء وعي خاص لا ترضاه هذه الإدارة وسياساتها لما تعده خطرا على وجودها السياسي والمعنوي.

والحق أن الإصدار المفاجئ وأن سبقتة أحداث تأخذ هذا المسار إلا أنه كان له تبعات ثقيلة على جمعية العلماء ونشاطها الثقافي، ذلك أن هذه الشروط التي فرض لا تكاد تتوفر في معلمي التعليم العربي ولعل على رأسها إمتلاك الشهادة لان أغلب المعاميين من خرجي المدارس العربية التي لا تأخذ شهادتها الصفة القانونية، وقد جاء في وصف الشيخ البشير الإبراهيمي: ((...وخلاصة رأي جمعية العلماء في التعليم أنه أنه أصبح ضرورة من ضرورات الأمة، وان القرارات المتعلقة به كلها ترمي إلى التضيق عليه وقتله...وقد كثرت هذه القرارات وملحقاتها وبشروعها حتى أنسى أخراها أولها))².

¹ - رابح تركي: ابن باديس، مرجع سابق، ص156.

² - محمد البشير الإبراهيمي، آثار مصدر سابق، ج2، ص26.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

والحق أن إدارة الاستعمار لم تكثف في محاربتها والتضييق على تعليم ومدارس الجمعية بإصدار مراسيم وقوانين فقط، بل عملت على تشجيع الجهات المناوئة لها في مشروعها الإصلاحية من قبيل المجموعات الطرقية والزوايا¹، مما كان له أثره على مجهودها التعليمي، فالمعلوم أن الإدارة انحازت إلى المرابطة من الوهلة الأولى في صراعها مع الجمعية مغذية الخلافات الدينية بينهما.

لقد كان هذا الموقف من قبل الإدارة يهدف إلى عرقلة وتشتيت جهد جمعية العلماء، وذلك من خلال انشغال الجمعية بالصراع والدخول في معارك هامشية سوف تؤثر على مجهودها التعليمي، خاصة أن ناشطي الإصلاح كانت تتداخل نشاطاتهم الإصلاحية بين التعليمية والنشاطات الأخرى الاجتماعية والدينية هذه النشاطات الأخيرة التي كانت محل الخلافات الكبيرة بين المرابطة والعلماء وهو ما حاولت إذكاءه إدارة الاحتلال، لقد كانت التعاليم العقدية والاعتقادات المرابطة صلب الخلاف والصراع بين الفهم الطرقي المرابطي والفهم السني للعلماء².

إن خلق العداة وإثارة الصراع بين الجماعات الطرقية والعلماء كان في مرحلة من نشاط الجمعية، إستراتيجية للإدارة ضد جمعية العلماء لما سوف يكون له مردود سلبي على مردودهم خاصة في النشاط التعليمي، فتحريك الزعامات الطرقية ضد هذا التعليم واستعمالهم لنفوذهم الباقي على الجماهير الأهلية من خلال تحويرهم مما يرد من أفكار في تعليم الجمعية على الأبناء وعلى دينهم واعتقادهم سوف يكون له استجابة بتحريك هؤلاء الأولياء ومنع أبناءهم مواصلة الدراسة بمدارس جمعية العلماء.

غير أن الشيخ ابن باديس ومن بعده قادة الفريق الإصلاحية رغم مقارعتهم للأفكار المرابطة وما كانوا يعتقدونه بدعة وخرافة ومفاسد للدين والعقيدة الإسلامية، وهو ما نظرت إليه الجماعات المرابطة أنه تهديد لتعاليمها ونفوذها ومصالحها وما أجاج الصراع بينهم وحدد العداة بينهم³، إلا أنه كان دوماً يحاول تجنب هذا النوع من الصراع.

كما كان ظهور الحرة الإصلاحية لجمعية العلماء في المشهد الديني للمجتمع الجزائري أن خلق تخوف للمرابطة والجماعات الطرقية خاصة لما ظهرت به من نجاح وشيوع لأفكارها وتوسع لها، فكان هذا الأمر مبرك للمرابطة لاعتبار تقلص نفوذها على الجماهير والذي كان فعلاً يتقلص جهتها لصالح الفكرة

¹ - رابع تركي: المرجع السابق، ص 236.

² - ابن باديس: آثار الامام ابن باديس، ج4، دار البعث للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر 1991، ص198.

³ - علي مراد: مرجع سابق، ص 176.

الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء

الإصلاحية وهو ما ولد ظهور صراع ديني وجدته الإدارة فرصة بتغذيته لإضعاف نفوذ وتوسع جمعية العلماء وفكرها¹.

إلا أن حكمة الشيخ ابن باديس والفريق الإصلاحي ونظرته الثاقبة جعلت منه يحاول دائما تجاوز هذه المطبات والصراع، بمحاولته ربط علاقات طيبة ومتينة مع زعماء ومشايخ الطرق الصوفية ومداومته لزياراتهم ومراسلاتهم لطمأننتهم وبذلك الاستئناس له وإزالة الخوف من أفكاره وبذلك قطع الطريق أمام الإدارة في توسيع لهوة والفراق بين جمعية العلماء والطرق الصوفية مستثمرا جهد الصراع في البناء وتوسيع نشاطهم وجهودهم لخدمة المجتمع وخاصة الجهد والنشاط التعليمي.

وخلاصة مما جاء نصل إلى حقيقة ذلك الجهد المرتب والمنظم والمضني الذي كانت جمعية العلماء تقوم به لأجل وضع منظومة تعليمية لمدارسها تتماشى ورؤيتها وفكرها وزمانها، متجاوزة بذلك كل الموروث السلبي القديم الذي كانت تنوء به المنظومة التعليمية التقليدية، فأسست جمعية العلماء تعليم عصري برؤية مرسومة المرامي والاهداف والتي من خلالها كانت تنشُد إحداث تحول وتغير للمجتمع الأهلي على نحو يعي فيه واقعه ويتفاعل مع أوضاعه مساهما في صنع مستقبله، فكانت مدارسها بمقررات وبرامج ومناهج مرسومة الغايات والأهداف متضمنة لمعارف الملائمة والمناسبة لها.

لقد تطور تعليم جمعية العلماء من خلال مدارسها بوتيرة عجيبة، من حلقات دراسية تأسيسية لثلة قادة الفريق الإصلاحي ثم يتوسع أفواج متباينة العدد من مكان لآخر ليتطور الأمر إلى مدارس مختلفة الأفواج وعدد التلاميذ أيضا تبعا للمكان، لتظهر مدرسة جمعية العلماء كظاهرة ثقافية في الوسط الجزائري مكتملة الأركان والبناء، تصارع لأجل مشروعها التي تحمله مغالبة أعتا المنظومات التعليمية والثقافية المزودة بأحدث النظريات التربوية وبالمدعمة والممولة والممونة بأوفر التجهيزات.

¹ - Mostfá, Hadad: Op.cit, p167.

الباب الثاني

الباب الثاني: تعليم ج م ع م ج في الأوراس (الواقع والأثر).

نستعرض في هذا الباب ثلاثة فصول تخص النموذج والمثال المراد دراسته المتمثل في منطقة الأوراس، وقد بدأنا بتناول أوضاعه عشية حضور ج م ع م ج بمبرزين لها كأوضاع اشتغل عليها رجال ج م ع م ج في نضال وتحمدي من جهة ومن جهة أخرى سوف نستعين بها في المقارنة في التحولات التي حدثت بالمنطقة بعد عقود من العمل الإصلاحية والنشاط التعليمي خصوصاً لتقييم جهد ج م ع م ج في هذه المنطقة، كما تصرفنا إلى الحالات الإصلاحية التعليمية السابقة في طرحها للتعليم الفال والجديد المتوافق مع نظرية الإصلاح وكيف ساهم هؤلاء في إعداد المنطقة المنطوية على نفسها للإفتتاح على الآخر من خلال وضع وطرح هذا النوع من الفكر والنشاط لينمو ويتوسع شيئاً فشيئاً مع الظروف ومجيء ج م ع م ج .

ثم تناول في فصله الثاني جهود رجال ج م ع م ج من الأوراسيين في التعليم، وقد قسمناهم بين التعليم المسجدي وبين فضلهم في اشاعة الوعي والثقافة الدينية في مناطقهم وكمهم الهائل الذي غط ربوع الأوراس ، كما ركزنا على النشاط التعليمي المدرسي الذي غلب على النوع السابق لاهميته في استراتيجية ج م ع م ج لاستهدافها الناشئة من الاطفال وبين مساهم فيه معلمي ج م ع م ج من تطوير ونوسيع لتعليم. ثم تطرقنا لأثر هذا التعليم على الصعيد الاجتماعي والثقافي في الوسط الأوراسي وكيف ساهم في تعزيز الهوية الحضارية العربية الاسلامية، فضلاً عن ابرازنا لاثر هذا التعليم في تطوير وازدهار ونمو وتوسع تعليم المنظمات الأخرى كالزوايا والحركة الاستقلالية والثورة بالأخذ بمثال تعليم الجمعية

الفصل الأول

الفصل الأول: تطورات الأوضاع في الأوراس عشية حضور ج م ج في المنطقة

يفرض علينا موضوعنا هذا، تناول موقع منطقة الأوراس والأوضاع العامة فيها¹ الاقتصادية والاجتماعية والثقافية " عشية ظهور جمعية العلماء لاعتبار أن هذه الأوضاع كان لها تأثيرها البالغ في النشاط الإصلاحي لجمعية العلماء وعلى رأسها النشاط التعليمي، ذلك أن جمعية العلماء اشتغلت على هذه الظروف إما تصحيحا أو تقويما أو استثمارا للميزات التي تخدمها، كما أيضا كان لهذه الأوضاع تأثيرا على العمل التعليمي إيجابا وسلبا من حيث الانتشار أو التطور.

زيادة عن ذلك قد يعيننا الوقوف على هذه الأوضاع في تفسير الكثير من الظواهر المتعلقة بموضوعنا، زيادة على أن خصوصية أوضاع الأوراس أنتجت خصوصية للنشاط التعليمي الإصلاحي لجمعية العلماء بما إذ تفردت إلى حد ما عن مناطق الوطن الأخرى أو على الأقل اختلفت فيه، ولما رأيناه من أهمية لما تميزت به المنطقة من خصوصية للأوضاع انعكس على العمل الإصلاحي، كما ساهم ما توفر لنا من مادة وإحصائيات ذات قيمة في فحص هذه الظروف.

إضافة إلى تناول التطورات التي اتجهت بالاوراس إلى الصحوه ودفعت أوضاعه نحو تهيئته لإستقبال فكر ومؤسسات جمعية العلماء، كوقوفنا على الحالات الغصلاحية الباكرة التي ساهمت في التعريف بهذا الفكر ووضعها ضمن الموازنة الثقافية في المنطقة تى ينمو مع الزمن والظروف وكذا ماعرفته المنطقة فيما بعد من طلبة ومؤسسات إصلاحية صنعت الأرضية لنفوذ وتوغل ج م ج بتعليمها وفكرها ونشاطاتها

المبحث الأول: الحالة العامة للأوراس قبيل دخول ج م ج

المطلب الأول: التحديد الجغرافي والوضع الاقتصادي لأوراس:

أولا_ التحديد الجغرافي للأوراس

يمكن القول أن الأوراس الجغرافي هو المنطقة الرباعية الأضلاع التي تمتد من الطريق الوطني الرابط بين بسكرة وباتنة غربا ثم تنطلق جنوبا من بسكرة مروراً بالنجود الجنوبية للسلسلة الجبلية الأوراسية حتى خنقة سيدي ناجي¹ ثم تمتد حتى منطقة بربار شرقي خنشلة، ونواصل بالاتجاه نحو الشمال الغربي حتى سهل بلزمة ويبلغ طول كل ضلع من الشمال إلى الجنوب الغربي 100 كلم ومن الشرق إلى الغرب 100 كلم.

ويضاف للأوراس جبال بلزمة الواقعة غربه والممتدة من الشمال الغربي حتى التخوم الصحراوية وتمتاز بتشابها الكبير من حيث التكوين الجيولوجي والمورفولوجي إلا أنها تختلف عليه في صغرها².

1- Marc Cote: l'Aurès, une montagne atypique, revue Aouras, Société d'étude et de recherches sur l'Auras Antique, N 02, Décembre, Paris, 2004, P 17.

2- Colonel De Lartigue: Monographie de L'Aurès, Constantine, 1904, P 04.

أما الأوراس البشري فنقصد به أين استقرار الإنسان الأوراسي ومارس نشاطه الزراعي والحرفي ولغته¹، والذي يمتد حتى الحدود التونسية شرقا ومن ضمنها النمامشة ويعني هذا أن التواجد البشري يتخطى الحدود الجغرافية التي ذكرتها سلفا.

ثانياً_ الأوضاع الاقتصادية

تتميز منطقة الأوراس بأنها منطقة جبلية شديدة التضاريس الوعرة ولا تتوفر على المساحات التي يمكن أن تستقبل المشاريع الزراعية، وعلى هذا الأساس فإن المنطقة كانت قليلة من عنصر الكولون أصحاب الأراضي الزراعية إذا قيست بأراضي الشمال، ورغم أن الإدارة الفرنسية قامت بإنشاء بعض المراكز الاستيطانية مثل عين التوتة (ماکماهون) وواد الماء (برنال) وقايس، إلا أن أغلب الأوروبيين الذين وطئوا في هذه المراكز وغيرها، كان نجاحهم في إنشاء مزارع قليلة الأهمية حيث نرى أن أغلبهم تحولوا إلى موظفين بسطاء أو تجار أو حرفيين وهناك من غادرها نهائيا².

أما ما يتعلق بملكية الأرض الزراعية فكان يغلب عليها الملكية العروشية وإن ظهرت الملكيات الخاصة بموجب قانون السوناتوس كونسيلت إلا أنها بقيت محدودة مقارنة بالملكية التقليدية.

والجدير بالإشارة أن ساكنة الأوراس بقوا يزاولون نشاطهم الاقتصادية بالطريقة المعهودة لديهم من القدم طيلة الفترة الاستعمارية ويتمثل نشاطهم في الفلاحة والرعي والتجارة.

1_ الزراعة والرعي :

_ الزراعة

تعد الزراعة من النشاطات الأساسية في منطقة الأوراس فقد مارسها الإنسان الأوراسي وورثها جيل بعد جيل، وقد أنتج القطاع الزراعي في الأوراس أنواع مختلفة من المزروعات إلا أنه يضع في أولوياته أنواع محددة منها، وهذا تبعا لحاجة الأهالي، لذلك جاءت زراعة الحبوب في صدارة الإنتاج الزراعي للمنطقة باعتباره المكون الأساسي للعديد من الوجبات الرئيسية.

أ- الحبوب:

تعد الحبوب أكبر المزروعات سيادة عند الفلاح الأوراسي، لأنه المحصول الرئيسي في غذائه سواء للسكان أو لحيواناتهم، وأيضا ملائمة بيئته المناخية الأوراسية لهذا المحصول، كل هذا جعله يشغل أكبر مساحة من أراضيهم الزراعية ويهيمن على أغلب جهودهم.

ويقوم الفلاح الأوراسي بجرث الأرض لإعدادها لزرع منتوجاته من الحبوب في شهر أكتوبر بحصاد محصول الشعير والقمح كل شهر جويلية بينما الدرر والتخزين يتم في شهر أوت، وقد كانت عادة التخزين معروفة ومألوفة

¹ - عبد الحميد، (زوزو): ثورة الأوراس 1979، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 18.

² - شارل روبرت، اجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، مرجع سابق، ص 86.

الفصل الأول: تطورات الأوضاع في الأوراس عشية حضور ج م ج في المنطقة

فتعد لهذا المطامر التي تخفر في الأرض وتأخذ شكل الجرار بتقنيات خاصة حيث تصل قدرتها على التخزين إلى 30 قنطار وتغطي بالتراب¹.

ويتكون محصول الحبوب من الأنواع التالية "القمح والشعير والذرة"، والجدول التالي يبين لنا كمية منتوج الحبوب في البلديات الستة لمنطقة الأوراس:
(معدل خمس سنوات من 1932م - 1936) :

بلدية المنتوج	بلدية خنشلة المختلطة ²	بلدية عين القصر المختلطة ³	بلدية بلزمة المختلطة ⁴	بلدية الأوراس المختلطة ⁵	بلدية عين التوتة المختلطة ⁶	بلدية لومبار ⁷
القمح الصلب	187.000	103.525	43.525	55.000	20.000	2.400
القمح اللين	4.000	1.050	2.500			
الشعير	296.000	108.000	158.310	40.000	50.000	1.400
الذرة الصفراء	14.000	200	570	25000		

من خلال الجدول نستنتج تفاوت كميات الإنتاج من بلدية لأخرى وهذا يتبع مدى ملائمة الظروف المناخية للبلدية لكل محصول وأيضا مدى وفرة المساحة الصالحة للزراعة التي هي بحوزة السكان الأهالي مثل ما نشهده في منطقة بلزمة فرغم سهولها الخصبة و المتسعة نسبيا، إلا أن إنتاج الأهالي فيها ضعيف وهذا يعود إلى المصادرات التي طالت الأراضي الخصبة و طردهم إلى المناطق الجبلية الوعرة والصعبة الاستصلاح.

ورغم اعتبار هذا المنتوج المحصول الرئيسي وأهم مصادر الرزق والنشاط الفلاحي الأول إلا أن كمياته قليلة لا تسد حاجاتهم، يعود هذا إلى المعرفة المتخلفة لوسائل الاستغلال⁸ التي تعتمد على توارث التجارب الفلاحية

¹ - هذه المعلومات مازلنا نقف عليها إلى اليوم، كما أكدناها من مجموعة من كبار السن من عايشوا فترة لباس بها من زمن درستنا حتى نعطيها بعدا توثيقيا.

² - A,w , c,6/32.

³ - A, w , c 4/34.

⁴ - A,w, c,15/35.

⁵ - A,w, c,13/35.

⁶ - A,w, c,9/35.

⁷ - A,w, c,14/35.

⁸ - محمد بلقاسم، حسن بملول: القطاع التقليدي في الزراعة بالجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1985، ص24.

البسيطة والتي تحولت إلى عادات فلاحية، واستعمال أدوات عمل بدائية، فمثلا كانت وسيلتهم في الحرث؛ المحراث الخشبي التقليدي الذي يدخل في صناعته جذع الشجر ويخني ليثبت في أسفله السكة أعلاه مقبض يمسكه الفلاح، ويستعمل في جره إما حصنان أو بغلان بينما في مناطق جنوب الأوراس يستعمل جملان وعند بعض الأسر البسيطة قد يستعمل الحمار والبقر، كما أيضا الفأس والمنجل¹.

وقد ساهمت القيم الثقافية في العزوف عن إدخال الوسائل والتقنية الحديثة - وإن كانت ليست في متناولهم - لاعتقادهم الخرافي بأن الأدوات القديمة تجلب البركة والخير، وأيضا ساهم ضيق المساحة الزراعية والتي هي بدورها لا تستغل كاملة بسبب ترك قطعة منها بور لجعلها مرعى للماشية وإعدادها للزرع في العام المقبل وضعف خصوبة تربتها وتوجيه عملهم لسد الحاجة فقط، إضافة إلى زيادة تحدي الزيادة الديموغرافية في الوسط الأهلي خلال هذه الفترة.

ب- المنتجات الأخرى:

يتنوع المنتج الزراعي في الأوراس فإلى جانب الحبوب توجد جملة من المنتجات مثل التين والزيتون والبرتقال... وإن تميزت بقلتها وتفاوت كمية إنتاجها من بلدية إلى أخرى وهذا حسب ملائمة التربة والمناخ وكذا التوسع الاستيطاني، فتنشر زراعة الزيتون والتين بأغلب بلديات المنطقة ويعود لسهولة زراعتها وقوة هذه الأشجار في تحدي الصعوبات الطبيعية وقلة تكاليف عملها ودخول إنتاجها في العديد من الاستهلاكات والاستعمالات الأهلية.

أما زراعة النخيل فتمتيز بمحدودية المنطقة التي تنتشر فيها، فتواجد في المناطق المحاذية للصحراء مثل جنوب خنشلة وعين التوتة والأوراس وهذا يعود لملائمة الظروف المناخية لها كالحجارة العالية والضوء. وبالقراءة المتأنية للدراسات الميدانية تأتي بلدية الأوراس المختلطة على رأس هرم المناطق التي يزدهر بها الإنتاج الفلاحي ثم تأتي في المرتبة التي تليها كل من عين التوتة وخنشلة² وهذا يعود لقللة الاستيطان وملائمة المناخ.

ج - تربية الحيوان

إلى جانب النشاط الفلاحي عرف المجتمع الأوراسي نشاط الرعي الذي كان النشاط المعتمد في تربية الحيوان، وقد اكتسب أهمية بالغة في حياته الاقتصادية وكان يتميز بانتشاره الواسع عبر أغلب قبائله ومناطقه، هذا النشاط فرضته الطبيعة الجغرافية والمناخية لمنطقة الأوراس فكان بذلك النشاط البارز في حياة الأوراسي. والحقيقة أن تربية الماشية جاءت لاستكمال ما عجزت عنه الفلاحة في تلبية حاجات السكان فترية الأغنام والماعز تدخل في تغذية الأوراسي كما يستعمل منها مواد مثل الصوف والوبر وشعر الماعز في توفير مواد أساسية

¹ - أبوالقاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ص 146.

² - A,w,c,6/32, et A,w,c 4/35 A,w,c,15/35, et A,w,c,13/35, et A,w,c,9/35, et A,w,c14/35.

الفصل الأول: تطورات الأوضاع في الأوراس عشية حضور ج م ج في المنطقة

مثل الألبسة والأغطية فكانت بذلك تربية الماشية على قدر كبير من الأهمية والفائدة للأوراسي، والجدول الذي نعرضه يبين أهمية الثروة الحيوانية للبلديات الست (معدل خمس سنوات من 1932 - 1936):

الوحدة بالرأس:

بلدية المنتوج	بلدية خنشلة المختلطة ¹	بلدية عين القصر المختلطة ²	بلدية بلزمة المختلطة ³	بلدية الأوراس المختلطة ⁴	بلدية عين التوتة المختلطة ⁵	بلدية لومباز ⁶
الأبقار	9100	1100	4425	40000		
الماعز	55800	2500		50000	20000	
الأغنام	150000	22000	57702	3000	30000	2000
الدجاج		30000		500000		
الإبل	1050					

من خلال الجدول نستنتج أن الثروة الحيوانية تتفاوت كميتها من بلدية إلى أخرى للأنواع المختلفة المكونة لهذه الثروة والجدير بالذكر فإن هذه الثروة تراجعت بصورة ملحوظة إبان الفترة الاستعمارية ويعود هذا إلى اثر تطبيق القوانين الجديدة على المجتمع الأوراسي الذي ظل يدير هذه الثروة بطريقة تقليدية بحتة؛ فقانون الغابات مثلا والضرائب والإتاوات الأخرى كلها عملت ولاشك على تراجع هذه الثروة بين يدي ملاكها ويشير إلى هذا المؤرخ M.Couput: ((لا يمكن تفسير هذا النقصان في قطعان البدو...إلا بالتغيرات التي طرأت على ظروف حياتهم: إن أهم جانبيين في هذه التغيرات هما تكوين الملكية الفردية في جنوبي التلال، أما الجانب الآخر فهو حماية الغابات، التي لم يعد ممكنا دخولها... حتى في أكثر سنوات الجفاف)).⁷

والحق أن قانون الغابات الذي جاء ذكره في النص حرم الأهالي من الاستعادة من الثروة النباتية اللازمة لأعلاف ماشيتهم وبالنتيجة خرجت هذه الثروة من يد السكان الأهالي مثل ما خرجت ملكيات أخرى كالأرض والدور وغيرها من أنواع المكيات الأخرى غير أن الأوراسي بصره وإصراره ظل متمسكا ببيئته التي كان يرى فيها أرض الأجداد التي لا يمكن التفريط فيها.

¹-A,w,c,6/32.

²- A,w,c,4/35

³- A,w,c,15/35.

⁴- A,w,c,13/35.

⁵- A,w,c,9/35.

⁶- A,w,c, 14/35.

⁷- عدي، الهواري: المرجع السابق، ص 107 نقلا عن M,Couput: Espèce ovine, Alger 1900.

إلى جانب تربية الماشية فهناك نشاط تربية الدواجن وإن كنا نعترف بأن هذا النشاط كانت تختص به المرأة الأوراسية فهي التي كانت تجمع هذه الثروة وتصهر على رعيها وبيع منتوجها في الأسواق من أجل المساهمة في دخل الأسرة وهي المرأة الأوراسية التي عرفت في الكتابات على أنها كانت تشارك بأكثر من نشاط زراعي كالبيستنة وأعمال أخرى.

أما تربية الإبل فهو نشاط محدود في منطقة الأوراس نظرا للتضاريس والطبيعة المناخية التي لا تلائم هذا النشاط، مثل ما يظهر لنا من الجدول فهو ينتشر جنوب الأوراس أي في المناطق المتاخمة للصحراء وتستعمل الإبل كوسيلة نقل وترحال في غالب الأحيان.

ثانيا: الحرف الصناعية:

استطاع الإنسان الأوراسي تصنيع بعض المواد الأولية المستخرجة من بيئته وتحويلها إلى أدوات ومصنوعات بسيطة لاستخدامها في قضاء احتياجاته اليومية، وقد كانت هي الأخرى مصنوعات تقليدية ويدوية جار فيها الأجداد ولا تذكر الأوراسي مبادرة لتطوير مصنوعاته وهذا قد يعود لبعده في إمكانياته المعرفية والمادية حتى يتسنى له هذا الأمر، وشملت صناعاته مايلي:

الحرف النسيجية: تأتي الصناعات النسيجية على رأس هرم الصناعات في منطقة الأوراس حيث عرفت المنطقة أنواعا منها ما هو للانتفاع العائلي ومنها ما هو موجه للبيع على قلة وضعف هذا الأخير، وقد عرفت عائلات محددة بالإشتهار بها من حيث الجودة والتنوع، وشملت هذه الصناعات البرنس والقشايية والحايك والقندورة والأغطية والأفرشة كالزربية والخيام والتليس والجلال والحبال¹، وتعتمد هذه الصناعات على المادة الأولية المتوفرة في المنطقة مثل شعر الماعز وصوف الأغنام ووبر الإبل وبعضها مادته من الحلفاء وسعف النخيل مثل الحصير والقفاف.

الحرف الجلدية: تعتبر الصناعات الجلدية هي الأخرى من الحرف التي إهتم بها الأوراسي ويعتمد في صناعتها على جلود الحيوانات بعد دبغها لتصبح لينة ومرنة صالحة للاستعمال ولأطول مدة مثل القربة والدلو لحفظ وحمل الماء والشكوة لمخض الحليب² والأحذية والأحزمة ومحافظ السكاكين والخناجر والنقود.

الحرف والصناعات الخشبية: إلى جانب الصناعات الجلدية والنسيجية عرفت منطقة الأوراس الصناعات الخشبية إذ تعد من الصناعات التي تحتل مكانة مرموقة بين الصناعات المحلية وقد يعود هذا إلى توفر المادة الأولية اللازمة لهذه الصناعة فمنطقة الأوراس غنية بأشجارها وغاباتها كأشجار البلوط والعرعار والصنوبر والأرز وأهم هذه الصناعات: أواني الأكل الملاعق والمغارف والقصعات والمثرد والمحراث والصناديق والأبواب وأرجل الفؤوس

¹ - يحي، بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص489.

² - Mathéa, Gaudry: la femme Chaouia de l'Aurès, Chihab-awal, Algérie 1998, p152.

والمساحي¹، بالإضافة إلى صناعة الدباغة المستخرجة من لحى الصنوبر الحلبي والقطران المقطر المستخلص من خشب الصنوبر والذي يدخل في علاج جرب الإبل، وتمتد حرفته من نهاية الشتاء إلى شهر أفريل².

حرف الصناعات الطينية: تستعمل التربة الطينية بعد عجنها وتلينها وتلميسها ثم القيام بتشكيل المصنوعات حسب مايريد الصانع ثم توضع في الهواء وتعرض لأشعة الشمس لتجف ثم تحرق وتلون بخطوط وأشكال وقد وجدت بالأوراس الصناعات المنزلية التالية: القدر، القل، والصحون والقصاع والكساكس والطواجين³.

حرف الصناعات الحديدية: عرف الأوراسي الصناعة الحديدية عبر الفترات التاريخية المتعاقبة وقد ساهم فيها توفر مادتها الأولية في جبال المنطقة غير أن هذه الصناعات ظلت تقليدية ومحدودة وتمر عملية التصنيع بصهر الحديد في النار ثم يطرق لتصميمه حسب الشكل المراد تشكيله ومن بين الصناعات الحديدية أدوات الطبخ و الأكل كالقدور و الملاعق والصحون... والأدوات الفلاحية كسكة المحراث و المنجل... وأدوات البناء كالمطرقة والفأس.

حرفة صناعة الحلبي: وهي صناعة للزينة والتجميل تستخدم في صناعتها المعادن الثمينة كالذهب والفضة وإن كانت هذا الأخير أكثر استعمالاً عند المرأة الشاوية وأهمها التاج و القرط والجبين والخلخال

حرفة الصناعات الغذائية: تستخدم الطواحين لصناعة الدقيق والزيت⁴، وهي طواحين حجرية صلبة منتشرة في أغلب منازل للأسر الأوراسية للحاجة اليومية إليها، كذلك توجد حرفة تجفيف الفواكه والخضر واللحم لاستهلاكها في غير مواسمها وهي صناعات للإنتفاع الشخصي وبطريقة جد تقليدية حيث تقوم النساء في أغلب الأحيان بتشريح هذه المواد وتمليحها وعرضها في هواء الشمس لمدة تكفي للتجفيف ثم تحفظ وتخزن⁵.

والجدير بالذكر أن الصناعة في الأوراس عموماً لم تعرف تطوراً بارزاً بل ظلت صناعة تقليدية وبدائية وهذا ما أشار إليه علماء الاجتماع الذين زاروا المنطقة في بداية احتلالها والذين أجمعوا أن الأوراسيين ظلوا مغلقين على بيئتهم ومعلقين بما ورثوا عن أجدادهم فلم يتأثروا كثيراً بما جاء به الوافدين الذين حلوا بالمنطقة

هذا وفي بداية الاحتلال ومع مرور الزمن واستيلاء فرنسا على المنطقة برمتها راحت تحاول نشر بعض الصناعات من خلال إنشاء دور للتكوين المهني وورشات لتعليم أبناء الأهالي مهناً مثل صناعة الفخار والزراي وصناعات أخرى، غير أن هذه الإرادة الحسنة اصطدمت بجشع الكولون والرأسمالية الفرنسية التي كانت تهدف إلى تكوينهم في قطاع البناء والأعمال العضلية لسد حاجة القطاع الأوروبي من اليد العاملة البسيطة.

¹ - يحي، بوعزيز: المرجع السابق، ص 489.

² - من مقابلات لمجموعة من كبار السن من المنطقة

³ - يحي، بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية 1999، الجزائر ص 322.

⁴ - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الحديث، المرجع السابق، ص 150.

⁵ - مقابلة نفسها لمجموعة من سكان المنطقة

كما عرفت الصناعات الحرفية تراجعاً بسبب قانون الحرف عام 1868م الذي استهدف ضربها¹ كما عرضها غزو الصناعات الحديثة التي اكتسحت الأسواق الجزائرية بسبب عدم تكافؤ شروط المنافسة من رؤوس أموال واحتكار للمواد الأولية والتقنية العالية فانتهت الحرف إلى تراجع في ورشاتها وعمالها² وأصبحت كثير من صناعاتها للاستهلاك العائلي تنجز في أوقات فائض العمل اليومي أو الأسبوعي أو الموسمي أو نشاط تقوم به النساء³، ولم تنجو إلا الصناعات التي كانت تحمل قيم و تقاليد الأهالي كالسجاد و الملحفة.

ثالثاً: التجارة

عرفت منطقة الأوراس نشاطاً تجارياً متواضعاً على ما كان يمكن أن يساهم فيه الموقع الوسط للأوراس الرابط بين التل والصحراء والشرق الجزائري والبلاد التونسية، وأيضاً الحاجة إلى تصريف فائض الإنتاج وجلب الحاجات التي لا توفرها نشاطات سكان الأوراس من ظهور إزدهار لهذا النشاط.

وقد عرفت التجارة في الأوراس على تواضعها، التجارة الداخلية والتجارة الخارجية

فأما التجارة الداخلية: فكانت تجارة محلية تميزت بأنها كانت مكثفة بين سكان المناطق الجبلية في أسواق أسبوعية و إقليمية⁴، حافظت على استمرارها من العهد العثماني إلى كل الفترة الكولونيالية، وشملت مناطق عديدة و تتوزع عليها حسب أيام الأسبوع حيث يكون لكل قبيلة أو وطن سوق محدد بيوم في الأسبوع، يفد إليها سكان الجهات المجاورة لعرض منتوجاتهم وجلب حاجاتهم.⁵

وكانت أهم السلع التي تعرض الماشية كالأغنام والماعز ومنتجاتها كالصوف والجلود كما تعرض الحبوب والزيتون والشعير وبقية السكان حاجاتهم كالسكر والشاي والصابون والأقمشة الملح والتمور.

وكانت أهم الأسواق الأوراسية المحلية سوق باتنة وخنشلة وبريكة ومروانة والسبت بن غزال⁶ ورأس العين وعين التوتة ودوار ايشمول ويتجاوز إلى أسواق مجاورة لمنطقة الأوراس كتلاغمة والخروب والعثمانية وأحوز تبسة كسوق الشريعة الذي يقام كل سبت ومسكيانة وعين البيضاء، وكان يغلب على المعاملات التجارية المحلية المقايضة⁷، رغم دخول النقد الذي أثر على القدرة الشرائية للفرد الأوراسي، كما أثرت وسائل النقل الحديثة على

¹ - بن أشنهو، عبد اللطيف: تكوين التخلف في الجزائر (محاولة لدراسة جذور التنمية الرأس مالية في الجزائر 1830-1962)، ترجمة نخبة من الأساتذة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص244.

² - بن أشنهو، عبد اللطيف: المرجع نفسه، ص246.

³ - Gaudry: Op. cit, p165.

⁴ - فاني، كولونا: مثقفون في الأطراف من كتاب الأنتلجانسيا في المغرب العربي، ط1، دار الحداثة للنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1984، ص247.

⁵ - محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري من 1792 إلى 1830، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 109، 112.

⁶ - A,w,c,6/32, et A,w,c,4/35 A,w,c,15/35, et A,w,c,13/35 , et A,w,c,9/35, et A,w,c14/35.

⁷ - عمار، هلال: المرجع السابق , ص 125.

تراجع استعمال على وسائل النقل التقليدية كالجمل وأصبحت هناك منافسة حادة للبضائع من طرف البضائع المستوردة التي تميزت بانتشارها الواسع ورخص ثمنها وجودتها عن البضائع المحلية.

والتجارة الخارجية فارتبطت الأوراس بالأسواق الخارجية بطريقتين طريق القوافل البدوية والطريق الاستعماري. الطريق الأول عرف منذ الفترة الإسلامية واستمرت إلى كل الفترة الكولونيلية تقريبا بنفس الأسلوب والوسائل، وهذا الطريق ربط الأوراس ببلاد السودان والواحات الشرقية وبلاد الجريد التونسي، وقامت به القبائل البدوية التجارية التي كانت تنطلق من الواحات الشرقية محملة ببضائع التمور والنسيج الصحراوي والوبر والصفوف الحام والزبدة متجهين إلى تونس.

وأثناء رحلتهم كانت لهم نقاط توقف بالأوراس ومنها تهودة وبادس¹ فتستبدل هذه الحمولة ببعض المنتجات الأوراسية من حبوب وقماش وفواكه مجففة لنقلها إلى بلاد الجريد التونسي، وكانت بعض القبائل الأوراسية تساهم في تسير وحماية هذه القوافل²، كما لا نستبعد أن يكون هناك تجار أوراسيين يستغلون هذه الرحلة لتجارهم الخاصة حالهم حال أهل تبسة، وقد كانت الأسواق التونسية التالية هي مقصد هذه الرحلة:

— سوق قفصة: يؤتى منها الزيت والفلفل والتمور والرمان والأغطية وجلود الماعز.

— سوق القيروان: يستقدم منه العسل والتوابل والخروب والصابون والزيت والقطنيات.

— سوق نابل: ويحضر منها غالبا الترابيل والذرة.

— سوق تونس العاصمة: ويجلب منها الخروب واللوز والأخذية والبرانس وخاصة الألبسة الحريرية.

— صفاقس: يؤتى منها الصابون والدلاع والفواكه الجافة.

— سوق توزر والجريد: تحتص بجلب التمور أساسا.

— سوق قابس: الحناء.³

وأثناء عودة هذه القوافل من تونس يسوقون في الأوراس بعض السلع من حملتهم كالعطور والأقمشة القطنية والحريرية ومواد الزينة والمناديل التونسية والحائك والشاشية أين يقدم تجار قسنطينة وعنابة وتبسة للاقتناء أيضا منها ونقلها لأسواق مدتهم⁴.

¹ - نصر الدين، سعيدوني: الإنسان الأوراسي وبيئته الخاصة "دراسة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدينة الأوراس قبل وأثناء العهد العثماني، الأصالة، العدد 63 ووزارة الشؤون الدينية ص 124

² - Carette: Le commerce de l'Algérie avec l'Afrique centrale et les états barbaresques, Paris, 1944, P26.

³ - بيار كاستال: حوز تبسة دراسة وصفية جغرافية تاريخية لإقليم تبسة وأعراشه "من فجر التاريخ إلى بداية القرن العشرين، تع وتر العربي عقون، دار المثقف للنشر والتوزيع ط2، 2020، ص111.

⁴ - صالح، فركوس: تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال (المراحل الكبرى)، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص 360.

كما كانت بعض القبائل البدوية التجارية الصحراوية تصل بين الشرق والواحات الشرقية التي يفد إليها تجار بلاد السودان فينقلون بضائع المنطقة الصحراوية المتمثلة في التمور والبضائع السودانية ويقومون بنقلها إلى أشهر الأسواق في الشرق كسوق الحراكتة وسوق السقنية وسوق تلاغمة وواد العثمانية مروراً بأسواق الأوراس التي يحملون منها عند عودتهم إلى الصحراء الحبوب والقماش وأشهر هذه القبائل أولاد مولاي وسعيد أولاد عمر و الطيبات.¹

أما الطريق الآخر الذي ظهر بظهور الاستعمار و تمثل في اقتناء الشركات التجارية الأجنبية من الأوراس للمنتجات الزراعية كالحبوب والزيتون والأخشاب من الغابات الأوراسية والمنتجات الحيوانية كالأغنام والأبقار والجلود والصوف.

ويتم توجيهها للتصدير نحو الأسواق العالمية، وقد شهدت فترة الحرب العالمية الأولى تزايد الاعتماد على المنتج المحلي سبب فرض مقتصدية الجيش الفرنسي توجيه المنتجات الجزائرية لدعم المجهود الحربي في أوروبا.² كما قامت هذه الشركات بتزويد الأسواق الجزائرية ومنها أسواق منطقة الأوراس بالبضائع الخارجية كالشاي والسكر كما غزت المصنوعات الأجنبية الأخرى كل الأسواق الأهلية لانخفاض أسعارها.³ وتميزت هذه التجارة باستعمال النقد إلا أنها ضيققت الخناق على التجارة المحلية وأدت إلى حدوث خسائر في السلع الأهلية سبب سرعة انتشارها في الأسواق لاعتمادها على الوسائل النقل الحديثة في حملها وأيضاً أسعارها المخفضة لقلة تكلفتها مقارنة بالسلع التقليدية.

وأيضاً كثرة استهلاكها سبب بداية غزو الوسائل والسلع الحديثة للحياة التقليدية مما أدى إلى تراجع الموازين التجارية للعائلات الأهلية ونمط التجارة التقليدي المغلق، وقد أثر ولاشك هذا على المستوى المادي للفرد والجماعة الأوراسية وغدا المجتمع الأوراسي خادماً للرأسمال الأوروبي جراء تطبيق القوانين الجديدة التي أشرنا إلى بعضها سابقاً.

المطلب الثاني: الأوضاع الاجتماعية

أولاً: الوضعية الديموغرافية

عرف تطور التعداد السكاني لمنطقة الأوراس على غرار سكان الجزائر من بداية الاحتلال إلى مطلع القرن 20 م نمواً بطيئاً حيث سجل عددهم سنة 1892م حوالي 136، 146 وهذا يعود إلى:

¹ - Jean, Boisson: les Nomades des départements sahariens, TXVII, 1^{er} et 2^{eme} semestre, 1958, pp 200,204 .

² - عبد الرحمن، رزاقى: تجارة الجزائر الخارجية (صادرات الجزائر فيما بين الحربين)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 31.

³ - A,w,c,6/32, et A , w,c 4/35 A,w,c,15/35, et A,w,c,13/35 , et A,w,c,9/35, et A,w,c,14/35

الفصل الأول: تطورات الأوضاع في الأوراس عشية حضور ج م ج في المنطقة

حالة عدم الاستقرار بسبب المقاومات المسلحة ضد الاحتلال وما خلفته من ضحايا بالإضافة إلى الأوضاع الاجتماعية المزرية والصعبة التي أدت إلى انتشار الأمراض والأوبئة كوباء حمى المستنقعات والتيفويس الذي ضرب المنطقة سنة 1895م مما أدى إلى هلاك العديد من أفراد المجتمع الأوراسي إضافة إلى الهجرة التي فرضتها عدة دوافع سياسية واقتصادية ودينية جاء بها الاستعمار.

وقد عرف مطلع القرن 20 م بداية تطور في النمو السكاني رغم هجرة بعض السكان إلى المشرق الإسلامي ما بين سنة 1909م و1911م¹ والتجنيد الإجباري وضحايا انتفاضة 1916 م ولكن في أواخر العشرينيات من القرن 20 م بدأ يظهر التطور السريع والملاحظ في الأوراس والجدول التالي يبين لنا هذا التطور لسكان ستة بلديات من الأوراس من 1926م إلى 1936 م

المجموع	بلدية لومبارز ⁷	بلدية عين التوتة المختلطة ⁶	بلدية الأوراس المختلطة ⁵	بلدية بلزمة المختلطة ⁴	بلدية عين القصر المختلطة ³	بلدية خنشلة المختلطة ²	البلدية
234.652	1.612	35.235	52.270	43.873	27.815	73.887	1926
267.057	1.736	37.996	57.421	47.381	30.781	81.742	1931
273.373	1.913	40.757	59.886	51.410	31.164	88.242	1936
38.681	301	552	761	753	1.237	1.435	معدل النمو

من قراءتنا لأرقام الجدول نستنتج:

- 1 - الزيادة السريعة في عدد السكان إذ وصلت إلى 1.64% وهذا يعود إلى:
 - تحسن المستوى المعيشي والصحي من خلال وصول الزيارات والخدمات الطبية التي يقوم بها الأطباء الفرنسيون للأهالي.
 - القضاء على الأمراض والأوبئة الفتاكة التي عرفتها المنطقة خلال القرن الماضي.

¹ - يحيى، بوعزيز: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830 - 1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص ص 36،37.

² - A,w,c,6/32.

³ - A.w,c.,4/35.

⁴ - A,w,c, 15/35.

⁵ - A,w,c, 13/35.

⁶ - Aw,c, 9/35.

⁷ - A,w,c, 14/35.

- التعاطي الايجابي من طرف الأهالي للطب الحديث الذي كان محل ريبية وشك في بداية الاحتلال بسبب تطور الوعي.
- التجاوب مع التطعيم الذي كان محل امتناع من قبل الأهالي حتى بداية الحرب العالمية الأولى والذي كان يرى فيه مساس بالكرامة وشرف الأوراسي غير أن التجربة أظهرت له منافع كبيرة لهذا التطعيم فراح يقبل عليه ويستفيد منه.
- طبيعة التقاليد الأهلية المحببة للإنجاب الكثير والتي قابلتها قلة في الوفيات عم كانت عليه في العقود السابقة.
- الاستقرار والأمن بالمنطقة وتراجع الانتفاضات والمقاومات الشعبية بالحجم الذي كانت عليه في القرن السابق.
- بالإضافة إلى التزام السكان بالتصريح بالمواليد التي حفزتها فتح المعونات الغذائية والألبسة من طرف لجان الإغاثة والإدارة
- 2 - وبالقراءة المتأنية للجدول نستنتج أيضا حقيقة ديموغرافية ثانية تتمثل في تركز السكان الكثير في المناطق الجبلية الوعرة وقتلهم في المناطق السهلية المنبسطة، وهذا يعود إلى قيام الاحتلال بإخلاء هذه المناطق من السكان الأهالي ودحرهم إلى الجبال بعد مصادرة أراضيهم الصالحة للزراعة ومنحها للاستيطان.

ثانيا: الفئات الاجتماعية

تتنوع الفئات الاجتماعية للأوراس على نمطية لا تختلف كثيرا عن نمطية باقي المجتمع الجزائري في فترة الاحتلال، فهي تتوزع بين فئات اجتماعية تأتي على رأسها طبقة الأثرياء ثم الميسورين ثم تأتي الطبقة المتوسطة بالفقراء والمعدومين والجدير بالذكر منذ البداية أن هذا التقسيم قد لا يترجم حقيقة الطبقة في المجتمع الأوراسي فالطبقة المتوسطة مثلا لا تعني بالضرورة الطبقة الوسطى التي عرفتها أوروبا في هذه الفترة بقدر ما تعني الوضعية الاجتماعية والمادية لهذه الفئة ونورد في هذا الجدول الأتي الذي يحدد لنا هذا التقسيم الطبقي للفئات الاجتماعية المكونة للمجتمع الأوراسي لست بلديات بالأوراس : (معدل خمس سنوات من 1932م - 1936):

الفصل الأول: تطورات الأوضاع في الأوراس عشية حضور ج م ج في المنطقة

بلدية لومبارز ⁶	بلدية عين التوتة المختلطة ⁵	بلدية الأوراس المختلطة ⁴	بلدية بلزمة المختلطة ³	بلدية عين القصر المختلطة ²	بلدية خنشلة المختلطة ¹	البلدية الفئة و دخلها السنوي
% 2	% 3	% 8	% 1	% 5	% 4	الأثرياء أكثر من 6000 ف
% 20	% 5	% 19	% 2	% 25	% 20	الميسورين 5000 إلى 6000 ف
% 30	% 10	% 57	% 20	% 40	% 40	المتوسطة من 2000 إلى 4000 ف
% 40	% 17	% 14	% 57	% 25	% 30	الفقراء 2000 ف
% 8	% 63	% 2	% 20	% 10	% 6	المعدومين أقل من 1000 ف

من خلال الجدول نستنتج أن الغالبية الساحقة من المجتمع الأوراسي تعود إلى الطبقة الكادحة وهذا جراء إتباع سياسة التفجير التي انتهجتها الإدارة الفرنسية في المنطقة وسياسة المصادرة والحجز كما أن أسلوب الإنتاج الجديد الذي جاء به المعمر الفرنسي خلق اضطرابا ولاشك في نمطية الإنتاج المحلي فاختلف بذلك التوازن بين مداخيله ومصاريفه وهذا اثر سلبا على المستوى المادي للفرد والمجتمع الأوراسي.

أ- فئة الأثرياء والميسورين: نسبتها ضئيلة تتراوح ما بين 4% إلى 8% في المناطق قليلة الاستيطان، وتنخفض إلى 1% في المناطق الأكثر استيطاناً، وهذا يعود إلى احتكار المستوطنين لكل مصادر الرزق والثروة وسياسة التفجير المقصودة⁹، و يدخل ضمن هذه الفئة عائلات القياد و عائلات الجماعات الدينية و الموظفين

¹ - A,w,c,6/32.

² - A,w,c, 4/35.

³ - A,w,c, 15/35.

⁴ - A,w,c; 15/35.

⁵ - A,w,c, 9/35.

⁶ - A,w,c, 14/35.

⁷ - A,w,c,6/32, et A,w,c,4/35 A,w,c,15/35, et A,w,c,13/35, et A,w,c,9/35, et A,w,c 14/35.

⁸ - Ibid.

⁹ - محفوظ، قداش والجيلالي، صاري: المقاومة السياسية 1900-1954 الطريق الإصلاحي والطريق الثوري، ترجمة عبد القادر، بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1987، ص 139

أصحاب المناصب الإدارية، وإن كانت وضعيتهم هذه غير مستحدثة مع الاحتلال، بل حافظوا عليها من العهد السابق (العثماني)، واستمرت بسبب مكاتتهم الاجتماعية وخدماتهم التي قدموها لإدارة الاستعمار لقاء امتيازات اقتصادية وسياسية، وإن كانت فئة الميسورين قد وفدت إليها عناصر جديدة أخرى حصلت على ثروتها لقاء خدمات للإدارة، وقد زادت ثروتهم في الفترة ما بين الحربين على حساب الطبقات الأخرى بانتقال المزيد من الأراضي إليهم.¹

ب- **الفئة المتوسطة:** تمثل حسب التقارير الفرنسية التي اعتمدنا عليها، الأكثرية الأهلية وهي الأخرى تعرف تباينا بين المناطق الأكثر استيطاناً الأقل استيطاناً، حيث تتراوح ما بين 40% إلى 50%² في المناطق الأقل استيطاناً بينما تنخفض من 10% إلى 30%³ في المناطق الأكثر استيطاناً، إلا أن الظروف العامة لسكان الأوراس من سكن وتغذية وخدمات وإنتاج زراعي وصناعي لا تعكس هذه النسبة، لأن الدخل السنوي المعتمد كمؤشر في التصنيف يتعرض لدى الأهالي إلى ضرائب ثقيلة يساهم القطاع الأهلي بـ 45% من مجموع الضرائب كما أن أسعار القمح في فترة دفع الضرائب تنخفض بسبب العرض الكبير لها⁴، بينما في الفترات البعيدة أين ينفذ احتياطي الأهالي منه و يزداد طلبهم عليه يرتفع سعره مما يؤدي إلى امتصاص الدخل المحدود لأفراد المجتمع الأهلي.

ت- **فئة الفقراء والمعدومين:** ترتفع هذه الفئة في مناطق الاستيطان وتشكل من جيش من الخماسين والزراعيين أصحاب الدخل الأقل من 2000 فرنك والعمال الموسميون ومن الذين أفلسوا وباعوا ممتلكاتهم إلى الأوروبيين والبرجوازية الأهلية⁵ مما أدى إلى توسع هذه الفئة خاصة في فترة ما بين الحربين.

ثالثاً: التغذية

لم يحدث تغير في مكونات مادة الغذاء لدى سكان الأوراس، ولا العادات الغذائية وهي تغذية تغلب عليها البساطة وإن احتوت على عناصر غذائية صحية، كما لا نجد هناك اختلافات كبيرة بين المناطق، وعموماً توجد هناك ثلاث وجبات رئيسية في اليوم، وجبة فطور الصباح وقتها السادسة صباحاً في الصيف والثامنة صباحاً في الشتاء وتتكون عادة من رغيف القمح أو الشعير، ووجبة منتصف النهار تتكون من رغيف القمح أو الشعير مع قليل من الحليب والتمر، أما وجبة العشاء والتي تعتبر الوجبة الأساسية في اليوم فتتكون عادة من الكسكسي بالمرق والحليب والتوابل.

¹ - صلاح العقاد: المغرب العربي بين التضامن الإسلامي والاستعمار الفرنسي، ج2، المكتبة الأنجلومصرية، دار الطباعة الحديثة، بلا ت ط، ص108. وشارل روبيرت، أجيرون: المرجع السابق، ص130.

² - A,w,c,6/32, et A,w,c A,w,c,15/35, et A,w,c,13/35 , et A,w,c,9/35, et A,w,c 14/35.

³ - ibid.

⁴ - عدي، الهواري: المرجع السابق، ص70.

⁵ - عبد اللطيف، بن اشنهو: المرجع السابق، ص161 وشارل روبيرت أجيرون: المرجع السابق، ص103،102.

وتختلف درجة غناء الوجبة بالعناصر الغذائية حسب المستوى الاقتصادي فتتناول العائلات المسورة اللحم الطازج مرة إلى مرتين كل أسبوع وغالبا ما يكون يوم السوق الأسبوعية بينما اللحم المجفف في أغلب الأيام.¹ أما العائلات المتوسطة فيتناولون اللحم من مرتين إلى ثلاث مرات في الشهر، أما الفقراء فيتناولونه في المناسبات فقط، وفي بعض الأحيان تشترك العائلات الفقيرة في ذبيحة ويأكلون جزء منها طازجا والبقية يجفف لينفق على باقي الأيام، وفي موسم الأعمال الفلاحية يتناول العمال كميات إضافية من الغذاء في وجبة منتصف النهار تصل بالإضافة إلى 30%.

أما تناول الفواكه مختلف حسب منتج كل منطقة من الفاكهة ويعرف سكان منطقة الأوراس بكثرة أكلهم للفواكه.

تبقى التغذية في الأوراس تمتاز بقلّة كميتها وبساطتها وإن احتوت على عناصر غذائية جيدة وطبيعية إلا أن الأطباق الحديثة والمتنوعة لم تعرفها إلا العائلات المسورة جدا كالقياد.²

رابعا: السكن

اهتدى المجتمع الأوراسي عبر تطوره التاريخي وكغيره من المجتمعات البشرية إلى السكن للخلود للراحة، وقد تحكمت الظروف الطبيعية والجغرافية و حتى المهنية في تحديد نمط السكن.

كانت الدشرة الطابع العمراني الغالب في الأوراس، تبنى غالبا على رؤوس الجبال وفي مناطق نائية يصعب الوصول إليها³، وهذا لدواعي دفاعية وتجنباً لفيضانات الأودية والسيول وللابتعاد عن الأراضي الصالحة للزراعة لتوفيرها للفلاحة.

ويمكن أن تصف مسكن الأوراسي الذي لازمه إلى فترة متأخرة - حتى الحرب العالمية الثانية- بالبساطة المتناهية من حيث التصميم الهندسي والبعد الوظيفي و مواد البناء.

فكان هناك نوع من المساكن قريب إلى المسكن البدائي يتميز بانخفاض ارتفاع جدرانها وعدم وجود أساسات لها ومساحتها الضيقة.⁴

جدرانها تبنى من الحجارة التي تأخذ أحجام مختلفة وتوضع في بناء الحائط بشكل غير جيد، فلا يراعي فيها أدنى جهد للإتقان من حيث استقامة واستواء الجدران والسقوف التي تغطي بالطين أو الديس والحلفاء⁵ وينتشر

¹- A,w,c,6/32, et A,w,c 4/35 A,w,c,15/35, et A,w,c,13/35 , et A,w,c,9/35, et A,w,c 14/35.

²- Ibid.

³- حمدان بن عثمان، خوجة: المرأة، ترجمة محمد العربي الزبيدي، ط 1، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ص 66. وعدي، الهواري: المرجع السابق، ص 103.

⁴- حمدان بن عثمان، خوجة: المرجع نفسه، ص 65.

⁵- إيف، لاكوست وآخرون: الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي، دار المعارف، بيروت، لبنان، ص 46.

هذا النوع من المساكن خاصة لدى العائلات الفقيرة في بلديات عين القصر وبلزمة ولومبار¹، أما مناطق التخوم الأوراسية كخنقة سيدي ناجي وجمورة وعين زعطوط والبرانس فإن هذا النوع من السكن تعوض الحجارة في بناءه بالطوب.²

وكذلك نجد المساكن المدمجة أو المسنودة إلى الصخور، تبنى بحجارة مستخرجة من هذه الجبال وأيضا الكهوف والمغارات وتعرف ب(Ifri³).

هذه المساكن المحصنة في الجبل فبالإضافة إلى توفيرها للأمن فإنها تحمي السكان من الظروف المناخية القاسية والمتناقضة بين الشتاء القارص والصيف شديد الحرارة وتشهد هذه النماذج من السكن في قرى أولاد ميمون وأولاد يحيى وغوفي⁴.

وهناك مساكن أرقى نسبيا من النوع السابق حيث تعرف جدرانها زيادة في الارتفاع الذي يصل إلى مترين ونصف (2.5 م) وسمكه نصف متر (1.5 م) أما السقوف فتقام على شكل قبتين مستطيلتين ومتقابلتين مرفوعة بجدران مستقيمة يشكلون زوايا قائمة، يلحق بها فناء واسع لها باب كبير بدفتين، هذا الاتساع يسمح بإضافة غرفة أخرى كلما أضيف زوج إلى العائلة وتعتبر الغرفة متعددة المهام، فهي المطبخ وغرفة النوم والاستقبال.⁵

وبقيت الخيمة عند بعض القبائل الرعوية مسكنا فرضته نمط حياتهم البدوي لسهولة طيها وحملها، وتصنع الخيمة من أشعار الحيوان وتحسن بالوبر حتى تمنع نفوذ المطر إلى داخلها.⁶ ومن القبائل التي بقيت تعتمد الخيمة كمسكن في موسم ترحالها القبائل الجنوبية كالصحاري وأولاد زيان وأولاد الرشاش، ويعودون إلى قراهم ذات البيوت المسطحة صيفا.⁷

خامسا: القلعة

وتدعى بالشاوية "تقلعيث" وهي مخزن يتكون من مجموعة من الغرف تؤدي إليها دروب ضيقة لا تسمح بمرور إلا رجل واحد، ويتبع حجمها حجم القبيلة وقد تأخذ الشكل الدائري أو المستطيل تبنى في مكان منيع في أعلى القرية.

¹- A,w, c 15/35 , a,w, c 4/35 , a , w , c 14/35.

²- A,w, c 9/35.

³- Henri, Busson: les vallées de l'Aurès , annales de géographie, t , IX , année 1900, p53.

⁴- Ibid, p53.

⁵- عبد الحميد، زوزو: الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي المرجع السابق، ج1، ص400.

⁶- عدي الهوا ري: المرجع السابق، ص16

⁷- A,w , c 6/32.

*- هذا النظام لم يعثر عليه إلا في منطقة الأوراس وعند سكان الأطلس الكبير بالمغرب الأقصى، إلا أن ماسكراي يتكلم عن القلعة في القرى الشمالية للأوراس لدى أولاد عبدي.

يعود نظام القلعة* عند الشاوية إلى العصور القديمة واستمر بنفس الدور والأهداف المتمثلة في تخزين الثروة والمؤونة طويلة الأمد لكل ساكن في القرية، كما توضع فيها المؤونة التي يصعب حملها أثناء موسم الرحيل، ويترك أحد السكان لحراستها ويتولى خدمتها.

والقلعة أيضا أسلوب اعتمده الشاوية للادخار لوقت الحروب والجفاف، وتهدف إلى توفير الغذاء في المستقبل، وهي بذلك نظام احتياطي للطوارئ استوعبه سكان الأوراس من تجربتهم مع الطبيعة، فالنظام المناخي الشحيح الأمطار والمتذبذبة لا يمكن الوثوق به أو بكرمه، مما أدى إلى إدراك أهمية توفير احتياطي من المؤونة لتحقيق الأمن الغذائي في المستقبل¹.

كما تحمل القلعة بعد تضامني إتحادي بين أفراد القبيلة من حيث حملها اسم القبيلة كما توحد جميع أفرادها لهدف واحد هو حملهم الدفاع عنها.

زيادة على أنها تحمل البعد الأمني ففي حالة الحروب والغارات توفر المؤونة التي يصعب اكتشافها للطبيعة السرية لبنائها فتحافظ على ثروتهم من سلب الغارات والغزاة.

وعليه فإن الإنسان الأوراسي بقي يحاكي الماضي البعيد حتى في سكنه الذي لم يشهد عليه أي تغير أو تحول عن ذلك التصميم البدائي، وهذا رغم المحاولة المحتشمة التي قامت بها الإدارة الاستعمارية في بداية احتلال المنطقة بإقامتها القرية العربية قرب باتنة المتكونة من ستة عشر منزلا (16) المبنية بالطوب فوق أساس من الحجارة الغليظة مطلية جدرانها بالجير والرمل من الداخل والخارج وتميزت بتصميمها واتساع وتعدد غرفها وإلحاق بها إسطلب ومراحيض وبئر وقد أقيمت فيما بعد نماذج منها في عدة مقاطعات من المنطقة².

ويعود هذا البطء في تطور السكن إلى اعتماد أغلب سكان المنطقة حياة الترحال وهجرتهم لمعظم شهور السنة وكذلك الفقر الذي يحتم عليهم إقامة المسكن بأقل تكلفة والانشغال بسؤال العيش على سؤال الجمال، وجدير بالملاحظة في هذا الخصوص أن مسكن الأوراسي حافظ على القيمة الوظيفية له الذي غلب عليها النظام الدفاعي البدائي في حين نقصت الأبعاد الأخرى كالبعد الجمالي وحتى الثقافي والحضاري مثل ما نشاهده في أقاليم أخرى حيث تراعى في تصميم البيت الحزمة والحجبة والاتساع.

هذه الوضعية للسكن والعمارة بمختلف تجلياتها في الأوراس يجعلنا نتساءل حيال العمارة في المنطقة في الفترة القديمة على قلتها وأنحسارها كتلك العمارة المعلقة على هنية نزل بوادي غوفي أو قبور الملوك الأمازيغية كالمدراسن أو الآثار المدن المدفونة في المنطقة التي تتجاوز في فكرتها وتشبيدها ما عليه سكن الأوراسي في الفترة الحديثة والمعاصرة، هل وقعت قطيعة تاريخية للعمارة في المجتمع الأوراسي حتى تبدو بهذه البساطة والبدائية أم هناك ظروف

1- A , W, c 13/35.

2- عبد الحميد، زوزو: الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي المرجع السابق، ج1، ص273.

أخرى سياسية وعسكرية وفكرية انتهت إلى عدم استقرار الأوراسي فرضت عليه الإقامة المؤقتة والآنية وهو ما انعكس على تفكيره في إنشاء بيوت بسيطة لغرض الإيواء فقط فافتقرت لكل مظهر للجدية في العمارة والسكن. ألم يكن من الممكن الوقوف على عمارة ومسكن متطور يحمل خصائص حضارية ومدنية عالية في منطقة عرفت خلال كل الفترات التاريخية السابقة وجود الإنسان بإنجازاته العمرانية، من الفترات النوميدية إلى الفترة الرومانية التي كانت العمارة فيها حاضرة بقوة وبكل ثقلها القيمي والمادي، وهو ما يسهم في توفر لدى الأوراسي على الأقل المثال لمحاكاة أو عدم التنازل لمستوى ما وصل إليه من سداجة بعد زمن في تشييده للسكنه وعمارته.

المطلب الثالث: الأوضاع الثقافية

لعل الملاحظة الأبرز التي يمكن أن يتسم بها الواقع الثقافي لتلك الفترة هي أنها كانت امتدادا لثقافة العصور السابقة (الوسطى)، حيث بقيت مظاهر الثقافة والذهنية التقليدية هي السائدة في الأوراس، وقد كانت المنظومة الدينية والتعليمية تحرس هذه المظاهر التقليدية كالطرق الصوفية والتعليم العربي التقليدي والممارسات الطبية.

أولا: الطرق الصوفية:

ارتبطت الحياة الثقافية والدينية في منطقة الأوراس وعلى غرار الجزائر وكل العالم الإسلامي في الفترة الحديثة بظاهرة التصوف، وقد عرفت الجزائر انتشار الطرق الصوفية الأولى القادمة من المشرق، كما عرفت فيما بعد تجارب صوفية محلية، وبروز مجموعة كبيرة من علماء الصوفية الذين ساهموا في نشر تعاليمهم عبر جولاتهم مبشرين بها، وإذا كان التصوف الذي أسس له الأوائل هو ذلك الاتجاه الفكري الداعي إلى إخلاص النية لله في العبادة وتطهير النفس البشرية من الأدران والأمراض الباطنية، إلا أنه في فترة الضعف العام الذي أصاب العالم الإسلامي عرفت ظاهرة التصوف تجارب منحرفة لاقت تعاليمها انتشارا واسعا بسبب الجهل وسداجة العقول والتراجع العلمي والفكري مما أدى إلى التصاق الدجل والشعوذة، يتبع أهالي الأوراس مجموعة من الطرق منها ذات الانتشار الواسع بينهم ومنها محدودة الإصدار، ومن أهم الطرق الصوفية التي عرفتھا المنطقة.

أ- الطريقة القادرية

الطريقة القادرية طريقة صوفية دينية تنسب إلى مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني المكنى بمحي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني بن أبي موسى الحسيني (1078 م-1166 م)، يعد من أهم الشخصيات الصوفية الأولى في العالم الإسلامي، تميز بغزارة علمه وقوة نشاطه الدعوي كما كانت له الكثير من المؤلفات في التصوف والشريعة، عرف بسلطان الأولياء طاف أغلب أنحاء العالم الإسلامي مبشرا بتعاليم طريقته¹.

¹- Louis Rinn: Marabouts et Khouans, Adolphe Jourdan, libraire-éditeur, Alger, 1884, p183.

وتعد القادرية أول وأقدم الطرق الصوفية التي عرفتها الجزائر¹، إذ كان ظهورها حوالي القرن الثاني عشر ميلادي (12م)، على يد الشيخ أبي مدين شعيب الذي أخذ تعاليمها أثناء التقائه بالشيخ عبد القادر الجليلاني في موسم الحج² وبعد عودته استقر ببجاية وكون أول زاوية له وقام بنقل تعاليم القادرية إلى المئات من تلاميذه والذين بدورهم ساهموا في نشرها في ربوع الوطن.

أما ن الشعائر التي تتبعها القادرية فتتمثل في التسيخ بتكرار الذكر " لاإله إلا الله " 300 مرة كل عشية و"أستغفر الله" مائة مرة، زيادة على ختمهم لكل صلاة مفروضة بأدعية وقراءة آيات من القرآن، ثم ينشدون أورايد خاصة بهم تتضمن تمجيد شيوخها ومؤسسيها، والإلتناء إليها يكف التعبير عن إرادة الانخراط فيها ليلقن المريدين بعض التوصيات والتعاليم حتى يصبح قادري الطريقة وهو مانجده عند أغلب الطرق والإخوانيات³.

أما منطقة الأوراس فقد عرفت الطريقة القادرية في بداية العهد العثماني على يد الشيخ إبراهيم بن موسى⁴ المنحدر من عائلة بني عباس أو بلعباس والتي يعود نسبها إلى مؤسس الطريقة الشيخ عبد القادر الجليلاني حسب الشجرة التالية: محمد الصغير. بلعباس. محمد. بوبكر. محمد. أحمد. عمار. بالقاسم. عبد الرزاق. علي. عبد الرحمان. داود. إدريس. إبراهيم. عبد القادر الجليلاني.⁵

قدمت عائلة بني عباس للأوراس من نواحي الساقية الحمراء مثل ماهو شائع وقره العائلة لتستقر بمنعة والتي أسست بها زاويتها الشهيرة وأصبحت تدرس فيها تعاليم الطريقة القادرية و تقوم بنشرها على العشائر المجاورة كما أسست لها فرعين بجنشلة و2600 تابع و 26 مقدم يتبعون شيخها بالزاوية الأم بمنعة.⁶ واستطاعت هذه العائلة أن يكون لها نفوذ كبير على العديد من القبائل والعشائر الأوراسية لما عرف على أبنائها من الورع وحسن الأخلاق والطباع، وقد عرفت المنطقة بدخول هذه العائلة استتباب الأمن وتراجع الحروب والاعتداءات بين القبائل الأوراسية المتناحرة على أراضي الرعي والزرع وذلك لجهودها في حل النزاعات والخلافات بينهم، كما تميزت بخدماتها الثقافية والدينية التي تقدمها للسكان المجاورين وعرف عنها أيضا كانت ملجأ لعابري السبيل والمساكين حتى اشتهرت بزاوية مول السبيل (أهل الكرم).⁷

¹ - ادوارد، دونوفو: الإخوان (دراسة أنثروبولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر)، ترجمة وتحقيق كمال فيلاي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2003، ص 29.

² - بيل: دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، دار الشرق، القاهرة، 1933، ص 602.

³ - بيار كاستال: المصدر السابق، ص 124.

⁴ - نصر، الدين سعيد وني: المرجع السابق، ص 145.

⁵ - De Lartigue, Op.cit p196.

⁶ - ibid , p197.

⁷ - Emile, Masqueray, voyage dans l'Auras, études historique, Bulletin de la société de géographie de Paris, T14eme, Imprimerie de Martinet Paris 1876, p53.

وهذا ما يبرر بما فيه الكفاية هذا النفوذ والسلطة المرابطية لهذه العائلة واحتلالها مكانة اجتماعية مرموقة، هذه المكانة الاجتماعية للعائلة تركت بايات قسنطينة تتقرب منها للاستعانة بها في حماية قواتها الدفاعية أثناء مرورها بمنطقة الأوراس لأداء مهامها والتي كانت تؤمن لها طريق عبورها من واد الطاقة إلى واد عبدي إلى بني فرح وبفضل هذا الدور قلدت السلطات العثمانية محمد بن عباس لقب قائد الأوراس فأصبح بذلك سيّدا على سكان أولاد عبدي و نارة ومنعة وبوزينة وتاقوست.¹

كما ساهمت هذه الزاوية في بداية الاحتلال في مقاومته بوقوفها إلى جانب أحمد باي وأحمد بالحاج أثناء التوسع الفرنسي إتحاه الجنوب.

إلا أنّها سرعان ما تحولت إلى خدمة هذه السلطة الجديدة وهذا ما فرضته موازين القوة فلم يكن بوسع زوايا الأوراس في فترة الاحتلال من البقاء إلا إذا أعلنت ولاءها للإدارة الفرنسية، حتى أصبحت توصف في تقارير مكاتب الشؤون الأهلية بأنها الطريقة الأقل تعصبا وعدوانية والطابع الإنساني.²

ب- الطريقة الشاذلية:

هذه الطريقة الصوفية تعود في تأسيسها إلى الشيخ تاج الدين أبو الحسن علي الشاذلي بن عطا الله بن عبد الجبار 1196-1258 م وهو أحد تلاميذ وخليفة عبد السلام بن مشيش الذي تتلمذ بدوره على يد الصوفي الكبير أبي مدين شعيب³، اشتهر أبو الحسن الشاذلي بدعوته التي جمعت حوله العديد من التلاميذ الذين اخلصوا إلى تعاليمه وبعد وفاته لم يرث خلافته ذريته بل خلفه الأولياء من أتباعه الذين تعلموا عنه وتأهلوا إلى صنع المعجزات والكرامات، أين أسسوا زوايا مستقلة ومدارس فلسفية صوفية لنشر تعاليم طرقهم⁴، ساهمت هذه الاستقلالية في ظهور اختلافات في الطقوس التعبديّة وتأسس عليها العديد من الطرق التي أصبحت فروع للشاذلية ومن أشهرها الطريقة الدرقاوية بالمغرب الأقصى و المودانية بليبيا و الزيانية و الزرقاوية...⁵

وتمثلت الشاذلية في منطقة الأوراس بزوايتين أو طريقتين وهما:

– **الطريقة (الزاوية) الناصرية:** تعد الناصرية طريقة صوفية وفرع من فروع الشاذلية ظهرت في بداية أمرها بالمغرب الأقصى بمنطقة تمغروت بواد ذراع وعرفت انتشارا كبيرا بموطنها المغرب الأقصى وانتقلت منه إلى السودان حتى بلغت تومبوكتو، ودخلت الجزائر على يد عائلة بن ناصر مطلع القرن السابع عشر ميلادي (17 م) حوالي سنة

¹ - نصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص145.

² - بيار كاستال: المصدر السابق، ص124.

³ - فيلالي، مختار: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني، ط1، دار الفن القرافيكي للطباعة والنشر باتنة، الجزائر، ص53.

⁴ - De Lartigue, Op.cit p195.

⁵ - أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص58.

1602 بقدوم الشيخ سيدي مبارك بن ناجي المتوفى سنة 1614م إلى منطقة سيدي ناجي أين أسس مسجده والمدينة التي أصبحت تعرف باسمه.¹

تميزت الزاوية الناصرية بنفوذها المعنوي لما كانت تقدمه من خدمات دينية وتعليمية واجتماعية فكانت بذلك تشع الجهات المجاورة لها في الزاب والأوراس من بوسليمان وأولاد داود وأولاد عبيدي.²

— زاوية قمر: كما تمثلت الطريقة الشاذلية أيضا في منطقة الأوراس في زاوية تمر المتواجدة في جبال الجنوب الغربي لخنشلة والمسيرة من طرف أولاد سيدي بوبكر وقد بلغ عدد الأتباع المنخرطين فيها في بداية احتلال المنطقة حوالي 1400 أخ.³

د- الطريقة التجانية:

تأسست الطريقة التجانية بفاس بالمغرب الأقصى على يد الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن سالم التجاني المولود بعين ماضي قرب مدينة الأغواط الجزائرية حوالي سنة 1737م والمتوفى سنة 1815م، وقد كان إظهاره للطريقة في أواخر القرن الثامن عشر م (18م) وبقيت مغمورة غير معروفة فترة لباس بها حتى أخرى القرن التاسع عشر، غير أن جهود الشيخ وخطته العملية في قيامه بالدعوة إلى تعاليمه من خلال تنقلاته عبر الصحراء ومنطقة توات والسودان الغربي وتونس، والتي كان يقوم أثناءها بتأسيس زاوية في كل مكان يحل به ويعين بها مقدا لتثبيت تعاليمها كما قام أصحابه بالفعل نفسه عملا بوصيته، بذلك تعد من أحدث الطرق والجماعات الدينية في الجزائر وقد لاقت انتشارا واسعا بفعل ما نسب إليه واشتهر به عند العامة من كرامات وخلال، حيث استطاع أن ينفذ إلى قلوبهم ويكسب ودهم. تلخص شعائر التجانية في الذكر الذي يعتد على تكرار الشهادة أو ما يعرف عند عامتهم بالتهليل " لا إله إلا الله " 300 مرة كل صباح وعشية ودعاء خاصة مائة مرة أما عن الإنخراط في الطريقة فهو لا يختلف كثيرا عن الطرق الأخر.

يذكر لويس رين في إحصاء خص الطريقة التجانية في الجزائر، أن عدد زواياها بلغ سنة 1882 حوالي 17 زاوية و100 مقدم و11082 مرید⁴، وكانت حضورها كبير وراسخ بمناطق عين ماضي بالأغواط والواحات الشرقية ورقلة وتقرت ووادي سوف⁵.

وقد تمثل امتداد الطريقة التجانية إلى منطقة الأوراس في نفوذها إلى قبائل بني بربار بجبل ششار، حيث كانوا يتبعون الزاوية التجانية بتماسين وقد بلغ عددهم 6000 أخ تجاني، وقد نوعز وصول المد التجاني إلى هذه المنطقة

¹ - De Lartigue, Op.cit p191.

² - عبد الحميد، زوزو: تاريخ الاوراس إبان الفترة الاستعمارية المرجع السابق، ج1، مرجع سابق، ص97.

³ - De Lartigue Op.cit p 196.

⁴ - Rinn, Op.cit p425.

⁵ - فيلاي مختار: المرجع السابق: ص51.

إلى قريها من زاوية قمار وسيدي عقبة ذات المكانة والإشعاع الدعوي التجاني، وأيضا أثرت الصلات التجارية في المساهمة في انتقالها إلى هذه المنطقة خاصة لما عرف على المنطقتين من تبادل ومعاملات تجارية¹، وهذا ليس غريبا على الطريقة التجانية التي كانت التجارة إحدى وسائلها وطرقها المهمة في انتشارها الواسع كما هو في بلاد السودان الغربي.

تميزت هذه الطريقة بالنفوذ الروحي الكبير لخلفائها على أتباعهم و بالإيمان والاعتقاد الراسخين لتعاليمها وآرائها إلى درجة التعصب حتى في بعض الاعتقادات التي يعتقد أنها منافية للدين الإسلامي، كالاعتقاد في أفضلية سيدي أحمد التجاني على الأولياء الصالحين² وكراماته الخارقة كرؤية الرسول (ص) يقظة³ وضمن دخول أتباعها الجنة دون حساب وعقاب⁴.

والملاحظ على الطريقة التجانية أنها لم تلقى انتشارا وإقبالا كبيرين بالشمال الجزائري وخاصة المنطقة الشرقية ويرجع الأستاذ العيد مسعود ذلك لعدة عوامل أهمها كما ذكر:

— ما نظرة إليه الناس من آراء متطرفة حملتها التجانية كإدعاء سيدي أحمد التجاني أن النبي أمره بترك كل الطرق وإدعاءه منح الغفران لكل من رآه ومن رأى من رآه.

— تزامن دعوته هذه مع الصحوة العلمية التي وصل شيء منها إلى الجزائر خاصة شمالها⁵.

وتذهب العديد من الكتابات أن الطريقة التجانية لم يعرف عنها إلزامها بالقضية الوطنية على عكس ما عهد على الطرق الصوفية في بداية الاحتلال⁶ رغم أهمية انتشارها الجغرافي وكثرة أتباعها، وذلك يظهر في ما أشتهرت به من تقديم خدماتها للإدارة الاستعمارية منذ البداية بتسهيلها غزو الصحراء وتمكينها من الوصول حتى منطقة الطوارق في أقصى الجنوب ومساهمتها في إضعاف مقاومة الأمير عبد القادر⁷ التي أصبحت تجربته الجهادية مثالا عند المسلمين فقامت بعزله باستخدام بعض قادة الطريقة التجانية مثل محمد التجاني مقدم الطريقة بسيدي

¹ - عثمان، زغب: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة وادي سوف 1918-1947 وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم التاريخ وعلم الآثار جامعة الحاج لخضر باتنة، السنة الجامعية 2006-2007، ص110.

² - علي حراز بن العربي برادة: جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، ج2، مطبوعات سالم الحبيب الجزائري، دار التجاني للطباعة والنشر والتوزيع، تغزوت، الوادي، الجزائر، ص4.

³ - المصدر نفسه، ج1، ص221.

⁴ - المصدر نفسه، ص22.

⁵ - العيد مسعود: المرابطون والطرق الصوفية، مجلة سيرتا، العدد10، ص12.

⁶ - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ص301.

⁷ - انظر يوسف مناصرية: ليون روش داخل جيش الأمير عبد القادر 1837-1839، مجلة سيرتا مجلة تاريخية اجتماعية يصدرها دوريا معهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسنطينة، العدد 9/8 السنة الخامسة، ديسمبر 1983، ص13.

عقبة و ميلود بن سالم مقدم الطريقة بالأغواط وطافوا أهم المراكز الإسلامية كالقيروان والأزهر والحرم المكي حاملين فتوى تحرم الجهاد.¹

كما أيد سي محمد العروسي شيخ زاوية قمار فرنسا في حربها مع بروسيا عام 1870 م من خلال وصيته لإتباعه في الطريقة، إضافة إلى موقفها إلى صف فرنسا ضد الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى (1914م _1918 م) بورود اسم شيخ زاوية قمار في قائمة الوفد المبعوث لتزكية وتأييد الثورة العربية التي قادها شريف حسين أمير مكة² لإضعاف الجبهة العثمانية خدمة لحلفائه بريطانيا وفرنسا.

هذه الخدمات والتسهيلات في حقيقة الأمر كانت مقابل خدمات وأهداف متبادلة تمثلت في حصول شيوخ الطريقة على الألقاب وتقوية الطريقة على حساب منافسيها وخاصة ندتها القادرية ولعل هذا ما يفسر إزدهار الطريقة التجانية وانتشارها في اغلب المستعمرات الفرنسية في إفريقيا وزيادة عددها وقوتها وتأثيرها وأيضا ماليتها حتى أصبحت توصف بطريقة الأغنياء.

غير أن هذه العلاقة والحكم الذي وسمت به الطريقة التجانية في أدبيات العديد من الكتابات التاريخية نجد من يفندوها ففي كتابات أحد موظفي الشؤون الأهلية "السيد بيار كاستال"³ عند تقديمه للطريقة التجانية بحوز تبسة التي يصفها بأنها الطريقة الأكثر عداءا للوجود الفرنسي³.

د- الطريقة الحنصالية:

تعود هذه الطريقة الصوفية إلى مؤسسها الشيخ يوسف الحنصالي الذي قدم من ضواحي زمورة غرب سطيف أسس طريقته بجبل شطاية القريب من قسنطينة، ثم اتخذ من جبل زاوي مقرا له والذي تحول إلى جبل مقدس لدى أتباع الطريقة، كما اتخذ خلفاؤه الذين تعاقبوا على رأس الطريقة من بعده مقرا لهم مثل سيدي سعدون وسيدي معمر وسيدي أحمد الزواوي⁴، أشتهر الشيخ يوسف الحنصالي عند أتباعه بكراماته مما عزز لديهم الإيمان بتعاليمه، إلا أن الطريقة الحنصالية إذا ما قورنت بالطرق الصوفية الأخرى التي عرفتها الجزائر نجد أنها بقيت محدودة الانتشار والإتباع ولم تتجاوز المناطق المجاورة والقريبة من قسنطينة منطقة نشأتها، و لا تذكر المراجع المتخصصة حضور لها في منطقة الأوراس باستثناء ما جاء في إحصاء لويس رين الذي حصر وجودهم ببلدية باتنة

¹ - ابوالقاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج1، المرجع السابق، ص ص 246-247.

² - موسى بن موسى: الحركة الإصلاحية في وادي سوف، نشأتها وتطورها 1900-1939، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، السنة الجامعية 2005-2006، ص 79.

^{*} - بيار كاستال: مرشح اختياطي في مصلحة الأهالي عين في مكتب الشؤون الأهلية بتبسة خلال فترة تواجده ألف كتابة " حوز تبسة دراسة وصفية جغرافية تاريخية لإقليم تبسة وأعراشه" من فجر التاريخ إلى بداية القرن العشرين" وفيه ضمن معلومات مهمة عن حوز تبسة خدمة للإدارة الاستعمارية في إطار المهمات الاستخباراتية التي عهدت على موظفي المكاتب الشؤون الأهلية

³ - بيار كاستال: المصدر السابق: ص 123.

⁴ - ادوارد، دونوفو: المصدر السابق، ص 75.

كاملة الصلاحيات فقط و تحدد عددهم بأربعة عشر أخ ومقدم واحد¹، هذا العدد القليل والمحدود يبين ضعف تواجد هذه الطريقة الذي اقتصر على الانتماء والانتساب الفردي لأصحابها وهذا ليس بعيدا على بلدية كاملة الصلاحيات مثل باتنة التي تمتاز تركيبها الاجتماعية بفرديّة السكان الأهالي إلى حد ما بسبب وجودهم في هذه المدينة الجديدة في الأوراس وذات الحضور الكبير للكولون كعمال فرضت عليهم الأوضاع الاقتصادية الانسلاخ عن العائلة الكبيرة أو القبيلة في المناطق الريفية والنزوح إليها، أو قد يكونون عناصر أهلية قدموا من النواحي ذات التأثير الحنصالي على عكس ما عرفت به الطرق الأخرى في المنطقة التي يكون حجم انتشارها يعود إلى تبني القبيلة أو العشيرة لها وبذلك يحدث الانتماء الجماعي لأفرادها تلقائيا.

وهذا الحضور الضئيل والفردي انعكس على ضعف تأثيرها ودورها في منطقة بقيت محافظة على مكانة القبيلة وتأثيرها وهو ما لا يمكن ادراجها ضمن الطرق الموجودة بالأوراس.

وأیضا ما يلفت الانتباه أن هذه الطريقة لم تظهر أي مقاومة ضد الاحتلال منذ البداية في كل مناطق نفوذها في الوطن²، وقد يكون هذا الموقف جاء من إدراك خلفائها إلى عدم جدوى مقاومتهم لقوة كبيرة أمام ضعف عددهم، أو قد يكون موقفهم جاء تماشيا مع ما ألفوه مع السلطة السابقة والمتمثل في تقديم فروض الطاعة للحفاظ على نفسها ونفوذها ومصالحها.

هـ- الطريقة الرحمانية:

الطريقة الرحمانية طريقة دينية صوفية نشأت في الجزائر أواخر القرن الثاني عشر الهجري 12هـ الموافق للقرن الثامن عشر ميلادي (18م)³ على يد الشيخ سي محمد بن عبد الرحمان القشتولي الجرجي الأزهرى المعروف بأبي قبرين والمولود خلال الفترة (1715م - 1728م) والمتوفى سنة 1793م، ينتمي نسبه إلى عائلة شريفة تنحدر من قبيلة آيت إسماعيل بالقبائل الكبرى والطريقة الرحمانية تعود في أصلها إلى الطريقة الخلواتية⁴، والتي تبناها واستقدمها الشيخ محمد بن عبد الرحمان القشتولي من المشرق أثناء رحلة تعليمه واحداث عليها بعض الطقوس والتعاليم الجديدة التي ميزتها عن الطريقة الخلواتية الأم، وشرح تعاليمها وأوردتها مؤسسها في رسائله العديدة التي كان يبعث بها إلى أتباعه ومريديه، كما أظهر قواعدها تلميذه وخليفته الشيخ عبد الرحمان بن باش تارزي* في

¹ - Rinn, Op.cit p535.

² - أبو القاسم، سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص301.

³ - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16م - 20م)، ج2، الجزائر، 1981، ص156.

⁴ - Octave Depont Coppolani Xavier les confréries religieuses musulmanes, Jourdan, Alger 1897 résume par j.m.abounouhen 1937p31.

* - عبد الرحمان باش تارزي توفي 1807م من أصول تركية من أهل الجزائر العاصمة تتلمذ واخذ العلوم والطريقة على يد عبد الرحمان الأزهرى تم أمره للتوجه لناحية قسنطينة لنشر الطريقة

كتاب الوصية¹ وكتاب الهدايا الربانية " Les présents Dominicaux "² الذي بين فيه كل الإرشادات والقواعد للمقدمين.

ويعرف وردها بقراءة حزبين من القرآن الكريم صباحا ومساءً وترديد الشهادة " لا إله إلا الله " 300 مرة والعيون مغلقة، عرفت الطريقة نجاحا وانتشارا واسعين في القطر الجزائري خاصة خلال القرن التاسع عشر ميلادي (19م)، كما ترك الشيخ المؤسس محمد بن عبد الرحمان القشتولي مجموعة من التلاميذ أصبحوا بدورهم شيوخا لهذه الطريقة ومن أشهرهم عبد الرحمان باش تارزي ومحمد بن عزوز البرجي^{**} وبفضل جهودهم تواصل انتشارها ووصلت منطقة الأوراس حتى انتشرت فيها بشكل سريع وواسع في كل مناطقها وعند أغلب قبائلها حتى أصبحت الطريقة الأولى من حيث الحضور العددي والانتشار الجغرافي.

ولا يمكن تفسير هذا الحضور القوي للرحمانية في منطقة الأوراس رغم دخولها المتأخر للمنطقة مقارنة مع أغلب الطرق الأخرى إلا للأسباب التالية، والتي يأتي في مقدمتها ما ذهب إليه الأستاذ عبد الحميد زوزو³ والمتمثل في توافق الذهنية والعقلية الأوراسية مع تعاليم الطريقة التي تميزت بالسهولة وعدم التعقيد، ويظهر هذا في اعتدالها والانشغال بالعبادة والتأمل، وكذا حيويتها التي امتلكتها كطريقة جديدة، زيادة على تقاليد الدعوة التي أسسها شيخها المؤسس بتركيزه على تربية طلابه ليجعل منهم مبشرين لتعاليم الطريقة في المناطق التي سوف يرسلهم إليها، وقيام هؤلاء بدورهم بنفس التقليد فالشيخ المؤسس محمد بن عبد الرحمان القشتولي علم وربي الشيخين مصطفى بن باش تارزي ومحمد بن عزوز البرجي والذين قاما بتأسيس زوايا لنشر تعاليم الرحمانية، ولما تخرج على أيديهم طلبتهم الأوائل الذين ركزوا على توجيههم للدعوة، أمروهم بإنشاء زوايا للدعوة لتعاليم الطريقة فظهرت زوايا ومشايخ عرفوا بالتقوى والصلاح و الدعوة لصلاح الطريقة الرحمانية كعبد الحفيظ الخنقي* وعلي بن عمر بن عثمان الطولقي^{**}.

ونضيف البعد الجغرافي لمنطقة الأوراس أحيطت من جميع جهاتها بأهم زوايا و مراكز إشعاع الرحمانية، ففي الشمال كانت زاوية باش تارزي بقسنطينة والتي دفعت بالطريقة إلى شمال الأوراس، ومن الجنوب تواجدت أهم

¹ - أبو القاسم، الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج2، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991، ص 298-309
² - De Lartigue Op. cit P192.

^{**} - محمد بن عزوز البرجي 1757-1818 حفظ القرآن واخذ العلم على يد والده احمد بن يوسف ثم اتصل بالشيخ عبد الرحمان الأزهري واخذ عنه تعاليم الطريقة ثم واصل التربية بقسنطينة على يد الشيخ باش تارزي وأمره بالعودة إلى منطقتة لنشر الدعوة الرحمانية وهناك أسس زاويته وتصدى للتدريس بها فاشتهر أمره فقصده الناس ونشر تعاليم الطريقة على تلاميذه واتي نقلوها إلى مناطقهم فوصل إلى الجنوب والأوراس.

³ - عبد الحميد، زوزو: الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي المرجع السابق، ج1، مرجع سابق، ص361.

* - عبد الحفيظ بن محمد الخنقي 1789-1850 أخذ الطريقة على يد الشيخ محمد بن عزوز ثم أسس زاويته بأمر من معلمه ونشر الطريقة على طلابه الذين قصده من نواحي عديدة وخاصة من الزيبان والأوراس.

^{**} - علي بن عمر الطولقي 1754 اخذ الطريقة على يد محمد بن عزوز ولما بلغ من العمر 28 سنة أمره بتأسيس زاوية ببلدته طولقة لنشر العلم وتعاليم الطريقة والتي أصبحت قبلة لطلبة العلم، كما أوصى محمد بن عزوز بخلافته توفي اثر إطلاق رصاصة خطأ حين كان يبادر لحل خلاف بين قبيلتين متناحرتين.

زوايا الدعوة الرحمانية كزاوية بن عزوز بالبرج وعثماني بطولقة وحفيظي بخرقة سيدي ناجي و مختار بن خليفة بأولاد جلال.

وقد ساعدت أيضا الروابط والصلات الاجتماعية والاقتصادية بين شمال الزاب والتخوم الجنوبية للأوراس على الارتباط الثقافي والديني بالإضافة إلى تأثيرات زاوية الهامل ببوسعادة، أما من الجهة الغربية فقد كانت امتدادات إشعاع الزوايا الرحمانية بمنطقة القبائل تصل الأوراس مروراً إليها من الهضاب العليا الشرقية وزاوية تلا غمة، أما شرقاً فقد كانت تأثيرات زاوية نفطة التي أسسها مصطفى بن عزوز قد بلغت المنطقة عن طريق التلاميذ الأوراسيين الذين يقصدونها طلباً للعلم.

وكان أيضاً لهشاشة تواجد الجماعات الطرقية السابقة لها بالمنطقة وضعف تأثيرها بسبب تراجع نشاطهم الدعوي أن أحدث شبه فراغ وفتور استغلته الطريقة الرحمانية بقوة نشاطها وحيويتها.

وقد قدمت هذه الطريقة أحسن الأمثلة في مقاومة الاستعمار في بدايته إن على المستوى الوطني أو على مستوى منطقة الأوراس التي خرجت من زواياها سلسلة من المقاومات، والتي بدأت بالمحاولات الأولى للقوات الاستعمارية للدخول للمنطقة واستمرت في الظهور في كل مناسبة تعبر عن رفضها للأجنبي، وأهمها انضواء الزعماء الدينيين للرحمانية إلى مقاومة الزعاطشة سنة 1849م، ثم تنظيم الشيخ صادق بالحاج لمقاومته سنة 1858م ودعوته كل الأتباع والزوايا لمجاهدة فرنسا، ثم تلاها انضمام كل الأوراس التلقائي والسريع لمقاومة المقراني سنة 1871م، وبعد ذلك كانت انتفاضة ابن جار الله سنة 1879م، إلا أنه بمجي سنة 1886م استطاعت فرنسا إخضاع المنطقة وأحكمت القبضة على أغلب الزوايا بمختلف الطرق وأصبحت خادمة لها.

و- طريقة الأحاب* أو الدرديرية:

ويطلق عليها أيضاً الطريقة الدرديرية نسبة إلى آل دردور العائلة المؤسسة، هذه العائلة التي وفدت من ناحية الساقية الحمراء إلى منطقة الأوراس حوالي سنة 1400م.

تعد هذه الطريقة حديثة التأسيس ومحلية الأتباع والانتشار، إذ لا وجود لأتباع لها خارج منطقة الأوراس كما تستلهم هذه الطريقة تعاليمها من التعاليم الأساسية للرحمانية.

ويختلف في نسب تأسيسها بين شخص الشيخ علي بن عمر دردور الأب وسي الهاشمي بن علي دردور الابن، أصحاب الرأي الذين ينسبون تأسيسها إلى الأب يقولون أن أثناء رحلته التعليمية بزواية محمد بن عزوز البرجي أخذ عنه تعاليم الرحمانية ثم انتقل وبأمر منه لمواصلة تعليمه إلى زاوية الشيخ عبد الحفيظ الخنقي ولما انتهى من رحلته هذه عاد إلى بلدته أين أسس زاويته وطريقته حوالي نهاية القرن الثامن عشر ميلادي 18م.¹

* هذا الإسم أيضاً تعرف به الطريقة التجانية "لحباب" ويطلقها أصحابها على أتباعها أي على أنفسهم وجاءت "من حبيب الشيخ" ثم توسعت في استعمالها من قبل غيرهم عليهم.

¹ - مقابلة شخصية مع عبد الباسط دردور تازولت يوم 27-08-2009م

أما الرواية الأخرى فتنسب تأسيس الطريقة إلى ابنه الشيخ الهاشمي بن علي دردور الذي خلفه بعد وفاته سنة 1875 م على رأس الزاوية، وفي العام الموالي سنة 1876م، قام بتأسيس طريقة الأحباب، ونحن نميل إلى ترجيح هذه الرواية الأخيرة وذلك لما امتلكه الشيخ سي الهاشمي دردور من العلم والاطلاع للذين اكسباه معارف دينية عميقة وفهما واسعا، كما كان لإقامته أثناء رحلته التعليمية بمصر أن تعرف على العديد من الطرق الصوفية التي كانت تنتشر بكثرة خاصة بالإسكندرية التي هي الأخرى أقام بها دارسا ومدرسا، وكان أيضا للقائه الشيخ السنوسي الأثر الكبير في توجهه الصوفي الجديد حتى بلغ دخوله الطريقة السنوسية والأخذ من تعاليمها¹، كما يعزز قناعتنا أيضا تلك الجهود الإصلاحية والتربوية التي بذلها لإحياء الشعائر الدينية لدى مريديه، ويقول الكولونال دولارتينغ: ((...وفي وقت وجيز، تجمع حوله العديد من الأتباع الذين نظمهم في مجتمع ديني متبادل المنفعة والخير حيث عمل جاهدا لتوضيح التشريع الإسلامي في صورته الطاهرة المقدسة...)).²

وقد ترك تراثا لأتباعه في هذه الطريقة من أهمه قصائد المبشرات التي كانت نبراسا في توجيه وإعانة مريديه في أدائهم لشعائهم الدينية والتمسك بها.

وما يلاحظ على هذه الطريقة ابتعادها عن البدع والخرافات التي ميزت في هذه الفترة أغلب الطرق في العالم الإسلامي، وهذا ليس غريبا عن طريقة ترجع في نسب تأسيسها إلى صاحب تعليم أزهرى ورحلة علمية طويلة وقف خلالها على بعض التجارب الصوفية التي لم يلحقها أذى الزمان واكتشافه للتصوف الحقيقي مثل ما أسس له الأوائل، فكانت تجربته بذلك تمثل توجه إصلاحى في زمانه، فضلا على تزامن تأسيسها مع فترة الصحوة العلمية والدينية في أقطار مختلفة من العالم الإسلامي، واستفادة مؤسسها من هذا التوجيه والصحوة.

كما تميزت هذه الطريقة أيضا بمواقفها الوطنية منذ البداية إذ وقفت ضد التواجد الفرنسي في المنطقة بإعلان خليفتها الشيخ الهاشمي دعمه وتأييده للثائر ابن جبار الله سنة 1879 م في مقاومته للمحتل، وأمر أتباعه بعضيان السلطات الفرنسية، والامتناع عن دفع الضرائب لمصالحها، مما كلف هذه الطريقة نفى قائدها وأهم مقربيه³ وإغلاق مقرها، وحتى بعد السماح لها بمباشرة العمل التزمت الحياد ولم تقترب إلى الإدارة الاستعمارية كدأب أغلب الطرق مما ألزمها التهميش من شدة المراقبة والتضييق على نشاطاتها.

مثلت الطرق الصوفية إلى جانب سلطتها السياسية والاجتماعية مصدرا للثقافة والدين فكان لدورها في التربية ولعب دور الوسيط بين الحاكم وجماهيرها من جهة والجماهير المسلمة والله من جهة أخرى، هذه الوساطة المزدوجة احتلت من خلالها مكانة وسلطة التوجيه الروحي والسياسي والزعامة الاجتماعية وما يترتب عليها من مكاسب اقتصادية في مجتمع زراعي بدوي كالمجتمع الأوراسي.

¹ - المقابلة نفسها.

² - De Lartigue, Op.cit p 202.

³ - انظر عبد الحميد، زوزو: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 194. نقلا عن A.O. M. 16 h 2. وانظر أيضا De Lartigue Op.cit. p 205.

والحال أنه بقدوم الاستعمار وظهوره كقوة منظمة في الإدارة والتعليم والاقتصاد والاجتماع أنتج صياغة جديدة للمجتمع أصبحت الطرق الصوفية فيه عاجزة على التحكم في أتباعها ومريديها ولم يبق إلا الانتماء الرمزي لهم معها، وكان كلما تقدم الزمن يتراجع نفوذها بسبب تراجع وظائفها التي عوضتها مؤسسات الاستعمار، والتحويلات التي عرفها المجتمع على جميع الأصعدة رغم محاولة إنقاذ نفسها بالوقوف إلى جانب الاستعمار، إلا أن هذه الإجراءات أدت إلى سوء سمعتها وتراجعت بذلك مصداقيتها عند الشعب التي رأى فيها أنها تحقق مصالح أفرادها على حسابها ولعل انتفاضة 1916م، قد أبانت على أن الجماهير الأوراسية التي تعلقت كثيرا بزواياها قد وعت حقيقة دور أصحابها في عدم مراعاة مصالحهم، بل كانت تعمل على ترضية وخدمة الإدارة على حسابهم. كما أن انفصال الطرق الصوفية عن الحياة جعل منها مؤسسات غير فاعلة وحتى جمودها الذي ظهر في جمود أفكارها وقدم تفسيراتها جعلها غير قادرة على عكس الحياة اليومية، هذه الوضعية جعلتها تخسر فئة الشباب شيئا فشيئا، كما أن نجاح إستراتيجية إدارة الاستعمار في إضعافها من خلال زرع الخلافات والنزاع داخلها من جهة وبين بعضها البعض من جهة أخرى إلى فقدان احترام أتباعها والسيطرة عليهم. كل هذه المعطيات المستجدة على الطرق الصوفية جعلت الهون يأخذ مأخذه منها حتى أصبحت عاجزة عن الدفاع عن نفسها أمام التحويلات العارمة التي كانت تدهس كل هش وقديم رث لم يستوعب ويتكيف مع الجديد الوافد.

ثانيا: التعليم العربي الإسلامي

تمتع التعليم في الجزائر قبل الاحتلال بعناية خاصة من قبل الأهالي وهذا ما تثبته الكثير من الاعترافات من قبل الفرنسيين أنفسهم أو الأجانب، فقد كتب الجنرال "فالري" عام 1834 م ((إن كل العرب (الجزائريين) تقريبا يعرفون القراءة والكتابة، حيث هناك مدرستان في كل قرية)).¹ تكررت مثل هذه التصريحات والاعترافات التي تصف الواقع الثقافي والتعليمي بالجزائر في عدة مناسبات ومن طرف العديد من الشخصيات الفرنسية، وقد أكدها حتى مؤرخوهم من أمثال مارسيل أجريتيو في كتابه "الجزائر الوطن"، الذي وصف بأن الثقافة في الجزائر قبل دخول الفرنسيين كانت مزدهرة رغم التخلف الحضاري، ويعود هذا إلى الميل المتأصل في نفوسهم للعلم والمعرفة²، كل هذا يجلي حقيقة الانتشار الواسع للمؤسسات التعليمية والتعليم في الجزائر.

والحقيقة أن منطقة الأوراس لم تستثنى من هذا الواقع، وما يؤكد ذلك أنها كانت تحتوي على ستة زوايا كبرى كما لم تخل قرية أو دشرة فيها من مسجد أو كتاب لتحفيظ القرآن والتعليم الديني³، مما يعكس حقيقة أن أغلب

¹ - ابوالقاسم، سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص62.

² - مارسيل، اجريتيو: الجزائر الوطن، ترجمة عبد الله نوار، سلسلة كتب سياسية، القاهرة، 1959، ص67.

³ - عبد الحميد، زوزو: الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي المرجع السابق، ج1، ص357.

سكان الأوراس كانوا يعرفون القراءة والكتابة كما يعرفون الواجبات والفرائض التعبدية وكثيرا من الأخلاق والآداب التي تفرضها المعاملات الإسلامية، وهذا أيضا ليس غريبا على منطقة يتبع أغلب سكانها الطريقة الرحمانية التي عرفت زواياها بالاهتمام بالتعليم.¹

إلا أن هذا الحال لم يستمر باحتلال المنطقة، فلقد قلب الاستعمار المعطيات الاقتصادية والاجتماعية التي كان لها تأثيرها البالغ على التعليم، ففي أول محاولة للإدارة العسكرية قام الماريشال "راندون" سنة 1850 م بإصدار قرار يرمي إلى فصل المهام التعليمية عن المهام الدينية التي تقوم بها الزوايا وتعويضها بالمدارس العربية والتي أنشأت نماذج عنها في بسكرة وباتنة، كما أتبع بقرار 1858 م الذي يحرم ممارسة التعليم إلا برخصة من طرف السلطات العليا²، كان لهذه القوانين وأخرى تبعتها أثرها البالغ في تدهيم البنية الثقافية والتعليمية للأهالي.

كما أدت الثورات التي عرفتها المنطقة بطريقة مباشرة أو غير مباشر إلى إضعاف التعليم، ولأن كل المقاومات حتى بداية الحرب العالمية الأولى خرجت من الزوايا وتحت قيادات مشائخها وعلمائها والأئمة والمعلمين فيها فراح ضحيتها عدد كبير كشهداء وأما من بقي منهم على قيد الحياة فقد تعرضوا إما للنفي أو السجن أو الهجرة إلى الخارج³، وبذلك تعطلت أدوارهم التعليمية ولعل أبرزهم الشيخ الصادق بالحاج والشيخ سي الهاشمي بن علي درود والشيخ عبد الحفيظ الخنقي والذين عرفوا بنبوغهم العلمي وجهودهم التعليمية حتى عدوا أقطابا حولوا زواياهم إلى مراكز علمية نشطة استقطبت طلبة العلم من مختلف نواحي المنطقة.

كما استهدفت الزوايا التي كانت تسدي تعليما جيدا وذات سمعة ونشاط تعليمي جلبت من خلاله العديد من الطلبة من مختلف أنحاء المنطقة إلى الغلق والتخريب مثل زاوية سيدي المصمودي وزاوية آل درود وزاوية القرقور⁴ وتعرضت الزوايا الأخرى للمراقبة والتضييق عملا بتوصيات التقارير والدراسات الفرنسية التي اهتمت بالزوايا وخلصت إلى إن المحتوى التعليمي لها يغذي الكراهية وينمي الروح العدائية ضد فرنسا⁵ ولم تبق إلا الزوايا التي تحولت عن أدوارها التربوية والاجتماعية لصالح دور خدمة الإدارة، وقد أضافت سياسة مصادرة مصادر تمويل التعليم إلى عزوف المعلمين عنه وتراجع عقاراته.⁶

¹ - احميدة، عميراوي: جوانب من السياسة الفرنسية وردود الفعل الوطنية في قطاع الشرق الجزائري (بداية الاحتلال)، دار البعث والنشر، قسنطينة، ط1، 1984 للطباعة، ص41.

* - راندون: حاكم عام للجزائر في عهد الإمبراطورية الثانية من 1852 إلى 1858م تميز عهده بالحد من الهجرة والاستيطان الأوروبي إلا انه تراجع بعد ذلك عليه. انظر يحي بوعزيز: سياسة التسلط الاستعماري مرجع سابق، ص15، 18.

² - عبد الحميد، زوزو: الأوراس إبان فترة الاستعمار، المرجع السابق، ج1، ص355.

³ - أبو القاسم، سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1(القسم 1)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص83.

⁴ - عبد الحميد، زوزو: الأوراس إبان فترة الاستعمار المرجع السابق، ج1، ص358.

⁵ - علي، مراد: الحركة الإصلاحية الجزائرية من 1925-1940، ترجمة محمد يحياتن، دار الحكمة الجزائر، 2007، ص63.

⁶ - جمال، قنان: قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994، ص121.

كما ساهمت التحولات الاقتصادية التي طالت الأهالي بسبب المصادرة وقوانين الملكية الجديدة إلى إفقارهم فأدى بقطاع مهم منهم إلى انحدار حاجة التعليم عندهم إلى سلم الثانويات أمام حاجة العيش وعجز مواردهم على السماح لمواصلة تعليم أبنائهم وإجبارهم في الانخراط ومشاركة العائلة في العمل في سن مبكرة.¹

كل هذه الظروف الصعبة على التعليم ومع تراكم مضاعفاتها السلبية خلال عقود أدت إلى سيادة الجهل ونضوب المنطقة من الثقافة والتعليم وتراجع عدد المعلمين والمؤسسات التعليمية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وقد كانت هذه الوضعية أكثر عبثاً على السكان البدو ونصف البدو والذين يشكلون عدداً معتبراً من مجموع سكان الأوراس، ذلك أنهم أصبحوا لا يقدرّون على توفير معلم يصاحبهم في تنقلاتهم لتعليم أبنائهم كما كانت تجري العادة عندهم، إما لقلتهم (المعلمين) أو لتكلفتها مما جعلهم فريسة للجهل.

أما الاقامات النائية وخاصة تلك الواقعة على رؤوس الجبال فأدى اختفاء المؤسسات التعليمية وانقطاع التعليم بها إلى جهلهم حتى الكلام باللغة العربية² بسبب أنها لم تكن عندهم لغة التخاطب والمعاملة كما طال جهلهم العبادات والشعائر الدينية رغم بقاء الشعور بالانتماء للإسلام.

وقد أجهضت كل فرصة لتحسين الوضعية التعليمية فحتى في حالات عودة بعض علماء ومشائخ أوراسيين درسوا بجامعات الشرق (الزيتونة والأزهر) لم يستقروا بالمنطقة بسبب عدم ملائمة الوسط الثقافي لهم مما اضطرهم إلى مغادرتها لمناطق أخرى مثل الشيخ عبد القادر المدوكالي الذي غادر بداية إلى قسنطينة، ثم هاجر للمشرق والشيخ بن منصور محمد الميلي* الذي أثر الاستقرار في ميلة وبذلك لم يعد بالمنطقة من معلمين إلا ما يدعون الطلبة والذين لا تتجاوز معرفة كثيرهم حفظ القرآن وبعض المتون يقدمونها في كتاتيب أو زوايا أو مساجد لإعداد قليلة من الصبية وبطريقة تقليدية ومملة لا تستثير أجمل الملكات لديهم.³

وأمام هذا الوضع اضطرت بعض العائلات وخاصة الدينية -لضرورة بقاء العلم في بيتها- إلى إرسال أبنائها إلى زوايا الجنوب وعلى رأسها زاوية طولقة وخنقة سيدي ناجي وقد تحددت رحلة التعليم للأوراسيين وأخذت هذا المسلك بسبب التأثير الرحماني أما بالنسبة للأوراس الغربي فكانت تشدهم الرحلة إلى الزاوية الحملاوية بتلاغمة.

¹ - انظر عبد الحميد، زوزو: نصوص ووثائق، مرجع سابق، ص 219.

² - العربي، دحو: الخدمات الثقافية في منطقة الأوراس خلال الثورة التحريرية، مجلة الثقافة، العدد 94، يوليو- أغسطس، 1986، ص 174.

* - الشيخ بن منصور محمد الميلي ينحدر أصوله من جبال الأوراس تعلم بقسنطينة على يد الشيخ عبد القادر المجاوي ثم استقر معلماً في مدينة ميلة الذي تجاوزتها شهرته للمناطق المجاورة وأهم تلاميذه الشيخ مبارك الميلي، راجع احمد صاري: شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصرة، المطبعة العربية، غرداية، 2004، ص 34.

³ - ايفون تيرين: مرجع سابق، ص 51.

ومع بداية العشرينات من القرن 20 م عرف التعليم العربي في الأوراس انتعاشا فترأدت عدد المدارس القرآنية وعادت محاضر المساجد والزوايا للنشاط وتزايدت أيضا عودة الأبناء لحلقات الدروس من مختلف الطبقات الاجتماعية وفي كل نواحي المنطقة.

والحق أن هذه الصحوة التعليمية قد ترجع إلى عودة بعض الشخصيات التي تعلمت في جامعات الشرق أو الزيتونة أو قسنطينة، حاملين معهم فكرة الإصلاح ومشروع النهضة مراهنين على أهمية التعليم في تحقيقها، وقد توافقت هذه الفكرة مع إرادة بعض أصحاب الزوايا في إعادة دور مؤسساتهم لدورها الطبيعي، فكانت محاولة أولاد سي الصادق بالحاج أصحاب زاوية ترماسين في توظيفهم الشيخ الجموري خريج الأزهر معلما بزوايتهم بداية من سنة 1923م، والذي استمر عمله بها مدة عشر سنوات¹ ثم استخلفه الشيخ الأزهرى الجموعى بن مازوزي²، مما يعكس رغبة أولاد سي الصادق بالحاج في ترقية ونشر التعليم بزوايتهم، كما أيضا ساهمت تأثيرات الشيخين الطيب العقبي ومولود الزريبي* في تنشيط الجو التعليمي في المنطقة من خلال دروسهم التي كانوا يقدمونها أثناء زيارتهم لبعض مناطق الأوراس ولمدة أيام طويلة³، وأيضا كان لتأسيس المسجد الجديد بباتنة سنة 1922م وتنصيب الشيخ الحركاتي خريج الزيتونة إماما عليه وقيامه بتنظيم عملية التدريس وتعيين مساعدين له من خريجي الزيتونة أيضا أمثال الشيخ أعراب والشيخ القندوز⁴ إلى تحويل مدينة باتنة إلى عاصمة التعليم لكل الأوراس، وهذا ما مثل إضافة للبيئة الثقافية في الأوراس والتي كانت تعانيه جراء افتقارها منها سابقا وهو ما سهل على الاستعمار تدمير بنيتها الثقافية.

كما كانت نهاية الحرب العالمية الأولى بداية لخروج الأوراس من عزلته الجغرافية وانفتاحه على العالم الآخر فتزايدت التدفقات وتسربات الأشياء الجديدة إلى أوساطه الاجتماعية و الثقافية التي ساهمت في توجيه تحولاته نحو النهضة التي تعرفها في هذه اللحظة كل الجزائر.

– ثالثا: التعليم الفرنسي

¹ - فاني، كولونا: المرجع السابق، ص 268.

² - مقابلة شخصية مع السيد دروف محمد الهاشمي متعلم من كبار السن له ذاكرة مهمة ومهتم بتراث رجال العلم والدين حتى شفويا بسكرة 2009/8/20.

* - الشيخ مولود الزريبي 1897-1935 ولد بزريبة الواد إحدى ضواحي منطقة الزيبان اخذ تعليمه الأولى بها ثم التحق بالجامع الأزهر وبعد نيله الإجازة عاد في نهاية الحرب العالمية الأولى ليباشر النشاط التعليمي والإصلاحى بالمنطقة وقد استفادت منه مناطق الأوراس، مارس التعليم في زاوية سيدي أحمد بن عزة بقرية الحجاج وطاف زوايا ومساجد حوز أريس مدرسا وواعظا تم انتقال إلى باتنة أين شارك في تأسيس المسجد الجديد ثم انتقل إلى العاصمة عمل محررا لجريدة الصديق والتدريس بالجامع الكبير، انظر عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن 20 م، ط1، منشورات المكتب التجاري، بيروت، 1971، ص138.

³ - انظر احمد مريوش: الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، معهد التاريخ بوزريعة جامعة الجزائر، 1991 - 1992، ص80.

⁴ - مقابلة شخصية مع السيد نور الدين مسعودان باتنة 2008/05/21.

الفصل الأول: تطورات الأوضاع في الأوراس عشية حضور ج م ج في المنطقة

راهننت فرنسا في مهمتها الحضارية في الجزائر على التعليم، وكانت ترى أن الثقافة والقيم الفرنسية هي النموذج الذي يجب تعميمه على الأهالي الجزائريين، وبذلك كان وسيلة للفرنسة والإدماج وأحيانا كثيرة للتنصير، من هذه الاعتبارات أدركت السلطات الاستعمارية أهمية التعليم في تحقيق الاحتلال المعنوي، وقد نبهت إحدى التقارير الموجهة إلى الحاكم سنة 1861 م كوسيلة فعالة للتغلب على الروح المعنوية للأهالي¹، كما اقتضت حاجة الإدارة إلى إعداد فئة من أبناء الأهالي لشغل وظائف ترفع عنها الكولون.

وقد استفادت منطقة الأوراس من المدرسة الفرنسية مبكرا، حيث افتتحت أول مدرسة ببلدية باتنة سنة 1857 م وكانت تحت إشراف المبشرين، غير أنها ظلت خاوية من أبناء الأهالي لسنوات طويلة فلم يتعد عدد المتدربين بها بعد ثماني سنوات أي حتى شهر ماي 1864 م حوالي ستة تلاميذ من أبناء الأهالي²، ويرجع هذا الإقبال الضعيف إلى توجس السكان من مشروع المدرسة الفرنسية لأسباب دينية (الخوف من التنصير) وسياسية تتعلق بالاحتلال.

كما أن هذه المدرسة كانت بلدية باتنة التي كانت قليلة السكان من عنصر الأهالي وبذلك فهي بعيدة عن أبناء الاقامات الأخرى، وأمام تحدي عزوف الأوراسيين في الالتحاق بالمدرسة لجأت الإدارة إلى إجبار القياد والموظفين لإرسال أبنائهم مما أدى إلى تحسن طفيف في عدد الملتحقين من التلاميذ الأوراسيين بهذه المدارس، والجدول التالي يبين لنا تطور عدد التلاميذ في مدرسة باتنة³:

السنة	عدد التلاميذ
1865	30
1866	61
1867	68
1886	50

من القراءة السريعة لأرقام الجدول نلاحظ التطور البسيط لأعداد المتدربين مما دفع بالإدارة إلى المراهنة على مشروعها في جلب أكبر عدد ممكن من التلاميذ إلى استعمال كل وسائل الإغراء والعقاب معا لدفع السكان لإرسال أبنائهم إلى المدرسة، وقد واصلت فرنسا جهودها بفتح مدارس أخرى للوصول لأكبر عدد من الأبناء فأُسست مدرسة بريكّة وخنشلة كما زاد توسع المدارس عملا ببرنامج جول فيري وزير التعليم العمومي الذي يهدف إلى تطوير التعليم الابتدائي في صفوف أبناء الأهالي ففتحت ثلاث مدارس أخرى ببلدية باتنة سنة

¹ - انظر عبد، الحميد، زوزو: الأوراس إبان فترة الاستعمار، المرجع السابق، ص 341.

² - المرجع نفسه، ص 341.

³ - المرجع نفسه، ص 140.

1884 م (مدرسة بفونتين كلود، مدرسة بقصر بلزمة، مدرسة بواد علمة) ومدرسة بلدية انقاوس وأيضاً بالقنطرة وعين التوتة وبلدية أوراس تم فتح واحدة بمنعة وأخرى بواد طاقة، بينما في وسط البلدية (أريس) فإن المدرسة التي أقيمت بها سرعان ما تم غلقها بسبب عدم التحاق أي تلاميذ بها.

وإذا استثنينا هذه المدرسة الأخيرة فقد عرف واقع التمدد تحسناً بهذه المدارس بفعل تطبيق إجبارية التعليم الذي جاء به قرار 1883م الذي يرغم الأبناء الذين تتراوح أعمارهم ما بين ستة وثلاثة عشرة سنة على التوجه للمدرسة الفرنسية¹، غير أن هذه الإرادة قابلتها إرادة أقوى منها مثلها فريق المستوطنين الذي كان يرفض أي تحسين في وضعية الأهالي وخاصة في الميدان التعليمي بحجة أن الأهالي لا يمتلكون قابلية للتعليم باعتبار الطبيعة المتوحشة لديهم، إلا أن جوهر هذا الرفض كان يتم على الطبيعة العنصرية للكولون ونظرتهم الاستغلالية لبقاء الأهالي متخلفين لا يصلحون إلا للإعمال الشاقة كما كان أيضاً هاجس الخوف من تعليمهم أن يؤدي إلى وعيهم بحقوقهم والذي يدفعهم إلى الاستقلال²، كما اثر سلوك الانكفاء والانعزال الذي لازم الأوراسي للاستعمار إلى وقت متأخر إلى مقاطعة كل مؤسساته.

رابعاً_النشاط التبشيري بالأوراس

أ_خلفيات النشاط التبشيري في منطقة الأوراس:

مثلت منطقة وأحواز الأوراس نقطة استهداف للنشاط التبشيري والتنصيري في بداية الفترة الاستعمارية لها، ولعل اعتبار هذه المنطقة بربرية أمازيغية وما يتبع هذا التفكير من قبل الفرنسيين في بساطة وسطحية التدين وضعف رسوخ الدين الإسلامي لدى عناصرها السكانية، هو ما وفر في الاعتقاد الفرنسي مزية سهولة تحويلهم ونقلهم عن الإسلام وغرس التعاليم والاعتقادات المسيحية التي قد تكون بعضها مازالت ماثلة في تقاليدها وطقوسها.

كما كانت توصيات الدراسات الأثروبولوجية وعلى رأسها كتابات ماسكراي ودولارتيج التي تناولت منطقة الشاوية قد خلصت إلى وجود عناصر سكانية من بقايا الرومان وكذا توصيفات لعادات وطقوس دينية تعود إلى فترة التواجد المسيحي بالمنطقة، كل هذه المعطيات راهنت عليها الفرق التبشيرية في أمل لتحقيق نتائج محمودة لأهداف نشاطاتهم، ومن هذا المنطلق راحت العديد من الفرق ورجال التبشير تتوافد على المنطقة ويتزايد عددها عبر فترة الاحتلال المبكرة للمنطقة، مستعملين مختلف وسائل التبشير لاعبين على الأوضاع التي آل إليها سكان هذه المنطقة جراء سياسات التفجير والتجهيل، مدعمين كذلك بالأموال وتأيير مؤسسات لاستغلالها كالمدارس والمستشفيات بالإضافة إلى ما كان مباشراً كالكنائس.

ب_النشاط التبشيري في منطقة الأوراس:

¹ - المكان نفسه.

² - رابح تركي: عبد الحميد بن باديس مرجع سابق، ص 139.

كان التعليم والمدرسة المدخل الذي عن طريقه ولج المبشرون في فترة الاحتلال إلى منطقة الأوراس، ذلك أن أول مدرسة فرنسية تأسست كانت سنة 1856م وقد تولى المبشرون التعليم فيها¹، كما حملت برامجها ومقرراتها مضمونا تنصيريا وهو ما عرفته برامج المدارس الفرنسية في الجزائر بداية الاحتلال خاصة مع عهدي الحاكمين دوقيدون وشانزي²، ما أعطاهما طابعا تبشيريا محضا أكثر منه تعليمي، كما تدل سنة تأسيسها (1856م) على أن التبشير دخل مبكرا إلى المنطقة مقارنة مع سنة إحتلالها وحضور المؤسسات الاستعمارية الأخرى، ورغم أن هذا النوع من المدارس لم يعرف توسعا من حيث عدد المتحقيين بها من تلاميذ أبناء الأوراس، بسبب مقاطعة الأهالي لها خشية المساس بعقائد أولادهم، إلا أن إصرار القائمين على التبشير كانوا يسعون بكل ما ملكت حيلهم وإمكانياتهم لإنجاح مشروعهم في المنطقة، فدفعوا بالإدارة إلى تأسيس المزيد من المدارس المشابهة للمدرسة السابقة التي خصت مدينة باتنة، هذه المدارس الجديدة تأسست في المناطق الأخرى من الأوراس ك بريكة وخنشلة و لعامرة و أريس وعين التوتة³، ولا نستبعد أن يكون هدف التبشير فيها متقدم على هدف التعليم ذلك ما تأكده طبيعة معلميهما، كما يعود هدف توسع وإنشاء المدارس بهذه المناطق هو عزم أيضا القائمين على التبشير إلى الوصول إلى الساكنة مهما بعدت إقامتهم على مركز الاستيطان الذي بقي حتى هذه الفترة مقتصرًا على باتنة المدينة، وبذلك لم يمس اليأس فريق التبشير رغم نتائج جهودهم العقيمة، فكان هدف توسيع المدارس في نواحيها وضواحيها من الأحواز والدوائر على أمل أن تمس أكبر عدد ممكن من الأوراسيين بتقريبها إلى الأبناء وبذلك يكونون على اتصال مباشر وفعال لنقل أفكارهم التنصيرية وتعاليمها الدينية المسيحية الناشئة مازالت عقولهم ووجدانهم طور التشكيل.

وتجدر الإشارة إلى أن الفترة ما بين (1893 و 1900م) قد عرفت توسعا للنشاط التبشيري في منطقة الأوراس⁴، فظهرت فيها الفرق التبشيرية التي استهدفت حركتهم زيارات البيوت والتجمعات السكانية للاحتكاك بفئة النساء مباشرة خاصة بعد إدراكهم أهمية ومكانة المرأة بالتربية في التقاليد الأوراسية، ذلك أن الوصول إلى الأسرة يكون من خلال الأم باعتبارها الراعية الأساسية للناشئة، وقد كان تقديمهم للمسيحية كقيم و سلوكيات وعقائد من خلال ما يظهرونه من معاملات حسنة ولطيفة وتقديم مساعدات وكثير من الخدمات التي كانت تحتاجها المرأة أو الأسرة الأوراسية بسبب ما حل من أزمات ضربت وضعهم، سواء جراء المجاعات التي مست

¹ - A.N.O.M.F80/505,Cercle de Batna, année 1856.

² - عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، شركة دار الأمة للطباعة والتوزيع، الجزائر، 1999، ص 70.

³ - عبد الحميد زوزو: الأوراس إبان فترة الاحتلال الفرنسي (التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية) 1837-1939، تر مسعود حاج مسعود، ج1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص349.

⁴ - Mesnard. P:L: Ecole française S'adapte aux masses musulmanes en Algérie in études, Juin 1948.p: 359.

المنطقة خاصة تلك التي وقعت ما بين (1867-1868م) أو المضاعفات السلبية للسياسة الاستعمارية في هذه المنطقة.

فقد تولى الآباء البيض في منطقة أريس الأعمال الخيرية والاجتماعية لإظهار نبالة وسماحة الأخلاق المسيحية ومنها جلب الساكنة من الأوراسيين وعلى رأسهم الأولاد والنساء لأهميتهم في مستقبل ترسيخ المسيحية، على الدور الذي لعبوه في التعليم توجهوا إلى دور التطبيب هذه المرة كفضاء كانوا يعتقدونه أنه يمكن أن يكون أكثر فعالية من التعليم الذي واجه بمقاطعة كبيرة انتهت إلى فشل مساعي الفرق التنصيرية به في الأوراس.

والحق إن التطبيب قد اعتقد فيه كوسيلة ناجعة لجلب الأهالي بفضل العلاج والأدوية المجانية والتي تتعداها في أحيانا كثيرة إلى المساعدات المادية كالغذاء والألبسة والأفرشة والغطاء، لعل هذه الأعمال الإنسانية كان المبشرين يأملون من وراءها أن تجعل الأوراسيين يعترفون بالجميل ومن تم تعزز فيهم الثقة وبذلك تسهل انتقال أفكارهم واعتقاداتهم.

ولعل أول محاولة جادة في هذا المضمار كانت وفود الأب " دوفال " و"بويون " صيف عام 1893م إلى منطقة أريس¹ واللذان سبق توأجدهما بهذه المنطقة، الانتهاء من أشغال المستشفى الذي أعد لمهام التمريض والإسعاف، كانت هذه المحاولة بإيعاز من الحاكم العام شخصيا "كانبون"، يدل المصدر الرسمي والسامي لهذه المبادرة على الأهمية البالغة حتى هذه الفترة للمنطقة في مشروع التبشير والأمل الذي كان يجذو المبشرين في تحويل سكان المناطق البربرية(الأمازيغية) ومنهم الشاوية إلى المسيحية و أيضا أمل الرسميون والإدارة في مساهمة التبشير في الغزو لمنطقة بقيت حتى هذه الفترة بعيدة المنال في ثني سكانها على رفض الاحتلال لهم بكل أشكاله.

بعد الإتهاء من أشغال مستشفى أريس " سان أغسطين أوراس " بدء أشغاله تحت إدارة الأب "دوفال" وممعية الأخوات البيض، جدير بالإشارة إلى أن هذه التجربة كانت في الحقيقة محاكاة لتلك التي تم تنفيذها بمنطقة القبائل بإقامتهم مستشفى "ميشلي" بجزيرة، غير أن المستشفى " سان أغسطين أوراس " لم تطل مدة عمله وتم غلقه، وهذا يعود لمقاطعة السكان لخدماته ووفادته، حتى يذكر أنه لم يزره حتى فرد واحد حتى تاريخ إغلاقه.

بالإضافة إلى الأسلوب المباشر الذي اعتمد في السياسة التبشيرية كما أسلفنا الذكر كالتعليم والتطبيب وتقديم المساعدات والزيارات، فإن الإدارة الاستعمارية ولإنجاح التبشير رأت وجوب التضييق على الدين الإسلامي ومحاربه بهدف ترك الفضاء خاليا بدون منافس للتنصير، وذلك من خلال تحفيز منابعه بضرب مؤسساته التي من خلالها كانت الأمة تتشرب تعاليمه وفكره وروحه حتى يتوغل في الوجدان والنفس، فكان التعليم العربي والإسلامي الحر أول المستهدفين.

¹ عبد الحميد زوزو: الأوراس إبان فترة الاحتلال الفرنسي ج1 المرجع السابق، ص350.

ولا يمكن إدراج مرسوم "المارشال راندون" سنة 1950م الذي كان هدفه استبدال الدور التعليمي للزوايا¹ بالمدارس الفرنكوعربية إلا إجراء في هذا النطاق، كما تواصلت هذه المساعي وذلك بإصدار مرسوم 1858م القاضي بمنع ممارسة التعليم إلا برخصة من الإدارة ولقد كانت أحد مراميها نيل أكثر النتائج حتى تتوسع المساحة للعمل التنصيري وبذلك توفير له أكثر الفرص لتحقيق نتائج مأمولة في ظل غياب المنافس. وإذا كانت هذه المراسيم تعني كل مناطق الوطن فإنها وجدت تنفيذا سريعا في منطقة الأوراس من قبل المشرفين عليها من الإداريين، أين استهدفت الزوايا التي كانت تسدي تعليما دينيا جادا وذات سمعة ونشاط تعليمي ووعظي زيادة على أنها كانت تمثل مراكز إشعاع لنشر التعاليم والدين الإسلام عند المجتمع المحلي الأوراسي، فما كان من إدارة الإحتلال وجيوشها إلا غلقها أو تخريبها وحرقها مثل حدث مع "زاوية سيدي المصمودي" و"زاوية آل دردور" و"زاوية القرقور" بحجة أنها مصدر للمقاومة والعداء للفرنسيين، وتعرضت الزوايا الأخرى إلى المراقبة والتضييق عليها عملا بتوصيات تقارير المكاتب العربية أو الإدارة والتي خلصت إلى أن المحتوى التعليمي للتعليم العربي الإسلامي يغذي الكراهية والروح العدوانية ضد فرنسا²، وبذلك فإن الإدارة الفرنسية توافقت رغبتها مع المبشرين في العمل على تحويل المجتمع المحلي من ديانة الإسلام إلى المسيحية التي توفر لهم فرصة تسهيل مهمة دمج وإزالة كل عوائق عدم خضوعه.

ولم تتوقف الإدارة عند هذا الحد في محاربة حضور الدين الإسلامي عند المجتمع المحلي الأوراسي، بل جهدت إلى إقصاءه من تطبيقات الناس في عاداتهم وتقاليدهم كإجراء لإضعافه في وجدانهم، وقد كان المساس بالقضاء الإسلامي وجهه من هذه الأوجه ومثل ما فعلت في منطقة القبائل عام 1859م³، كذلك شجعت ساكنة الأوراس الشاوية في التعامل بقوانينهم العرفية الأمازيغية، إلا أن الأعراف الاجتماعية لدى أمازيغ الشاوية كانت أغلبها مستمدة من الشريعة الإسلامية ومتوافقة مع الدين الإسلامي.

أمام عدم حصول أي تقدم مرجو في تراجع ساكنة الأوراس عن الاحتكام للشريعة الإسلامية فإن السلطات الاستعمارية لم تتوانى في إصدار قانون إلغاء المحاكم الشرعية عام 1868م⁴، وهذا قصد إلغاء التقاليد الإسلامية وتعويضها بقوانين غريبة عنهم، لا يمكن تفسير هذه القوانين إلا بالعنف الذي كان موجه ضد الإسلام لإضعاف ثقافته في حياة الناس والتقليل من شأنه، وما ينجر عن ذلك من تغير في القيم والمبادئ التي تأسس وتبنى العلاقات الاجتماعية والإنسانية التي تحددها الأحكام الدينية.

¹ - A.N.O.M.F 80 506 , Cercle de Tébessa, rapport du 4eme trimestre 1857.

² - Y.Turin, Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale: Ecoles, Médecines, Religion 18830-1880, F. Maspero, Paris, 1971 , p121.

³ - رابح تركي: الشيخ عبد الحميد مرجع سابق، ص 46.

⁴ - المكان نفسه.

وعلى أية حال فإن هذه الجهود التبشيرية والمدعومة من قبل الإدارة الاستعمارية لم تعرف أي تقدم في نتائجها، رغم الصبر الذي تحل به المبشرون وطرقهم كل الأبواب وعدم ادخارهم لأي جهد وإمكانية من أجل تحقيق هدف التبشير، وهو ما يؤشر على الفشل الذريع الذي مني به التبشير بمنطقة الأوراس على خلاف التوقعات ومقارنة بكثير من مناطق الوطن.

خامسا_الطب

عرف على البيئة الأوراسية بأنها بيئة صحية من حيث مناخها وهوائها وكذا مواردها الغذائية مما ساهمت في إبراز مستوى صحي جيد للسكان، إلا أن تراجع المستوى المعيشي والغذائي والثقافة الصحية زيادة على ضعف الطب وأساليب الوقاية من الأمراض، هذا كله أدى إلى ظهور العديد من الأمراض التي كانت معروفة في أوساط المجتمع الجزائري مثل الجدري والذي تميز بأوقات معلومة الانتشار وكانت في غالب الأحيان يؤدي إلى العمى والصمم وتشويه الوجوه، كما يخلف العديد من الوفيات.

وعرفت المنطقة انتشار الكوليرا والتيفويس والروماتيزم بسبب البرد القارص شتاء للمنطقة أو قلة الملابس وضعف السكن في الوقاية منه، إضافة إلى أمراض العيون والربو والصفير والعقم والإسقاط عند النساء والصرع والحمق والجنون ولدغة الحشرات السامة كالعقارب والأفاعي والكلب¹، ومع ذلك كان هناك الكثير من الممارسات الطبية منها ما هو شعبي ومنها ما هو حديث.

أ- **الطب الشعبي**: وهو ممارسات تقليدية بسيطة وعامة في تشخيصاته أخذ الصبغة الدينية والاجتماعية وهو نوعان:

الطب الشعبي العلمي:

يعتمد على التجربة والممارسة في اكتسابه وفي غالب الأحيان تورث هذه التجارب من قبل أصحابها لأقاربهم كالأبناء، ويستعمل فيه أدوات ووسائل مادية وبطريقة واعية، وأدويته من الأعشاب التي تجمع من الطبيعة والتي يقوم بتصنيفها وفي حالات مزجها ببعضها البعض وطحنها، كما توصف كيفية استعمالها.

وقد اعترف الفرنسيون والرحالة الأجانب الذين وقفوا عند هذه المشاهد بأنه طب فاعل وعقلاني، وقد اشتهرت الأوراس بجراحة الجمجمة بثقبها واستبدال القطعة المكسورة بقطعة من عظم كلب أو شاة²، كما استعملت الطرق العلاجية التي تتم بوسائل مادية مثل الكي بالنار والفصد، وهذا بناء على الحديث النبوي الشريف (الشفاء في ثلاث شربة عسل و شلطة محجم وكية نار) رواه البخاري³، والحجامة التي حث عليها

¹ - أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج7، ط1، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص ص 228، 229.

² - المرجع نفسه، ص 247.

³ - ابن القيم الجوزية: الطب النبوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1957، ص 38.

الطب النبوي فجاء في حديث الرسول (ص): (خير ما تداويتم به الحجامة) رواه النسائي¹، والكحل لعلاج أمراض العين وإنبات الشعر وهذا بناء على الحديث النبوي الشريف (عليكم بالأمثد* فإنه يجلو البصر وينبت الشعر) رواه الترمذي².

كما ساد هناك طب ديني يعتمد على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية سواء في الأمراض البدنية التي تظهر أعراضها على الجسم أو الأمراض المعنوية الحقيقية كالصرع والجنون.

وتدعى عملية العلاج بالرقية حيث يقرأ نص قرآني أو حديث نبوي شريف على المريض و يمارسها الأئمة و حفظة القرآن و غالباً ما تكون من الإصابة بلدغ الحشرات السامة كالعقرب والأفعى والعين³.

الطب الشعبي الخرافي (السحري):

يعتبر هذا النوع من الطب هو انحراف للطب الديني خاصة لما انتقل إلى ضعاف الثقافة والإطلاع سبب انتشاره جهل الناس الذين كانوا يعتقدون في بركة المعالج أكثر من الدواء المتناول وقد ساد في أوساط الطرق الصوفية والمرابطين وقد استعملوه لابتزاز العامة والتأثير عليهم ويرجعون أغلب الأمراض إلى الجن والسحر وكانت طرق التداوي تعتمد على الشعوذة والخرافة كالدبائح وتعليق التمام أو زيارة الأضرحة و القباب وخط الرمل والحجاب.

وكان يمارس مهنة الطب الخرافي أفراد من عائلات معروفة متوارثة ويأخذون شرعيتها بقولهم أنها معطية أي أنها حكمة موهوبة من الله إليهم، وقد كان هذا النوع من الطب هو الأكثر انتشاراً وسيطرة على النفوس رغم انتشار الطب الحديث.

ب - الطب الحديث:

دخل الطب الحديث مع دخول الاستعمار في مطلع القرن العشرين (20م)، انتشر هذا النوع من الطب في الوسط الأهلي بالمدن إلا أن الأرياف كان إقدامهم عليه متأخراً رغم المحاولات الفردية الحرة لبعض الأفراد والجمعيات في إطار الخدمات الإنسانية أو التبشيرية أو من طرف الإدارة كوسيلة للإدماج انطلاقاً من أن التأثير على الصحة بالضرورة يؤدي إلى التأثير على القيم والحضارة، وهذا التأخر نعوزه إلى الاعتقادات السائدة التي ترجع دائماً إلى قلة الوعي والانتشار الواسع للخرافة مما يكرس الإيمان الكبير بالطب الخرافي والاعتقاد في بركة الأشخاص ونفعهم وضرهم وهو مامنحهم قوة تأثير على العامة والإيمان بالمكتوب والقدرية التي بثتها المرابطة اعتماداً على

¹ - المرجع نفسه، ص 41.

* - الأمثد: هو حجر الكحل الأسود الذي يستخلص منه الكحل.

² - المرجع نفسه، ص 217.

³ - ابن أبي زيد القيرواني: الثمر الداني في شرح رسالة أبي زيد القيرواني، تحقيق صالح عبد السميع الأزهري، مطبعة المنار، بلات ط، ص 710.

الفهم الخاطئ أو المقصود لبعض الأحاديث والآيات القرآنية، رغم وجود أحاديث ونصوص تدعو إلى الحفاظ على النفس والبدن وتحث على التداوي.

وأيضاً انعدام الثقة بين الأهالي و الأطباء الفرنسيين اعتقاداً منهم أن الطبيب الفرنسي يقوم بمهمة تبشيرية ورفضوا التلقيح اعتقاداً أنه يؤدي بهم إلى العقم.¹

إلا أن الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى وبسبب التثاقف الذي حدث بين الأوساط الأهلية الأوراسية والمؤسسات المدنية الفرنسية من خلال إقامة مستشفيات فرنسية في مناطق إقامات الأهالي وإرسال بعثات طبية² أثبتت نجاعة هذا النوع من الطب كما ساهم ظهور أطباء من أصول أهلية مثل ابن جلول الذي عمل بالمستشفى العسكري بأريس وسعدان وابن خليل الذي عمل بمستشفى باتنة ثم قام بفتح عيادة خاصة خصص يوم عطلته لاستقبال المرضى من الأهالي للعلاج مجاناً.

كل هذه الظروف ساعدت على الإيمان بالطب الحديث وإعادة الثقة به، إلا أن الطب الشعبي وخاصة منه الخرافي لم تتراجع مكانته عند أغلبية السكان وأصبحت كل هذه الأنواع من الطب المتباعدة في أسلوبها ومنطلقاتها ومنطقها تستعمل عند الأهالي و بشكل متوازي.

¹ - إيفون، تيران: مرجع سابق، ص345.

² - A,w,c,6/32, et A,w,c4/35 et A,w,c,15/35, et A,w,c,13/35 , et A,w,c,9/35, et A,w,c,14/35.

المبحث الثاني: بواذر انتشار فكر ومؤسّسات ج م ج في منطقة الأوراس

المطلب الأول: شخصيات إصلاحية وتعليمية باكرة في الأوراس

عرفت أحوار منطقة الأوراس _ رغم طابعها المغلق مع الفضاءات الأخرى من القطر الجزائري أو حتى البلاد الإسلامية _ من النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى بداية القرن 20م، هجرات طلابية محدودة جدا نحو معاهد وجامعات العالم الإسلامي وعلى رأسها جامع الزيتونة والأزهر الشريف، بدافع الرغبة في المزيد من التحصيل العلمي والتبحر في العلوم الدينية، وهذا غالبا بعد حصولهم على تعليم أولي وابتدائي في الكتاتيب والزوايا القريبة من مسقط رأسهم.

إن انتقالهم إلى هذه الأوساط الثقافية والاجتماعية الجديدة في هذه الفترة سمح لهم بالاستفادة من فرصة الاحتكاك المبكر بالبيئات الإصلاحية، حيث كانت هذه المعاهد تتمتع بوسط متفتح على الأفكار المختلفة وذي مستوى ثقافي لا بأس به، كما أنها تتمتع بسمعة علمية طيبة ويرجع ذلك لما ضمته من أساتذة ومشايخ لهم من العلم والمعرفة ما يستطيعون به إنارة عقول طلبتهم وتنمية قدراتهم ومعارفهم، متجاوزين تعليم مدارس الزوايا المتواضع ذي المحتوى الصوفي الغارق في الغيبات والخرافة.

كما ساعد تزامن وجود بعضهم بهذه المعاهد مع فورة الفكرة الإصلاحية الجديدة التي بشر بها جمال الدين الأفغاني* بمعية تلميذه محمد عبده**، والتي تأثر بها وناصرها الكثير من المشايخ وأساتذة الأزهر والزيتونة، فأصبحت بذلك أكبر المعاهد العلمية الإسلامية تردد الأصداء الإصلاحية من خلال مناقشة الإشكالات التي تعالج التجديد والاجتهاد وتبجيل العقل والتفكير والدعوة إلى النظر في واقع الأمة وسبل تصحيح العقائد والدين من شوائب التصوف الخاطيء.

وإن بقيت في هذه الجوامع رواسب من العلم التقليدي والصوفي لدى بعض المشايخ والأساتذة إلا أن مستواهم العلمي، لم يكن لينزل بهم إلى الاعتقادات الخرافية والبدعية الصارخة للطريقة الفاسدة المتفشية في أوساط العامة وعند أغلب مشايخ الزوايا.

وأیضا كان للحراك الفكري الذي أوجدته النقاشات الفكرية والاحتكاكات بين إسلام النهضة وإسلام التقليد إلى تنازل أصحاب هذا الأخير على الكثير من الصوفيات الغارقة في الميتافيزيقا، مهاديننا عصر العقل الديكارتي والنظرية الحتمية التي طبعت التفكير العلمي والتي وصلت حتى الجامعات العلمية في الشرق.

* جمال الدين الأفغاني 1838 - 1897 م : من كبار دعاة الإصلاح والتجديد الإسلامي في أواخر القرن 19م وصاحب فكرة الجامعة الإسلامية ناهض بفكرته هذه الاستعمار الأوروبي الحديث للبلاد الإسلامية.

** محمد عبده 1842 - 1905م مصري تلميذ وزميل الأفغاني في دعوته الإصلاحية تتلمذت عليه باقي الحركات الإصلاحية التي ظهرت في العالمين العربي والإسلامي ونهلت من فكره وفلسفته الإصلاحية ونحى فيها المنهج التربوي والتعليمي.

ومما لاشك فيه أيضا أن الوسط الاجتماعي الذي تواجد فيه هؤلاء الطلبة أثناء دراستهم، كان له دور في تكوينهم، فالمعاهد الإسلامية التي قصدوها كانت تتواجد بمجتمعات حضارية وعريقة حافظت على مكانتها العلمية والحضارية من الفترة الإسلامية، كما جددت مكانتها في العصر الحديث بفضل جهود العصرية والتحديث التي جاءت بها إصلاحات الحكام كإصلاحات محمد علي باشا* بالنسبة لمصر¹ وإصلاحات الوزير خير الدين باشا** في تونس².

كل هذه الشروط الثقافية والاجتماعية التي عاش فيها الطلبة الأوراسيين حياتهم التعليمية بدون شك قد أثرت في تكوين شخصيتهم العلمية والاجتماعية ورسمت لهم أفقا واسعة سمحت لهم بالقيام بأدوار إصلاحية وتصحيحية لواقع مجتمعاتهم المغتربة عن زماها.

وإن كنا لا نستطيع أن نجزم أن كل الوافدين من هؤلاء إلى أقاماتهم بمنطقة الأوراس قد تبينوا الفكرة الإصلاحية، إلا أن العوامل السابقة بلا ريب تجعل من خدماتهم التعليمية وما يلازمها دائما من أدوار اجتماعية ودينية، نافعة إلى حد يرفعها إلى مقام الإصلاح، ومن هؤلاء الذين كانت لهم محاولات إصلاحية نذكر سي الهاشمي بن علي دردور وعبد القادر المدوكالي والشيخ حمو بن أحمد شرفي وسي بالقاسم عثمان الفرحي وسي الجموري.

أ- الشيخ سي الهاشمي بن علي دردور:

الهاشمي بن سي علي دردور ينحدر من عائلة محافظة ومتدينة ورثت الصلاح والدين أبا عن جد، فكان توجيه أسرته له من نعومة أظفاره على طلب العلم والدين فتعلم المبادئ الأولى في الكتابة واللغة العربية وحفظ القرآن وماتيسر من الحديث ومعارف فقهية بسيطة بكتاب وزاوية بلده.

حفظ القرآن في الثانية عشر من عمره في كتاب زاوية مسقط رأسه مدرونة ثم حصل على مبادئ العلوم الدينية والنحوية والصرفية على يد أهم المشايخ في أشهر زوايا العلم القريبة من بلده كالشيخ بن عزوز بزواية طولقة والشيخ عبد الحفيظ الخنقي بخنقة سيدي ناجي ثم زاوية بوحجر بقالملة.³

وعند شبابه وبنصيحة من شيخه بن عزوز توجه إلى مصر لمواصلة رحلته في طلب العلم التي قضى فيها حوالي 20 سنة، وإن لم يقتصر خلال هذه المدة على التعلم فقط بل أخذ تجربة الرحلة والأسفار، فكانت رحلته

* محمد علي باشا 1769-1848م ألباني تولى حكم مصر بعد طرد الحملة الفرنسية سنة 1805 واستمر حكمه حتى وفاته سنة 1848 تميز بإصلاحاته الشاملة للدولة ولهذا يعتبر باني دولة مصر الحديثة.

¹ - توفيق، حامد المرعشلي: صفحات في تاريخ مصر، شركة ماهية مصرية، مطبعة مصر، 1929، ص 109.

** خير الدين باشا التونسي: تولى منصب الوزارة في تونس عهد الدايات جاء بإصلاحات هدف من وراءها تحديث تونس ورغم عمره القصير في هذا المنصب إلا أن جهوده بقيت لها أثارها خاصة على المستوى التعليم والثقافة حتى عد أحد رواد التجارب الإصلاحية الحديثة في العام الإسلامي.

² - محمد الهادي، شريف: تاريخ تونس، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجيبة، ط3، دار سراس للنشر تونس، 1993، ص 99.

³ - محمود، الواعي: حياة الشيخ الهاشمي بن علي دردور، من كتاب تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي من 1837-1954م، دار الشهاب باتنة، ص 204.

التي رافق فيها أبيه سي علي سنة 1850م أثناء لقاءه بمصر في طريقه إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، وأيضا رحلاته التي قادتته إلى الكثير من المناطق المصرية كالإسكندرية والقاهرة وإن كانت توجهه في رحلاته هته الرغبة في التزود والتحصيل العلمي بالسعي للاستماع و الأخذ عن علماء سمع عنهم.

وقد كانت أهم هذه الرحلات وأغناها فائدة تلك الرحلة التي قصد فيها ليبيا، فقد حصل أن تردد على ليبيا للاتصال بالشيخ السنوسي*، الذي أخذ عنه تعاليم الطريقة السنوسية، ولعله يكون منحه إجازة في العلم مثل ما فعل مع كثير من الجزائريين.¹

هذه التجربة الطويلة وبلا شك الخصبية في مجال التعلم والرحلة والأسفار سمحت له بالحصول على مستوى علمي وثقافي واجتماعي قيم، ساهم في إثراء عقله وتوسع مداركه، وهو ما سوف يؤسس لمنطوقاته وأفكاره التي سوف توجه مشروعه الإصلاحية الذي اضطلع به بعد عودته إلى بلاده وبلدته عام 1870م.

باشر سي الهاشمي خلافة أبيه سي علي على رأس الزاوية الدرديرية التابعة للطريقة الرحمانية عام 1875م، فكانت بدايته باستحداث طريقة الأحباب** سنة 1876م² التي سهر في نشر تعاليمها على مريديه إذ كانت دعوته إلى التعليم أول اهتمامه، لذلك سخر جهودا كبيرة لنشر التعليم كتحفيز القرآن للصبيان والتصدي لتعليم المبادئ الدينية والفقهية للكبار والقيام بالوعظ والإرشاد من خلال الحلقات المسجدية، فلقد كانت دروسه تستهدف استقامة وإصلاح سلوك مريدي طريقته ومعالجة الأمراض الاجتماعية المتكلسة في واقعهم بلغة عامية قريبة منهم، كأن يلخص استشهاداته من الأحاديث النبوية والآيات القرآنية في أمثلة أو أقوال شعبية من صنعه، وتأليفه لقصائد شعرية كقصائد المبشرات*** والتي تضمنت موضوعات في التربية والأخلاق والسيرة النبوية ليقوم بتلقينها وتحفيظها للعامة من الرجال والنساء لتكون عوناً لهم في توجيه سلوكهم و السمو به نحو الفضيلة.

لقد كان الشيخ بهذه الطريقة التعليمية يجاري الواقع الذي وجد عليه أهل بلدته من جهل وصعوبة في التعلم بالطرق النظامية فاستأنس بما كان يراه يسير وسهل عليهم من طريقة في التعلم، فلا شك أن سي الهاشمي قد قدر صعوبة وغرابة اللغة الفصحى على مجتمع لم تسمح ظروفهم بتعلمها والتعود عليها، وسهولة وقرب اللغة العامية وأثرها عليهم خاصة في شكل القصيدة أو المثل.

*- السنوسي هو محمد بن علي السنوسي من أصل جزائري أسس الطريقة السنوسية دعى إلى مناهضة ومجاهدة الاستعمار وإخراجه من ديار الإسلام واستقر بليبيا في آخر المطاف.

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، مرجع سابق، ص 60.

** - طريقة الأحباب طريقة أسسها سي الهاشمي بن علي درود سنة 1876 ونعتبرها تجديد للطريقة الرحمانية وامتداد لها ونميل نحن أن تكون هذه الطريقة توليفة بين تعاليم السنوسية وتعاليم الرحمانية وإضافات أخرى من إنتاج سي الهاشمي المؤسس.

² - محمود الواعي: المرجع السابق، ص 205.

*** - قصائد المبشرات ينسب الأستاذ أبو القاسم سعد الله تأليفها إلى مجهول وان كان يحصرها في منطقة الأوراس ويغلب الشك في أن تكون لأحد شيوخ زاوية الصادق بالحاج إلا أنها معروف ومشهور عليها عند سكان المنطقة نسبتها إلى الشيخ الهاشمي بن علي درود، أنظر عن موقف سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 7، المرجع السابق، ص 130.

بهذه الخطة التي اهتدى إليها الشيخ استطاع تحقيق الكثير من أهدافه فأصبحت أفكاره تحفظ وتتناقل وتبلغ أثرها في سلوكهم بالإضافة التي تناقلها بين الناس وإلى أوسع نطاق في المجتمع. وبالموازاة مع دوره التعليمي كان يقوم بدور المرابي الاجتماعي، وإن كنا لا نستطيع فصل دوره التعليمي والتربوي على دوره الاجتماعي لإصلاح الواقع، فكان توجيهه في ذلك مستندا إلى قيم الدين الإسلامي بما جاء في الكتاب والسنة، كالدعوة إلى العمل بأن يحثهم على خدمة الأرض وفلاحتها وتربية الماشية فائلا: ((كل حبة تنبت في مكان الحجارة أو الشوك الذي تنزعه لك فيه حسنة.))¹، وكان يقوم بهذه الأعمال التي يدعوا لها ليكون قدوة حسنة لهم.

كما عرف عليه أنه كان يتوجه للنساء بالنصح والحث على الاشتغال بصناعة الصوف والغزل والنسيج لتوفير حاجات العائلة من لباس وأغطية وأفرشة، ودعا أيضا الرجال إلى اكتساب الحرف وتعلم المهن قائلًا لهم: ((الصناعة في اليد أمان من الفقر.))²، وكان يرى في الخلوة التي تتميز بها التعاليم الرحمانية كعبادة تقرهم إلى الله مخالفة للدين وهدر لوقت المسلم فقام بالنهي عنها ومحاربتها معتبرا أن أسمى العبادات إلى الله هو العمل الذي يخدم المجتمع.

بهذا التشجيع على العمل يكون قد أدرك الأهمية الدينية والاجتماعية له للخروج من دائرة الحاجة والوصول إلى حالة الكفاية والوفرة، وهذا بفضل تحويل أفراد المجتمع إلى منتجين لما يستهلكون. وقام أيضا باستهداف وتفعيل عادات التضامن والتعاون الموجودة في المجتمع الأوراسي فسهر على إصلاح ذات البين وزرع المحبة والألفة بين أفراد المجتمع من خلال دروسه الوعظية فقرب بذلك بين العشائر والقبائل المختلفة المكونة للمجتمع الأوراسي.

ومن جهة أخرى قام الشيخ بدعوة الموفورين إلى مساعدة المعوزين بتسليفهم وسائل الإنتاج كالأرض أو الحيوان واستعادتها بعد مجيء الإنتاج وأعطى لعادة التوزيع دورا فعالا في إنجاز الأعمال، فكان يحرص مرديبه على القيام بأعمال الفلاحة من حرث وبذر وحصاد بالتعاون، والقيام بها في أراضي العجزة والنساء الأرامل بدون مقابل والمساهمة في بناء المساكن للمعوزين جهدا ومالا.

كما نظر في تنظيم شعير الزكاة على نحو اقتصادي يضمن الأمن الغذائي وخاصة للمعوزين في الفترات البعيدة عن الحصاد بعد نفاذ المخزونات والاحتياطي من الحبوب، فأنشأ مراكز لجمع الزكاة من الحبوب في كل قرية وعند نفاذ احتياط العائلات الفقيرة يقوم بتوزيعها عليهم، بل بلغ مقصد هذه النظرة إلى تجاوز أزمات نفاذ المؤونة من محاصيل الحبوب في فصل الجفاف.

¹ - محمود الواعي: المرجع السابق، ص 206.

² - المرجع نفسه، ص 207.

فضلا عن هذا مارس سي الهاشمي مهنة التطبيب مستندا في جهده هذا إلى الطب النبوي كاستعمال الرقية الشرعية والأعشاب الطبية وحارب الطب الخرافي والشعوذة كاستعمال التائم و"الحروز"، وعرف عنه أنه كان لما يجد شخصا يتخذ تيممة يقوم بنزعها له ودفنها في التراب، كما دعا إلى الوقاية من الأمراض كقوله: ((كل قلة واشرب قلة تنجو من العلة)).

بهذا الجهد المركب مثل الشيخ سي الهاشمي بن علي دردور حالة إصلاحية محلية في منطقة الأوراس، سوف تساهم في وثبة هذا المجتمع وتحسين أوضاعه المادية والمعنوية إلى حد ما، وهو ما يمكن أن نعتبر أن هذه التجربة كانت محطة تزود منها المجتمع الأوراسي بمقومات ساهمت في التصدي لعوامل انهياره التي كانت تنخره بفعل الظروف والسياسات الاستعمارية، فامتلك من خلالها ملكة الوعي بالخير والصالح، والتوق إلى حياة أفضل.

ب- الشيخ عبد القادر المدوكالي:

من مواليد 1841م بمدوكال أخذ مبادئ العلم الأولى بمسقط رأسه وبعد بناء قاعدة علمية توجه للدراسة بالزيتونة بتونس، ثم انتقل إلى جامع الأزهر الشريف وبعد سنين قضاها في التحصيل العلمي عاد إلى مسقط رأسه، أين باشر مهامه التعليمية في العديد من مناطق الجهة منها التعليم بمشقى ملاح بدوار لمسيل ثم انتقل للتدريس بمسجد زاوية محمد بن عبد الكريم بدوار الرحبات في الفترة حوالي 1890 م ومنها توجه إلى مدوكال فبريكة ثم قصر الطير.¹

إن مروره بكل هذه المناطق وفي مدة قصيرة، وعدم وقوع اختياره للاستقرار في أي منهم ليدل على قلق وعدم ارتياحه لأوساطها، إذ لم تكن هذه المناطق تتوفر على ما يكفي من التقاليد الثقافية إلا تلك التقاليد البسيطة والمحدودة في تحفيظ القرآن، وبذلك لم تكن إمكانيات الشيخ الثقافية تتلاءم مع الوسط الثقافي في هذه المناطق مما أشعره بالعزلة والغربة الفكرية بسبب الجهل والامية المتفشيتين في الوسط الأهلي، بفعل سياسة التجهيل المعتمدة من الإدارة الاستعمارية وأيضا ضعف التعليم التقليدي الذي كانت تقدمه الزوايا وبعض الكتاتيب مما استدعى هجرته إلى قسنطينة²، باحثا عن وسط ثقافي أرحب ومناخ تعليمي أصلح لأداء رسالته وملائم لإمكانياته الثقافية والعلمية، وإن كانت هذه الهجرة سوف تمنع أبناء وسكان هذه المناطق من الاستفادة المباشرة إلا أنها كانت يمكن أن تساهم في ربط هذه المناطق المغلقة على نفسها بحاضرة قسنطينة من خلال لفت أنظار الشباب إليها عن طريق النصح منه أو إقتداءه وتأثرا به ومحاوله اللحاق به وتبع أثره، وبذلك تخلق مسلكا جديدا مع بيئة منفتحة يجعلها تستفيد من التأثيرات الجديدة التي تساهم في حقنها بأفكار التجديد و الإصلاح.

¹ - وفاة عالم جزائري بدمشق، جريدة البصائر، السنة الأولى، العدد 18، يوم 08 ماي 1936، ص143.

² - المصدر نفسه: ص143.

وفي سنة 1911 م هاجر الشيخ إلى مكة ومنها إلى سوريا أين توفي بعاصمتها دمشق سنة 1936م¹، ورغم جهوده التعليمية في العديد من الأماكن التي استعرضناها، إلا أن هجرته هذه المرة وإلى خارج الوطن حرمت المنطقة من الاستفادة من جهوده الإصلاحية، وإن سكنت الروايات المكتوبة والشفوية المحلية عن دوره الإصلاحي، إلا أننا نرجح نزعه الإصلاحية فهجرته عام 1911م قد تكون بسبب المضايقات الاستعمارية التي تعرض لها علماء الجزائر بسبب ما شكلوه من خطورة على مصالح الاستعمار، كما أن اختياره مكة كمحطة لهجرته قد يكون بدافع ميله للفكرة السلفية وتأثره بالحركة الإصلاحية الوهابية والتي تعتبر مكة بيتها وموطنها، وبعدها كان انتقاله إلى سوريا واستقراره بها قد يعود لتأثره بحركة جمال الدين الأفغاني وفكرة الجامعة الإسلامية أو تيارات النهضة العربية الحديثة، لذلك كان اختياره بلاد عربية وإسلامية غير مستعمرة حتى هذه الفترة، وإن كان إعتناقه للأولى أو الثانية فهو يعكس في كلا الحالتين فكره الإصلاحي.

وما يعزز رأينا على نزعه الإصلاحية هو قيام جمعية العلماء في الجزائر بنعيه في جريدتها البصائر² باعتباره جندياً من جنود الإصلاح تضعه في خندق واحد معها، وبما أن أغلب القرائن تثبت لنا نزعه الإصلاحية، فإنه أثناء تواجده بالمنطقة وكعادة المعلمين يكون قد كرس دروسه لتقديم تعليم جديد على نحو إصلاحي يتوافق مع أدوار اجتماعية ودينية من خلالها عالج الكثير من رواسب الجهل والبدع التي التصقت بالدين بهدف توجيهها نحو الدين الصحيح، وما هو ماسوف يبقى تأثيره على الناس مهما كانت حدود هذا التأثير إلا أنه يذلل الطريق لأية فكرة إصلاحية قادمة، كما قد يكون ساهم في ترك ثلة من التلاميذ الذين ساهموا بعده في مسيرة التعليم بالمنطقة وبذلك وفروا خدمة التعليم بمنطقتهم التي كانت محدودة وبائسة.

ج- الشيخ حمو بن أحمد شرفي:

الشيخ حمو بن أحمد شرفي من مواليد 1866 م بدوار الرحبات بدأ دراسته الأولى بمسقط رأسه أين حفظ القرآن الكريم بالكتاب ثم أخذ المبادئ الأولية في الفقه والنحو واللغة، وبعد أن استقام عوده عزم على الرحيل إلى جامع الزيتونة وبه قضى فترة الدراسة المقررة محققاً بذلك الهدف الذي ذهب من أجله، وعاد بعدها إلى منطقتة لياشر جهوده التعليمية وما يلازمها من أعمال اجتماعية كإصلاح ذات البين وحل الخصومات وقضايا العرش الأخرى بالإضافة إلى دوره الديني كالفتوى وتقسيم التركة على الورثة، وقد كانت له دروس مسجدية في التوحيد كان من خلالها يحارب مظاهر الشرك عند العامة ويصحح اعتقاداتهم ويحثهم على أداء الواجبات الدينية ويصحح للعامّة تفصيرهم في أداء بعض الفرائض كالصلاة والزكاة والصوم.

وكان يتخذ من جامع مرابط الصديق مدرسة لتعليم الطلبة وقد كان له مردود معتبر من نشاطه التعليمي حيث كان مقصداً لطالبي العلم من منطقتة ومناطق الأخرى المجاورة، وقد تخرج على يده العديد من الطلبة الذين

¹ - المصدر نفسه، ص 143.

² - انظر المصدر نفسه، ص 143.

واصلوا مسيرته في نشر العلم¹، وبذلك استطاع المساهمة في تبديد الجهل والخرافة وإعداد هذه الجهة من منطقة الأوراس لاستقبال الأفكار الجديدة القادمة.

د- الشيخ سي بلقاسم الفرحي:

سي بلقاسم بن عثمان الفرحي من مواليد حوالي سنة 1880 م بدوار عين زعطوط التابع للبلدية المختلطة عين التوتة، أين تقطن قبائل بني فرح، أخذ المبادئ الأولى في التعليم على يد كبار شيوخ المنطقة ثم انتقل إلى قسنطينة لمواصلة دراسته، ورغم القرب الجغرافي لبني فرح من زوايا التعليم بطولقة وخنقة سيدي ناجي الموجودة في الجنوب والتي ميزت سير البعثات التعليمية لأبناء الأوراس حتى هذه الفترة، إلا أن سي بلقاسم عثمان حقق الاستثناء في توجهه إلى مدينة قسنطينة، قد يكون هذا القرار جاء لكون عائلته قد أرسلته إلى أحد أقاربها من العائلات الفرحية التي هاجرت إلى قسنطينة واستقرت بها في العمل بالحمامات في بداية الاحتلال كما هو معروف عنهم²، وبذلك يعد توفر الإقامة له عند أحد أقاربه كان له الدافع في قصده قسنطينة وخاصة أن سي بلقاسم ضرير يحتاج إلى عناية قد لا تتوفر في إقامات الزوايا.

أثناء دراسته بقسنطينة زامل ابن باديس فيكون قد خضع للظروف التعليمية نفسها والتي ساهمت في توجيه أفكار بن باديس نحو الإصلاح، كأن يكون قد تلقى الدراسة على يد أهم المشايخ ومعلمي قسنطينة الذين تلقى على يدهم ابن باديس العلم مثل الشيخ حمدان لونييسي* الذي كان يعمل أستاذا بالمدرسة الرسمية الفرنسية الإسلامية بالكتانية. Ecole franco-musulmane³ والذي تميز بسعة علمه وأسلوب تعليمه زيادة على وعيه بأهمية تعليم أبناء الأهلي وإخلاصه في نصح وتوجيه تلاميذه.

كما لا يمكن أن نقلل من فضل البيئة الثقافية التي كانت عليها قسنطينة والتي كانت تتوفر على أجواء علمية ودينية وثقافية حضارية ساهمت في توفير مناخ التعلم والوعي بأهمية العلم، حيث ظهر العديد من المشايخ بمساجدها تميزوا بأفكار متنورة وعلم وافر، وشهرة استقطبت تلاميذ المدارس إلى حلقات دروسهم وهو واحد منهم، بالإضافة إلى دور نادي صالح باي الذي كان ابن الموهوب و هو أحد رواد النهضة الفكرية والثقافية والمعروف بتوجهه الإصلاحية الذي يعد أحد مؤسسيه ومنشطيه⁴ مما ساهم في تحريك الجو الثقافي للجماعة الأهلية

¹ - عبد الحميد، غنام: الشيخ سالم الغنامي السلامي الأوراسي ومعاصروه في المنطقة، مراجعة وتقديم فيلالي مختار، مجلة التراث، تصدر عن جمعية التاريخ والتراث الأثري لمنطقة الأوراس، العدد 09، نوفمبر 1997، ص 119.

² - Busson: Op.cit, p45.

* حمدان لونييسي: 1856-1930 قسنطيني المولد والنشأة، تعلم وعلم بما ويعد من أهم من خدموا الحركة التعليمية في الفترة الاستعمارية تعرض لمضايقات كبيرة في واجبه هذا مما اضطره إلى الهجرة الأستانة ومنها إلى المدينة المنورة ومواصلا فيها مهنة التدريس، ارجع محمد المهدي بن شعيب: تاريخ قسنطينة أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، 1980 ص 318.

³ - أبوالقاسم سعد الله: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 193.

⁴ - أحمد صاري: شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصرة مرجع سابق، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 2004، ص 19.

المسلمة وأثرى جهود الكثير من المشائخ الذين نشطوا فيه والذين استطاعوا أن يجعلوا من مدينة قسنطينة منطقة إشعاع إصلاحي، كما لا نستبعد مساهمة زماملته لابن باديس في الاستفادة منه ومن أفكاره الإصلاحية المبكرة ورفضه الكثير من الخرافات والبدع التي ألصقت بالدين، وبذلك تكون فترة دراسة سي بلقاسم عثمان بقسنطينة قد كونته علميا ورسمت له توجهه الإصلاحي.

وبعد استكمال الدراسة بقسنطينة بمدرسة الكتانية عاد إلى بلده أين بدأ في مباشرة التعليم بمسجد آل عبد الكريم وهو مسجد تابع للمرابط سي الأخضر الولي الذي كانت العامة تعتقد أنه تجري على يده الكثير من الكرامات كشفاء المرض بطريقة عجائبية وإكثار الطعام وتكليمه الحيوان ولذلك كان مقصدا للناس من كل جهة في موسم الحضر التي يقيمها للاستماع إلى البشارة التي سوف تكون عليها السنة القادمة¹، وعلى الرغم من تواجد سي بلقاسم في أحضان هذا المرابط الموهل في الخرافة، إلا أنه كان يقدم دروسه في مدرسة مسجده في مواد الفقه والنحو والشريعة الإسلامية والتوحيد² على نحو إصلاحي، مخالفا الاعتقادات المرابطية، وبقي احترام المرابط سي الأخضر كبيرا لسي بلقاسم، ونرجح أن يكون المرابط سي الأخضر جاهلا لذلك إذ لم يكن يفهم ما يدور في دروس معلم مدرسته من خطورة على مصالحه.

هذه الدروس التي كان يقدمها سي بلقاسم نال من خلالها شهرة كبيرة في كل الأوراس وحتى قسنطينة³، فجلبت إليه العديد من الطلبة من كل أنحاء المنطقة وتخرج على يده العديد منهم والذين حافظوا على التوجيه الإصلاحي له، وإن كنا نرجح أن دوره اقتصر على التعليم فقط، لأن الأدوار الاجتماعية والدينية التي كانت تلازم دائما المعلم في هذه المناطق قد احتكرها واستأثر بها المرابط سي الأخضر لما له من مكانة اجتماعية وسطوة على العامة، إلا أن جهوده التعليمية والدينية التي استهدفت تنقية العقيدة مما علق بها من خرافات وبدع خاصة لدى فئة طلبته الشباب والتي سوف تساهم في إنارة عقول هؤلاء على نحو تتراجع فيه سداجة الاعتقادات المرابطية على الرغم من الحاجة إلى تراكم جهوده عبر الأجيال من خلال ترك خليفة له يواصل عمله، لأن هذه التجربة لسي بلقاسم عرفت هذه الصعوبة والتحدي بوفاته المبكرة عام 1916 م⁴ وعدم ترك من يخلف أثره في جهده الإصلاحي.

هـ- الشيخ سي الجموري:

سي الجموري بن سي محمد العايش ينحدر أصله من منطقة جمورة من قبيلة أولاد زيان العربية المتواجدة بالتخوم الجنوبية للأوراس تلقى دراسته الأولى بهذه المنطقة أين حصل على مستوى من التعليم يبعث فيه الطموح و يؤهله للإلتحاق بالجامع الكبرى في المشرق الإسلامي.

¹ - فاني، كولونا: المرجع السابق، ص 262.

² - فاني، كولونا: المرجع نفسه، ص 285.

³ - المرجع نفسه، ص 257.

⁴ - فاني، كولونا، المرجع نفسه، ص 250.

كانت رغبته في التوجه إلى مصر أين التحق للدراسة بجامعة الأزهر الشريف الذي قضى فيه مدة زمنية لباس بها خلالها أخذ المعارف والعلوم الدينية والفكر المقرر في برامج على يد مشاهير مشائخ الجامع الذي كان حتى تلك الفترة قد إتضحت واستقرت مناهجه ورؤيته العلمية والفكرية، فكان للشيخ سي الجموري قسطا وافرا من العلم و الفكر والصلاح.

لما عاد سي الجموري التحق بزواية تبرماسين ليؤدي دوره التعليمي فيها الذي باشره حوالي سنة 1923 م¹ ليستغرق مدة عشر سنوات أهلته لأن يكون قطبها الفكري، كان يعلم مجانا ولا يتقاضى أجرا، وهو عرف ثقافي وديني فرضتها التقاليد الإسلامية جاء من إعتبار التعليم ونشر العلم واجب ديني على العارف والمعلم لا يقابله مقابل مادي بل أجره كبير على الله.

والحق أن فضل سيدي الغزالي صاحب الزاوية كبير في هذا الدور فقد وفر له كل الظروف الملائمة للتفرغ لواجبه التعليمي.

كان يتحلق حوله بمدرسة الزاوية حوالي 20 طالبا لحفظ القرآن وأخذ دروس أولية ؛ بينما كان سي الجموري يخص منهم ما بين 08 إلى تلاميذ 210² يعطيهم تعليما خاصا، وقد يكون اصطفاهم ممن رأى فيهم النباهة والذكاء والاستقامة الفطرية، أو قد تكون البقية من التلاميذ صغار السن الذين لا تأهلهم مداركهم العقلية للاستفادة من دروسه.

وكانت دروسه تتضمن مواد في مبادئ الفقه والعقيدة والشريعة الإسلامية والنحو العربي وفي الحقيقة تعتبر جهود سي الجموري رغم انطلاقتها من معقل المرابطي وتحت إشراف طرقي إلا أن تعليمه ودعوته كانت إصلاحية، حيث كانت دروسه ومواعظه تهدف إلى العودة بالناس إلى العقيدة الصحيحة والنقاء الأول للدين الحنيف ومحاوله القضاء على الأفكار ذات التأثير المرابطي التي لا تتوافق مع النص القرآني والسنة النبوية الشريفة.

إلا أن هذه الجهود التي كان يقدمها هذا الإصلاحية لدى الجمهور العامي في الأخير لا تخدم إلا المرابطية، من خلال زيادة مصداقيتها، اعتقادا من العامة أن كل ما تحتويه الزاوية وما يصدر منها يعود الفضل فيه إلى صاحبها سي الغزالي؛ إلا أننا لا يمكن أن نتجاهل الأثر الذي يتركه على عقول تلاميذه من تنوير نتيجة عمل عشر سنوات التي مكنتها في هذه الزاوية بين الشباب، إنها مدة كافية لتخلص الشباب من أفكار الشيوخ ذات التأثير المرابطي وبأن تدفعهم نحو الأفكار الجديدة.

وبذلك يمكن أن نصل إلى حقيقة أن سي الجموري صاحب التعليم الأزهري قد ساهم في وضع اللبنة الأولى للفكرة الإصلاحية في بيئة جد مرابطية، وهو بذلك يزامن الأوراس مع اللحظة التاريخية التي يعرفها كل الوطن من انتشار وتبلور الفكرة والنهضة الإصلاحية وهيئة المؤسسات و المجتمع الأوراسي إلى استقبال المشروع الإصلاحية.

¹ - فاني، كولونا، المرجع نفسه، ص 268.

² - فاني، كولونا، المرجع نفسه، ص 269.

المطلب الثاني: نماذج من الطلائع الأولى للطلبة الأوراسيين للجامع الأخضر

لا نستطيع أن نحدد تاريخ التحاق أول طالب أوراسي بملقات الدرس للشيخ ابن باديس، إلا أن الرواية الشفوية مازالت تحفظ لنا، أن الشيخ في إحدى زيارته لمنطقة الأوراس في بداية العشرينيات كان من بين محطاته زيارته لأقدم تلاميذ له، المدعو محمد بن أحمد العيد من دشرة بني عباس إحدى القرى الواقعة على ضفاف وادي عبدي¹، وإن سكنت الرواية عند هذا الحد ولم تعطينا تفاصيل أخرى عن هذه الشخصية من حيث مكانته الاجتماعية وتعليمه الأولي وحتى نشاطه بعد عودته من الجامع الأخضر فهذا منع علينا معرفة الظروف والمناسبة التي أدت به وكانت وراء التحاقه بالدروس الإصلاحية والدراسة بقسنطينة في وقت مازالت كما نعرف وجهة الطلبة الأوراسيين لطلب العلم هي زوايا الجنوب بالزيبان، ومن تشده الرحلة إلى قسنطينة إلا لظروف خاصة ومع ذلك فإننا لا نستبعد أن يكون الطالب محمد بن أحمد العيد قد تعلم وأخذ دروسه الأولى عند أحد الشخصيات الإصلاحية الأولى بالأوراس، مثل الشيخ بلقاسم الفرحي الذي بلغت شهرته كثير من مناطق الأوراس، وشدت الرحلة إليه من قبل أبناءها من العديد من مناطقها، ومنطقة إقامة الطالب محمد بن أحمد العيد بدشرة بني عباس لوادي عبدي هي منطقة قريبة من الجهات التي درس بها الشيخ بلقاسم الفرحي فليس بعيدا أن يكون أحد تلاميذه لتيسر الوصول إليه.

أو قد يكون استفاد من دروس الشيخ مولود الزيربي الذي انتصب للتعليم بزواوية بن عزة بالحجاج، أو يكون قد استفاد من التعليم على كليهما، وإذا كان قد استفاد في مرحلته الأولى بنوعية التعليم هذا الذي كان يسديه مشائخ من نوع بلقاسم الفرحي ومولود الزيربي فإنه بلاشك قد تشبع بتعليم ذو روح إصلاحية دفعته إلى الرغبة للمزيد من طلبه، ولأن الشيخ ابن باديس قد ذاعت شهرته وتسامعت أخبار دروسه في المنطقة، فلاشك أن الطالب محمد بن أحمد العيد قد طمح في المزيد من العلم على يده، أو قد تكون دفعته نصيحة أحد معلميه أو أن التوجه الإصلاحية الذي أخذه من معلميه السابقين قد رسم له طريقه في البحث عن نوع التعليم الذي يجب أن يأخذه، ولما سمع عنه عند الشيخ ابن باديس كان من المبادرين إليه.

¹ - المقابلة السابقة، مع السيد عبد الباسط دردور.

1_الأستاذ محمد حمودة بن الساعي:

من مواليد سنة 1902 بباتنة ترعرع في عائلة متواضعة حيث كان أباه ينحدر من زاوية عريقة ومعروفة تعود إلى النمامشة¹.

بدأ رحلته في العلم بحفظ القرآن على يد الشيخ زيداني كما استفاد من مساعدة أبيه الذي لقحه منهجية الحفظ والتوجيه نحو الاجتهاد والفهم الصحيح للدين الإسلامي، وقد سمحت له إقامته في باتنة مدينة الاستيطان على الاستفادة من مرافق المدرسة الفرنسية وهذه الأخيرة التي كان لها دور بالغ الخطورة في صقل مواهبه وقدراته وخاصة لما وجده من عناية من قبل معلميه الذين قدروا مواهبه وقدراته، وبعد اجتيازه لامتحان نهاية المرحلة الدراسية بتفوق، انتقل للمدرسة العربية الفرنسية بقسنطينة²، التي تزامن وجوده بها مع ذبوع أفكار ابن باديس التي كان يضمنها في دروسه بالجامع الأخضر.

ولما عرف على حمودة بن الساعي من حب للإطلاع واستهوائه للفكر والعلم الإسلامي ولقضايا العالم الإسلامي شدته دروس الشيخ ابن باديس بالجامع الأخضر، فكان كلما فرغ من دروسه بالثانوية توجه لحضور الدرس الباديسي بالجامع الأخضر³، وبذلك تعرف على الفكرة الإصلاحية من خلال دروس الشيخ ابن باديس التي كان ملتزما بها كل مساء بعد فراغه من دروس الثانوية مثل ما أسلفنا الذكر، أعجب بالأفكار التي كان يطرحها الشيخ وكيفية علاجها التي توافقت كثير مع منهجيته وأبعاده الفكرية.

لقد راء حمودة بن الساعي في الشيخ ابن باديس العالم الذي كان يبحث عنه والعالم الذي اجتمعت فيه علوم الإسلام، هذه الميزات التي وجدها في الشيخ جعلته يكن له حبا واحتراما شديدين وقد استمر حرصه بالتزود بالفكرة من خلال صحف الجمعية كالشهاب والبصائر التي كانت تصله حتى بعد سفره للدراسة بفرنسا.⁴

2_الشيخ عيسى مرزوقي:

ولد في 17 أبريل 1889م بسفيان إحدى قرى أنقاوس من عائلة فلاحية فقيرة، التحق بالكتاب بمسقط رأسه أين حفظ القرآن، وتعلم المبادئ الأولى في اللغة والدين على يد الشيخين عمر سليمان والحاج أحمد بخوش، ثم انتقل إلى زاوية سيدي علي بطولقة وفيها أخذ عن مشائخها الفقه والتفسير والنحو...⁵

¹ - مقابلة شخصية مع السيد محمد نذير السبع مثقف وكاتب ومدير ولائي للثقافة سابق كان أحد جلساء الدئمين للأستاذ حمودة، باتنة يوم 2009/8/25.

² - مقابلة شخصية مع السيد علي أوجيت مثقف مزدوج الثقافة أحد جلساء الشيخ حمودة، باتنة يوم 2009/8/26.

³ - المقابلة السابقة مع السيد محمد نذير السبع.

⁴ - مقابلة شخصية مع السيد عبد الرحمان شيبان، حسين داي، الجزائر العاصمة يوم 2008/6/12.

⁵ - مقابلة شخصية مع السيد عبد المالك بورزام كاتب وناشط شبابي له اهتمام بتاريخ الأوراس، انقاوس يوم 2009/08/28.

وعند سنة 1917م أستدعي للتجنيد الإجباري وكان ضمن قائمة الموجهين إلى بلاد الشام في القوات التي كان يقودها "الجنرال غورو"، أين قضى عام ونصف فيها، وبعد عودته أراد مواصلة رحلة طلب العلم، وفعلا سنة 1921م قصد هذه المرة الجامع الأخضر للتلمذ على يد الشيخ ابن باديس.¹

إن التحاقه في هذه السنة بقسنطينة يعد من بواكير الطلائع الطلابية الأوراسية الذين قصدوا الدرس الإصلاحية بقسنطينة، كما أن سنه المتقدمة التي وصل فيها في سنة إلتحاقه إلى 32 سنة، ليفسر لنا أن الرجل دفعه شغفه الكبير إلى طلب العلم وأن اختياره هذه الوجهة قد تكون بوعي وإرادة شخصية، فيها استطاع أن يقع اختياره هذا بعد أن توفرت فيه مزايا طلبها، وهي المستوى العلمي ونوعية العلم، وقد كان المطلب الأول قد وصله لما سمعه عن قدرات الشيخ، وأما المطلب الثاني المتمثل في نوعية العلم فإن فترة تواجده ببلاد الشام قد تكون سمحت له عن قرب أن تصله أفكار النهضة العربية والإسلامية والتي تجلت في ظهور تيار القومية العربية الذي يدعو إلى بعث وأحياء التراث والمجد العربيين وتيار الجامعة الإسلامية والاجتهادات والمحاولات الإصلاحية، فقد تكون هذه الأفكار قد أبانت له الفكر الجديد التي يجب أن تعيش بها الأمة وتحقق بها مطامحها.

3_ الشيخ مدور علي بن مبارك بن محمد بن بلقاسم:

(المدعو علي بن شكشوك) من مواليد دشرة ورقة من عرش التوبة ولد حوالي 1880م، أخذ تعليمه الابتدائي بمسقط رأسه ورقة وحفظ القرآن بكتابها، ثم اتصل بحلقات الدروس التي كان يقيمها الشيخ بلقاسم الفرجي بجمورة ومنها انتقل إلى زاوية بن حمزة ببني فرح بعين زعطوط، ثم انتقل إلى زاوية بن عزة بالحجاج بأريس²، وقد تكون فترة دراسته تزامنت مع تدريس الشيخ مولود الزربي خريج الأزهر بها، ثم انتقل إلى قسنطينة للأخذ عن الشيخ ابن باديس، وإن لم تحفظ لنا المصادر تاريخ التحاقه بالشيخ ابن باديس، إلا أن الرواية الشفوية تذهب إلى أنه كان أكبر تلاميذه سنا في فترة دراسته.³

إن أخذه على الشيخ بلقاسم الفرحي والشيخ مولود الزربي في مرحلة دراسته الأولى قد منحتة فرصة اكتشاف والاستفادة من تعليم ذو روح إصلاحية ورسمت فيه قناعات ساهمت فيما بعد في تحديد الوجهة التعليمية التي يقصدها تاليا وأبانت له أفق ومعالم التعليم الذي يجب أن يمتلكه، فكانت حلقة المسجد الأخضر هي مقصده، وتشير وضعية انتقاله إلى الجامع الأخضر في سن متقدمة وتحمله لمشاق الغربة بقسنطينة لدليل على شغفه الكبير لطلب العلم الإصلاحية ووعيه بهذا الاختيار.

¹ - الإمام الشيخ عيسى مرزوقي رائد الحركة الإصلاحية والعلمية بنقاوس، جريدة الأوراس، عدد 173، من 19 أبريل 1993 إلى 25 أبريل 1993.

² - مقابلة شخصية مع السيد لخضر مدور بورقة يوم 2005/05/25.

³ - نفس المقابلة.

4_ الشيخ عمر دردور:

هو بلقاسم دردور الشهير بعمر دردور بن محمد بن منصور ولد سنة 1913م بقرية حيدوس ثنية العابد، وفي الخامسة من عمر دخل كتاب قريتهم لحفظ القرآن والذي أتمه بعد سبعة سنوات أي في سن الثانية عشر من عمر بعدها انتقل إلى مسجد قريتهم ليتلقى مبادئ العلم الأولى في الفقه والنحو والفرائض على يد الشيخ عبد الرحمان زموري والذي قضى فيه مدة سنتين، ولكن مع شغفه المتزايدة في طلب العلم رغب في الاستزادة منه مثل ما يفعل أغلب أبناء الأوراس إلى أحد زوايا الجنوب ببسكرة، ويقول الشيخ نفسه: ((... تذوقت حلاوة العلم فازدادت رغبتي في طلبه ولإرضاء طموحي أخذت أبحث عن مكان يكون مستوى التعليم أحسن مما هو فيه من قريتنا...))¹، فتوجه الشيخ مع زميله الشيخ محمد الصالح زموري ابن إمام المسجد إلى الذهاب معاً إلى زاوية سي علي بن عمر بطولقة وذلك سنة 1930م، وفيها يقول الشيخ عمر دردور ((في الزاوية وجدت مجالاً أوسع للعلم لكثرة المواد العلمية الذي تضمنه برنامج الزاوية العلمي، عقائد التوحيد و الفقه والنحو والفرائض...))²، هذه الفترة التي تواجد فيها الشيخ عمر دردور في بسكرة تزامنت مع النهضة العلمية الإصلاحية لابن باديس والتي كانت تصل أصدائها لبسكرة واخترقت حتى المؤسسات التقليدية كالزاوية، وخصوصاً عند زيارات إصلاحيين إلى المنطقة مثل زيارة الشيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي*، الذي كان يقص على الطلبة أخبار النشاطات الإصلاحية الصحفية والتعليمية التي كان يرأسها الشيخ ابن باديس، إن هذه الدعاية التي كان يقوم بها الشيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي أثارت بلا شك في الطلبة الإعجاب بالشيخ ابن باديس ومحبته والرغبة في التلمذ على يده، وهذا ما حدث مع الشيخ عمر دردور وقد شجعه إلى ذلك والده وعمه لتحقيق رغبته هذه في الالتحاق بدروس الشيخ ابن باديس، ولعل أيضاً كان وراء وقفهم هذا هو الوفاء لطلب تقدم به الشيخ في إحدى زيارته إلى زاويتهم ((زاوية دردور)) لما كان عمر دردور و محمد بن الصالح زموري صغيران أشار عليهم بأن يرسلهما إليه للتعلم عند كبرهما³، وكانت الأمور بذلك تتجه إيجاباً لفكرة التحاق الشيخ بالجامع الأخضر وذلك بتعرفه على التاجر الشيخ الحنفي العوي الذي كان أحد أنصار الإصلاح بالمنطقة، والذي تميز بدعوته إلى التحاق طلبة العلم بمجالس الشيخ ابن باديس والتذكير بخصاله وصفاته لتحييه إليهم، وما أن بين له الشيخ عمر دردور نيته في الالتحاق بدروس الشيخ حتى قام بتوصيله رفقة زميله محمد الصالح زموري إلى الشيخ بالجامع الأخضر، و بعد اجتيازه للامتحان سجل في السنة الثالثة وكان ذلك الموسم 1932.⁴

¹ - عمر، دردور: تسجيل إذاعي (حصّة نور ومنار تقديم بجاوي)، إذاعة الأوراس، الحلقة الأولى سنة 1996.

² - المصدر نفسه.

* - عبد الحفيظ بن الهاشمي أحد خريجي الزيتونة ساهم في الدعوة الإصلاحية في بداية عودته أسس جريدة النجاح التي كانت بديتها منبرا إصلاحيا قبل أن تحيد عن خطها لصالح خدمة الإدارة الاستعمارية.

³ - المقابلة السابقة مع السيد عبد الباسط دردور.

⁴ - عمر، دردور: المصدر السابق.

5_ الشيخ محمد بن أحمد الغسيري:

ولد في دشرة أولاد منصور بقرية غسيرة من مواليد 1915 م، دخل الكتاب لتعليم مبادئ القراءة والكتابة حفظ القرآن على يد مشائخ بلدته وفي سنة 1927 م التحق بزاوية سي أحمد بن الصادق بأولاد ميمون بغوي الأقرب إلى بلدته، وفيها تم له حفظ القرآن وبعدها انتقل إلى زاوية سي محمد الصغير الجوادي ببسكرة، ومنها انخرط في صفوف مدرسة الإخاء الإصلاحية التي أسسها الشيخ محمد خير الدين سنة 1931م ببسكرة، وفي العام الموالي انتقل للدراسة بالجامع الأخضر بقسنطينة أين باشر دروسه على يد الشيخ ابن باديس في أكتوبر 1932 م¹.

إن الشيخ محمد الغسيري من خلال بيئاته التعليمية القريبة من بسكرة التي كانت قد وصلها وهج النهضة الإصلاحية إليها بفضل عدد الشخصيات التي عادت من الشرق وانتصبا لدعوتها، قد سمحت له بالتعرف عنها كما أن اتصاله المباشر بالشخصيات الإصلاحية من خلال مدرسة الإخاء الإصلاحية قد سمح له أن يصبح تحت التوجيه المباشر لهم، وبذلك يكون توجهه لقسنطينة تحت تأثير نصيحة معلميه أو إعجابه بالفكرة الإصلاحية والتي ارتبطت بالشيخ ابن باديس فكانت رغبته العالية في أن يأخذها من مصدرها.

من خلال استعراضنا هذا الوجيز لمسيرة الالتحاق التي عرفتها الطلائع الطلابية بالدرس الإصلاحي للشيخ ابن باديس بقسنطينة، والتي عمدا استعرضنا نموذج عن كل حالة - إن من ناحية التوزيع الجغرافي أو من ناحية ظروف وزمن الالتحاق - وهذا بهدف محاولة استقراء العوامل التي ساهمت في التحاق الطلبة الأوراسيين بالتعليم الإصلاحي لابن باديس وبذلك محاولة تفسير مفارقة تكاد تستثنى بها منطقة الأوراس عن باقي مناطق الوطن الأخرى والمتمثلة في إرسال عائلات مرابطة أبناءها لأخذ تعليم إصلاحي وهو التعليم المعروف بنزعة العدائية إلى التعاليم والتقاليد المرابطية.

إن هذا التوجه نحو هذا الاختيار من قبل هذه العائلات نرجعه إلى مساهمة العوامل التالية:

- دور زيارات الشيخ ابن باديس إلى منطقة الأوراس سنوات 1918-1920-1926-1933*، هذه الزيارات التي كان يقوم بمثلها في كل أنحاء الوطن، كان يريد من خلالها اكتشاف المنطقة ومعرفة خصائصها الاجتماعية والثقافية لبناء تصور لها في إدخال الإصلاح إليها.

فكانت محطاته أثناء زيارته تتمثل في الزوايا وهي مراكز التعليم والعائلات التي بقيت تحافظ على وجود العلم بين أبناءها فهي بذلك تدرك أهمية التعليم مما يسهل ويوفر عليه الجهد والوقت في إقناعهم بأهدافه وحتى عند تنقلاته في داخل الأوراس، وعرف على الشيخ أنه كان يتعمد إلى اتخاذ مشائخ الزوايا كرفقاء له أثناء جولاته في

¹ - محمد الصالح، رمضان: الشيخ الغسيري في سطور، مجلة الثقافة، العدد 45، السنة الثامنة، (يونيو-يوليو 1978م) وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ص 106.

* - تجمع اغلب الروايات الشفوية على هذه السنوات ولم نثر على تواريخها في الكتابات باستثناء زيارته سنة 1933.

مناطقهم، وهو بذلك كان يقدم نفسه للناس من خلال أصحاب التأثير عليهم، فقد ساهم في التعريف بنفسه ولفت النظر إليه فكانت زيارات وبهذا الأسلوب قد استطاع أن يزرع الثقة والاطمئنان والاستئناس إليه من قبل العائلات المرابطية ويطلعهم على نواياه النبيلة في رغبته في محاربة الجهل وتعميم التعليم وقد كانت هذه النوايا أثناء لقاءاته بمشائخ وقادة هذه الزوايا الذي كان يطلعهم على مشروعه التعليمي من جهة ويذكر جهودهم التعليمية من جهة أخرى، كما كان يشير عليهم بإرسال أبناءهم إليه ومن المفيد التذكير أن الزوايا التي ركز عليها الشيخ عرفت بطابعها التعليمي مثل الزاوية الدرديرية وزاوية صالحية وزاوية بني عباس وأيضا زاوية صدوق بالحاج وزاوية القرقور¹ مما ساهم في توافق أهدافهم مع الشيخ وعضده لمشروعه.

— أثر الشيخ ابن باديس في التوجيه الإصلاحي للطلبة الأوراسيين

وبعودة الشيخ ابن باديس إلى قسنطينة انتصب لتعليم بالجامع الأخضر وسيدي قموش، كما كان حثيث الحركة في زيارته إلى مختلف مناطق الوطن بهدف الاتصال بالعلماء وتنسيق الجهود لإنجاح فكرته ومشروعه، وأيضا كان يهدف من وراء هذه الزيارات إلى اكتشاف المناطق بهدف رسم خطط الإصلاح لها من خلال الاطلاع على ظروفها والتعرف على رجالها كما أشرنا أنفا، وقد عرفت منطقة الأوراس عدة زيارات للشيخ وتذكر الروايات الشفوية التي أطلعنا أن الشيخ زار الأوراس خلال السنوات (1918-1920-1926-1933)².

خلال هذه الزيارات كان يتوقف على خصائص المنطقة الاجتماعية والثقافية، ويدعو إلى التعليم وكانت محطاته هي الزوايا المعروفة بمحافظتها على التعليم مثل زاوية القرقور وزاوية صدوق بالحاج وزاوية الدرديرية وزاوية صالحية، وكان من خلال زيارته أيضا يهدف إلى تعريف الناس والشباب به، كما كان ينشر عبر صحافته إعلان افتتاح دروسه لكل موسم جديد ويحدد المواد الدراسية فجاء في جريدة النجاح سنة 1925 إعلانه: ((ليكن في علم الطلبة الراغبين في تحصيل العلم أنه يوم الثلاثاء تفتتح دروسه السنوية للعلامة الشيخ عبد الحميد ابن باديس فعلى كل من توفرت ففة قابلية التعليم أن يقبل لعمر طابة))³، وجاء أيضا في مجلة الشهاب سنة 1929 إعلانه: ((تفتح دروس صاحب هذه المجلة يوم 20 من شهر أكتوبر حسب العادة بالجامع الأخضر ومسجد سيدي قموش ودروس هذه السنة هي.....))⁴، كما سارت جريدة البصائر بنفس المنوال في الإعلان عن بداية الموسم الدراسي للشيخ كل سنة، وقد عرفت بداية التحاق الطلبة الأوراسيين إلى الجامع الأخضر بداية محتشمة إلا أنه مع مطلع الثلاثينات من القرن 20 م تزايد عدد الوافدين منهم.

لم يقتصر دور الشيخ ابن باديس في استقباله للطلبة على مجرد تحصيلهم المعرفي وحصولهم على الشهادة، بل كان يعدهم لأداء أدوار مستقبلية في إطار مشروعه وقد كان الإقبال المتزايد من سنة لأخرى للطلبة الأوراسيين،

¹ - عبد الحميد، زوزو: الأوراس إبان فترة الاستعمار المرجع السابق، ج1، ص358.

² - مقابلات سابقة مع علي أوجيت ومسعود عبيد ودروف محمد الهاشمي ومحمد مدور.

³ - النجاح: الثلاثاء 1925/10/27.

⁴ - الشهاب: ج9، سنة 1929، ص48.

وتميزهم ما عرف عليهم من الرغبة والشغف الكبير على التحصيل العلمي إلى إثارة اهتمام الشيخ بهم فخصهم بعناية كبيرة، فكان يزكي بملاحظاته مواهبهم كما يعمل على اكتشاف قدراتهم وتمييزها¹، وكان يعتمد إلى توجيههم نحو الفكرة الإصلاحية لأداء رسالة الإصلاح بمناطقهم، وقد استطاع أن يصقل قدرات القيادة والنشاط في بعضهم مثل الشيخ عمر دردور والشيخ الغسيري ومحمد الصالح زموري ومن بعدهم أحمد السرحاني بهدف قيادة الإصلاح في المنطقة.

كما قد تكون قد سهلت الحياة الاجتماعية والفكرية لمدينة قسنطينة على ابن باديس الكثير في توسيع أفق ومدارك الطلبة الأوراسيين، فمثلا استطاعت كسر الكثير من القيم المحافظة والتقليدية التي نشأوا عليها في أحواز الأوراس المغلقة محل إقامتهم، فالمدة التي قضوها أثناء دراستهم جعلتهم يستوعبون الكثير من مظاهر العصرنة للمجتمع القسنطيني والتي وفقوا بينها وبين قيمهم الدينية الإسلامية، وبذلك سوف تضيف هؤلاء فكرة التوفيق بين الجديد الوافد والتقاليد والقيم الأهلية، وهذا ما يحتاجه الناشط والمعلم الإصلاحي في منطقة كالأوراس، زيادة على أن المقارنة التي سوف تفرض نفسها على هؤلاء بين المستوى الحضاري والثقافي بين أهاليهم وسكان قسنطينة والتي ترجع إلى المستوى الثقافي والتعليمي، مما سوف يولون النشاط التعليمي الأهمية القصوى لنهضة أهاليهم بعد عودتهم.

المطلب الثالث: دور الطلبة في نشر الفكر الإصلاحي لج م ج في الأوراس

اضطلعت الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء للبعد الوطني الذي تحمله، على تحقيق أهدافها والوصول بها إلى كل مناطقها، هذه الأهداف التي تمثلت أساسا في نشر أفكار التجديد ونشر التعليم وإحياء القيم والأخلاق الأصيلة في الدين وتنقيته من البدع والخرافات التي علقت به لزمان طويل.

ومن أجل نجاح هذا المشروع أعد قادة الحركة الإصلاحية رجالا لحمله والقيام به ووزعتهم في مختلف الوطن، ولاعتبار الأوراس أحد مناطقه فقد عنت الحركة الإصلاحية بإيصال الإصلاح إليه، فقد تيسر لها ذلك من خلال أبناءه الذين التحقوا بدروس الجامع الأخضر لتلقي التوجيه الإصلاحي وأتاحت فرصة توجيههم وإعدادهم للقيام بدورهم هذا، وبذلك مثلت الطلائع الطلابية للأوراسيين الذين كانوا ثمرة التعليم الباديسي الجسر الذي تمر عليه الأفكار الإصلاحية إلى الداخل الأوراسي²، وقد ظهر ذلك منذ أن كانوا طلبة حيث نقلوا أثرهم إلى إقامتهم، فكم كان احتفاء الاستقبال للطلبة العائدين من قسنطينة من قبل أهل قريتهم، و تسامع خبر مجيئهم من قبل أقرانهم الذين سوف يدفعهم فضولهم للإطلاع على أحوالهم، وكم كان ميسور ملاحظة ما حصل لديهم من تغير وتقدم في

¹ - محمد الصالح الجابري: النشاط العلمي مرجع سابق، ص78.

² - Fanny Colonna: Les débuts de L'Islah dans L'Aurès 1936-1938 Revue Algérienne des sciences juridiques économiques et politiques V X I V N° 2 Juin 1977 office des publications universitaires Algérie, p 277.

سلوكهم وثقافتهم ولغتهم وفي آدابهم ونظامهم بفضل ما حصلوا له من تعليمهم الباديسي، هذا التحول كان يلفت النظر إليه حتى من قبل الآباء، الذي كان وبلا شك يدعوهم أن يكون لأبنائهم ما هو لهؤلاء، لذلك سوف يكون في الموسم القادم تزايد في قائمة الوافدين على قسنطينة قاصدين دروس الشيخ ابن باديس.

كما كان احتكاك الطلبة بأقرانهم من سكان إقاماتهم ومحادثتهم التي كانت تنطوي على أخبارهم وظروف تعليمهم وتوعيتهم بأهمية التعليم الباديسي وميزاته وتشجيعهم على الالتحاق مثلهم بالجامع الأخضر، كما سينقلون صورة شيوخهم وعلى رأسهم الشيخ ابن باديس بتبجيلهم وإجلالهم وتصحيح الأفكار السيئة عليهم ونقل الصورة الصحيحة لهم، مما يجربونهم فيه ويزيلون كل توجس في تعاليمه.

ولم يتوقف دور هؤلاء الطلبة أثناء عطلة عند التحريض والدعوة للالتحاق بالدروس الإصلاحية للشيخ ابن باديس فقط، بل كانوا يستغلون أوقات فراغهم أثناء عودتهم إلى إقامتهم، لإلقاء الدروس في المساجد والمشاركة في التعليم وتحفيظ القرآن في الكتاتيب فمثلا عرف أحمد السرحاني الانخراط المبكر في الدعوة والنشاط الإصلاحي بالأوراس وهو طالب بالجامع الأخضر من 1936 م إلى 1940 م فكان يقدم دروسا تعليمية بالإضافة إلى الوعظ والإرشاد¹، ومساهمته في تأسيس أول شعبة أوراسية سنة 1936 م.²

كما كان الطلبة السابقين في مرحلة دراستهم وانضمامهم إلى الجامع الأخضر يتعهدون بالعناية والنصح والاهتمام للطلبة الوافدين الجدد من أبناء منطقتهم بالأوراس، وهذا ما عرف على عمر درودر أثناء فترة دراسته وإقامته بقسنطينة وأيضاً محمد الغسيري الذي لازم الجامع الأخضر طويلاً بطلب من الشيخ ابن باديس.³ وبعد العودة النهائية لثلة من الطلبة بعد استكمال دراستهم عند الشيخ ابن باديس ساهموا في مستقبل الثورة الثقافية للأوراس من خلال مدهم الحركة الإصلاحية بالمنطقة، وتأسيس نشاطاتها وتأييدها بشكل فعال ما ساهم في قلب الأوضاع الثقافية والاجتماعية وحتى السياسة في المنطقة، وحققوا نجاحاً باهراً في البرنامج الإصلاحي الذي يهدف إلى نهضة وإيقاظ الجماهير.

فهؤلاء الطلبة كانوا جنود الإصلاح والذين توعد فيهم الشيخ ابن باديس نجاح مشروعه وعول عليهم في كسب رهانه في المنطقة وهو الذي عرف خصائصهم النفسية والاجتماعية كالروح القتالية والاستماتة الكبيرة في أداء الواجب، بذلك مثل هؤلاء الطلبة القناة التي مرت من خلالها الأفكار الإصلاحية إلى المنطقة.

وقد عرفت الفكرة الإصلاحية تطورها وقوة نشاطها بإقدام الطلبة العائدين من الجامع الأخضر بتأسيس المؤسسات التنظيمية للحركة الإصلاحية لجمعية العلماء، وقد كان أول ظهور للجمعية المحلية بالأوراس بتأسيس الشعبة الأوراسية في أوت 1936 م بميدوس بمنطقة وادي عبيدي، ويقف تقرير حاكم أريس عند هذه الحادثة

¹ - مقابلة شخصية مع السيد صالح تمقلين باتنة يوم 25/08/2009.

² - انظر محضر تأسيس الشعبة الأوراسية أدناه.

³ - مقابلة السابقة مع السيد دروف محمد الهاشمي

فتقول: ((لقد زاول أربعة أوراسيين أبناء مرابطين دراستهم بالجامع بقسنطينة تحت إشراف ابن باديس، وكان هؤلاء التلاميذ الأربعة أعضاء للشعبة الأوراسية للعلماء المؤسسة في أوت 1936م بينما الأعضاء الآخرون في اللجنة المديرية يمثلون عائلات مرابطة هامة مناصرة للزاوية الرحمانية لتبرماسين وتلميذ آخر من قرية غوفي.))¹ وقد جاء أيضا في محضر تأسيس الشعبة الأوراسية، أن الشعبة تأسست من قبل الشيخ عمر دردور مع مجموعة الشيوخ والطلبة وكانت تركيبها كالآتي:

- عمر دردور: رئيس الشعبة الأوراسية المعتمد من طرف الجمعية
- الأمير صالح.
- محمد يكن الغسيري.
- أحمد تمقلين السرحاني.
- محمد الصالح زموري.
- عبد الواحد واحدي.
- رشيد صالح.
- أحمد بهلولي.

أما الأعضاء الإضافيون فهم: -محمد بلحسين بن عباس - مسعود بلعقون -بومعراف بن حاية.² وقد عرفت السنة الموالية سنة 1937 م ازدهار نشاط هذه الشعبة، إذ بعد هذا التأسيس تقرر من قبل قادة الإصلاح بالأوراس تكوين في كل دوار شعبة محلية تتكون من³:

- رئيس الشعبة.
 - نائب رئيس الشعبة.
 - كاتب الشعبة ونائبه.
 - وأمين المال للشعبة ونائب أمين المال.
 - وستة (6) أعضاء مستشارين وأعضاء عاملون.
- وبذلك تكونت عشر (10) شعب كانت مهمتها تكوين الجمعيات الدينية والإصلاحية في مختلف دواوير الأوراس وهي:

¹ -ANOM, 10H/90, GGA une nouvelle phase de l'Histoire turbulente de l'Aurès: le conservatisme berbère aux prises avec le réformisme des Ouléma 1938.

² - محضر تأسيس الشعبة الأوراسية لجمعية العلماء بجيدوس، أرشيف ولاية قسنطينة AWC. Inventaire analytique des archives privées saisies en Mai 1945 boîte N° 05 Mohamed ben Ahmed El Mansouri El Ghassiri .Constantine

³ _ Ibid.

- الجمعية الدينية الإسلامية بوادي عبدي حيدوس.
- الجمعية الدينية الإصلاحية بدوار بوزينة مقرها أم الرخاء.
- الجمعية الدينية الإسلامية بدوار غسيرة مقرها غوفي.
- الجمعية الدينية الإسلامية بدوار زلاطو مقرها اينوغسين.
- الجمعية الدينية الإصلاحية بدوار وادي الأبيض مقرها اريس.
- الجمعية الدينية الإصلاحية بدوار منعة مقرها منعة.
- الجمعية الدينية الإسلامية بدوار شير مقرها مدرونة.
- الجمعية الدينية الإصلاحية بدوار مشونش مقرها مشونش.
- الجمعية الدينية الإصلاحية بدوار وادي الطاقة مقرها بوحمارة.
- الجمعية الدينية الثانية بدوار زلاطو مقرها تكوت.

هذه الجمعيات المحلية تكونت من أفراد يؤمنون بمبادئ وأهداف الحركة الإصلاحية، وقد كانت أهداف

ونشاطات هذه الجمعيات تتمثل أساسا في:

- فتح الكتاتيب القرآنية.
- بناء وتشديد المدارس الإصلاحية الحرة.
- بناء وإصلاح المساجد الحرة.
- إنشاء النوادي.
- تعيين الأئمة بالمساجد والمعلمين بالمدارس.
- تنظيم اللقاءات والدروس العلمية والوعظ والإرشاد.
- التكفل بتسديد أجور المعلمين.
- السهر على جمع الأموال والتبرعات لصناديق الجمعيات المحلية التي كان مصدرها أعضائها وأنصار الإصلاح ومن تبرعات المحسنين ومن أموال الزكاة.¹

وقد مثلت هذه النشاطات والأعمال التي تحملتها الجمعيات المحلية الدعامة الحقيقية لنشر الحركة الإصلاحية

في القاعدة الشعبية.

كما لعبت الأندية دورا كبيرا في انتشار وتعميق الأفكار الإصلاحية خاصة لدى الشباب، وقد كان لهذا المظهر المؤسساتي الجديد في الأوراس جاذبيته إذ بفضل استطاعت الحركة الإصلاحية بالمنطقة استيعاب أعداد معتبرة وتعوضه لدور المؤسسات التقليدية كالزوايا خاصة في أدوارها ووظائفها الثقافية والاجتماعية التي تخلت عنها، أو حتى ساحات الترفيه بالحي أو الدوار، والتي كانت تراكم التصورات والأفكار التقليدية والقديمة، وبذلك

¹ - محمود، الواعي: مرجع سابق، ص 224.

ظهر النادي كوسط ومؤسسة ثقافية واجتماعية عصرية توجه وتوحد جهود التوعية، زيادة على مساهمتها في تنظيم النشاطات بأهداف تخدم الفكرة الإصلاحية.

والحق أن الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء في منطقة الأوراس قد راهنت على أهمية الأندية ودورها في الوصول إلى أعداد معتبرة من فئة الشباب، وإذا كان أول نادي تأسس بالمنطقة ببلدية باتنة ((نادي الإصلاح)) سنة 1933 م، فقد استغله الإصلاحيون من الوهلة الأولى في نشاطاتهم، فتذكر المصادر أن أقدم الشيخ ابن باديس منذ خلال زيارته للأوراس قد استغله في تقديم العديد من المحاضرات¹، وبعد سنة 1937 م أقدمت الجمعيات المحلية لجمعية العلماء على إنشاء النوادي الخاصة بها بالمنطقة، والتي وصل عدد عند أكتوبر 1937 م ستة و عشرون(26) ناد بكل دائرة باتنة، كان أغلبها ملك للحركة الإصلاحية، كما استغلت حتى النوادي الأخرى التي كانت تحت تصرف التنظيمات الأخرى خاصة المتعاطفين والمتعاونين معها²، وقد عبرت الإدارة عن هذا التطور السريع في إنشاء الأندية الإصلاحية فجاء في نفس تقرير السابق لحاكم أريس : ((خلال بضعة أشهر شهدنا عدد من النوادي والمراكز الثقافية للاجتماعات يستمع فيها الأعضاء والمواطنين لدروس وخطب العلماء...))³، هذا التوسع في إنشاء الأندية يدل على تفضن ناشطي الإصلاح بالأوراس لدورها المهم كما يدل على كثافة نشاطاتها التي كانت تهدف من وراءها إلى إخراج الشباب المسلم من الانحطاط الثقافي و الحضاري وتثويره و تكوينه تكوينا ثقافيا وحضاريا واستثمار أوقاته فيما يعود عليه بالفائدة.

وأیضا مثلت المدارس والمساجد أهم المؤسسات التي روجت للحركة الإصلاحية من خلالها لأفكارها، وقد تميزت الأوراس بهيمنة النشاط التعليمي والتربوي للإصلاحيين مقارنة بالنشاطات الأخرى، وقد أدرك الإصلاحيون أهمية المدرسة في تربية الناشئة والمسجد في استدراك الوعي للكبار من الكهول والشيخوخ، والتعويل عليهما في مقاومة الجمود والتخلف الثقافي و الثقافة الفرنسية معا، وقد وجدت مساعي الإصلاحيين بالأوراس توافق مع إرادة ورغبة السكان التي تزامنت مع وعيهم بأهمية تعليم أبناءهم، الأمر الذي كان وراء انتشار مؤسسات مدارسهم وكتاتيبهم ومساجدهم في كل مداشر وقرى المنطقة.⁴

كما ساهمت اللقاءات التي قام بها ناشطي الإصلاح بالأوراس ودروس الوعظ والإرشاد التي نظمتها الحركة الإصلاحية في الأوراس من قبل المبعوثين، فحضر الأوراس كان وافرا من الرجال العاملين التي كانت جمعية العلماء

¹ - عمار، هلال: أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1962، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص237.

² - عبد الحميد، زوزو: الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي (التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية) 1837-1939، ترجمة مسعود حاج مسعود، ج2، دار هومو للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005.

³ - AOM, 10H/90, Op.Cit.

⁴ - انظر فصل الثاني الباب الثاني عن جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم ص ص274_333.

قد وزعتهم على مختلف الأحواز لتقديم دروس الوعظ والإرشاد بالمساجد المختلفة لأحواز الأوراس¹، وقد كان شهر رمضان من أحسن الأوقات وأكثر ملائمة وهذا لتلاقي عدة عبادات فيه لها أثرها على النفس، الأمر الذي يسهم في نفوذ دعوات الخير إلى القلوب والنفوس، وقد كانت مضامين الدروس تتمحور حول إصلاح العقيد والنصح وغرس معاني أخلاقية لتزكية المجتمع كالتأكيد على قيمة الشرف والرجولة ومحاربة المنكرات والمفاسد كالكذب والغيبة والنميمة والخصام والخلافات...² وقد عرف على ناشطي الإصلاح حركتهم الحثيثة وتنقلاتهم الدؤوبة في مختلف أحواز الأوراس وأثناءها كانوا يجتمعون مع القاعدة الجماهير ناقلين لهم تعاليمهم الإصلاحية كما كانت تنقلاتهم تستهدف قيادات وأعيان القبائل والجماعات الدينية، وقد ساعدتهم انتماءات أغلبهم لعائلات مرابطية في النفوذ إلى هذه الأوساط والاستجابة إلى دعوتهم، فعرف على الشيخ دردور هذه اللقاءات التي كان يقيمها في مختلف مناطق الأوراس والتي كان يعتمد في تنقلاته إليها على ظهر حصانه.³

كما أيضا لعبت صحافة الحركة الإصلاحية دورا هاما في نقل أفكارها والوصول بها إلى الجماهير الأهلية على مختلف مناطقهم، وقد اعتمدت الحركة الإصلاحية العديد من الصحف لتبليغ أفكارها والتعريف بنفسها والدعاية لأهدافها، وقد كانت هذه الصحافة في منطقة الأوراس ذات تأثير بالغ، لما حضيت به من تعلق الشبيبة بها، لما رأته فيها من ميزات ثقافية وعلمية، فكانت تحمل مقالاتها ومضامينها أهدافا تعليمية وفي الآن نفسه تصحيحية دينية، فمثلت بذلك مدارس متحركة قربت المسافة وحققت التواصل بين قادة الإصلاح والجماهير على مختلف إقامتهم، وقد ساهمت إلى حد ما في تطوير الأذهان ووعي الجماهير نحو الفكرة الإصلاحية، وبذلك استطاعت في مدة وجيزة لأن تأسس لرأي إصلاحي حتى عند أولئك الذين لم يلتحقوا بمؤسساتها أو لم تصل إلى مناطقهم مؤسسة المدرسة والمسجد والنادي الإصلاحي.

لقد رأت فيها الجماهير الأوراسية أنها صحافتهم الحقيقية التي تعبر عن أفكارهم وأحلامهم ووجدانهم، فقد ملئت فراغا ظل موجودا لفترة طويلة، فظهرت العديد من الأقلام الأوراسية التي تراسل هذه الصحافة ناقلة لأخبار وأحوال الأوراس كما مثلت لهم منبرا ملائما لأفكارهم وآراءهم، كما وجدوا فيها ضالتهم فكان كثيرهم حريصا على الالتزام بمطالعتها.

إن الحضور الكثيف للمؤسسات الإصلاحية وانتشارها السريع وفعالية نشاطاتها ذات الطابع التربوي والثقافي والخيري الاجتماعي والإقبال الجماهيري الواسع عليها يدل على مدى الانتشار الكبير للأفكار الإصلاحية في الأوراس فما هي العوامل التي ساعدت الحركة الإصلاحية على الانتشار في منطقة ريفية تحمل

¹ محمد، خير الدين: مذكرات، ج1، مصدر سابق، ص266-267-268. ومحمد خير الدين، مذكرات، ج2، صدر سابق، ص95-96-97.

² محمد البشير الإبراهيمي: دروس الوعظ في رمضان، البصائر، العدد 125، 21 ماي 1951.

³ - المقابلة السابقة مع السيد عبد الباسط دردور.

خصائص ثقافية واجتماعية ريفية لا تتوافق غالبا مع الفكر الإصلاحى المدبني (نسبة إلى المدينة) ومعروف بهيمنة الاتجاه المرابطي المتعارض مع الفكر الإصلاحى.

- دور زيارات الشيخ ابن باديس في رسم إستراتيجيته الإصلاحية وذلك من خلال زيارته المتكررة والمتباعدة نسبيا في الزمن (1918-1920-1926-1933)، والتي وقف من خلالها على أوضاع وخصوصيات المنطقة من الناحية الاجتماعية والثقافية ومصادر التأثير فيها، كما وقف على مدى التطورات والتحويلات التي حدثت بها من زيارة لأخرى، فبالإضافة إلى معرفة حاجات الأوراس فقد استطاع أن يحدد خصائص ونوعية قادة وناشطي الإصلاح الملائمين للمنطقة، وأيضا استطاع أن يرتبط بصلات المحبة والوفاق مع شخصيات و العائلات ذات التأثير، والمتمثلة في مشايخ و قادة الزوايا مما طمئنهم وأزال كل المخاوف وهواجس التي كانت تصلهم عنه وعن فكرته.

وبذلك صنعت في زيارته ابن باديس للأوراس صلة عاطفية وروحية بينه وبين جماهيرها التي كانت في ظل غياب زعامة دينية أهلية تتلمس وتبحث عن قيادة من نوعه فكانت بذلك زيارته تأسس لمقامه الروحي الذي سوف يمهّد لفكره.

- تعلق الجماهير الأوراسية بالدين الإسلامي لبقاء شعورهم فيه حيا- بغض النظر عن التشويه الذي كان عليه. - وهذا سبب عدم تعرض المنطقة لعنف المؤسسات الكولونيالية¹، وذهب الغسيري إلى هذا التفسير في تقريره فيقول: ((...لم يكن أحد يفكر في أن جبال الأوراس، ستنقذ من نومها الطويل والعميق في مدة وجيزة لا تتجاوز ثلاثة سنوات هذا التيقظ، ولكن قسما يدين بالإسلام ويعتز بالقومية ويفخر بالعربية لغة الوحي المحمدي والدين الإلهي السمح على خلقه لسريع الانقلاب وسريع التأثير بالروح الدينية الحقة والوطنية الصادقة...))²، فالشيخ الغسيري يرجع هنا الإقبال السريع على الفكرة الإصلاحية من قبل الأوراسيين إلى بقاء الشعور الديني لديهم خاما ونفحته باقية فكان نداءهم سريع الاستجابة.

- أحسنت الحركة الإصلاحية اختيار ممثلها في الأوراس، هذا الاختيار الذي كان إستراتيجية الشيخ ابن باديس الذي قد يكون قصد عمدا التركيز على أبناء العائلات المرابطية التي تتوفر على النفوذ والمكانة الاجتماعية من قادة النشاط الإصلاحى بها، فالميزات التي حضى بها هؤلاء الناشطين الإصلاحيين والمتمثل في المزوجة من الانتماء الطريقي الذي فرضه نشأتهم وأصلهم العائلي المرابطي من جهة وبين الفكر الإصلاحى بوصفهم ثمرة التعليم الباديسى من جهة أخرى، هذه الميزة قد أهلت الحركة الإصلاحية أن تجد الإطارات الملائمة والمناسبة لها في بيئة تقليدية ومرابطية كالأوراس، وبذلك استطاعت هذه الفئة تحقيق التعايش والتناقص بين فكرتين لطالما كانوا محل صراع وتعارض دائمين.

¹- Colonna, Op.cit, p35.

²-تقرير الشيخ الغسيري على سير الإصلاح AWC. Inventaire analytique des archives privées saisies en Mai 1945 boîte N° 05 Mohamed ben Ahmed El Mansouri El Ghassiri Constantine.

كما ساهم انحدار ناشطي الإصلاح من عائلات مرابطة صاحبة المكانة الدينية والاجتماعية فمناحتهم احترام والتقدير من قبل المجتمع، وهذا بدوره منحهم ميزة والنفوذ والتوغل في الأوساط الاجتماعية بمحيمية دون أن إثارة الاعتراض والرفض من أفكارهم أو نشاطاتهم.

- التحولات التي عرفتها الأوراس والتي ساهمت في تطور الأذهان والخروج من قبضة التعاليم المرابطة التقليدية، ولعل أهم عوامل هذا التحول هو الحراك السياسي الذي شهدته المنطقة من خلال نشاطات الأحزاب ولقاءاتهم وسجلاتهم التي كانت ترافق منافستهم في المناسبات الانتخابية، فكانت باتنة وهي العاصمة الإدارية للأوراس مركز استقطاب للعديد من الشخصيات الوطنية وفيها كانوا يعرضون وجهات نظرهم وبرامجهم المختلفة المشاريع، مما ساهمت في الدفع بالوعي الأهلي نحو قضايا الساعة وإدراكهم لحجاتهم وحقوقهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وقد أحست هذه الجماهير بقرب الحركة الإصلاحية في تعبيرها عن مطالبهم وحاجاتهم، وبذلك لم تكن هناك منظمة وطنية منافسة للعلماء بسبب الحركات الأخرى كانت بينها وبين الجماهير مسافة كبيرة كما أنهم كانوا عاجزين على التوغل في الجماهير.

- كما ساهمت نفسية الأوراسي اتجاه الاستعمار إلى التقرب من الحركة الإصلاحية ذلك إن كل عائلة أوراسية بقيت تحفظ صوراً وذكريات القمع والهمجية الاستعمارية عند دخوله الأوراس وتوريثها لأبنائها، وقد نظرت الجماهير الأوراسية إلى النشاطات الإصلاحية على أنها نوع من المقاومة للاستعمار وبذلك قد حقق لها شيئاً في نفسها، وانضمت إليها كنوع من الجهاد والمقاومة ضد المحتل.

- إن الاحتكاكات البسيط بين الثقافتين الأوروبية والأوراسية قد أحدثت حالة ثقاف، بينما لم يفقد الأوراسيون لقيمهم وثقافتهم والتي كانت تحرسها بصرامة القبيلة والطريقة، ورغم حدوث تنازلات ثقافية بفعل قوة الآخر (الفرنسي)، هذه التنازلات وبفعل تراكمها عبر السنين، وحتى مجيء العشرينيات من القرن 20م أدت إلى ظهور تحولات في أوساط الشباب عن التقاليد المرابطة والتي أصبحت بالنسبة لهم بالية وساذجة، كما نظروا إلى الثقافة الأوروبية نظرة غريبة، فكانت الفكرة الإصلاحية قد جاءت في لحظتها التاريخية المناسبة، فمثلت لهم البديل المناسب لمشروعها الجديد الذي أخذ بالنسبة لهم الوسطية بين المشروعين، مشروع التغريب ومشروع الجمود، وبذلك كان التجايل (تدافع الأجيال) يصنع المستقبل لصالح الأفكار الإصلاحية، بحكم ميول الشبيبة إلى التغيير والرغبة في الحصول على معرفة أكثر عقلانية من الأجيال السابقة.

- إن الدخول المتأخر نسبياً للحركة الإصلاحية لمنطقة الأوراس قد جعلها تصل في مرحلة نضوجها، وبذلك كانت قد تجاوزت الصعوبات الاجتماعية والنفسية للأهالي، كما كانت الفكرة الإصلاحية قد قوى عودها في الوطن ووصل صداها إلى كل أنحاءه، وبذلك تكون الأوراس قد عرفت تقديماً للفكرة الإصلاحية من قبل نشاطات بسيطة لأنصارها، مما جعلت دخولها سنة 1937 يكون دخول هادي وتدرجي لا يثير المفاجئة والرفض.

إضافة إلى مختلف التأثيرات الداخلية والخارجية التي عرفها الوضع التعليمي والثقافي في الأوراس جعل من القيادات المرابطة المتبصرة إلى إدراك اتجاه التحولات الثقافية والدينية لذلك سارعت هذه العائلات في إعداد أبنائها لهذا المستقبل، وخاصة أنها لا تجد حرجا كبيرا مع الأفكار الجديدة لما عرف عليها من أنها لم تكن من أصحاب المصالح والمكاسب، فهذه الزوايا عرفت التهميش والإضعاف من قبل الإدارة بسبب مواقفها منها و التي يعتبر امتداد لجهادها ومقاومتها الأولى، كما أن هذه الزوايا استطاعت أن تحافظ على تراث التدين والخدمة الدينية التي تركها مشائخها المؤسسين، فمثلا زاوية صديق بالحاج أو الشيخ الهاشمي الدردور أو مولى القرقور فهذا النزوع الديني لهذه الزوايا أبقى على غيرتها على الدين الذي من خلاله بنت موقفها من الحركة الإصلاحية التي رأتها شكلا من المقاومة الدينية للاستعمار، لذلك لا نستغرب أن تبني تحالفات معها.

وصفوة القول لم تكن التحولات التي أحدثها الاستعمار في المجتمع الجزائري قد جرت بنفس الوتيرة، وهذا يعود إلى عدم خضوعه للاستعمار بنفس الشكل، ومنطقة الأوراس إذا ما قورنت بباقي مناطق الشمال فان الحضور الفرنسي لم يبلغها بشكل كبير يمثل ما بلغه في مناطق أخرى ولعل هذا ناتج عن اثر طبيعة المنطقة التي كانت تمثل نوعا من الدفاع الذاتي ضد الغزو، فقلة مواردها وضعف تربتها وقساوة مناخها وصعوبة تضاريسها، وبذلك لم تكن تتوفر على ما ياستهويه الكولون مما انعكس على قلة وضعف الهياكل المدرسية الاستعمارية.

كما كان للطبيعة القبلية والاجتماعية للسكان المتميزة بالانغلاق على نفسها أن تتحاشى أي انفتاح وتواصل مع الآخر الغازي ولعل حتى هذه الإستراتيجية الدفاعية كانت سلوكا غريزيا عند الإنسان الأوراسي استمده واحتفظ به من تجارب وميراث أجداده مع كل الغزاة عبر التاريخ الطويل للمنطقة.

كل هذه الأسباب تركت المنطقة تعيش حالة التهميش والعزلة مع الماضي بعيدة عن كل التحولات التي أحدثها الاستعمار في أغلب بني المجتمع الجزائري والتي دفعته عنوة إلى التحديث والأخذ بعناصر العصرية عبر مؤسساته الإدارية والاقتصادية (الزراعية والصناعية) والطبية والتعليمية وأنتجت فيه قوى جديدة تقاوم من اجل حياة هذا المجتمع وتدفع بحراكه الاجتماعي والثقافي نحو شكل جديد يأخذ زمام المبادرة لتمثيل المجتمع في صراعه مع الاحتلال.

واستنادا إلى الأرقام والتعليقات المبينة في متن الفصل التي تبين حجم التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فإن الوضع في الأوراس يعبر بصورة كارثية عن حيف وجور السياسة الاستعمارية التي أضيفت إلى صعوبات التأخر في الميادين السابقة بسبب انطوائه على نفسه وتفوقه في جغرافيته وجود عاداته وتقاليده.

غير أن الأوراس مع العقد الثاني للقرن 20م عرف تحولات وإن كانت بطيئة إلا أنها استطاعت أن تساهم في إحداث تغييرات كبيرة في البناء الثقافي والاجتماعي للأوراس. فالأوراس المنطقة الريفية التي عرفت بصرامة التزامها بعاداتها وتقاليدها ورفضها لكل جديد وافد والتي حمته بعزلتها الجغرافية بفعل حصانة جبالها ودعمته بصرامة التنظيم القبلي و انفراد المرابطة بسكانها وانكفاءها على أي تواصل مع الاستعمار، قد لاحت أفق تحولاتها من

عقد العشرينات من القرن 20م ببداية دخول الفكر الإصلاحى إليها، هذا الفكر المعروف بوجوده فى بيئة مدنية إلا أنه مع منتصف الثلاثينات من القرن 20م انتشر الفكر الإصلاحى ونمت مؤسساته وأقبلت عليه الجماهير الأوراسية ومن الغريب فى الأمر أن يؤطر من قبل أبناء عائلات مرابطة كما وجد الحماية والدعم من قبل الزوايا بالمنطقة وهى المؤسسات والأفراد الذين عادة ما يشكلون الجبهة المناقضة للإصلاحيين لتعارض تعاليمهم ومصالحهم مع الإصلاح.

الفصل الثاني

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم.

نتناول في هذا الفصل شخصيات إصلاحية أوراسية مارست نشاط التعليم الإصلاحي بالمسجد والمدرسة وقد كان تعليمها متميزا يرقى إلى مصاف ميزات التعليم الإصلاحي الذي تبناه فريق الإصلاح لجمعية العلماء، وتجدد الإشارة إلى تصنيفنا بين ما هو تعليم مسجدي وتعليم مدرسي كان صعب لتعدد نشاط التعليم عند رجال جمعية العلماء حيث جمع أغلبهم نوعي التعليمين معا، وهو ما ظهر في منطقة الأوراس جليا ومع الحالات التي سوف يأتي عرضها، لكننا تبينا اجتهادا بسيطا في التصنيف وذلك باعتمادنا في التعليم المسجدي معيار الشخصيات التي كان حضور تعليمها أكبر من خلال المسجد وإن مارست التعليم المدرسي كما هو الحال عند الشيخ محمد الطاهر مسعودان الحركاتي، بينما صنفنا رجال التعليم المدرسي من الشخصيات التي ركزت جهودها بالمدرسة.

المبحث الأول: التعليم المسجدي بالأوراس

تقدم التعليم المسجدي النشاطات الإصلاحية الأخرى في الجزائر ويبدو أن هذا الحال نفسه في العالم الإسلامي و عبر كامل تاريخ الأمة الإسلامية وهذه المنزلة العظيمة في حياة المجتمع المسلم أفتكها من جدارة التأسيس التي تعود للرسول "ص" فقد كان نواة التفكير والقرار لكل ما يخص شؤون وأحوال المسلمين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وعليه سارت الأمة وإن مع الزمن بدأت تتفرع عنه مؤسسات تنزع عنه بعض الوظائف بداية من الوظيفة السياسية ونحوها، غير أنه حافظ على النشاطات الدينية التعبدية والثقافية وبقي ملتزما بها حتى أصبح معروف بها ومعروفة به، فبقي مكان نشاطات للدعوة والتبشير للإسلام والتعليم.

فالشيخ ابن باديس كانت بداية حركته التعليمية بالمسجد الأخضر ومسجد سيدي القموش، وهذا أيضا ما عرف عند بواكير الإصلاحيين في الأوراس، فكان المسجد بداية للتعليم الإصلاحي الذي كان يقدمه الشيخ بلقاسم الفرحي والشيخ الجموري والشيخ الجموعي مازوزي...

وللأهمية البالغة للمسجد في الحياة الإسلامية سهرت الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء على إعادة إحياء أدواره التي تقلصت بفعل السياسة الاستعمارية، كما عملت على إحداث ثورة في نظامه بنقله من الصورة التقليدية إلى صورة عصرية فيها يتم توسيع دوره من مكان للعبادة إلى مركز للتعليم وإشعاع الثقافة العربية الإسلامية¹.

وحتى بعد افتتاح المدارس من طرف جمعية العلماء والتي أصبحت تمثل عماد حركتها التعليمية إلا أنها لم تغفل عن دور المسجد التعليمي، لذلك كان الشيخ عبد الحميد بن باديس دائم الدعوة إلى التعليم المسجدي، ومما جاء في إحدى دعواته قوله: ((... إذا كانت المساجد معمورة بدروس العلم فإن العامة التي ترتاد المساجد تكون

¹ - أنظر العربي التبسي: مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، القسم الثاني، جمع وتعليق أحمد شرفي الرفاعي، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، ط1، 1984، ص20.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

من العلم على حظ وافر وتتكون فيها طبقة مثقفة الفكر صحيحة العقيدة، بصيرة الدين، فتمتكن هي في نفوسها ولا تحمل، وقد عرفت العلم وذائق حلاوته -تعلم أبناءها- وهكذا ينتشر العلم في الأمة ويكثر طلابه...¹، هذه الدعوات تركت جمعية العلماء وجمعياتها المحلية تتبنى في أهدافها تشييد وبناء المساجد والإشراف على تسييرها على نحو يوجهها لخدمة التعليم للفئات التي تقصدها.

والحق أن الجمعيات المحلية لجمعية العلماء في الأوراس سهرت هي الأخرى على بناء وتشييد المساجد التي أنشأتها من تبرعات وجهود المواطنين ومعونات المحسنين، كما أحيت المساجد القديمة التي زاد روادها من الكبار والصغار، وقد ساهم امتلاك الجمعية للمساجد في استقلالها عن الإدارة وتحرر رسالتها التي تتعارض مع السياسة الفرنسية².

والجدير بالذكر أن هذه الفترة قد عرفت بروز عدة مشائخ في منطقة الأوراس يمتلكون تكويننا ثقافيا وعلميا واسعين في العلوم الشرعية واللغوية، وقد ساهم في مستواهم هذا تعلمهم على يد مشائخ تجاوزوا التعليم التقليدي، كما تزامنت ظروف تعليمهم مع الصحوة التعليمية والدينية التي عرفها العالم الإسلامي عموما والجزائر خصوصا، وإذا كان منهم من درس بجامع الزيتونة وجامع الأزهر الشريف، فإن أغلبهم كانوا طلبه للشيخ عبد الحميد بن باديس الذي كان بالإضافة إلى عمله على توجيههم العلمي يركز على توجيههم الإصلاحية الحركية للدفع بهم إلى جماهيرهم.

والحال أن أغلب مناطق الأوراس عرفت مساجدها نشاطا تعليميا حظي فيه الصغار بالتربية والتعليم واستدرك فيه الكبار المعرفة الدينية اللازمة في حياتهم وعبادتهم، بل إن بعض المساجد وبفضل جهود مشائخها تحولت إلى معاهد صغيرة في منطقتها تشعها بالعلم والمعرفة.

ومن أجل تقريب واقع التعليم المسجدي بالمنطقة فقد وقع اختيارنا على أنموذجين مثلا للتعليم الإصلاحية لجمعية العلماء بالمنطقة، وقد تشابهت معهما المساجد الأخرى بدرجات متفاوتة والمسجدين اللذان نقصدهما هما المسجد الجديد بباتنة الذي رسم مشروعه التعليمي وأسسها الشيخ محمد الطاهر مسعودان الحركية، ومسجد قرية ورقة الذي نشط فيه التعليم الشيخ علي بن شكشوك مدور، وقد كانا لهذين الرجلين مساهمة عميقة في الجهد التعليمي بالمنطقة والفضل الكبير فيما سوف تعرفه المنطقة من ازدهار في هذا المجال:

¹ - ابن باديس: الشهاب، ج11، م6، ديسمبر 1930، ص692.

² - محفوظ قداش وآخرون: المرجع السابق، ص246.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

المطلب الأول: جهود الشيخ محمد الطاهر مسعودان الحركاتي:

أولاً- النشأة ورحلة التعلم:

ولد محمد الطاهر مسعودان المعروف "بالطاهر الحركاتي" سنة 1887م بإحدى مداشر ناحية حراكتة المعذر تدعى "أعزم" بضواحي عين ياقوت، كانت أسرته وكأغلب الأسر الأوراسية تشتغل في فلاحه الأرض¹، في هذه البيئة الجد تقليدية بمؤسساتها الاجتماعية والثقافية الصغيرة والهشة والعاجزة على بعث الحياة، التي كانت منتصبة هياكلها بحياء؛ غير قادرة على الاضطلاع بالحاضر، ولكن كان المجتمع الأوراسي لامناص له في مثل هذه الأرياف من الاعتماد عليها لتلبية شيء مما تفي من حاجاته للاستمرار والبقاء.

التحق محمد الطاهر مسعودان عند بداية مشواره التعليمي الأول بكتاب قرينهم، أين حفظ فيه القرآن في عمر الثانية عشر عاما (12 سنة) على يد إمام مسجدهم، أمام هذا التقدم الملحوظ في الاستيعاب والتحصيل الذي عكس قدرته وذكاءه استطاع أن يفتك تقدير عائلته لمواهبه هذه، فكان من عمه وأبيه أن قرر توجيهه للاستزادة من العلم فأرسله إلى زاوية سيدي محمد القرقوري، وهي الزاوية القريبة من سكنه التي كانت تتوفر على حد من المستوى العلمي في تلك المنطقة حتى ذلك العهد، فأخذ على مشائخها مبادئ الفقه واللغة العربية، وبعدها انتقل إلى باتنة ليواصل أخذ العلم على الشيخ علي بن المهدي الذي تعلم عنده العديد من فنون العلوم الشرعية وعلوم النحو والصرف.²

ولما حققه الطاهر الحركاتي من تقدم ووصل إليه من مستوى في المعارف أصبح يتطلع إلى الأخذ على مشائخ وعلماء جوامع العالم الإسلامي المعروفة في عصره، ولما أحسه أبيه وعمه فيه من طموح ورغبة في التحصيل والتفقه، قدروا فيه هذا الميل فساعداه على تحقيق رغبته لاستكمال الدراسة في جامع الزيتونة بتونس³ وهو الجامع الذي كان يقصده أبناء هذه الجهات الذين تجاوز أخذهم مستوى ما كانت تقدمه المدارس والزوايا المحلية.

بحلول الطالب الطاهر الحركاتي إلى جامع الزيتونة عام 1916م⁴، باشر تعليمه على يد علمائها الأجلاء كالشيخ بشير النيفر والشيخ النخلي القيرواني والشيخ الطاهر بن عاشور وغيرهم من فريق التعليم الزيتوني في ذلك العهد الذي تميزوا فيه بتضلعههم ومعارفهم الواسعة وعصريتها.

تلقى الطاهر الحركاتي تكوينا في العلوم الشرعية واللغوية وبعضا من العلوم العقلية، فحسب برنامج الزيتونة كانت تدرس مواد التفسير والحديث وعلم الكلام والفقه كما النحو والصرف والعروض والتاريخ..⁵، وإن كان الطابع الديني واللغوي هو السمة السائدة على التعليم في الزيتونة إلا أن مستوى مشائخه ونزعتهم الإصلاحية

¹ - بشير كاشة الفرحي: الإمام المفتي الشيخ الطاهر مسعودان الحركاتي، دار الأفاق الجزائر، ص 9.

² - المرجع نفسه.

³ - مقابلة شخصية مع الأستاذ نور الدين مسعودان، حفيد مترجما وأستاذ متقاعد للغة الفرنسية ووكيل عقاري، باتنة 16-03-2014

⁴ - المقابلة نفسها.

⁵ - علي بن بلقاسم: المرجع السابق.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

والعصرية وتوجههم العقلاني الذي حصلوا عليه بفضل تفتحهم وإطلاعهم على قدر من العلوم والدراسات الغربية الحديثة، ما جعلت من تكوينه يخرج من حالة البؤس التي كانت عليها مؤسسات التعليم العربي والديني في أغلب العالم الإسلامي وهو ما كان يلاحظ على مستوى خريجيه وطبيعة تفكيرهم.

خلال مسيرته التعليمية في الزيتونة التي تدرج فيها إلى نهاية مراحلها في مدة سبعة سنوات قضاهما مثابرا منكباً على الأخذ والتحصيل العلمي والفكري توجت بحصوله على شهادة العالمية¹، زيادة على حصوله على الكثير من الإجازات، كإجازة الشيخ النيفر له عام 1341هـ في العلوم النقلية والعقلية التي تعترف له بالعلم والمعرفة ويعترف له فيها هذا العلامة الكبير بلقب المشيخة كما ورد فيها ((... فأفضل ما يتحصن به الإنسان ويتجمل به في كل زمانه العلم الذي أعلى الله منزل... فمن تحلى بتلك الحلة وتحمّل بتلك الخلددة الشيخ الطاهر بنو مبارك الحركاتي... وسألني أن أجزيه إجازة تامة مطلقة عامة في كل مقروء ومسموع ومفرق ومجموع إجازة وإفادة ورحلة ومشيخة... فأقول وبالله استعانة... إني أجزه الابن العزيز والذهب الأبرير العلامة والفاضل الكامل والشيخ الطاهر المذكور في كل مروياتي النقلية والعقلية التي رويتها عن شيوخي...))².

أما إجازة ثانية حصل عليها في العام الموالي 1342هـ من أستاذه حسين عبوة المفتي المالكي بحاضرة تونس وأجزاه بما يلي: ((... الحمد لله عز شأنه والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أنزل عليه القرآن، وأنيط ببيانه... العالم الفاضل الطاهر بن مبارك الحركاتي باتنة وطلب مني الإجازة في مروياتي فأجزته في جميع مروياتي على أساندي الأعلام مشائخ الإسلام، سماعاً وإجازة في جميع العلوم المعقول منه والمنقول رواية ودراية وأخص علم الحديث إجازة تامة...))³.

تؤكد هذه الشهادات التي توج بها الشيخ الطاهر الحركاتي، ما لا يدعوا للشك ما بلغه الشيخ من علم ومعرفة وفي الآن نفسه تعد تزكية وتأهيل لصاحبها لتولي مهام التعليم والوعظ والفتوى وكل ما يتصل بمكنا مهام لمثل هذا المقام العلمي.

ساعده بالإضافة إلى تكوينه المعرفي والعلمي ما حصل عليه الطاهر الحركاتي من تكوين موازي؛ إصلاحياً وفكري، ويعود هذا لاستفادته من بيئتها العلمية والإصلاحية لما كانت تضمه من مشائخ وعلماء عرفوا بنبوغهم في شتى العلوم وروحهم الإصلاحية والتجديدية كما أسلفنا الذكر.

فضلاً عما كانت تعرفه المدينة تونس من جو فكري ساد مؤسساتها التعليمية والثقافية كالزيتونة ومدرسة الصاديقية وجوارها الاجتماعي الحضاري، من حراك وحيوية علمية وفكرية ميزت فضاءها، كالمحاضرات والدروس والصحف والنقاشات في المسائل العلمية والفكرية المختلفة والفعاليات الثقافية الأخرى.

¹ - المقابلة السابقة مع نور الدين مسعودان.

² - إجازة الشيخ النيفري انظر الملحق رقم ص04، ض 404.

³ - إجازة الشيخ عبوة حسين انظر الملحق رقم ص04، ص 405.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

زيادة على أخذه أسلوب وطرائق التعليم الجديدة التي حصل عليها من معایناته لأسلوب مشائخه ومعلميه الذين كانوا من رواد الإصلاح التعليمي والتربوي للتعليم العربي الإسلامي¹، وكذا ما استفاده من السنة الأخيرة التي كانت تمنح لتدريب المتخرج على التدريس، وقد كان لتزامنه لثورة التجديد التعليمي والتربوي التي عرفتها الزيتونة أثرها في إلتفاته لأهمية التنظيم والطرائق في نجاح مشروع التعليم.

كل هذه التكرمات في مسيرته كانت توجه الشيخ الطاهر الحركاتي للتتويج في أخذ زمام المهام التي تناط بمثل تكوينه بجدارة وعلى رأسها مهام الإصلاح والتعليم.

ثانيا: جهوده التعليمية:

بعد عودته من الزيتونة إلى موطنه سنة 1922م²، وكعادة المتخرجين من المؤسسات التعليمية العربية الإسلامية، انتصب الشيخ الطاهر الحركاتي للإمامة والتعليم، لقد كان أثر الفكرة الإصلاحية فيه زيادة إلى وعيه بأهمية العلم في نهضة المجتمعات وإيمانه بهذا الواجب اتجه بنوا جلدته وراء تأسيسه لأول حلقة تعليمية بمنزله التي أمها أبناء منطقته للدراسة بداية، وما إن لاحت سمعته المناطق المجاورة حتى بدأت وفادة أبنائهم إليه، ما اضطره إلى الانتقال لمسجد القرية³، الذي حوله إلى مركز علمي أحدث فيه إصلاحات هادئة تماشيا مع معطيات الواقع المشدود للتقليد والإمكانات المادية المحدودة.

فكان أن نظم هياكله بما تتيحه الإمكانيات فأنشأ فيه حمام حجرى لتسخين الماء لطلبته تسهيلا لوضوئهم ونظافتهم، واجتهد في الاتصال بدوي اليسر من أهل البر والإحسان لتمويل نفقات حاجات الطلبة المعوزين، كما نظم طلبته حسب مستواهم وأقر لكل مستوى درسه وكانت مواد اللغة العربية والتفسير تحتل مكانة مرموقة في برنامجه الدراسي⁴.

كان تعليمه على قلة الإمكانيات لوسطه، يقدم معرفة جديدة وبأسلوب أكثر حداثة مما كان معهودا في أغلب مؤسسات التعليم الحرة في الأوراس، لقد كان تأثير التعليم الزيتوني باديا بجلاء على أفكاره ومعارفه وحتى على طريقتة، وكان لجهده هذا أن أسس لسمعته العلمية والتي ساهمت في وصول أخباره مختلف مناطق الأوراس.

¹ - هناك ثلة من مشايخ الزيتونة المنتورين الذين نادوا بالإصلاح التعليمي للجامع وكان على رأسهم محمد الطاهر بن عاشور والذي جهر بفكرته بتأليف كتاب " أليس الصبح بقريب " عام 1903.

² - علي شيخ: محاضرة مطبوعة بعنوان "المرحوم الإمام الشيخ الطاهر مسعودان الحركاتي"، ملتنقى ذكرى علماء الأوراس، رجال الفكر والإصلاح، تنظيم نضارة الشؤون الدينية لولاية باتنة، 6 جويلية 1996، ص3.

³ - المكان نفسه.

⁴ - نور الدين مسعودان: المقابلة السابقة.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

كان من حظ منطقة الأوراس ومدينتها باتنة أن يتزامن افتتاح مسجدتها الجديد سنة 1924م مع وجود قامة علمية بها كالشيخ الطاهر مسعودان الحركاتي، فكان اختيار النخب الاجتماعية والسياسية والعلمية بباتنة لتوليه الإمامة به.¹

يبدو أن الشيخ الطاهر الحركاتي كان مصابا بشراهة في العمل التعليمي والوعظي الأمر الذي ساهم في عدم انخراطه في الصراعات السياسية التي كانت بمحيط المسجد²، ولعل توجهه الإصلاحية الذي يغلب المنهج التربوي والتعليمي في نخضة الأمة كان هو الموجه له في هذا الموقف، فتذكر روايات تلاميذه الأوائل أن دراستهم عند الشيخ الطاهر الحركاتي كانت مكثفة تتواصل صباحا ومساءً ولساعات من الليل³.

في البداية استلم الإمامة والتدريس في المسجد، وللجدارة التي أثبتتها في مهمته هذه افتك خطبة الجمعة والأعياد، وكان مع الأيام يتنامى نفوذه وقدره عند ساكنة الأوراس مما عززت فيه الثقة لإطلاق يده في المبادرة لتنظيم خطته وتطبيق تصوره الذي كان يحمله، فقد كان مسعى الشيخ الطاهر الحركاتي في مشروعه من المسجد الجديد إلى تجاوز وظيفته من مكان للعبادة فقط (الصلاة) إلى دور التعليم والفتوى بشكل يجعله مركز إشعاع علمي وديني ينير كل الأوراس.

رسم الشيخ الطاهر الحركاتي لجهده التعليمي برنامجا، يجعل جل وقته لهذه المهمة التي نذر نفسه لها، وتؤكد الرواية الشفوية أن الشيخ قسم يومه إلى فترتين، حيث خص الفترة الصباحية إلى طلبة العلم وقد عين موادها وضبط لكل مادة دروسها ولكل درس محتواه مراعى التسلسل والانتقال من العام إلى الخاص ومن السهل إلى الصعب ومن المعلوم إلى المجهول⁴ وهو ما كان يراه أنفع للتحصيل.

وتضمنت هذه الفترة تدريس علم النحو والصرف والعقيدة والفقهاء وهي المعارف المهمة في التكوين اللغوي والشرعي التي يجب أن يلم بها كل مباشر لطلب العلم الديني، وكان وضعها في الفترة الصباحية لما يحتاجه هذا النوع من المعارف إلى جهد وقدرة عقلية وهو ما يتوفر للطلبة في بداية اليوم.

وخصص الفترة المسائية للعامية من مرتادي المسجد، كما ألزم طلبته لحضورها لأهميتها في تكوينهم، كان يتناول فيها مواضيع التفسير وشرح الأحاديث الشريفة، مروراً بفقهاء العبادات والمعاملات وكل ما يحتاجه الناس في حياتهم اليومية أو ما يعرضونه من أسئلة في شكل طلب فتوى.

كانت الدروس المعنية للطلبة يتناول فيها الجانب العلمي والتأصيل المعرفي والنظري، قاصداً من وراءها التكوين العلمي فيها لتلاميذه، متدرجا في دروسها بخطة تنتهي بعد تراكم معارفها إلى الوصول لمستوى قد يكون حدده لتعيين طبقات طلبته الذين كان يعدهم لامتلاك قاعدة علمية متينة تمكنهم من الانتقال للدراسة بمعهد ابن

¹ - انظر عبد الحميد زوزو: الأوراس إبان فترة الاستعمار، مرجع سابق، ج2، ص 36.

² - المرجع نفسه، ص38.

³ - بشير كاشة الفرحي: المرجع السابق، ص 6.

⁴ - علي شيخ: المرجع السابق، ص4.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

باديس بقسنطينة أو الالتحاق بدروس العربي التبسي بتبسة وبعضها منهم يأخذه الطموح حتى للرحلة للاستزادة من العلم إلى جامع الزيتونة.¹

دروسه المسائية وإن كان يتوجه بها للعامّة إلا أن الشيخ كان يتبنى في شرحه وطرحه لدروسه هذه الجانب العلمي بلغة وأسلوب لا تفقده السهولة في الفهم قاصدا تأسيس معرفة دينية صحيحة بعيدة عن التأويل الغيبي الذي درج عليه الأئمة والمشائخ التقليديين.²

عرف على دروسه هذه معالجته للقضايا الاجتماعية والمعيشية لحياة المجتمع الأوراسي من خلال تنزيل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والتاريخ الإسلامي على المشاكل المعاشة مستمدا العبر والأحكام منها³، فكان يجعل منها وحيًا لإحياء الضمير ووعيه وتعميق المعاني والقيم الأخلاقية فتتحول إلى ممارسات تظهر كسلوكيات اجتماعية وأخلاقية بقصد إعادة الطاقة والحيوية للفرد والمجتمع، وهذا المرمى ليس بعيد على صاحب تكوين إصلاحي.

فالشيخ كان من أنصار تيار التجديد في الإسلام وكما عرف عليهم بحركة الإصلاح التي تعمل على العودة بالدين الإسلامي إلى مصادره الأولى وهو ما يقتضي البذل والعناء لبعث وتحريك ثقافة متحجرة لمجتمع مغلق وفي الآن نفسه معتدى عليها بفعل الاستعمار.

والحق أن ما دعم مشروعه هذا وشجعه للإقدام فيه هو ما كان يحدث قريبا منه بمحاضرتي الإصلاح؛ قسنطينة وبسكرة، فالأول شمالا وذلك من خلال ما وصلت إليه بفضل جهود ابن باديس في غرس جذور الإصلاح والتجديد التعليمي فيها وبسكرة جنوبا أين كانت الدروس الإصلاحية لكل من الشيخ العقبي ومولود الزرربي وخير الدين تتوسع وتتوطد أكثر في المشهد التعليمي للمجتمع الأهلي المسلم، وبذلك مثلت هذه التجارب على حدائتها أمثلة أزر بها فكرته واستأنس بها في بناء مشروعه.

استطاع حتى تلك اللحظة من الزمن أن يمثل قطبا للعلم والدين في الأوراس، وابتزع اعتراف كل الجهات، ومن هذا المقام الجديد أصبح الطاهر الحركاتي الشخصية البارزة في نهضة الأوراس والتي سوف يحدده مستقبل الفكرة الإصلاحية فيها، ولكن لا بد من الإشارة إلى أنه اكتفى بالوضع في المظهر الثاني في حركة الإصلاح والنهضة في الجزائر بعد ابن باديس والإبراهيمي والعقبي.

هذه الميزات التي توفرت في الشيخ الطاهر الحركاتي، جعلت من الشيخ ابن باديس وأثناء زيارته الأولى التي قصد فيها الأوراس اكتشاف قيمته الإصلاحية وبذلك ما يمكن أن يقدمه للمشروع الإصلاحي في هذه المنطقة، لقد اطمأن ابن باديس وفريقه الإصلاحي لأفكار وجهود الشيخ الطاهر الحركاتي والتي رأوا فيها التطابق الكبير مع فكرتهم الإصلاحية، الأمر الذي جعل الحركة الإصلاحية تعول عليه في تمثيله لها في الأوراس ونشر فكرتها، وبذلك

¹ - بشير كاشة الفرحي: المرجع السابق، ص 9.

² - علي شيخ: المرجع السابق، ص 5.

³ - نفس المكان.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

أصبح الشيخ الطاهر الحركاتي أحد رجالها المساهمين في تطويرها، فظهر في سنوات لاحقة كأحد مؤسسي تنظيمها؛ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بحضوره إلى مؤتمرها التأسيسي بالعاصمة في 5 ماي 1931م، وفيما بعد رئيس شعبتها في الأوراس.¹

كما كان الفريق الإصلاحى وقيادات جمعية العلماء يعتبر الشيخ الطاهر الحركاتي مدخلهم إلى الأوراس فتشير تقارير رحلات قادة الإصلاح لباتنة أن زيارات وفود العلماء إلى المنطقة كانت تتم تحت إشرافه²، وأول مسؤول على رعاية مشاريعها وإنشاء مؤسساتها وتطويرها في المنطقة³، ذلك أنه كان شديد الحرص على أن يكون له دور فاعل في كل نشاطات جمعية العلماء.

وقد وجد ابن باديس وجمعية العلماء فيما بعد سهولة كبيرة في التعامل معه في تسيير مشاريع وأفكار الحركة الإصلاحية والجمعية لما توفر فيه من وعي إصلاحى وتوافق فكري بينهم زيادة على ما كان يتميز به من علم وعمل، فكان بذلك من أهم الشخصيات الأوراسية التي كان لها دور مبكر وكبير ومؤسس في نجاح الحركة الإصلاحية بالأوراس، ويظهر هذا في التزامه بمقررات وكتب الجمعية في تدريس طلبته وتعليم الناس في المساجد ومبادراته في توسيع مؤسسات التعليم مبكراً كإنشائه مدرسة الملحقة بالمسجد الجديدة.

__ المدرسة الملحقة بالمسجد (جهود التأسيس والتعليم)

بعد أن استقر عمله بالمسجد لفترة زمنية، خلالها أسس لنفسه مقامه العلمي وموقع اجتماعي، وفي نفس الوقت اتضحت له معالم وسطه، إضافة إلى أثر انضوائه في المشروع الوطني الإصلاحى، بدءاً يرتب توسيع مشروع الحركة الإصلاحية وتعميقها في منطقتها، التي وقف على مدى تخلفها الثقافى و ضعف جهاز التعليم ومرافقه فيها، وقلة وعي الناس بأهمية العلم والتعليم وقلة الرجال الذين ينهضون به وهي الظروف التي تعقد مهمة الإصلاح عامة والتعليم خاصة.

لقد كان وعيه بهذا الواقع هو ما حتم عليه تسليط جهده بالغا، بفضلته كانت بداية تحريك الجو الثقافى والعلمى، للدفع بالأوراس إلى أن تشارك الوطن نهضته الثقافية والإصلاحية الكبرى، فسارع أولاً للمبادرة بتأسيسه مدرسة بجوار مسجده.

كان تأسيس مدرسته هذه هي خطوة أخرى لتوسيع جهده التعليمى واستقلاله عن أعمال الإمامة والفتوى حتى يحضى بعناية تليق بطموحات تعميق إصلاحاته في هذا الجانب التي تعذر عليه إنجازها بالشكل الذي كان يطمح ويعمل له، ذلك أن بداية عمله في المسجد كانت تفرض عليه الإقدام على إصلاحات هادئة وغير مثيرة لحفيظة وسط نشاء وألف التقليد، فما كان منه إلا اعتماد إستراتيجية المرحلية والبناء خطوة خطوة، زيادة على تلبية حاجة الأعداد المتزايدة من الطلبة على دروسه والتي أصبح المسجد لا يستوعبها فضاء ووظيفة.

¹ - رحلات وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى عمالة فسنطينة، الشهاب، 14 جوان 1934، ج 7، م 10، ص 359.

² - نفس المصدر والصفحة.

³ - نفس المصدر والصفحة.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

والحق أن الشيخ الطاهر الحركاتي من البداية حاول تأسيس المدرسة على النمط العصري، الأمر الذي جعله يجهر بإصلاحاته التي كان يتحفظ إلى حد ما في إظهارها سابقا، فهذه المدرسة كانت بالنسبة له الرغبة التي يحقق من خلالها ذاته الإصلاحية ويرى فيها أفكاره.

وقد كانت بداية إصلاحاته بالسهر على تجهيزها بالطاولات والكراسي بدل الحصير والدفاتر والكراسة عوض الألواح وأقلام الحبر مكان الريشة والقصب¹، لم يقصر جهده على تغيير أدوات التعلم بل تعداها إلى التسيير وإدارة العملية التربوية في المدرسة، فنظم وتيرة العمل حيث قسم اليوم الدراسي إلى مجموعة من الحصص محددة المواد وثابتة التوقيت خلال طول العام الدراسي، وضمن كل مادة برنامجا راعى فيه قدرات طلبته العقلية وحاجاتهم المعرفية، وقد يكون الشيخ قد استفاد في وضع مضامين برنامج مدرسته من الرؤية التربوية الإصلاحية والتي كان يمثلها حتى هذا الوقت الشيخ ابن باديس، فلا يمكن أن نتجاهل ونغفل ما كان يحصل بين الشيخ الطاهر الحركاتي والشيخ ابن باديس من تبادل للأفكار أو ما يتلقاه من توجيه مباشر أثناء الزيارات أو عبر المراسلات أو ما كان يصله من أفكار رواد الإصلاح عبر ما كان موضوع لمقالات الصحافة الإصلاحية فيما يتعلق بقضايا الإصلاح الكبرى والتي كان التعليم رأسها.

كما عرفت إصلاحاته خروج مدرسته من تقليد المعلم الواحد، فاستحدثت بها فريق مساعد له كان اختياره لهم بعناية حتى تكون مشاركتهم له إيجابية وفعالة في تقدم إصلاحاته، فقد تميز هذا الفريق المكون من الشيخ أعراب والشيخ القندوز والشيخ الطاهر أرواجي² بالتعليم الزيتوني مما يعكس تكوينهم المعرفي اللائق وروحهم الإصلاحية وتملكهم لطرائق التعليم الحديثة وهو ما يحتاجه في إصلاحاته التعليمية وهذا ما يتماشى مع مشروعه ويخدم تقدمه الذي سطره له.

كان إقدام الشيخ الطاهر الحركاتي على خطوة تكوين فريق من المعلمين للمدرسة إضافة إلى البعد العصري لها كإجراء في حد ذاته، إلى ما وصله من إرهاق بسبب حجم ساعات العمل التي كان يقضيها في التعليم بين المدرسة والمسجد، فالشيخ كان يتناول حوالي اثني عشر درسا في اليوم مقسمة على مواد مختلفة³ وهو ما يؤثر على مردوده وعطائه العام وبذلك ينتهي إلى حدوث خلل في مشروعه.

ومن جهة أخرى عرفت مدرسته تزايد كبير في عدد الوافدين من المناطق المختلفة للأوراس طلبا لدرسه، وهو ما زاد من تعقيد مهمته التعليمية فكان اهتداؤه إلى جلب مساعدين؛ خطوة طبيعية في مشروعه الذي كان يضطلع إلى تحويله إلى مركز تعليمي في المنطقة يأخذ بالمعايير العصرية والروح الإصلاحية.

¹ - المقابلة السابقة مع السيد مسعودان نور الدين.

² - علي الشيخ المرجع السابق، ص 5.

³ - المرجع نفسه، ص 4.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

والحق أن الشيخ استطاع أن ينقل المدرسة إلى مثال مدارس التعليم العربي الحر الجديدة التي تميزت بها النهضة الإصلاحية في الجزائر، فكانت هذه المدرسة حتى السنوات الباقية من عشرينيات وبداية ثلاثينيات القرن 20م نموذج للمدرسة الإصلاحية العصرية بالأوراس.

وشملت إصلاحاته كذلك إنشاء غرف بالطابق الأرضي للمسجد كإقامة للطلبة الوافدين من المناطق البعيدة والذي كان يتزايد عددهم على الدوام، ورتب عقدا مع صاحب مطعم قريب من المسجد حتى يوفر لهم وجبات الأكل¹، كل هذه الجهود كان الشيخ يحرص عليها من أجل توفير جو ملائم للطلبة لنجاح مهمته التعليمية لدى طلبته.

كما خص طلبته بالإشراف الجيد فواكب انضباطهم وتابع حضورهم في كل دوام يومي، فكان لا يتهاون مع الغيابات بدون عذر أو بأعذار بسيطة، إضافة إلى حرصه على أخلاقهم ونظافتهم²، وكان يريد من خلال هذا الجهد استحداث سلوكيات جديدة لطلبتهم تجعل منهم أكثر تهيئاً للأخذ العلم والمعرفة، فالتجديد كان ثورته في التعليم الذي وجد مدرسته التي أسسها ميدانه.

أما على صعيد التجديد التربوي إضافة إلى ما عرفناه فيما تعلق بالمضامين فإن الشيخ أيضا واصل تطبيق إصلاحاته في جانب طرائق التدريس، حيث خصص لكل معلم من مساعديه مواد محددة رأى فيها جدارته وميله، كما شدد عليهم بالعمل على الخروج بدروسهم من التقليد إلى التجديد طريقة ومضمونا³، ولا نستبعد أن يكون الشيخ الحركاتي يتفضل بتوجيهاته التربوية لفريقه حتى يطور من أدائهم.

في حين واصل تطبيق إصلاحاته في دروسه التي أسندها لنفسه في المدرسة، فيذكر تلاميذه أنه تبنى المنهج العلمي المبني على المحاكاة والنقد والاستدلال⁴، وبذلك يكون الشيخ قد خرج من تقليد الإلقاء إلى التدرج في إنتاج المعرفة بأسلوب الحوار بهدف تنمية ملكة التحليل والبحث عن الحجة والإقناع والبرهان.

إضافة إلى تميز دروسه بالنزعة السياسية فكان يوظف مواقف وأحداث التاريخ الإسلامي، بتنزيلها على الواقع السياسي في الجزائر بهدف إخماء الوعي والروح الوطنية والتوعية السياسية⁵، وهذا المنحى كان يشترك فيه مع رؤية الحركة الإصلاحية التي كانت ترمي في هدفها العام إلى إنتاج أجيال واعية بواقعها كخطوة نحو تغييره إلى الأحسن.

¹ - علي بن بلقاسم: محاضرة بعنوان معالم الشيخ الطاهر مسعودان الحركاتي، نظارة الشؤون الدينية باتنة، 1993.

² - نفس المرجع، ص4.

³ - علي الشيخ المرجع السابق، ص5.

⁴ - نفس المرجع، ص6.

⁵ - نفس المرجع والصفحة.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

كان إلمامه وتبحره في العديد من العلوم والفنون الدينية من تاريخ إسلامي وتفسير وعقيدة... أن زود طلبته ومتلقيه بمعارف واسعة وعميقة¹، أحالت اهتماماتهم إلى الشغف المعرفي الذي يجب أن يتوفر عليه المتعلم، فقد كان الشيخ يضيف بدروسه وطريقته على الثقافة العربية الإسلامية بريقاً جديداً لم تعهده الأوساط الأوراسية، وهذا ما فسح المجال أمام هذه الثقافة العربية الإسلامية للولوج لمعترك الحياة الثقافية الأوراسية والالتفات حولها ولكثير من قضاياها وتراثها من قبل الجماهير المتعلمة.

والجدير بالإشارة أن وقع إصلاحاته هذه قد أثارت حفيظة الإدارة الاستعمارية بالمنطقة، فقد لاحظت وهي التي تتابع بعناية حركية النخب الأهلية وتأثيراتها على المجتمع الجزائري المسلم، خصوصاً ما أصبحت تعده ظاهرة جديدة وخطيرة في تلك النشاطات التي لازمت المثقفين العائدين من المشرق، فجهود الشيخ الطاهر الحركاتي ساهمت وبشكل ملحوظ في تطور المجتمع الأوراسي على نحو متعارض مع رغبة الإدارة والسياسة الاستعمارية عامة، وهو ما أتى على ترتيبها لإثارة المشاكل له لضرب نجاحاته، وقد وجدت في أعداء الإصلاح وحساد الشيخ؛ حلفاءها ووسيلتها في ذلك، فبدأت برفع شكوى إلى نائب العمالة بقسنطينة.

غير أن جماهير الأوراس التفوا حوله معترضين على هذه الإدعاءات مما ثبط مسعى مناوئيه من الإدارة وخصومه، والذين بدورهم لم يتوقفوا فجددوا رفع شكوى ضد الشيخ تضمنت طلب فصل المدرسة عن المسجد زيادة على توقيف نشاطاته في إلقاء المحاضرات بالنوادي الإصلاحية بباتنة، غير أن وفاء الأوراسيين للشيخ كان بلا حدود فجددوا فيه الثقة وعبرت الجمعية الدينية للمسجد عن هذه الثقة بزيادة راتبه ب 100 فرنك.

ومع الثورة التي كانت انطلاقتها الأوراس ومثل ما كانت الكثير من التقارير والدراسات ترجع قيامها إلى التطورات الحاصلة في وعي الجماهير المسلمة التي ساهمت فيها النشاطات الإصلاحية المختلفة ويقول جاك سارفييه عن هذا التطور الذي أحدثته جمعية العلماء: ((... منذ 1935م حركة إصلاحية يسيرها العلماء _ بمثابة قرآنيين _ حاولت ترشيد وعقلنة وتنقية الإسلام من المعتقدات... التي يمنعها القرآن... فقد ضاعف العلماء من المدارس القرآنية وكونوا الشباب الذين كانوا مهيين.. إلى إسلام راشد))²، فما كان من الإدارة إلا تضيق نشاط رجالها ومراقبتهم، ولقد تعرض الشيخ الطاهر سنة 1955م للنفي إلى منطقة عنابة لفصله على هذه الجماهير، ولعل اختيار الإدارة عنابة منطقة منفي له قد يكون لاعتقادها بعد بيئتها عن الإصلاح³، وقرها من أنصار ومؤسسات الإصلاح حتى تلك الفترة، إلا أن الشيخ بقي وفيًا لخط الإصلاح وميثاق العمل لتحقيقه فباشر اتصالاته الاجتماعية بأفراد المجتمع العنابي وتوعيتهم لأهمية إنشاء مدارس تعليمية، وقد توجت دعوته هذه بتأسيس مدرسة إصلاحية بجمانة ليهود.

¹ - على بن بلقاسم: مرجع سابق، ص 5.

² - Jean Servier Les Ulémas ont fanatisé les berbères de l'Aurès aujourd'hui en rébellion contre la France.

³ - محمد الطاهر فضلاء: المرجع السابق ج 1، ص 152.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

مما سبق نخلص أن الشيخ الطاهر الحركاتي قد عمر لسنوات في العمل التعليمي الإصلاحي مؤسسا وموسعا له في منطقة الأوراس فهو بذلك يعد باني نهضتها الإصلاحية والتعليمية التي من خلالها ولجت إلى باقي الوطن بعد القبيلة والمنطقة والانفتاح على العصر بعد التفوق على التقليد والموروث الساكن.

هذا الفضل في الجهد الذي ميز مسيرة الحركاتي قد هيا الأرضية الاجتماعية والثقافية لاستقبال مشاريع التعليم ومؤسساته التي سوف يواصلها أو ينخرط فيها مجموعة هائلة من الشباب الأوراسي ليحولوا منطقة الأوراس إلى قلعة تشع بالوعي والتعليم الوطني والديني.

المطلب الثاني: الشيخ علي مدور بن شكشوك

أولا_نشأته وتعليمه

الشيخ علي بن مبارك بن محمد بن بلقاسم ولد بورقة إحدى قرى الأوراس سنة 1890م، حفظ القرآن على يد مشائخ بلدته ثم اتصل بالشيخ بلقاسم الفرحي للأخذ عنه بجمورة الذي عرف بعلمه الغزير وتعليمه الإصلاحي، ثم انتقل إلى زاوية بن حمزة ببني فرح بعين زعطوط وبعدها إلى زاوية بن عزة بالحجاج بأريس، ثم أنتقل إلى الجامع الأخضر بقسنطينة للأخذ من الشيخ ابن باديس فقد كان أكبر تلاميذه سنا وأنجبههم.¹

إن تنقلاته هذه واختلافه على العديد من مراكز العلم ليدل على شغفه الكبير للتعلم، كما أن تحمله متاعب التعلم والغربة في قسنطينة في سن متقدمة لإشارة على توجيهه الإصلاحي ووعيه بنوعية العلم الذي يجب أن يأخذه، وهذا ليس غريبا على تلميذ أخذ تعليما ذا طبيعة إصلاحية على يد شيخه بلقاسم الفرحي الذي يكون وجه تلاميذه قصدا إلى هذه الطبيعة.

بعد إتمامه الدراسة بالجامع الأخضر عاد إلى مسقط رأسه ورقة أين باشر العمل كإمام بمسجدها ثم انقطع للتدريس بمسجد زاوية بن عباس بمنعة، إلا أنه عاد إلى المسجد الأول بورقة والذي سوف يقضي أكثر سنوات تدريسه به، وبعودته هذه واستقراره بمنطقته لم ينقطع عن المد الإصلاحي الذي كان يصله من خلال جرائد الجمعية (البصائر والشهاب..) وعبر مراسلاته الدائمة لشيخه ابن باديس وأيضا زملائه في الجامع الأخضر وأنصار الإصلاح كالشيخ عبد اللطيف سلطاني.²

ثانيا: جهوده التعليمية.

عند انتصاب الشيخ علي للتعليم بمسجد قريتهم ورقة كان يحمل تصور وخطة عملية، ولم يكن كما عرف على أغلب أئمة زمانه بقراهم من التقليديين والساكنين إلى الكسل الحركي والفكري، أما عمله التعليمي بالمسجد فكان مستمعه من فئتين: فئة العامة من كبار السن وفئة الطلبة من الشباب و صغار السن، وكان يخص كل فئة

¹ - مقابلة شخصية مع السيد لخضر مدور حفيد الشيخ ورقة 2008/5/25.

² - مقابلة شخصية مع السيدان صالح مدور وعلي مدور من أحفاد الشيخ ورقة 2009/10/18.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

بدروس حسب ما تحتاج إليه وحسب قدرتها، وإن كان تركيزه على فئة الطلبة من حيث الحجم الساعي الكبير المخصص لها ونوعية الدروس، وهذا لاعتبارها أكثر التزاما وانتظاما وبذلك أكثر فائدة كان يقدم دروسه في تحفيظ القرآن لفئة الصبية المبتدئين ودروسا في النحو والفقه والعقيدة والميراث وعلم التفسير وعلوم الحديث والمنطق، وكان يعتمد في تحضير دروسه على المراجع التالية:

- سيدي خليل - سنن الإمام الحافظ - تفسير القرآن للخازن

- نحو الفقه ابن مالك - فن المنطق للباجوري - شرح الجوهر في التجويد

- شرح الأربعين النووية - المنظومة الفقهية لابن عاشر - الفتوحات¹

كما تحتوي مكتبته التي مازالت قائمة إلى اليوم على حوالي 60 كتابا.²

كما نسجل من خلال استعراضنا للمواد التي كان يقدمها لطلبته على أنها تمتاز بالشمول في العلوم الشرعية، وهي نفس المواد التي كانت تقدم في الزوايا ذات المستوى الثانوي، أما المراجع التي يعتمد عليها وإن كانت تقليدية إلا أن مستواها العلمي العالي يدل على الهدف الذي كان يريده الشيخ من طلبته، وتؤكد هذه الحقيقة - بالاطلاع المذكرات التي كان يصنعها لدروسه³ - هذه المذكرات التي نلمس فيها بالإضافة إلى قدرة الشيخ العلمية والمعرفية، نلمس خروجه في صناعة دروسه عن الطريقة التقليدية إلى الطريقة الحديثة التي تمتاز بالتبسيط والنزول إلى الأمثلة الواقعية ومعالجة الإشكاليات اليومية، وأيضا تدرجه في مواضيع دروسه وبذلك فهو يعتمد برنامجا دراسيا، هذا ما سيجعل لجهده التعليمي بعد سنوات ثمارا من خريجه الذين يلتزمون دروسه.

كما امتاز الشيخ بتضلعه في كثير من العلوم وعلى رأسها الفقه والتفسير، وإن كانت هذه العلوم كما هو معروف في العلوم الشرعية تحتاج إلى تمكن في علوم أخرى كالنحو واللغة... هذا النبوغ أهله إلى الإفتاء فأصبح بذلك مرجعية فقهية لسكان المنطقة ومحل ثقة دينية، ومن بين فتاويه التي تشهد له بهذه الأهلية، فتوته بتحليل المتردية رغم ما ورد فيها من تحريم بصريح النص القرآني لقوله عز وجل: [حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَالْحُنْزِيرُ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمُتَفَوِّدَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَسَّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(3)]. {المائدة}.⁴

ويستدل بقوله أن المتردية التي جاءت في النص القرآني، كانت في بيئة صحراوية أين يقل تعرض القطيع إلى السقوط، بينما البيئة الأوراسية ذات الطبيعة الجبلية التي يكثر بها العلو وتسلق القطيع للمناطق العالية فهي عرضة

¹ - المقابلة السابقة مع السيد لخضر مدور.

² - اطلعت شخصيا على المكتبة.

³ - توجد نماذج عديدة في أرشيف مكتبته وقد اطلعنا عليها.

⁴ - سورة المائدة، الآية 3.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

للتريدي، ومع الوضعية الاقتصادية الفقيرة للعائلات الأوراسية التي تعتمد على المورد الأساسي للقطيع، فهذا يؤدي إلى ضياع الكثير من الثروة دون الاستفادة منها.¹

من هذه الفتوى وكما وردت عنه فتاوى كثيرة نخلص أن الشيخ علي مدور وصل بعلمه إلى الاجتهاد ويمكن وصفه بالمفتي والمفسر الذي استطاع قراءة النص القرآني وفق الواقع مراعيًا الحاجات الاجتماعية ولم يجبس نفسه في النص أو الفتاوى القديمة والتقليدية البعيدة عن الواقع. مثل هذا الشيخ بعلمه الغزير سوف يكون لتعليمه الأثر البالغ على تلاميذه من حيث إنارة عقولهم ووعيهم للقضايا الدينية والحياتية.

المطلب الثالث: توسع التعليم المسجدي بالمنطقة

والحق أن منطقة الأوراس قد شهدت أمثلة عديدة في أماكن مختلفة أدت رسالتها التعليمية الإصلاحية بالمسجد واستطاعت تعويض المدارس، مثل ما عرفت أنقاوس أيضا نشاط التعليم بمسجدها سيدي قاسم اشرف عليه الشيخ عيسى مرزوقي² وأيضًا شهد مسجد خنشلة حركة تعليمية قادها الشيخ محمد الزروق خريج الزيتونة كما عرف مسجد بوحمامة دروسًا تعليمية نشطها الشيخ أحمد زقادة.³ والجدول التالي الذي يتضمن أهم المساجد ومشائخهم التي نشطت فيها التعليم والوعظ والارشاد يعكس لنا هذا الانشار والتوسع:⁴

المسجد	معلموه وأئمتهم	المسجد	معلموه وأئمتهم
مسجد باتنة	الشيخ محمد الطاهر الحركاتي	مسجد غوفي	بلقاسم ميموني
مسجد حيدوس	عبد الرحمان الزموري	مسجد تازولت	واحدي سعد السعود
مسجد لقصر حيدوس	عمر دردور	مسجد المعذر	عبد المجيد بوزيدي
مسجد بعلي	الطيب زموري	مسجد سيدي قاسم انقاوس	مرزوقي عيسى
مسجد الحجاج	مولود الزرربي ثم محمد الدراجي	مسجد بوحمامة	احمد زقادة _عمار مازوزي_ابراهيم مازوزي
مسجد ثنية العابد	بالقاسم الفرحي _محمود الواعي	مسجد سريانة	عبد المجيد بوزيدي
مسجد شير	محمد بن سي السعيدِي_	مسجد مرابط الصديق	ادريس بن ابراهيم بوترة

¹ - مقابلة شخصية مع السيد محمد مدور من عائلة مترجمنا استاذ وباحث جامعي ورقلة 2009/06/26.

² - جريدة الأوراس، عدد 173، من 19 أبريل 1993 إلى 25 أبريل 1993. الإمام الشيخ عيسى مرزوقي رائد الحركة الإصلاحية والعلمية بنقاوس.

³ - القابلة السابقة مع السيد أحمد شرقي الرفاعي.

⁴ - المقابلات السابقة المختلفة.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

	واحدى سعد السعود _بن دعاس الغزالي	الرحبات راس العيون	
مسجد منعة	رمضان بن شباح_نعيم النعيمي	مسجد قيقبة (راس العيون)	عمر بلقاسم منصورية
مسجد أوغانيم	رمضان بن شباح	مسجد اولاد بيضاء برج	حمو بن السعيد بوعكاز
مسجد ورقة	علي بن شكشوك مدور	مسجد حيدوسة	سوهالي محمد بن القاضي
مسجد مشونش	علي بن عباس	مسجد زاوية تبرماسين	الجموري بن العايش والجموعي بلمازوزي
مسجد الحمراء	لحظر الخنقي _ رشيد صالحى _ ملكمي الصادق	مسجد زاوية عبد الصد	الطيب الزموري
مسجد بتكوت	شباح الشريف	مسجد زاوية بن عباس منعة	عليين شكشوك مدورومحمد الصغير بن عباس -محمد بن محمد بن عباس-زين العابدين بن عباس
مسجد بوحمارة	محمد لبيكارة	مسجد عين التوتة	درنوبي محمد
مسجد النوادر	أحمد الخالدي	مسجد عين ياقوت	ابو الشريف علي بن عمار - عبد الحفيظ الخنقي
مسجد مدرونة	بلقاسم دردور	مسجد خنشلة	محمد الزروق
مسجد اثلاث	حب الدين ساعد	مسجد تفلقال	الشيخ محمد الصالح مدور
مسجد اولاد عزوز	عباس عباسية	مسجد شناورة	بلقاسم مختاري
مسجد تكوت	الصادق الصادق	مسجد اريس	الأمير صالحى

بقراءتنا للجدول بداية يجب أن نشير إلى أن العديد من الشخصيات والمساجد التي ظهرت بهذه الفترة ونشطت التعليم الإصلاحي لم ترد في الجدول، غير أن الحاجة لإبراز التوسع الكبير والتنوع الواسع على كل منطقة الأوراس في دراستنا جعلنا نجتهد لوضعه كنموذج من خلاله نوصل للقارئ مدى بلوغ هذه الظاهرة من قوة وما

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

لها من أثر و مايمكن أن يكون من صدى في التأثير الثقافي والاجتماعي على المجتمع الأوراس الذي يبدوا عليه أنه نزع رداء التقليد والجمود ورحب بالتجديد والإصلاح.

ومن المفيد التذكير أن التعليم المسجدي للحركة الإصلاحية تعرض لنفس المضايقات التي تعرض لها التعليم المدرسي، فالمراسيم والقرارات التي سبق وأن أشرنا إليها كمدكرة ميشال وقرار شوطان كانت تسري على كلاهما، وحتى تجاوزات الإدارة المحلية كحاكم بلدية أريس وحاكم بلدية بريكة وعين التوتة الذين رفعوا دعاوي إلى المحكمة ضد الأئمة الإصلاحيين بمساجد بلدياتهم مما انتهى إلى سجن العديد منهم أو توقيفهم عن العمل مثل ما شهد ذلك الشيخ عيسى مرزوقي الذي تعرض للمحاكمة والسجن.¹

ورغم كل أساليب الاضطهاد والمراقبة والتضييق إلا أن الإصلاحيون بقوا أوفياء لنضالهم التعليمي متحدين القرارات الإدارية والمراسيم القانونية الموجهة ضدهم، فكان أغلب المعلمين والمنشطين الإصلاحيين بعد فراغهم من المدارس أو نشاطاتهم الإصلاحية الأخرى يقومون بالتعليم المسجدي في أماكن أقاماتهم وعملهم. وبذلك استطاع التعليم المسجدي في منطقة الأوراس أن يحقق أهدافه من حيث تكميله مهمة التعليم المدرسي أو قدرة الحركة الإصلاحية في إيصال تعليمها إلى كل الفئات والمناطق مهما كانت نائية وشغلت كل الأوقات مما يدل على الإستراتيجية البالغة التي أولتها الحركة الإصلاحية في تعليمها.

¹ - جريدة الأوراس المرجع السابق.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

المبحث الثاني: التعليم المدرسي

غلب التعليم المدرسي في منطقة الأوراس على مظاهر التعليم الأخرى لدى جمعية العلماء، رغم أنها لم تتنازل عن التعليم المسجدي كما أشرنا سلفاً ولعل هذا يعود إلى مجارات جمعية العلماء للتحويلات التي كانت تأخذها الحياة العصرية في مركزة التعليم في المدرسة كمؤسسة رئيسية في هذه الخدمة.

وقد عرفت الأوراس نماذج عديدة من المعلمين الإصلاحيين الذين ساهموا بجهودهم النوعية في نشر التعليم الإصلاحي وتطويره تحت غطاء جمعية العلماء وهو ما جعل المنطقة تتميز بهذه الظاهرة الثقافية بشكل أثار ملاحظة المراقبين الإداريين وحتى المتابعين والمتتبعين لهذا النوع من الظواهر من الدارسين في بحوثهم.

والواقع أن جهود ناشطي الإصلاح من الأوراسيين لم يتحدد أدوارهم التعليمية في الأوراس منطقة الأوراس بل منهم من تجاوز نشاطه وعطاءه المنطقة ليكون وطنياً، وفي هذا الفصل سوف نحاول عرض حالات إصلاحية مارست هذا النوع من التعليم مبرزين جهودهم وإسهامهم في نشر وتطوير التعليم الإصلاحي لجمعية العلماء، مع الملاحظة أن هذا الجهد لم يقتصر عليهم أو يتوقف عندهم بل عرفت المنطقة العديد من أمثالهم والتزاماً بحجم الدراسة وقع اختيارنا على هته التلة من النماذج.

المطلب الأول: الشيخ عمر دردور.

أولاً: النشأة والتعليم:

ولد عمر دردور في مطلع القرن العشرين بتاريخ 13 أكتوبر 1913م*، بقرية جبلية بالأوراس تدعى حيدوس بثنية العابد، من عائلة تنتمي لعرش أولاد عبدي، وبهذا يكون الطفل عمر قد ترعرع في حضان بيت أمازيغي شايوي، أين كانت الأمازيغية الشاوية هي لغة الأم الشفوية على غرار كل مداشر وقرى الأوراس، هذه اللغة كانت في هذه البيئة يأخذ بها تصورات ومدركات وكذا المفاهيم الأولى للطفل في الحياة.

ولاعتبار العائلة الدرورية بيت علم ودين فقد حظي ابنها عمر بالرعاية في كنف أبيه محمد بن منصور وورث فضائل أجداده، فألحقته أسرته _مثل ما يروي عن نفسه_ بالكتاب القرآني لقريتهم حيدوس، وفيه حفظ القرآن وختمه ثلاثة مرات وعمره لم يتجاوز الثانية عشر سنة 12 سنة.**

* - مثل ما هو مبين على شهادة ميلاده الحاملة لرقم 613.

** - عمر دردور التسجيل الإذاعي السابق وتذكر المصادر الشفوية التي إعتدنا عليها أيضاً على أن عمر دردور تلقى تعليمه الأول على يد الشيخ سي بلقاسم بن محمد بن حمادة دردور المولود بتاريخ 1906م وهو أحد شيوخ العائلة وطريقة الأحباب وعلماء البلدة الأجلاء، تميز بالورع والزهد والعلم، ويذكر عنه أنه تميز بمنهج خاص في التدريس حيث كان كل ما يدرسه لطلبته يبقى راسخاً في أذهانهم، كما عرف عليه أنه جاب العديد من مناطق الأوراس محفظاً للقرآن ومدرسا بمساجدها كأولاد فاضل وبوزينة ومدرونة ليستقر به المقام بحيدوس التي توفي بها عام 1952م، ونرجح أن تدرسيه للشيخ عمر يكون في بداية مشواره لفارق السن القريب، أو يكون تاريخ ميلاده أبعد مما ذكر لنا، كما ننوه أن هذه الصفات التي تحلى بها الشيخ قد يكون لها نصيب في توجيه عمر دردور.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

في هذا الكتاب كانت بداية اكتشافه لغة جديدة لا يتعامل بها ولا يتقنها الجميع، كانت هذه اللغة هي اللغة العربية التي بدأت تتأسس في قناعتها عنها أنها لغة العلم والدين والتي وجبت قداستها وحفظها وكتابتها. بعد الكتاب انتقل التلميذ عمر دردور إلى أقرب مركز تعليمي له، مسجد قريتهم الذي كان يدرس به الشيخ عبد الرحمن الزموري أين قضى سنتين فيه تلقى خلالها مبادئ الفقه والنحو والفرائض¹، كما تذكر الرواية الشفوية² أنه أيضا أخذ تعليما خلال هذه الفترة عن الشيخ سي محمد بن الحاج المسعود اللموشي* والذي درس عليه التفسير والفقه وعلوم الحديث وعقائد التوحيد إضافة إلى اللغة العربية، وكذلك كان أخذه قسطا من المعرفة والعلم على يد الشيخ محمد الطيب حب الدين.

كان أثر الشيخ عبد الرحمن الزموري** بالغ في تلميذه عمر على حداثة تجربته في أخذ العلم، فاستطاع أن يوقد فيه الرغبة الشديدة للاستزادة في العلم وفتح له شهية مواصلة طلبه، إضافة إلى غرس قيم و أخلاق المتعلم من صبر ومثابرة وهمة وهي أخلاق ساهم في بعثها من مدفون طبعه وجبلته وهي ليست غريبة في ابن ينحدر من سلالة الشيخ الهاشمي دردور وحفظتها تنشئة العائلة الدينية لطريقة الأحياب.

وكعادة الأوراسيين حتى هذه الفترة قصد الطالب عمر دردور أحد مدارس زوايا الجنوب ببسكرة وكانت زاوية سيدي علي بن عمر بطولقة، وهي الزاوية المعروفة؛ مدرستها بالمستوى العلمي الذي يعادل التعليم الثانوي لينتسب لها سنة 1930م والتي هي الأخرى دام بها ما يقارب السنتين، ليكتشف بها علوم أخرى وبمعارف أعمق، فقد درس بها النحو من كتاب " الألفية " والرسالة والفرائض والفلك والتفسير والحديث والعقيدة³، وقد قرأها على يد مشائخها الذين هم بدورهم تميزوا برسوخهم في العلم الشرعي كالشيخ عبد الله بن المبروك والحاج عبد الله بن الحذري والشيخ محمد الدراجي والشيخ المداني بن سيدي أحمد بن علي بن عمر والشيخ العباس بن الهاشمي، وقد زامل عمر دردور كل من محمد سحنون وأحمد بن ذياب.

¹ - عمر دردور التسجيل الإذاعي نفسه.

² - مقابلة شخصية مع الدكتور عبد الباسط دردور أحد الملازمين لمجالسه في العقود الأخيرة من عمره وباحث في تراجم الشخصيات العلمية والتاريخية بمنطقة الأوراس، باتنة 14 أبريل 2016

* - الشيخ محمد الطيب حب الدين بن بلقاسم ولد سنة 1859م بقرية حدوس بواد عبدي، خلف ثلاثة أولاد هم بلقاسم والطاهر وسعد وكلهم معلموا قرآن، كان من إتباع الطريقة الدرورية درس بزواياها ندرومة وحميدوس، وفي نهاية عمره أسس فرعا للزاوية الدرورية بالقنطرة، له آثار ومخطوطات منها نسخه 12 مصحفا للقرآن بخط يده تبرع بها صدقة جارية، وكان أحد هذه المصاحف ن استحلفا عليها ابنه الشيخ ساعد حب الله ومصطفى بن بوالعيد أعضاء الاجتماع السري المنعقد بأكتوبر 1954م بقرية قرين لتفجير الثورة التحريرية أول نوفمبر. كما ترك مجموعة من الرسائل والمخطوطات في علم الكلام والتفسير ومن أهم تلاميذه: مترجمنا وبلقاسم دردور سعد حب الدين ومحمد البشير دردور وأحمد بن فيفي والحفناوي حب الدين وغيرهم كثير.

** - عبد الرحمان زموري: هو الشيخ عبد الرحمان بن محمد بن أحمد أمزيان بن علي بن عبد القادر الملق بزموري مولود سنة 1878م بحدوس، حفظ القرآن وأخذ مبادئ العلوم اللغوية والدينية على يد مشائخ قريته حميدوس من أبيه وعمه سيدي الصغير وكذلك اخذ على الشيخ البشير بن الصادق العقبي حتى استقام عقله فبادر بالتدريس بمسجد حميدوس منذ 1906.

3- عمر دردور: المصدر السابق.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

الملاحظ على برنامج التدريس بالزاوية، التوسع في عدد العلوم المدرسة وتنوعها من العلوم النقلية إلى العقلية وتكفل بتعليمها شيوخ أجلاء عرفوا بتبحرهم في العلم، ما سوف يظهر أثره على طلبتها، وهو فعلا ما كان مشهودا عليها، والطالب عمر دردور بما كان يميزه من ذكاء واستعدادات فطرية إضافة إلى قوة العزيمة سوف ينال الخير الكثير في فترة تواجده بها.

وجدير بالذكر أن فترة تواجد الطالب عمر دردور بزاوية طولقة، كانت الفكرة الإصلاحية قد أعلنت عن نفسها و توسعت إلى أغلب الدوائر والمؤسسات الاجتماعية والثقافية خاصة في البيئات الحضرية السبابة في الإصلاح كمدينة بسكرة، ويعود الفضل إلى تلك الدعاية التي تبناها أنصار الإصلاح للتعريف بها ومحاوله ربط أفراد ومؤسسات المجتمع الجزائري المسلم بهذه الفكرة، فكانت زيارات الشيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي القادم من قسنطينة إلى الزاوية ينقل إلى وسطها أخبار الحركة الإصلاحية بقسنطينة معرفا بنشاطاتها العلمية ومرغبا للطلبة في الالتحاق بدروس شيخها، هذه الدعاية المباشرة التي كان يسديها الشيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي أو ما كان يصل أيضا من تأثير رجالات الإصلاح ومؤسساتها في بسكرة، ما أثار في الطالب عمر دردور من إعجاب ورغبة وحب في الأخذ عن الشيخ ابن باديس فيقول بهذا الصدد: ((...كنت أسمع الأساتذة يتحدثون عن النهضة العلمية التي رفع لواءها الأستاذ عبد الحميد بن باديس، فأحبيته قبل أن أراه...))¹

كانت أمنية الالتحاق بالدروس العلمية لابن باديس قد نقلها معه إلى عائلته، فلم يتردد أبوه الشيخ محمد بن منصور في القبول والسعي معه لتحقيقها، ذلك أن محمد بن منصور يتذكر عن الشيخ ابن باديس في أحد زيارته لزوايتهم وعند رؤيته الطفلان عمر دردور ومحمد الصالح زموري، حادثة مسح على رأسهما وأشار على إرسالهما للتعلم عنده عند كبرهما.²

تزامنت هذه الرغبة مع ظهور نواة من برجوازية أوراسية تناصر الإصلاح وتعرف بنشاطات الشيخ ابن

باديس وتعمل على تمكين أبناء الأوراس المؤهلين والراغبين في الوصول إلى درسه عنده، وقد كان الشيخ الحنفي

اللعوبي أبرزهم في هذه المساهمة، وقد تعرف عليه عمر دردور وصرح له برغبته وطلب توصيله إلى الشيخ ابن

باديس، فأصطحبه إليه وقدمه له وكان ذلك سنة 1932م.³

يروى الطالب عمر دردور قصة إستقباله من قبل أستاذه عبد الحميد بن باديس، ومجريات مقابلة الإمتحان

وقرار نتيجتها؟. فيقول عنها: ((...واستقبلني الشيخ ابن باديس في مقصورته بالجامع الأخضر، وفرح بي وسألني:

أين قرأت؟ وماذا قرأت؟ وعلى من قرأت؟

فأخبرته بأني أحفظ القرآن الكريم ودرسته بمسقط رأسي وبزاوية طولقة.

¹ - نفس المصدر.

² - مقابلة سابقة مع السيد عبد الباسط دردور تازولت 28 أوت 2009.

³ - عمر دردور: المصدر السابق.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

فرد علي قائلًا، سألحقتك بالسنة الثانية بعدما أمتحنك، لأن العلم أمانة، وأختبرني في إعراب الجملة الآتية: (_ يا رحمة الله حلي في منازلنا).

فأجبت موضحًا حكم المنادى وأقسامه الخمسة، وحكم المضاف والمضاف إليه، وإعراب فعل الأمر إذا كان المخاطب أنثى، والجار والمجرور، وحكم إعراب الضمير وبنائه في منازلنا؛ فوفقتني الله للوجه الصحيح في إعرابها، فزالت الوحشة وذهبت الوحشة، كلف الشيخ عبد الحفيظ الجنان الذي عرفني بمكان السكن وأوقات التعلم...¹ خلال فترة مكوثه بالجامع الأخضر أخذ المعارف والعلوم التي كان معمول بها في برنامج، تولى تدريسه والإستفادة من التعلم في هذه المرحلة بالإضافة إلى الشيخ ابن باديس كل من الشيخ عبد المجيد حيرش وحمزة بكوشة، فأخذ عنهم المعارف والعلموم التي كان معمول بها في برنامج الجامع، إضافة إلى التربية والأخلاق والفكرة الإصلاحية وهو ما كانت تؤكد جمعية اللما لإدراكها للأهمية البالغة في تكوين المتعلم الذي تعده لتولي مسؤوليات الإصلاح.

وقد كان الطالب عمر دردور يدرك مزية أن تمنحك الأقدار فرصة التعلم بالجامع الأخضر فكان الطالب المثابر والمنضبط والحريص على تحصيل أكبر قدر من الفائدة على مشائخه، وقد توافقت المحتوى الكثيف والعميق لبرنامج الجامع الأخضر مع ذكاء وطموح وإرادة عمر دردور فوجد فيه حاجته الفكرية والعقلية وحتى الوجدانية. فضلًا عن التعليم البحت الذي توفر للطالب عمر، فإن الحياة الاجتماعية الطلابية التي عاش فيها طيلة دراسته والتي شاهد من خلالها تنوعًا لعادات والسلوك وحتى اللهجات والأصوات وما إلى ذلك لزملائه الطلبة الوافدين من كل أنحاء القطر الجزائري قد ساهمت في توسيع أفاقه ومداركه ومشاعره، زيادة على فضل البيئة التعليمية للجامع الأخضر فإن البيئة الاجتماعية والمدنية لقسنطينة كان لها أثرها على شخصية عمر دردور. فما إن أتم سنوات دراسته بالجامع الأخضر حتى تكونت شخصيته العلمية والفكرية والحركية لصالح الإصلاح، ولما لاحظ عليه أستاذه ابن باديس من هذا التكوين فقد قدر توجيهه لتولي أمر الحركة الإصلاحية بالأوراس وهو الطالب الذي كان مازال يتوق إلى الزيادة في العلم والتوجه لأجل ذلك إلى جامع الزيتونة مثل ما عرف على أمثاله من الطلبة النجباء للجامع الأخضر، فما كان من عمر دردور إلا الأخذ بنظرة شيخه والعمل بأمره ليعود إلى الأوراس سنة 1937م.

ثانياً: جهوده في النشاط التعليمي الإصلاحي

كانت التجارب الأولى في مهمة التعليم للشيخ عمر دردور ترتبط مع تلك الدروس التي كان يسديها لتلاميذ المرحلة الابتدائية حسب نظام التعليم الباديسي بمسجد سيدي قموش بقسنطينة فترة مرحلة دراسته بالجامع الأخضر، ولقد كلفه بهذه المهمة شيخه ابن باديس، ثم أضاف له تدريس بعض الحصص حتى بالجامع الأخضر، وما كان ابن باديس ليعين الشيخ عمر دردور لإعانتته في تدريس الطلبة إلا لما رأى فيه ما يؤهله لذلك، من علم

¹ - عمر دردور: المصدر السابق.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

وأخلاق عالية ونشاط وصبر وروح للمسؤولية، واستعداد لتحمل أمانة العلم وتبليغه، ويذكر محمد الصالح رمضان في رسالة له*، أنه تولى تدريس**، الرحبية والفرائض والرسالة***، وكان لأداء مهمته هذه يتردد بين مساجد قسنطينة التابعة لتعليم الشيخ ابن باديس"الجامع الأخضر، مسجد سيدي قموش ومسجد بومعزة".

كانت هذه المهمة التعليمية المباشرة التي تدرّب فيها على التعليم حتماً قد أخذ فيها مهاراته، وما يؤكد ذلك أن الشيخ أضاف له مهمة عريف على طلبة الأوراس¹، وما كان ابن باديس ليزيده من التكليف لو لم يشاهد عليه النجاح في المهمة السابقة، وقد كانت مهمة العريف مهمة تنظيمية تعليمية تربوية استحدثها الشيخ في منظومته التعليمية بالجامع الأخضر حتى يؤطر الطلبة الوافدين من الجهات المختلفة من الوطن ويحسن متابعة تحصيلهم وتكوينهم الفكري ومراقبة سلوكهم على الوجه الصحيح تربية وتعلّماً، وقد كانت هذه المهمة بمنحها لطلّبه المقتدرين الذين لمس في شخصيتهم الفطنة والجديّة والمسؤولية والأخلاق العالية والمعرفة العلمية.

كل هذا يجعلنا إلى أن عمر دردور كان يتميز بمؤهلات تقوده لتولي مهمة التعليم وإدارته وهو المستفيد من ممارستها بإشراف الشيخ ابن باديس شخصياً الذي كان المثال في هذا النوع من التعليم فكراً وأداء وإدارة وتنظيماً. كما عرف على عمر دردور طيلة سنوات دراسته بالجامع الأخضر أنه كان يتردد عائداً إلى منطقتهم خاصة في العطل والأعياد والمناسبات المختلفة مستغلاً أوقاتها في تقديم الدروس والوعظ والحث على فتح المدارس والتوعية بأهمية العلم والتعلم، وقد كان شيخه ابن باديس يركي فيه هذا النشاط والمسؤولية الاجتماعية²، وقد زاد جهده هذا في السنة الأخيرة من دراسته بقسنطينة عام 1936م حتى تغيب لمدة طويلة أثارت تساؤلات زملائه وطلّبه³، وفي هذا يعرض محمد الصالح رمضان في الرسالة السابقة⁴، الجهود الكبيرة التي قام بها الشيخ عمر دردور في: ((إن زميلنا وأخانا الشيخ عمر دردور رعاه الله وأيده على ما يصبو إليه، قد عمل أعمالاً جليلاً النفع والفائدة، وسأنبئكم عما بلغني من ذلك فأقول كل من يقرأ على يد الشيخ عمر - يدرس - أو يقرأ معه الطبقة الرابعة يعلم

*- تبدو هذه الوثيقة أنها كتبت سنة 1936م، وهي خطبة أقيمت على طلبة الجامع الأخضر عن سبب غياب الشيخ عمر دردور عن التدريس عدة أيام.

** - الشيخ محمد الصالح رمضان أحد تلاميذ الشيخ ابن باديس في الجامع الأخضر وقد تعلم على يد الشيخ عمر دردور فترة تكليفه

بالدروس بالجامع فأخذ عنه علم الفرائض، وقد أصبح من المثقفين ثقافة عربية إسلامية تولى مناصب تربوية وسياسية هامة بعد الاستقلال.

*** - الرسالة المسماة كفاية الطالب الرباني لرسالة أبي زيد القيرواني في مذهب الإمام مالك.

¹ - ابن باديس: آثار الإمام ابن باديس، ج4، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1985، ص89.

² - اعتماد مجلس الإدارة الشيخ عمر دردور بن محمد للقيام بالوعظ والإرشاد على مبادئ الجمعية في هذه البلدان: آريس، منعة، بوحمار، وجميع البلاد الداخلة تحت بلدية آريس في مدة بدايتها ربيع الثاني 1355، جوان 1936، إمضاء عبد الحميد بن باديس أنظر الملحق رقم 11 ص 417.

³ - أنظر المصدر السابق ورد فيه إذان الشيخ ابن باديس لعمر دردور بهذه الأدوار.

⁴ - محمد الصالح رمضان: المصدر السابق.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

أن الأخ قد غاب قبل عدة أيام، ولكن جلهم أو كلهم لا يعلمون لأي شيء ذهب؟ ولأي سبب غاب عنهم؟ وقد تساءل عنه الكثير حتى رجع.

أيها الإخوان لقد ذهب أخوكم إلى بلدة أريس باستئذان من الشيخ لأجل أن يقابل لجنة البحث البرلمانية الفرنسية... قدم لهم مطالب قومه... وتكلم معهم فيما يخص أريس من آلام وأمال...))
توحي أخبار الرسالة على أن الشيخ عمر دردور قد كان ناشط اجتماعي وسياسي يمثل أهله ويرفع مطالبهم ويناضل من أجل تحقيقها وهو بذلك يكون قد وصل إلى مرحلة من الوعي وهي المرحلة التي كان يهدفها الشيخ ابن باديس من تعليمه في طلبته.

كما لا نستبعد أن يكون من أهم مجموع المطالب التي عرضها على اللجنة البرلمانية تلك المطالب المتعلقة بالتعليم وإنشاء المدارس والمؤسسات الثقافية الأخرى، وهذا يتأكد من مرجعيته ونشاطه اللاحق الذي غلب عليه في الحركة لإصلاحية، بالإضافة أننا لا نغفل تأثير توجيه شيخه له نحوى هذه المطالب وهو الذي أذن له بهذه المهمة.

ويتعزز مع ما يذكر عليه أيضا أنه لم يدخر جهدا في هذه الفترة التي قضاها بين ظهراني أهله في الأوراس، فقد سعى في تأسيس جمعيتين وناديين ثقافيين ذات طابع إصلاحي، وقد نجح في ذلك بفضل ما بذله من جهود وما تكبده من أتعاب.¹

بعد نهايته الدراسة بقسنطينة وعودته إلى الأوراس سنة 1937م نهائيا، واصل نشاطاته السابقة وهو الذي عاد هذه المرة متفرغا يحمل لها مشرعا تربويا يحركانه قوة وعنفوان الشباب لتمثل الأفكار التي حملها عن شيخه ابن باديس في الواقع.

فبادر بإنشاء الشعبة الإصلاحية لجمعية العلماء بالأوراس والتي سوف تسهر على فتح المدارس والمؤسسات الإصلاحية الأخرى ويؤطر نشاطاتها تحت غطاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وتزامنا مع هذا النشاط قام الشاب عمر دردور بالتعليم بمسجد لقصر مجيدوس أين سهر على تحفيظ القرآن ومبادئ تعليم اللغة العربية للصبية ومعلم بمدرسة التربية والتعليم الذي كان وراء تأسيسها بمجيدوس وفيها كان المعلم والمربي والمدير ليتجه في نفس اليوم إلى مدينة باتنة أين يزاوّل أشغال ومشاريع الشعبة الأوراسية²، وهكذا تميزت المرحلة الأولى من عودته للأوراس بكثافة نشاطه.

وبعد افتتاح مدرسة التربية والتعليم بباتنة بجمعية فريقه في الشعبة الأوراسية سنة 1937م، تولى أمر التعليم فيها فدرس بها مادتي اللغة العربية والفقهاء الإسلامي وقد كان حريصا كل الحرص على نجاحها إذ كان يراقب تلاميذه ويتابع سلوكهم وانضباطهم ويعمل على تقويمهم.

¹ - المصدر نفسه.

² - مقابلة شخصية مع الشيخ سنوسي السنوسي: أحد تلاميذ الشيخ عمر دردور بمدرسة التربية والتعليم وإمام متقاعد، باتنة 10 أبريل

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

ويشهد طلبته على أن الشيخ عمر دردور كان يحرضهم على طلب العلم ويرفع فيهم الحماس والوطنية بتعليمهم الأناشيد الحماسية التي تحمل معاني الحرية والوطنية والجهاد وتحفي فيهم عناصر الهوية والمقومات الوطنية من أشعار وقصائد شعراء الحركة الإصلاحية وعلى رأسهم أستاذه الشيخ ابن باديس.¹

إلى جانب هذا عرف على الشيخ عمر دردور بدروسه الوعظية والإرشادية التي كان يقيمها بالمناطق المختلفة للأوراس والتي يبدو أنها كانت تقام وفق برنامج زمني مخطط يمس جميع مداشر وقرى المنطقة، وقد كان نشاطه هذا يتميز بتوعية مختلف شرائح المجتمع الأوراسي وعروشه لأهمية العلم والتعليم داعياً إلى تأسيس المدارس والمساجد.

وحسب عديد من أعضاء الإدارة الاستعمارية بالإقليم فإن عمر دردور باشر سلسلة من النشاطات المهمة لصالح الدعاية الإصلاحية في 19 و23 فيفري حيث نظم تجمعات عامة في كل من واد طاقة ووادي عبدي وهي الدواوير التي ينتمي إليها.

كانت تجمعاته تصل في كل مرة إلى ما بين 100 إلى 150 شخص من الحضور وكان يخطب فيهم فيما يخطب بوحدهم والمطالبة بالتعاون في أعمال الخير وتشديد المدارس والمؤسسات الثقافية الإصلاحية.

وفي 5 أكتوبر عقد اجتماع بأريس حضره ما يزيد عن 200 شخص نادى فيه بإنشاء جمعيات ثقافية ونوادي ومدارس قرآنية تكون تحت إشراف جمعية العلماء.

ولم يقتصر نشاطه على الدعاية لتأسيس المدارس والوعظ والإرشاد فقط، فقد تطور عمله إلى إبداء حركة عفيفة اتجاه بعض العادات التي كان يراها مخلة بالدين كتلك التي كانت تقام في آخر خريف كل سنة وفيها تتجمع النساء من المطلقات والأرامل مع الرجال ويظهر فيها الفسق أو ما كان يجري في حفلات الأعراس من رقص للنساء في حضرة الرجال، ما أدى بعمر دردور وجماعته بالتعدي على هذه التجمعات من هذا النوع بقوة السلاح " العصي"، وهو ما فتح ضده تحقيقاً ومتابعة قضائية سوف تضيق على حركته وتأثر بذلك على نشاطه الإصلاحي والتعليمي.

وفعلاً في 4 جوان فتحت الإدارة تحقيقاً ضده ليترك عمر دردور النشاط والدعاية المباشرة لصالح دعاة جدد، فأقدم المقدم صالح الحاحي مكّي التابع للطريقة الرحمانية وأبنائه بفتح نادي بأريس، كما اتصل أيضاً برئيس جماعة منعة سي محمد بن عباس بن الحسين شيخ الطريقة القادرية حيث أسس النادي الثاني بمنعة ثم الثالث بأم الرخاء والرابع ببوزينة والخامس بشير والسادس بغسيرة وآخرون أيضاً.

ويحصى عبد الحميد زوزو² مجموعهم بحوالي 26 نادي وجمعية تثقيفية سنة 1937م بالأوراس، مقابل 12 فقط كانت سنة 1936م وهو ما يعكس تطورها بنسبة 100 في عام واحد، وإن لم تكن كل هذه المؤسسات

¹ - أحمد بن لموش: مقابلة شخصية باتنة 11 أبريل 2014 وهو أحد تلاميذ الشيخ عمر دردور بحدوس.

² - عبد الحميد زوزو: المرجع السابق ج2، ص41.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

الثقافية تابعة لجمعية العلماء، إلا أننا لا يمكن أن نعزلها على أثر دعوة عمر دردور وفضله في ظهورها حتى عند جهات غير إصلاحية.

هذه المؤسسات يبدو أنها تأسست في غفلة من الإدارة المحلية أو لم تكن تحسب لتتأججها حساب، وما إن تلقت تنبيهها على ما يمكن أن يكون من مخاطر على المصالح الاستعمارية حتى بدأت تسعى لتضييق على الناشطين الإصلاحيين، وقد كان إلقاء القبض على عمر دردور من منظور إدارة الإقليم أفضل وسيلة لإضعاف هذا النشاط وبذلك بدأت متاعب عمر درور أكثر.

يظهر الشيخ عمر دردور في مواقف جديدة جعلته عرضة لمتابعات قضائية بعد أن رفعت ضده للحاكم العام مجموعة من التقارير الإدارية تدينه وتشير على أنه مشوش يدعو مع أنصاره إلى التمرد والتحريض على الحرب والخروج على طاعة السلطة¹، لينتهي بسجنه.

بقي الشيخ عمر دردور حتى في السجن وفيا لمبادئه وفتناعاته، فكان يروج لأفكار الإصلاح ويعلم نزلاء السجن القرآن، وقد كان يطلع أستاذه الشيخ ابن باديس بأعماله هذه عبر مراسلات كانت تتم بينهما، والتي جاء فيها أنه يعلم المساجين ويحفظهم القرآن ويعمل على توعيتهم وإرشادهم.²

بعد خروجه من السجن ما لبث أن واصل الشيخ عمر مسيرته ونشاطه الإصلاحي والتعليمي الذي دأب عليه، حيث قام بمواصلة تأسيس المدارس العربية الحرة للتربية والتعليم بإقليم الأوراس حتى غط كل القرى والمداشر وهو ما سجلته تنسيقية من مركز الإعلام والدراسات بتاريخ 10 فيفري 1938م.³

وكذلك استطاع بفضل تسييره وحرصه على نجاح تعليم العلماء أن يغطي حاجة هذه المدارس حتى تلك الواقعة في المناطق الجبلية والنائية من المعلمين وهذا قصد بقاء هذه المدارس مستمرة الحياة رغم البيئة الصعبة، فكان يعمل على تسهيل الظروف من خلال توفير المستلزمات الضرورية للمعلم.

والجدير بالإشارة أن للشيخ عمر مساهمة كبيرة في تنظيم تمويل التعليم الإصلاحي بإقليم الأوراس فقد وفر إلى حد معتبر مصاريف تمويل مشاريع بناء وتشبيد المدارس وكذا أجور المعلمين التي كانت من تبرعات المحسنين وأنصار الإصلاح وجمع أموال الزكاة إضافة إلى ثمن بيع ما كان يجع من جلود الأضاحي.

وإن كانت هذه المصادر للتمويل هي نفسها في أغلب نواحي الوطن لدى جمعية العلماء إلا أنه يحسب للشيخ عمر قد ضمن بقاءها في أسوأ الأحوال عند حدها، وإن كان دائما يسعى لزيادتها وتطويرها وهذا بغية سد النفقات المتزايدة التي كانت تطلبها طموحه في زيادة المدارس ورغبة التطوير عنده.

¹ - المرجع نفسه، ص ص 49 - 50 - 51.

² - عبد الباسط دردور: نبذة عن حياة الشيخ عمر دردور، أعضاء على نشاط الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في منطقة الأوراس، الرياض للطباعة والنشر والتوزيع، باتنة، ص ص 119 - 120.

³ - عبد الحميد زوزو، المرجع السابق، ج 2، ص 40.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

وكذلك بقي يزاوّل دروسه المسجدية في الوعظ والإرشاد متنقلاً بين المساجد والمناطق المختلفة للأوراس ممتطياً خيله¹ مستثمراً موضوعاته الدينية في حث مستمعيه من الأوراسيين على العلم والتعلم والنفقة في سبيله وموعياً بواجباتهم اتجاه هذه المدارس ومعلميها، وكان يقصد من وراء هذا عضد هذا التعليم خاصة في المناطق الصغير حتى يقوى ويستقيم.

والحق أن الشيخ عمر دردور لم يقتصر مشرعه التعليمي في الأوراس على إيجاد المدرسة والتعليم الإصلاحيين ومدّها إلى كل مناطقه ومس بذلك كل أبناءها فقط، بل كانت فكرته أعمق بحيث حملت مشروع تطوير المدرسة بتحديثها وعصرنتها بقدر الإمكانات وهو ما يوافق الرؤية التربوية لجمعية العلماء.

فكان يعمل على تغيير وسائل العمل بتجديدها من خلال إحلال المقاعد والطاولات مكان الحصير والدفاتر والأقلام عوض اللوحة الخشبية والريشة وأقلام القصب، كما نقل برامج ومقررات تعليم مدارس الجمعية وأوصى المعلمين بالعمل بها، وحاول إدخال التنظيم التربوي بضبط وتيرة التعليم في الزمن اليومي كما تقتضيه التنظيمات التي وضعتها الجمعية. وكانت هذه المدارس تمنع من استقبال التلاميذ في أوقات عمل المدارس الفرنسية مما فرض على جمعية العلماء تنظيم استقبال التلاميذ وفق التوقيت التالي:

من الساعة 06:45 إلى 07:30 للفترة الصباحية

ومن الساعة 17:00 إلى 19:00 للفترة المسائية.²

وبالمجمل فقد كان الشيخ عمر دردور رأس الإصلاح في منطقة الأوراس الذي عولت عليه جمعية العلماء في نجاح مشروعها، وقد تولى كذلك تطوير جهود من سبقه كالشيخ الطاهر الحركاتي، ذلك أنه رغم حضوره القليل نسبياً كمعلم مباشر في المدرسة والمسجد غير أن دوره بالغ في نجاح المدرسة والتعليم الإصلاحي بالمنطقة، وهذا لما بذله في إقامة المدرسة الإصلاحية ومدّها في كل ربوع منطقة الأوراس قرى ومدّاش وحواضر، كما سهر على نجاحها في وسطها ودمجها حتى تصبح جزء من محيطها الاجتماعي، وقد كان ذلك من خلال جهوده ووقفته على تذليل الصعاب والعوائق لها وتوفير حاجاتها من المعلم إلى التجهيزات إلى توعية الناس مهما كانت فكرتهم ووضعهم البعيد على استقبال وتبني تعليم هذا النوع من المدارس،

لقد كان تكوينه الباديسي الفكري والحركي وكذا عنفوان شبابه وقوة إدارته وطاقته نشاطه سبيل إلى قيامه بهذه المهمة بنجاح كبير، إضافة إلى ما سهلته عليه وجاهاته الاجتماعية التي تعود إلى انحدره من عائلة دينية تتمتع باحترام في الأوساط الاجتماعية الأوراسية، هذا جعل مشاريعه وعلى رأسها التعليم يلقي قبول سريع وتبني له بقناعة خاصة لما لاحته فائدته على هذه الجماهير في تعليم أبنائهم ووعيهم، فحتى بعد مغادرته الوطن هروبا من الملاحقة والمضايقة الإدارية التي تعرض لها بقي هذا النوع من التعليم والمؤسسات يسدي مهامه إلى الاستقلال.

¹ - المقابلة السابقة لعبد الباسط دردور.

² - المقابلة السابقة مع السيد عمار ملاح.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

المطلب الثاني: جهود محمد يكن الغسيري

أولاً: النشأة والتكوين:

ولد محمد بن أحمد بن محمد يكن المنصوري عام 1915م* بمنطقة غسيرة وهي إحدى القرى الواقعة على السفوح الجنوبية لجبال الأوراس، ويرجع نسب عائلته إلى قبيلة أولاد منصور وهي أحد بطون قبيلة الغواسير الشاوية الأمازيغة.

عاش محمد الغسيري في بيئة جد متواضعة من الناحية المادية والثقافية بفعل تعدي الاستعمار عليها، أين تقل فرص الحياة التي تدفع للنجاح، ذلك أن مؤسساتها وإن بقت موجودة غير أنها كانت من الضعف ما تعجز فيه على المساهمة في صناعة النجاح والتفوق.

وكأغلب أبناء المنطقة عند السابعة من عمره التحق بكتاب قريتهم ليتلقى فيه مبادئ القراءة والكتابة وحفظ ما تيسر من القرآن الكريم¹، وتحفظ الوثائق التي عثرنا عليها أن محمد الغسيري أخذ تعليمه الأول على يد الشيخ خلاف رباشي أول معلم له إلى جانب أخذه على كل من الشيخين بولطيف أحمد بن مخلوف وحمودة عودة، كان فضل هذه الثلة من معلميه الأوائل كبيراً في المساهمة في تقدمه في حفظ القرآن.

في العام 1927م انتقل إلى زاوية أحمد بن الصادق لأولاد ميمون بغوي² وقد دام فيها إلى سنة 1929م، وفيها أتم حفظ القرآن كاملاً.

يذكر عن الغسيري أنه أظهر من طفولته ذكاء ملحوظاً وتحصيلاً سريعاً فيما يأخذه، بهذا استطاع حفظ القرآن كاملاً في سن الثالثة عشرة سنة 13 سنة، وهذا ما لم يكن يتأتى لأقرانه من أبناء منطقتهم لقلّة التزامهم وانضباطهم بالكتاب وأيضا لضعف التعليم التقليدي.

بعد هذه المرحلة من التعليم أصبح يطلب تعليماً في أوساط أحسن مما هو عليه في منطقتهم، فقصده زاوية سيدي الجودي ببسكرة³ التي كان يؤطر تعليمها الشيخ سيدي محمد الصغير جودي، كانت هذه الزاوية تحتل موقعا متميزا ومحترما عند سكان بسكرة والأوراس، ولعل قصد الغسيري لهذه الزاوية بالإضافة إلى طلب العلم أيضا طلبه التداوي مما أصاب عينه من المرض والذي حال دونه ومواصلة الدراسة التي انقطع عنها من 1929 إلى 1931م.

في سنة 1931م جدد الطالب محمد الغسيري العودة لمقاعد الدراسة والتحق بمدرسة الإخاء الإصلاحية التي كان يشرف عليها الشيخ خير الدين بعد عودته من الزيتونة، وقد انكب الغسيري على الدراسة والتحصيل بجد ونباهة عقل يحاول استدراك ما فاتته من تأخر في الالتحاق بهذه المدرسة جراء مرضه.

* - في دفاتر الحالة المدنية سجلت سنة ميلاده سنة 1919م بينما يذكر هوسنة ميلاده 1915م.

¹ - محمد الصالح، رمضان: الشيخ الغسيري في سطور، ص30.

² - عمر بن قينة: صوت الجزائر في الفكر الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص71.

³ - محمود الواعي وآخرون: تاريخ الأوراس مرجع سابق، ص277.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

ولما رآه منه الشيخ خير الدين من نبوغ ومقدرة على التحصيل أرسله إلى الجامع الأخضر للأخذ عن الشيخ ابن باديس وحمله رسالة إليه يوصيه فيها خيرا بالغسيري.

وبالجامع الأخضر الذي التحق به سنة 1933م لازم الغسيري دروس شيخه ابن باديس رفقة عدد من شباب الأوراس، فأخذ عليه العديد من العلوم الشرعية على منهاج الشيخ كالتفسير والعقائد وعلوم اللغة العربية من نحو وآداب والتاريخ...

فاستطاعت هذه الدروس أن تساهم في تكوين الغسيري معرفيا وفكريا، فحمل بذلك العلم والفكرة الإصلاحية، زيادة عن أن قدراته وحسن استماعه وتركيزه وجديته جعلته لا يفوت فرصة الأخذ عن شيخه كثيرا من مواهبه وخصاله وآدابه وأخلاقه ومنهجية تدريسه وفن خطابه.

إن هذا الاستيعاب والقدرة التي تميز بها الطالب الغسيري سرعان ما لفتت ملاحظة شيخه ابن باديس، من خلال تدخلاته ومناقشاته واسترجاعاته للأفكار عند الدراسة، ولأن الشيخ ابن باديس كان حاضر الذهن والانتباه مع كل تلاميذه الذين كان يبحث فيهم تميزهم لأعدادهم وتوجيههم لمهمات مشروعه، فإنه استطاع اكتشاف حدة ذكاءه ورغبته الشديدة في طلب العلم وأخلاقه الرفيعة.

كان تحصيله الجيد والسريع الذي هو الآخر جلب انتباه شيخه ابن باديس قد أهله لمهمة تكليفه بإلقاء الدروس نيابة عنه في مسجد سيدي بومعزة¹، وكانت هذا التكليف لا يمنح من قبل الشيخ إلا لمن وثق في علمه ومسؤوليته.

كما استفاد الغسيري من هذه التجربة في تعزيز الثقة في نفسه وتكوينه، مما أصبح شغوبا أكثر في طلب العلم وتحصيله من ذي قبل، ووجهت ذهنه إلى ما يجب أن يكون عليه في المستقبل من معلم مربي ومصلح.

ثانيا: جهوده في التعليم:

كانت مهمة التعليم والإصلاح من المهام التي كان يباشرها كل متخرج من حلقات التعليم لقادة الإصلاح ومدارس جمعية العلماء وعلى رأسها حلقة الدرس للشيخ ابن باديس مثل ما أسلفنا الذكر، إذ كان أثناء تعليمه يعد قصدا طلبته لهذه المهام.

والغسيري بعد إتمامه مشوار الدراسة والتكوين بالجامع الأخضر وتركيبته من قبل أستاذه ابن باديس، عاد إلى منطقتة الأوراس ليباشر فيها مهمة التعليم، وقد تزامنت عودته سنة 1937م مع مبادرة افتتاح أول مدرسة إصلاحية لجمعية العلماء بباتنة عاصمة منطقة الأوراس.

1_ :التدريس

¹ - محمود الواعي: مرجع سابق، ص 277.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

استهل الشيخ الغسيري دروره التعليمي بهذه المدرسة " مدرسة التربية والتعليم باتنة " لموسمها الأول إذ كان من أوائل المعلمين بها رفقة الشيخ عمر دردور، وقد تعددت نشاطاته بها فكان مدرسا وسهر على خدمة الشؤون الإدارية بها كمدير¹.

أما وظيفته كمعلم فقد كلف بتدريس مواد النحو والصرف والإملاء والإنشاء وهذا لما عرف عنه من جيادة لها وقد يظهر هذا جليا في كتاباته وما وقفنا عليه من مذكرات كان يصنعها في هذه المواد أثناء تعليمه بقسنطينة²، كما أيضا أسندت له تدريس مواد التربية الإسلامية وفقه العبادات والسيرة النبوية وتاريخ الخلفاء الراشدين. إن نشاطاته الحثيثة وجديته جعلته يسخر أغلب وقته للمدرسة، فبالإضافة لعمله كمعلم في أقسامه سهر على الأعمال الإدارية بها وعمل كل ما في وسعه من أجل تطويرها، كما أيضا عرف عليه حرصه الشديد على متابعة التلاميذ بتوجيهاته الأخلاقية والدينية والتعليمية، فقد كان يغرس فيهم الأخلاق والتربية والمعرفة أينما حلت المناسبة، ويذكر عنه أنه كان معلم صاحب استقامة ونشاط فكان يريد أن يكون مثال وقوة لتلاميذه وزملاءه.

والحق أن هذا النشاط الذي أبداه الغسيري وزملاءه من شباب ناشطي الإصلاح، قد أخاف حاكم الإقليم بالأوراس وإدارته فقامت بمحاولة إجهاض مساعيهم في مهدها حتى لا تكبر وتتوسع ويصعب القضاء عليها، فبادرت بالإقدام باهتمام الشاب عمر دردور الزميل القريب وتوأم الفكرة مع الغسيري، وتطور الأمر لسجنه، وما إن أحسن الغسيري بأن الدور التالي عليه حتى بدأ يفكر في الرجوع لشيخه ابن باديس.

وتذهب رواية أخرى أن سبب عودته المبكرة لقسنطينة تعود لرغبة الشيخ ابن باديس في استبقاء الغسيري ضمن فريق التدريس عنده بمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، وهذا يعكس ما كان يحرزه الغسيري من مكانة وما أدركه الشيخ ابن باديس من قدرة وموهبة يحسن استغلالها فيه في التدريس وتصريفها في النشاطات الإصلاحية الأخرى التي تحتاجها عاصمة الإصلاح قسنطينة فقام باستدعائه ليكون لجنبه.

ومهما كان سبب عودة الغسيري إلى قسنطينة فإن هذه العودة كانت فرصة ثانية له لمواصلة طلب العلم عند شيخه ابن باديس والاستزادة في التكوين المعرفي والحركي وهو الطالب الطموح الذي كان بعد أخذه الإجازة من الجامع الأخضر، يعول على مواصلة طلب العلم بجامع الزيتونة، إلا أن تقدير أستاذه الشيخ ابن باديس راء في توجيهه لمهمة التعليم وخدمة الإصلاح في داخل الوطن أولى للأمة من مواصلة تعليمه، وهو فعلا ما عرفه نشاط الغسيري إذ مثلت قسنطينة بيئة ثقافية ملائمة لنشاطه الإصلاحي، فطورت من ملكاته وقدراته واستوعبت حيويته ونشاطه الفائر، كما هو الآخر كان إضافة مهمة للحركة الإصلاحية استطاع تغطية جوانب عديدة من حاجة الجهد الإصلاحي خلال كل فترة حياته.

¹ - نفس المرجع، ص 279.

² - AWC. Inventaire analytique des archives privées saisies en Mai 1945 boîte N° 05 Mohamed ben Ahmed El mansouri El Ghassiri Constantine.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

وتبرز الوثائق الأرشيفية التي اطلعنا عليها مساهمة الشيخ الغسيري كمدرس بمدارس قسنطينة لطريقته التعليمية وذلك من خلال بطاقات العمل التي كان يعبدها كمذكرات لدروسه*، حيث يظهر فيها تبنيه الطرق التربوية الحديثة والعصرية، ومنها مثلاً اعتماده في درسه على المراحل ووضع أركان له مضبوطة.

كما نقف من خلال العديد من البطاقات المتنوعة الموضوعات إلى الوصول إلى أن الشيخ الغسيري قد حاول تغطية المقررات لتلاميذه بموضوعات تبعا لتنوع المواد الدراسية والمقررات والتي يبدوا العمل بها واضح، إضافة إلى هذا حداثة وجدة المعارف التي كان يقدمها وسهولة لغتها، وقد كان يرسم في درسه أهداف يريد تبليغها تبنى فيها فكرة دينية أو أخلاقية أو وطنية، وقد كان يستمد أمثله من التاريخ الإسلامي، فضلا عن أن مذكراته الدراسية تعكس أنه لم يكن منغلقا ومنطويا على الحضارة العربية الإسلامية فقط فقد أثبتت محتوياتها ومادتها المعرفية انفتاحه على الثقافات والآداب العالمية التي كانت فيها فضائل وحكم كهذه الأمثلة¹:
قال تولستوي:

((ليس اللص من يسرق ليأكل بل اللص من يرى اللصوصية تنتشر في البلاد ولا يعمل على تلافيتها بنشر التعليم والتهذيب.))

قال هوجو:

((ليست سعادة البلاد بوفرة مالها وبمتاعة حصونها ولا بجمال تنسيقها، وإنما سعادتها الحقة بالمهذبين من أبنائها وبالرجال ذوي التربية والأخلاق.))

من خلال هذه العينات لأقوال بعض العظماء نجد أن الغسيري يريد توجيه تلاميذه إلى المعاني العميقة للفرد الذي يراه نافعا لمجتمعه ووطنه بدوره الأخلاقي الموجه بالقيم المعنوية وهو بذلك يستهدف فيهم الوجدان وإنماء العاطفة الإنسانية المؤكدة مع الروح القومية والوطنية وهو ما يظهر حتى في اختياراته للأناشيد والقصائد الشعرية التي كانت موضوعاتها تثير الحماسة والعاطفة القومية والتحررية فكانت أشعار أحمد شوقي وحافظ إبراهيم ومعروف الرصافي وأسماء أخرى ممن عرفوا بالشعر القومي الحماسي.²

أما نصوص شعراء الجزائر وأدباءها فيبدو أنها كانت حاضرة تغطي أغلب الأمثلة التي كان يعتمد عليها في دروسه خاصة في القواعد أو الإنشاء والتعبير والإملاء³، وهو ما كان يخدم به الأهداف المعرفية من جهة والأهداف الوجدانية من جهة ثانية.

* - تأملنا ودققنا جيدا في أحد هذه المذكرات لدرس في القواعد بعنوان " المزيد الثلاثي " للوقوف على مدى اعتماده الطرائق التعليمية الحديثة، أنظر AWC. Inventaire analytique, Op.cit.

¹ - Ibid.

² - Ibid.

³ - AWC. Inventaire analytique, Op.cit.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

وقد لاحظنا على الشيخ الغسيري جهده في تدريب التلاميذ على التعابير والكتابة وقد استطاع ان يصل بهم إلى امتلاك مهارة عالية في الكتابة السليمة وبأفكار هادفة كما يظهر في تعبير " المدرسة " للتلميذة ابن البرج سليمة "وتعبير الفتاة الجزائرية "للتلميذة الطيب شريف حورية، ووقفنا على تعبير التلميذة أبو عبد الله حفيظة المعنون ب" الطفل المقلد لوالده " والذي امتاز بخطه الجيد وبناء فكري وتركيب سليم وذات محتوى ومضمون هادف¹، وهو ما يؤكد نجاح جهده وطريقة تعليمه.

ولم يتوقف الشيخ الغسيري في تكوين وتطوير مواهب تلاميذه على التعابير الإنشائية بل حاول معهم على تكوينهم لبناء محاولات شعرية بناء سليما كتلك المحاولات الشعرية التي عثرنا عليها ومنها المحاولة المعنونة ب" الفتاة والجرة " و "خطر الكذب"²، وقد أظهر أصحاب هذه المحاولات ملكة شعرية كبيرة وقوة في لغتهم ولا نستبعد أنهم واصلوا مسيرة الكتابة حتى أصبحوا شعراء.

زيادة على هذه الوظيفة نجد أن الشيخ الغسيري قد كلفته إدارة الجمعية في الكثير من المرات في إدارة مدارسها خاصة المدارس حديثة الافتتاح والإنشاء حتى تستقر أمورها وتتأسس إدارتها، وأيضاً كانت تستعين به في حل مشاكل المدارس التي ظهرت بها مصاعب ومشاكل، فكانت إدارة الجمعية ترسله لإدارة المدارس التي أثبت من كلفوا عليها من المدراء عجزاً في مهامهم البداغوجية والتسييرية وحتى مع المحيط الاجتماعي للمدرسة وكان لا يفارقها حتى تستقيم في وظائفها الداخلية وترتبط مع وسطها الاجتماعي بتفاعل في علاقات متينة.

ففي سنة 1947م تم تعيينه على رأس إدارة مدرسة البلدية لفترة تقارب الشهرين، وقد نجح الغسيري في تجاوز هذه المدرسة لصعوباتها، تم انتقال إلى مدرسة شلغوم العيد ليملك بها كمدبر مدة ستة أشهر³، وبعدها رجع إلى قسنطينة أين تم تعيينه مديراً على مدرسة باردو للموسم الدراسي 1949_1950م⁴، وكان لا يفارق المدرسة حتى يحل كل مشاكلها ويسلمها لخليفته في حالة متطورة.

وفي بداية سنة 1950م أرسله الشيخ البشير الإبراهيمي لإدارة مدرسة الإرشاد بسكيكدة وقد كانت منطقة سكيكدة فقيرة في الإصلاح مما انعكس على معاناتها في نجاح مشاريع التعلم الإصلاحية بها، فكان تدبير رئيس الجمعية في إرسال الغسيري إليها لنظره أنه الرجل المناسب لمثل هذه المهمة وقد طال به المقام مدة أربعة أشهر ونصف خلالها استطاع الغسيري تذليل الصعوبات الاجتماعية التي كانت تعانها هذه المدرسة في محيطها الاجتماعي، فقد تزايد عدد تلاميذها وأحدث تواصلًا وتعايشًا بين الأولياء والمدرسة، وساهم في ضبط حضور التلاميذ مع أوقات الدراسة وقلل بشكل كبير الانقطاعات الطويلة للتلاميذ وفك كل الصعوبات التي كانت حادثة بين المعلمين والعائلات وبذلك ربط المدرسة بمحيطها الاجتماعي ووطد العلاقة بين الأولياء والمدرسة وحوله

1- Ibid.

2- Ibid.

3- ANOM 93/2522, Bulletin mensuel des questions islamiques, Septembre 1950.

4- AWC. Inventaire analytique, Op.cit.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

كأطراف في المعادلة التعليمية من خلال تحسيسهم بأهمية دورهم وفعلا استطاع أن ينجز هذه المسؤولية بكفاءة عالية ويؤسس لهذه المدرسة في محيطها الاجتماعي ويحل كل مشاكلها.

2_ : جهوده في مهمة التفتيش

عمل الشيخ إلى جانب نشاط التدريس والإدارة المدرسية، مفتشا عاما لمدارس جمعية العلماء للعمليات الثلاثة "الجزائر قسنطينة وهران"، وقد استحدث هذا المهام البيداغوجية في إطار تطوير الجمعية لتعليمها وتحسين أداء معلميهما وتكوينهم على نحو يتماشى ومقاصد الرؤية التربوية لتعليمها.

وقد كان المفتش العام يقوم بمهام التنسيق بين المفتشين الجهويين ومدارس التعليم العربي الحر، كما كانت له صلاحيات زيارة المدارس وإعداد التقارير عليها، وقد مارس مهمته هذه ما بين 1946 و 1949م. ولا يمكن أن نفهم اختيار إدارة الجمعية للشيخ الغسيري في هذه المهمة إلا إلى ما كانت ترى فيه من مقدرة وأهلية لا تتوفر عند الكثير من رجال تعليمها.

يمكن أن نحسب للشيخ الغسيري ما كان يسهم فيه من جهد في "لجنة التعليم العليا" التي تأسست وفق قرار المجلس الإداري لجمعية العلماء المنعقد بتاريخ 13 سبتمبر 1948م، وقد أنشئت لتطوير العملية التعليمية بمدارس جمعية العلماء ورفع مستواها، فمطلب الإصلاح في هذا المضمار ومواكبة التطورات الحاصلة قد زادت حاجته تبعا للترتيبات التي كانت إدارة جمعية العلماء قد سطرها لتغطية حاجة مدارسها من معلمين مؤهلين وإرسال البعثات للخارج فكان من الجمعية إلا مساندة ما هو حاصل من عمليات إصلاحية وتطويرية قد تبنتها مدارس المشرق ومجاعة لمدارس التعليم الفرنسي.

فكان للشيخ الغسيري دورا رياديا في وضع منهج عملها ومهامها والتي كانت كالتالي¹:

__ وضع البرامج التعليمية.

__ صياغة اللوائح التعليمية.

__ إعداد الجداول العملية والتنظيمية.

__ مراقبة تنفيذ البرامج والتعليمات.

__ القيام بالدورات التفتيشية.

__ مراسلة المعلمين ومدراء المدارس في المسائل التعليمية.

__ تعيين ونقل المعلمين والمدراء بين المدارس.

وعليه فإن هذه الجهود تؤكد بما لا يدعو مجالا للشك أن الغسيري ساهم في وضع القواعد العلمية للتفتيش

بمدارس جمعية العلماء والتي كانت كالتالي:

¹ - البصائر: العدد54، السلسلة 5، 25 أكتوبر 1948.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

— تقديم تقرير فصلي عن كل مدرسة من حيث تجهيزاتها المادية وإطارها البشري ومشكلاتها المختلفة وحتى نظافتها.

ويبدو أيضا كان هذا التقرير يتبع بتقرير آخر يتضمن وضع المعلم بالمدرسة وطريقة تدريسه وسيرته ومحاوله تقدير حالة التحصيل لدى تلاميذه ومراقبة كراريسهم، ولم تكن هذه التقارير عقابية بقدر ما أخذت الطابع التوجيهي والتقويمي بالأخذ بالإيجابيات التي لوحظت على المعلم وتركيتها وتأكيدا ترمينا لجهوده، كما يقف على النقائص عارضينا ذلك بطريقة تربوية ولطيفة وكل هذا لغاية تطوير أداء المعلم ونجاحه في مهمته، وقد كانت هذه الإجراءات يعرضها الشيخ مع المعلمين في لقاء مباشر حال انتهاء الزيارة التفتيشية ليرفق بتقرير كتابي يتوخى فيه السرية ليصل إلى المعنى وإدارته فقط.

3_ : التعليم الكشفي:

عرف على الشيخ الغسيري نشاطه الكبير في الكشافة، تأسيسا وتكويننا وقيادة، وقد كان أثناء نشاطاته هذه في العمل الكشفي يقوم بدور تعليمي بالغ الأهمية لأفراد الكشافة، وتشير بعض الوثائق التي أتت لنا الإطلاع عليها دوره هذا، اين نقف على مساهمته في وضع برنامج تكويني وتعليمي للكشافة.

تطلعنا أحد دفاتره على مجموعة من الأناشيد الوطنية والدينية¹ المختارة بعناية لرفع الحماس وتقوية الوجدان لدى أفراد الكشافة وهو ما يعكس أن الغسيري كان يتوخى في برنامجه هذا أهدافا تربوية وطنية ودينية وهو ما يتوافق إلى حد بعيد مع الأهداف التربوية لمدارس جمعية العلماء، ويتعزز رأينا فيما يذكره الغسيري في دفتره أن التربية والتعليم الكشفي ترمي رسالتها إلى إحياء جميع المحاسن الإسلامية.²

فضلا عن هذا تطلعنا أحد الوثائق بملفه الأرشيفي والتي تبدو أنها مذكرة دراسية لدرس تحت عنوان "تمجيد العقل"³، يشرح فيها قيمة العقل عند الإنسان وفضله وما يجب على المسلم في ترقيته عن طريق العلم والتعلم مستشهدا بأدلة من القرآن والحديث النبوي الشريف، وهو بذلك يحيل تلاميذه من الكشافة لأهمية التعليم في تنمية العقل.

1- AWC. Inventaire analytique, Op.cit.

2- Ibid.

3- Ibid.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

4_ : رؤية الغسيري التعليمية في دور التعليم في قطاعات الأخرى

وقف الغسيري على قيمة التعليم بالمدارس الفرنسية الذي وصفه بأنه ليس ذو قيمة وقد يعود تكوين رأيه من الخلفية الوطنية والدينية التي نظر بها لهذا التعليم ومحتواه، فالشيخ الغسيري كان يرى أن مضمون التعليم الحكومي وسياساته لا تتوافق مع التكوين الحضاري والوجداني والنفسي لأبناء المجتمع الجزائري المسلم، وأهدافه لا تخدم تكوين شخصيتهم ولا مستقبل أمتهم، ويعود ليعرض وضع التعليم العربي الحر الذي كان حسبه في حالة حصار وضغط بسبب تلك القوانين والإجراءات الإدارية الجائرة التي سلطتها عليه السلطات الاستعمارية لإضعافه وقتله لما أصبح يشكله من خطورة على مستقبل مصالحها الثقافية بداية ومصالحها الأخرى المختلفة ثانياً.

ويطالب الحكومة والإدارة الاستعمارية بإصلاحات في هذا الميدان من خلال إعطاء الحرية المطلقة في تعليم أبناء المجتمع الجزائري المسلم لغتهم ودينهم.

ويذهب الغسيري إلى الاستغراب؛ كيف للحكومة أن تدخل في المدارس العربية الحرة وهي لا تحمل نفسها تكاليف تمويلها، وبذلك يضيف على الإدارة منح حرية المدارس الحرة وإلغاء القوانين وكل العراقيل في وجهها. نظرة الغسيري إلى دور التعليم في تطور القضاء:

كان الشيخ الغسيري ينظر إلى القضاء على أنه عاجز بسبب ضعف التعليم في الفقه والشريعة، ويرى أن للقضاء برامج وأسلوب تعليم لا يفيان الغرض ولا يوصلان إلى الكفاءة اللازمة التي يعول عليها لدى القاضي، وبذلك راح يدعوا إلى إصلاح القضاء والذي كان يراه بالتكوين الملائم للقضاة والتشريعات وبهذا الصدد يقول: ((...نرى أن ما يجب المبادرة إليه من الإصلاحات الخاصة، إصلاح القضاء الإسلامي... لأن برنامجه وأسلوب تعليمه لا يفيان بالغرض ولا يوصلان إلى الكفاءة اللازمة فكيف نجعل قضاء مثل هذا... وهو نفسه محتاج إلى الإصلاح وإصلاح هذا الخلل يكون بتوسيع برنامج القضاء التعليمي وتكميلها بإتقان دراسة الأصول ومأخذ الأحكام وحكمة التشريع الإسلامي والتوسيع في الفقه التطبيقي وعدم الاقتصار على كتاب أو كتابين من كتب الفقه وإسناد وظائف التعليم القضاء إلى فقهاء أكفاء يختارون الكتب ويعدون البرامج ويقومون بتنفيذها ويتدرجون بالتلاميذ إلى الكفاءة لا إلى الشهادة وحدها ويجعلون الأخلاق والتربية حضا من عنايتهم فإذا جرى الإصلاح على هذه الصورة من الآن رجونا أن يخرج لنا هذا التعليم قضاة أكفاء صالحون يتمنون إصلاح القضاء علمياً وعملياً...))¹، ومن هذا الرأي الذي خصه الشيخ الغسيري عن حالة القضاء الإسلامي والذي أبان فيه عن أسباب ضعفه وفي الآن نفسه ما يجب أن يصلح به والذي حصره في التعليم نجد أن الغسيري كان يعد التعليم القاعدة والركيزة الأساسية لمشروع إصلاح جميع القطاعات في حياة المجتمع المسلم كما يعد أن تراجع التعليم هو سبب تراجع وفساد وتحلف هذه لقطاعات، وبذلك يكون الغسيري رجل علمي يريد بناء وتحديد كل القطاعات

1- AWC. Inventaire analytique, Ibid.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

وفق نظرية تعليمية، وهو ما يعبر عن اكتشافه لأهمية التعلم والعلم وقد هذا يفسر لنا جوانب التعدد في نشاطه التعليمي لمختلف أوجه العمل الإصلاحي.

وما يمكن أن نخلص إليه من تجربة وجهد الشيخ الغسيري أنه كان شخصية إصلاحية متعددة الأوجه في العمل التعليمي إذ مس تعليمه العديد من مجالات الإصلاح وقطاعاته بدء من التعليم المدرسي الذي كان فيه معلما ومديرا ومفتشا كما شمل نشاطه وبحضور كبير التعليم الكشفي والذي كانت له فيه مساهمة بالغة الأهمية في وشع نشاطاته التعليمية وبرنامجه التكويني إضافة إلى رؤيته الإصلاحية التي كان يعتبر التعليم قاعدتها.

والغسيري ما يضاف له في الجهد لتعليمي طول مسيرته في هذا الميدان حيث من بداية ممارسته له في الثلاثينيات حتى الاستقلال وهو يباشره بكل مهامه وفي مناطق مختلفة من الوطن.

المطلب الثالث: جهود الشيخ أحمد السرحاني

أولا: نشأته وتعليمه

ولد أحمد بن عبد الحفيظ تيمقلين السرحاني في 10 أكتوبر 1912م بدشرة "رأس عيدل" ضاحية كيمل بالأوراس، عاش طفولته ببيعتها المحافظة في كفل أسرته المتدينة المعروفة بالعلم والصلاح، وكعادة العائلات المتدينة حرص الأب الشيخ عبد الحفيظ توجيه ابنه أحمد السرحاني وجهة علمية ودينية وهو الأب الحافظ للقرآن والعارف بالقليل من المعارف الدينية والمواظب على تطبيقها، فلم يكن يخفى عليه أهمية العلم في السمو بالإنسان، ففرغه لهذه المهمة دون سواها مما كان من نشاط له كالفلاحة وتربية النحل والتجارة، فعرف عنه أنه كان يخصصه بالتوجيه والتربية على حداثة سنه حتى استخلفه عند إمام قريتهم لتعليمه.

بدأ أحمد السرحاني تعليمه الأول في عمر السابعة على يد إمام قريتهم الشيخ مصطفى بن محمد المالحي خريج الجامع الأخضر وتلميذ الشيخ ابن باديس، فبادر تعلمه بتحفيظ القرآن و المبادئ الأولى والبسيطة للنحو والفقه، ثم توجه إلى زاوية خنقة سيدي ناجي للأخذ على مشائخها كعادة أغلب أبناء قريته، وفيها تطور مستوى التعلم لديه، حيث أخذ ما تيسر من الفقه والنحو والتفسير وعلوم اللغة مما سمحت به مدة إقامته بها التي لم تطول غير سنة واحد، لينتقل بعدها إلى زاوية الشيخ الصادق بالحاج بتبرماسين أين كان يدرس بها الشيخ الجموعي بالمازوزي الذي مثل قامة علمية أزهريه أضفت تجديدا وحيوية على مدرسة الزاوية وأعاد لها مصداقيتها بتحويلها إلى قبلة لأبناء المنطقة المتعطشين للعلم.

بعد الفترة التي قضاها في حلقات الدرس للجموعي بالمازوزي قرر العودة إلى زاوية خنقة سيدي ناجي ليواصل فيها تعليمه على يد شيوخها ومعلميها والذي كان أشهرهم "الصيديق بالمكي الأزهري"، هذه العودة تجعلنا في حيرة لفهم سلوك الطالب أحمد السرحاني، هل كان وراء عودته ظروف خاصة اجتماعية أو اقتصادية أم كان موقف من مستوى التعليم لحلقة الشيخ بالمازوزي لم يرضاه أحمد السرحاني أو موقف لوالد أحمد السرحاني الشيخ عبد الحفيظ، لما مثلته أفكار الشيخ الجموعي بالمازوزي الإصلاحية من غرابة على الأفكار المعتادة حتى هذه الفترة،

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

ومهما كانت التساؤلات التي تطرح حول محاولة فهم هذا السلوك إلا أننا لم نصل إلى مصادر تشفي قليلنا في الإجابة عنه، ونحن بدورنا نغلب تفسير حادثة الحلقة التعليمية للشيخ الجموعي بالمازوزي وهو ما يكون قد قللت ثقة الأب الشيخ عبد الحفيظ في فائدتها على ابنه أحمد وتفضيله لزاوية سيدي ناجي له وهو الذي كان أحد تلاميذها السابقين والعارفين والمطمئنين بذلك على مستواها.

مهما يكن يبقى أحمد السرحاني قد حظي بتجربته هذه بالأخذ عن أفضل الزوايا المتواجدة قريبة منه، وهو ما ساعده على تكوين قاعدة علمية أولية متينة في تلك العلوم التي عادة ما تعلمها هذه الزوايا كتحفيظ القرآن ومبادئ اللغة العربية والعلوم الشرعية وشيء من الفكر والتاريخ.

بعد إتمام أحمد السرحاني تعليمه بالزوايا وشعوره بكفايتها لحاجته المعرفية والعلمية راح يتطلع إلى البحث عن مصدر تعليمي أفضل وأعلى أفق علمي من المؤسسات السابقة، وحصل أن تزامنت رغبته هذه مع ما وصلت إليه دروس الشيخ ابن باديس من شهرة في منطقة الأوراس من خلال ما كانت تنقله الطلائع الأولى للطلبة الأوراسيين إلى الجامع الأخضر من أخبار عليها، فبادر هو الآخر ليلتحق بالجامع الأخضر قاصدا قسنطينة حاضرة العلم والإصلاح وينظم لدروس الشيخ ابن باديس بعد اجتيازه لامتحان القبول بنجاح سنة 1936م¹.

لازم الطالب أحمد السرحاني الدراسة بالجامع الأخضر حتى سنة 1940م سنة وفاة أستاذه الشيخ عبد الحميد بن باديس وبذلك يكون أحمد السرحاني قد حظي بالاستفادة من الأخذ عليه وخضع لمقراراته التعليمية التي كان يعتمد عليها في تكوين طلبته قاصدا إعدادهم لمهة قيادة مشروع الإصلاح والتعليم بالجزائر، وأيضا تكون قد أتبع له التلمذ عند كبار معلمي الجامع الأخضر من أمثال الشيخ الجيلالي الفارسي الأصنامي والشيخ محمد الملياني والشيخ عمار القلي والشيخ عبد المجيد حيرش أصحاب الخط التعليمي والفكري الإصلاحية.

بدأت آثار الأفكار الإصلاحية التي كان يتلقاها الغسيري على يد شيخه ابن باديس مبكرة، فقد كان وهو طالبا مازال يزاوّل الدراسة بالجامع الأخضر يفصح عن هذه الأفكار، بداية من خلال الكتابة في جريدة البصائر معبرا عن اعتقاداته الإصلاحية في مواجهة أوضاع ما كانت تراه الحركة الإصلاحية انحرافات وتشويه للدين الصحيح وتخلّف ثقافي وجب مجابتها، وهذا مثال مقتطف عن إحدى مقالاته الأولى التي عبرت على مستوى الوعي عنده والتي ضمنها الدعوة إلى التجديد والتحرير: ((...ثم أن تغير الشيء إما لقدمه ولعب يد الدهر به وتعاقب الجديدان عليه، إما لحملة على غير ما أتخذ وأنشئ لأجله وهذا فساد...وهو جهل...ويحتاج صاحبه إلى إرشاد، حتى تظهر له طرق السداد...يأمر بالتفكير في الدينويات والآخويات لأن المرء يبقى جثة هامدة باردة لا يحرك ساكنا...))²، دعوة إلى فهم الدين فيها يخضع لمتغيرات الحياة وحاجة الإنسان والمجتمع فيها.

¹ - فرحات نجاحي: محاضرة بعنوان "حياة مناضل، أحمد السرحاني"، 8 ماي 1996م، ص3.

² - أحمد بن عبد الحفيظ السرحاني: الإسلام لا يقدر الأشخاص، البصائر، السنة الثالثة، العدد 121، 8 جويلية 1938.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

كما شملت بعض مقالاته التي نشرها في جرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين* أحوال منطقة الأوراس وعبر خلالها على ما تعانیه من معضلات ومشاكل اقتصادية وثقافية واجتماعية، وقد ألقى مسؤولية هذه الأوضاع المتردية إلى السياسة الاستعمارية وتجاوزات الحكام الإداريين لأحوال الأوراس. وقد عكس اهتمامه هذا حمله هم المنطقة مبكراً، وتأمله مما تعانیه من أوضاع مزية جراء السياسات والممارسات الاستعمارية.

أما على مستوى النشاط الميداني الإصلاحي فهو الآخر ظهر على الشاب أحمد السرحاني مبكراً، فكان خلال عودته إلى إقامته من قسنطينة أثناء عطلة الصيفية يقيم دروس الوعظ والإرشاد في مساجد قرى الأوراس بروح إصلاحية متصدية فيها إلى الأفكار والمعتقدات الخاطئة ومصححا للعقيدة الإسلامية التي شابتها الخرافة والشعوذة، إضافة إلى إنشاء حلقات تعليمية لتحفيظ القرآن ونشر مبادئ الأولى للمعرفة الدينية.¹

ثانياً: جهوده التعليمية

بعدهما أنهى الشيخ السرحاني مشواره التعليمي وعودة الأخيرة من الجامع الأخضر، انتصب معلماً في بلدته كيمل وواصل نضاله الإصلاحي في الوعظ والإرشاد جاثباً مختلف مناطق الأوراس معرفاً بالفكرة الإصلاحية وعاملاً على تأسيس مؤسساتها من مدارس ونوادي وشعب، كلفه هذا النشاط تخوف واستياء الحاكم الإداري لإقليم أريس الذي عرف بمعاداته لنشاطات شباب الحركة الإصلاحية التي كان يراها تتنامى وتتوسع في المنطقة، وقد سجل ضمن الشخصيات المثيرة للتشويش والخطيرة وهو ما جعله متابعاً من قبل الشرطة، وفي سنة 1941م وبأمرية من الحاكم الإداري لإقليم أريس تم إلقاء القبض عليه من قبل مساعده "موريزو" بحوز "كيمل" بتهمة التحريض والدعوة للعصيان بعد تفتيش منزل أحمد السرحاني الذي قيدت حوالي سبعون وثيقة عثر عليها² تمثلت في مجموع المقالات التي كان يرسلها لمجلات وجرائد الجمعية كما عثر على أعداد من جرائد ومجلات مشرقية* ومراسلات تبادلها مع الشيخ ابن باديس بالإضافة إلى كتب تاريخية عن شخصيات نضالية ومقاومة جزائرية ومغربية كالأمير عبد القادر وعبد الكريم الخطابي وعمر المختار³، مثلت هذه الوثائق خلفية لتدعيم الحكم عليه، وقد انتهى القضاء الإداري إلى الحكم عليه بستة أشهر حبساً، ثم تم نفيه إلى مسكيانة التي لبث فيها ثمانية أشهر، ليخلى أمره في نوفمبر 1942م⁴، إلا أن الشيخ أحمد السرحاني وكأغلب ناشطي جمعية العلماء من الأوراسيين لم تنني هذه الإكراهات إرادتهم ولم تردهم على إيمانهم بفكرة النشاط الإصلاحي والتعليمي الذي عمقه

* - نشر في كل من البصائر والشهاب والصراف المستقيم والسنة المحمدية.

¹ - مصطفى تيمقلين وصلاح تيمقلين: محاضرة بعنوان نبذة عن حياة الشيخ أحمد تيمقلين السرحاني، 19 أكتوبر 1996.

² - لحسن بن علجية: الشيخ عمر دردور، دار الهدى للطباعة والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 1914، ص 53.

* - من بين هذه الجرائد القبس لسان حال الكتلة الوطنية بسوريا والقلم الحديدي لعرب المهجر بأمريكا.

³ - مصطفى تيمقلين وصلاح تيمقلين: المرجع السابق، ص 1.

⁴ - لحسن بن علجية: المرجع السابق، ص 53.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

فيهم تكوينهم فترة الجامع الأخضر، فكانت الأزمت تزيّد من تصليب مواقفهم وتعزير اعتقادهم في السير قدما نحو مشروع الإصلاح في منطقتهم فنجد الشيخ السرحاني منها اتجه لمنطقة مشونش حيث نشط هناك الإصلاح والتعليم.

- نشاطه التعليمي بمنطقة مشونش.

دخلت الحركة الإصلاحية منطقة مشونش* بداية الثلاثينيات ويؤرخ لها بسنة 1934م، وكان ذلك بمناسبة انتقال جماعة عن سكانها لاستقبال الشيخ ابن باديس في إحدى زيارته لمدينة بسكرة في هذه السنة، قصد لقاءه لطلبه تعيين إمام ومعلم لهم بقريتهم، فكان منه أن أوفد معهم الشيخ عبد الواحد واحدي أحد رجال الإصلاح الذي توعد فيه إنجاز هذه المهمة.

خلال فترة تواجد الشيخ عبد الواحد واحدي التي لم تتجاوز السنة الواحدة استطاع تنشيط العمل الإصلاحي مؤسساً حلقة تعليمية، فيها أخذ عنه الصغار صباحاً والكبار مساءً، وقد كان يعمل كل ما في وسعه إلى أن تكون دروسه تأخذ المنحى الإصلاحي مضموناً وبرنامجاً مراعيًا متطلبات المنطقة ومؤهلاتها، كما تميز نشاطه الوعظي والإرشادي على خطة جمعية العلماء التي كانت ترمي إلى تصحيح العقيدة ومحاربة الشرك والخرافة والعادات المجنبة للدين، زيادة على بعث وإتناء الأخلاق الحميدة كالتكافل والتعاون والدعوة إلى العلم.

أثارت نشاطاته هذه هواجس قائد المنطقة والشرطة الفرنسية لما لاحظوه من أثر إيجابي في وعي سكان مشونش ما دفعهم لمضايقته ومحاصرته ما اضطر للمغادرة خوفاً على سلامته.

رغم رحيل الشيخ عبد الواحد واحد المبكرة إلا أن فعالية نشاطه هذا خلال سنة تواجده تركت أثاراً وأرضية في التأسيس للفكرة الإصلاحية في بيئة مشونش بإطلاع عامتها على هذا الفكر الجديد كما ترك بعده ورثة لفكرته الإصلاحية من شباب المنطقة كتلميذه أحمد بن سي أحمد عباس.

غير أن الفراغ الذي تركه المصلح عبد الواحد واحدي بمشونش بمغادرته لها، عادت بعض العادات المشينة كشراب الخمر والقمار وتدهورت فيها الأوضاع الثقافية والدينية، ما استدعى جماعة من أهل الخير فيها الاتصال بأحد معارفهم وذو التوجه الإصلاحي وصاحب الوجاهة عند إدارة جمعية العلماء "السيد عبد الرحمان البركاني" المقيم ببسكرة لتزويدهم بمعلم يلي حاجتهم التعليمية والدينية و يتعهد أولادهم بالتربية والتعليم.

أرسلت جمعية العلماء إلى مشونش استجابة إلى طلبهم الشيخ أحمد السرحاني الذي وفد إليها سنة 1943م فانتصب بها إماماً ومرشداً بمسجدها سيدي بركات ومعلماً بمدرسته¹، يبدو أن الجمعية عينت الشيخ

* مشونش: منطقة تقع في الجنوب الغربي للأوراس، شبه صحراوية أي منطقة انتقالية بين الصحراء والهضاب وهي عبارة عن واحة تحيطها الجبال والهضاب الصخرية الجرداء من جميع جهاتها، يمر على أرضها الوادي الأبيض الذي أسهم في خصوبتها فتميزت بتعايش الزرع الصحراوي والتلي تكثر بها أشجار النخيل والزيتون والنعاب والخضر والفواكه.

¹ - محمد مهري: ومضات من دروب الحياة "مذكرات المحامي النقيب الأستاذ محمد مهري"، ط1، منشورات السائح، الجزائر، 2013، ص ص 32-33.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

أحمد السرحاني قصدا لمشونش، لما لوحظ عليه من مؤهلات ؛ فقد كانت تتوفر فيه صفات العلم وعمق الفكرة الإصلاحية من جهة وقوة العزيمة والإرادة والانضباط والجدية في العمل من جهة أخرى، وهو ما يمكن أن يتجاوز به إكراهات الإدارة والقياد وحتى بعض الصعوبات الاجتماعية المتعلقة بالمجتمع التي كانت وراء رحيل المصلح الشيخ عبد الواحد واحدي.

عند انتصابه الأول في التدريس سنة 1943م التحق به بعض العشرات من الطلبة والتي كانت أعمارهم متباينة ؛ مابين صغار وكهول وقلة من الشيوخ، كانت حلقاته الدراسية قد بدأها بمسجد سيدي بركات ومع مرور فترة قصيرة تزايد عدد طلبته فاستحال على المسجد استيعابهم مما استدعى الشيخ نقل حلقاته التعليمية إلى زاوية سيدي حمودة التي كانت أوسع فضاء.

والحق أن شعبة جمعية العلماء المسلمين بالأوراس وكذا أعيان وأنصار الإصلاح بمشونش ومن خلال ما كانوا يلاحظونه من تزايد كبير للطلبة على دروس الشيخ أحمد السرحاني حتى في زاوية سيدي حمودة، قد فرض عليهم التفكير في إنشاء مدرسة بمرفق تقدر على استيعاب الأعداد الحالية والقادمة من الطلبة. وأثناء فترة تعليمه بزاوية سيدي حمودة كانت أشغال إقامة المدرسة جارية بمبادرة ورعاية الشعبة الإصلاحية لجمعية العلماء بمنطقة الأوراس، وقد كان فضل أهل مشونش كبير في إنجازها أين جندوا لها كل جهد ومال حتى انتصب مبناها بشكله العصري ؛ بقاعاته وإدارته وفناءه.

افتتحت المدرسة الجديدة ونقل إليها الشيخ أحمد السرحاني طلبته الذين وصل عددهم إلى حوالي 150 طالب¹، فرض هذا العدد على الشيخ أحمد السرحاني تنظيمهم و التفكير في جلب طاقم تعليمي يرافقه في أداء مهمته، وقد أصبح الهيكل العقاري للمدرسة ذو جاهزية لوظيفة التعليم.

يذكر أن الشيخ أحمد السرحاني كان ملتزم بتدريس ثمانية ساعات في اليوم بالمدرسة، إضافة إلى وفاءه أداء درس بعد صلاة الصبح وآخر بعد العشاء كما عهد من يوم استلامه الإمامة بمشونش²، لعل تحمله لكل هذه الساعات من الجهد كان بسبب عدم توفر معلمين يقاسمونه عبئ التدريس بالمواصفات التي كان يشترطها ؛ سواء تعلق الأمر بالمستوى المعرفي أو التوجه الفكري _ الإصلاحية _ أو أن الشيخ كان يمتلك قدرة فائقة من الطاقة و النشاط تجعله يتحمل كل هذا الإعياء من الجهد في اليوم، أم أن نفحة الإصلاح فيه وحبه لمهنة التدريس تركته يصبر على مشاقها ويتنعمها" ويتلذذها".

مهما ما كان وراء الشيخ من دافع في بذله هذا، إلا أن الشعور بالمسؤولية والواجب والإيمان بالفكرة والمشروع الإصلاحي هي الثابت الذي كان وراء هذا العمل بهذه الطاقة وهو ما أسلفنا الإشارة إليه في سر اختيار الجمعية للشيخ أحمد الغسيري في مهمة الإصلاح بمشونش.

¹ - موساوي زروق: مسيرة مقاوم من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 2015، ص21.

² - نفس المرجع والصفحة.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

أما عن خطته التي أدار بها المدرسة الجديدة فقد تمثلت في تقسيمه لمرحلة التعليم فيها إلى ثلاثة مراحل ولكل مرحلة مقرراتها وقد جاءت كالتالي:

المستوى الأول: خص به المبتدئين وقد عين لهم مقررات تعليم الحروف الهجائية والقراءة ومبادئ بسيطة للغة العربية مع تحفيظ القرآن، وقد أحال هذه المهمة التعليمية للشيخ حمودة زكرياء المعاون الوحيد له حتى هذه الفترة.¹

المستوى الثاني: وفيه طور من مستوى المعارف المقدمة حيث ظهرت مواد اللغة العربية كالقواعد والنحو والإنشاء إضافة إلى مواد شرعية كالعقيدة التفسير والفقهاء والحديث وزاد على ذلك مادة جديدة تمثلت في الحساب.

المستوى الثالث: وهو المستوى التعليمي الأخير في هذه المدرسة تمثل في استمرار مواد علوم اللغة العربية كالقواعد والنحو والصرف والبيان والمواد الشرعية كالعقيدة والفقهاء والتفسير والحديث النبوي والسيرة النبوية وقد أضاف العلوم العقلية والفكرية كالحساب والهندسة والتاريخ وحتى العلوم الطبيعية.²

تولى الشيخ السرحاني تدريس هذين المستويين بنفسه، وقد تميزا بكثافة مقرراتهما كما هو ملاحظ إضافة إلى التدرج في المعارف والمواد من السهل إلى الصعب ومن البسيط إلى المركب والعميق ومن المبادئ إلى المضمون تماشياً مع القدرات العقلية لكل مستوى.

الجدير بالملاحظة من خلال هذا التنظيم الذي جاء به الشيخ السرحاني للمدرسة وما وضعه من مقررات دراسية فيها أن الشيخ كان يقارب منهاج ورؤية جمعية العلماء التعليمي في مدرسته ويتأكد ذلك في التوافق إلى درجة المطابقة بين البرنامج الذي اعتمده وبرامج مدارس جمعية العلماء وإن كان هناك اختلافات بسيطة وهي ليست بالشيء المخل فإن مرد ذلك إلى اجتهاده في تكييف ما هو متاح له من إمكانيات ووضع المنهجية المنطقية عند بدايتها _ وهو ما يحسب للشيخ.

كما عمل الشيخ أحمد السرحاني على تفعيل فضاء المدرسة بنشاطات ثقافية كانت مادتها إحياء المناسبات الدينية والوطنية، فجاء ضمن هذه النشاطات المسرحيات التي مثلها طلبة المدرسة كمسرحية بلال بن رباح³، التي ألفها الشيخ محمد العيد آل خليفة* وقد كان مضمونها يهدف إلى بناء فكرة أثر العقيدة والفكرة وقوتها في تحرر الإنسان وأثر الإسلام في المساواة بين المسلمين وهي لفظة للطلبة للمقارنة بين الإسلام وواقعهم في ظل الاستعمار،

¹ - موساوي زروق: المرجع السابق، ص 23.

² - المكان نفسه.

³ - فرحات نجاحي، المرجع السابق، 7.

* - هذه المسرحية التي ألفها محمد العيد آل خليفة تم عرضها في مسرحية قدمها تلاميذ مدرسة الشبيبة الجزائرية عام 1937م وخضرها قادة جمعية العلماء ابن باديس والطيب العقبي تم أصبحت تقليد في النشاط المسرحي لمدارس جمعية العلماء بكل القطر الوطني ويرجع قيمتها هذه لما تحمله من ابعاد تربوية واخلاقية ووطنية.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

ومسرحية الذكي والغبي التي ألفها الشيخ نفسه¹، وهي الأخرى كانت ترمي إلى بناء فكرة فضل الوعي والفطنة في ضمان حياة سعيدة وناجحة للإنسان لا يعرف فيها الاستغلال والعكس تماما مع مسرحية الغبي.

إضافة إلى نشاط الأناشيد الوطنية التي كان يؤلفها شعراء جمعية العلماء كالربيع بوشامة ومحمد العيد آل خليفة وأشعار رائد النهضة الإصلاحية الشيخ الرئيس ابن باديس والتي كانت تهدف إلى تأجيج حماس الطلاب وتقوية الحس الوطني والقومي والديني فيهم .

زيادة عن هذه الإنجازات، يذكر عن الشيخ أحمد السرحاني تجديده في المعاملة مع الطلاب أين تميزت معاملته بتبني التواصل الحديث مع تلاميذه وذلك بالانفتاح واللين معهم والتقرب منهم، وعمل على التخلص من الأساليب العتيقة التي كانت تتبنى العنف والجفاء لصناعة الهيبة والرغبة، وهي ما كانت تترك هوة بين الطلاب ومعلميهم وما لذلك من أثر سلبى على تحصيلهم المعرفي وبناء شخصيتهم، تزامنت هذه الممارسة من قبل الشيخ السرحاني مع دعوة جمعية العلماء وتبنيها أيضا هذه المعاملة التي كانت تعدها من صميم أفكارها التحديثية لتعليمها والتي يجب أن يعمل بها معلمي مدارسها مع تلاميذهم وفي هذا يرد مقال للشيخ الشبوكي في جريدة البصائر منوها بما فيقول: ((... وليس المقصود من كلمة التربية ذلك المعنى الضيق الذي لا يتجاوز إرهاب الطفل وإكراهه على الخضوع إلى قوانين المدرسة خضوعا لا يجد معه لذة ولا يستنشق فيه عبير الحرية، بل المقصود من كلمة الحرية معنى أوسع وأسمى وأعظم خطرا من ذلك ولعلي لا أكون مخطئا إذا قلت: أن هذا المعنى هو توجيه الطفل إلى الصلاح بأساليب تملئها شخصية المعلم نفسه...)).²

أما على مستوى الطريقة والتجديد في الأداء البيداغوجي فهو الأخر عرف إضافة مهمة من قبله، فلقد تميز درس الشيخ أحمد السرحاني مثل ما يصفه أحد طلابه "فرحات نجاحي" باعتقاد الحوار والنقاش في بناء المعارف وفهمها لدى تلاميذه³، فكان بذلك يفسح المجال واسعا للتفكير والنقد حد الجدال ويشجعهم على حرية الرأي؛ هادفا بوعي؛ تنمية هذه المهارات لديهم عملا بنظريته التربوية التي يقول فيها: ((فهم سطرين خير من حفظ قنطارين.))⁴، فالشيخ كان مستوعبا لأهمية الفهم وفعاليتها في أثر المعرفة لبناء وعي المتعلم، من الحشو الذي يراه تربية تعليمية سلبية.

ساهمت هذه الجهود المعرفية والتربوية وحتى التنظيمية في تطور مستوى مدرسته، حتى صنفته في رتب المتوسطات حسب التنظيم التربوي والتعليمي لمدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهو ما منحها حق إرسال خريجها مباشرة إلى معهد ابن باديس بقسنطينة.

1- فرحات نجاحي، المرجع السابق، ص7.

2- محمد الشبوكي: التربية أساس التعليم، البصائر، العدد2، 1 أوت 1947.

3- فرحات نجاحي: المرجع السابق، ص7.

4- المكان نفسه.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

فضلا عن أن هذه الجهود كذلك قد ساهمت في توسع سمعة الشيخ السرحاني التعليمية ما جعل مدرسته قبلة للمتعلمين الوافدين من مختلف مناطق الأوراس، كأبناء غسيرة وغوفي ومنعة وبني ملكم وبني ملول وأولاد سليمان وحتى التوابة وهي المناطق القريبة منها.¹

هذا التوافد الهائل على المدرسة زاد من تحدى الشيخ السرحاني الذي أصبح بين أمرين، أمر تحديد عدد المتعلمين وهو ما يترتب عنه حرمان آخرين من التعليم وهو ما لا يرضاه الشيخ السرحاني ولا يتماشى ورؤية جمعية العلماء الحارص على تنفيذها بنجاح، أو السماح لجميع الراغبين بالتمدرس وهو ما يمثل تحدي لطاقاتها وإمكاناتها خاصة ما تعلق بإيواء طلبة الإقامات البعيدة.

أمام هذا المفترق كان الواقع الذي ساهم في صنعه يوشئ له بحلول لهذه الإشكالية، لاشك أن إخلاص وتفاني الشيخ ونجاحه الباهر الذي أصبح واقع ملموس باديا أثره في ذلك التحول الكبير في حياة مشونش الذي نقلها من التخلف وانتشار الأمية إلى الوعي والنهضة التعليمية والدينية والاجتماعية وتوسع أنصار الإصلاح بها، قد زكاه عند أهلها وافتك بجدارة ثقتهم به، ما جعل أعيانها وأهل البر والإحسان فيها يعضدونه في كل بادرة خير، كتبليتهم طلبه واقتراحه تمويل إقامة وإطعام الطلبة الداخلين.

تعليمه بكيمل والولجة.

بعد أن قضى الشيخ أحمد السرحاني هذه الفترة المعتمدة بمشونش وحقق إلى حد بعيد جل أهدافه وأهداف جمعية العلماء أصبح يتعين عليه المغادرة إلى المواطن النائية التي مازالت لم تستفد من مدارس جمعية العلماء فقصده منطقة كيمل وهي منطقة أهله وذويه، وبالوصول إليها باشر في تأسيس قسم تعليمي² التحق به أبناء كيمل ممن كانوا محرومين من التعليم غير أنه لم يطل به المقام حتى افتعلت الإدارة فتنة بين المعلم أحمد السرحاني وبعض أتباع الإدارة وتطور الأمر لصراع أعاق عمله التعليمي غير أن تدخل بعض الأعيان والشخصيات الصالحة حد من هذا المشكل³ ما جعل الحاكم الإداري إلى تبني غلق المدرسة بحجة عدم حصوله على ترخيص.⁴

أمام هذه الوضعية التي آل إليها العمل التعليمي بمنطقة الأوراس عموما ورجال جمعية العلماء فيها بسبب تعسف الحاكم الإداري فإن كثيرا منهم اعتبروا هذه التجاوزات هي تحديات يجب عدم الرضوخ إليها وقد كانت الشيخ السرحاني أحد هذه الأمثلة فلم يستكين لقرار المحكمة بغلاق مدرسته ومنعه من التدريس، فتوجه إلى قرية

¹ - محمد الصغير هلايلي: شاهد على الثورة في الأوراس "مذكرات الرائد هلايلي محمد الصغير"، دار القدس العربي وهران، الجزائر، 2012، ص24.

² - محمد الحسن فضلاء: من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب وتطويرها وزارة الثقافة، الجزائر، 2002، ص64.

³ - محمد الصغير هلايلي المرجع السابق، ص28.

⁴ - أنظر مقالنا الجهود الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في منطقة الأوراس "19311956" (النشاط التعليمي أنموذجا)، المجلة المغاربية للمخطوطات، العدد 5، جوان 2017، ص238.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

الوجة بجنشلة وهي المنطقة النائية التي كانت ممكن أن تتيح له فرصة إنشاء مدرسة بعيدا عن أنظار الإدارة وبالفعل انتقل إليها مباشرة إنشاء مدرسة تعليمية تابعة لجمعية العلماء¹ ولكن الحال تكرر معه إذ سرعان ما صدرت في حقه أمرية بمنعه من التدريس وغلق مدرسته ومحاكمته.²

لم تسعفنا جهودنا في الوصول إلى معرفة الطريقة والأداء الذي كانت عليه دروس الشيخ السرحاني في هاتين المدرستين النائيتين في جبال الأوراس والتي كانت ظروفها الاجتماعية والثقافية لا تساعد حتى على إقامة حلقة تعليمية مهما كانت متواضعة الطموح، غير أننا إذا سلمنا بمعرفتنا السابقة لتجربته التعليمية في مشونش ومدى عمق فكرة الإصلاح عنده وإيمانه الكبير بمشروع جمعية العلماء فإننا لا نستبعد أن يكون قد تعايش بين ظروف فقر البيئة التي لا توفر إمكانيات مادية وتجهيزات عصرية كالصبورة والكراريس والطاولة والكراسي التي تتطلبها أدوات والطرق التعليمية الحديثة التي تبنتها مدارس جمعية العلماء، غير أنه على مستوى المضمون والأفكار فقد كان الشيخ السرحاني حتما يلقي أفكارا ومعارف تعليمية على نحو إصلاحي محاكيا بذلك البرنامج التعليمي لجمعية العلماء.

وما نخلص له من هذه التجربة التعليمية والعملية للشيخ أحمد السرحاني أننا نعتبره مثلا لرجال جمعية العلماء المحاربين في جبهة التعليم ضد سياسة استعمارية جففت كل منابع العلم والمعرفة في البيئة الجزائرية، كما تحدى حتى المضايقات وما كان يسببه له نضاله هذا من مكاره السجن فقط لإيمانه العميق بواجب رسالته التعليمية نحو أمته لتخليصها من استعمار ثقافي بداية واستعمار شامل نهاية.

المطلب الرابع: الشيخ أحمد بن السعدي الغسيري:

أولا: نشأته وتكوينه

أحمد بن السعدي بن أحمد بن محمد ميمون ولد سنة 1915م بأولاد ميمون بقرية غوفي التابعة لغسيرة³، نشأ في هذه البيئة المحافظة، وزاد من حظه أن تربى في أسرة متعلمة أين كان الأب السعدي ميمون متعلما وحافظا للقرآن، فكان فضل هذا أن بدأ في تعليم ابنه أحمد في سن مبكرة؛ سن الرابعة من عمره فحفظه القرآن وعلمه الحروف الهجائية، بعدها ألحقه بكتاب قريتهم بأولاد ميمون ليواصل حفظ القرآن والمبادئ الأولى في اللغة العربية وشيء من الدين كأداب المعاملات الإسلامية والصلاة والوضوء، وبعد ظهور ملامح النضج فيه وجهه إلى زاوية الشيخ سيدي أحمد بن الصادق عابدي بأولاد ميمون وفيها تعلم على يد خيرة شيوخها كالشيخ الجودي بن حركات الغوفي والأخوين الشيخين هراد الطاهر وهراد الصغير والشيخ عمار زمرة وكان هؤلاء الثلاثة من قرية نارة

¹ - المرجع والصفحة نفسها.

² - Haddad: Op, cit, p207.

³ - أحمد بن السعدي ميمون: حياة المجاهد الإمام المصلح الشيخ " أحمد الميموني الغسيري الأوراسي "، مذكرات شخصية غير منشورة، محفوظة بمكتبة العائلة، ص1.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

التابعة لمنطقة¹، استطاع فيها الحصول على تكوين معرفي وعلمي في كثير من المعارف الدينية واللغوية وكان فضلها عليه في إتمامه حفظ القرآن حفظاً جيداً وعمره لم يتجاوز 15 سنة.

بعد تخرجه من الزاوية عام 1932م بقي ملازماً لأبيه في مساعدته في العمل الفلاحي وكسب الرزق طيلة ستة سنوات، وعلى الرغم من عناء العمل إلا أن الشاب أحمد ميمون بقي متصلاً بتلقي العلم مستغلاً الحلقة الدراسية للشيخ مختار الميموني خريج زاوية العثمانية بطولقة الذي كان يقيمها بأولاد ميمون وفيها أخذ عنه علوم الفرائض وشرح الرحبية والأجرمية وفقه العبادات.²

هذه الرغبة الشديدة التي تميز بها أحمد ميمون في طلب العلم جعل من أبيه السعدي يلي له طموحه فيه، ومع تسامع أخبار دروس الشيخ ابن باديس ووصول صدى الفكرة الإصلاحية إلى قرية أولاد ميمون من خلال طالبة ابن باديس ونشاط ناشطي شعبة الأوراس، عزم الأب السعدي على إرسال ابنه أحمد إلى قسنطينة للالتحاق بالجامع الأخضر، رغم أن هذا القرار كان مكلفاً جداً للعائلة فالأم زينب كانت تعترض على الفكرة خوفاً من غربة أبنها و ما يترتب عنه من مكروهات وحشة فراقه، والوالد يعلم أن الانتقال للتعليم يحتاج المال الذي يجعله يضحى بما يملك.³

انتقل أحمد ميمون إلى الجامع الأخضر حوالي سنة 1938م، كانت دروس الشيخ ابن باديس وفريقه من معلمي الجامع الأخضر حتى هذه السنة قد وصلت إلى أعلى مراحل التنظيم والتطور لما كانت تعرفه من تقويم في مناهجها سنة بعد أخرى، والذي بفضلها تحولت قسنطينة إلى مركز علمي وإصلاحي تحاكي به الجوامع الكبرى بالعالم الإسلامي.

بعد اجتيازه امتحان القبول الذي وفق فيه بتفوق، بدأ يباشر رسمياً دروس الجامع الأخضر، الذي مكث فيه من سنة 1938م إلى 1940م سنة وفاة الشيخ ابن باديس، وخلال هذه السنوات استطاع الطالب أحمد ميمون التحصيل في العديد من العلوم والمعارف وفق المنهاج التعليمي والتربوي الذي كان يقصد منه تكوين إطارات قادرة على حمل المشروع الإصلاحية وتمثيله في تلك الأدوار والنشاطات الإصلاحية المختلفة، وقد تضمن المواد التالية: التفسير والحديث والفقهاء والفرائض والعقائد والأدب والمواعظ وعلم التجويد والنحو والصرف والبلاغة والمحفوظات والمطالعة ودراسة الإنشاء والحساب والجغرافيا والتاريخ.⁴

¹ - بروة مصطفى وسعيد حريقة: الجزائر تفقد العلامة المجاهد " أحمد الميموني الغسيري في باتنة "، جريدة النهار، 18 سبتمبر 2010، ص 09.

² - المكان نفسه.

³ - مقابلة شخصية مع السيدة فاطمة ميمون أخت مترجمنا أحمد ميمون، بسكرة 12 ماي 2014.

⁴ - لحسن بن علجيجة: مرجع سابق، ص 36.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

إضافة إلى حظه في التلمذ على يد ثلة من المشائخ والمعلمين الإصلاحيين المقتدرين، فزيادة عن الشيخ ابن باديس أخذ على الشيخ الجليلي الفارسي الأصفهاني والشيخ محمد الملياني وحمزة بوكوشة والشيخ عمار القلي والشيخ عبد المجيد حيرش.¹

وقد زاد في حظه أن زامل ثلة من الطلبة الأوراسيين بالجامع الأخضر الذين عرفوا بنوعهم ووعيمهم الإصلاحية ومكانتهم عند الشيخ ابن باديس مثل محمد الغسيري ومحمد الصالح رمضان وإبراهيم المازوزي وعبد الله حمودة والوردي بلال ومحمد مرزقة وإبراهيم بن زروال... استطاعت هذه الرفقة أن تخفف عليه آلام الغربة وتشجعه على التحصيل العلمي وتسهم في توجيهه الإصلاحية.

مثلت مرحلة الجامع الأخضر على قصر مدتها للطلاب أحمد ميمون أخصب فترة في التكوين العلمي والفكري الإصلاحية له، لما وجدته من عمق وتطور في المعارف والعلوم المبرمجة بهذه المدرسة وأيضاً للبيئة والمحيط الذي كان يصدق بأفكار الشيخ ابن باديس ونقاشات طلبته، إضافة إلى الجو الخارجي للجامع المرتبطة بما كان يعرفه وسط مدينة قسنطينة من تعدد مؤسسات التعليم المتنوعة المشارب الثقافية بين الفرنسية الغربية والعربية الإسلامية وبين التقليدي والتجديد وحراك النخب السياسية ونشاطاتها.

بعد وفاة الشيخ ابن باديس انتقل معظم طلبة الجامع الأخضر إلى جامع العربي التبسي بتبسة، وقد كان الطالب أحمد ميمون ممن آثر مواصلة الدراسة عند الشيخ العربي التبسي استكمالاً لتكوينه المعرفي والفكري الإصلاحية²، وقد ساهمت خطة العربي التبسي في المحافظة على نظام التعليم بجامعه بما كان سارياً من منهجية تربوية بالجامع الأخضر _ ويظهر ذلك في التزامه إلى حد بعيد بالمواد التي كانت تدرس به _ وهو ما جعل عملية اندماج وقبول الطلبة سهلة إذ لم يشعروا بكثير من الفارق بين الجامعين.

بقي الطالب أحمد ميمون متابعا للدراسة بجامع الشيخ العربي التبسي إلى نهاية سنة 1943م وخلال هذه المرحلة أخذ تعليمه على يد طاقم جديد من مشايخ ومعلمي الحركة الإصلاحية كالشيخ العربي التبسي والشيخ السعيد الزموشي والشيخ عيسى، وقد كان لهؤلاء أثر كبير في التكوين المعرفي من مختلف العلوم الدينية واللغوية³، إضافة إلى التكوين الفكري وحتى الشخصية، فتربى على الصبر والإصرار على تحقيق الهدف وقوة الإرادة وهو ما سوف يوظفه فيما بعد خلال مسيرة نضاله الإصلاحية.

ثانياً: نشاطه التعليمي

بعد نهاية مسيرة تعليمه وتكوينه سنة 1943م، عاد الشيخ أحمد ميمون إلى إقامته بأولاد ميمون، وفيها باشر نشاطه التعليمي الأول، فتولى الإمامة والتعليم بمسجدها إلى غاية 1946م، وبعد أن تسامع أخباره جماعة

¹ - أحمد بن السعدي ميمون: المصدر السابق، ص2.

² - جمعة بن زروال: الشيخ أحمد بن السعدي ميمون الغسيري ودوره في الحركة الإصلاحية والتعليمية في منطقة الأوراس والزيان، مداخلة بملتقى العربي التبسي بجامعة العربي التبسي تبسة المنعقد يومي 5-6 أبريل 2011م، ص30.

³ - أحمد بن السعدي ميمون: المصدر السابق، ص3.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

مسجد قرية تكوت أرسلوا له طلب تولي الإمامة والتعليم بمسجدهم، فانتقل إلى تكوت ليساهم في التعليم والإصلاح فيها على خطة الشعبة الأوراسية للعلماء، فكانت دروسه الوعظية والإرشادية للكبار وقت المساء بين صلاة المغرب والعشاء تتناول موضوعات العقائد والأخلاق فيحارب من خلالها الخرافات والشعوذة وكل البدع وما شاب الدين من مفاسد؛ معرفاً بالعقيدة الصحيحة للدين الإسلامي، كما أيضاً استهدفت دروسه لهذه الفئة موضوعات الأخلاق والمعاملات الإسلامية كالتكافل والتضامن والتسلح بالعلم والمعرفة، محرضاً على بعثها في تطبيقاتهم اليومية، أما الفترة الصباحية فقد خصصها للطلبة الصغار فكان برنامج درسه يتضمن تحفيظ القرآن وتعليم المبادئ الأولى لعلوم اللغة العربية من نحو وصرف والعلوم الشرعية كالعقيدة والفقه والتفسير.

كان لهذا الجهد خلال هذه المدة القصير التي لم تصل لعام واحد، الأثر البالغ في تعريف أهالي تكوت بطبيعة تعليم جديدة لم يعهدها عند معلمهم ولا مؤسساتهم التعليمية التقليدية السابقة، مما فتح الأذهان والعقول على مواصفات التعليم المطلوب والذي يجب أن يكون عليه التعليم المقبل، زيادة عن ذلك ساهم جهده هذا على التعريف به كمعلم جدير أصبحت تحتفي بطلب الاستفادة من خدمته أغلب اللجان الدينية ومجموعات الأعيان لمختلف المناطق المجاورة.

كان حظ بلدته غوفي في قرار الشيخ أحمد ميمون تفضيل العودة للتعليم بها من مجموع الطلبات الأخرى التي تلقاها هذا الاختيار لا يمكن أن نبرره إلا باعتراف الشيخ أحمد ميمون بفضل أهله عليه وما أثر ذلك بالاستفادة من جهده وعلمه، وفعلاً بعودته سنة 1947م عملاً بقول الرسول ص: ((خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)).

تولى الشيخ أحمد ميمون أمر مسجد غوفي الذي أسسته شعبة جمعية العلماء المسلمين للأوراس، وقد كان أول من باشر الإمامة والتعليم فيه الشيخ بن الجودي بن حركات الذي تزامنت وفاته مع عودة الشيخ أحمد ميمون إلى غوفي سنة 1947م، أثناء هذه الفترة نشط التعليم والإمامة، وللأثر الذي تركه بفضل جدارته العلمية توسعت أدواره للجانب الاجتماعي كالفتوى والقضاء والتدخل في قضايا إصلاح البين بين الأفراد والعائلات والعروش.¹ يعكس هذا التوسع في الأدوار على الرضى الذي حققه الشيخ أحمد ميمون لدى ساكنة غوفي، كما يحيلنا إلى فكرة مساهمته في قبولهم الفكرة الإصلاحية واستئناس أهل غوفي لها وما تبع ذلك من تغير في ذهنياتهم نحو مقصد المشروع الإصلاحي الذي ساهم أكيدا في وعيهم لقضاياهم ومصيرهم.

ولقد جلب أيضاً أداءه هذا تأييد شيخه العربي التبسي الذي أكد عليه مواصلة نشاطه هذا فراسله يقول : ((..تبليغ الدين إلى المسلمين و الترغيب في العلم و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودعوة المسلمين إلى مكارم

¹ - المصدر نفسه، ص 4.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

الأخلاق الإسلامية وتذكير المسلمين بها في دينهم من التحاب و التعارف وترك أسباب التباغض والتعادي والتقليل من الخصومات والاتجاه إلى التفاهم والتسامح فيما بينهم...)).*

كانت هذه الرسالة من شيخه وأبيه الروحي تمثل تركية أخرى في العمل الميداني، ما ستؤثر في زيادة الثقة في نفسه وتدفع به إلى إثراء نشاطاته بمبادرات أخرى في هذا الاتجاه، وقد عرفت فعلا نشاطاته زحما من الجهود التي كانت تصب كلها في نصيحة شيخه السابقة ووفق الخطة الإصلاحية لشعبة جمعية العلماء بالأوراس وتحت نظامها، ولعل أهمها مبادرته في تأسيس مدرسة التربية والتعليم بغوف

جهده التأسيسي والتعليمي في مدرسة غوفي:

كانت الظروف التي ساهمت في تفكير أحمد بن ميمون في إنشاء مدرسة التربية والتعليم بغوفي بالإضافة إلى قناعته بمنهج جمعية العلماء في إنشاء المدارس وتوسيعها في كل ربوع الوطن، ما عرفه جامع " هاوريرات " الذي تولى إمامته بعد عودته إلى غوفي من صعوبة وعجز في استقبال الأعداد المتزايدة من الطلبة الراغبين في التعليم، كما نظر أن فضاء المدرسة أليق لتطبيق برامج جمعية العلماء التعليمي واستفادة المتعلمين منه بخضوعه لتوجهات الرؤية التعليمية الوطنية للجمعية، وهو ما تحفقه المدرسة بأكثر مرونة مما يتاح في المؤسسات الأخرى هذا من جهة ومن جهة أخرى رغبته في تطبيق خطة شعبة جمعية العلماء بالأوراس التي هي الأخرى كانت تعمل على تنفيذ إصلاحات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ميدان التعليم والتي كانت تتضمن وجوب توسيع تعليمها إلى فئة البنات.

وأمام ما كان يلاحظه الشيخ أحمد ميمون من اقتصار التعليم بحلقته التعليمية بالمسجد على جانب الذكور فقط، فقد اهتدى إلى فكرة إنشاء مدرسة تعليمية من شأنها أن تكون فكرة لطيفة ومستساقاة من العائلات لإلحاق بناتهم بالتعليم، وهو يدرك صعوبة نجاح فكرة تعليم بناتهم لما تقتضيه خروجهن من البيت وهو ما يمثل تعارض مع تقاليد المجتمع الغوفي لحد تلك الفترة.

فكان من الشيخ أحمد ميمون يرى في المدرسة تغيير لظروف التمدرس على خلاف المسجد ذلك أن وضعية المتدرسين في جلوسهم ومراقبتهم وكذا تنظيمهم أقل حرج مما هو موجود في المسجد بالطريقة التقليدية، وأمام هذا يسهل إقناع العائلات لسماح لهم بانخراطهن في التعليم المدرسي.

دعى الشيخ أحمد ميمون لفكرته هذه التي استقبلها أهل غوفي بالقبول وبادروا بالمساهمة في بناءها ؛ كل بما يستطيع جهدا ومالا وقد عرف سي إبراهيم بخوش بحماسه للفكرة فتبرع بماله الكثير لأجلها ولم تقتصر التبرعات

* - رسالة من الشيخ العربي التبسي فيها جواب على سؤال للشيخ أحمد بن ميمون حول الميراث والوقف واحتوت في ثناها ثناء على تلميذه الشيخ أحمد بن ميمون، أرشيف أسرة أحمد بن ميمون.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

على أهل غوفي فقط بل امتدت إلى يد المحسنين من أنصار الإصلاح خارجها فسخر الهاشمي دراجي من بسكرة شاحنته لحاجتهم وأيضاً الحاج جلال من تكوت الذي كان اليد السخية لهم.¹

والحق أن الشيخ أحمد ميمون ولما رآه من وفرة في التبرعات فقد يكون وسع في فكرته فأضاف في المشروع بناء مسجد وبذلك كان المشروع طموح بحجم طموح صاحب الفكرة، فقد احتوى المبنى عن مدرسة وجامع من طابقين²:

– الطابق العلوي خصص للجمعة والدروس.

– الطابق السفلي خصص كمدرسة ومحاضرة للجامع.³

أطر المدرسة ثلة من الإصلاحيين البارزين بالمنطقة كالشيخ عمار بن الجودي قائد الإصلاح بغوفي والشيخ أحمد ميمون والشيخ سي إبراهيم بخوش والمعلم شعبان الوردى⁴.

استطاعت هذه المدرسة وفي مدة وجيزة أن تستثير اهتمام العائلات الأوراسية من المناطق المجاورة لغوفي، وهذا للنجاح الذي حققه طاقمها في زرع الثقة في مجتمعهم وأيضاً الدعاية الدؤوبة التي كانت تنشطها شعبة جمعية العلماء بالأوراس في الأوساط الاجتماعية لتعليم أبناءهم إضافة إلى أثر التحولات التي بدت لديهم على الطلبة الذين استفادوا من هذا النوع من التعليم.

ولم يقتصر تعليم هذه المدرسة على أبناء غوفي بل تعداها إلى أبناء المناطق الأخرى وهذا لما سمح به النظام الداخلي الذي كانت تعمل به مدرسة التربية والتعليم بغوفي إلى استقطاب أعداد معتبرة من أبناء المناطق المجاورة كتغلفال وتحمامت والاستفادة من تعليمها⁵.

وتجدر الإشارة أن البرنامج التعليمي المعمول به في المدرسة كان اجتهاد من فريقها للتوفيق بين حاجات طلبة المنطقة ومنهاج تعليم جمعية العلماء، وقد قسمت مراحل التعليم فيها وفق التنظيم المعمول به في تعليم الجمعية، إذ عرفت ثلاثة مراحل وكانت كل مرحلة يتلقى فيها تلميذتها مجموعة من المواد، وإن لم يتسنى لنا الحظ في معرفتها كاملة وبشكل صحيح لغياب الوثائق وبعد الزمن، إلا أن الرواية الشفوية مازالت تحفظ لنا شيء من مقرراتها والتي وردت كالتالي:

المرحلة الأولى: ويتم في هذا المستوى تحفيظ القرآن وبعض المبادئ الأولى من اللغة العربية خاصة تلك المتعلقة بالقواعد والنحو وقد أسند هذا المستوى للشيخ إبراهيم الجودي.

¹ – مقابلة شخصية مع السيد محمد بن علي عمائري، مجاهد وأحد أعيان غسيرة تتلمذ بها في مدارس جمعية العلماء، باتنة 26 ديسمبر 2014.

² – تقرير محمد الغسير عن سير الإصلاح في الأوراس AWC. Inventaire analytique, Op,cit.

³ – المقابلة السابقة مع السيد محمد بن علي عمائري.

⁴ – جمعة بن زروال: المرجع السابق، ص32.

⁵ – مقابلة السابقة مع محمد بن علي عمائري.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

المرحلة الثانية: خلال هذا المستوى يتعلم التلميذ التفسير لآيات وسور القرآن الكريم واللغة العربية ويواصل فيها الشيخ إبراهيم بخوش استكمال مهمة تدريسيها.

المرحلة الثالثة: يتميز هذه المستوى مقارنة بسابقه بكثافة مواد إذ يحوي على تعليم مختلف العلوم الشرعية من فقه وتفسير وسيرة ومختلف علوم اللغة العربية من نحو وقواعد وبلاغة وقد كان يتولى تدريسيها الشيخ أحمد ميمون.¹ إضافة إلى تعلم اللغة الفرنسية التي كان يتولى تدريسيها المعلم شعباني الوردني وهو أحد طلبة الشيخ أحمد ميمون بمدرسة تكوت مما يوحي لنا أن هذه المادة أخذ العمل بتدريسيها متأخرا.²

ويذكر سعدي بزبان أحد تلاميذ هذه المدرسة أنه أخذ فيها علم التجويد والقراءات على يد الشيخ عمار بن الجودي الذي عرف عنه نبوغه في هذا العلم منذ كان طالبا في بالجامع الأخضر، إذ كان يقدمه الشيخ ابن باديس لتلاوة الآيات القرآنية عند افتتاحية جلسات ولقاءات المناسبات، ولم يذكر في أي مستوى ومرحلة درسها، إلا أننا نغلب الرأي في تناول هذا العلم في المستويين الأول والثاني تماشيا مع حفظ القرآن لارتباطهما ببعض.

ونشير أيضا أن المدرسة ارتقت أدوارها فعرفت نشاطات ثقافية مختلفة كتتنظيم مسرحيات وأناشيد وإعداد مجلة مدرسية ومسابقات الرسم، وقد كانت تهدف هذه النشاطات إلى ترسيخ الوعي لدى المتعلمين واستكمال الجانب المعرفي في القسم، ويذكر سعدي بزبان أن الشيخ إبراهيم بن المختار بن زروال الذي كان يتمتع بذوق أدبي وفني قد نشط فضاء المدرسة بإخراجه لمسرحية بلال بن رباح التي ألفها الشيخ محمد العيد آل خليفة، وأيضا عرفت المدرسة بنشاطات المعلم محمد بن الصغير الميموني الذي كان يتولى تحفيظ الأناشيد الوطنية والقومية والدينية والتي كان أغلبها من مقررات تعليم جمعية العلماء ومن أشعار شعراء الإصلاح كالربيع بوشامة وعبد الكريم العقون ومحمد العيد آل خليفة زيادة عن أشعار قادة الجمعية وعلى رأسهم الشيخ ابن باديس.³

استطاع الشيخ أحمد ميمون أن يتمثل تصور الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء في مدرسته هذه التي بدأها بفكرة كانت غريبة نوعا ما عن واقع بيئة غوفي الثقافي إلى واقع معاش انتصب فيه التعليم الإصلاحي وازدهر بكل جرأة رغم ضغوط ومضايقات الحاكم الإداري وأتباعه ممن لا يروق لهم وعي وتطور المجتمع.

جهده التعليمي في المسجد:

تعرفنا على أن بداية النشاط التعليمي للشيخ أحمد ميمون بدأت بالمسجد، ووقفنا على جهده في مسجد غوفي وبعدها مسجد تكوت ثم بعودته إلى غوفي أين انتصب للتدريس بمسجد هاويرت، وقد بلاء البلاء الحسن في تنشيطه للدرس المسجدي ولكنه بتأسيسه للمسجد الجديد الذي أقامه مع المدرسة استطاع أن يوجه جهده فيه على نحو هادف كان من خلاله يراعي تحقيق الإصلاح يمثل ما تنشده جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

¹ - المقابلة السابقة مع محمد علي عميري وسعدي بزبان أحد تلاميذ المدرسة عمل صحفي فترة تواجده بالمهجر فرنسا، محادثة عن طريق المكالمات الهاتفية.

² - نفس المحادثة مع السيد سعدي بزبان.

³ - نفس المحادثة.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

وعلى الرغم من ضيق وقته لتكريسه لجهود كبير في التعليم بالمدرسة وشؤون أخرى يقتضيها العمل الإصلاحي إلا أنه لم يهمل تخصيص جزء من وقته في كل يوم للتعليم في المسجد الذي كان يعني به كبار السن، وقد خصص لهم الفترة المسائية وهي ما يتوافق مع أوقات راحتهم بعد تفرقهم من أشغالهم الصباحية، ويذكر عنه أنه حدد الفترة من بعد صلاة العصر إلى صلاة العشاء أين وقف هذا الوقت للمسجد، تعكس هذه المدة الطويلة الأهمية التي منحها لهذه الفئة إذ لم يقلل من شأنها في رغبته بالاستفادة من الإصلاح.¹

كان يتناول في دروسه مواضيع دينية وشرعية راعى فيها حاجات متلقيه، فكان يعالج مواضيع العبادات وكيفية أداءها ويصحح الأخطاء الشائعة التي ألصقت بها خاصة ما تعلق بالصلاة والصوم والحج والزكاة... الخ كما أيضا كان يعرج في دروس الفقه على المواضيع المرتبطة بالحياة اليومية للسكان كالزواج والطلاق والبيع والشراء وزيارة الأقارب والأرحام ونحو ذلك من فقه المعاملات موجهها فيها للتيسير والتسهيل لتجاوز المشاكل الاجتماعية.²

كما أيضا كان يستهدف في دروسه في العقيدة محاربة الشرك والخرافات ناهيا عن كل العادات التي من شأنها إفساد عقيدة المؤمن كزيارة قباب ما يسمى الأولياء والصالحين والاعتقاد في نفعهم والدعاء باسمهم كالترضع لضريح "سيد أحمد" و"سيدي موسى".³

إضافة إلى تخصيصه شطرا كبيرا من دروسه إلى الأخلاق فكان الشيخ أحمد ميمون يوجه دروس التفسير والحديث وحتى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي لإحياء الخلال والأخلاق الحميدة كالتسامح والتعاون والإتحاد والعمل و حارب الأخلاق الفاسدة كالكرهية بين الأفراد والجماعات وشرب الخمر والغمار وتضييع الوقت فيما لا ينفع وأيضا حارب بشدة عادة رقص النساء في الأعراس بحضور الرجال التي كانت ظاهرة مستشرية حينها بالمنطقة.⁴

وأيضا تضمنت دروسه أفكارا كانت تهدف إلى التوعية الوطنية والسياسية خاصة في الفترة القريبة من الثورة، وقد لاقت دروسه تأثيرا واضحا في المجتمع وبدأ مفعولها الإصلاحي يظهر جليا من خلال ما عرفه المجتمع من وعي وتغير فيه نحو الأحسن، وقد ظهر هذا الاستحسان في الأعداد المتزايدة من الراغبين في الاستفادة من درسه.

والحق أن هذا الفضل يعود إلى منهجيته البارعة فالشيخ أحمد ميمون كان يعتمد أثناء درسه طريقة منظمة وسهلة إذ قسم الفترة المسائية إلى فترات لكل فترة موضوعها، وكان أثناء درسه لا يكثر من الاستطرادات والتشعب في الموضوع أو الخلط بين الموضوعات والانتقال بينها، وعرف عنه أنه يختار موضوع واحد وبلغة سهلة قريبة لفهم

¹ - المحادثة نفسها.

² - المحادثة نفسها.

³ - المحادثة نفسها.

⁴ - المحادثة نفسها.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

المتلقين وفي كثير من الأحيان يعتمد لغة الشاوية حتى يضمن وصول فكرته خاصة للمتلقين من الكبار من لم يسعفهم الحظ التعلم ومعرفة اللغة العربية.

ولان الشيخ أحمد ميمون كان ناشط بالعمل الإصلاحي فإن هذا مهد له الانخراط في النضال السياسي الوطني، وباندلاع الثورة التحريرية 1 نوفمبر 1954م التحق بالثورة ضمن العمل المدني، اختارته قيادة الثورة للبقاء معلما ومرشدا وخطيبا، وقد تولى هذه المهمة بمسجد "بوهرمورث" بأولاد ميمون مكان إقامته وأهله، وكان خلالها يستدعي تعليما للأولاد ودروس مسجدية وكذا دروس الوعظ والإرشاد خدمة لخط الثورة التحريرية والذي كان يعتبره الشيخ استمرار لخط الحركة الإصلاحية ومنهجها.

وقد كان يسهر من خلال دروسه بالإضافة إلى الجانب المعرفي إلى غرس الروح الوطنية والتحريرية عند متلقيه وتلميذته، ويذكر أنه كان على اتصال دائم مع مصطفى بن بو العيد وأيضا مسؤولي الناحية بمنطقته لحاجته في استشارته في القضايا الدينية ولاعتبار دوره كقاضي ومفتي للثوار.¹

وقد تطور دوره المدني في الثورة إلى منحه رئاسة لجنة جمع الاشتراكات بمنطقة غسيرة وذلك في سبتمبر 1956م والتي تكونت من الشخصيات التالية:

أحمد ميمونرئيسا.

سي الجودي نوارى.....نائبا.

سي خلاف عبد الله.....نائبا.

الطيب السرحاني.....نائبا.

سليمان أعطري يخلفنائبا.

سي علي بن بوزيد.....نائبا².

خلال هذه الفترة غلب الجانب الثوري ذو الطبيعة المدنية المتمثل في جمع الاشتراكات والتمويل وتكوين الخلايا الفدائية، على العمل التعليمي إن بقي، فالملاحظ أن وتيرته قلت عما كانت عليه حتى الاستقلال أين تولى عدة مناصب في التعليم حتى وفاته في 16 سبتمبر 2010م.

¹ - مصطفى برو وسعيد حريقة، المرجع السابق، ص9.

² - أحمد بن ميمون السعدي: مصدر سابق، ص5.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

المطلب الخامس: الشيخ سعد حب الدين.

أولاً: نشأته وتعليمه

ولد سعد حب الدين بن الطيب بن بلقاسم بن محمد الطيب عام 1898م بتازويانت بقرية حيدوس التابعة لثنية العابد بواد عبدي¹، وهي منطقة تقع في الإقليم الغربي لمنطقة الأوراس، عرف عن هذه البيئة افتقارها للعلم والثقافة حالها حال كل منطقة الأوراس فترة الاحتلال نتيجة ما تعرضت له مؤسساتها التعليمية والثقافية والدينية من عنف من قبل إدارة الاستعمار، إلا أن الطفل سعد حب الدين كان ينتمي إلى عائلة دينية حافظت على القليل من تقاليد العلم الديني وتعليمه، فعرف على أسرته توارث حفظ القرآن ومهنة التعليم القرآني أبا عن جد، فوالده محمد الطيب المولود سنة 1857م الذي حفظ القرآن عن جده بلقاسم انتصب لتحفيظ القرآن بزواية لقصر بحدوس ومدرسا لمبادئ اللغة العربية والدين²، وبهذا حظي الابن سعد حب الدين بالرعاية والاهتمام من قبل والده الذي سهر على تحفيظه وتعليمه وتوفير كل العناية لتذليل له سبل التحصيل العلمي، فسمى سعد منذ طفولته على القراءة والكتابة وتعلم مختلف علوم الدين حتى نبغ فيها.³

لقد كانت مسيرته حافلة بالتكوين على المستوى المعارف العلمية من جهة والشخصية من جهة أخرى، ذلك أن سعد حب الدين تعلم القرآن وحفظه على أبيه كما تلقى عليه مبادئ الفقه والتفسير والعقيدة ومبادئ اللغة كالنحو والصرف وبعض العلوم العقلية كعلم الكلام والمنطق والحساب والفلك.⁴

ومع قيام الحرب العلمية الأولى كان الشاب سعد حب الدين مع أخويه بلقاسم والطاهر ضمن قائمة المدعون إلى التجنيد في الجيش الفرنسي⁵، الذي بقي فيه طيلة أربع سنوات كاملة من 5 ماي 1918 إلى 23 أبريل 1922م، وخلالها انتقل إلى لبنان ضمن صفوف الجنرال غورو الغازية لبلاد الشام.

إن هذه التجربة تكون قد منحت الشاب سعد الكثير من الخبرات والتكوين، فالتربية العسكرية التي تعرض لها خلال هذه الفترة وكعادة الجندي أن تمنحه تربية الانضباط والنظام ومبادئ العمل العسكري الأخرى التي من شأنها أن تسهم في بناء جانب من شخصيته قد لا تتاح لغير العسكري.

زيادة على هذا فإن المجند يخضع إلى دورات تعليمية مستمرة لاعتبار العسكرية مدرسة تراعي أهمية تثقيف وتعليم أفرادها، وبذلك يكون الشاب سعد قد تعرض لتعليم وتثقيف في بعض المعارف كاللغة الفرنسية لوجوبها

¹ - بومعروف سيف الإسلام: المجاهد سعد حب الدين، "واحد من مهندسي اجتماع لقرين وصناع أول نوفمبر"، جريدة الأوراس، العدد 303، 31 أكتوبر 2015، ص14.

² - حليسي الطاهر: سعد حب الدين تلميذ ابن باديس الذي رافق بن بوالعيد في الجهاد، جريد الشروق اليومي، العدد 5071، 16 أبريل 1916، ص14.

³ - المكان نفسه.

⁴ - عمار ملاح: قادة جيش التحرير الوطني ج6، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2014، ص128.

⁵ - بومعروف سيف الإسلام: المرجع السابق، ص14.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

للتواصل مع مجموعته وأيضا في الصحة والسياسة والفكر على محدوديتها لضمان حد معين من الوعي لدى أفراد جيشها، والأکید أن سعد حب الدين قد تعرض للدعاية التي كان ينشرها الحلفاء لقيم الديمقراطية والحرية وحق الشعوب في تقرير مصيرها وهو ما سوف يكون بالنسبة له ثقافة سياسية وحقوقية تنتهي به إلى الوعي الوطني. إضافة أن الجو الاجتماعي للجيش خاصة في تلك الفترة التي عرفها الجيش الفرنسي من تعدد أعراقه وجنسياته لما أفضاه قانون التجنيد الذي فرض على شباب مستعمراتها، قد يساهم في إطلاعه على التنوع الثقافي الإنساني وتمكنه من امتلاك القدرة على التواصل الاجتماعي والثقافي والرسمي.

والجدير بالذكر كذلك أن فترة انتقال سعد إلى لبنان تزامنت مع صدى الحركة القومية التي عرفتها المنطقة العربية في المشرق فكان قريب الاتصال بها وقد يكون تعرف عليها ولحقه شيء من تأثيراتها عليه، كما لا نستبعد أن تلحقه حتى أفكار الإصلاح الإسلامي التي هي الأخرى عرفت أوج دعايتها في هذه الفترة، من كل هذه التأثيرات المتقاربة والمتباينة والمتضاربة أحيانا التي تعرض لها سعد حب الدين ولموقعه كجزائري عربي مسلم يكون قد وعى الفكرة التي يجب أن يحملها وتنسجم مع وضعه وثقافته.

بعد تسريحه من الجيش الفرنسي سنة 1922م تجددت الرغبة عنده في مواصلة التعلم، فالتحق بزواية سيدي علي بن عمر بطولقة فأخذ على مشايخها مختلف العلوم التي كانت تدرسها وفق منهاجها في تلك الفترة، ومنها انتقل إلى زاوية تبرماسين بجبل أحمر خدو وقد تزامن تعلمه بها مع تلك الإصلاحات التي أقدم عليها أصحاب الزاوية خاصة على مستوى التعليم فيها و مستوى معلمها ، ومنها إلى زاوية خنقة سيدي ناجي¹، التي كانت تعد أعلى مراحل التعليم في زوايا الطريقة الرحمانية بالمنطقة، إن انتقاله هذا إلى أشهر الزوايا التعليمية بالمنطقة سوف يكون له أثره على تحصيله في مختلف العلوم الدينية والشرعية واللغوية.

وفي العام 1927م سافر إلى فرنسا والتي مكث بها قليلا لينتقل منها إلى تونس قاصدا جامع الزيتونة²، متزودا من علمه ومعارفه على يد مشائخه الأجلاء، إن سفرياته الأولى هذه وإن كانت قصيرة إلا أننا لا يمكن أن ننكر أثرها على ما سوف يطلع عليه ويضاف إليه، فالجو الاجتماعي بفرنسا سوف حتما يفرض عليه المقارنة بما هو كائن في مجتمعه من هوة شاسعة يرد سببها لمضاعفات السياسة الاستعمارية، أما عن السنة التي قضاها في الزيتونة وعلى قصرها فحتمًا يكون قد أخذ معارف وأفكار سوف تساهم في توجيهه الفكري فيما بعد وهو فعلا ما سوف يعرفه انتماءه للحركة الإصلاحية لجمعية العلماء الجزائريين.

بعد عودته ومكوته بإقامته لفترة انتصب معلما بزواية الأحباب بمدرونة محفظا للقرآن ومبادئ اللغة والعلوم الشرعية على المنهج التعليمي للزواية، وفي شهر أبريل من سنة 1930م شدته رحلة ثانية إلى فرنسا دامت سبعة أشهر ومنها انتقل إلى المغرب قاصدا مدينة فاس.³

¹ - درود عبد الباسط: الشيخ المجاهد سعد حب الدين، محاضرة بمناسبة عيد العلم ببلدية أولاد فاضل 16 أبريل 2015.

² - بومعروف سيف الإسلام: المرجع السابق، ص 14.

³ - المكان نفسه.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

إن رحلاته الأخيرة وإن لم تقف المصادر التي تكلمت عنها عن أسبابها ودوافعها، إلا أننا نرجح الدافع الاقتصادي إليها فمعلوم أن هذه الفترة عرفت زيادة في عدد المهاجرين الأوراسيين إلى فرنسا بحثاً عن العمل وخاصة مناطق أولاد عبيدي، ومهما كانت الدوافع والأسباب لرحلاته إلا أنها كانت ذات أثر على تعميق أفكاره وتوسع أفقه العقلي وتوجهاته النضالية فيما بعد.

بعد العودة للوطن سنة 1931م واستقراره النهائي به، باشر التعليم بزواية لقصر التابعة للطريقة الدردورية بقرية حيدوس¹ على عهد أبيه وجدته، وأثناء هذه الفترة _ ثلاثينيات القرن 20م _ كانت الأفكار الإصلاحية تعرف توسعها وامتدادها لمختلف مناطق الوطن، وقد كانت منطقة الأوراس أحد المناطق التي وصلها صدى هذه الحركة، فاندماج الشباب سعد حب الدين في أجواءها فقد لقي ذلك التوافق بينها وبين أفكاره التي كونها خلال مسيرته السابقة، فنظر إليها على أنها فكرته التي كان يبحث عنها، وزاد شوقه في التزود بها لما كان يصله عن رائدها الشيخ ابن باديس فرغب في الالتحاق بدرسه والتلمذ عليه مباشرة.

انتقل سعد حب الدين إلى الجامع الأخضر بداية ثلاثينيات القرن 20م²، أين خضع لتكوين معرفي علمي وفكري إصلاحي وفق الرؤية الإصلاحية والتعليمية لجمعية العلماء وقد تعرض لنفس التأثيرات التي تلقاها الطلبة الأوراسيين بالجامع الأخضر خلال هذه الفترة الزمنية كعمر دردور و محمد يكن الغسيري وأحمد السرحاني، فصقلت أفكاره التغييرية والإصلاحية والتحررية وفق نظرية الإصلاح لجمعية العلماء.

ما انتهت فترة دراسته بالجامع الأخضر سنة 1936م حتى كانت الحركة الإصلاحية قد ضمت إلى قائمتها ناشط إصلاحي من الطراز الرفيع الذي سوف يمثل إضافة هامة في العمل الإصلاحي في الأوراس من خلال اجتهاداته النضالية لإنجاح مشروعها في منطقة لا تتوفر حتى بداية عقد الثلاثينيات على شروط استقبال الفكر والحركة الإصلاحية.

ثانياً: نشاطه التعليمي

بدأ سعد حب الدين مسيرة عمله التعليمي مبكراً إلا أنه تميز بالانقطاع وعدم الاستقرار، خضعت لفترات استقراره بإقامته بين رحلاته وأسفاره التي لم تنتهي إلا مع عودته النهائية سنة 1931م، كانت سنة 1936م هي البداية الفعلية والمستمرة أين انخرط الشيخ سعد حب الدين في التعلم الإصلاحي بعد توجيه الشيخ ابن باديس له لتنشيط النشاط الإصلاحي لجمعية العلماء مع رفاقه من خريجي الجامع الأخضر في مناطق إقاماته³، فبادروا مباشرة بعودتهم إلى مناطق إقامتهم بالأوراس إلى الالتزام بوصية أستاذهم عبد الحميد بن باديس بتأسيس الشعبة الأوراسية التي سوف تتولى إقامة المدارس والمساجد التعليمية تحت إشراف جمعية العلماء.

¹ - دردور عبد الباسط: المرجع السابق ص3.

² - حليسي الطاهر: المرجع السابق، 14.

³ - عمار، ملاح: المرجع نفسه، ص128.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

درس الشيخ سعد حب الدين بالزاوية الدرديرية بجيدوس متناوبا بين مدرستها ومسجدها حيث كان يخصص المدرسة لتعليم الأبناء الصغار والذي كان يتناول فيه مواد وموضوعات دروسه وفق منهج جمعية العلماء التعليمي ورؤيتها التربوية¹، وقد خصص أوقات الصباح والمساء حتى العصرية لهذه الفئة وبذلك تكون هذه الفئة قد أستثيرت بالوقت الأكبر والأليق للتعلم.

أما تدرسه بالمسجد فقد خص به فئة كبار السن في الفترة المسائية بعد كل صلاة عصر وهي الفترة اللاتقة والمناسبة للكبار بعد تفرقهم من أعمالهم، وقد خضعت هذه الدروس هي الأخرى إلى رؤية جمعية العلماء²، فكانت دروس العقيدة يستهدف فيها محاربة الخرافات والبدع أما دروس التفسير فقد كان ينزل الآيات على الواقع اليومي والحياتي للناس مستعينا بالحديث والتاريخ الإسلامي لأجل بناء الوعي بالقضايا الوطنية والدينية.

موازة مع نشاطه التعليمي هذا كانت له نشاطات حثيثة في الدعاية لجمعية العلماء المسلمين في أسواق ومداشر وقرى الأوراس كجمع الأموال وتوعية الناس، هذه الأعمال أثارت استياء الحاكم الإداري لإقليم منطقة الأوراس الذي كان منزعجا من هذه النشاطات الجديدة في المنطقة لشباب الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء.

وقد نظر الحاكم الإداري لحماسة سعد حب الدين نظر خوف لما أدركه منه من وعي وتحدي له خاصة بعد فضحه في جريدة "L'entente" بمقال بين فيه تجاوزات "ميسكاتلي" القانونية ضد شعبة العلماء والزوايا، وأيضا المرسلات التي كان يبعث بها إلى جريدة البصائر التي كانت موضوعها شكواه من ظلم الحاكم الإداري ميسكاتلي. انتهى استياء "ميسكاتلي" بإبعاد الشيخ حب الدين إلى تازولت أين قرر الاستقرار هناك نهائيا بعد بيعه كل أملاكه، وفي تازولت زاول الإمامة والتعليم رفقة الشيخ عمر دردور بمسجدها ومدرستها، ولثقة الشيخ عمر دردور في الشيخ سعد اختاره أيضا رفيقا ومساعد له في إدارة ونشاطات شعبة الأوراس، ما غطت أعمال النشاط الإصلاحية كل يومه والتي كانت كالتالي:

تكفل في الصباح بالتدريس بمدرسة تازولت على منهج جمعية العلماء وفي المساء ينتقل رفقة الشيخ عمر دردور إلى باتنة لمزاولة أشغال الشعبة الأوراسية لجمعية العلماء، إما ببرمجة نشاطات وتنظيمها في قرى ومداشر منطقة الأوراس أو الإشراف عليها شخصيا بالتنقل إلى هذه المناطق وإلقاء دروس الوعظ والإرشاد في مساجدها وتجمعاتها الأهلية أو معاينة المؤسسات التعليمية والمسجدية ونوادي الشعبة وتقييم نشاطاتها.³

لقد مثل الشيخ سعد حب الدين بدوره هذا أبرز نشاط الشعبة الأوراسية لجمعية العلماء وهو ما أكده ثلة من معاصريه إذ اعتبره المجاهد الصيد الربيعي ركيزة هامة في توسع ونجاح مشاريعها في منطقة الأوراس من

¹ - بومعروف سيف الإسلام: المرجع السابق، ص 14.

² - المكان نفسه.

³ - حليسي الطاهر: المرجع السابق، ص 14.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

خلال تنقلاته ولقاءاته لمختلف أطراف مجتمعها¹ محرضاً إياهم بدعم جهود الجمعية في إنشاء المدارس والنوادي وكذا القيام بدروس الوعظ والإرشاد والتوعية السياسية والدينية.²

مرة أخرى تخوف الحاكم الإداري لإقليم الأوراس من النشاط الجديد الذي تبناه الشيخ سعد حب الدين فقد امتد نشاطه إلى الميدان السياسي بانخراطه في حركة الانتصار والحريات التي كان ينشطها مصطفى بن بوالعيد في الأوراس، وقد لاحظ عليه هذا الأخير نشاطه وحيويته ونجاحاته في التوعية السياسية للجماهير الأوراسية لمقدرته على الإقناع وقوة خطابه مما اعتمده رفيقا له فلازمه في كل تحركاته وتنقلاته عبر مناطق الأوراس "وأصبح بذلك رفيقا له بل وكان زعيم الأوراس لا يقصد قوما سوى وسعد معه".³

انتهى هذا التخوف إلى قيام شرطة إقليم الأوراس وبأمر من حاكمه الإداري بنقل الشيخ سعد حب الدين إلى منطقة أولاد سيدي معنصر بالشمر، وهناك جدد نشاطه التعليمي فانتصب لتعليم القرآن وتحفيظه في المدرسة القرآنية التي أقامها السيد غضبان صالح وإخوانه.⁴

كما واصل دروسه الوعظية التي كان يضمنها موضوعات في التوعية السياسية والتجنيد لحركة الانتصار والحريات، وقد قال فيه أحد معاصريه المجاهد غضبان محمد الطاهر أن الشيخ سعد حب الدين هو من: ((تعلمنا منه العلم والنضال))⁵، فكان بذلك له فضل تكوين نواة النضال في أولاد سيدي معنصر.⁶

والحق أن الشرطة الفرنسية بالإقليم لم تبرح عينها على الشيخ حب الدين، لما أصبح يمثلها لها من خطر جراء جراته في مواصلة نشاطاته الإصلاحية والوطنية التي كان يعدها الحاكم الإداري من الأعمال المعادية للمصالح الفرنسية، فتم ملاحقته من قبل الشرطة مما ففكر مصطفى بن بوالعيد في تأمينه إلى نقله لدوار أولاد فاضل قصد إبعاده من قبضتهم.

باستقراره فيها استمر في جهده التعليمي فانتصب معلما في زاويتها على النهج التعليمي لجمعية العلماء، محفظا للقرآن لصغار السن وبعض المبادئ للعلوم الشرعية واللغوية وحتى التاريخ ومبادئ الرياضيات ومقيما لدروس الوعظ والتفسير للكبار إضافة للفتوى والإمامة.

وخلاصة القول أن الشيخ سعد حب الدين قد مثل حالة معقدة في النشاط الإصلاحي والسياسي، وإذا كان يعيننا فيه في موضوعنا جانب نشاطه التعليمي الذي كرس له جهدا كبيرا، فإننا نقف على حكم أن الشيخ

¹ - تسجيل خاص لشهادة المجاهد الصيد الربيعي حول الشيخ سعد حب الدين: تم تسجيله من قبل محمد الطيب حب الدين نجل مترجمنا، بلقرين، أولاد فاضل 1987م.

² - تسجيل خاص لشهادة غضبان محمد الطاهر حول الشيخ سعد حب الدين: تم تسجيله من قبل محمد الطيب حب الدين نجل مترجمنا، بوعقال باتنة، 2000م.

³ - حليسي الطاهر: المرجع السابق، ص14.

⁴ - مقابلة شخصية مع السيدة فيالة بن فيفي أرملة مترجمنا، يوم 22 أفريل 2014 بثنية العابد باتنة.

⁵ - التسجيل السابق للمجاهد محمد الطاهر غضبان.

⁶ - التسجيل نفسه.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

حب الدين قدم لجمعية العلماء في الأوراس مثالا لرجل التعليم الذي لم يتوقف في أداء مهمته هذه رغم المتابعات والمضايقات وجميع الإكراهات التي كان يتعرض لها من قبل الحاكم الإداري وشرطته فقد كان مخلصا للتربية الإصلاحية لابن باديس إذ علم في أسوء الظروف كما أوجد وأسس مدارس التعليم أينما حل رغم افتقار بيئتها للشروط التي تؤهلها لاستقبال مشروع المدرسة والتعليم، فهو بذلك يعد أحد مؤسسي النشاط الإصلاحي لجمعية العلماء بالأوراس الذي كان يرى في مشروعها الأمل الموعود لتقوية الأمة ونهضتها وتحررها من الاستعمار بمختلف أشكاله.

المطلب السادس: نماذج أخرى من المعلمين الأوراسيين

عرفت منطقة الأوراس نماذج أخرى من المعلمين الذين أسدوا نشاطا تعليميا بمدارس جمعية العلماء ومساجدها وفقا لرؤيتها التربوية ومناهج مدارسها ومنهم من اشتغل بالمنطقة ومنهم من غط حاجاتها في جهات أخرى، تكاد أمثلتهم تتواجد بأغلب مناطق الوطن، ولأننا لا يمكن حصرهم فإننا إرتأينا تقديم عينات منهم كالتالي:

الشيخ محمد الأمير صالح: ولد في أول أكتوبر 1921 بالدرسة الحمراء دوار وادي الأبيض بأريس، ينحدر من عائلة متعلمة وتمدنية، أتاح له ذلك ظروف علمية أين تعلم في زاوية قريتهم التي أسسها جده الثالث. فبقي أبناءه بما يعلمون القرآن واللغة العربية و مبادئ العلوم الشرعية الأخرى حفظ القرآن الكريم في سنة مبكرة وبعض المتون في النحو و الفقه.

ولا نستبعد أن يكون الشيخ قد تتلمذ على يد ثلة من علماء الإصلاح والعلم الذين مروا على الزاوية كالشيخ محمد الصغير الزموري والشيخ مولود الزربي وأبيه الشيخ محمد المكي والشيخ الطيب الزموري والشيخ الأخضر الغلاني.¹

وبعد حصوله على قدر من العلم والمعرفة بهذه الزاوية انتقل مع زميله الشيخ عمر دردور إلى الزاوية²، ليتلقى منها العديد من العلوم والمعارف الشرعية والعقلية عند أجل أساتذتها وبعد استيفائه لقدر من تعليمها هم للرحيل لقسنطينة للالتحاق بالجامع الأخضر ليتلمذ وزميله عمر دردور -الذان بقي ملازمان لبعضهما- على يد الشيخ ابن باديس³ كان ذلك في حدود سنة 1934م.

انظم إلى دروس الشيخ ابن باديس التي وجد فيها حاجته فساهمت في توسيع مداركاته وأفاقه كما تلقى الفكرة الإصلاحية والتضحية من أجل واجب النهوض بالأمة داعية ومعلما ومرشدا.

¹ - محمد الحسن فضلاء: أعلام الإصلاح المرجع السابق، ص 67 - 68.

² - عمر دردور التسجيل الإذاعي نفس المصدر.

³ - نفس المصدر.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

وما أنهى تعليمه بالجامع الأخضر حتى عاد إلى موطنه الأوراس أين باشر دوره الإصلاحية والتعليمي فيها جنديا تحت غطاء جمعية العلماء الجزائريين المسلمين مع ثلة من رفقاء وأصحاب فكرته ممن هبوا لتأسيس شعب جمعية العلماء وكوادرها الثقافية ومدارس ومساجد التعليم فيها.

فكان أحد الأعضاء المؤسسين للشعبة الأوراسية سنة 1937، إضافة إلى قيامه بفتح مدرسة التربية والتعليم في أريس وجند إليها من المعلمين الأفاضل كمصطفى بن بوالعيد وبومعراف وبن حاية ومصطفى صالحى وإبراهيم النموشي.

وقد سارت هذه المدرسة على تعليم أبناء المنطقة تعليما وإصلاحا يتوافق مع برامج مدار جمعية العلماء والذي يهدف إلى تجديد المعارف والطرائق لإعطاء فعالية لمخرجات المدرسة بتوسيع مداركهم العلمية والعقلية وبناء وجدانهم العربي الإسلامي وإحياء الروح الوطنية فيهم.

وقد استمر الشيخ في دوره الإصلاحية بعد قيام الثورة مستثمرا مكانته العلمية والدينية الاجتماعية لجهود الثورة بالدعاية للجهد والالتحاق بها والتمويل لها وتأسيس اللجان الثورية لمد الثورة والمجاهدين بكل ما يكفل لها القوة والاستمرارية، حتى قبض عليه في ماي 1955م وسجن بسجن أريس ثم نقل إلى محتشد الجرف فمحتشد بوسوي بالدويرة حتى فك أسره أين فرضت عليه الإقامة الجبرية في وهران حتى الاستقلال.

لا نستبعد أن يكون الشيخ الذي أمن بالثورة من أيامها الأولى قد سخر جهده التعليمي الذي لم يتوقف حتى إلقاء القبض عليه في خدمة الثورة وهو بذلك يكون قد وجه أهداف درسه وتعليمه لما يخدم الفكرة الثورية كتوجيه نصوص وأشعاره الدراسية لرفع الحماسة عن طلبته ودروس التربية الإسلامية للجهد حتى يمتلك في نفوسهم معنى الجهد والثورة.

الشيخ عبد الله قرفي: ولد في 8 جوان 1924م بأريس باتنة، تعلم مبادئ العلم الأولى على يد والده الشيخ محمد بن مبارك أين حفظ القرآن ومبادئ النحو واللغة وشيء من العقيدة والفقهاء.

بعد هذا المرحلة من التعلم الأولى انتقل إلى قرية الحجاج فأعاد حفظ القرآن وأحكم تجويده إضافة إلى العديد من المتون في العلوم النحوية وفقهية على يد الشيخ السعيد الزموري.

من المفيد الإشارة أنه أخذ التعليم الفرنسي بالمدرسة العمومية بقريتهم، فتعلم فيها القراءة والكتابة والمحادثة وحتى مبادئ الحساب والتاريخ والجغرافيا وباقي ما كان في برنامجها، هذا المستوى الذي حصل عليه على قلته إلا أنه بنى فيه مدارك علمية عصرية وفتق قدراته العقلية.

وفي سنة 1940م انتقل إلى باتنة من توجيه أبيه لينتظم في سلك الطلبة ليدرس على يد الشيخ محمد الطاهر الحركاتي وعنه تعمق في النحو والصرف والفقهاء وفي العام الموالي انتقل إلى تبسة أين تزامن مع انتقال الحركة العلمية للجامع الأخضر إلى جامع العربي التبسي إثر وفاة الشيخ بن باديس، فانتظم في دروس العربي التبسي فتلقى فيه العديد من المعارف والعلوم على يد أقطاب الحركة التعليمية الإصلاحية كالشيخ العربي التبسي والعيد مطروح والزموشي ومحمد الشبوكي.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

وفيها استفاد من خبراتهم العلمية وزادهم المعرفي فتوسعت مداركه ومعارفه واستقام فكره على النحو الإصلاحي وتحميى بذلك لأداء أدواره التعليمية.

وما إن عاد إلى موطنه أريس حتى وضع نفسه تحت تصرف لجنة التعليم التابعة لجمعية العلماء، فعين معلما بمدرسة التربية والتعليم بباتنة لمدة سنة ثم انتقل للتدريس بمدرسة الفتح بغليزان والتي مكث بها عام واحد هي الأخرى ثم انتقل إلى مدرسة التربية والتعليم بتيزي وزو أين استمر بها معلما نحو سبع سنوات تميزت بكثافة نشاطه الذي وزعه بين أعمال المرشد الكشفي فكان معلما بفوج الكشافة التي كانت تتوافق دروسها إلى حد كبير مع برامج المدارس الإصلاحية، كاعتماده الأناشيد الوطنية الحماسية التي أبدعها شعراء وأدباء الحركة الإصلاحية كمحمد العيد آل خليفة وابن باديس والربيع بوشامة..... الخ وتعليم الأخلاق ومبادئ الدين والعقيدة. كما تولى التدريس والإمامة بجامع لالة سعيدة غير أن نشاطه هذا لم يستثنى من المضايقات حاله حال كل ناشطي الإصلاح لجمعية العلماء وهو ما فرض عليه التقليل من جهده.

وبعد اندلاع الثورة انظم إلى سلك خدماتها المدنية اشتغل قاضيا تحت غطاء جبهة التحرير الوطني، كما لا نستبعد انتظام دروسه ومدرسته إلى في الثورة مسخرا برنامجهما لخدمة مرامي الثورة التحريرية حتى سنة 1960م أين انتقل إلى عين ياقوت فاشتغل بالإمامة بمسجدها مدرسا ومعلما وقائما بالصلوات ودروس الوعظ والإرشاد حتى الاستقلال.¹

الشيخ محمد عامر الدراجي: ولد سنة 1902م ببريكاة تلقى تعليمه الأولي بمسقط رأسه أين حفظ ما تيسر من القرآن ثم انتقل منها إلى زاوية سيدي عقبة فأكمل حفظه بزاوية سيدي علي بن عمر ثم انتقل منها إلى زاوية طولقة وفيها شرع في الأخذ من العلوم المختلفة التي كانت تعتمدها في برامجها التعليمية في الفقه والعقيدة والنحو والعلوم العقلية الأخرى، وقد كانت له فرصة في الأخذ على أهم علمائها كالشيخ عبد الصمد والصدیق عروة وفد لازم كثيرا الشيخ موسى الزقارم إمام مسجد بريكاة ومدرس مدرسة التربية والتعليم.

سمحت له هذه الثلة من العلماء والمشائخ بأخذ العلم والمعرفة الصحيحة والواسعة، غير أن ظروف الحرب العالمية الأولى وما عكسته من صعوبات على أوضاع المجتمع الجزائري المسلم _الاجتماعية والاقتصادية_ التي كان لها التأثير البالغ عليه ففض عليه التفرق للبحث عن الرزق وممارسة التجارة متنقلا مع القوافل التجارية المرتحلة بين التل والصحراء الشمالية تارة والفلاحة تارة أخرى، إضافة إلى امتهانه الحياكة والخياطة والتفصيل والطرز بالذهب والفضة والحرير.

وما إن جاءت سنة 1931م حتى حن لمواصلة تلقي العلم والمعرفة الدينية، ولعل رغبته هذه ازدادت لما سمع عن الحلقة العلمية التي كان يديرها الشيخ ابن باديس بقسنطينة، فشد الرحال إليها ليصل إلى الجامع الأخضر بمعية

¹ - محمد الحسن فضلاء، المرجع السابق، ص 98.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

بعضاً من أبناء عمومته، محمد الدراجي ميهوي وعيسى الدراجي يحياوي والذين تلقوا تعليماً حسب برنامج تعليم الشيخ ابن باديس لتلك الفترة حتى سنة 1936م. وخلالها حصلوا على قدر من العلم والصلاح والأخلاق. بعد انتهائه من مرحلة الدراسة والتعلم، عينه الشيخ ابن باديس هام 1936م بدور إصلاح مركب بمنطقة عين ياقوت بباتنة، فعمل مدرسا وإماما وواعظا ومرشداً بمسجدها.

وقد أخذت دروسه النحو الإصلاحي الذي عهدته من شيخه ابن باديس وبرنامج الجامع الأخضر فكان يعلم ويحارب الجهل ويوقظ الوعي.

فأنشأ قاعة صغيرة ملحقة المسجد لتعليم الصغار وفيها يحفظ القرآن ويعلم المبادئ الأولى في النحو والصرف وعلوم اللغة العربية الأخرى والفقه والتفسير وقد كانت هذه الحلقة الدراسية نواة ما سوف تشهده عين ياقوت في مدرسة التربية والتعليم.

وبعد سنوات من الجهد الإصلاحي وتهيئة المجتمع لاستقبال مؤسسات الإصلاح أسس شعبة الإصلاح بعين ياقوت وحتى ضواحيها ومنها أسس مدرسة التربية والتعليم.

ترك عين ياقوت وقد خلف وراءه أنصاراً وأتباعاً للحركة الإصلاحية يقفون على نشاطاتها ومؤسساتها وخاصة مدارسها لينتقل إلى بركة سنة 1940م مدرسا بمسجدها ومعلماً بمدريستها والتي مكث بها حتى 1944م.

وقد كانت نشاطاته التعليمية تأخذ المنحى الإصلاحي بما يتوافق مع برنامج مدارس جمعية العلماء ثم استدعى الحاجة إليه لنقله لمدينة الطاهير بيججل لتولى إدارة مدرستها العربية الحرة والتي وفق في حل مشكلاتها ووضعها في الطريق الصحيح، غير أن أحداث 8 ماي 1945 جعلت من الإدارة الاستعمارية تلقي عليه القبض وتغلق المدرسة.

وبعد إطلاق سراحه خير بين عودته إلى بلده أو النفي إلى منطقة أخرى إلا أن تدخل إدارة الجمعية لصالحه فوجه إلى جبل أولاد علال القريبة من الطاهير التي استقر فيها مع عائلته.

عاد إلى عين ياقوت سن 1950م وما كاد ينقضي العام من مدة وجوده حتى ضاق به الحال لما واجهه من الإكراهات من قبل الإدارة فأرغم على الخروج منها متوجهاً إلى رأس العين التي قضى بها أربع سنوات مابين 1951م إلى أواخر 1954م ليعود لبريكة مكثفياً بمهمة القضاء بين الناس وإصلاح ذات البين.

الشيخ أحمد السعودي: ولد أحمد السعودي عام 1916م ببيار جنوب شرق خنشلة، أخذ تعليمه الأول على يد معلمه الشيخ العربي بخوش فحفظ عليه ما تيسر من القرآن وتعلم القراءة والكتابة ثم نقلته عائلته إلى مدرسة نقاوس التي كان يشرف عليها الشيخ يحيى بوجلل الذي أشتهر بعلمه ونجاحه في مهمته، ولعل هذا ما جعل عائلة أحمد السعودي تفضل التحاقه بهذه المدرسة رغم بعدها عن إقامته، وفعلاً فقد حقق الطالب أحمد السعودي نجاحاً معتبراً إذ في مدة وجيزة حتى استظهر القرآن كله.

الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم

في سنة 1937م انتقل إلى الجامع الأخضر ليأخذ على الشيخ ابن باديس فينهل من معارف حلقاته ما كان يغطي في برنامجه من العلوم المختلفة في اللغة العربية وعلومها النحوية والبلاغة وإضافة إلى العقيدة والتاريخ والجغرافيا.

وتجدر الإشارة إلى أن فكرة انتقاله لقسنطينة قاصدا حلقة ابن باديس قد جاءت في وقت عرف فيها ابن باديس عند الجماهير الأوراسية وهذا لما كانت قد عرفته السنوات السابقة من أعداد من الطلبة له من المنطقة فعرفوا به وظهرت ميزة تعليمهم فيما كانوا يسدون من نشاط أثناء عطلمهم وأيضا جهود وفود جمعية العلماء ورحلاتهم للمنطقة التي كانت تهدف لتوسيع الفكرة والتعريف بها زيادة قد يكون لشيخه أثر في نصحه وتوجيهه لابن باديس.

وبعد مدة سنة من الدراسة وما لاحظته عليه شيخه ابن باديس من قدرة على التحصيل أشار عليه بالانتقال إلى الزيتونة بتونس لإتمام تحصيله العلمي وفيه انكب الطالب أحمد السعودي على التحصيل المعرفي من قبل أساتذة الزيتونة حتى حصل على شهادة التحصيل غير أن الظروف لم تسعه لمواصلة التعلم فعاد لموطنه سنة 1946م.

بعد عودته زكته إدارة جمعية العلماء وعينته مديرا ومعلما على مدرسة التربية والتعليم بخنشلة وفيها قضى من سنة 1947م إلى سنة 1951م وفيها نشط الحركة التعليمية وبعدها انتقل إلى مدرسة التربية والتعليم بباتنة والتي هي الأخرى نشط فيها معلما لمدة ما بين 1951م إلى 1955م لينتقل في سنة 1956م إلى مدرسة التربية والتعليم بعنابة وفيها درس عاما أين قضت إدارة الاحتلال بغلقها حالها حال كل مدارس جمعية العلماء التي أصدرت في حقها عام 1957 قرارا بغلقها.

الفصل الثالث

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

الفصل الثالث: مدرسة ج م ج والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

نتناول في هذا الفصل تأثيرات التعليم الإصلاحية لجمعية العلماء أو بالأحرى محركات هذا التعليم والتطورات التي جاء بها في واقع المجتمع الأوراسي متتبعين التحولات الثقافية إضافة لتطرقنا إلى تأثير هذا التعليم على تعليم الجيهاة الأخرى من حيث امضامين والطرائق والتحديث وكيف كان حافظا لهم في دخولهم معترك النضال التعليمي

المبحث الأول: واقع التعليم المدرسي لج م ج بالأوراس :

المطلب الأول: مدرسة العلماء بالأوراس

غلب على النشاطات الإصلاحية المختلفة لجمعية العلماء في الأوراس نشاط التعليم المدرسي رغم حضوره المتأخر نسبيا، ذلك أن أول مدرسة تأسست في المنطقة كانت عام 1937م*، ولعل هذا يعود إلى الحضور التنظيمي المتأخر نسبيا لجمعية العلماء في المنطقة، إذ تأسست أول شعبة إصلاحية في الأوراس في سنة 1937م، وكما جرت العادة أن تشرف هذه الجمعيات المحلية التابعة للعلماء على الإنشاء المدرسي .

بعد ميلاد الشعبة الأوراسية افتتحت أول مدرسة ببلدية باتنة وكانت فرع من مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، كان مقرها دار شرفة بلقاسم الذي عرف بوطنيته ووجدانه العربي الإسلامي وكان من أشهر أنصار الحركة الإصلاحية الذين عضدوها ماديا ومعنويا¹، بينما يذهب محمد حسن فضلاء أحد المعلمين الأوائل بهذه المدرسة، إلى أن المدرسة كانت دار مستأجرة تتميز باتساعها وموقعها الذي يشرف على أكبر شارع بالمدينة ويدعى "جينوال فيديرت" وتظم ثلاث أقسام.²

أشرف على تسييرها والتعليم فيها عند افتتاحها الأول الشيخان عمر دررور ومحمد الغسيري واستقبلت قرابة مائة (100) تلميذ وفي الموسم الموالي (1937-1938) ارتفع عدد المتدربين فيها إلى 150 تلميذا، وقد وفد إليها المعلم محمد حسن فضلاء خلفا للشيخ الغسيري الذي رجع إلى الجامع الأخضر طلبنا من معلمه الشيخ ابن باديس.³

* تشير بعض الروايات على اسبقية مدرسة انوغسين في التأسيس على مدرسة التربية والتعليم وترجعها لسنة 1934، لكن لم نجد ما يثبت ذلك في الوثائق والتأليفات ماجعلنا نتحفظ على هذه الرواية وإن كانت الروايات مصدر مهم في بعثنا غير أنه في مثل هذا الحدث عرف التدوين في كتابات عديد حتى في الارشيف الفرنسي وكتابات محمد حسن فضلاء الذي جرد اغلب مدارس الجمعية وخاصة مدارس جمعية العلماء التي نشط بها مدرسا في السنوات الأولى.

¹ - مقابلة شخصية مع السيد علي أوجيت باتنة يوم 26-08-2009.

² - محمد حسن، فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر في الجزائر (القطاع القسنطيني)، ج1، مرجع سابق، ص93.

³ - المرجع نفسه والصفحة.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

شهدت هذه المدرسة تطورا من حيث عدد المتدربين من سنة إلى أخرى وقد اشرف عليها خلال مسيرتها ألمع معلمي الحركة الإصلاحية¹، ومثلت هذه المدرسة بذلك نوات التعليم المدرسي بالمنطقة. وبفعل حماس ناشطي جمعية العلماء بالأوراس انبثقت عن الشعبة الأوراسية جمعيات محلية في أغلب قرى الأوراس تكفلت بإنشاء وافتتاح المدارس الحرة، هو ما لوحظ من قبل إدارة الإقليم فجاء في أحد تقارير الحاكم الإداري لأريس ما يلي: ((..خلال بضعة أشهر... تشكلت جمعيات ثقافية وإسلامية تهدف إلى جمع الأموال لبناء المدارس حيث يتلقى الكبار والصغار المعارف الضرورية.))²، هذا التقرير يؤكد الدور الذي لعبته الجمعيات المحلية وشعب ج م ع ج في الأوراس والمتمثل في حجم المساهمة في إنشاء المدارس بهدف تحقيق غاية نشر التعليم والتي تميزت بانتشارها الواسع والسريع إذ أصبحت لا تكاد قرية أو دشرة في الأوراس تخلو من مدرسة حرة من إنجاز جمعية العلماء، وتم هذا من خلال قيام الجمعيات المحلية بجمع الأموال من اشتراكات أعضائها وتبرعات أنصار الإصلاح من الميسورين والتجار، فضلا عن قيام هذه الجمعيات على السهر على تنظيم ومتابعة نشاط هذه المدارس وتعين المعلمين فيها.³

هذا الانتشار الواسع والسريع لفت أنظار إدارة المنطقة ودفعها إلى محاولة البحث عن أسبابه وتداعياته، فقد ورد في نفس تقرير ما يلي: ((ويبدو من الضروري في هذا النص الإشارة إلى شي ذو معني مختلف سجل لصالح الحركة الإصلاحية وهي الرغبة في التعليم لدى ((الشاوية)) بالأوراس وإن الجهود المبذولة من طرف ممثلي جمعية العلماء لإنشاء المدارس قد تكاثفت ليس فقط لدى أنصارهم، بل كذلك لدى التقليد، فهذا أفق تقدم لا يمكن إنكار أهميته، ويبدو من الأكيد أن تطور التعليم في الأوراس وفي باقي الجزائر يشكل تهديدا حقيقيا للمحافظين البربريين في حالة اعتبار أن هؤلاء مثلا للركود والجهل في غالب الأحيان.))⁴، يعترف التقرير بالإقبال الهائل للجماهير الأوراسية على المدارس الإصلاحية لج م ع ج، ويرجع هذا إلى نمو الرغبة لديهم في التعليم العربي الذي حرموا منه طول فترة الاحتلال، وتعود هذه الرغبة بدورها إلى استفاقة وصحوة هذه الجماهير بأهمية التعليم ووعيهم بحاجة أبنائهم إليه، وأيضا توافق هذه الرغبة مع حماس وطموح ناشطي الإصلاح في إيصال تعليمهم إلى كل أبناء جلدتهم.

كما نضيف أيضا قدرة المنطقة على تجاوز الصعوبات المادية التي عرفتها كثير من مناطق الوطن ومثلت لهم أكبر عائق أمام إنشائهم المدارس، فاستطاعت اشتراكات أعضاء الجمعيات المحلية وتبرعات المحسنين

¹ - انظر الملحق رقم 10، ص 414_419.

² - AOM, 10H/90, GGA une nouvelle phase de l'Histoire turbulente de l'Aurès: le conservatisme berbère aux prises avec le réformisme des Ouléma 1938.

³ - أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص 199.

⁴ - AOM, 10H/90.Op.cit.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

وعلى رأسهم أنصار الحركة الإصلاحية من تجار المنطقة أن تلي مصاريف المدارس وأجور المعلمين، كما أن تجهيزات المدارس كانت غير مكلفة فأغلبها كانت بدايتها عبارة عن سكن ريفي تحول غرفه إلى حجرات دراسة.¹ أما الحاجة إلى الإطارات التربوية والمعلمين، فإن المنطقة استطاعت أن تغطي حاجتها من أبناءها العائدين من قسنطينة، والذين كان يزداد عددهم عبر السنوات ملين بذلك الطلب المتزايد عليهم .

والجدير بالذكر فإن هذه المدارس الإصلاحية لج ع م ج بالمنطقة كان معظمها يقدم تعليما ابتدائيا، ولم يظهر فيها التعليم الإكمالي إلا سنة 1949م مع إنشاء مدرسة النشاء الجديد ومشونش، وهذا التأخر قد يعود لقرب المنطقة من مدارس الإصلاح الكبرى كمدرسة الإخاء الذي يعلم فيها خير الدين والجامع الأخضر بقسنطينة وجامع العربي التبسي بتبسة .

كما كان التعليم فيها مختلطا بين الجنسين (البنين والبنات) * - على الرغم من الإشكالية الدينية للاختلاط - وقد يعود هذا إلى قلة إمكانيات إنشاء المدارس المتخصصة حسب الجنس وارتفاع تكلفت تسييرها، إضافة إلى قلة عدد المتمدرسات مما لا يستدعي إنشاء أفواج أو مدرسة مستقلة، بسبب رواسب الثقافة والأعراف الشعبية التي مازالت تقلل من أهمية تعليم المرأة، رغم جهود الدعاية الإصلاحية لتصحيح هذه الأفكار السلبية.²

كما يكون قد نظر الإصلاحيون إلى أن سن المتمدرسين في هذه المرحلة مازال لا يطرح بإلحاح إشكالية الاختلاط بين الجنسين، وقد تكون كل هذه الأسباب مجتمعة لم تشجع الإصلاحيين على إنشاء أفواج أو مدارس مستقلة بين الجنسين في المنطقة.

وكانت بعض هذه المدارس المتواجدة في المناطق التي بها مدارس رسمية ، تمنع من استقبال التلاميذ في أوقات عمل المدارس الفرنسية مما فرض على جمعية العلماء تنظيم استقبال التلاميذ وفق التوقيت التالي:

من الساعة 06:45 إلى 07:30 للفترة الصباحية

ومن الساعة 17:00 إلى 19:00 للفترة المسائية.³

هذا التوقيت أعطى فرصة لتلاميذ المدارس الفرنسية من أبناء الأهالي للاستفادة من التعليم العربي وتغطية حاجتهم إلى المعارف العربية والدينية التي تحدم تكوين هويتهم وشخصيتهم، خاصة لما يتعرضون له من خطر أغاليط مضامين مادتي التاريخ والجغرافيا في المدرسة الفرنسية الهادفة لتشويهه حقائق الهوية الوطنية الجزائرية. رغم أهمية هذا الجهد الذي حرصت عليه شعبة جمعية العلماء بالأوراس وتماشيا مع السياسة العامة لجمعية العلماء في كل الوطن إلا أن هذا التوقيت كان غير مناسب صعب من عملية التحاق التلاميذ بهذه المدارس مما

¹ - مقابلة السابقة مع السيد عمار ملاح باتنة يوم 2008/05/17.

* __ شهدت العديد من مدارس عمالة الغرب خاصة تلمسان ومستغانم إنشاء أفواج غير مختلطة اين فصل التعليم بين البنات والذكور رغم ضيق المدرسة ومحدودية القاعات وحتى عدد المعلمين.

² - Amar Helal: Op.cit, p , 143.

³ - المقابلة السابقة مع السيد عمار ملاح.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

جعل الاستيعاب والتحصيل يتضاءلان، بالإضافة إلى عدم كفاية ساعات الدراسة لاستفتاء المقررات الدراسية حسب المنهاج الذي وضعته جمعية العلماء .

إن النجاحات السريعة للإصلاحيين في المجال التعليمي لم تمر دون مضايقات إدارية، ولعلنا إذ عدنا للنظر في التقرير السابق نلمس التخوف الذي بدا على المراقبين الإداريين، لذلك بدأت الإدارة المحلية في وضع العراقيل ومتابعة ناشطي الإصلاح في المنطقة، ففي أكتوبر 1937م رفع حاكم اريس¹ ميستللي* المعروف بنزغته العدائية للأهالي، شكوى ضد الشيخ عمر دردور - معتمد جمعية العلماء في الأوراس والمعروف بحرقته وإخلاقه للإصلاح - بتهمة التشويش وإثارة التمرد في المنطقة والتي على إثرها أودع السجن¹ مما شكل تحدياً حقيقياً للتعليم الإصلاحى الذي مازال يعد فتياً حتى هذه اللحظة في المنطقة.

كما تعرضت أغلب مكاتب الجمعيات المحلية للاضطهاد لثنيها على الاستمرار في تقديمها في نشر التعليم، مثل ما شهد ذلك مكتب الجمعية بعغوي.

كما استعملت أيضاً المراسيم والقرارات التي صدرت على المستوى الوطني ضد التعليم الإصلاحى في الأوراس كمذكرة ميشال (مارس 1933م) الذي يقضي بمراقبة النشاط الإصلاحى وعلى رأسه التعليم، وقرار شوطان (مارس 1938م) الذي يقضي هو الآخر بغلق المدارس العربية الحرة غير المرخصة ومنع المعلمين من مزاولة التعليم إلا برخصة²، وكانت هذه الرخص من الصعوبة في شروطها ما يعجز عن تحقيقها .

إن التطبيق الصارم للإداريين المحليين لهذه القرارات أدى إلى تعرض العديد من المدارس إلى التهديد بالغلق وتعرض معلمها إلى محاكمات وغرامات مالية وتوقيف عن التعليم فمثلاً: رفع حاكم عين التوتة شكوى ضد المعلم الإصلاحى لباري بتهمة تدريسه بدون رخصة وفتحته لمدرسة قرآنية غير مرخص لها³، كما تعرض الشيخ وحيد واحدي ورفقائه وتلاميذه بمدرسة مشونش للمضايقات المستمرة وغلقت مدرسة كيمل وفرضت الإقامة الجبرية على معلمها أحمد السرحاني وتعرضت مدرسة بوحمامة لنفس المصير⁴.

هذه المضايقات وان كانت قاسية ولها أثرها السلبي على تقدم التعليم العربى، إلا أنها لم تثني عزيمة ناشطي الإصلاح، الذين حاولوا التهرب منها وتحديها، ويظهر هذا في العديد من الحالات كعودة الشيخ عمر دردور إلى

*- ليون ميستللي: الحاكم الإداري لأريس 1933-1939 تميز بنزغته العدائية للأهالي المسلمين وبسياسته القمعية والتفرقة بين العروش، كما خاض حرباً ضد الإصلاح ورجاله.

¹- أنظر خطاب الرئيس في الاجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، البصائر، العدد 134، السنة الثالثة، الجمعة 07 أكتوبر 1938.

²- أبو القاسم، سعد الله: الحركة الوطنية 1930-1945، ج3، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، ط1، القاهرة مصر، 1975، صص 20-21.

³- Mostfà Haddad : Op.cit, p 206.

⁴- مقابلة شخصية مع السيد أحمد شرقي الرفاعي، قسنطينة الدقسي 2009/08/30.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

النضال الإصلاحي وبنفس الحماس والحرقة بعد خروجه من السجن، وأيضا صبر الشيخ لهباري على متاعب المحاكمات وإصراره حتى عودة مدرسته للعمل¹، وقيام أحمد السرحاني بنقل مدرسته من كيمل إلى الوجبة بخنشلة . وأيضا ما يسجل لصالح الحركة الإصلاحية بالمنطقة مساهمتها بالدفع لتوسيع التعليم وتحديثه هذه المرة في جهات غير تابعة لها ، فقامت زوايا المنطقة بإحياء مدارسها وكتابتها وتبنت في تعليمها المعيار الإصلاحي² وهذا ما يؤكده الشيخ الغسيري في تقريره فيقول: ((...أما الكتايب القرآنية ففي غالب القرى موجودة، وهي اليوم تسعى في تحسينها على النظام العصري (...))³، بل وصل الأمر إلى بعضها إلى تبعية مدارسها إلى الحركة الإصلاحية أو توظيف معلمين إصلاحيين بها⁴.

وفي الإطار نفسه برزت مدارس عربية حرة من إنشاء حركة الانتصار والحريات والتي تواصل عملها وانتشاؤها أثناء الثورة⁵، هذه المدارس لا نستطيع التفريق بينها وبين المدارس الإصلاحية، لأنها تؤخذ بنفس المنهاج والمضمون والموضوع في المثال التربوي الإصلاحي.

والحق أن نجاحات الحركة الإصلاحية لم تتوقف في التوسع من حيث عدد المدارس بل استطاعت التقدم نحو إنشاء مدارس ذات مستويات تعليمية أعلى، فاستطاعت إنشاء مدارس للتعليم الإكمالي بالمنطقة، كمدرسة مشونش ويسكرة ومدرسة النشاء الجديد، هذه الأخيرة جدير التوقف معها لأنها مثلت أنموذجا ناجحا للتعليم الإصلاحي بالمنطقة .

– مدرسة النشاء الجديد :

كانت معطيات التطور في العملية التعليمية لمدارس جمعية العلماء من حيث توسع المدارس والأفواج تبعا لتزايد الإقبال عليها من أبناء أهالي الأوراس ينيء بإستكمال تطوره على مستوى المراحل الدراسية، وقد كان وراء تحقيق هذا الهدف الطموح والمثابرة الذان كانا يشدان ناشطي الإصلاح بالمنطقة في نجاح تعليم جمعية العلماء ومحاولة تحقيق كل أهدافها، فكان بعد التوسع المدرسي على مستوى مرحلة الابتدائي التوجه لاستكمالها بالمرحلة الموالية الإكمالية، فجاء مشروع مدرسة النشاء الجديد.

كانت فكرة إنشاء هذه المدرسة في عقد الأربعينيات، وبعد حصول الجمعية المحلية لجمعية العلماء على قطعة أرض ببلدية باتنة وأثناء زيارة الشيخ الإبراهيمي لباتنة سنة 1949 دعا إلى بنائها⁶، وكما هو معروف على الشيخ الإبراهيمي أنه كان دائم الدعوة إلى إنشاء المدارس بمواد بناء مقاومة وعصرية زيادة على اعتماد المعايير

¹ - Mostfá Haddad : Op.cit, p 207.

² - علي مراد: الحركة الإصلاحية مرجع سابق، ص 414.

³ - تقرير الغسيري حول سير الإصلاح AWC. Inventaire analytique, Op,cit

⁴ - كمال فيلا لي: الحراك السوسيوثقافي للفاعلين وتطور مفهوم النخب في تاريخ الجزائر الحديث، مجلة الهجرة والرحلة، جامعة منتوري قسنطينة، العدد الأول، أبريل 2005، ص14.

⁵ - العربي دحو: المرجع السابق، ص176.

⁶ - مقابلة السابقة مع السيد علي أوجيت باتنة يوم 2009/07/26.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

الجمالية والوظيفية ذات البعد الإسلامي في هندسة عمارتها¹، ومن ثم باشرت الجمعية المحلية مسؤولية التخطيط لإقامة هذه المدرسة بدءا بالحصول على ترخيص البناء من الإدارة إلى جمع الأموال من اشتراكات الأعضاء وسكان المنطقة وتبرعات المحسنين.

دامت مشروع البناء بها حوالي خمس سنوات و انتهت الأشغال بها عام 1954، وكانت تحوي على خمس حجرات ومكتب للإدارة ومكتب للجمعية إضافة إلى ثلاث سكنات للمعلمين.² وقد تم افتتاحها يوم 15 سبتمبر 1954م حضرت هذا الافتتاح جموع غفيرة من أهالي الأوراس وأيضا آخرين وجهت لهم الدعوة من نواحي أخرى من الوطن .

قام بتدشينها وفد من جمعية العلماء المتكون من: الشيخ محمد خير الدين والشيخ أحمد توفيق المدني والشيخ عبد اللطيف سلطاني والشيخ محمد العيد آل خليفة، إضافة إلى وفد الجمعية المحلية والذين سهروا على تنظيم حفل الافتتاح ومن بينهم الشيخ الطاهر مسعودان الحركاتي إمام مسجد باتنة والشيخ أحمد السعود. توالى في حفل الافتتاح كلمات عن الوفود الحاضرة، فبعد تلاوة آيات من القرآن الكريم، تقدم الشيخ الطاهر الحركاتي ممثلا عن الجمعية المحلية بإلقاء كلمة مشيدا فيها بالإنجاز، ثم استلم الكلمة عنه الشيخ خير الدين باسم جمعية العلماء مذكرا بأهداف جمعية العلماء في مدارسها ثم تكلم بعده الأستاذ توفيق المدني، كما ألقى الشيخ محمد العيد آل خليفة قصيدة مطولة بهذه المناسبة جاء فيها :

حثنا نحو باتنة المطايا وجئناها نرف لها التحايا

وتهدينا تهاني طيبات تنم على عواطفها شذايا

بنيت لنشئك الميمون حصنا يقيه الزاحفات من الدنيا

وكيف يموت شعب عبقرى به الفتيان تنبغ مع الفتايا³

أطر ودرس بهذه المدرسة ثلة من الإصلاحيين أصحاب مستوى علمي عال انعكس على المستوى العام لتلاميذ المدرسة وأهمهم: أحمد السعودي مديرا (1954 إلى 1956) ثم خلفه أحمد بن ذياب إلى الاستقلال . ودرس بها المعلمون التالية أسماءهم: قرني عبد الله - قرني مبارك - أحمد فروج - علي طيار - سعيد رزقين - محمد بن عيسى - عبد الله بن زعيم - عبد الله حمودة ... كما درست بها معلمات هن: سليكة بن الدراجي - زبيدة عبد الصمد - زهرة بوعرعار - ليلى بن ذياب.

¹ انظر كلمة الشيخ الإبراهيمي لسكان بسكرة أثناء دعوته إلى بناء مدرسة التربية والتعليم بسكرة أرجع إلى محمد حسن فضلاء المرجع السابق ص105.

² - المرجع نفسه، ص99.

³ - البصائر، السنة الثانية، العدد 286، سبتمبر 1954.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

يظهر سجل تلاميذ مدرسة النشاء الجديد إلى استقبالها في الموسم الأول لافتتاحها (1954-1955) 575 تلميذ¹، هذا العدد المرتفع يؤكد تزايد الرغبة في التعليم لدى الأوراسيين وثقتهم وتعلقهم في التعليم الإصلاحي.

وتطور هذا العدد أيضا في الموسم الثاني لها (1955-1956) ليصل عددهم إلى 799 تلميذ²، هذه الوتيرة في زيادة عدد المتدربين بها شهدتها أيضا في المواسم التالية .

كما نسجل من خلال قراءتنا لقوائم سجل التلاميذ، ارتفاع عدد المتدربات³، ولعل هذا يعود إلى تغير الذهنية الأوراسية بشأن تعليم المرأة وهذا قد يرجع الفضل فيه إلى نجاح الدعاية الإصلاحية بالوسط الأوراسي، وعامل ثقافة التحديث التي فرضتها قوة الواقع والمشاهدة العينية لنماذج نسوية حققت النجاح من خلال المدرسة ولعل خير مثال معلمات هذه المدرسة .

وأیضا نضيف حسب سجل هذه المدرسة استقبالها إلى تلاميذ من مختلف المناطق⁴، مما يدل على أن هذه المدرسة كانت لها سمعة حسنة من حيث مستواها التعليمي الذي كان نتيجة مستوى معلمها والتزامهم في أداء واجبه على أكمل صورة، كما كانت هذه المدرسة ترسل العديد من طلبتها لاستكمال دراستهم في قسنطينة، ومنهم من أراد التعمق أكثر بمواصلة الدراسة في الجامعات العربية ضمن البعثات العلمية التي كانت تشرف عليها جمعية العلماء .

المطلب الثاني: المعلمون والمتعلمون.

أولا_المعلمون.

اعتمدت جمعية العلماء في التأسيس لتعليمها وإيجاده في الأوراس على ثلة من رجالها الذين آمنوا بفكرها الإصلاحي، وقد كان أغلبهم قد تعرض لهذا الفكر من خلال البيئات التي تعلموا فيها كأولئك الذين درسوا بالجامع والمدارس الشرقية كالزيتونة والأزهر؛ وقد كانت هذه الفئة في معظمها من كبار السن قبل ظهور حلقة الشيخ ابن باديس أو قبل انتشار صيت حلقة التعليم في مناطق الأوراس أمثال الشيخ الطاهر مسعودان الحركاتي والشيخ القندوز، أما فئة الشباب من هؤلاء والتي كثرت بعد تأسيس جمعية العلماء فإن جلهم تلقوا تعليمهم وأفكارهم وتوجيههم من قبل ابن باديس أو العربي التبسي فيما بعد.

¹ - أرشيف سجل تلاميذ مدرسة النشاء الجديد الموجود بابتدائية الأمير عبد القادر حاليا باتنة.

² - المصدر نفسه.

³ - انظر المصدر نفسه.

⁴ - المصدر نفسه.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

بدأت جمعية العلماء نشاطها التعليمي بالمنطقة بأعداد متواضعة من المعلمين وهو ما كان حتى تلك الفترة أي في حدود الثلاثينيات من القرن 20م يغطي حاجة ما استطاعت إنجازها من مدارس تابعة لها ولعل أهمها وأولها مدرسة التربية والتعليم بباتنة ومدرسة الفلاح بإنوغسين.

غير أنه وبسرعة فائقة عرفت هذه المنطقة في العقد الموالي تطور كبيرا من حيث عدد المدارس والمعلمين ويعود هذا للنشاط الناجح للشعب والجمعيات المحلية لجمعية العلماء التي كونها فريق آمن بفكرة مشروعها ونذكر على رأسهم صاحب الجهد الكبير الشيخ عمر دردور.

وإن لم تسعفنا المصادر المختلفة التي كانت يمكن أن تحيلنا على إحصائيات لعدد المعلمين الذين زاولوا التعليم بهذه المنطقة مثل منشورات جمعية العلماء أو سجل المعلمين بالشعبة الأوراسية أو حتى سجلهم على مستوى الإدارة المركزية لجمعية العلماء _ مع العلم أن الجمعية قد ارتقت في ثقافتها الإدارية في اعتماد سجلات لرصد مختلف أنشطتها وعما لها _ أو حتى التقارير الإدارية والأمنية للسلطات الفرنسية، وهو ما ترك نقصا وخللا في معرفة عدد المعلمين بالأوراس وتفسير هذه الظاهرة في سياقها السيوثقافي بالمنطقة.

غير أن المعلومات المبعثرة التي مرت بنا أثناء بحثنا وحتى الرواية الشفوية التي جاءت وصفية لا إحصائية، تؤكد أن عددهم كان مهما للغاية خصوصا إذا ما قورن بالكثير من المناطق الأخرى من الوطن .

لقد ساعد هذا الكم المعترف من المعلمين في إحداث ثورة تعليمية وتوسع هائل لمدارس جمعية العلماء بمنطقة الأوراس، وهو ما يحسب لشعب جمعية العلماء ولجانها المحلية في التغلب على صعوبة نقص الإطار التعليمي والتربوي التي واجهته الجمعية في العديد من المناطق خصوصا تلك النائية والمغلقة التي تكاد كثير من مناطق الأوراس تشبهها في هذه الصعوبة .

ولا يمكن رد هذه النتيجة في هذا العدد المعترف والمتزايد من المعلمين إلا لتلك الرغبة التي كانت تحدوا مسؤولي النشاط الإصلاحي بها في تغطية مدارسهم بالمنطقة والوصول به إلى كل مناطقها وتعميم فائدته على أبناءها، وهو الطموح الذي كانت تهدف إليه قيادة إدارة الجمعية ولطالما أكدته في برامجها ومؤتمرات التعليم التي عقدتها.

كما قد نرجع ذلك أيضا إلى تزامن هذه النتائج مع يقظة الأوراس ووعي عديد الأسر والعائلات فيه في فترة مبكرة بأهمية تعليم أبناءهم، قصدوا خلالها حلقات التعليم الباديسي بقسنطينة ومعهد ابن باديس فيما بعد أو ممن انتقل منهم إلى جامع الزيتونة أو حتى من بقي محافظا على مسار التعليم نحو مدارس وزوايا الجنوب بالزيبان، فكان عدد الخريجين بمؤهلات تعليمية وبكفاءة تؤهلهم لأداء مهمة التعليم بالعدد الكافي الذي يغطي حاجات هذه المدارس وكذا يلبي حتى مشروع فتح مدارس جديد خلال السنوات اللاحقة من عقد الأربعينات والخمسينات في المناطق الأوراسية من مداشرها وقرها على بعدها ونائيتها.

وتجدر الإشارة إلى أن أغلب رجال جمعية العلماء من الأوراسيين قد تميزوا بنشاط فعال لصالح تأسيس وإيجاد التعليم الإصلاحي في منطقة الأوراس، إن كان تعليم مدرسي أو مسجدي أو في غالب الأحيان معا، رغم

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

ما كانت تعرفه هذه المنطقة قبلهم من فقر في تقاليد الثقافة التعليمية لحد تعجز عنه بيئتهم في استقبال هذا المشروع التعليمي خاصة على مستوى قراها ومداشرها والتي كانت تمثل السواد الأعظم فيها .

والحق أن هذه الجهود ليست بعيدة على ناشطين كانوا يرون في التعليم الإصلاحي بالنسبة إليهم يمثل الوسيلة الضرورية للرفعي الحضاري والثقافي لمجتمعهم المحلي الذي يعيش حالة الجهل واللامبالاة المطبقين . هكذا ارتبط مسعى الأوراسيين في نشر التعليم العربي الحر بالرغبة في تعليم أبناء منطقتهم وإنقاذ ثقافتهم وتعريف الناس بدينهم¹، أو بمعنى آخر تطوير أهلهم أديبا وحضاريا وحيلولة دون التقهقر الثقافي الذي عاشوه لفترة طويلة الأمد ومع ما أنجى عنها من ضعف في الممارسات الدينية والثقافية التي كادت تنهي خاصيتهم المرتبطة بهما.

وجد هؤلاء الناشطون أنه لا بد من إعلان الحرب على الجهل في المنطقة وقد سخرُوا كل الوسائل المتاحة والفعالة في وسطهم، فقد كانت جولات التوعية ودروسهم الوعظية تحمل دعاية واضحة إلى فريضة التعلم، مجتدين كل النصوص الدينية ذات الواجهة في هذا الشأن إن من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو التراث. والحال فإن الشيخ عمر دردور رئيس الشعبة الأوراسية كان مثالا في هذه المهمة، فقد تميز بنشاط جم في هذا الجانب حيث كان يتنقل من قرية إلى أخرى حاثا أهلها على أهمية تعليم أبناءهم وواجب دعمهم وعضدهم لمساعي إنشاء المدارس وإلحاق أبناءهم بها.²

كما كان الشيخ عمر دردور يعمل على إقناع المعلمين وتحريضهم على الانتقال للمناطق النائية والجبلية الصعبة من الأوراس للتعليم فيها وفتح أفواج بها، وقد كانت الاستجابة لهذه الدعوة واسعة من مجموع المعلمين الأوراسيين، وهو ما ساهم في ذلك التوسع الهائل الذي عرف على التعليم الإصلاحي بالمنطقة. وفعلا بعد فترة زمنية وجيزة من الحضور الإصلاحي في منطقة الأوراس وجدت دعاية هذا الفريق الإصلاحي أثرا إيجابيا في وسط سكان المنطقة، إذ أصبحت المسألة التعليمية تحظى باهتمام وعناية بالغتين، حتى أضحي تعليم أبناءهم من محور اهتمامهم وانشغالهم وهو الذي كان لعهد قريب يعد في سلم الثانويات من الحاجات العامة لديهم .

يبدو أن ناشطي الإصلاح في الأوراس كما تبديه النتائج في عدد المدارس والمعلمين³ والذي يعكس بدوره عدد المتعلمين، قد استطاعوا حمل السكان المحليين على الوعي بأهمية التعليم لأبنائهم بل نجدهم قد قدموها في حاجاتهم على المطالب والرغبات الأخرى، رغم ما كانوا يعيشونه من صعوبات اقتصادية اجتماعية تحيل دون الوصول إلى هذه النتيجة.

¹ - علي مراد: المرجع السابق، ص 425.

² - المقابلة السابقة مع السيد عبد الباسط دردور.

³ - انظر الملحق رقم 10 ص 419.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

هكذا نظر ناشطي الإصلاح بالأوراس إلى ميزات التعليم الإصلاحي وما يوفره من فضائل لا تتوفر عند التعليم التقليدي من فاعلية وتطوير للذهنية والوعي وكذا دوره بالمساهمة في التغيير نحو النهضة تماشيا مع الرؤية التعليمية التي وضعتها له جمعية العلماء، فضلا عن أنه يمتلك القدرة على منافسة التعليم الفرنسي، إذا كانت تتطور الحياة التعليمية والثقافية في الأوراس لصالح التعليم والفكر الإصلاحيين تبعا لجهود مؤطري الشعب والجمعيات المحلية لجمعية العلماء، رغبة منهم في إنتاج شروط جديدة للوعي والنهضة الثقافية.

والحقيقة أنه يعرف على معلمي الأوراس الاستدامة في تضحياتهم الكبيرة وإخلاصهم لتعليم أبناء جلدتهم وتحشم كل الصعاب والعوائق، فمثل لهم التعليم الإصلاحي رسالة دينية بمرتبة بالفريضة وواجب وطني إتحاه مجتمعهم وأمتهم في وضع كالوضع الذي تعيشه الأوراس خصوصا والجزائر عموما، ولعل هذا الوعي الذي وصل إليه هؤلاء يعكس مدى إيمان ونجاح الفكرة الإصلاحية والوطنية فيهم.

فقد واصل هؤلاء المعلمين مهمتهم التعليمية ومنهم حتى التأسيسية للمدارس متحدين كل العوائق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي لم تكن تساعد على هذا الإنجاز كما سبق وأن أشرنا، إضافة إلى تلك المضايقات القانونية التي تعرض لها التعليم العربي الحر سيما بعد صدور مرسومي 1934 وقانون شوطان 1938م وما خص المنطقة من ملاحظات إدارية للمعلمين الإصلاحيين الذي وجد فيها الحاكم الإداري لإقليم الأوراس "ميسكاتالي" نزوته لممارسة كراهيته للوطنيين بتطبيقها بعنف، محاولة منه لإفشال مشروع التعليم العربي هذا الذي كان يمثل له هاجسا خاصة بعدما كان يراه يزدهر وينمو مع الوقت وهو المتابع الدقيق الذي يلاحظ نتائجه تبدو في تلك التحولات في السلوك والمواقف بالوسط الأوراسي¹.

لقد كانت نتائج متابعاته فادحة على العمل التعليمي حيث أغلقت العديد من المدارس وتوبع وحوكم العديد من المعلمين، غير أن كثير من المعلمين الأوراسيين فضلوا مخاطر المحاكمات على الانقطاع على واجب التعليم فهذا الشيخ لباري المعلم بمدرسة عين التوتة رفعت ضده شكوى من قبل حاكم عين التوتة تتهمه بالتدريس بدون رخصة وفتحته لمدرسة قرآنية بدون رخصة² والذي أصر على عودة مدرسته ومواصلة التعليم، ونفس الشيء تعرض له كل من وحيد واحدي لما كان بمدرسة مشونش غير أنه انتقل لقرية الوجلة ليفتح بها مدرسة لأبنائها وهو ما عرضه لعقوبة الإقامة الجبرية وكذلك حدث مع الشيخ أحمد السرحاني الذي نقل مدرسته من كيمل إلى الوجلة بمخنشلة³.

تعكس هذه التجارب أن هذه المضايقات والإكراهات التي كانت تهدف إلى إفشال مشروع التعليم الإصلاحي بالمنطقة لم تأتي بنتيجة لصالح الإدارة الفرنسية بالإقليم، وهذا لا يمكن تفسيره إلا بالإرادة والإيمان بالفكرة والمشروع والإحساس بالواجب التي حملها أولئك المعلمين، لقد كانت هؤلاء عزيمة في مواصلة جهدهم

1- Mostfà Haddad: Op, Cit, p 207.

2- Mostfà Haddad: Op, Cit, p 206.

3- أنظر مقالنا السابق، ص 238.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

اتجاه ما كانوا يعتبرونه" واجب المسلم نحو مجتمعه و أمته " و" واجب الوطني نحو وطنه"، إننا نقف على حقيقة التكوين الإصلاحي لدى هؤلاء في الوصول بهم للإيمان والقناعة بالتضحية من أجل فكرتهم؛ "الإصلاحية والوطنية".

وبالعودة إلى أهمية وفرة المعلمين في مد هذا النوع من التعليم في كل ربوع الأوراس وتغطية حاجات مدارس المنطقة منهم، وهذا ما لم تعرفه كثير من مناطق الوطن خاصة تلك الريفية والنائية منه التي عزف عديد المعلمين من الالتحاق بها أو سرعة هجرهم لها، بل كانت مزية هذه الوفرة أن ساهمت بالإضافة إلى تغطية مدارس جمعية العلماء وإلى توسيعها وإيصالها للمداشر والقرى النائية، وهو ما مثل استثناء إلى حد كبير للحالة الأوراسية في الوطن .

والحق أن هذه النتيجة تعود إلى توفر المعلم من أبناء هذه المناطق أو ينحدرون من مناطق قريبة أو مشابهة لها في الظروف، وهو ما يسهل عليهم التعايش والتكيف خاصة لما يتحل هذا المعلم بالإيمان بالواجب الإصلاحي كما أسلفنا الذكر .

هذه الميزة والمزية التي تفردت بها منطقة الأوراس إلى حد بعيد، لم تعرفها كثير من المناطق المعزولة والصعبة من أرياف الجزائر المختلفة، ولعل هذا يعود إلى أن كثير من المعلمين في المناطق الأخرى كانوا أبناء حواضر وعائلات ميسورة إلى حد ما، ممن تيسر لهم فرصة التعلم، ما يصعب عليهم الانتقال والإقامة للتعليم في مناطق تبعد عنهم أو تكون بيئتها أقل مرافق ومستوى من بيئاتهم التي نشأوا فيها، وهو كذلك ما يعسر إقناع انتقال المعلمين لهذه المناطق التي سوف يترتب عنه حرمان أبناءها وناشئتها من الاستفادة من فرصة التعليم كما جرى فعلا في العديد من مناطق الوطن، ونقص بذلك على الجمعية تحقيق طموحها ومشروعها التعليمي الهادف إلى إيجاد مدرستها في كل قرية وإيصال تعليمها لكل أبناء المجتمع الأهلي في الجزائر .

لقد حققت منطقة الأوراس بإمكانياتها الذاتية إطارها التعليمي لمدارسها فكان وراء توسع هذا النوع من التعليم وانتشاره، هذه الحقيقة لا يمكن إدراك مزيتها إلا إذا استحضرننا الفرضية المقابلة أو المعاكسة والتي مفادها؛ كم سوف يكون صعب على هذه المناطق الجبلية والنائية الوعرة بمناطق الأوراس، التحاق معلمين من مناطق أخرى، بسبب ما سوف يشعرون به من غربة جغرافية وطبيعية وغربة أشد اجتماعية وما يترتب عنها من صعوبات معاشية، فالمناطق الأوراسية تتميز بالطبيعة الجبلية الصعبة والباردة وبالصعوبات الاجتماعية التي تتمثل في طبيعة تحفظ الإنسان الشاوي على الأجنبي، وحتى الغربة التي تمتد إليه من لغة التواصل اليومي التي تشعره بعدم الانتماء، كل هذه العوامل كانت يمكن أن تصعب من توسع المدرسة الإصلاحية لو احتاجت مدارسها لمعلمين من خارجها، غير أنه كان من حظ هذه المنطقة أن لبت حاجتها في تأطير مدارسها من أبناءها وهو ما وفرته على الجمعية من عناء توفير المعلمين بها .

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

ثانياً: التلاميذ (المتعلمون):

بداية تجدر الإشارة في محل عرضنا للمتعلمين " التلاميذ " في مدارس جمعية العلماء بمنطقة الأوراس أنها تعوزنا الأرقام والإحصائيات لجرد عددهم وهذا يعود لنفس الأسباب التي عرفناها مع عدد المعلمين بها، وهو ما يصعب علينا اتخاذ موقف أو حكم دقيق بشأن الصدى الذي أوقعه النشاط التعليمي الإصلاحي في الوسط الاجتماعي للأوراسيين، وكذا صعوبة الوصول لحقائق التجربة الإصلاحية في ما يتعلق بنتائج دعايتها التعليمية والتحريرية لمدارسها ومعرفة نوعية المتعلمين من حيث طبيعتهم الاجتماعية إن على مستوى البعد القبلي والعروشي أو توزيعهم الجغرافي أو الطبيعة الطبقيّة التي ينحدرون منها " بين الميسورين أو متوسطي الحال أو الفقراء " وأيضاً نوعية الأسر؛ المتعلمة أو غير المتعلمة وكذا نوعية العائلات بين من هي مرابطة أو قياد أو من العامة العادية .

غير أنه ومثل أغلب المرات التي اعتمدناها في دراستنا هذه، سوف نضطر لاعتماد المعطيات الوصفية من خلال ما جمعناه من الرواية الشفوية في هذا الجانب¹، والتقديرية التي سوف نجتهد فيها مستنديين إلى ما عرض دراستنا من أرقام مختلفة لبعض المدارس أو عدد الأفواج أو الاستنتاجات التي يمكن الوصول إليها من خلال عدد الأفواج المنجزة من قبل جمعية العلماء بالمنطقة.

والحال فإنه باستثناء الحواضر والإقامات ذات التجمعات الكبرى بالأوراس فإن أغلب المداشر والقرى بها كانت تحتوي على قسم أو قسمين ويتكون عدد تلاميذ القسم الواحد في حدود العشرة إلى عشرين متمدرس، هذه الوضعية حسب الرويات الشفوية²، والتي كانت تشبه إلى حد بعيد ما كان جار في مناطق الوطن الأخرى للإقامات النائية.

بينما يزداد عدد التلاميذ في المناطق الحضرية وذات التجمعات السكانية الكبرى التي تأخذ فيه مدارس جمعية العلماء شكلها الكامل من حيث شمولها جميع المستويات وتعدد الأفواج فيها، وفي أحيان تتطور حتى في أطوارها حيث تصبح تمثل الطور الإكمالي، ما يجعلها قبلة لتلاميذ من مناطق أخرى مجاورة كما جرى بمدرسة مشونش وغوفي ومدرسة النشاء الجديد بباتنة، حيث تجاوز عدد تلميذ هذه الأخيرة 575 تلميذ سنة افتتاحها العام 1954م وراح في تزايد مستمر من سنة لأخرى³، وهو ما يعكس كثرة المتمدرسين في الحالات هذه.

كما لا تفوتنا الإشارة إلى حقيقة مؤكدة أن مدارس جمعية العلماء في الأوراس ومثل ما عرفته في باقي الوطن كانت تعرف تزايداً في عدد المقبلين عليها من المتمدرسين من سنة إلى أخرى سواء في الفوج الواحد أو حتى من خلال زيادة عدد المدارس وبذلك توسعها الجغرافي والاجتماعي.

¹ - المقابلات السابقة لعدد من الشخصيات الأوراسية ومنه عمار ملاح ومسعود عبيد.

² - نفس المصدر المقابلات السابقة لعمار ملاح ومسعود عبيد.

³ - انظر أرشيف سجل تلاميذ مدرسة النشاء الجديد مصدر سابق الملحق رقم 13، ص 330.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

ولأنه كما سبق وأن تعرضنا، فالمدرسة الإصلاحية لجمعية العلماء قد شملت أغلب مناطق الأوراس "حواضر وقرى ومداشر"، وعليه فإن تقديراتنا يمكن أن تؤيد إلى حد بعيد ما جاء في الرواية الشفوية التي تصف عدد المتعلمين من التلاميذ الذين كانوا يتلقون تعليمهم بمدارس جمعية العلماء كان عددا معتبرا وفي زيادة مستمرة وهو ما كان نتيجة الإقبال الكبير من العائلات الأوراسية على هذه المدارس وهذا النوع من التعليم والذي بدوره يعود إلى صحتهم ووعيهم بأهمية تعليم أبناءهم عموما وتوجيههم للتعليم الإصلاحي خصوصا لما نظروا فيه من فائدة ونجاعة ثقافية وكذا ما اعتقدوه فيه من نزعة مقاومة للجهل والسياسة الاستعمارية، إضافة إلى ما رغب فيه الأوراسي بعد انفتاحه على البيئات الأخرى أن يماثل الكل الجزائري ويكون له وبه ما هو حاصل بباقي المجتمع الجزائري المسلم . أما عن مستوى الأسر والعائلات التي قصد أبنائها مدارس جمعية العلماء، فنستطيع أن نقول أنها شملت أغلب الطبقات الاجتماعية لسكان الأوراس، فالتحق بها أبناء العائلات الميسورة والمتوسطة والفقيرة هذه الأخيرة التي كانت تمثل السواد الأعظم.

وقد يعود هذا القبول والإقبال الكبير فيما بعد في إرسال عائلات كانت إلى عهد قريب تحت التأثير المرابطي والحياة التقليدية الجد محافظة التي يفترض فيها معاداة هذا النوع من التعليم ذو الحمولة الفكرية الإصلاحية والتحديثية إلى حد ما، إلا إلى تلك المميزات التي اتصفت بها الحركة الإصلاحية بهذه المنطقة زيادة عن الظروف التي كانت تعيشها هذه الأخيرة.

ولعل ما سوف نوردته يتقاسم ذكره إلى حد بعيد مع عوامل انتشار الفكرة الإصلاحية بالمنطقة الذي تطرقنا إليه سابقا¹، وهذا ليس مختلف عن نشاط هو جزء من الفكرة الإصلاحية أو قاعدتها النشاطية.

— رغبة ناشطي الإصلاح بالمنطقة وخاصة عاملي شعبها المحلية التي تمهيا لها رجال أمنوا بفكرة الجمعية ومشروعة وكانوا يمتلكون طاقة نشاطية مدفوعة بحبوية الشباب وقوة عنفوانه، فحولوا أفكارهم التي آمنوا بها إلى واقع، ولعل فكرة وصول مدارسهم وتعليمه لكل أبناء مجتمعهم أهمها، هذه الفكرة والجهد الذي سخروه نحوها من قبلهم جعل من التعليم الإصلاحي يلامس كل أبناء وناشئة الأوراس خاصة أنها تجاوزت كل الحساسيات الطبقية والفئوية معتبرة أن هذا التعليم هو حق كل جزائري حتى يؤمن له ثقافته المحاربة ويبعث فيه لغته ودينه ووطنيته ويوعيه بمصيره ووضعه حتى يدفعه للتحرر الحضاري والثقافي والوطني .

— تجاوز الحساسيات الطبقية والفئوية التي نظر بعضها إلى التعليم الإصلاحي نظرة ريبة وتهديد لمصالحها أو نظرة تخلف كالعائلات الميسورة والمنتفذة في سلم الهرم الاستعماري والتي تمتعت بامتيازات كبيرة لقاء خدماتها ومنها تعليم أبنائها بالتعليم الفرنسي الذين كانوا من خلاله يضمنون المناصب والترقية الاجتماعية والمادية.

أو العائلات المرابطية التي كانت ترى في هذا التعليم ومصدر جهته "جمعية العلماء" طرفا معاديا ومهددا لإرثها الثقافي والفكري الذي بواسطته تحفظ مكانتها وامتياز النفوذ

¹ - انظر مبحثنا دور الطلبة في نشر الفكر الإصلاحي لـ ج م ج بالاوراس، ص ص 269_ 271.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

الاجتماعي، خاصة مع ما حملته أهدافها ومبادئها من فكرة تصحيح الدين والعودة به إلى سابق نفاوته¹، وهو ما يشير صراحة إلى إعلان الحرب عن المعتقدات المرابطية، وقد كانت تشكل نشاطات الجمعية جوهر هذه الفكرة والتي لوحظت في محتويات تعليمها ومراميه بصفة محورية.

والعائلات الفقيرة التي كانت فاقة الفقر تجعل منها فئة لا تع أهمية تعليم أبنائها كما تخضع في أفكارها لتعاليم المرابطية التي كانت توشي لهم بخطورة هذا النوع من التعليم، زيادة على ما كان تساهم به وضعيتهم الاقتصادية في تسخير أبنائهم في سن صغيرة للعمل في الزراعة أو الرعي حتى يشاركونهم في تذليل لقمة العيش، وهو ما سوف ينجر عنه استبعاد تعليم أبنائهم من فكرهم واهتماماتهم، غير أنه ما لوحظ على التركيبة الطبقية لتلاميذ مدارسها نجد أن فئة الطبقة المعدومة من الأوراسيين قد مثلت عدا معتبرا من خلال تلك الخطة التي أنجزتها شعب الجمعية في مد مدارسهم إلى المناطق النائية التي كانت تمثل غالبية الطبقة الفقيرة، ويمكن أن نصل إلى حقيقة على أن المدرسة الإصلاحية لجمعية العلماء في الأوراس كانت مدرسة العائلات الأهلية الفقيرة .

كل هذه الصعوبات التي واجهت توسع تعليم الجمعية قد دله إلى حد كبير ناشطي الشعب الإصلاحية بالأوراس لما تمتعوا به من نفوذ اجتماعي تمثل في أن أغلبهم كانوا أبناء عائلات مرابطية، ما وفر لهم الاحترام والقبول وكذا ما وفرته هذه الوضعية من استئناس لفكرهم ومشروعهم وهو ما أبعد بشكل لا بأس به فكرة عداوة الفكرة الإصلاحية للمرابطية وبالتالي خطورة تعليمها على مصالحهم وعليهم.

كما كانت لهذه المكانة أن وفرت الحماية بقدر، وهو ما ساهم في حرية حركتهم ودعائيتهم وتقديمها بجرأة وشجاعة عبر كل مناطق الأوراس ما كان خدمة لتوسع التعليم، وإن تعرض بعضها وخلال فترات من نشاطهم للمضايقات، ولكن رغم ذلك لا يمكن أن نفسر ذلك الإصرار والاستماتة التي تحل بها ناشطي الإصلاح وعلى رأسهم عاملي شعبها إلا إلى تلك المكانة الاجتماعية والدينية التي كانت تضمن لهم السند القوي فيما يحاك من مضايقات ضدهم.

— كما سمح المشهد الثقافي والتعليمي الذي كانت عليه الأوراس على توسع التعليم الإصلاحي وذلك لتراجع التعليم التقليدي وضعفه الذي كانت تسديه أغلبية الزوايا، وأيضا افتقار المنطقة للتعليم الرسمي الفرنسي، حيث سجلت المدرسة الفرنسية نقصا كبيرا في حضورها في الوسط الأوراسي²، رغم ما كان يمكن أن تمثله منطقة الأوراس كمنطقة أمازيغية من أهمية في الإستراتيجية الثقافية للاستعمار الفرنسي مثل ما حدث في منطقة القبائل وكثير من مناطق المجتمعات الأمازيغية الأخرى في الوطن.

¹ - عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء مرجع سابق، ص106.

² - Haddad: Op.cit,p 209.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

لقد ترك هذا الضعف والفراغ في الساحة التعليمية فرصة سانحة لجمعية العلماء لتوسيع تعليمها، حيث ما إن بادرت بتأسيس مدرستها حتى تلقفتها الجماهير الأوراسية بشغف الظمآن للتعليم والثقافة، بل تجاوز أمرهم لتبنيها لها من خلال تولى المساهمة في بناءها وإنشاءها وتمويل مصاريفها المختلفة .

والحال أنه حتى أثناء محاولة الإدارة استدراك الأمر بعد أن تفتنت إلى ما اعتبرته خطر المدرسة الإصلاحية، غير أن تعليم الجمعية كان قد تقدم بشكل عميق وتوطن في المشهد الثقافي والتعليمي الأوراسي، بحيث عجزت المدرسة الفرنسية على منافستها حتى وإن استعانت بسلطتها بتفعيل قوانين التعطيل وعرقلة النشاط التعليم العربي الحر والذي مارسه الحاكم الإداري بإقليم الأوراس بشكل مبالغ فيه لثني عزيمتهم وإفشال مشروعهم.

يضاف لإنجازات جمعية العلماء على صعيد التعليم في الأوراس تلك القفزة الكبيرة التي وطنتها وثبتتها كتقليد تعليمي للأبناء المتمدرسين وحتى لدى الأسرة المعنية بتعليم أبنائها، والمتمثلة في ضبط تقاليد تعليمية حديثة يلتزم فيها التلاميذ بقوانين التمدريس التي جاءت في اللوائح التنظيمية لمدارسها، فكان على رأس هذه الإجراءات التنظيمية، ضبط حضور المتمدرسين ومحاربة ظاهرة الغيابات والانقطاعات التي كانت سمة التعليم التقليدي بشكل يخل بنجاح التعلم، وقد عرفت هذه الظاهرة أكثر لدى أبناء أصحاب الإقامات البعيدة والأسر الفقيرة أكثر، ولعل هذا يعود لاضطرار هذه الأسر في الموسم الفلاحية من الاستعانة بأبنائهم في الأعمال الفلاحية المختلفة ما يجعلهم ينقطعون خلال طول مدة هذا الموسم.¹

والحق أنه لوحظ تراجع هذه الظاهر بمدارس جمعية العلماء من سنة لأخرى حتى كادت تصل إلى الزوال، حيث أصبح التلاميذ يلتزمون بدروسهم طول أيام الدراسة وحسب التنظيم الزمني المعمول به، من بداية الموسم الدراسي حتى نهايته، كما أيضا كاد القضاء على ظاهرة انقطاع التلاميذ عن الدراسة نهائيا قبل انتهاء المرحلة والطور أو الحصول على الشهادة .

مؤكدًا أن ظاهرة الانقطاع والغياب التي كانت سمة وعرف تعليمي عند العديد من المتعلمين للعهد السابق لتواجد المدرسة الإصلاحية، ما كانت لتتنحى بيسر وسهولة للعمق الموجودة عليه في سلوك المتعلمين وما تؤكد ظروفهم العامة، غير أن للجهود والخطة التي اشتغل عليها معلمي الإصلاح حتى يتسنى لهم صف منضبط ومداوم في مدارسهم، وقد نجح هؤلاء المعلمين من خلال معاملتهم الحديثة التي تتسم بالمعاملة الحسنة والتربوية للتلاميذ حتى يجيب إليهم التعليم وطريقة تدريسهم المبنية على تحقيق حاجاتهم المختلفة العقلية والنفسية والوجدانية والتي فيها يجد المتعلم رغبته في المزيد من الأخذ والتحصيل، إضافة إلى أسلوب الحوار الذي يساهم فيه التلميذ في بناء الحصاة والنشاطات المختلفة التي تتضمنها البرامج الدراسية كالنشاطات الترفيهية والرياضية وهو ما يشعره بتحقيق الذات وبمعنى وجوده والمتعة الحاصلة في تفاعله ويبعد عنه الملل وكل ما هو عور سلبي، كل هذا كان يشد المتعلمين إلى التعلم والحرص على المواظبة في الحضور والارتباط بمعلميهم ودروسهم فمدرستهم .

¹ - مقابلة سابقة مع السيد عمار ملاح.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

لا يمكن أن نستبعد أن يكون أسر المتعلمين قد لاحظوا هذا الشغف بالتعلم والحرص على المواظبة في أبناءهم، ما حملهم على توفير كل المساعدة لهم لنجاح تدرّسهم الطبيعي وتوقفهم على عادة قطعهم عن الدراسة للأسباب المختلفة سابقة الذكر.

زيادة عن هذا، لقد حمل ناشطي الإصلاح، الآباء على تعليم أبناءهم وتفرغهم لهذه المهمة دون سواها، وذلك من خلال القناعة التي غرسوها فيهم بأهمية التعليم وفائدته، ولقد كان لهذا الجهد قيمة عظيمة في وعي الأوراسيين بأولوية تعليم أبناءهم عن باقي الأعمال والحاجات التي كانوا يستخدمونها فيها ولأجلها يقطعونهم عن التعليم، وهو ما كان ذو فائدة جمة لصالح التمدّس الكامل للتلاميذ .

وقد زكى وأكد هذه القناعة لدى الأولياء ما كان باديا وبشكل جلي لنتائج هذا التعليم على أبناءهم من حيث ترفيتهم العقلية والتفكيرية واللغوية والمعرفية وحتى السلوكية والأخلاقية، وهو ما اعتبره المجتمع الأوراسي مدرسة ذات فائدة ومنفعة تفرض بذلك نفسها ضد كل الإدعاءات التي كانت تھون من دورها أو تهدد بخطر تعليمها.

إضافة إلى ذلك فقد عنّت عند العديد من الأسر على أن تعليمها سبيل للترقية الاجتماعية، وهذا لما أصبح يتمتع به المتعلم خريج هذه التعليم الإصلاحية من احترام ومكانة للدور والنشاط الذي سوف يقوم به عادة بعد تخرجه وهو ما ينسحب على عائلته، فكثير من الأسر وجدت في هذا التعليم فرصة لإعادة إنتاج الترتيب الاجتماعي .

لقد ساهم هذا الذي يمكن وصفه بالتقليد الجديد في سلوك المتعلمين الأوراسيين بظهور المدرسة الإصلاحية بالأوراس بمظهرها العصري والجاد الذي يعتمد على التنظيم والتسيير الحديث الخاضع لقوانين ولوائح تهدف إلى نجاح العملية التعليمية والتربوية فيها .

لم يقتصر تطور المدرسة الإصلاحية على ضبط حضور المتعلمين فيها بل وجد فيها أيضا الرعاية الصحية من خلال المتابعة الدورية بداية من توجيهات المعلمين للتلاميذ بمحتم على النظافة والوقاية من الأمراض المختلفة أو التفقد الطبي على بساطته من خلال تنظيم زيارات دورية لفرق التمريض تتم فيها فحص التلاميذ واكتشاف الأمراض فيهم قبل استفحائها خاصة تلك المعدية¹.

وقد جاءت هذه المبادرات بمنطقة الأوراس تماشيا مع ما يحسب للمدرسة الإصلاحية لجمعية العلماء أنها قامت به كأحد الأسس وهي الصحة المدرسية من خلال الإطلاع على الوضع الصحي للتلاميذ، لقد عملت على اكتشاف الأمراض وتقديم الدواء وتوجههم للمستشفيات إن هذه الأدوار ليست بعيدة عن هذه المدارس التي فتحت أبوابها أمام المساعدون الطبيون والأطباء الفرنسيون للاستفادة من خدماتهم وإمكانياتهم المتطورة لصالح تلاميذها.²

1- مقابلة سابقة مع السيد مسعود عبيد.

2- المقابلة نفسها.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

المبحث الثاني: المدرسة الإصلاحية في الأوراس بين الأثر الثقافي والاجتماعي

يعرف عن المدرسة الإصلاحية لجمعية العلماء التي وجدت في المجتمع الجزائري المسلم كانت حتى زمن ظهورها حالة جديدة، إذ عرفت البيئة الثقافية بندرة هذا النوع من الخدمة، وإن وجدت فقد كانت بعيدة عنه لا تحقق حاجاته من خدماتها التعليمية والثقافية التي عادة ما تتولى أي مدرسة توفيرها إما لغرابة مشروعها وعدم انتماءها إلى هذا المجتمع كما يظهر مع المدرسة الاستعمارية، أو لغرابتها عن راهن الناس حيث تقدم معارف قديمة لا تعاصر زمانه يمثل ما عرف على المدارس العربية الحرة التقليدية، فبذلك كان ظهور مدرسة جمعية العلماء تعبر عن رغبة العلماء في الإيفاء بالحاجات الثقافية والاجتماعية للمجتمع الأهلي المسلم من حيث إنماء عناصر انتمائه ومعاصرته لزمانه، فإلى أي مدى تكون المدرسة هذه في منطقة الأوراس قد حققت حاجات مجتمعهما الثقافية والاجتماعية وما الأثر الذي بدا من قيم مشروعها في المجتمع الأوراسي وما أثر تطورها ونجاحاتها في الأخذ بها كمثل في تعليم ومدارس المنظمات الأخرى كالزوايا والاتجاه الاستقلالي وحتى الشخصيات الحرة؟

المطلب الأول: الأثر الاجتماعي للمدرسة الإصلاحية في الأوراس.

بدت المدرسة الإصلاحية لجمعية العلماء في أول أمرها غريبة عن الوسط الاجتماعي الأهلي غرابة الفكرة الإصلاحية ذاتها، و لعل مرد هذا ؛ للتعارض بينها وبين الثقافة التقليدية التي كانت سائدة وغالبة على المشهد الثقافي والديني من جهة وإلى حالة الانغلاق التي كان يعرفها هذا المجتمع بسبب فترة الجمود الطويلة وما كرسته سياسات الاستعمار تجاهه والتي أفضت إلى قطيعة مع محيطه الحضاري في الشرق الذي كان يعرف نهضات الإصلاح والتجديد من جهة أخرى.

غير أن النضالات التي أخذها الفريق الإصلاحي على عاتقه لأجل توطين تعليمه، قد ساهمت بعد فترة من الزمن وبفضل إستراتيجيته المحكمة، في تقدمه شيئا فشيئا حتى أصبحت مدرسته جزءا من المشهد الاجتماعي والثقافي لكل المجتمع الجزائري المسلم .

ولاعتبار هذه المدرسة قد أعدتها جمعية العلماء لإحداث التحول العميق الهادف للتغيير المنشود، كما كانت تأمله في تحقيق النهضة والتحرر الوجداني والثقافي والحضاري للمجتمع الجزائري المسلم بداية والاستقلال السياسي نهاية¹، فإن حدود تأثيرها لم يكن مقصور على تلقين المعارف على تلاميذها بل رمت من خلال رؤيتها التعليمية لهذه المدرسة الوصول بأفكارها إلى كل المجتمع الأهلي، تلك الأفكار التي كانت تستنهض هم الأمة من خلال إحياء مختلف مقومات الشخصية الوطنية " الإسلام والعروبة والوطن"، وإنماء الوعي بوضعه وكل القضايا المرتبطة بمصيره.

¹ - محفوظ قداش وآخرون: المقاومة السياسية المرجع السابق، ص 246.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

والحال أنه بعد سنوات من الانطلاق احتل الجهاز المدرسي التابع لجمعية العلماء قطاع هام من المجتمع الجزائري والمجتمع الأوراسي واحد منه، أين أصبح تحت تأثيرها عدد هائل من أبناءه وهو ما كان الوسيلة التي تمكنت بفضلها من الوصول للتأثير على عائلاتهم وذلك من خلال ما ينقلونه من أفكار ومعارف وسلوكات تعلموها وتكونوا عليها في برامج مدارسهم، وقد لاقت استحسان الأولياء والعائلات لما بدر فيها من إيجابية ورقية كانت فائدته ظاهرة وجلية في حياتهم وقد تعدى استحسانه إلى جلب الاحترام لهذه المدرسة من باقي أفراد المجتمع هذا عن المدى القريب، وانتشار تأثيرها من خلال التنشئة التي يتعرض لها تلاميذها حيث تغرس فيهم أفكارها ويشبون عليها وعلى المدى البعيد وتتعاقد الأجيال التي يصبح فيها التلاميذ الصبية؛ شباب فكهول ثم شيوخ، فيتحول بذلك المجتمع بالتجارب هذا لصالح أفكار هذا النوع من التعليم " الأفكار الإصلاحية " .

والحق أيضا أنه كان لتأثير المعلمين قسطا لا بأس به في هذا الشأن، ذلك للمكانة وللسلطة المعنوية التي عادة ما يحضى بها المعلم عند الناس، وأيضا للنشاطات القرينة بالتعليم التي كانوا يلتزمون بها تماشيا مع النضال الإصلاحي كالإمامة والوعظ والإرشاد، كل هذا كان وسيلة للتأثير وذلك بفضل ما يمكن اعتباره قناة تمنحها العلاقة بين المدرسة والمحيط الاجتماعي والعائلي.

وقد تدعم هذا التأثير مع تلك النشاطات التعليمية التي كانت تقام لصالح الكبار في المساجد ما جعل الجمعية تستهدف جميع فئات المجتمع بأفكارها وتعاليمها وهو ما أفضى في النهاية وبعد فترة ليست بالطويلة إلى ظهور تجاوب المجتمع الأهلي الجزائري مع نشاطات الجمعية وتبنيها من قبلهم لأفكارها أو على الأقل استئناسها لهم.

والجدير بالذكر في الواقع الأوراسي نجد أن الجمعية قد خصصت قسطا كبيرا من مواردها لميدان التعليم وهذا للاستجابة لمتطلبات التنشئة وأهدافها، كما يمكن أن نقف على حقيقة جليلة في هذا المضمار هي أن التقدم الأكثر أهمية في تعليم الجمعية في منطقة الأوراس وقع تحقيقه في مجال المدارس الابتدائية، والذي كان يغلب عليه الطابع الديني إلى حد ما، ولم تكن تخضع هذه المدارس لبرامج تعليمية ذات أهداف اقتصادية أو تقنية، كما هو جار الحال في جميع مدارس جمعية العلماء في الوطن، وهو ما تبرره معطيات الظرفية التاريخية المرتبطة بالأوضاع الاستعمارية التي تفرض البناء الوطني والهوياتي أولا.

كما لم تكن أيضا تهدف إلى تعليم مبادئ الكتابة والحساب ومبادئ العلوم الدينية فقط كما كان معهود سابقا، غير أن المدرسة الإصلاحية نستطيع أن نقول أنها كانت تطمح إلى أكثر من ذلك، فقد كانت من بين ما تعمل له هو فرض احترام قيم اجتماعية وثقافية أصلية (أخلاقية دينية_سياسية وطنية _حضارية)، وقد كانت محتويات المقررات التعليمية لمختلف المستويات والمراحل تكفل هذا المرمى والغاية والهدف¹.

¹ - أنظر محمد القرصو: المرجع السابق، ص 58 إلى ص 70.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

فمؤسسوا مشروع التعليم الإصلاحى للجمعية من قادتها الأوائل¹، لا يمكن أن يتجاوز إدراكهم أهمية العملية التعليمية وأهدافها من خلال الوظيفة التي تسديها، وكانوا يدركون أنه على مدرستهم أن تنمي في تلاميذها إرادة المساهمة الفعالة في نفع المجتمع، بالإضافة إلى إعدادها من خلال مشاركة نشاطاتها التعليمية في تلقينه القيم الضرورية لانتظام سيره الاجتماعى والحضارى الذي كان يبدو لها أنه فقدتها بسبب صدمة الاحتلال التي فرضت تحلى أو استقالة مؤسسات التنشئة والتربية لهذه المهمة.

هكذا جندت المدرسة عند العلماء؛ باعتبارها وسيلة فعالة في مقاومة ثقافة الاستعمار المعنوى " الفرنسية والتنصير والإدماج"، كما وظفت لمهمة إجتماعية استراتيجية، وذلك من خلال لعبها دور الموحد الضرورى للمجتمع الذي تفككت أواصره جراء السياسات الاستعمارية؛ الاجتماعية والاقتصادية والقانونية والثقافية، والذي برز جليا وخطيرا مع ما ظهر على مخرجات المدرسة الفرنسية التي أنتجت نخب أهلية منسلخة الهوية منفضمة الانتماء الاجتماعى² حسب نظرة الإصلاحيين دائما.

وقد كان لمسعى توحيد مضامين المناهج والمقررات وأهدافها على جميع مدارس جمعية العلماء عبر القطر الجزائرى، أن تعمل على الإسهام في توحيد العقل والذهنية والتصورات لأبناء المجتمع الجزائرى المسلم وبذلك استطاعت جمعية العلماء أن توحد الإحساس والتفكير على تباين الجغرافية والانتماءات الأخرى بين الجزائريين والتي كانت تغذي فرقتهم*، وهو ما يمكن أن نعتبره إنتاج لثقافة وطنية واحدة وهو ما انتهى لإنتاج الشعور الوطنى الموحد الذي كان هشا أو غائبا تماما لحداثة هذا النوع من الشعور (الوطنى) بالمعنى السياسى والعصرى الذي سوف تشتغل عليه الحركة الوطنية والثورة التحريرية لدى المجتمع الجزائرى لاحقا.

والحق أنه في مجتمع كالمجتمع الأوراسى الخاضع للاستعمار، حيث اتساع رقعة الجهل وتهديد تقويض قيمه الحضارية ومقومات الهوية الوطنية، كان يستلزم على مدارس جمعية العلماء أن تستهدف أكبر قطاع من أبنائه، وتستهدف فيهم بناء ثقافة أصلية من خلال تعزيز أركانها الهويةتية خاصة في تعليمها، وهو ما كان يحتاج إليه المجتمع الأوراسى الخارج توا من عزلته الجغرافية والماضوية التي تحكمها الدوائر الأقل ضيقا المتمثلة في الانتماء القبلى والطريقة الدينية والإنشداد الكبير للتقاليد البعيدة التي كانت في مجملها عائق على التواصل ومعرفة الآخر حتى القريب والتجاوز بذلك إلى دائرة الانتماء الأوسع " الوطن الجزائرى ثم الأمة العربية الإسلامية"، وهو ما بدا

¹ انظر في هذه الدراسة مبحث: نماذج من التجارب لقادة ج م ج م ج ومبحث الرؤية التعليمية للجمعية ص ص 106_ 148
² علي مراد: المرجع السابق، ص 488.

*- الانتماءات المتفرقة ذكرها محمد الطاهر فضلاء في مقاله له وجاءت: ((والمجتمع الجزائرى، حين تأسست جمعية العلماء، تتكون من مجموعات متفرقة... فالطريقة مجموعات متنافرة ومتصارعة حيناً.. والنصرة العنصرية الأسرية، بين المدي والقروي، والعربي والقبائلى والحضري والريفى والتلى والصحراوى والمرابط والعامى الخ.)) أنظر محمد الطاهر فضلاء: دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في المقاومة الوطنية، مجلة الثقافة، السنة الخامسة عشر، العدد 46، مارس أبريل 1985، ص 249.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

فعلا على الأجيال التي استفادت من هذا النوع من التعليم بعد عقود من النشاط لهذه المدارس في الأوراس خاصة في لغتهم وقيمهم الحديثة والأصيلة معا.

المطلب الثاني: التأثير اللغوي والقيمي في تعليم الجمعية على المجتمع الأوراسي:

كانت الرؤية التربوية والتعليمية لجمعية العلماء ذات مقاصد وطنية ودينية مثل ما سبق تناوله سلفنا، وذلك عبر الحمولة المعرفية والفكرية لمقررات وبرامج مدرستها التي كانت من خلالها تستهدف تقوية وإحياء المقومات الوطنية والتي كانت تقوم بها أساسا مواد اللغة العربية والتاريخ والدين الإسلامي، أو بالأحرى قيام المدرسة بوظيفة أساسية تتعلق بتوافق المجتمع ووضع الثقافة الوطنية التي تعرضت لعمليات الحو والتشويه والحجب من قبل الاستعمار ودوسه على قيمها و مكانتها اللائقة بها.

أما عن اللغة العربية استطاعت جمعية العلماء إلى حد ما أن تتمكن من نشرها وفرضها في الأوساط الأهلية والعودة بها إلى مجدها متجاوزة تلك الوضعية التي كانت عليها من الضعف والهامشية خلال سنوات الاستعمار السابقة أو حتى قبله تبعا لما عرف على الثقافة الجزائرية في تلك الفترة من ضعف.

وإذا كانت منطقة الأوراس تعرف فيها اللغة العربية وضعية أصعب لاعتبار أن هذه المنطقة أمازيغية يتداول أفرادها لغتهم الشاوية كلغة تعامل و حياة، فإن هذه بالإضافة لما كان حالا باللغة العربية من انحسار في الاستعمال على كثير من فئات المجتمع الذي كان أغلبه غير متعلم فإنها كانت لغة غريبة ومجهولة عند قطاع كبير من ساكنة الأوراس وخاصة في تلك المناطق النائية والجبلية¹.

وقد كان وراء تطور وتوسع استعمال اللغة العربية، اعتمادها غاية تعليمية في البرامج الدراسية ومادة تدريس للمواد الأخرى، إضافة إلى أنها كانت لغة النشاطات الإصلاحية المختلفة " لغة للوعظ والإرشاد والدرس المسجدي والخطب وأكثر لغة للصحافة"².

وقد بلغ تطورها امتلاك أو استدعى ثلة كبيرة من المتعلمين جانبا البلاغي والفني حتى أصبحت لغة ابداع وكتابة عالمة لديهم، وهو ما ساهم في ازدهارها الثقافي والاجتماعي بظهور انجازات لإغراض أدبية كالشعر والرواية والقصة والمقال الصحفي الاجتماعي والسياسي والثقافي والتأليف التاريخي والديني العقدي*... فتأطر المشهد الأدبي بلسان العربية وأصبح يحاكي النهضة الأدبية بالمشرق، وبذلك بعثت من جديد اللغة العربية؛ كلغة عالمة

¹ - العربي دحو: مرجع سابق، ص174.

² - قداش وأخر: المقاومة مرجع سابق، ص247.

* - ظهرت الكتابات الشعرية والقصة والرواية والمسرحية والكتابة الصحفية للعديد من اعضاء وأبناء جمعية العلماء حتى بات القليل منهم من ليس له موهبة في ذلك، كما ظهرت التأليفات التاريخية التي تولى أمرها خصوصا مبارك الميلي وتوفيق المدني وعبد الرحمان الجيلالي وأيضا التأليفات في العقيدة والدين كرسالة الشرك للميلي وهوما وظف اللغة العربية كلغة وظيفية قادرة على استيعاب الحاجات الثقافية والعلمية والعصرية.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

وثقافية دخلت المتن السوسيوثقافي والسياسي في الوسط الأهلي، بعد أن كانت هامشية، فأضحت تتكلمها النخب وتكتبها؛ حاضرة في أعمالهم الجادة والرسمية في جلساتهم وتقاريرهم ومراسلاتهم المختلفة. وما تجدر الإشارة إليه أن جمعية العلماء في نشرها للعربية وإن صح التعبير عملية التعريب التي تولت زمامها، في الحقيقة لم تكن فيها معارضة لمواكبة العصر فالأمر عندها لم يكن يتعلق بنشر قيم لغوية تقليدية ماضوية أو لغة ذات محتوى غيبي رجعي، بل كانت جمعية العلماء تدفع بلغة للمجتمع متوفرة على أسباب الحياة والحيوية المتكيفة مع متطلباته، وهذا مجازات مع كل خطابات قطاعها وروح مشروعها وعلى رأسها خطابها التعليمي في مدارسها الذي كان لا يتعارض مع التحديث والعصرنة، تقدم من خلالها قيم ومعارف مرتبطة بالحياة؛ قيم ذات حيوية "ديناميكية" في حركية متماشية ومتواصلة مع الواقع، ومعارف فاعلة لاتصالها العضوي والمباشر مع الأحداث ومجرياتهما.¹

استطاعت مدرسة جمعية العلماء أن تنجح في إيصال فئات جمعية العلماء إلى المجتمع من خلال إقناع أفرادها بأفكارها واعتقاداتها التي كانت منذ مدة غير قليلة بعيدة عن العقل والثقافة العامة للمجتمع الأهلي، خاصة في جانبها الديني، ذلك أن المدرسة الإصلاحية قد حملت أفكارا وقيما جديدة كان المجتمع الأهلي في أمس الحاجة إليها مع ما كان يعيشه ويعاناه من حالات التخلف واللامبالاة وكل مظاهر الضعف والتعاسة التي مست جميع جوانب حياته، لقد كان من فضلها أنها بعثت قيم جديدة تجعل من الفرد والمجتمع قادرا على معايشة عصره فاعلا فيه بإيجابية مع بقاءه على وصول ثقافته ودينه .

الواقع أن إسهام المدرسة كبير في إيصال الأفكار الإصلاحية للجمعية إلى المجتمع وتحويله من جهة أخرى عن تلك الأفكار والقيم البالية والموضوعات المجتررة والتصورات والرؤى الرثة، ومختلف الأفكار المنحطة التي كان أغلب التعليم التقليدي يتبناها ويقدمها أو ما كان يبعث من ثقافة تعريبية للمدرسة الفرنسية التي نظر لها على أنها ثقافة محتلة مهددة للكيان المعنوي والقيم الاجتماعية للمجتمع الأهلي .

إن التعريب والنشاطات الدينية والحضارية التي عملت على نشرها المدرسة الإصلاحية لجمعية العلماء بالأوراس لم تعترضها عوائق اجتماعية مثل ما قد وجدتها في مناطق أخرى شبيهة بها كالحال في منطقة القبائل، حيث هيمنت فيها اللغة الفرنسية وتعليمها، أو حتى بعض العوائد الدينية القديمة التي مازالت تظهر في حياة الأوراسي أو بعض الرمزيات التنصيرية مما كان عائقا أمام تقدم المؤسسات الإصلاحية إلى حد ما.

لقد كان للحضور الاستعماري ومؤسساته الضعيفة بالأوراس نسبيًا - مقارنة بالكثير من المناطق المشابهة لها من حيث الطبيعة الأثرو تاريخية والثقافولغوية - وانكفاء الأوراسي عن كل مظاهر الاتصال بالاستعمار ومؤسساته وكل جديد قادم حتى فترة متأخرة من الوجود الاستعمار، جعل من انطلاقة جمعية العلماء به تستدرك الوقت لتنافس الوجود الاستعماري في مد مشروعها وتتفوق في وجود وتوسع مؤسساتها خاصة مدرستها .

¹ - محفوظ قداش وآخر: مرجع سابق، ص 249-250

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

إن وصول مدرسة العلماء وتوسعها في كل مناطق إقامات الساكنة الأوراسيين قد وفر على المجتمع التفاف أكبر عدد من أبنائه على تعليمها، كما حافظت على البيئة الاجتماعية مما قلص المسافة بين الوسط المدرسي و الوسط العائلي .

ذلك أن الأوراسيون لم يشعروا أن المدرسة الإصلاحية ذات التوجه اللغوي العربي والقيمي الديني "الإسلامي الإصلاحي" بعيدة عنهم، فلم تشعر برامجها ومعارفها وكل القيم التي كانت تقدمها لهم أنها تجعل منهم غرباء منقطعين عن جذورهم، أو تجعلهم في وضعية تجبرهم على التكلم بلغة غير لغتهم أو أنها ترمي إلى حجب و كبت ثقافتهم ونمط عيشهم .

والحال أن ناشطي الإصلاح بالأوراس كانوا يشعرون بأن القيم التي كانت تلقنها المدرسة الإصلاحية هي قيم مكملة وإضافة متجانسة للقيم الاجتماعية والثقافية الأوراسية وفي نفس الوقت هي قيم وأفكار تطويرية طبيعية وتصحيحية لفكرة المحافظة للدين الإسلامي المتجاوبة مع حاجات العصر، بل نظر لها على أنها قيم مقاومة لقيم الاستعمار، وهو ما جرى فيما بعد على عدد كبير من المجتمع الأوراسي، رغم أنه ظهر في النشاط الإصلاحي ما كان يعد تعدي على بعض القيم والعوائد المتعلقة بالثقافة الشعبية كتلك التي كانوا يحيونها في الأعراس وزيارات النساء للقباب الأولياء والندور.¹

غير أن النفع الذي كانت تقدمه المدرسة الإصلاحية للمجتمع الأوراسي والذي فرض الاعتراف بها بقوة الواقع جعلها تتعايش لحين من الوقت حتى تغلبت أفكارها التصحيحية وأضعفت تلك الممارسات بشكل كادت فيه أن تحجب وقد تم هذا التفاعل وضمنه مناخ التوافق والانسجام الذي نجح بين مدرسة العلماء ومجتمعها الأوراسي.

هكذا استطاعت الجمعية أن تعيد إنتاج مجتمع حديث بروح هوية الوطن، وتبعث فيه الحياة والمشاركة الإيجابية في صناعة مصيره على النحو الذي يحقق فيه ذاته ومصالحه كما يراها، لا أن تجري عليه الأحداث بلامبالاة ولاوعي كما كان جاري الحال عليه خلال سنوات الاستعمار السابقة، لقد نجح المشروع الإصلاحي في تحقيق أعلى مراتب أهدافه التي سطرها والتي غيرت الإنسان الجزائري عموما والأوراسي خصوصا وحولته لفاعل وذلك بفعل التحرير الذي جرى فيه؛ تحرير عقله ووجدانه والذي بدوره كان منطلق لتحرير أرضه.

كل هذا كانت فيه المدرسة هي أكبر مساهم في ذلك، وقد كان رجال التعليم فيها هم إطارها الذي وفقت بفضلهم في إيجاد هذا التفاعل في الأوراس بين مؤسسة المدرسة كقناة بين جمعية العلماء والمجتمع الأوراسي و نقل قيمها على نحو أهداف مشروعها بشكل يمكن تقييمه بالنجاح لحد كبير وذلك بالمقارنة بين ما كانت عليه أوضاع هذا المجتمع الثقافية والاجتماعية قبل ولوج مؤسسات الجمعية إليها وبعد وفودها واستقرارها فيه .

¹- Colonna: Op, Cit, p279.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

المبحث الثاني: دور تعليم جمعية العلماء في تطوير تعليم الجهات (المنظمات) الأخرى

المطلب الأول: دور تعليم جمعية العلماء في تطوير تعليم مدارس الزوايا

تأسست الزوايا في بدايتها للتصدي للعدوان والتحرشات الذي كان يمثل الزحف الصليبي على الأراضي الإسلامية، وبعد التحولات التي مست انقلاب الموازين بين العالمين الإسلامي والمسيحي لصالح هذا الأخير، فإن الزوايا تحولت في طبيعة مواجعتها من الجهاد العسكري إلى النشاط الثقافي لما أصبح يمثل خطر التبشير والتنصير من تهديد حقيقي للعقيد والثقافة الإسلامية، ومن هنا بدأت الزوايا تكثف كل جهودها نحو المقاومة الثقافية وبذلك اضطلعت بمهمة التعليم والتدريس كوسيلة للمواجهة الثقافية حتى أصبح هذا النشاط فعلا ملازما لها .

ومن المفيد التذكير أن الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر في العصر الحديث قد اضطلعت بمهام ثقافية بالغة الخطورة، لما كانت تسديه من نشاط في ميدان التعليم الذي كانت الأيالة الجزائرية كسلطة رسمية غائبة عنه، وبذلك يحسب للزوايا دورها في تغطية الفراغ الثقافي بين صفوف جماهير المجتمع الجزائري المسلم بإحداثها المدارس والكتاتيب، والتي كان أغلبها ملاحق للزوايا المنتشرة عبر مناطق القطر الجزائري.

والحق أن التثقيف والتعليم الذي تكفلت به الطرق الصوفية وزواياها، وإن مثل واجبا دينيا وخدمة إلى مجتمعها مثل ما أسلفنا الذكر، إلا أنه كان أيضا في المقابل عاملا لمد نفوذها وتوسعها في الأوساط الاجتماعية لما تضمنه من فكرها، ومع تعدد الطرق ودخولها في تنافس حول استقطاب أكثر عدد من أفراد المجتمع، فإن التعليم كان وسيلتها لذلك، باعتباره يهيئ إلى استقطاب التلاميذ والطلاب مما يؤدي بالضرورة إلى كسب الناشئة والناس مقابل تلك الخدمات من جهة، وأيضاً لما كانت يتضمنه محتوى تعليم كل طريقة من تعاليم وتوجيهات تعبر على رؤيتها الدينية والفقهية وحتى العقديّة التي كانت تختلف من طريقة إلى أخرى .

وبالنتيجة فإن النشاط التعليمي للطرق الصوفية عبر زواياها، أصبح أحد الركائز الأساسية لاستمرارها ومد نفوذها بين الأهالي، وكذلك أحد العناصر التي تزيد من مكانتها وموقعها الاجتماعي، لذلك طغى هذا النشاط أكثر من النشاطات الأخرى التي توسعت فيها الطرق والزوايا .

والحال إن الزوايا في بداية الاحتلال كانت هي المراكز التي أدت أدوارا هامة في مقاومة الاستعمار عسكريا وثقافيا فكل المقاومات العسكرية خرجت من الزوايا وتحت قيادات مشائخها أو بدعم روعي ومباركة منهم، أما بالنسبة لجهودها التثقيفي والتعليمي فتذكر الإحصائيات أن عدد الزوايا التعليمية قد بلغ حتى سنة 1871م حوالي 20000 زاوية تسهر على تعليم حوالي 28 ألف تلميذ أهلي¹.

كان محتوى أغلب برامج ومقررات تعليم هذه الزوايا هو تحفيظ القرآن للصبية وتعليم اللغة والعربية وعلومها والعلوم الشرعية المختلفة وكذا بعض المواد العقلية كالحساب والفلك وهذا حسب مستوى الزاوية التعليمية

¹ -عبد القادر حلوش: المرجع السابق، ص134.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

وأيضاً تبعاً لمستوى المرحلة التعليمية فيها، وإن كان هذا المحتوى لا يفيد بحاجات المجتمع التعليمية خاصة ما تعلق بالحاجات الحياتية لذلك العصر وينفذ بطرق تقليدية بائسة ووسائل عتيقة غير مجدية ما يعكس تخلف هذا النوع من التعليم، غير أنه من جانب آخر كان يوفر لهذا المجتمع ما يمددهم بثقافتهم ويجذر فيهم مقوماتهم الوطنية المهددة من قبل الاستعمار¹ ويحيي فيهم جذوة الدين التي كانت عبر كل زمن الاحتلال مهددة .

هذا الجهد الثقافي والتعليمي جعل من الإدارة الاستعمارية ترى أن هذه المؤسسة " الزاوية " هي الصخرة التي تقف أمام مشروع تقدمها في احتلال البلاد، وهو ما دفع هذه الإدارة إلى تجنيد خبراءها من الأكاديميين والعسكريين والسياسيين للبحث عن سبيل إضعافها والتحكم فيها، هؤلاء بعد دراسة ومعاينة ومتابعة توصلوا وأوصوا أن المضمون التعليمي لها ينمي روح العداة لفرنسا².

كانت كل هذه السياسة من أجل إضعاف تأثير الزوايا على جماهير المجتمع الجزائري المسلم أو توجيههم على النحو والرغبة التي ترتبها إدارة الاستعمار والمتمثلة في الإحتواء والإخضاع والطاعة، وفعلاً بعد عقود قليلة من الاحتلال استطاعت الإدارة الاستعمارية تحقيق أهدافها مع مجموعة من الشخصيات الدينية والزوايا والتي كانت قائمة عددهم تزداد طردياً حتى القرن 20م، أين أضحت أغلب الطرق وزعمائها تحت توجيه الإدارة الاستعمارية. هذه الوضعية التي آلت إليها هذه المؤسسة جعلتها تفقد مهامها الأساسية تجاه مجتمعها وعلى رأسها خدمات وممارساتها التعليمية بالشكل المرضي للحاجات الثقافية لجماهيرها، لقد كان لوضعها تحت القيود المشروطة والمراقبة المستمرة أن أصبحت تقدم تعليماً بائساً تكتفي بتلقين وتحفيظ القرآن وبعض المعارف الدينية واللغوية من مؤلفات قديمة قد لا يفقهها حتى مدرستها وبطريقة عقيمة لا تلي الحاجات الفكرية والعقلية ولا الحاجات الحياتية للفرد والمجتمع .

زيادة أيضاً على التراجع العلمي والثقافي الذي أصاب الزوايا حيث تراجع مستوى علماءها ومعلميها وأصبحت تعيش حالة الركود والسكون ما جعلها تجتر فيها معارف ماضية لا تعايش الحياة وبطريق عقيمة غلب فيها أسلوب الحشو على مستوى الأداء التربوي الذي قتل في المتعلم حافز الرغبة في التعلم والتحصيل ولا تستهدف فيه غير ملكة الحفظ³، ما تكون مخرجاتها ضعيفة حتى من أولئك الذين طال بهم الأمد فيها وعن هذه الوضعية يعرض ابن باديس في أحد مقالاته هذا الحال فيقول : ((...الذي يعد متخرجاً منها بعد مقاساة آلام الغربة والسخره لا يقوى على تركيب جملة بسيطة يكون مستعداً لترشيع الناس له إماماً في مسجد لو كان جاهلاً لشروط الإمامة، ومتعهداً من جهة أخرى ببسط راحته وإرخاء أذنيه للتقبيل وتعليم فلذات أكباد الناس وتربيتهم على غراره...))⁴

¹ - أبو القاسم عد الله: أفكار جامحة، مرجع سابق، ص 27.

² - علي مراد: المرجع السابق، ص 63.

³ - أيفون تيرين: المرجع السابق، ص 51.

⁴ - أساليب التعليم في منطقة زاوية، الشهاب، جويلية 1929.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

هذه الوضعية التعليمية والثقافية خلال الفترة الاستعمارية هي الوضعية التي كانت توصف بها كل الثقافة إلى عشرينيات القرن 20م التي ساد فيها الضعف والتخلف الثقافي والفكري والحضاري، ذلك أن حتى هذه الفترة كانت المؤسسات الأساسية التي تتكفل بالتعليم والثقافة هي الزوايا كما سبقنا الإشارة .

غير أن هذا الحكم لا يمكن إصداره على إطلاقه وهذا لوجود عدد من الزوايا والشخصيات العلمية وإن قلت، بقيت إلى حد ما تسدي تعليما يتوفر نسبيا على مستوى مرضي ترك الثقافة والمعارف العلمية المحلية تقاوم من أجل الحياة في بيئة حولتها السياسة الاستعمارية إلى بيئة جهل وأمية.

لعل هذا النوع من الزوايا والمؤسسات التعليمية المحلية التي حاولت المحافظة على دورها التعليمي والديني قد توزعت إلى حد ما على جغرافية الجزائر، غير أن الثابت أن زوايا الطريقة الرحمانية كانت من أهم وأكثر هذه المؤسسات التزاما بهذا الدور ولعل هذا يعود لطبيعة الطريقة التي كانت طريقة علم وتعليم¹، وهذه الطريقة هي الطريقة التي كانت تغلب على عموم الأوراس .

والواقع أن منطقة الأوراس لم تختلف في هذه الوضعية التي آلت إليها الثقافة والتعليم في الوطن، وهذا لما عرفه الأوراس خلال أكثر من ستة عقود في مرحلة الاحتلال الأولى من هزات كبيرة في الأدوار التعليمية والثقافية لزواياها مثل ما أوردنا سابقا.²

غير أنه مع عشرينيات القرن 20م لاحت بالمنطقة الأوراس ملامح ومظاهر الانتعاش والإقلاع في ميدان التعليم والذي تبنته بعض مؤسسات الزوايا، وذلك بسبب عودة بعض الشخصيات المتعلمة من جامعات الشرق، التي أطرت الحركة التعليمية بعقارات زوايا وكتاتيب المنطقة .

ولأن هذه الشخصيات كانت تحمل تكوينا جديدا خرجوا فيه عن الأفكار التقليدية، فكان من أمرها هذا أن تسهم في إحياء التعليم وتبعث فيه روح جديدة تبعا لتكوينها، غير أنه حتى تلك اللحظة التاريخية كانت الشروط الثقافية وحتى الاجتماعية للمجتمع الأوراسي عاجزة على استقبال هذا النوع من المبادرات وتحقيق النجاح فيه، و على هذا لا يمكن أن ننكر مساهمة جهدهم - بعد فترة من تراكمه - في تعديل هذه الشروط بقدر نحو تحسين الظروف في الأوراس وذلك خلال عقد أو يزيد حتى ولجت المبادرة التعليمية لجمعية العلماء منتصف الثلاثينيات .

والحال أن توظيف مؤسسات تقليدية مرابطة لشخصيات ذات أفكار إصلاحية وبروح تجديدية حتى هذه الفترة، وفي مناطق مغلقة ريفية كمناطق الأوراس المعروفة بمهمنة المرابطة عليها، يعد سابقة في التقاليد الدينية والثقافية في الجزائر، وإن مرت حالات سابقة كتلك التي كانت مع بلقاسم الفرحي ومولود الزريري إلا أنها لم تتمتع بالجرأة والإعلان عن نفسها، مثل ما سوف تشهده الحالات والتجارب هذه التالية لها .

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1954-1962، ج 9، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص 46.

² - أرجع إلى الباب الثاني الفصل الأول مطلب الوضع الثقافي في الأوراس 277_286.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

ما يجعلنا نتساءل ؛ هل أن هذه المؤسسات تصالحت مع واقعها، أم أن قلة المعلمين بسبب نزوب الوسط التعليمي في الأوراس تبعاً لسياسة التجهيل والنفي والإستشهاد لفترة الاحتلال، هو ما فرض على أصحاب الزوايا القبول بأي معلم دون النظر في طبيعة تكوينه الفكري ؟

أم أن أصحاب هذه المؤسسات وعوا ما يجب أن يكون عليه التعليم الحالي لاسترجاع الأدوار التعليمية لزواياهم ومكانتها إجمالاً التي فقدوها بسبب التضييق الاستعماري أو الغلق .

أو أن هذه الفترة تزامنت مع ظهور شخصيات متفتحة من أصحاب الزوايا تقبل الأفكار الجديدة إلى حد ما .

وهل كانت هناك شروط لأصحاب هذه المؤسسات على هؤلاء المعلمين؟ أو بمعنى ما هي الحدود والقدر الذي منحه أصحاب الزوايا لهؤلاء المعلمين في ممارسة مبادراتهم التعليمية والفكرية في هذه المؤسسات؟.

ومن جهة أخرى ما هو السقف الذي تمتع به وكان متاح لهؤلاء المعلمين في ممارسات مبادراتهم بهذه المؤسسات؟.

ومهما كانت دواعي أصحاب مؤسسات تقليدية كالزوايا الأوراسية هذه، في توظيف معلمين بروح إصلاحية يقدمون تعليماً قد يمثل فكراً مخالفاً لأفكارهم ويتعارض مع مصالحهم، إلا أن هذه الوضعية كانت محدودة بين رغبة التجديد التي كان يحملها هؤلاء المعلمين وتسخير بذلك كل إمكانياتهم لذلك من جهة والمساحة المتاحة لهم التي يفرضها المحيط الثقافي والعقائدي لهذه المؤسسات ورغبة أصحاب هذه الزوايا في عدم المساس والتجاوز في اعتقاداتهم من جهة أخرى، وبذلك تكون قد سارت الأمور على نحو من التوافق إلى حد بعيد، وإن كانت إرادة التجديد قد يكون لها حظ التوسع أكبر لاعتبار أن الأوضاع كانت تتقدم لصالح الأفكار الجديدة خاصة مع ما عرفه الأوراس من بدايات للانفتاح مع الآخر الداخلي خاصة مع جواره حاضري الإصلاح بسكرة وقسنطينة والخارجي عبر الهجرة والعودة المتزايدتين للأوراسيين من فرنسا وما كان لهذا من أثر في تلاشي البناء المهش لأسوار التقليد.

هكذا كانت فترة العشرينيات من القرن 20م قد عرفت فيها منطقة الأوراس حالات عديدة من العائدين من الأزهر والزيتونة وحتى من الجامع الأخضر، قد أطروا مدارس ومساجد العديد من الزوايا كالشيخ الجموري وجموعي المازوزي ومولود الزبيبي والظاهر الحركاتي وعيسى المرزوقي، وأسعدوا تعليماً بروح جديدة من حيث الطرائق والمحتوى والأفكار خرجوا فيه عن التقليد، وكان لهم فضل كبير في إنتعاش الحركة التعليمية للتعليم العربي الحر وتوسعها .

هذا الذي بدا عفويًا من قبل الزوايا بعد فترة من الزمن لاحت محاسنه وفوائده وجعل أصحاب الزوايا يدركون مزايا التطور التعليمي ومواكبة التحولات، ما ساهم في زيادة توسع عدد المؤسسات المرابطة في الأوراس

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

المستعدة للتغير والتطور هذه المرة بوعي وإرادة، خاصة مع ما شكلته التحولات المختلفة في انفتاح الأوراس من تهديد لوجودهم، فكان مطلب المحافظة على الوجود وحتى التنافس يقتضي ركوب الجديد وتبنيه.

وقد تأكدت هذه الظاهرة وشهدت تطورا وتوسعا كبيرين بداية مع منتصف الثلاثينيات بتوسع التعليم

الإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين، أين دخلت مؤسسات الزوايا معركة تحسين تعليمها والأخذ بمبدأ عصرته؛ طريقة ومضمونا وتجهيزا، وهذا تماشيا مع مثال مدارس جمعية العلماء التي عرفتها المنطقة.

لقد كانت بداية الأمر هذه المرة باقتحام شخصيات إصلاحية نفسها في التعليم بهذه المؤسسات، هذه الشخصيات التي رجعت حديثا من حلقات التعليم والتوجيه الإصلاحي للشيخ ابن باديس، كانت تؤمن لحد الإطلاق بفكره وتعاليمه دون التنازل عليها والتفاوض بشأنها مع الواقع على تحدياته وتعارضاته، فظهر الشيخ عمر دردور بزواية طريقة عائلته بالقصر التي كانت المؤسسة الأولى التي باشر فيها التعليم بعد عودته من قسنطينة والتي أسدى فيها تعليما حديثا مثل ما يذهب تلميذه سنوسي السنوسي، أن شيخه عمر كان يسدي لهم تعليما جديدا لم يعهد على تعليم هذه الزواية قبله ولم تكن تعرفها برامج مدرسة زاويتهم¹، ونفس الشيء مع رفيقه سعد حب الدين الذي تخرج توا من الجامع الأخضر وبعودته إلى منطقتهم وبنصيحة شيخه بن باديس، باشر التعليم بالزواية الدردورية بجيدوس وفيها كان يتناوب بين مسجدها ومدرستها لتدريس الصبية والكبار، وقد كان يعمل في دروسه هذه على البرنامج التعليمي لجمعية العلماء ووفق الرؤية التعليمية لها².

ولم يتوقف دور سعد حب الدين في التعليم بهذه الزواية كبداية لمشواره التعليمي الذي كان لا يتوفر لجمعية العلماء على عقارات تعليمية، بل نجده حتى بعد انتشار المدارس الإصلاحية بالشكل الذي غط أغلب مناطق الأوراس، قد درس بزواية أولاد فاضل والتي وصلها تخفيا من ملاحقات الإدارة الاستعمارية وبنصيحة وتوجيه من مصطفى بن بوالعيد، ولا نستبعد أن يكون سعد حب الدين قد كيف إمكانيات هذه الزواية وتلاميذها مع برامج تعليم جمعية العلماء، وهو الناشط الإصلاحي الذي آمن بفكر ونظرية شيخه ابن باديس في نهضة مجتمعه، ولم تتنيه الصعاب والملاحقات عن التنازل على مبادئ الفكر والنشاط الإصلاحي وعلى رأسها التعليم حتى انخرط في الثورة.³

وبعد مرور فترة تحولت العديد من كتاتيب القرآن ومدارس الزوايا بالأوراس إلى مؤسسات تعليمية لجمعية العلماء وهذا أيضا ما عرف حتى في العديد من مناطق الوطن⁴، وهذا يعود لتأطير أعداد كبير من ناشطي الإصلاح للتعليم بهذه المؤسسات وفيها حاول هؤلاء الأخذ ببرامج جمعية العلماء من حيث المضمون والطرائق وحتى في بعضها بمحاولة إيجاد تجهيزات عصرية لمرفقها التعليمية.

¹ - المقابلة السابقة مع الشيخ سنوسي السنوسي.

² - سيف الإسلام بومعروف: المرجع السابق، ص 14.

³ - أنظر مبحثنا حول جهوده التعليمية ص ص 329_332.

⁴ - كمال فيلاي: مرجع سابق، ص ص 14-15.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

ويؤكد هذه الظاهر في الأوراس ما جاء في أحد تقارير الشيخ محمد الغسيري عن الإصلاح في المنطقة: ((أما المكاتب القرآنية ففي غالب القرى موجودة وهي اليوم تسعى في تحسينها على النظام العصري))¹، فمثلا واصلت زاوية تبرماسين تطوير تعليمها والذي كانت سبابة فيه من بداية العشرينيات، من خلال توظيف أولاد سي الصادق بالحاج أصحاب الزاوية للشخصيات ذات مستوى تعليمي لا بأس به من خرجي الأزهر كالشيخ الجموري بن العايش الذي باشر فيها التعليم من سنة 1923م مستمرا إلى سنة 1933م² وخليفته الشيخ الجموعي بالمازوزي صاحب التكوين الأزهري كذلك والذي طال الأمد به فيها أيضا للعقدين اللاحقين³، كما ضمت الصادق ملكمي ومحمود باردو والصادق زازلي هؤلاء الذين تابعوا التعليم فيها حتى الاستقلال مما ترك هذه الزاوية عامرة بالطلاب ومقصدا لهم من مختلف جهات الأوراس، وقد تدعمت سمعتها بالإضافة لنوعية ومستوى معلمها ما كانت تقدمه من مستوى في المعارف من خلال ما كانت تعتمد من مقررات وكتب ككتاب ابن عاشر ورسالة أبي زيد القيرواني.⁴

ولم يقتصر تطويرها لتعليمها على الإطار التعليمي بل نجدها قد التفتت إلى جانب التجهيز، فقامت بتجهيز مدرستها بشكل عصري وتبنت مناهج تعليمية خرجت فيها عن التقليد الذي كان معروف على المؤسسات المرابطية ما جعلها تحافظ على روادها من التعليم من أبناء الأوراس وحتى الزاب أمام المنافسة القوية والنفوذ الكبير الذي كانت تحققه مدارس جمعية العلماء، وهو ما كان هدفا عند أولاد سي الصادق بالحاج، حيث لم تترك الفراغ لتأسيس جمعية العلماء أي مدرسة بمناطق نفوذها وخاصة بمنطقة تبرماسين*، وبذلك تكون هذه الزاوية قد نجحت في معركة وقرار دخول منافسة جمعية العلماء بفضل ما وفرته من تحديد في تعليمها وإن كان المثال المدرسي للعلماء هو موجهها في ذلك .

ومن جهة أخرى لم يقتصر مساهمة تعليم جمعية العلماء على التطوير النوعي في تعليم الزوايا، بل أيضا مس تحريك القوى المرابطية والتقليدية النائمة لإنشاء وبعث مدارس ومساجد تعليمية، وقد عرفت العديد من العائلات المرابطية بمناطق الأوراس التي تم القضاء على زواياها أو ضعف أداءها أو تخلت عن دورها التعليمي بسبب السياسة الاستعمارية نحوهم، قد باشرت دورا تعليميا تزامنا مع ما كانت تحثه شعب جمعية العلماء، وبذلك ساهمت الجمعية في تحفيز القوى التقليدية وتشجيعها لإعادة بعث دورها الثقافي، فظهرت زاوية سيدي بلقاسم

¹ - تقرير الغسيري حول سير الإصلاح Op,cit AWC.

² - فاني كولونا: المرجع السابق، ص 268.

³ - مقابلة سابقة مع السيد دروف محمد الهاشمي.

⁴ - عباس كحول: قراءة في مقاومة الصادق بن الحاج " بالزاب وأحر خدووالأوراس 1844-1859م، دار علي بن زيد لطباعة والنشر، بسكرة، الجزائر، ط1، 2015، ص 16.

* - أثناء معاينتنا لمنطقة تبرماسين وتتبع مؤسساتها التعليمية والدينية، لم نقف على آثار لوجود مدرسة للجمعية العلماء، وهو ما نؤكد لنا أيضا من خلال الرواية الشفوية.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

بعين زعطوط ومدارس أخرى ببني فرح¹، وزاوية مشونش التي كانت فرعا من زاوية تبرماسين كان مقدمها سي أحمد أمقران²، وقد نشطت التعليم بالمنطقة على المنوال الذي أخذته الزاوية الأم بتبرماسين، فكانت بذلك رافدا تعليميا عضد جهد ناشطي جمعية العلماء بالمنطقة من وحيد واحدي إلى الشيخ أحمد السرحاني حتى عيسى الدراجي، ومدرسة بوحمامة التي نشط التعليم فيها عبد الحميد زقادة، هذه الأمثلة في الحقيقة كانت كثيرة في مناطق بلزمة غرب الأوراس و جبال أريس وسطها ومناطق الحراكنة شمالا وصولا إلى النمامشة شرقا .

المطلب الثاني: دور جمعية العلماء في تطوير تعليم مدارس حزب الشعب وحركة الانتصار والحريات

ارتبط التعليم عند الاتجاه الاستقلالي من نجم شمال إفريقيا إلى حزب الشعب الجزائري وفيما بعد حركة الانتصار والحريات الديمقراطية بالخلفية الفكرية وعقيدته السياسية، ولاعتبار هذا الاتجاه يأخذ بفكرتي الوطنية والاستقلال؛ بصرامة واحدة مع كل مراحلها من تأسيسه في منتصف عشرينيات القرن 20م إلى الثورة التحريرية، فإن رؤيته التعليمية كانت مبنية على التعارض التام للنظام الاستعماري، لذلك أخذت هذه الرؤية دعم كل عناصر وقيم الوطنية والمعارضة مع قيم وسياسات الاستعمار، فكان المرمى التعليمي يتجه بالمعلمين إلى فكرة الاستقلال والثورة عليه .

وبهذا كان هذا الاتجاه يعتبر تعليم الجزائري الأهلي أولوية لاعتباره وسيلة مقاومة للسياسة الفرنسية التي حملها مشكلة تخلف المجتمع الجزائري المسلم وأميته ومحو ثقافته وتشويه مقوماته الوطنية، لذلك نظر كل من حزب الشعب وحركة الانتصار والحريات للتعليم الذي يجب أن يقام ويقدم للأهلي الجزائري على أن يكون تعليميا بديلا للتعليم الفرنسي ومقاوما لكل قيمه السياسية والحضارية، أي تعليم يكرس الثقافة الوطنية بكل أبعادها " العربية الإسلامية الوطنية " ويثيرها في اهتماماته³.

وبذلك كانت حركة الانتصار ترى في المدرسة الجزائرية الوطنية أن يكون التعليم فيها باللغة العربية وتأخذ منهاجها البعد الوطني العربي الإسلامي، وهي بذلك تستلهم أهداف رؤيتها التعليمية من ((... تعاليم الإسلام، وتستند إلى تقاليد الوطن التاريخية، وتلائم المناهج السياسية لشعب عربي مسلم ...))⁴، وترى كذلك أنه يجب إعداد العدة لنشر المدارس في كل المدن والقرى حتى تحارب الأمية⁵.

والحق أنه رغم الظهور المبكر نسبيا والسابق للاتجاه الاستقلال عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ورغم ما تميز به في الساحة النضالية بتلك الرؤية الواضحة والجريئة والجادة في مقاومة الاستعمار وحمله لقضايا المجتمع

¹ - مقابلة شخصية مع السيد شلواي عبد المجيد، مجاهد ومنتقف مهتم بتاريخ منطقة بني فرح متحف المجاهد بسكرة 11 ديسمبر 2015م.

² - عباس كحول: المرجع السابق، ص18.

³ - رابع تركي: مرجع سابق، ص243.

⁴ - أهدافنا من التربية والتعليم، المنار، العدد 13، السنة الأولى، 4 جانفي 1952.

⁵ - المصدر نفسه.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

الجزائري المسلم الوطنية، غير أن قضية التعليم ورغم ما تعنيه من بعد استراتيجي في خدمة القضية الوطنية بمنحى الفكر الاستقلالي، كانت مكانتها عنده ومستواها أقل مما كان يجب أن تكون عليه هذه القضية في منظمة حملت فكرة الاستقلال بتلك الروح الثورية.

والحق أن مطلب التعليم ورد في كل برامج وأدبياته وأظهر من خلاله؛ التعليم الذي كان يريده هذا الاتجاه، فقد ورد في مطالب حزب النجم في جلسات اجتماعه المنعقدة في جوان 1926م :

__ التطبيق العام لقانون التعليم الإلزامي، مع حرية التعليم لجميع الأهالي.

كما جاء في تدخل مصالي الحاج في مؤتمر بروكسل المنعقد بتاريخ 10 إلى 14 فيفري 1927م .

__إنشاء المدارس العربية مع حق الجزائريين في التمتع بجميع مستويات التعلم¹.

هذه النقطة تأكدت في البرنامج الأساسي للنجم، وحتى في البرنامج الحزب المنعقد في 28 ماي 1933،

وقد جاء بصدد ما يلي :

((__ التعليم يجب أن يكون مجانيا وإلزاميا وفي كل المستويات، وأن يتم باللغة العربية .))²

كما جاء في برنامج مؤتمر حزب الشعب المنعقد ما بين 23 و24 أوت 1938 :

__ التعليم إلزامي باللغة العربية .

والحال إن قضية التعليم مثل ما أوردنا سابقا إلى سنوات متأخرة عند الاتجاه الاستقلالي بقيت مجرد مطالب سياسية في بنود برامجها وتنسم لحد كبير بالعمومية والغموض، ذلك لورودها كتصور ما يجب عليه أن يكون التعليم الجزائري، ولم نقف على تفاصيل قضيته كمشروع استراتيجي يعتد به كوسيلة لمقاومة الاستعمار والتحرير ميدانيا. غير أنه رغم هذا التأخر نسبيا نجد أن هذا الاتجاه يكون قد استدرك هذا الذي يمكن أن نصفه بالتقصير أو النقص في قضية كقضية التعليم، فنجد منذ ثلاثينيات القرن 20م بادر في نشاط تعليمي غطى شغورا كان حدثا بالغا في جهده النضالي عاكسا تطور الفكرة هذه عنده، ويؤكد ذلك ما ورد في تقرير السلطات الفرنسية لشهر أوت 1950م: ((مع التأخر الكبير عن جمعية العلماء، فإن حزب الشعب الجزائري، قام بدوره بمجهود كبير في التمدرس منذ بضعة سنوات ويبدو أنه يريد تكثيفه وبذلك يريد منافسة الجمعية، إذ قام بوضع يده على مدرسة التهذيبية في مستغانم التي كانت تترأسها الطريقة العلاوية .

اهتمامات مسيري هذه المدرسة تم التعبير عنها في أحد التقارير المبعوثة إلى اللجنة المركزية لحزب حركة

لائتصار والديمقراطية حيث يمكننا قراءة الجمل التالية التي وردت فيه:

عندما يأخذ جزائري أمي واع بنقصه الفكري والثقافي ابنه إلى المدرسة عوض تسليمه إلى المدرسة

الفرنسية من الواضح أن داخل عقله المنظم يرن صوت النداء البعيد لحضارة وثقافة أجداده، فلا ينبغي علينا أن

¹ - جمال قنان: قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994، ص184.

² - Claude Collot et Jean Robert Henry, Le mouvement nationale Algérien (Textes 1912-1954)

Préface de Ahmed Mahiou OP U Alger 1978, p53.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

نخيب ظن هذا الرجل الذي وضع كل ثقته وآماله فينا ومن هنا تأتي ضرورة دراسة إعداد برنامج تعليمي موحد يطبق على كل الجزائر وضرورة إنشاء مركز بيداغوجي¹

من خلال التقرير يمكن الوقوف على أن حركة الانتصار والحريات قد انتقلت قناعاتها بخصوص مساءلة التعليم من الطرح النظري كقضية سياسية عرضية ترد في برامج الحزب إلى مساءلة عملية قد عرفت بعدها الاستراتيجي ويتأكد ذلك من خلال استحداث لجنة التعليم تابعة للحزب والتي تولى رئاستها المناضل محمد بودة زيادة على مباشرة الحزب لتأسيس مدارس تابعة له ووصول معلميه لأدراك أهمية المدرسة في توسيع نفوذ وإيصال قناعات وأفكار الحزب السياسية والحضارية للناشئة ومنه إلى المجتمع.

زيادة على تحقيق الآمال التي وضعها المجتمع الأهلي فيهم وذلك ما يحتاج أن تصل مدرستهم إلى مستوى من التطور يحقق الرغبة التي تعوض أبناءهم المدرسة الفرنسية، وبهذا أصبح إنشاء المدرسة الوطنية حاجة أهلية توفر لأبنائه مدرسة يثق فيها وتوفر له قيمه الثقافية والحضارية المهدهد من قبل المدرسة الاستعمارية.

إضافة إلى هذا نظر حزب الشعب وحركة الانتصار والحريات إلى المدرسة على أنها ميدان معارك وسجلات نضالية لا تقل خطورة عن الفضاءات والميادين الأخرى .

ويظهر التقرير كذلك أن حركة الانتصار والحريات من خلال الممارسين الميدانيين من المدرسين قد أدركوا وجوب الإعداد إلى منظومة تعليمية تستهدف تطوير العمل المدرسي الحاملة لمشروع ثقافي وحضاري وسياسي وطني موحد ويقترحون لذلك مركز بيداغوجي لوضع البرامج وتطويرها وتوحيدها، ويبدو أن فكرة توحيد المناهج لدى حركة الانتصار مطلب ملح وقد تكون مدركة لأهميته في توحيد الذهنية والعقلية الجزائرية خدمة لوحدة الرؤية الوطنية، لذلك نجدها قد وردت في أحد مقالات جريدة المنار الذي حمل عنوانه " أهدافنا من التربية والتعليم " ².

إن هذه الانتقالة الكبيرة التي عرفتها مساءلة التعليم لدى الاتجاه الاستقلالي لا يمكن استبعاد أثر ومساهمة ما كان حاصل لدى جمعية العلماء من أسبقية في هذا النوع من تطور وتقدم في تعليمها، حيث كان هامش التواصل والاحتكاك بين قاعدة نضالاتهما كبير لاعتبار الاشتراك في الفئات الاجتماعية لهما وتداخلت نضالاتهما حيث نجد في عديد من أفرادهم يجمعون بين الانتماء في النضال الثقافي لجمعية العلماء وفي النضال السياسي لحركة الانتصار أو ما يمكن أن نطلق عليه وعرف ب "التعددية الإثتمائية" ، وقد يعود هذا لضيق المسافة بين المشروعين حضاريا ووطنيا.

كما أيضا قد يكون الاتجاه الاستقلالي قد نظر إلى المشروع التعليمي لجمعية العلماء على أنه مشروع الأمة الجزائرية الرامية للاستقلال الثقافي والحضاري وهو ما لا يسجل بشأنه أي نقاط تعارض أو اختلاف من قبله .

¹ - ANOM 93/4496 Enseignement de la langue arabe dans différents établissements scolaires Ben Badis et autres.

² - المنار، أهدافنا من التربية والتعليم، المصدر السابق، ص 4.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

ويتأكد هذا في ما اعتمدته مدارس الاتجاه الاستقلالي في الأخذ بنفس مقررات ومضامين مدارس جمعية العلماء إلى حد كبير، كما حذت حذوه في الاتجاه بعصرنة وسائله من اعتماد للقاعات وظيفية للتدريس والطاولات والصبورة الخشبية وتجهيز تلاميذها بأدوات مدرسية حديثة كالكراريس والأقلام وتنظيم سير المدرسة وفق تنظيم إداري وهيكل عصري مع جرد للتلاميذ وتعيين مستوياتهم وتقسيمهم لأطوار ومرحل حسب المستوى إلى فحص تحصيلهم بتنظيم الامتحانات، زيادة على تحديد جدول زمني للتوقيت اليومي وتوزيع الحصص الدراسية به وتحديد رزنامة العطل .

كل هذا التحديث الذي ظهر على مدارس حزب الشعب والتي خرجت فيه عن التقاليد المألوفة والغالبة في الوسط الأهلي للتعليم العربي الحر التي كانت تباشره المؤسسات التقليدية كالزوايا وحتى الأفراد، ينمو على التأثير الكبير للمثال الإصلاحية عليه وهو ما يؤكد الباحث علي مراد¹ ويتعزز مع ما كان معتمد من كتب لمقررات التاريخ والجغرافيا بمدارس هذا الاتجاه لمؤرخي جمعية العلماء مبارك الميلي وأحمد توفيق المدني ويضيف التقرير السابق أيضا بشأن توجهاتها الأيديولوجية :

((... إن الحالة الميسورة لبعض المدارس تسمح لها استغلال هذه الوضعية بإغراء بعض المدرسين وتوظيفهم في دعايتها ضد أفكارنا))²، هذا التخوف من قبل الإدارة الاستعمارية لا يمكن أن نفهمه إلا على البعد الذي كان يعكس توجه المدرسة الوطنية للاتجاه الاستقلالي التي كانت ترمي إلى إيماء الوعي والروح الوطنية و إحياء المقومات الحضارية للشخصية الجزائرية " العروبة والإسلام والوطنية " والتجاوز حتى التكوين السياسي الوطني وهو ما يعد تعارض خطير للمصالح الاستعمارية ووجوده في الجزائر .

هذا التخوف والموقف من قبل الإدارة الاستعمارية هو نفسه الذي رمت به ذات الإدارة تعليم جمعية العلماء خاصة في ماتعلق في النظر إليه أنه تعليم يهدد أو يعارض ثقافتهم وأفكارهم، مما يؤكد التقارب الكبير والتأثير البالغ لتعليم الجمعية على تعليم مدارس حزب الشعب .

ويبدو أن الاتجاه الاستقلالي لم تعرف مدارس توسعا كذلك التي عرفت عن مدارس جمعية العلماء ومن خلال الجدولين التاليين نستظهر أهم مدارس حزب الشعب وحركة الانتصار للحريات الديمقراطية التي أقامها عبر الوطن لنقف على حجم توسع تعليم هذا التنظيم .

الجدول الأول ورد في أحد التقارير الرسمية الشهرية للسلطات الفرنسية.

¹ - علي مراد: المرجع السابق، ص414.

² - ANOM 93/4496, Op.cit.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

المدارس الحرة المتأثرة بحزب الشعب¹

العنوان	اسم الرئيس	اسم الجمعية	المنطقة
2 شارع الحاخام بلوخ الجزائر	زورق قدور بن خير الدين	الرشاد	الجزائر العاصمة
40 شارع الباي بليدة	بن طفيقة محمد	الإرشاد	الجزائر العاصمة
11 شارع فليب وهران	بلبقره محمد	المسجد	وهران
قمبيطا وهران	خلفاوي علي	جمعية الحياة	وهران
ضاحية المزارعين وهران	حاج حسان باشتارزي بن عودة	جمعية الأمل	وهران
تيجيت مستغانم	بن سليمان بن عودة	التربوية	مستغانم

والجدول الثاني ورد عند الباحث رابع تركي في كتابه " التعليم القومي والشخصية الجزائرية"²

عدد المعلمين	مكان تواجدها	اسم المدرسة	الرقم
3	الجزائر	مدرسة الرشاد	01
2	حي الشهداء الجزائر	المرشد	02
2	الجزائر	الصباح	03
1	الجزائر	الايبار	04
1	الجزائر	الرحمانية	05
—	الجزائر	العناصر	06
1	الجزائر	حي مخائيل	07
2	الجزائر	النصيحة	08
1	الجزائر	مدرسة المحافظين	09
1	الجزائر	مدرسة الحصن الجميل	10
5	الجزائر	الإرشاد	11
3	مليانة	مليانة	12
لم يعثر على العدد	القل	القل	13

¹ - ANOM 93/2522 Bulletin mensuel des questions islamiques, Juillet 1950.

² - رابع تركي: المرجع السابق، ص ص، 244-245.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

14	مغنية	مغنية
15	الحروش	الحروش
16	وهران	البيض
17	سطيف	سطيف

تجدر الإشارة إلى أننا نعتقد أن الجدولين لا يتوفران على ما يبدو على الإحصاء الكامل لجميع مدارس حزب الشعب عبر الوطن، غير أنه رغم ذلك يمكن أن يمنحنا صورة على مدى الانتشار الوطني لهذه المدارس . ويمكن بالقراءة المتأنية لهذه الأرقام أن نقف على الملاحظات التالية :

الانتشار الواسع لمدارس حزب الشعب بمدينة الجزائر حتى أنه كاد يغطي جميع مناطقها، ولعل هذا يعود للحضور القوي للحزب بهذه المنطقة .

أما بخصوص حضور مدارس حزب الشعب بالمناطق الأخرى من الوطن، على الرغم من تغليبنا الظن في وجودها أكثر مما تظهره بيانات الجدولين إلا أنها تبقى قليلة، خاصة بالمناطق الشرقية ولعل هذا يعود لعدة عوامل منها :

أن الشرق الجزائري كان موطن جمعية العلماء وأثر نفوذ وتأثير عاصمة الإصلاح والثقافة في إقليم الشرق قسنطينة التي ضمت الحلقة التعليمية الأولى للإصلاح للشيخ عبد الحميد بن باديس ومن بعد معهد ابن باديس، وأثر مخرجاته من الطلبة في تغطية نواحيهم بالتعليم تحت غطاء جمعية العلماء .

إضافة إلى أسبقية الجمعية وتقدمها في خدمة التعليم بفترة زمنية طويلة على حزب الشعب وبذلك ضمان نفوذها الثقافي والتعليمي ما صعب على المنظمات الأخرى منافستها وإيجاد موطن قدم لها في هذا الميدان . إضافة إلى ما كان يعرفه التعليم بمدارس جمعية العلماء من تطور وتقدم لاحت مظاهره في تلك المخرجات من تلاميذه الذين أصبحوا بدورهم معلمين أسسوا لها مدارس بمختلف مناطق الجزائر، وهو ما زكى الثقة في هذا التعليم عند الجماهير الجزائرية.

تركيز جهود الجمعية وتفرغها لمهمة التعليم مقارنة بالمنظمات الأخرى ومنها حزب الشعب الذي يبدو أنه كان يقدم الجهد أو النضال السياسي عن المقاومة الثقافية ما أضعف حضوره المدرسي .

افتقار الاتجاه الاستقلالي للإطار البشري في التعليم وما كان عكس ذلك بالنسبة لجمعية العلماء التي استطاعت في مدة وجيزة تغطية حاجاتها في أغلب مناطق الوطن وهذا بفضل الإستراتيجية التي تبناها ابن باديس بداية ثم جمعية العلماء، والمتمثلة في إنشاء حلقات تعليمية محلية كحلقة ابن باديس والإبراهيمي والعقي والتبسي ثم معهد ابن باديس سنة 1947م والبعثات التعليمية التي خططت لها لهذا الغرض من الزيتونة إلى الجامعات والمدارس العربية في أغلب العالم العربي فيما بعد .

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

كما يمكن أن نرجح أثر الظروف الصعبة التي عاشتها حركة الانتصار في مد مشروع التعليم لديها، كالأزمة البربرية منذ سنة 1949م وأزمة اكتشاف المنظمة الخاصة سنة 1950م من قبل السلطات الاستعمارية وتبعاتها على عمل حركة الانتصار والحريات ومناضليها، إضافة إلى الانقسام والصراع الذي عرفه الحزب بين المركزيين والمصاليين سنة 1953م .

كل هذه الظروف تقريبا دامت مع عمر حركة الانتصار والحريات جعلتها تشغل بمشاكلها عوض تطوير نضالها وتوسيعه للقطاعات الأخرى، وقبلها ظروف الحرب العالمية الثانية التي فيها حل حزب الشعب وسجن قاداته وما سبق ذلك أيضا من مضايقات وملاحقات ومنع، وهذه السياسة العنيفة التي قوبل بها كانت بسبب التوجه الاستقلالي والوطني الذي كان يحمله هذا الاتجاه ولم يرد عند غيره من مكونات الحركة الوطنية الجزائرية .

كما لا يفوتنا بهذا الصدد تعرض المشروع التعليمي لصعوبات مالية وهو ما يؤكد السيد محمد بودة أحد مناضلي حركة الانتصار والحريات الديمقراطية ورئيس لجنة التعليم فيها، والذي أوردته أحد التقارير الفرنسية¹، ما حد من توسع وإنشاء المدارس، وقد يعود هذا لغياب إستراتيجية وتجربة للحزب في جمع مصاريف التمويل التعليمي، وتوجيه أغلب المخصصات المالية لميزانية الحزب للنشاطات السياسية.

زيادة على هذا تعرض النشاط التعليمي الذي كان يتولاه الاتجاه الاستقلالي إلى مضايقات من قبل ادارة الاستعمار أين تعرض المعلمون و المشرفون على هذه المدارس لأحكام قانونية عديدة كالاقتقال، وهذا لما كانت تمثله مضامين هذه المدرسة وتوجيهات معلميهما من دور في نشر الوعي السياسي الوطن لدى تلاميذها وهو ما كان يمثل خطر على السياسة الفرنسية .

هذا بخصوص واقع التعليم في الاتجاه الاستقلالي عبر الوطن وإذا نظرنا إلى جهود هذا الاتجاه بمنطقة الأوراس فإننا لم نحصل على أي ذكر لا من خلال الرواية الشفوية ولا الأرشيفات المختلفة أو التأليفات التي عنت بهذا الموضوع يميلنا إلى أن حزب الشعب أو فيما بعد حركة الانتصار والحريات قد أقدم على أنجاز مدرسة تعليمية واحدة بمنطقة الأوراس .

هذه المعطى التي يثير الكثير من الحيرة والشك مع ما سوف تعرفه هذه المنطقة من تطورات في السنوات القريبة التالية لصالح الاتجاه الاستقلالي " المنظمة الخاصة والثورة "، تنتحى مع ما سوف نقف عليه من حقائق تعلق هذه النتيجة وهي تأخر دخول حزب الشعب لمنطقة الأوراس مقارنة مع دخول كثير من المنظمات الأخرى للحركة الوطنية حتى تلك البعيدة جدا في توجهاتها الفكرية والسياسية على البيئة الأوراسية كالاتجاه الإدماجي والحزب الشيوعية.²

¹- ANOM93/2522,op,cit.

²- عبد الحميد زوزو: المرجع السابق ج2، ص42.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

زيادة على هذا نستطيع استحضار العوامل السابقة التي تطرقنا لها في ما يخص تراجع توسع تعليم الاتجاه الاستقلالي في الوطن خاصة إذا ما قورن بجمعية العلماء والتي كانت حاضرة أكثر في منطقة الأوراس كالنفوذ الذي حققته جمعية العلماء بالمنطقة في الميدان التعليمي أين استطاعت أن تغطي أغلب المناطق والقبائل حتى لا تكاد قرية أو دشرة من مدرسة واحدة على الأقل للعلماء وهو ما لم يترك مكاناً للمنظمات الأخرى، إضافة إلى النشاط الكبير الذي سجلته الشعبة المحلية الأوراسية في ميدان مد التعليم وتوسيعه رغم كل ما اعترضها من عراقيل.

المطلب الثالث: دور تعليم جمعية العلماء في تطوير التعليم في الثورة.

كانت الثورة التحريرية في المقام الأول ذات أولويات عسكرية، تتمثل في ما هو معروف في المعارك الحربية ضد الاستعمار، وقد فرضت معطيات فضاء وميدان الصراع بينها وبين الاستعمار الذي كان يهيمن على المجال الجغرافي للبلاد خاصة في المجالات الأهلة بالسكان، إلى تموقع الثورة في الجبال والغابات والأماكن النائية الوعرة الوصول؛ التي تضمن حصانة وحماية رجال الثورة، هذه الوضعية جعلت من الثورة تكون بعيدة في تواجدها المكاني مع مجتمعها وهو ما انعكس عنه صعوبة الاتصال معه، زيادة على الإجراءات العسكرية التي اتخذتها القوات الفرنسية ضد الثورة، والمتمثلة في عزل الثورة عن الشعب وذلك بخنق الثورة وحصار الثوار في الجبال وأيضاً مراقبة تواجدها من خلال مراقبة أفراد الشعب وتحسس حركاتهم ومواقفهم من الثورة خاصة مع الإستراتيجية التي كانت يتبناها قادة الثورة في إعطاء الثورة عمقها الجماهيري انطلاقاً من فلسفتها أنها ثورة شعبية، وهو ما عرفته منطقة الأوراس خصوصاً، باعتبارها المنطلق الأول للثورة، والتي فرضت على الاستعمار تطويقها ووأدها في بدايتها حتى لا ينتقل تأثيرها إلى مناطق الوطن الأخرى .

هذه الظروف التي كانت عليها الثورة على الأقل في بدايتها في منطقة الأوراس، وضعتها في تحد لإستراتيجيتها العامة، التي تعد الجماهير الشعبية خلفيتها وعمقها التي تستمد منه وسيلتها لقوتها ونجاحها من جهة وغايتها لتحريره من جهة أخرى، إلا أن هذا التحدي الذي مثل هاجس لدى الثورة، لإرتباطه بحياتها كواقع وأيديولوجيا كفكرة، لم تستسلم له، ونظرت له كمعركة بينها وبين الاستعمار، لذلك عملت الثورة كل ما في وسعها لتوصيل أوعيتها التنظيمية لجماهير المجتمع وتمثلها فيه .

والحال إن سهر الثورة على حضورها الاجتماعي في وسط مجتمع الجزائري المسلم، وذلك من خلال تقديم نفسها كسلطة لهذا المجتمع كتعبير ورمز على إلغاء السيادة الاستعمارية عليه وعدم شرعيتها فيه، في المقابل تعويضه وتنصيب سيادتها فيه، من خلال تأسيس خدماتها ومؤسساتها في هذا الوسط، فكان حضور خدماتها المختلفة كالصحية والاستشفائية والقضاء والفصل في النزعات والإعلام والتعليم من خلال صحافتها وأفراد

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

خصتهم لهذه المهام، وقد عرفت هذه الخدمات تطورا وتوسعا تنظيميا وتأطيرا مع تطور الثورة، حتى ارتسمت ملامحها جيدا مع مؤتمر الصومام 20 أوت 1956م الذي خص جانب من قراراته لهذا الجانب.

والحق أن الثورة قد عرفت تنظيم التعليم بمنطقة الأوراس على نوعين، النوع الأول تعليم تدريبي يخص الثوار المجندين وهو تعليم عرفته جميع مناطق الثورة في الوطن وقد جاء لما فرضته حاجات المعركة والحرب، في تنمية القدرات القتالية للمجاهدين فكانت مضامينه تشمل مثل ما يذهب المجاهد السعيد عبادو¹ إلى تعليم استعمال السلاح ومعرفة تكوينه وآلية عمله وتفكيكه وتركيبه حتى صيانته، وقد كانت هذه المعرفة تخص العديد من الأسلحة التي كانت بحوزة الثورة، فضلا عن تخصيص تعليم تدريبي للبعض ممن لوحظت عليهم القدرة على صناعة الأسلحة النارية البسيطة ومنها القنابل والذخيرة .

زيادة عن هذا تقام حصص تعليمية في الرياضة والتي يهدف من وراءها الحفاظ على اللياقة البدنية للمقاتل وهو ما يحتاجه أثناء المعارك من المشي والجري والقفز والتسلق والحبو والانبطاح وسرعة الحركة..... الخ².

كما تقام حصص للتدريب على الرمي لمختلف الأسلحة التي يجوزتها، وكان الهدف منها إيصال الثوار لكفاءة ومهارة القنص لتحقيق النصر وتقليل الفجوة بين عدم تكافؤ الإمكانيات بينهم وبين الجيش الاستعماري من حيث العدد والعدة والعتاد التكنولوجي والكفاءة القتالية والتموقع³.

فضلا عن تعليم بعض من الثوار الخياطة والتفصيل وهذا لتلبية حاجة الثوار من الملابس وخياطة ما تعرض للتمزيق لتغطية حاجاتهم مع الندرة التي عرفتها الثورة في هذا الجانب⁴.

كما عنت الثورة بالتعليم والتدريب على التمريض من خلال تخصيص أفراد لهذه المهمات وفيها تسهر على تولى مداواة الجروح وتضميدها وحتى جبر الكسور وكيفية قلع الرصاص من جسد الثوار المصابين، بالإضافة إلى معالجة الآلام والأورام المختلفة، وتعليمهم على الأدوية المناسبة لكل حالة وقد كانت منها الأدوية التقليدية والأخرى الحديثة⁵.

ويذهب كذلك المجاهد زاغز بشير⁶ إلى أن تعليم المجندين لم يقتصر فقط على تطوير المهارات القتالية بل أيضا حضي التعليم بمقصد تطوير القدرات العقلية باهتمام الثورة في وسط مجنديها بالتكوين الثقافي لهم، فخصصت دروس لتعليم القراءة والكتابة لمحو الأمية والعد وكتابة الأرقام، ولعل هذه المعرفة القاعدية يحتاجها المقاتل

¹ - مقابلة شخصية مع السيد سعيد عبادو مجاهد ووزير سابق، متحف المجاهد بسكرة 11 ديسمبر 2015م.

² - المقابلة نفسها.

³ - المقابلة نفسها.

⁴ - المقابلة نفسها.

⁵ - المقابلة نفسها.

⁶ - مقابلة شخصية مع السيد بشير زاغز مجاهد ورئيس جمعية أول نوفمبر 1954م ببسكرة، متحف المجاهد بسكرة، بسكرة 11 ديسمبر

2015م.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

لفهم وقراءة واستعمال على أدنى حد قائمة مجموعة وفوج المجند وأيضاً بهدف نقل وتسهيل فهم التعليمات والوعي بأفكار وأهداف الثورة وعملياتها.

كما أيضاً تولى هذا النوع من التعليم إسداء معارف دينية وشرعية متعلقة خصوصاً بالعبادات كالغسل والوضوء والصوم والصلاة حتى يتيسر للشوار القيام بواجباتهم التعبديّة زيادة على تحفيظ الأناشيد الوطنية التي كانت تؤدى من قبل الثوار وترفع فيهم الحماسة والحس الوطني.

كان هذا التعليم يتم في فضاءات جغرافية تتلاءم والمجالات الجغرافية والطبيعة الحربية للثورة، فيذكر أن مدارس هذا النوع من التعليم كانت في كهوف الجبال المحفورة وغير المبنية والتي يتم تهيئتها وإعدادها لهذا الغرض¹ وقد فرض العامل الأمني والسرية والاحتياط بالابتعاد عن كل مداهمة للقوات الفرنسية، بالأخذ بهذه الطبيعة من الأمكنة والأشكال في المدارس.

وقد أشرف على التعليم في المرحلة الأولى أفراد ممن توفرت فيهم المهارة والمقدرة في هذه التخصصات التعليمية والتدريبية، أما عن دروس القراءة والكتابة وتعليم العد والمعارف الدينية وتحفيظ القرآن، كان يتولاها الأئمة (الطلبة) والذين كان أغلبهم بمنطقة الأوراس ممن كانوا يعلمون في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعرضوا خدماتهم مبكراً على الثورة.²

وقد تطورت هذه المهام التعليمية وانتظمت أكثر مع التقدم في عمر الثورة ولعل أهم عامل ساهم في ازدهارها هو اعتماد الطلبة الجزائريين الذين التحقوا بالثورة بعد إضراب 1956م ليتولوا مهام التدريب والتعليم.³ والحال بالنسبة للخدمة التعليمية الأخرى التي كانت تقدمها للمجتمع مباشرة فإن جبهة التحرير لم تتولى في هذا الميدان لمبلغ الأهمية التي أدركتها عليه مثل ما بينا أنفاً، فقد نظمت الثورة تعليماً كانت تسديه لأبناء المجتمع الجزائري وفق إمكانياتها وظروفها.

ويذكر أن الثورة قد نظمت مؤسستين تعليميتين وهما الكتاب والمدرسة، أما مؤسسة الكتاب فقد أنشأتها وأحيتها في القرى والأرياف الجبلية وقد كانت تقدم تعليماً يضمن لعشرات الصبية تحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة⁴، وقد عرف هذا النوع من الكتابات سهولة في إنشائه من قبل جبهة التحرير وتعود هذه السهولة لقلّة مستلزماته حيث لا يحتاج لأكثر من طالب حافظ للقرآن ومعرفة قليلة لأداء مهمة التعليم وقد حافظ هذا التعليم على الأساليب التقليدية القديمة ما جعله قليل التكلفة .

أما عن المدارس فقد كان أغلبها امتداد لمدارس جمعية العلماء حيث تحولت العديد من مدارس الجمعية بمنطقة الأوراس إلى تبعيتها لجبهة التحرير الوطني وهذا بعد انضمام معلميهما إلى الثورة، فتذكر التقارير الفرنسية

¹ - المقابلتين السابقتين للسيد السعيد عبادو وبشير زاغر.

² - المقابلة السابقة مع المجاهد شلواي عبد المجيد متحف المجاهد ببسكرة، بسكرة 12 ديسمبر 2015.

³ - بشير زاغر المقابلة السابقة.

⁴ - العربي دحو: المرجع السابق، ص 175.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

وتؤكد الروايات الشفوية انخراط أغلب ناشطي الإصلاح لجمعية العلماء في الثورة¹ وإن كان هذا ليس غريب على شخصيات كان جوهر نشاطهم هو توعية جماهيرهم للوعي بواقعها المتدهور تحت طائلة القوانين والسياسات الاستعمارية ، وبذلك تهيئة نفوس وعقول هذه الجماهير للفعل الثوري .

وإذا كان الشباب منهم قد جندوا كمسليحين لتغطية جبهة القتال المسلح ، فإن كبار السن منهم أو حتى أصحاب الباع العلمي قد أطروا الثورة كقضاة ومحافظين سياسيين وأئمة ومفتين، وكثيرهم تم دمج مجهودهم التعليمي في المشروع المدرسي للثورة²، فيذكر العربي دحو أن التعليم في الثورة كان له مشروع وبرنامج مسطر ولم يكن اعتباري يشرف عليه السياسي أو القاضي وقيادة الثورة التي فيما بعد أنشأت لجنة للتعليم.³ ولاعتبار الثورة قد اعتمدت على من كانت لهم تجربة تعليمية بمدارس جمعية العلماء زيادة على التوافق بين الأهداف العامة بين الجمعية والثورة فإن هؤلاء كيفوا تعليم مدارس الثورة من حيث الرؤية و المضامين والأهداف مع مشروع الثورة وإمكاناتها وإن عرفت هذه تراجع في تطورها بسبب ظروف المعارك وانعكاس الوضعية غير الآمنة للمناطق التي تتواجد بها .

بالنسبة لمقررات مدارس الثورة فقد ضمت المواد الأدبية كالقواعد اللغة العربية والنحو والصرف وفق ما كان جاري بمقررات هذه المادة بتعليم جمعية العلماء وكذلك كانت تدرس الأشعار الحماسية تشمل منتخبات من كل عصر، كشعر عنتر بن شداد وأحمد شوقي وإيليا أبي ماضي وتضمنت دروس مادة التاريخ؛ التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية ولا نستبعد تاريخ الجزائر كما ورد في مؤلفات مبارك الميلي وتوفيق المدني، لأهميتهم في تأكيد البعد الوطني للمتمدرسين، زيادة أنها مقررات سبق اعتمادها في مدارس جمعية العلماء وحزب الشعب، إضافة إلى مادة الجغرافيا التي كان التركيز فيها على جغرافية العالم الطبيعية كما أيضا لا تستبعد إدراج جغرافية الجزائر، لنفس الحاجة والهدف مع مادة التاريخ الوطني سابق ذكره.

أما العلوم الشرعية فقد كانت مادتها مستلهمة من كتاب ابن عاشر وسيدي خليل، أما مادة العلوم قد كانت مواضعها تتمحور حول جسم الإنسان وعرفت دروس الرياضيات تركيزها على العمليات الأربعة ثم الأشكال الهندسية والعمليات الجبرية.⁴

تعكس هذه المضامين نوعية المعارف العالية من حيث عمقها وحدائتها وتنوعها وهو ما يعبر على طموح جبهة التحرير في مستوى مدرستها، إذ تؤثر على جدية هذه المدارس رغم ما كانت كل الظروف التي تحيط بها وشح الإمكانيات التي تمتلكها بأن تجعل منها مدرسة أقل مما تستوعبه في حمل مشروع الثورة التعليمي .

¹ - ANOM :93 / 4496 Le problème des Oulama et la question religieuse ومقابلة شخصية مع السيد العربي

دحوتلميذ سابق بمدارس الثور ومجاهد وأستاذ وباحث جامعي، باتنة 23 فيفري 2015.

² - مقابلة السابقة مع السيد العربي دحو.

³ - المقابلة نفسها.

⁴ - العربي دحو :المرجع نفسه، ص ص 176-177. والمقابلة السابقة مع لعربي دحو.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

فضلا عن كل هذا الذي يعكس مبلغ الأهمية التي أولتها الثورة للتعليم، تلك المكانة التي كانت تمنحها للمعلم إذ كان المعلم في الثورة يتقاضى 800 ف بالمقابل لا يصل راتب المجاهد الميداني في المعارك والحامل للسلاح أكثر من 300 ف¹ أي بفارق أكثر من الضعف وهو ما يعكس البعد الإستراتيجي للتعليم في مشروع الثورة. أما من ناحية العقار ومبنى المدرسة فقد سادت المدرسة الكوخ أو شبه الكوخ خاصة في المناطق الريفية والجبالية في حين كانت الحواضر تحتوى على ما بقي من مدارس بمباني عصرية كما شيدتها جمعية العلماء، وقد وصف العربي دحو باعتباره عايش النوع الغالب على مدارس الثورة في الأوراس فيقول:

كانت أغلب المدارس هذه هي عبارة عن قاعات ريفية مبنية بالطين والطوب والحجر وغالبا ما تقام قرب مغارة أو غابة ولعل هذا الموقع يتحدد بغية تأمين التلاميذ والمعلمين وتوفير فرصة الفرار حيث كانوا عرضة لمدهامات الجيش الفرنسي والذي كان يتابع ويلاحق هذه النشاطات .

أما عن العقارات التي كانت تمارس فيهم التعليم المدرسي بمنطقة الأوراس فإنه في كثير من الأحيان كانت القاعة تجمع حوالي مائة (100) تلميذ يجلسون على الحجارة متخذينها مقاعد وفي أحيان قليلة تتوفر بعض القاعات على حصير مفروشة، كما انعدمت فيها التجهيزات الأخرى الحديثة التي كانت قد وصلت إليها و أصبح معمول بها بأغلب مدارس جمعية العلماء وحركة الانتصار والحريات.²

ولا يمكن تفسير هذا التراجع إلا لقلّة الإمكانيات والحالة الأمنية التي تقتضي عدم ترك مايلفت الانتباه لوجود مدارس حتى لا يتفطن لها العدو وتتجنب بذلك المدهامات المفاجئة، فقد يكون تفكير جبهة التحرير تقديم خيار بقاء سير ووجود المدرسة على القضاء عليها .

والحال أيضا أن أداء المعلم بهذه المدارس قد عرف تراجع على ما كانت عليه ووصلت له المدارس العربية الحرة للتطور التي عرفته مدارس جمعية العلماء، حيث نزل إلى الأداء التقليدي الذي يعتمد على طريقة التلقين والإملاء الشفوي وقد تحكّم في هذا، انعدام الوسائل التعليمية التي تفرضها الطرق التعليمية الأخرى، إذ نادرا ما كان المعلم يستعمل الوسائل البيداغوجية حتى تلك البسيطة كاللوح والطباشير³، وهو ما نرجعه إلى العوامل سابقة الذكر، هذا الأمر يجعلنا أمام مفارقة التي تصنعها وضعية الهوة بين المقررات الطموحة لتعليم الثورة وإمكانياتها الأقل من بسطة.

كما كان يتولى معلم واحد تدريس جميع المواد الأدبية والدينية والعلمية ، والتي كانت مضامينها ومستوياتها قريبة إلى حد بعيد إن لم نقل أنها كانت مأخوذة من برنامج مدارس جمعية العلماء وتبقى مشروطة بقدرة المعلم ومستواه المعرفي والبيداغوجي.⁴

¹ - مقابلة سابقة مع المجاهد مسعود عبيد.

² - مقابلة السابقة مع السيد العربي دحو.

³ - المقابلة نفسها.

⁴ - المقابلة نفسها.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

وقد يتولى معلم ثاني تحفيظ أناشيد الثورة وتعليمهم إلقاء الخطابة أمام الجماهير وتقنيات التأثير من حركات وتفاعل مع الكلمات والجمل والعبارات حتى يجعلها حية تؤثر في المستمعين¹، ولعل هذه الدروس كانت ترمي إلى إعداد هؤلاء التلاميذ لمهام ثورية تحتاج فيها المتعلم والمثقف لتكليفه بتعبئة الجماهير أو نقل دعايتها للناس وتحريضهم ونقلهم لقناعات وتعليمات الثورة لقاعدتها الشعبية، أو حتى داخل المجاهدين تكوينهم لرفع الحماسة والتفاؤل وتجديد قناعاتهم الثورية .

إضافة إلى هذه الدروس يتلقى المتمدرسون في هذه المدارس أنشطة رياضية كتعليمهم السير العسكري والقفز والرماية وكرة القدم²، ترمي هذه الدروس إلى إعداد التلاميذ لمهام الأعمال العسكرية التي تقتضي اللياقة البدنية والاستعداد الجسدي والفتنة والسرعة والمرونة وكل ما يعد مهارة إضافية تزيد من قدرة المقاتل .

وبالجمل يمكن الوصول إلى أن مقررات تعليم هذا النوع من مدارس الثورة التي غطت أماكن كثيرة من منطقة الأوراس، قد وجهت جبهة التحرير برامجها ومقرراتها مع أهدافها الوطنية والثورية والعسكرية، فإذا كانت قد حافظت إلى حد بعيد على الأهداف التثقيفية التي كان معمول بها بمدارس جمعية العلماء لعدم تعارضها مع أهداف الثورة فإن التكوين الأخر الذي رافق التعليم التثقيفي هو إعداد طلبة هذه المدارس لمهام عسكرية حربية كالكتاب أو المسؤول في الجيش أو المحارب وقد تم التوسيع فيه ما يعكس أن مرمى مخرجاتها هذا قد غلب عليها المرمى والهدف العسكري أكثر من سواه وهو ما يتماشى والحاجات الظرفية التي كانت تعيشها البلاد.

أما نظام الامتحان فقد كانت هذه المدارس تجري الامتحانات لطلبتها بين مرة ومرتين في السنة وهذا تبعاً لظروف الثورة، وقد كانت تسهر على تنظيم الامتحان لجنة تتكون من معلمي مجموعة من المدارس تفدها قسمة جبهة التحرير بمنطقة تواجد المدرسة متكونة من معلمي هذه المدارس.³

وقد كانت الامتحانات تجرى كتابياً لجميع المواد باستثناء مادتي النصوص والإنشاء حيث كانت مادة النصوص تؤدي شفويًا أين الممتحن يعرض مجموعة من النصوص الشعرية التي يختارها ويختبر في شرحها ومعانيها، أما مادة الإنشاء فالطالب فيها يقدم على تحرير موضوع في السبورة أمام لجنة الامتحان ويقوم بقراءته عليها⁴.

وبعد نهاية التلاميذ من إجراء امتحانات كل المواد تقوم اللجنة المكونة من المعلمين مختلف المدارس بتصحيح الأوراق وتجمع النقاط وتحسب المعدلات وبعدها يعلن عن النتيجة.

والحق أن أفق التعليم عند الثورة لم يتوقف عند هذا المستوى والبعث فقط، بل نجد أن قادة جبهة التحرير قد حرصوا على مواصلة الطلبة الجزائريين لدراساتهم بالخارج وهذا تماشياً مع رؤية جمعية العلماء التعليمية، فنجد أن مبعوثي الثورة في الخارج قد بذلوا جهود كبير من أجل إيجاد مقاعد دراسة للطلبة الجزائريين بالثانويات والجامعات

¹ - العربي دحو: المرجع السابق، 176.

² - المرجع والصفحة نفسها.

³ - العربي دحو المرجع نفسه ص 177.

⁴ - العربي دحو المرجع نفسه ص 177.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

بالدولة المتعاطفة مع القضية الجزائرية وعلى رأسها الدول العربية ودول الأفروآسيابوية وحتى دول المعسكر الاشتراكي¹.

وقد تحقق لعدد من الطلبة هذا الطموح خاصة مع تقدم سنوات الثورة وظهور الحكومة المؤقتة حيث كان وزير ثقافتها توفيق المدني يبحث بعناية كبيرة في هذا الأمر إما من ناحية زيادة الحصص المخصصة للطلبة الجزائريين في هذه الجامعات أو من ناحية تحسين ظروفهم المادية والدراسية التي كانت توصف بالصعبة². وفي جانب آخر عرفت الثورة نشاط التوعية السياسية وهو النشاط الذي يماثل الدروس الوعظية التي كانت تقيمها جمعية العلماء، حيث كانت جبهة التحرير تطلع بتخصيص أفراد لمهام الدعاية لها والتعريف بأهدافها ومواقفها ونقل تعليماتها لأوساط الجماهير الشعبية، وقد تولى المحافظ السياسي مهمة تنظيم هذا الأمر من خلال إسناد هذه المهمة للأئمة ومعلمي القرآن في قراهم وتجمعاتهم السكانية .

والحقيقة أن فئة النساء في هذا الأمر لم تحمل أو تغيب عن تفكير جبهة التحرير لأهميتها كجزء مهم من خلفيتها وبعدها الشعبي الذي كانت تعول عليه في حسم الحرب مع الاستعمار، وبذلك كانت هذه الفئة معنية وبشكل بارز بمهام التوعية السياسية، التي أخذت شكل دروس تعليمية، غير أن مصادر الوثائق الأرشيفية التي أتيج لنا الوصول والإطلاع عليها ولا حتى الرواية الشفوية لم تطلعنا عن أسماء لنساء أوراسيات ساهمن في دروس التوعية السياسية رغم أنه معروف عن الثورة أنها وجهت عددا معتبرا منهن إلى هذا الميدان لملائمة طبيعتهم فيه حاله حال التطبيب وهذا عبر الوطن، من خلال هذه المهمة كانت بعض المناضلات المجاهدات ينزلن للمنازل ويعقدن حلقة توعية في شكل دروس من خلالها ينقلون أفكار الثورة وقيمها ومواقفها وحتى أوامرها وتعليماتها المختلفة .

غير أنه رغم سكوت المصادر المختلفة عن وجود أسماء الأوراسيات، إلا أنه لا يمكن أن نجزم بعدم توفرهن خاصة في مثل منطقة كالأوراس التي شهدت أكثر حضور لثورة، مما يعزز اعتقادنا أنه قد تكون هناك حالات لنسوة معلمات تكفلن بالتوعية السياسية وجانب من التعليم في الثورة، ولكن ضيق فرصة البحث بالنسبة لنا أدت إلى عدم وصولنا إلى حقيقة هذا الأمر.

¹ - السيد أحمد توفيق المدني وزير الشؤون الثقافية يحدثنا عن وضعية الطلبة الجزائريين بالخارج، جريدة المجاهد العدد 33، 8 ديسمبر 1958، ص11.

² - المصدر نفسه.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

المطلب الرابع: أثر تعليم جمعية العلماء في الجهود التعليمية للشخصيات الحرة "حمودة بن الساعي نموذجاً" عرف التعليم العربي الحر جهوداً لشخصيات حرة أو مؤسسات مستقلة لا تتبع أي جهة وقد كانت هذه الظاهرة معروفة في تقاليد التعليم عند مختلف الشعوب والأمم، وقد كانت أكثر رسوخاً في المجتمعات الإسلامية لاعتبار التعليم واجب ديني، وبذلك عرف المجتمع الجزائري التعليم العربي الإسلامي الحر منذ الفتوحات الإسلامية واستمرت حتى فترة الإستعمار، غير أنها كانت تعرف ازدهاراً تارة والتراجع تارة أخرى وهذا تبعاً للظروف التي كان عليها المجتمع والوطن، وعموماً قد لاقت المبادرات الحرة صعوبات كبيرة خلال الفترة الاستعمارية تبعاً لتلك المضايقات التي تعرض لها كل التعليم الأهلي، ولعل هذا النوع من المبادرات التعليمية كان أكثر تضرراً لعزله وقلة مناصره وضعف إمكانياته، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا النوع من التعليم ومهما بلغ من تراجع إلا أنه لم ينتهي، وبقي هو الآخر يصارع من أجل الحياة ويتفاعل مع الظروف ومعطيات رايه، هكذا إذا هو الآخر واکب التطور الذي عرفه التعليم العربي الحر الأهلي مع جمعية العلماء، ولقد كان لتطور تعليم جمعية العلماء أثره البالغ عليه في كل الوطن.

والأوراس كمنطقة من الوطن عرفت بحالات لشخصيات تعليمية حرة أسدت جهوداً معتبرة خدمة للثقافة والمعرفة الدينية والعربية وحتى المعارف العقلية، وقد وقع اختيارنا على تجربة حمودة بن الساعي كنموذج لشخصية حرة قدمت تجربة تعليمية متميزة، كان لأثر الفكرة الإصلاحية والوطنية فيها كبير .

أولاً: النشأة والتكوين :

محمد حمودة بن الساعي نشأ في أسرة متدينة تنحدر من زاوية عريقة ومعروفة ترجع في أصلها إلى النمامشة، بدأ تعليمه الأول على يد الشيخ زيداني وأبيه اللذان ساهما في حفظه للقرآن وأحسنوا توجيهه، كما سمحت له إقامته بباتنة المدينة الاستيطانية من الدخول إلى المدرسة الفرنسية التي نمت وصقلت قدراته وخاصة بفضل معلميه الذين حضوه بعناية كبيرة لما قدره فيه من مواهب وقدرات خاصة¹، وبعد إنهاء مرحلتها الدراسية انتقل إلى المدرسة الفرنسية العربية الكتانية بقسنطينة .

وبالمدينة قسنطينية ذات الفضاءات الثقافية المفتوحة والمتنوعة، استطاع أن ينمي ثقافته المزدوجة الفرنسية والعربية الإسلامية؛ الثقافة الفرنسية عن طريق دروس الثانوية ومطالعته العميقة التي كان تأتي من توجيهات أساتذته²، وأما الثقافة العربية الإسلامية فان نشأته العائلية وتوجيهات أبيه الدينية قد رسمت ميوله الفكري الذي بقي يستدعي منه مداومة البحث والمطالعة في الشأن الديني الإسلامي، وقد وافقت الظروف محمود بن الساعي حين تزامنت سنوات دراسته بثانوية الكتانية مع ثورة ابن باديس التعليمية بالجامع الأخضر واختراق أفكاره كل المؤسسات التعليمية والثقافية بالمدينة قسنطينية، وبوصولها إلى حمودة بن الساعي وجد فيها ضالته ومن ثم اتصل مباشرة بدروس الشيخ ابن باديس فكان كلما فرغ من دروسه بالثانوية الفرنسية قصد الجامع الأخضر للأخذ عن

¹ - المقابلة السابقة مع السيد علي أوجيت.

² - مالك، بن نبي: مذكرات شاهد للقرن، المرجع السابق، ص 65.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

الشيخ¹، ثم تطورت العلاقة بين حمودة بن الساعي والشيخ ابن باديس إلى الزيارات الخاصة بمكتبه بإدارة الشهاب ليسأله عن الدين (الفقه والتفسير والحديث).²

من خلال هذه الدروس عرف حمودة بن الساعي الفكرة الإصلاحية التي توافقت مع توجهاته الراضية للتقليد، كما أعجب بالأفكار التي كان يقدمها الشيخ ابن باديس وكيفية علاجه التي توافقت كثيرا مع منهجيته وتوجيهاته الفكرية فراء فيه العالم المسلم الذي يناسب المرحلة التي تعيشها الأمة.³

استطاع انتمائه إلى مدرستين مختلفتين قد أنتج حمودة بن الساعي المثقف والمصلح والسلفي العصري، فكان مزود بقوة عقلية وعمق في التفكير وأدوات منهجية من خلالها يستنبط من الآيات القرآنية أحكاما وأراء ويعالج من خلالها قضايا ومشاكل الوطن والعالم الإسلامي.

كان له اهتمام بالعلوم الحديثة ويرى أنه لا تناقض بين صريح المعقول وصريح المنقول، ففي نظره الفكر الإسلامي وتراثه يمكن أن يستوعب العلوم الحديثة، فالمزاوجة بين الفكر الحديث والدين والتوافق بينهما لدى النخبة الإصلاحية التي أطلعت على الفكر والثقافة الفرنسية قد ردت على النظرة العلمانية التي شاعت عند كثير من المتغربين الذين يرون أن هناك تعارض وتناقض بين المحتوى الديني والعلم.

كان يحترم أهل العلم ويعترف بهم مهما كانت وجهتهم الفكرية وتأثر بالكثير من مفكري الغرب وربط صدقات مع آخرين الذين تميزوا بالاعتدال وبنزعتهم الإنسانية أمثال " أناتول فرنس" وهو أديب مشهور ارتبط بصداقة قوية ومتينة مع حمودة بن الساعي، وأيضا كان معجبا بالأديبة "أندري جيد" وأيضا "ازبيل ابرهارد" التي عاشت بوادي سوف وزارت باتنة، وقام بالكتابة عليها.⁴

كما تأثر بالمفكرين والأدباء وشخصيات النهضة العربية الأدبية والفكرية والسياسية مثل محمد رشيد رضا ومحمد عبده ومحمد السعيد العريان وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي وزكي مبارك وسعد زغلول...، الذي كان يطلع على أفكارهم من خلال تأليفاتهم مثل رسالة التوحيد لمحمد عبده وأم القرى للكواكبي والإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق لأحمد رضا أو المجالات والدوريات التي تصدر بها مقالاتهم مثل التزامه بقراءة مجلة وحي الرسالة للزيات، وتأثر أيضا بكتابات التراث الإسلامي مثل إحياء علوم الدين للإمام أبو حامد الغزالي⁵ والتي كانت موضوع رسالته في باريس، كما كانت له زميلات مع جيله مثل تلميذه مالك بن نبي وأخيه صالح بن الساعي والطبيب عبد العزيز خالدي، نال تقدير كثير من الذين عرفوه سواء من الغربيين أو الجزائريين أو العرب.

¹ - مقابلة شخصية مع السيد محمد نذير السبع مثقف وكاتب ومدير ثقافة سابق لولاية باتنة، كان من تلميذ وجلساء الشيخ حمودة بن الساعي: باتنة يوم 2009/08/24.

² - نذير، طيار: شاهد القرن من سقوط أم الحواضر إلى علم سقوط الحضارات، كتاب قيد الطبع، ص 150.

³ - مقابلة شخصية مع الشيخ عبد الرحمان شيبان، حسين داي، الجزائر العاصمة 2008/06/12.

⁴ - مقابلة شخصية مع السيد علي بن بلقاسم صحفي ووكاتب كان من جلساء الشيخ حمودة بن الساعي، باتنة 2008/50/3.

⁵ - مقابلة السابقة مع السيد علي أوجيت ومالك، بن نبي: مذكرات شاهد للقرن المصدر السابق، ص 66.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

كانت هذه مرجعية الثقافية والمعرفية والعقلية المتعددة والمتنوعة والتي كانت قد أخذت من كل المشارب لكن دون أن تجعل منه شخصية ذائبة في الآخر أو مائعة، بل نجد أن حمودة بن الساعي قد زادت في صلابته شخصيته ووضوح رؤياها فيه حتى أصبحت له المرجع في تصنيف الوطنية، وإضافة إلى أن هذه الطبيعة الثرية من التلقي الثقافي والمعرفي كانت قد صنعت مدافع شرس على الخصوصية الثقافية التي كان حتى زمانه قليل ممن تعرض لمثل تكوينه في التعليم والثقافة الفرنسية ينجو من أسرها .

عرفت حياته انعطافا كبيرا بعد قيام أستاذه المستشرق " لويس ماسينيون " بإخفاء أطروحته الذي كان مشرفا عليه فيها، فحال دون مناقشتها مما أثرت على نفسه¹، ولعل دواعي "ماسينيون" وراء هذا العمل يعود إلى إدراكه خطورة محتواها على الفكر الاستعماري وتعارضها مع أهدافه الإستشراقية، ويؤكد الأستاذ مالك بن نبي في كتابيه " مذكراته شاهد للقرن " وأيضا "العفن" على أن "لويس ماسينيون " كان دائم المضايقة والإزعاج لأصحاب الفكرة الإصلاحية والوطنية من الطلبة المسلمين .

إن المعرفة العميقة بلا شك التي كان يمتلكها " لويس ماسينيون " بشأن قدرات تلميذه محمود بن الساعي وخطورة أفكاره، خاصة لما أظهره حمودة من معارضة له في فكرته الإستشراقية التي تدعو إلى الطريقة الصوفية، كما أن الدور السياسي الذي كان يلعبه ماسينيون من خلال منصبه العلمي ومكانته العلمية وهي توليه منصب مستشار الدوائر الإدارية المتعلقة بالثقافة والإدارة والتي تسهر على توجيه الثقافة في البلاد العربية وصناعة النخب الموالية للثقافة الاستعمارية .

وبحكم عناد حمودة بن الساعي وتعارض توجهاته مع الأهداف الاستعمارية وأيضا ما أظهره من خلال نشاطاته المعادية للاستعمار من خلال محاضراته التي كان يلقيها في باريس، إضافة إلى تكوينه لجمعية الوحدة العربية وجمعية مناصرة فلسطين، هذا التوجه كان يتعارض مع أهداف مؤسسة ماسينيون التي كانت تهدف إلى إظهار نخب من العالم الإسلامي لها تأثير غربي². بعد فشله في استرجاع رسالته عاد مكسور الجناح إلى الوطن مكان إقامته باتنة قام بدور إصلاحي تمثل في التعليم لأنه كان يرى أن الإصلاح لا يتم إلا عن طريق التعليم .

ثانيا: جهوده التعليمية

له دور كبير في التعليم من خلال المحادثات والحوارات على طريقة سقراط، كانت تتم جلساته التعليمية مع تلاميذه في المقاهي والحدايق وهامش المدينة³، لعله لجأ إلى هذا الأسلوب لشعوره بالإقصاء والتهميش المقصودين من الإدارة والمتابعة الاستعمارية التي لم تسمح له بالتدريس، ولعل هذا يدل أيضا على مدى خطورة أفكاره على الفكرة الاستعمارية.

¹ - المقابلة نفسها.

² - المقابلات السابقة مع كل من السادة محمد نذير السبع وعلي أوجيت وعلي بن بلقاسم.

³ - المقابلة نفسها مع السيد علي أوجيت.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

لم يعتمد برنامجا محددًا لكن اطلاعه الواسع ومنهجيته العلمية التي كان يمتلكها منذ كان طالبًا في الثانوية الفرنسية بقسنطينة مثل ما أكده تلميذه وزميله مالك بن نبي الذي قال عنه: ((علمني الولوج إلى روح القرآن أحسن من أن يفعل شيخ الأزهر ذلك.))¹، كما أيضا أظهر اعتراف الأستاذ مالك بن نبي بأستاذية حمودة بن الساعي له عند نشره كتاب الظاهرة القرآنية في الإهداء، الإهداء إلى أستاذه حمودة بن الساعي، ولكن في الطبعة الثانية طلب حمودة بن الساعي نزعها.²

كان طلبته ممن تعرفوا عليه في قسنطينة أو من حفظة القرآن الذين وجدوا في دروسه روح ومعاني لم يجدوها في التعليم التقليدي، ويذهب السيد "علي أوجيت" إلى أن أغلب طلبته قد التحقوا بالثورة، مما يدل على نجاحه في غرس الروح الثورية التي كان يمتلكها في نقلها إلى تلميذه ومستمعيه، كما يعود له الفضل في توجيه العديد من الشخصيات الجزائرية التي تعرفت عليه في الجزائر أثناء دراسته الثانوية مثل "فضلي" و"قاواو" بالإضافة إلى عدد هائل من الذين عاصروه في قسنطينة وأيضا ممن عرفوه أثناء تنقلاته العديدة بين باتنة وقسنطينة والعاصمة التي كان يقوم بها في إطار اتصالاته بالشخصيات والقيادات الإصلاحية ونشاطاته من خلال المحاضرات التي كان ينشطها في نواديها مثل تلك التي قدمها في نادي الترقى بعنوان "سراب السياسة والدعوة إلى هداية القرآن" وأيضا تلك التي كان يقدمها في نوادي قسنطينة والتي عرف من خلالها، أو حتى أثناء دراسته بباريس، ولعل أبرزهم أخيه صالح بن الساعي الذي ساهم في توجيهه نحو الفكرة الإصلاحية رغم تكوينه التقني إذ كان متخصصا في الزراعة الاستوائية إلا أنه دافع خلال رحلاته عن الإسلام وقضايا العالم الإسلامي.³

وعموما كان حمودة يركز في عمله التربوي على التنشئة الإسلامية بروح عصرية للجماهير الأهلية لكي

تتعامل وتتفاعل مع قضاياها بوعي أكثر، وقد دفع فكرة الوطنية في عقول وعقول الشباب الذين كانوا يتلهفون لجلسات دروسه ولا نستبعد هذا من عالم كحمود الذي حمل الجزائر في قلبه وفكره .

وبالمجمل يمكن أن نصل إلى أن الجهود التعليمية لجمعية العلماء بالأوراس قد قلبت المعطيات الثقافية به رأسا على عقب إذ تحولت من منطقة يسودها الانحطاط العلمي والثقافي حتى بمطلع القرن العشرين إلى منطقة تشع بمدارس ومساجد التعليم والثقافة الدينية حتى النصف الثاني من هذا القرن، غيرت وجهتها الفكرية من مجتمع يرتبط بتلك الأفكار الماضوية التي كانت عاجزة على تحقيق حاجاته الثقافية والظرفية، إلى فكر وثقافة تحقق توافقه مع رايه وواقعه وماضيه، لقد كانت المدرسة الإصلاحية لجمعية العلماء تعمل على إنتاج وبعث قيم تصالح في حال المجتمع بين ماضيه وحاضره، وتنقذه من تلك العزلة المرابطية وبذلك الزمنية والواقعية وحتى الوطنية لترميته في أتون عالمه المفتوح مع مجتمعات الجوار ثم الوطن ويتمهاى مع قضاياها.

¹ - مالك، بن نبي: العفن، ترجمة نور الدين خندودي، دار الأمة، ط1، الجزائر، 2007، ص98.

² - مالك، بن نبي: مذكرات شاهد للقرن، المصدر السابق، ص67.

³ - صادق، سلام: في ذكرى رحيل مناصر القضية الجزائرية د. صالح بن الساعي، ترجمة محمد البشير مغلي، جريدة النور، العدد 24،

1991، ص7. وجريدة رسالة الأطلس، العدد 189، 18 إلى 24 ماي 2008، ص9.

الفصل الثالث: مدرسة العلماء والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل

لقد لعبت مؤسسات جمعية العلماء وعلى رأسها المدرسة دوراً قيادياً في التعليم العربي وحركت بذلك قوى المجتمع الأوراسي الأخرى المعنية بهذه المهمة، وأنارت له المسلك الذي يجب أن يتوجه إليه، فأخذت مؤسسات المجتمع الأوراسي من بعض الزوايا إلى أحزاب الحركة الوطنية التي دخلت بالمنطقة بمنهجية العلماء في جانب التثقيف والتعليم، فالزوايا بدافع إثبات الوجود والذات من جهة والمنافسة من جهة ثانية ومنها من دواعي الواجب الديني والوطني من جهة ثالثة فهذا كله استدعى منها موقف مواكبة التطور الحاصل مع ما كان جاري من تطور في تعليم جمعية العلماء ما جعلها تأخذ بمثال مدرسة العلماء وتقدمت في تعليمها متبينة في وسائلها وطرائقها التحديث خارجة من أسلوب التقليد، وإن كان للفترة القصيرة التي عمرت بها حركة الانتصار والحريات بالمنطقة أثرها في عدم تأسيسها لمدرستها بالأوراس على عكس ما ظهر لها في مناطق أخرى فإن جبهة التحرير استطاعت أن تتوسع وبشكل سريع في هذا الأمر ولتطورات الوقائع تماهى النضال لتعليمي لجمعية العلماء مع الثورة .

هكذا إذا لم تعد الأوراس حتى منتصف الخمسينيات من القرن 20م كما كانت عليه منذ ماضي قريب على سمة الإنغلاق والسكون، إن الحقيقة الثقافية والاجتماعية لتلك اللحظة التاريخية تستدعي الوقوف على مساحة التحولات العميقة، إذ أن واقع الأوراس يثبت أن أغلب سكانه أصبحوا منفتحون مع العالم الخارجي مقبلين على أفكاره الجديدة، يأخذون بأسباب العصرية والتحديث وحتى التحضر بما هو متاح .

هذه الحركة الثقافية والاجتماعية لم تشهدها الأوراس طيلة أزميتها الغابرة، هذا الواقع الجديد الذي يعود أو نرجع أغلبه إلى فضل تلك النشاطات الإصلاحية لجمعية العلماء بالمنطقة، والتي كان على رأسها المدرسة التي كانت تمثل عوامل هذا التحول إلى التحديث والتطور الثقافي والاجتماعي والسياسي، بشكل قد لم يتح لكثير من مناطق الوطن التي كانت تتمتع بظروف ووضعية انطلاق حتى الثلاثينات من القرن 20م أفضل وأكثر ملائمة نحو مشروع التحديث والوطنية، وهو ما يؤكد على أثر مدرسة العلماء ومدى نجاحها في الأوراس .

الخاتمة

نخلص القول أنه على الرغم من محاولة المستعمر إضعاف الروح المعنوية للشعب الجزائري ، فقد تولدت فيه مشاعر التحدي حيث أراد الاستعمار إضعافه واستسلامه بسهولة ، فظهرت به بذلك حياة نضالية من لدن أفراد أهليين رغم ماكانت تمثله أوضاعهم من صعوبة في إظهار أي نشاط، وقد تنوع وتعددت أوجه النضال لدى المجتمع الأهلي، وكانت الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء أحد أهم هذه الحركات النضالية التي كان الشيخ عبد الحميد بن باديس صاحب الفضل في ظهورها وصياغة طبيعة توجيهها بجمعية فريقه الإصلاحي الذي استطاع استثمار قدراته وإقناعه بمشروعه.

كان التعليم هو الركن الأساسي والقاعدة التي نظر إليها الإصلاحيون الجزائريون في إصلاح الجوانب الأخرى، وبذلك تقدم نشاط التعليم النشاطات الإصلاحية الأخرى لجمعية العلماء، من هذه الأهمية والمكانة التي اكتسبها في فلسفة الإصلاح لجمعية العلماء، فإن ابن باديس ورفقائه أول مبادروا له في بداية مشوار نضالهم هو التعليم.

لقد كان التعليم الذي أسس له رواد الإصلاح في الجزائر تعليما عربيا حرا، حاملا لمشروع حضاري طموح يرتكز على المقومات الوطنية (العربية _ الإسلامية) التي حاولت السلطات الاستعمارية محاربتها وطمسها، وكان هذا التعليم الجديد قد كون نواته قادة الفريق الإصلاحي وبعد مشوار من التجربة أصبحت حلقاتهم نماذج للتعليم الذي يتوسع من قبل تلاميذهم وتبنته جمعيتهم.

نظمت الجمعية تعليمها على نحو عصري حيث حدثت برامجه ومقرراته على نحو يخدم الوطنية والوعي لدي الأهلي، زيادة على تطويره على نحو منظم إداريا وتسييريا يحاكي التنظيم التربوي العصري، يكفل التغيير المنشود في المجتمع لما أصبحت مؤسساته من القوة حتى تتحمل هذه المهمة والمسؤولية.

زيادة على أن جمعية العلماء عملت على ضمان توفره لعموم أبناء المجتمع الجزائري المسلم المحروم من التعليم، وإن كانت بدايته القوية بالمدن والحواضر المعروفة بظروفها المستوعبة لإستقبال مؤسسات التعليم الإصلاحي، فإنه بعد سنوات قليلة استطاعت أن تصل به حتى في تلك المناطق الريفية والنائية التي كانت شروطها وظروفها أبعد ماتكون على استقبال هذا النوع من الفكر والنشاط، ومنطقة الأوراس بأحوازها المختلفة مثال على هذه المناطق والمجتمعات، وهي المنطقة التي تناولناها بالدراسة ووقفنا على هذه النتائج .

فالظروف الاقتصادية لسكان الأوراس قد تأثرت بالقوانين الجديدة التي استفدها الاستعمار، فمع ضعف مواد الأرض التي كانت تعرفها منطقة الأوراس بسبب قلة الأراضي الخصبة والسهول وصعوبة المناخ وقلة مساحته الرطبة، إلا أن تجربة الإنسان الأوراسي مع بيئته مكنته من خلق توازن بين متطلبات الواقع وشرح الأرض حيث استطاع أن يتكيف معها ويخلق توازن بينه وبين موارد أرضها، وهذا من خلال نظام استغلاله لها.

إلا أن القوانين الاستعمارية الجديدة التي أدخلت الملكية الفردية وصادرت الأراضي الزراعية الخصبة وحددت أراضي الرعي، أدت إلى ضرب البنية الاقتصادية للأهالي الأوراسيين، وبذلك ضرب التوازن الذي كانت

الخاتمة

تكفله لهم الأرض من خلال نظامهم في استغلالهم لها ، كما أدت الوسائل الجديدة مثل وسائل النقل ودخول البضائع الصناعية وفرض استعمال النقد في المعاملات التجارية إلى هز النظام التجاري للأهالي الذي أصبح غير قادر على المنافسة .

ومع كل هذه الوضعية التي ساهمت في تدهور الوضع الاقتصادي والمادي للسكان الأوراسيين إلا أنها لم تظهر من جانبهم ردات فعل أو إجراءات للتكيف مع الواقع الجديد إذ بقي الأوراسي يستغل بيئته كما ورثها عن أجداده من العصور القديمة رغم أن ثروته بهذا الاستعمال التقليدي كانت تذهب من يده شيئاً فشيئاً وتزداد ظروفه الاقتصادية والمادية بؤساً عن بأس.

إن التحولات الجديدة هذه لم تمس الوضع الاقتصادي لوحده بل أيضاً استهدف الاستعمار الوضع الاجتماعي من خلال التنظيمات الإدارية والاجتماعية وأيضاً الأثر الذي تركته التحولات الاقتصادية على الواقع الاجتماعي لارتباطهما الكبير مع بعضهما البعض، فمثلاً أول ما استهدف في التحولات الاجتماعية الجديدة ما كان نواة ووحدة المجتمع الأهلي ألا وهي القبيلة فقد أدت التنظيمات الإدارية والاقتصادية إلى إضعاف القبيلة التي كانت السلطة الاجتماعية والسياسية ولعل هذا ما كان يصبو إليه الاستعمار، فلقد تحول المجتمع من وضع اجتماعي تحت نظام القبيلة يتساوى فيه كل أفرادها ويشتركون في استغلالها وانجاز أعمالها إلى مجتمع يظهر فيه التمايز جلياً بين غني فاحش وفقير مدقع، فتحول سكان الأوراس إلى جيش من الفقراء، وطالعنا تقارير الإدارة المحلية الفرنسية لمنطقة الأوراس عن إحصائيات تظهر فئة الفقراء أوسع الفئات الاجتماعية والتي كانت تضم جموع المساكين والخماسين والعمال الموسمين والرعاة والمستخدمين المؤقتين فشكّلوا فئة كادحة مرهقة ينتظرون ما تجود به الجمعيات وصناديق المعونات أو تبرعات المحسنين التي كانت لا تقدر على توصيل كل معوناتها لهذا العدد الهائل .

كما أدى انكفاء الإنسان الأوراسي وصلابته في المحافظة على ثقافته ورفضه لأي نوع من الاحتكاك مع الغازي الجديد إضافة إلى منعة جبله لدخول أي جديد رغم محاولات الطمس إلى بقاءه يحاكي خبرات الحياة والتجارب الماضية لأجداده من العصور القديمة إن على مستوى سكنه الذي بقي يراعي فيه بعد مقاومة الطبيعة - كالحرارة والبرودة أو السيول - والعدوان الخارجي ، أو التزامه الخيمة التي وفرت له مزية سهولة الطي والنقل في حياة تعرف الحل و الترحال أغلب شهور السنة، ولم يظهر أي تطور في نمط سكنهم يحاكي السكن العصري رغم المحاولات المحتشمة للاستعمار التي أبدتها في نقل بعض السكان إلى ساكنات عصرية جديدة (كقرية الزنوج) هذا المظهر للإنسان الأوراسي أيضاً لوحظ عليه في التطبيب فلقد كان لجوؤهم إلى الطب الخرافي والسحري واسع واعتقادهم فيه راسخ وعلى الرغم من دخول الطب الحديث من خلال المستشفيات التي أقيمت في بعض دوائر الأوراس وظهور أطباء من الأهالي إلا أنه حتى عقد الثلاثينات من القرن العشرين م (20م) مازالت الثقة في الطلبة والقازنات أقوى من الطب الحديث ولعل هذا يعود بدوره إلى الوضع الثقافي الذي هو الآخر بقي مشدود إلى الثقافة القرواسطية التي تهيمن فيها الثقافة المرابطية الصوفية وقد تعززت بانفراد الزوايا بالسكان في حوزات الأوراس وقلت التأثيرات الثقافية من الوسط الخارجي .

فبقى التعليم تعليماً دينياً بحتاً وبسيطاً وقد تراجع انتشاره الذي كان يحققه قبل الاحتلال بفعل ضرب هذا الأخير لمؤسساته كالمساجد والزوايا والكتاتيب والمدارس بحجة أن مضمونه يدعو إلى العنف والكرهية كما أدت المقاومات إلى موت العديد من العلماء أو تعرضهم للنفي أو الهجرة فضلاً عن أن التعليم قد تراجع لحساب انشغال الناس بتوفير الرزق أولاً وتوجيه العائلات أبناءها للمشاركة في تذليل الرزق وأبعدوا بذلك عن المدارس مما أدى إلى تفشي الجهل وقلة التعليم في الوسط الأوراسي.

أما التعليم الفرنسي الذي كانت تعتمد الإدارة في تحقيق الغزو المعنوي فرغم المحاولات الفرنسية في مرحلة الحكم العسكري لتحقيق الإدماج والحضارة الأوروبية إلا أن إرادة المستوطنين كانت أقوى في توقيفه لأنه في نظرهم يساهم في تحسين أوضاع المسلمين وتطوير وضعهم وهذا يهدد مصالحهم ومستقبلهم في الجزائر، كما كان أيضاً ربط السكان التعليم الفرنسي بالتنصير وراء فشل هذه المحاولات إذ لم يتحقق أي توسع في إلحاق أبناء الأهالي بالمدرسة الفرنسية رغم كل الإجراءات الردعية والترغيبية للأولياء من قبل إدارة الاحتلال.

أمام هذا الوضع الثقافي البائس وانكفاء الأوراسيين على أنفسهم وانعزالهم على العالم الخارجي كإستراتيجية لمقاومة الآخر، إلا أنّ هذا لم يمنع ظهور حالات حققت الاستثناء في اختراق هذه العزلة من خلال شخصيات محدودة هاجرة طلب العلم بجامعات الشرق فاستطاعت أن تسمح لها الظروف في هذه البيئات المنفتحة والتي كانت تعيش بوادر نهضة إصلاحية أن يطلعوا على الأفكار الجديدة ويأخذوا منها العلم وبعد عودتهم إلى مناطق إقامتهم أدوا أدوار تعليمية واجتماعية ضمنيتها رؤيتها الإصلاحية، غير أن هذه الحالات مثلت أقباساً في بحور من الظلمة المرابطية فلم يعم نورها كل المنطقة ولكنها استطاعت أن تسمح لبعض تلاميذها أن يتلمسوا الدرب إلى أن وصلوا فجر الإصلاح الذي جاء مع الشيخ ابن باديس ويساهموا في ربط المنطقة بالمشروع الإصلاحي الوطني.

لم تكن منطقة الأوراس حتى بداية ثلاثينات القرن العشرين (20م) رغم بداية التحولات التي حصلت فيها تنبئ أن إمكانياتها الثقافية وبناءها الاجتماعي له القدرة على تبني الفكر الإصلاحي لجمعية العلماء ذو الطابع الديني المدني (نسبة إلى المدينة) الذي يتناقض مع الدين الريفي الذي يمثله الفكر المرابطي المهيم والحاكم لقبضته على أغلب الجماهير الأوراسية والذي من سماته تفشي الجهل في أوساطها والاعتقادات الخرافية على كل مستويات حياتها .

غير أن عمق الأوراس كان يخبئ إمكانيات احتضانه وتعايشه مع الفكرة الإصلاحية، ولعل معرفة الإنسان الأوراسي بوضعه المتخلف ووعيه بالتحولات التي حدثت خارج محيطه وإيمانه بضرورة اللحاق بركب الحياة التي أصبحت تعيشها باقي مناطق الوطن، وكان التعليم أحد أهم هذه الحاجات التي وعاهها، فظهرت بذلك موجة من الطلبة الأوراسيين الذين غيروا مسارات ووجهة تعليمهم من المسار التقليدي الذي ارتبطت به الأوراس نحو زوايا الجنوب - (طولقة وخنقة سيدي ناجي) أو غرباً نحو الزاوية الحملاوية بتلازمة أين كان يشدهم التأثير الروحي للرحمانية - إلى الشمال أين دروس الشيخ ابن باديس بالجامع الأخضر بقسنطينة ذات الطابع الإصلاحي، وما يلفت الانتباه أن نوعية الطلبة هذه كانت أغلبها أبناء لعائلات مرابطية فقد شدنا السؤال في دراستنا إلى كيف

الخاتمة

ترضى عائلات مرابطة بالتعليم الإصلاحي لأبنائها وهو التعليم المعروف بنزعة العدائية والمناقضة للتعاليم والمصالح المرابطة، إلا أن وقوفنا وتتبعنا للأحداث سوف يفسر لنا ويبرر لنا هذا السلوك والمفارقة التي كادت تستثني بها منطقة الأوراس من حيث حجمها وعدد أفرادها ولعل أهمها ما يلي :

1_ نجاح الزيارات التي كان يقوم بها الشيخ ابن باديس إلى منطقة الأوراس من اجل زرع الثقة بينه وبين هذه العائلات مما أدى إلى طمأنتهم وزوال كل المخاوف والهواجس التي كانت تصل ضده أو ضد فكرته.

2_ نجاح الحالات الإصلاحية السابقة في الأوراس في بناء التعايش بينها وبين الفكر المرابطي وقد رأينا في دراستنا كيف وظفت الشخصيات الإصلاحية العقارات المرابطة في أداء مهامهم التعليمية ذات الطابع الإصلاحي بهذا مهدت إلى التقارب الإصلاحي المرابطي في المنطقة

3_ رغبة أغلب الزوايا التي أرسلت أبنائها أن تعيد مجدها ومكانتها من خلال إعادة أدوارها التعليمية والاجتماعية والتي رأتها أنها أصبحت لا تتأتى مثل السابق بالوراثة العائلية فقط، بل بالمكانة العلمية ورأت أن وجهة العلم أصبحت في التعليم الحديث الذي يكفله اليوم التعليمي الإصلاحي عند الشيخ بن باديس.

هؤلاء الطلبة الذين كانوا يزدادون و بشكل مستمر ليشكلوا بذلك همزة وصل بين الفكر الإصلاحي والمجتمع الأوراسي.

والحق أن ظهورهم الأول والغالب في النشاط الإصلاحي قد تجلّى في أدوارهم التعليمية، كان عنفوان الشباب ووعي الفكرة وأخلاق الواجب حوافز لنشاط هؤلاء، لم يكن الرفض الاجتماعي لمبادراتهم الطارئة على وسطهم ولا ملاحقات وعقوبات الإدارة الاستعمارية ولا حتى ضعف امكانيات ومواردهم لتأسيسهم فكرتهم في حساباتهم، كان الإيمان بالفكرة وحرقتهم لتنفيذها هي الموجه لهم .

فكان الشيخ الطاهر مسعودان طليعة هؤلاء الرجال الذي أسس تعليمه بداية العقد الثاني من القرن 20م من بضعة تلاميذ لمنطقة نائية معزولة بمسجد بسيط توجههم على أكبر طموح السير بعادة مجتمعهم الحاق صبية هذه الأعمار بكتاب المسجد لحفظ آيات وسور من القرآن الكريم .

غير أن الشيخ الطاهر مسعودان كانت له فكرته ومشروعة فبدأ مما كان متاح وراح لتوسيعه وتفعيله، ليصادف طموحه هذا تأسيس المسجد الجديد بباتنة ورغبة نجبها في تأطيره من قبل كفاءة علمية ودينية تليق بمقام المسجد الجديد، فكان الخيار عليه، وفعلا وجد الشيخ في هذا المسجد والوسط الجديد باتنة المدينة تنفيذ رغبته، فأسس ونظم لخلقته التعليمية المسجدية التي خرج بها عن التقليد الذي ألفه التعليم التقليدي و أظهر فيها إصلاحه وروحه التجديدية مضمونا وطريقة وتسييرا، ثم توسع لإنشاء مدرسة ملحقة بالمسجد ليتفرق للتعليم ويوجه كل جهده ووقته لهذه المهمة مبتعدا على كل شواغل أخرى سياسية وغيرها، وفعلا بعد مدة من جهده هذا لاحت نتائج مبادرته وإصلاحاته في نوعية وعدد الخرجين عليه، ومافشى في الوسط الباتني من معارف وممارسات دينية وتعبدية وحتى وعي إجتماعي تعدى إلى السياسي بطريقة غير مباشرة.

لقد كانت محصلة جهود الشيخ الطاهر مسعودان الحركاتي بالغة الأهمية و ذات قيمة مضافة للمشهد الثقافي والاجتماعي في الأوراس، جاءت في وقتها فبذلك يكون قد ضبط بوصلة الزمن في الأوراس على زمن النهضة والإصلاح في الجزائر، والتي لم يكن للأوراس أن يتح لها هذه الفرصة لولا تلك الجهود المتقدمة التي استأنفها الشيخ مع بداية عقد العشرينات وبنفس الخصائص التي عرفتها جل مناطق الثورة الإصلاحية في البلاد.

أما الشيخ علي مدور بن شكشوك فقد كان يحارب رواسب التخلف والتقليد في وسط أمة تعضدها بيئة مغلقة طبيعيا لا يتسرب إليها الا النزر اليسير من الجديد الذي لا يظهر تأثيره مع رتابة وركود مشهد ثقافي واجتماعي ألفتة ساكنة وارتاخت إليه في كسل وخمول، فراح الشيخ بدروسه المسجدية وموقعه كإمام مستثمرا صورة التبجيل للإمام عند مجتمعه بيني فهوم جديدة بخطة تعليمية متطورة مستندا على ماحصله من تكوينه الباديسي، فكانت دروسه حية معاشة تعكس قضايا الناس في هذه البيئة البسيطة، فبذلك غط حاجتهم التعليمية والثقافية بمثل ماكان يحدث مع الأئمة الكبار في الحواضر والمدن المعروفة.

ولم يقتصر هذا النوع من الجهد عند هذين الميثالين، بل وجدنا من خلال تتبعنا لأغلب مناطق الأوراس أن العقوت التي تلت خطور ج ع م ج كثرت بالعديد من الرجال الذين تولوا التعليم المسجدي بمساجد مناطقهم وأحدثوا من خلالها ثورة تعليمية وإصلاحية كانت نتائجها جليلة في التحولات التي عرفتها الأوراس.

في فضاء تعليميا آخر هو المدرسة برز رواد للتعليم الإصلاحي، من خلال جهودهم المتميزة إن على مستوى توسيعه جغرافيا في استراتيجية لتعميمه وإيصاله لكل أبناء المجتمع الأوراسي أو على مستوى ممارسته كفعل تعليمي فعال وناجح يأخذ بخصائص ورؤية التعليم الإصلاحي لجمعية العلماء من حيث العمارة أو التأثير أو الإدارة والتسيير أو المعارف والبرامج والطريقة .

فكان عمر درودور بحركيته واجتهاده الفضل الكبير في توسيعها أو نشرها في كل مداشر وقرى الأوراس حتى أصبحت جزء من المشهد الاجتماعي للمنطقة، وقد كان إلى جنبه ثلة من الرفاق والأصحاب كالغسيري وماله من فضل في التدريس والتكوين الكشفي الذي تجاوز به الأوراس إلى كثير من مناطق الوطن مساهما ببصمة بارزة في هذا التطور والنجاح الذي صنعه جمعية العلماء على صعيد التعليم في مجتمعها، إضافة إلى أحمد السرحاني وأحمد بن السعدي السرحاني وسعد حب الدين وآخرون كثيرون من الأوراسيين، الذين ساهموا في معركة العلم والتعليم ضد الجهل والإدارة ولم تثنى عزائمهم فناعتهم وواجبهم تجاه مجتمعهم، بل كان نضالهم رمز التحدي للإدارة بكل ماأتيت من غطرسة وظلم، كان كل واحد منهم مساهمته المتميزة التي اجتمعت مع جهودات الآخرين لتثري المشهد التعليمي وتعاون على ازاحة الجهل والتخلف وتحل محله انوار العلم والوعي.

هكذا كانت المدرسة تنتصب بشموغ وعز في المشهد الثقافي والاجتماعي بالاوراس، بإيجابية بين أثر وتفاعل راسمة تحولات جوهرية في الذهنية الأوراسية، والتي كانت سببا في تدعيم طباع الثورة ومحاربة الاستعمار، إذا لوحظ على هذه المدرسة هذا القدر من الإيجابية فإن الجيئات الأخرى من منظمات دينية واحزاب للحركة الوطنية

الخاتمة

كانت تريد أن يكون لها قسطها أو مساهمتها بها في المجتمع فظهرت مدارسهم بعنوان قريب أو يماثل برامج جمعية العلماء.

وبهذا تدعم التعليم وتأطر بكل مؤسسات المجتمع وأصبح ظاهرة ثقافية بالمجتمع بعد أن جفف الاستعمار ولعقود طويلة المشهد منه، وحول نهار المجتمع المسلم ليل استعماري .

الملاحق

الملاحق

أهم الزوايا بالأوراس

مكان تواجدها	طريقتها	الزاوية
تبرماسين، جبل احمر خدو، أولاد أيوب	الرحمانية	الشيخ الصادق بن الحاج (سيدي المصمودي)
غوفي - غسيرة	الرحمانية	الشيخ احمد بن صادق
تازولت في الدشرة الحمراء (أريس)	الرحمانية	الشيخ المكي
ثنية العابد	الرحمانية	الشيخ محمد بن بلقاسم سي الحاج
ثلاث (واد عبيدي)	الرحمانية	الشيخ خرشي خناش
تكوت	الرحمانية	الشيخ عبد السلام
كيمل	الرحمانية	الشيخ سيدي فتح الله
الحجاج دائرة أريس	الرحمانية	الشيخ بن عزة
جبل بوعريف	الرحمانية	آل عبد الصمد
الرحبات	الرحمانية	سيدي الصديق بن قاسم بن شافع
دوار الرحبات	الرحمانية	الشيخ محمد بن عبد الكريم
ملال	الرحمانية	زاوية بن الحاج
حيد وسه	الرحمانية	احمد بن ملطس
دوار أولاد عوف ، عين التوتة	الرحمانية	أولاد سي السعيد
قرقور ، سريانة	الرحمانية	سيدي احمد بن بوزيد
بتاشيورين جبل ارفاعة	الرحمانية	أولاد مرواني
خنقة سيدي ناجي	الرحمانية	زاوية حفيظي
الأصنام	الرحمانية	زاوية سيدي محمد بالقاضي
قرقور	الرحمانية	زاوية قرقور
طولقة	الرحمانية	زاوية سي علي بن عثمان (آل عثمان)
أريس	الرحمانية	زاوية صالحي
بيظام	الرحمانية	زاوية سي علي بن رمضان
دوار عين العصافر	الرحمانية	زاوية عين أشفاعة
امدوكال	الرحمانية	زاوية سيدي المقراني

الملاحق

امدوكال	الرحمانية	زاوية سيدي محمد الحاج
عين زعطوط	الرحمانية	زاوية بن حمزة
جبل ششار قرب خنشلة	الرحمانية	زاوية خيران
حيدوس ومدرونة (ثنية العابد)	الأحباب	الزاوية الدردورية
خنقة سيدي ناجي وجبل ششار	الناصرية	زاوية نصري
منعه	القادرية	زاوية بن عباس

الملحق رقم: 01

DEUXIEME PARTIE

A.- RENSEIGNEMENTS GENERAUX

Commune de Constantine
 Arrondissement de Batna
 Commune MIXTE
 LEZMA

CORNEILLE, le 12 Aout 1937

L'Administrateur de la Commune mixte a l'honneur d'adresser à Monsieur le Préfet (affaires indigènes) à Constantine les pièces ci-après détaillées, savoir :

Etat du RELEVÉ

de 1936 à 1936 = 753 uni

BORDEREAU D'ENVOI DE PIÈCES

DÉSIGNATION DES PIÈCES	OMBRE de PIÈCES	OBSERVATIONS
Alimentation des indigènes		Deposé à la Préfecture le 16 Février 1937
Statistique		18 AVR. 1937
questionnaire	1	D

de 6.000 fr de revenus)
 à 6.000 fr de revenus)
 100 à 4.000 fr de revenus)
 de 2.000 fr de revenus)
 de 2.000 fr de revenus)

L'Administrateur,

[Signature]

,905

annuel)

depuis 1934 une diminution régulière du nombre

¹- Archives de Constantine, départements de laures, AN67, 1937.

PREMIERE PARTIE

A.- RENSEIGNEMENTS GENERAUX

Commune Mixte du BALEZMA	
Population indigène :	
Recensement 1926	43.873
" 1931	47.381
" 1936	51.410
Annuelle d'accroissement :	$\frac{\text{Recensement de 1936} - \text{1926}}{10} = 753 \text{ unités}$
Nombre de familles indigènes	8.423
Nombre moyen de personnes composant chaque famille (quotient de la population indigène 1936 par le nombre de familles	6
Composition sociale des familles :	
} très aisées	27 (plus de 6.000 fs de revenus)
} aisées	100 (jusqu'à 6.000 fs de revenus)
} de condition moyenne	1.467 (de 2.000 à 4.000 fs de revenus)
} pauvres	5.383 (moins de 2.000 fs de revenus)
} très pauvres	2.000 (moins de 2.000 fs de revenus)
Nombre de naissances annuelles :	
1927	1.366
1928	1.437
1929	1.591
1930	1.988
1931	2.068
1932	1.628
1933	2.076
1934	2.263
1935	2.202
1936	2.442
Total ...	19.059
Moyenne annuelle des naissances :	$\frac{19.059}{10} = 1.905$
Moyenne annuelle de décès : (Moyenne des 5 dernières années)	
Enfants de 1 jour à 1 an	197
" de 1 an à 10 ans	386
" de 10 à 20 ans	82
au-dessus de 20 ans	539
REMARQUE ...	On constate depuis 1934 une diminution très sensible et régulière du nombre de décès.

/.....

consommation du matériel de
station sur les causes
principales de la mortalité
infantile
 Hygiène générale déficiente- Logement insalu-
 bre- Vices et déféctuosité de l'alimentation
 quelquefois insuffisante- Usage de l'eau non
 potable- Syphilis- Paludisme- Ces deux mala-
 dies entraînent la mortalité- A noter une
 diminution de la mortalité depuis que la
 lutte antisyphilitique a été entreprise dans
 la Commune.

conditions générales d'ha-
bitat.....
 L'habitat indigène est modeste dans la commune
 Les constructions sont édifiées en pierre
 avec toiture en tuiles, par les familles ai-
 sées et moyennes- Les familles pauvres em-
 ploient le pisé ou le torchis avec toit de
 dattes- La tente n'est pas employée- La popula-
 tion est sédentarisée.
 Dans les villages, les indigènes vivent dans
 des habitations construites à l'européenne.

B.- RESSOURCES CHEZ LES HABITANTS

Productions végétales
 (quantités annuelles) :

Céréales (moyenne des 5 dernières années)	{	Blé dur = 43.585 quintaux
		Blé tendre = 2.500 quintaux
		Maïs = 570 quintaux
		Orge = 158.310 quintaux
		Sorghos = néant

<u>autres produits végé-</u> <u>taux</u>	{	Olives = 7 hectares
		Figues = 400 quintaux
		Pommes de terre = 1.275 quintaux
		Dattes = néant

Productions animales Elevage :

Chevaux = 2.689
Mulets = 1.370
Ânes = 5.383
Bœufs = 4.425
Moutons = 57.702

ressources (en argent) pro-
venant de la vente, en dehors
de la Commune, de la partie
non consommée des produits
végétaux :

a) Céréales Les indigènes de la région vendent très peu
 céréales- La production est juste nécessaire
 à leur consommation.

autres produits végétaux (néant)
 consommation sur place
 Olives
 Légumes divers ... Pommes de terre, oignons, navets- Dans les
 Centres de Gornelle, Ras-el(aïoun, Bernelle
 les indigènes en comptent en association
 avec les colons.

Revenus en argent provenant de la vente, en dehors de la commune, de la partie non consommée des produits animaux :

Bétail Bénéfices sur les boeufs : 10.000 Frs
Bénéfices sur les moutons: 300.000 frs

Ressources provenant du travail local (industries, mines, artisanat, exploitations non prévues précédemment)- Evaluation

Nombre de colons européens dans la commune : 95

Il n'existe aucune industrie dans la Commune Mixte du Belezma, les quelques mines exploitables sont arrêtées depuis de nombreuses années- L'indigène ne trouve à s'employer que comme ouvrier agricole chez les colons, sur les chantiers de la commune Mixte, des ponts et chaussées et de quelques entrepreneurs de travaux publics. Beaucoup sont obligés d'aller chercher du travail dans le Tell et à l'époque de la moisson d'orge se rendent dans le S ...

Salaires des ouvriers agricoles : 800.000 Frs
Salaires des ouvriers journaliers sur les chantiers, environ 500.000 Frs

approximative des salaires annuels gagnés par les indigènes travaillant comme Khammas ou ouvriers agricoles chez les colons européens et indigènes dans les industries locales, les mines, les chantiers de travaux, par la vente de produits du sol autres que ceux énumérés ci-dessus (liège, diés, racines de buis, bois de chauffage), par la vente des produits de l'artisanat local (poteries, nattes, tapis, bois travaillé)
Appréciation de la totalité des ressources énoncées en 13^o, 14^o, 15^o, 16^o et moyenne par habitant -

Ressources provenant du travail effectué en dehors de la commune - Exode vers la Métropole- moyenne annuelle des départs au cours des 10 dernières années- moyenne annuelle des salaires envoyés ou rapportés par les émigrants.

L'exode vers la métropole commence à s'amplifier.
Ouvriers partis au cours de l'année
1936 : 302 - Au cours du 1er Trimestre
1937 : 284

DEUXIEME PARTIE

ALIMENTATION des INDIGENES

Prendre pour base de la consommation la famille de 6 personnes uniquement pour le paragraphe 2-

- 1/ Nombre de repas quotidiens : Deux
- 2/ Heure des repas 9 heures - 18 heures
- 3/ Quel est le repas le plus copieux Le repas du soir est le plus copieux
- 4/ Composition la plus fréquente du repas principal Gouscous préparé avec du lait. Le repas du matin se compose de galette d'orge ou de blé suivant la situation de la famille. Il est à noter que les gens de la plaine se nourrissent de blé, d'orge, de maïs, de talghouda, et quelquefois de riz- Ceux de la montagne se nourrissent de farine de gland, d'artichauds et de oardes sauvages. Ceux qui ont l'avan-

.....	Très peu
.....	beurre de brebis consommé par les familles assez aisées
Graisse de mouton	20 grammes
" de bœuf	Jamais
Figues sèches	Très peu
Dattes	La qualité forment les dattes écrasées seulement
Pommes de terre	Par famille disposant d'un jardin
Légumineuses	Fèves principalement
Légumes divers	Oignons, courges, tomates, oserdes sauvages piment -
Epices	Poivre rouge- piment
Pâtes alimentaires faites de blé dur	"frio" dans la soupe
Lait de vache, de brebis, de chèvre, de chamelle.....	Consommé comme boisson ou comme assaisonnement (petit lait)
Sucre	Très peu
Thé	Famille aisée
Café	Très rarement

En tenant compte des résultats précédents indiquer les quantités d'aliments de différentes catégories consommés en 24 heures par un adulte dans un cas type :

Hydrate de carbone (galette, semoule, sucre)	{ galette 400 grammes { couscous 250 grammes { figues 100 grammes { sucre 20 grammes
Corps gras (huile, graisse, beurre)	20 grammes
Viande (lorsqu'il y en a)..	100 grammes

Déduire des indications précédentes et des autres données recueillies une idée des rations quotidiennes :

- 2) alimentation de l'enfant en bas âge (donner une idée de leur mode d'alimentation). Les enfants plus âgés ont-ils une alimentation différente de celle des adultes ? Indiquer les particularités et essayer de chiffrer la ration de 24 heures d'un enfant de 8 ans
- B) Alimentation de l'enfant
C) Alimentation de l'adulte

L'alimentation du bébé n'est pas limitée. La maman donne du lait chaque fois que l'enfant désire le sein. Aucune précaution n'est prise. L'enfant sevré mange n'importe quoi, sa nourriture n'est pas surveillée. Les enfants plus âgés n'ont pas une alimentation différente des grandes personnes. Ils prennent un peu plus de lait quand il y en a. Il n'est pas possible de chiffrer la ration qui est extrêmement variable. Règle générale : le bébé qui est allaité se porte souvent très bien. L'enfant au contraire ne profite pas parce que son alimentation est viciée et peu importante.

/...

<p><u>La région consomment-ils feuilles, tiges, baies ou autres de plantes non cultivées? ou indiquer la nature</u></p>	<p>Oui- ils consomment des cardons pissenlits, talghoudas ou truffes sauve- ges réduit en max farine- artichauts sauvages cuits à l'eau et au sel- Le tout est arrosé de petit lait.</p>
<p>L'ingestion de ces produits provoque-t-elle des accidents dans l'organisme - De quel ordre? (consulter le médecin)</p>	<p>Non, en général -</p>
<p>14/ <u>Arbres fruitiers cultivés par les indigènes</u> Époque de la maturité</p>	<p>figuiers, poiriers, abricotiers, gren- adiers, noyers figuiers en septembre poiriers en Juillet-Août grenades en septembre Noix en Octobre Abricots en Mai</p>
<p>Quantité de fruits frais (y compris les figues de barba- rie) consommés quotidiennement par la famille type -</p>	<p>Consommation de fruits très variables- Marchés sont peu fournis.</p>
<p>15/ <u>Les indigènes de votre Com- mune ont-ils des ruches?</u></p>	<p>Oui</p>
<p>16/ <u>Quantité de miel consommée quotidiennement par la fa- mille type :</u></p>	<p>Très négligeable et seulement dans les grandes occasions.</p>
<p>17/ <u>Époque des gros travaux</u></p>	<p>Juillet - Août</p>
<p>18/ <u>À l'époque de ces travaux les indigènes qui les effec- tuent consomment-ils des quantités supplémentaires de nourriture</u></p>	<p>Oui, car ils sont alors nourris par l'employeur.</p>
<p>19/ <u>À quel pourcentage estimez- vous l'augmentation de nour- riture due aux travaux peni- bles</u></p>	<p>50 % environ- L'ouvrier agricole mange plus régulièrement.</p>
<p>20/ <u>Troubles physiologiques dus à l'alimentation</u></p>	<p>Troubles du foie, estomac, intestin, (entérite)</p>
<p>21/ <u>Indiquer ici toutes particu- larités concernant votre Com- mune tant au point de vue des conditions d'existence que du mode d'alimentation</u></p>	<p>située dans la région des Hauts Plateaux la Commune Mixte du Belezma est une Com- mune pauvre. Les principales ressources de ses habitants sont la culture des cé- réales (blé et orge) et l'élevage. Les mauvaises récoltes qui se succèdent depuis plusieurs années ont épuisé les</p>

et l'ont acculé à la misère.

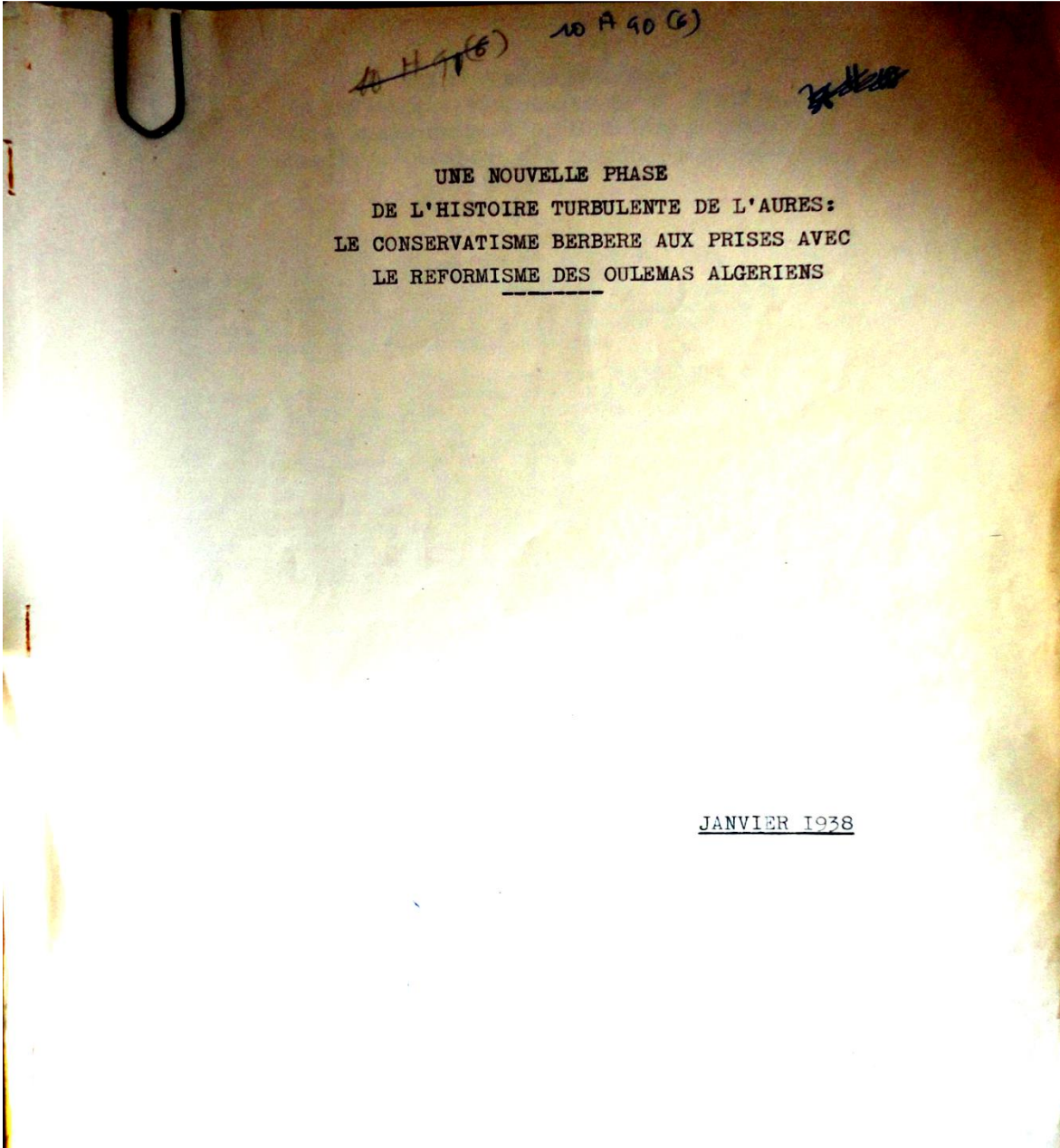
Beaucoup de familles anciennement aisées vivent actuellement dans une gêne très sensible qui ne diminue pas.

Rien de spécial à noter en ce qui concerne l'alimentation qui reste et demeure extrêmement simple.//.

CORNÉLIE, le 15 AVRIL 1937.

L'ADMINISTRATEUR.





الملحق رقم 05 : مرحلة جديدة من التاريخ المضطرب للأوراس 1938¹

¹- ANOM 10H90 Une nouvelle phase de l'histoire turbulente de l'Aurès le conservatisme Berbères aux prises avec le réformisme des Olemas algériens

**UNE NOUVELLE PHASE de
l'Histoire turbulente de l' AURES :
Le conservatisme berbère aux prises
avec le réformisme des Oulémas Algériens**

Au cours de l'année 1957, tandis que se propageaient dans l'ensemble de l'Algérie les mouvements que l'on sait, s'est développée dans l'AURES une agitation des plus vives, ayant même pu donner à craindre pour le maintien de l'ordre dans cette partie du territoire et à l'origine de laquelle se place l'action des Oulémas Algériens réformistes.

Par les aspects qu'elle a revêtus, par les tendances qu'elle a révélées, par les intérêts matériels ou moraux qu'elle a mis en jeu, par les buts, proches ou lointains, qu'elle a visés, cette agitation s'apparente singulièrement, toutes proportions gardées, à certaines de celles dont les périodes troubles de l'histoire du Maghreb nous ont fourni de nombreux exemples. Comme au cours de celles-ci, on se trouve là en présence des aspirations diverses et souvent contradictoires de l'âme berbère aux prises avec les nécessités des temps nouveaux, on assiste à la lutte éternelle du particularisme si vivace chez ce peuple traditionaliste, ombrageux et demeuré lui-même à travers tous ses avatars, encore que souvent versatile et assoiffé de progrès, contre les forces adverses de l'évolution et du transformisme unificateur :

A ce titre, cette nouvelle phase de l'histoire turbulente de l'AURES mérite, semble-t-il, d'être étudiée. C'est le but que se propose la présente note.

En examinant de près les conditions et les circonstances du conflit dont le tableau nous est offert, elle s'attachera, d'autre part, à mettre en lumière les procédés adoptés par les Oulémas algériens réformistes dans leur entreprise de main mise sur l'opinion musulmane algérienne et fera ressortir, en particulier, ceux auxquels ils ont eu recours pour pénétrer dans une région comme l'AURES et y exécuter leur programme. Il y a là une expérience des plus instructives et les résultats obtenus, en un délai relativement court, par ceux en qui on s'accorde généralement à voir les initiateurs de bouleversements profonds dans les assises spirituelles du monde musulman Nord Africain ne manqueront pas de suggérer quelques réflexions.

. . .

I.- Etat politique et religieux de l'AURES antérieurement à l'apparition du réformisme.

Région nettement à part de l'ensemble du territoire algérien, par sa situation et sa configuration géographique, ainsi que par le caractère de ses habitants, les "chaouias", proches parents des Kabyles et comme eux non assimilés par le conquérant arabe, l'AURES a joué dans l'histoire du Maghreb un rôle particulier.

Bastion montagneux à la limite des Hauts Plateaux et du désert, il a été à la fois un bloc de résistance contre l'envahisseur étranger et un refuge pour les éléments insoumis des pays environnants. En préservant sa propre personnalité et celle de ses

;.....

de ses frères de race, il assurait ainsi la pérennité de ses traditions et devenait une sorte de foyer où le conservatisme berbère pouvait se retremper. En même temps, il formait comme une caisse de résonance où les ondes propagées de quelque point de la Berbérie venaient se répercuter et souvent si les vibrations locales étaient en synchronisme, s'amplifier.

Cette vocation s'est affirmée au cours des siècles. Elle a été illustrée par de nombreux épisodes allant des campagnes des Généraux romains contre les bandes Numides de Jugurtha et de Tacfarinas, et des mesures que durent adopter l'Empereur et le Légat pour surveiller et contenir la montagne aurasiennne à l'expédition de Salomon contre Iabdas; des luttes de Kocella et de la Kahena contre les contingents arabes de Okba ben Nafi et de Hassan ibn el Noman aux résistances opposées à nos colonnes, en 1844, 1845, 1848, 1849, 1850 et aux insurrections de 1859 et 1879.

La répression de la dernière insurrection et l'établissement dans l'ensemble de l'Algérie de la mix française avaient pu donner à penser que le chapitre de ces effervescences était clos. En effet, les incidents survenus en 1916 dans la région de BATNA et les communes mixtes d'AIN TOUTA, BARIKA et du BELEZMA n'avaient que peu de répercussions dans l'AURES proprement dit. Malgré les excitations de quelques personnages, tablant sur le succès de nos adversaires, les réactions des chaouias s'étaient bornées à des défections d'appelés, à des oppositions au recrutement de travail leurs pour les usines de la Métropole, et à quelques actes de banditisme. L'envoi d'un détachement dans le Sud de la montagne avait suffi pour remettre les choses dans l'ordre.

o
o

Traditionnalistes et attachés aux souvenirs de leur indépendance comme ils sont demeurés fidèles à leur langue originale, les chaouias de l'AURES ont conservé à peu de chose près leur organisation sociale ancienne. Encore que la fraction corresponde à une réalité plus grande, la forme tribale a subsisté chez eux jusqu'à nos jours. On trouve ainsi dans l'AURES un certain nombre de grandes tribus dont la cohésion, assez faible en temps ordinaire, ne manque pas de se manifester en cas d'événements importants.

Comme dans les autres groupements berbères de l'Afrique du Nord, l'absence de véritables chefs est caractéristique et les distingués de l'élément arabe si fortement hiérarchisé et encadré. En dehors de quelques familles de Notables - pour la plupart d'appartenance maraboutique - et jouissant d'un prestige plus ou moins grand, le principe démocratique est appliqué. La véritable autorité est celle de la Djemaâ.

Les Djemaâs officielles de douars, de même que les Caïds nommés, ont été imposées par l'Administration Française mais, de même que le Caïd régulièrement investi n'a pas fait disparaître l'influence de certains personnages sans qualité légale, de même à côté de la Djemaâ du douar continuent à fonctionner, plus ou moins ouvertement les anciennes djemaâs des Institutions berbères. Celles-ci, réunies à certaines occasions et constituées soit en assemblée de village, soit en assemblée de fraction ou de tribu, s'attachent à faire revivre la tradition, voire même à appliquer la véritable législation coutumière, transmise de génération en génération, que constitue le "Kanoum".

.....

Dans son livre sur la "formation des cités chez les sédentaires de l'Algérie", MASQUERAY cite des exemples de Kounous recueillis par lui dans l'Aurès, notamment à MENAË, CHIR et TAGOUST. Ces exemples pourraient se multiplier. Ils montreraient combien l'esprit municipal est demeuré vivace chez ces populations repliées sur elles-mêmes et protégées contre les atteintes de l'extérieur par la nature abrupte et tourmentée des leurs montagnes.

Au point de vue religieux, l'Aurès, convertie de force à l'Islam une première fois après la défaite de la Kahena en 703, passé au Kharedjisme, puis revenu à l'Islam orthodoxe après l'échec de l'Homme à l'âne en 945, fut soumis, de même que l'ensemble de l'Afrique du Nord, à l'emprise progressive du maraboutisme pendant les siècles qui suivirent. Pénétrant peu à peu dans les villages de la montagne, Marabouts et Khouans, affiliés aux grandes confréries ou fondateurs de nouvelles écoles, y installaient des zaouïas qui devenaient les centres de la vie spirituelle et des postes de commandement d'où partaient des directives de tous ordres. Ce sont ces personnages, chioukh, mokaddim ou simples rokkab que nous devions trouver devant nous lors de notre arrivée dans le pays et qui furent les instigateurs de la plupart des mouvements réactionnels auxquels nous eûmes à faire face. Comme dans le reste de l'Algérie, ils ne devaient du reste, pas tarder à se rendre compte que, loin de nuire à leurs intérêts, notre Administration ne ferait, au contraire, que consolider leur situation en leur permettant d'exercer en toute quiétude et sans avoir à craindre les vicissitudes des époques troubles antérieures, leurs pratiques si particulières.

Trois grandes confréries se partageaient ainsi la clientèle aurésienne : RAHMANYA, KADRYA, CHADELYA. Il faut y ajouter une quatrième Confrérie, d'importance moindre, mais appelée, comme on le verra par la suite, à jouer un certain rôle dans la vie spirituelle de l'Aurès, les DERDOURYA ou HABBAB, dérivation locale de la Grande Congrégation des RAHMANYA.

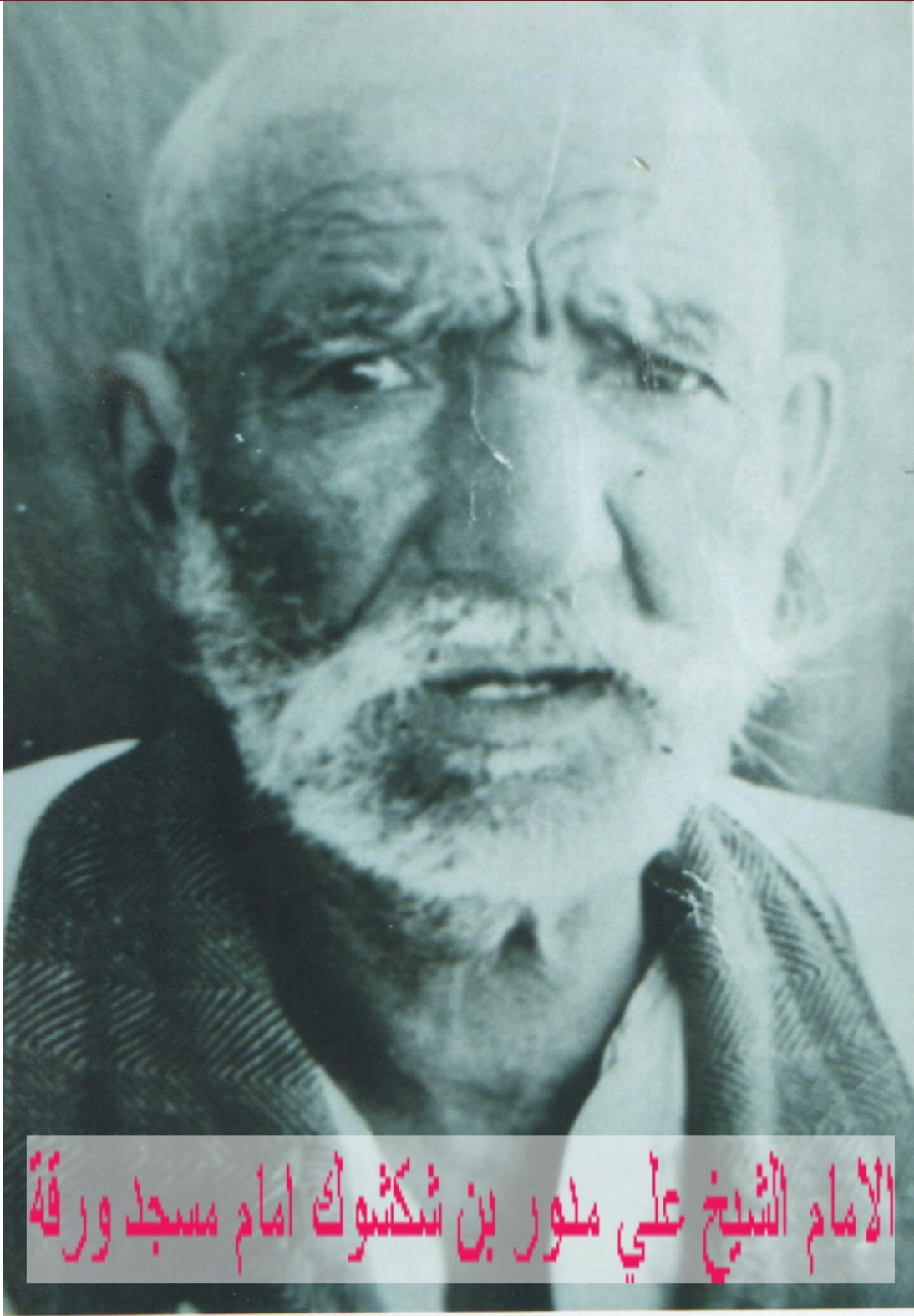
Les principales zaouïas dépendant de ces Confréries sont indiquées ci-dessous :

Confrérie	Siège de la Zaouïa	Cheikh ou Moktadem	Nombre approximatif d'adeptes dans l'AURES
RAHMANYA	Tibermacine	SI GHAZALI BEN SIDI TAHAR	10.000
	Teniet-el-Abed	LOUAYOU SI TAHAR BEN SI MOHAMMED BEN SI BELKACEM	3.000
	El-Hamra	SI MOHAMMED EL MEKKI	
	SHOUFI	AHMED BEN SADDOK BEN SIDI MOUSSA	
	TLEts	KHETTACHE BACHIR	500
KADRYAS	Haïdous	LEMMOURI SI ABDERRAHMANE	200
	Mença	BENABBES AMOR BEN SMAIL	Un millier
CHADELYAS	Khanga Sidi		
DERDOURYAS	Nadji-Tanza		
	Médrouna-Haidous	DERDOURI MOHAMMED BEN MANSOUR	Quelques centaines

.....

وعا هو نظام الحركة بأوراس ،
 لي يكن احد فكلما جبال اوراس الجاهلة العقيدة بانها الاستعجاب ^{بطلب الدولة}
 مستتفة من تومها الطويل العميق في مدة وجيزة لا تتجاوز الثلاث سنوات بعد التفت
 ركني فكلما ^{منها} شقرا يد من بالسلام ويحتز بالقومية ويفخر بالعربية
 لغة الوحي الحمدي والدين الالهي المقروض على خلقه لسريع الانقلاب
 وسريع التأثير بالروح الدينية الحقة والوطنية الصادقة ، فليعلم شيئا
 الحزبان ان انه لا حياة له الا حياة لغة الوحي ولا عزة له الا اذا اعترف قوميته
 ولا سعادة له الا برجوعه الى دينه الفوج ، فهذه جبال اوراس قد علت
 فيها صرخات من انبثاقه ، ولدهم من تلامذة الشيخ عبد الحميد بن باديس (رضي
 في هذه النظرة الأخيرة اذ بها تقوم فومة روح واحد تسترد ما فقدت ، من كسوف
 قاسم سرياني ^{بفضل} الامتداد ^{بأوراس} و ناديا بقومية الانفاس و ناديا بقومية حيدوس و ناديا
 بقومية (امر الكفاء) و ناديا بدمية آريس) اما المدان القروا لنته ففي غالب القري
 موحودة وهي اليوم تسعى في تحسينها على النطاق العسوي لمكتب حيدوس
 نانه يلخص بيني جدرانه رسالتهم ما يقرب من مئتين تلميذا صغيرا رشامهم بيلند
 رندوان الكبير ومعهم اربعين تلميذا من الاقربان ^{من الاقربان} على رئيس شعبته جميع
 العلماء وتلميذ الشيخ عبد الحميد الأخ محمد دورق وناصنت مساجد
 منها مسجد (الغسيرة) ذو الحقيقتين ستكون السفلى بمولم مدرسة علمية
 سينتوي القدر بين فيها القروى الأخ محمد اخوري الذي كان (سيدي في
 جوش روح الاصلاح في شبيوة ، وعقدت شعبة جمعية العلماء في يوم
 الاربعاء ^{أروى} اجتماعا تشهد جبال اوراس ، مثل في السائق
 حضرة مايفر من خمسة آلاف مسلم من سائر توابعه وانتارج
 وخطب فيه الخطباء وانشدت فيه الاناشيد الوطنية وتروئت فيه
 آيات القرآنية على نظام هائل وروعد من بانته وغيرها وعود
 ان كوهن كسند اعود ، فاذن ^{من الاجتماع} وافس فيه ^{كمن} كان ^{ولا}

الملحق رقم 06 : تقرير الغسيري عن الإصلاح في الاوراس



الملحق رقم 07

الملاحق



الملحق رقم 08: مواطن النشاط الإصلاحي سنة 1954.



الملحق رقم 09 : تواجد الزوايا سنة 1954 (الشرق الجزائري)

ARRONDISSEMENT DE BATA

Dénomination	Date de création	Nbre d'adhésifs ou de membres	Observations
AIN-TOUZA (mixte)			
Société El Houada	Nov. 1932	" (1)	Située à El Kantara.
Ecole d'El Houada	"	"	- " -
Culturelle musulmane	"	"	A Mac-Mahon.
Cercle Nadi Es Saada	Oct. 1934	"	A El Kantara, supprimé en Mai 1937 et remplacé par le Nadi Ettebat (Cercle de la Persévérance) placé sous le contrôle total des Ulémas réformistes
Cercle Nadi Ettaoufik (Cercle du Succès)	Nov. 1937	"	Au douar Djemmerah.
Cercle Nadi Foukaha.	Sept. 1937	"	A El Kantara.
Cercle Nadi el Islah	Juin 1937	"	Douar Tilata.
Cercle Nadi el Hayatt	Février 36	"	Douar Ain-Latout. Sympathise avec Ulémas.
Cercle Nadi el Islah	Nov. 1935	"	Douar Djebel Groum. Sympathise av. Ulémas.
KHENCHELA (P.E.)			
Cercle Franco-arabe ou Nadi es Salah.	Août 1935	"	Organisé à l'origine par la Fédération des Elus. Réunions régulières le mercredi de chaque semaine, de 14 à 19 h. Les dissertations religieuses sont toujours suivies de discussions d'ordre politique.
Ecole normale du Nadi Es Salah	"		(Particulièrement bien organisée. Dirigée par deux "tolbas".
7 écoles	antérieurement à Oct. 1936	240	(Régulièrement autorisées.
6 écoles	Depuis Oct. 1936		(Non autorisées.

....

(1) Il n'a été porté que le nombre des adhérents officiellement connus. L'indication " exprime l'incertitude quant à ce nombre.

الملحق رقم 10: شعب مدارس خلايا نوادي¹

Annuaire de l'Algérie - 27 -

Dénomination	Date de Création	Nombre d'élèves ou de membres	Observations
Comité local "Chaaba ed Bouroussia"	Juil. 1936	10	A Haïdous, présidée par BERROUKI Amor, Secrétaire de la Section locale du Congrès musulman, assisté d'anciens élèves du cheikh BERRADIS.
Nadi Ech Chaaba	Févr. 1937	"	A Haïdous, créé par le Comité fondé par l'agitateur BERROUKI Amor
Nadi El Irouad d'Oum el Kha.	début 1937	"	A Bouzar Bouzina - d'
Nadi el Ialah de Bouader.	Juil. 1937	"	A Bouzar Chir - d'
Nadi el Ialah de Tagoust	début 1937	"	A Bouzar Bouzina - d'
Nadi El Irouad	1936	"	A Arfis - d'
Nadi Tifelfel	début 1937	"	A Tifelfel
Association Culturelle Musulmane de Chassira	début 1937	"	A Bouffif
Association Cult. Mme d'Oued Abdi	Mars 1937	"	A Haïdous, présidée par BERROUKI Amor.
Assoc. Cult. Musulmane d'Oum el Kha	début 1937	"	A Bouzina. Centre de propagande.
Assoc. Cult. Musulmane de Zellatou	début 1937	"	A Inoughissen (d'ouar Zellatou)
4 écoles coraniques.	"	"	Annexées aux associations: a) Quadria de Menaa et Bouzina - b) Derrouria d'Oued Abdi - c) Rahmania de Haïdous d) Rahmania de Tietou e) Rahmania d'Oued Abied.
12 écoles coraniques.	"	"	Aux douars Oued Lebied, Chassira et Zellatou.
Cercle "Nadi el Ialah"	Oct. 1935	"	Bouzar Bouzina. Certains membres sont des partisans convaincus de l'Assoc. des Ulama.
Cercle Nadi Takkadoun.	Nov. 1937	"	Bouzar Bouzina

Arrondissement de BATNA

Dénomination	Date de création	Nombre d'élèves ou de membres	OBSERVATIONS
BATNA (P.E.) : Cercle Hadi el Ahtida	Sept. 1927	"	douar Ghassira.
AIN EL KSAR (mixte) : Cultuelle musulmane d'El Madher (Djemaa el Islamia el Madher).	Juil. 1927	"	Les membres sympathisent également avec les élus musulmans.
: Cultuelle Musulmane de Chemora	Déc. 1926	"	Au douar Chemora. Le président est un des militants de l'Association des Ulémas.
KRENCHELA (mixte) : Association "Cultuelle Musulmane de Yabous".	Août 1925	"	Au douar Yabous. Plusieurs membres sont des partisans du cheikh BENBADIS.
BARIEA (mixte) : Hadi el Islah	Mai 1927	"	Une école autorisée en août 1924 fonctionne dans les locaux de ce cercle. Elle est dirigée par un ancien élève du cheikh BENBADIS, en même temps partisan convaincu du Dr. SAADAN et groupe 26 élèves.
: Cercle Hadi Bah	Nov. 1925	"	
: Ecole coranique			
: l'école "Soyez"	Juil. 1926	10	Dirigée en fait par un taleb sans autorisation mais inscrite au nom d'un autre autorisé en 1921
: Jeunes musulmans	Janv. 1927	"	
BATNA (P.E.) : Section locale	"	"	Siège situé dans la mosquée de Batna, présidée par l'imam MESSAOUDANI, délégué of. de l'Association pour la région de Batna, sympathisant des élus musulmans de la région avec la plupart des autres membres de l'association dont plusieurs sont conseillers municipaux.
: Ecole	"	20	Située dans une mosquée privée de Batna, dirigée par MESSAOUDANI précité.
EDERSA.	Juil. 1927	25	Filiale de la Djemaa Ettarbia ou Taalim de Constantine.

Arrondissement de BATHA - 51 -

Dénomination	Date de création	Nbre d'élèves ou de membres	OBSERVATIONS
BATHA (P.E.) Cercle franco-musulman Nadi el Islah.	1933	"	Plusieurs conférences y ont été faites par le cheikh MEBADI lui-même.
BISRA (P.E.) Groupement local	"	7	Gravité autour de EMEREDINE Mohamed, contrôleur Général de l'Association. Ne comprend pas d'élèves musulmans. Se réunit au Cercle Nadi Noh Chabab.
Société de bienfaisance "Yanet el Foukara".	1936	"	Dirigée par le Dr. SABANE et EMEREDINE Mohamed, Contrôl. de l'Association des Ulémas.
Cercle Nadi Noh Chabab.	Janv. 1935	"	Dirigé par le Dr. SABANE .
1 école coranique	Mai 1935	70	Adjointe au cercle précité. Dirigée par 2 tel bas dont un seul est autorisé depuis Septembre 1933.
Société de Boys-scouts.	"	"	Dirigée par le Dr. SABANE .
"Jeunes musulmans".	Mars 1937	"	Liaison avec les Ulémas réformistes.
Association Culturelle musulmane.	1934	"	Sentiments favorables à l'Association des Ulémas.
MELEMA (mixte) 2 écoles coraniques.	"	20	Au douar Mérouana. Autorisées. Non't pas été créées spécialement par les Ulémas mais fonctionnent sous leur inspiration.
Membres de l'Association ou sympathisants.	Janv. 1936	29	Dont 1 mekkaïem, 3 membres de djemad, 11 notables, 1 chouch de justice de paix, 6 membres de conseil de section de S.I.F., 3 cafiés.

AGGLOMERATION DE CONSTANTINE

- 20 -

Communes	Dénomination	Date de création	Nombre d'élèves ou de membres	OBSERVATIONS
TEHESSA P.E.	El Oustar el Djézairi.	Octobre 1937	"	Les membres se réunissent au "Cercle de la Jeunesse musulmane".
EL HILLA	Société "L'Éducation".	Juin 1938	"	Dirigée par le cheikh Larbi Tébessi, véritable section locale de l'Association des Ulémas.
AIN EL HILLA	Cercle de la Jeunesse musulmane (Nadi Choubane el Mouselmine).	Mars 1937	"	Totalement inféodé à l'Association des Ulémas, est présidé par le Cheikh Larbi TEHESSI; se fonde avec le Comité local du Congrès Musulman.
	Médresa de la Société "L'Éducation".	Juin 1938	250	Dirigée par le cheikh Larbi TEHESSI.
OUH EL BOUASSHI	Nadi Ettahdid (Cercle de l'Éducation).	Juillet 1937	"	Constitue la cellule locale des Ulémas.
CHATEAUDUN DU RHUMEL - P.E.	Cercle des Anciens Combattants musulmans.	1936	"	N'a pas tardé à manifester de la sympathie aux Ulémas.
	L'Éducatrice châteaudunoise.	Mai 1936	"	Sa création est due à l'initiative du cheikh MERRADIS.
CONSTANTINE P.E.	École coranique de l'Éducatrice châteaudunoise.	Mai 1936	150	Dirigée par 3 têtes bas autorisés depuis Mai 1936.
	École coranique.	"	"	Dirigée par 3 têtes bas sympathisant avec l'Association des Ulémas.
MORSOTT M.	Cultuelle musulmane de Morsott.	1936	"	Les membres sympathisent avec l'Association et sont en relations suivies avec les Ulémas de Tébessa.
	Cultuelle musulmane de Chairfontaine.	Octobre 1937	"	Section locale des Ulémas.
AIN BEIDA P.E.	Société El Kheira	Juillet 1937	"	Section locale des Ulémas.
	Section locale	1935	"	Section locale des Ulémas.

.....

Arrondissement de CONSTANTINE

Communes	Dénomination	Date de création	Nbre d'élèves ou de membres.	OBSERVATIONS
	Association "In-net el Foukara"	Décembre 1936	"	Sympathise avec les Ulémas et les Elus.
EL MILIA M.	Section locale	1935	"	
	Ecole "Ettahtib"	1937	20	
	Association des anciens élèves de l'Ecole indigène d'El Milia.	Mars 1937	400	Sympathisante.
EL MILIA	Cercle indigène	1937	"	Dirigé par le cheikh
AIN M'LILA M.	Section locale (constituée par l'Association "La Culturelle Musulmane".	Juin 1937	"	Organise ses réunions en accord avec la section locale du Congrès musulman. Utilise généralement pour ses conférences l'unique mosquée d'Ain-M'Lila, don du cheikh BERRADIS
	Ecole coranique "La vie de la Jeunesse"	Novembre 1937	40	
	Culturelle musulmane d'Ain M'Lila	Novembre 1934	"	Présidée par le cheikh Cheikh BERRADIS.
CHENOUA (P.E.)	Cercle Franco-arabe (devenu en 1938 "Cercle de la Fraternité")	Novembre 1938	"	
CHENOUA (Elise)	2 écoles coraniques.	Créées depuis de nombreuses années.	15	Peu importantes. N'ont pas été créées par l'Association des Ulémas, mais les tolbas qui y enseignent en sont des sympathisants connus.
CHENOUA (P.E.)	Société de Bien-être	Avril 1937	"	
CONSTANTINE P.E.	Section locale.	"	1.000	De nombreux membres adhèrent à différents groupements (Amicale des commerçants musulmans, Section locale du Congrès musulman, Jeunesses musulmanes algériennes).
CHENOUA (P.E.)	Association "Djemia Madinia"	Sept 1936	"	Contrôlée par la section locale des Ulémas.
	Société de boys-accots "Er Radja"	Mai 1936	"	
	Société artistique "Chahab el Fenni"	Avril 1937	"	Contrôlée par la section locale des Ulémas.
	Cours de la mosquée Sidi Lakhdar	1918	100	Le Cheikh BERRADIS y professe personnellement.

الملاحق

الملحق رقم 11: وثائق للشيخ عمر دردور

REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE
 MINISTRE DE L'ORIENTATION NATIONALE
 NOTICE DE RENSEIGNEMENTS

NOM: DEADOURI
 PRENOM: BELOUCEM dit AMOR
 NOM DE JEUNE-FILLE (pour les femmes mariées): _____
 DATE ET LIEU DE NAISSANCE: 13/10/1913 à HAÏDOUS - ARRIS
 ETAT CIVIL (marié - veuf - célibataire - divorcé): _____
 PROFESSION ACTUELLE: Directeur de l'institut islamique complémentaire - F
 ADRESSE PERSONNELLE: 49 Rue de la République - LAMBESE - BAH
 CHARGES DE FAMILLE (indiquer prénoms, date et lieu de naissance de chaque enfant)
DEADOURI Haba med SIRACHID 30/10/1944 à Lambèse - Fatima 3/6/46
Camblère - Abdelalam 1/1/1948 à Camblère - Abdelaziz 7/3/194
à Camblère Dalia 7/3/1952 à Camblère Hakem et Hamedik
29/5/1954 à Abdelhak Camblère - Abdelhak 7/5/1960 au Cair
 ETUDES PRIMAIRES POURSUIVIES:

Année	Médersa	Cours	Maître	Observations
1 ^{ère} 1929	Zawiya de Tolga	premier	El Hadj Abdallah el AKhdai	
2 ^{ème} 1930	" "	deuxième	Hakem el Darsadi	
3 ^{ème} 1931	" "	troisième	Abdelkhal el Habsouk	
4 ^{ème} 1932	" "	quatrième	Abbas Ben Hachmi	

ETUDES SECONDAIRES POURSUIVIES:

Année	Médersa	Cours	Maître	Observations
1933	Djamiâ el AKHAB Constantine	premier	Cheikh Abdelhamid	
1934	" "	deuxième	Ben Badi et son	
1935	" "	troisième	aide	
1936	" "	quatrième	"	
1937	" "	cinquième	"	

ETUDES SUPERIEURES:

DIPLOMES: (indiquer date et lieu d'obtention)

الملاحق

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة الأرشيف والتوثيق

بمبادرة الاستدالات

اللقب: درادور

الاسم: م. بلقاسم المدعو

الاسم الأمي: (النساء المتزوجات)

تاريخ ومكان الولادة: 13/10/1913 م جردون - أرييس

الدرجة المدنية: (متزوج مطور)

الصفة الحالية: معلم في المعهد الإسلامي للتعليم بها تدم

الغرض من الاستدالات: تتعلق بتوثيق

البيانات العائلية (اسم وتاريخ ومكان الولادة لكل ولد)

- (1) فردوري محمد التيمم 14/11/1947 تروك جردون، دليله 196/11/1961 تروك
- (2) قطيبه 15/05/1946 تروك جردون، دليله 196/11/1961 تروك
- (3) عبد السلام 11/11/1941 تروك جردون، دليله 196/11/1961 تروك
- (4) عبد العزيز 13/07/1949 تروك جردون، دليله 196/11/1961 تروك

تابع الدروس الابتدائية بـ

السنة الدراسية	المنطقة والبلدية	الرقم	المعلمون	ملاحظات
الأولى 1948	زاوية تلم	الأول	عبد العزيز بن بوعزيز	
الثانية 1949		الثاني	محمد إدراحي	
الثالثة 1950		الثالث	عبد المولى بن بوعزيز	
الرابعة 1951		الرابع	عبد العزيز بن بوعزيز	

تابع الدروس الثانوية بالجامع الأعظم ببسنجة عليه الأمانة العامة الشيخ عبد الحميد بن إدريس

السنة الدراسية	المنطقة والبلدية	الرقم	المعلمون	ملاحظات
1953	الجامع الأعظم ببسنجة	الأول	الشيخ عبد الحميد بن إدريس	
1954		الثاني	وعبد المولى بن بوعزيز	
1955		الثالث		
1956		الرابع		
الثانية 1957		الخامس		

الشهادات تخرج (المدرسة العليا)

شهادة التخرج من الرابع الابتدائي بمرتبة جيدة في جامعة التمدن

الشهادة وليي شهادة في الوعظ والأرشيف كجزء من شهادة التمدن

التمتع من كل سنة للتأهيل بالتمتع

مع هذا



❁ ورقة اعتماد ❁

اعتمد مجلس الادارة الشيخ:

مهم و درود و درود
 للقيام بالوعظ والارشاد على مبادئ الجمعية في هذه البلدان
 الرئيسة منعة بوجهار ورجوع البلاد
 الى اقلية تحت قيادة الرئيس
 في مدة بدايتها مع الثامن ١٣٥٥ هـ جوان
 ونعابتها شعبان التالين التقدير
 امضاء الرئيس

(Handwritten signature)

ASSOCIATION
DES "OULAMA" D'ALGÉRIE

CARTE DE DÉLEGUÉ

Le Conseil d'Administration délègue
M. *Amor Bendouche*

pour assurer la mission de Prédicateur,
selon les principes de l'ASSOCIATION,
dans les centres suivants :

Algiers et La Louisa

et ce pour une durée commençant le *juin 1934*
et finissant le *octobre 1934*

Signature du Président

AS 69865

RECEPISSE N°/ 173



ALGÉRIE

Vu la loi du 1er Juillet 1901 relative aux contrats d'Association et le décret du 16 Août 1901 portant règlement d'Administration publique pour la loi précitée.

Le Sous-Préfet de l'Arrondissement de Batna certifié avoir reçu de M. DERDOUE Si Omar Président, une déclaration en date du 26 Mars 1937 faisant connaître la constitution à Oued-Abdi d'une Association dénommée " ASSOCIATION CIVILE MUSULMANE D'OUED ABDI " dont le but est la sauvegarde de toutes les pratiques du culte musulman et de son exercice. Le siège social est la la Mechts Midouss au douar Oued-A bdi.

278
A

Deux exemplaires sur timbre des statuts de l'Association étaient annexés à la déclaration qui doit être rendue publique dans le délai d'un mois à partir de la date de la déclaration par les soins de ceux qui sont chargés de l'administration ou de la Direction de l'Association, au moyen de l'insertion au Journal Officiel d'un extrait contenant : 1°/ la date de la déclaration 2°/ le titre et l'objet de l'Association 3°/ l'indication du siège social. La date de l'insertion devra être portée à la connaissance de M. le Sous-Préfet de l'Arrondissement de Batna.



Batna, le 3 Avril 1937

Par le Sous-Préfet, e.p.e.

L'Administrateur détaché

[Signature]

أول اعتماد لانشاء جمعية نوادي لاصلاح
بدوار وادعبدي حوز اريس مقرها (حيدوس)
من طرف رئيس دائرة باتنة (فيري) 1937

la Méditerranée n'oublient pas que la France est la « fille aînée de l'Église ».

Notre confrère à *Prusse Libre*, publiait tout récemment, sous la signature du trop célèbre Claude Maurice Robert, un article parfaitement éblouissant à cet égard.

Plusieurs journaux réactionnaires de la Métropole précédaient, en termes *non équivoques*, l'événement des masses indigènes, affirmant que c'est le seul moyen de les rattacher réellement et définitivement à la France.

Le prétexte invoqué par le Préfet d'Alger pour justifier la main mise administrative sur les édifices religieux, à savoir que les « Ulemas » y faisaient une propagande politique antifrançaise, n'a convaincu personne.

Tout le monde sait, en effet, que les Musulmans font eux-mêmes et savent faire mieux que quiconque la police de leurs mosquées ; qu'ils ne tolèrent en aucun cas et sous aucun prétexte, que l'on y livre à un acte qui n'entre pas dans le cadre des cérémonies du culte et de l'enseignement exclusivement religieux.

D'autre part, l'accès des mosquées étant ouvert à tous les Musulmans, sans exception, il était très facile à l'Administration de se faire renseigner par ses innombrables agents officiels et officieux, *presque tous des Musulmans*, sur tout ce qui se passait à l'intérieur de ces édifices, ce qui lui permettait également l'exercice de son contrôle sur l'action du personnel du culte et des prédicateurs, et, si besoin était, la répression de tout acte pouvant nuire à l'ordre public ou à la sécurité de l'État.

Enfin, la présence seule au président Bensiam à la tête de la Commission et son affirmation que tout se passait normalement lui seul des mosquées n'étaient-elles pas une garantie suffisante et n'étaient-elles pas de nature à calmer les appréhensions de l'Administration ?

Nous ne croyons pas, quant à nous, que celle-ci ait pu douter un seul instant du loyalisme de M. Bensiam envers qui elle a été aussi injuste qu'ingrate.

Nous savons, depuis l'affaire de la Cultuelle, comment l'Administration

que nous publierons les faits qui nous sont signalés. Nous ne demandons pas qu'ils soient réprimés, car ce n'est pas dans nos habitudes de demander l'impossible; Et nous sommes de ceux qui croient qu'il sera impossible d'empêcher le renouvellement de pareils faits tant que nos affaires religieuses seront gérées par un Comité catholico-administratif ayant à sa tête des fonctionnaires plus soucieux de plaire à leurs chefs que de respecter les croyances et les traditions de tout un peuple.

Nous donnerons, dans notre prochain et dernier article, en même temps que notre point de vue sur la solution du problème toutes précisions à cet égard.

Lamite LAMOUDI.

A suivre.

(Voir *Déjasse* des 14 et 28 mai.)

donnés à
Gouvernement
de dégrader
ou en les
entraves de
antérieures.

Nous avons
les divers
Parti du P
nos concep
qui n'est ni
nière temps
nous sépar
me plus à
gie et indi
qui le frap
ses plus ac

Zakaria
pour un dé
Et si yri
faire quelq
mence d'ab
portée de c
sion.

La Fête du



Une vue de la salle du Cercle Nadi El Ettahdi le sympathique Cheikh Foudhū El Ourttas

الملحق رقم 13: وثائق من ملف الغسيري¹⁰³⁰

مشروع
مدرسه باردو
جميع التربية والتعليم الإسلامية
بقسنطينة
بسم الله الرحمن الرحيم


حضرة الاخ سيدي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد فهذا مشروع ثالث من مشاريع جمعية التربية والتعليم الإسلامية
الغاية منه، انقاذ ابناء المسلمين من غوائل التشرد في الشوارع، ونشر الثقافة الإسلامية
واللغة العربية، وتربية النشأ تربوية صحيحة
وهذا المشروع الثالث هو دار كبرى بطريق باردو خالية من السكان صالحة
للاستعمال من الان
واخوانكم اعضاء الجمعية يرغبون من جنابكم ان تدققوا بالحضور
للاجتماع الذي سيكون - إن شاء الله -

بمدرسة الجمعية بنهج الاربعين شريفا

مساء يوم الاحد 14 شوال 1363 فأتاح اكتوبر 1944 على الساعة الثالثة مساء
لتدققوا على النتيجة المسالمة لهذا المشروع ببارك الله في حياتكم وجعلنا
وجعلكم من العاملين لخدمة الدين واللغة والوطن باخلاص مامين
والسلام عليكم من اخوانكم اعضاء الجمعية

وأخيكم: 

¹⁰³⁰ - A.W.C. Inventaire analytique des archives privées saisies en Mai 1945 boîte N° 05
Mohamed ben Ahmed El Mansouri El Ghassiri Constantine

أورد في ٢٩ مارس ١٩٤٤

تجويد العقل

عنايه سعديه الحد رعايا، عبد النبي صلى الله عليه وسلم
اشه قال
« لكل شيء عقل وعامة ودعاة عبد المرء »
« عقله، فبقه وعقله تكون عبادته لربه، أما شيعته »
« قول الفقاري: لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب
« السعيرين »
« وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أصل الرجل
عقله، وحسبه دينه ومزوجه خلقه »

جمعة ١٤ ابريل ١٩٤٤
من تصبيرة لشوقي برني مصطفى كامل المتوفى
سنة ١٩٠٨

دقات قلب للرواقاة له
ان الحياة دقائق وشوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكراها
فالذكر لا ينساك عمر ثاني

¹ A.W.C. Inventaire analytique des archives privées saisies en Mai 1945 boîte N° 05 Mohamed ben Ahmed El Mansouri El Ghassiri Constantine

أصبحت أمة من هنا كثير في أواسطنا
 المعانيه والمجانيه والكياسم والتسليم
 فمن هذه الامه غير ثنائيا البره
 يستطيع أن يخفف عنها بعض هذه
 المأسى الخلقية الموهومة؟ نعم ليس
 هناك أحد، ولذا رأيناهم جبراً من
 نومهم بعد أن أكلوا على الخشخ
 ان يردوا رسالتهم كأملة نحن بنوم
 جنسهم، فأستعمل لهم من مسات
 تغنى بالمحافظة على الصحة المسوية
 والصفة العقلية، فخذها منظمات
 الكشافة وهذه مدارى التنشيط
 وتلك نوادي الارشاد كلها في
 ارباب يومنا فينما وهي ساهرة
 على بحث هذه الامه من مرتداه
 مع علمها بان رسالتها نشا فنة تستدعي
 وقتنا وتستحق حين تفضية عظيمه
 من المال والجهد، وهم يملكون
 لا منتم بأنهم لن يبلغوا شوطاً
 ما ما لم نهدم عطفها وذاوات
 يدها، فعلى الامه ان تقدم لهم
 ما يرضون منها.
 ويعلمون لها بان النضفة مرموقة

العقل السليم في الجسم السليم
 ذلك شعار الكشافة الذي يسمى
 روادها تحقيقه، ويبدأ بنوعها صغار
 وكباراً لاكتسابه، فهذا الذي تخلو له
 الحياة إذا فقد سلامة عقله وسلامته
 جسمه.
 أي وزي ليس لغز من الامزاد واللبانة
 أو شعب من الشعوب الذين صحت على و
 جوده كصق بين الاحياء الا متى سلم
 عقله وسلم جسمه من الآفات والارواح
 يلتي المفكر نظرة خاطفة على
 حد المد الأكبر من سواد الأمة
 البرازيلية فيلبي عبارة عن كائن فاقه
 لكل وسائل الصحة، يرب جسمها غيلا
 حزيلا دقت عضلاته، واحد ورس
 ظهره، وتفرطحت رجلاه، وانعوجت
 رقبته ويدها وساقاه، وتقف من
 راسه وغارت عيناها الوجه البريء
 مفتحاً أو كاد، القد المتسحق المشرق
 اوالبدن الذي ليس بانفا حثت أصح
 من احدى مفاخر الجبال عندهنا يوم
 فقد الجبال.
 وابت من هذه العليل العقل السليم

* - A.W.C. Inventaire analytique des archives privées saisies en Mai 1945 boîte N° 05
 Mohamed ben Ahmed El Mansouri El Ghassiri Constantine

الملاحق

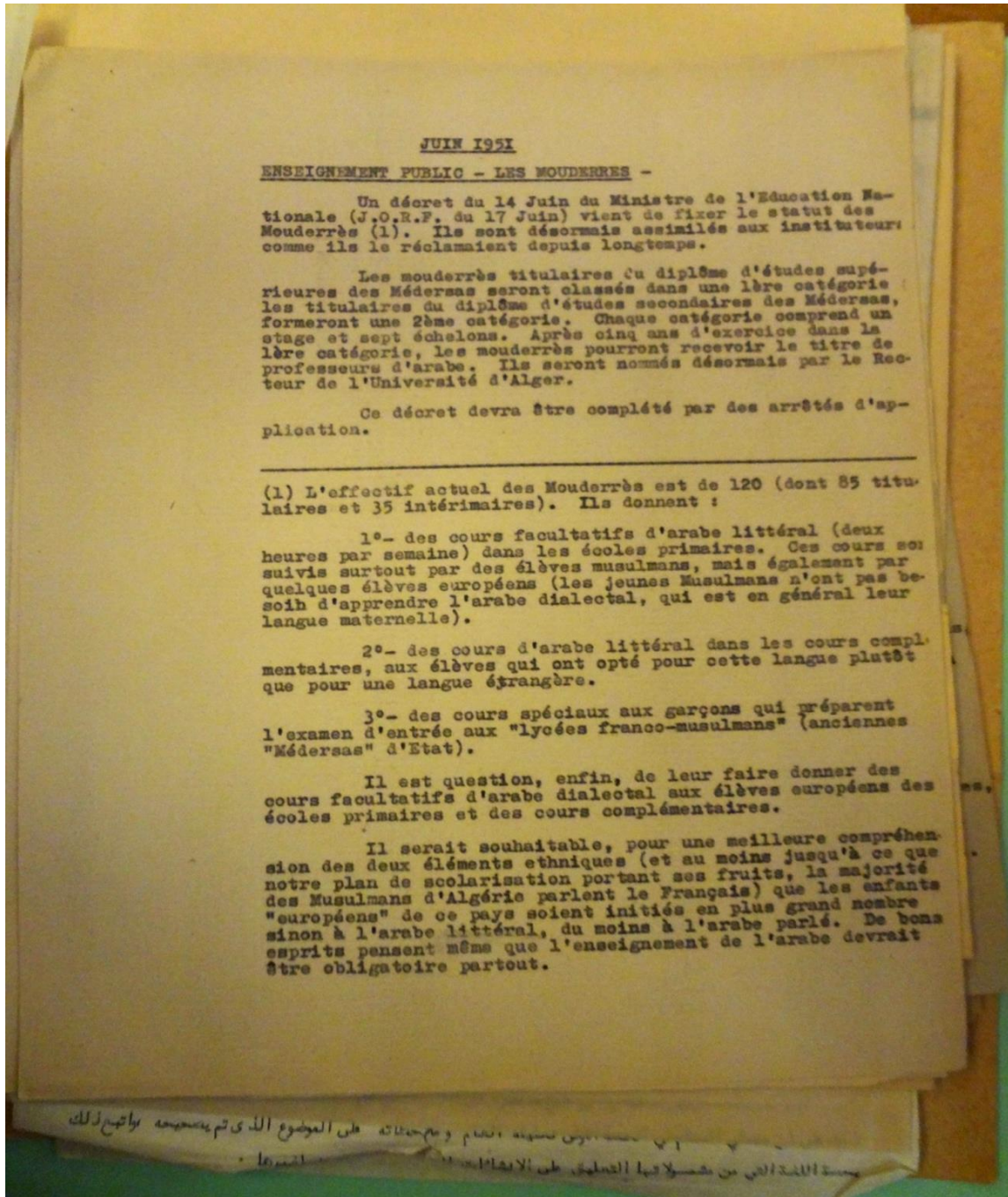
الاسم واللقب	تاريخ الولادة	مكان الولادة	العنوان	تاريخ الميلاد	مكان الميلاد
1. سعودي فريدة	تحت التمام	القطيف	المدرسة	أكتوبر ١٩٥٥	
2. كزعي خضراء	١٩٤٠	القطيف	زيج البوشنة ابن المرسي شارع الكوبر ١٩٥٥		
3. مداح احمد	١٩٤٠	دار الزوي	دار بلقاضي الزمان	١٩٥٠	
4. ابن الطيب محمد	١٩٤٠	تخامت	صحة شين فريت بسكرة	١٩٥٥	
5. بهلول جمع	١٩٤٠	بندر / صيدا	زيج بلقاضي الزمان		
6. عالي فتيحة	١٩٤٠	باتنة	دار الجامع		
7. ابيدري بلعيد وديعة	١٩٤٠	باتنة	دار اولياس	١١٥٩	دسنته
8. بوزيد محمد العربي	١٩٤٠	السنوية	حيث تسمى لمسة بسكرة		
9. عمران عيسى	١٩٤٠	باتنة	السماتين دار عثمان		
10. ارواح حسين بن الصغير	١٩٤٠	القطيف	بوعدال دار ارواح		
11. كاشا محمد	١٩٤٠	باتنة	ديار سرفند		
	١٩٤٠	باتنة	حيث تسمى	١٩٤١	سنتها الخطاط

الملاحق

السكن	الاولاد	الاسم واللقب	التاريخ
شعب جنرال فدارم	قواراة سعدان	قواراة سعدان	١٥ / ١٠ / ٤٩
شعب بيعة	قائمة بردى عزيزة	قائمة بردى عزيزة	٥٠ / ١١ / ٧
=	السورافه عدلة	السورافه عدلة	=
حسى شينى	عبدة عميلة	عبدة عميلة	٤٨
يوغفال الثالث	مسعودى عبدة	مسعودى عبدة	٢٨ / ١٠ / ١٤
=	الطاوية	الطاوية	٥٠ / ١٢ / ٤٩
حسى شينى	آيت محمد السعيد ملكة	آيت محمد السعيد ملكة	٥٢ / ١١ / ٤٨
شعب اميس رقم ٩	ابن عمير وردية	ابن عمير وردية	١١ / ١١ / ١٨ بالتنة
صه أرال	احميد الاهينى	احميد الاهينى	٥١ / ١١ / ١٠ بالتنة
شعب جنرال فدارم	مزورى عبد الهامى	مزورى عبد الهامى	٤٤ / ١٠ / ١١ جرمة
شعب اوران رقم ٢٤	ابن حسي عبدالسلام	ابن حسي عبدالسلام	٤٧ / ١١ / ١٩ بالتنة
=	= عتيقة	= عتيقة	٤٨ / ١٠ / ١٤
=	= عبد الله	= عبد الله	٥٠ / ٤ / ١٢
حسى شينى	ابن الموهوب فوزية	ابن الموهوب فوزية	١٨
السطا	زعطوط محمد	زعطوط محمد	١٧ / ١١ / ١٨ واد مزور
=	= مولود	= مولود	٥٠ / ١٢ / ٤٠
=	= فضيلة	= فضيلة	٤٧ / ١٠ / ١٢
المزمره رقم ٤٤	أوشن عبداللبن الحسن	أوشن عبداللبن الحسن	٤٣ / ١٠ / ٧٨ أولاد شلبي

الملحق رقم 13: سجل تلاميذ النشاء الجديد باتنة 1032

1032 - أرشيف ابتدائية الأمير عبد القادر - مديرية التربية لولاية باتنة.



الملحق رقم 14: تعليم اللغة العربية في مختلف المؤسسات المدرسية الباديسية وغيرها 1033

1033_ ANOM 93/4496 Enseignement de la langue arabe dans différents établissements scolaires Ben Badis et autres

OCTOBRE 1949

ENSEIGNEMENT PUBLIC

FUSION DES ENSEIGNEMENTS A ET B.-

Les conditions de cette fusion (décidée par décret du 5 Mars 1949) ont été fixées par arrêté ministériel du 7 Septembre 1949 (J.O.R.F. du 5 Octobre 1949, page 9936).

Les horaires et programmes de l'enseignement primaire métropolitain sont applicables dans toutes les écoles primaires d'Algérie. Toutefois les programmes d'histoire et de géographie seront complétés en fonction de l'originalité du pays.

Il pourra, dans la limite des crédits disponibles, être adjoint au cycle régulier de l'enseignement des cours d'initiation parallèles aux sections préparatoires, destinés à permettre aux enfants dont le français n'est pas la langue maternelle de recevoir un enseignement renforcé de cette langue pour suivre utilement au bout d'un an ou deux les programmes du cours élémentaire.

Cette réforme n'est pas sans susciter certaines difficultés d'application, l'enseignement simultané d'enfants d'acquis intellectuel (et souvent aussi d'âge) très différent posant de sérieux problèmes. Elle a, dans l'ensemble, rencontré l'assentiment des parents Musulmans plutôt que des "Européens". Certains de ceux-ci ont même retiré leurs enfants de l'école publique pour les mettre dans une école privée.

AOÛT 1950

L'EFFORT DE SCOLARISATION DU F.P.A.-

Avec un gros retard sur les Oulama, le F.P.A. a entrepris à son tour depuis quelques années un effort de scolarisation qu'il semble vouloir intensifier et qui le pose, lui aussi, en concurrent de ceux-ci. C'est ainsi qu'il a mis la main, depuis 1946, sur la Mdersa "l'Educatrice" de Mostaganem (jadis patronnée par les Alaouïa).

Les préoccupations des dirigeants de cette école viennent de s'exprimer dans un rapport au Comité Central du N.T.L.D. où l'on peut lire les phrases suivantes :

"Lorsqu'un Algérien ignorant, conscient de son infériorité intellectuelle, mène son enfant à la mdersa au lieu de le confier à l'école française, il est évident que, dans sa cervelle obscure, s'est fait entendre l'appel lointain de la civilisation et de la culture ancestrale. Nous ne devons pas décevoir cet homme qui a placé en nous toute sa confiance et tout son espoir : de là, la nécessité de mettre à l'étude l'élaboration d'un programme d'enseignement uniforme applicable à toute l'Algérie. La nécessité s'impose de créer un centre de pédagogie.

"La situation bien assise de certaines mdersas permet à celles-ci, dans un but de sabotage caractérisé, de tenter nos professeurs en leur promettant des postes lucratifs. Nos écoles libres sont des centres de propagande qui porteront leurs fruits dans un proche avenir. Il ne faut plus demander la foi qui nous anime de soulever des montagnes, mais tout simplement de trouver de l'argent et toujours de l'argent, car, sans capitaux, notre édifice intellectuel risque d'être épiaté à des fins qui vont à l'encontre de notre idéal".

الملحق رقم 14 1034

N° 2.996 NA/4
89/

ÉCOLES PRIVÉES D'OBÉDIENCE NATIONALISTE (1)

M. BOUDAA, délégué d'Alger à l'Assemblée algérienne (M.T.L.D.), parlant des médersas du Parti, n'aurait pas caché que ces établissements souffraient du manque de professeurs et d'une trésorerie insuffisante. Le projet de création d'un centre pédagogique est, pour le moment, abandonné faute de professeurs qualifiés.

L'Association "Djemiet El Hayat" d'Oran et l'association "Djemiet El Amel" qui lui est affiliée, ainsi que l'Association El Mesdjid, toutes trois comprennent chacune en principe une médersa, ne comptent, à de rares exceptions près, que des militants nationalistes (P.P.A.-M.T.L.D.). Un arrêté du Préfet d'Oran en date du 2.2.49 a interdit les représentations théâtrales organisées par les 2 premières.

A noter l'existence du cercle "Er Rachad", sis 2 place du grand Rabbin Bloch à Alger, dont l'obédience actuelle, d'essence nationaliste, est l'aboutissement d'une évolution curieuse qui a débuté en 1938 par une activité nettement conservatrice et maraboutique en passant en 1944 et 1945 par une période de subordination aux Oulama réformistes. Ce changement d'attitude politique est dû au noyautage progressif du bureau du cercle et à l'évolution de son Président, le cheikh EL HALOUI, de son vrai nom ZERROUK Kaddour ben Mahieddine, frère utérin de ZERROUK Mahieddine, dont les fils sont d'arçents messalistes.

Le cercle "Er Rachad" a ouvert au début 1950 une médersa qui compte 3 professeurs et 4 classes et qui n'a pas satisfait aux formalités légales.

Le tableau récapitulatif (sans doute incomplet) ci-dessous fait état des principales écoles à tendance nationaliste d'obédience P.P.A. :

Département	Nom de l'association	Nom du président	Adresse
Alger	Er Rachad	ZERROUK Kaddour ben Mahieddine	2 place du grand Rabbin Bloch (Alger)
Alger	El Irohad	BENTEFFIFA Mohamed med	40 rue du Bey (Blida)
Oran	El Mesdjid	BELBEGRA Mohammed	11 rue Philippe, Oran.
Oran	Djemiat El Hayat	KHALFAOUI Ali	Gambetta (Oran)
Oran	Djemiat El Amel	HADJ HACENE BACH- TARZI Benaouda	Faubourg des Plan-teurs (Oran)
	L'Educatrice	BENSMATINE Boume-dine	Tidjit (Mostaganem)

(1) Cf. Bulletin 1950 page 76

1035

est sollicité :

Localités	Etablissements	Nbre d'ins- tituteurs déjà déta- chés (1)	Nbre d'ins- tituteurs demandés (1)	Total	Observation
Alger	Ecole Ech Chabi- ba (2)	1	3	4	1 obtenu le 1-10-50
Alger	Ecole Es Sâada	5	néant	5	
Constantine	Ecole Djemaïa Es Salem	1	1	2	
Constantine	Médersa Kittania	2	néant	2	
Constantine	Ecole coranique du cheikh BELHANLAOUI (Oued Seguin)	néant	1	1	
Bougie	Médersa Khâldou- nia	1	néant	1	
Biskra	Médersa Mohamma- dia	néant	2	2	2 obtenus le 1.10.50
Bône	Médersa Merouania	néant	2	2	
	Total	10	9	19	

(1) au 7 Septembre 1950
 (2) la première école privée musulmane ayant introduit le français dans son enseignement et demandé le détachement d'instituteurs de l'Etat.

1036





بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على محمد النبي الكريم

المطربي أسفله محمد البشير الابراهيمى رئيس جمعية التلاميذ المسلمين الجزائريين ، والرئيس الاعلى لكل مؤسساتها ، المكتب الدائم ، ولجنة التعليم العليا ، ولجنة الشهادة والنشر ، واللجنة الدالية وغيرها رئيس مجلس أساتذة معهد عبد الحميد بن باديس الشانوى بقسنطينة ، و مدير المعهد اللغوى بالقاسمية والموقع العلمى بدمشق .

يصرح :

بأنه بناء على اجازة من مجلس التعليم العربى المصرى للتاسع للجمعية وبناى الامداد المشار اليه استحدثها انشاء التدريس ونظرا لما أبانته من كفاءة مهنية ممتازة وتواضع رتبى من التريسة وثان فى اداء واجبات التعليم السوى ونظرا للقدرة الفلمية الشانوية التى حصل عليها بتجاربها ودراسها فى الامم المتحدة كاستاذة فى اللغة العربية من خارج الجزائر واستجابة لما قد تمه الدلائل المختصة التى شكلها المجلس الا دارة فى اكتوبر 54 لفحص ملفات المتعلمين الاحرار وتقدير درجاتهم ، واستجابة لاجازة من لجنة التعليم العلمى .

فان المجلس الادارى للجمعية وهو الهيئة العليا فى الامم المتحدة صادق على تعيين (السيد) محمد درة بوسوى فى المنصب العلمى كاستاذة ثم انتدبته للقيام بواجباته فى لجنة الترقية والتعليم وانشاء المدارس بالجزائر والسودان بصفته بكفاءة واخلاص حتى سنة 1955 حيثة الطارده الاستعمار والاشغال الشاقة

الجزء 18 / 8 / 1974

الابراهيمى

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
لجنة التعليم العليا

١٢ نون بومبي - الجزائر -

شهادة أقدمية التعليم

إن لجنة التعليم العليا التابعة لجمعية العلماء والمشرفة على المدارس
العربية الحرة في أنحاء القطر الجزائري ، وبعض المدن الفرنسية سابقا .

تشهد بأن الشيخ : داود دري بلقاسم المدعو عمر
كان يعمل بمدارس الجمعية بصفته معلما ، مشرفا على التعليم والمركز العلمية بأوراس
ابتداءً من تاريخ أكتوبر ١٩٣٧ . . . إلى جوان ١٩٥٥ عدا سنة ٤٠ - ٤١ إيلياً
بدرسة
١. داويد دري بلقاسم المدعو عمر ١٩٣٧ . . . ١٩٣٨
٢. داويد دري بلقاسم المدعو عمر ١٩٤١ . . . ١٩٤٢
٣. داويد دري بلقاسم المدعو عمر ١٩٤٣ . . . ١٩٤٤
٤. داويد دري بلقاسم المدعو عمر ١٩٤٥ . . . ١٩٤٦

وقد سلمت له هذه الشهادة بطلب منه للزنتفاج بها لدى الدوائـر
المختصة

عاصمة الجزائر في ١٩٦٥

عن اللجنة :

الامضاء
رئيس اللجنة

Que se passe-t-il dans l'Aurès ?

D'innombrables lettres nous avaient déjà signalé les abus innombrables commis journellement par l'administrateur Muscatelli et les divers agents sous ses ordres, dans cette malheureuse région de l'Aurès dont les habitants ont commis le crime de voter pour le Dr Saâdane, conseiller général démissionnaire, et d'adhérer au mouvement des « Oulemas ».

Dans les graves circonstances actuelles, où la manière forte est préconisée par les plus hauts représentants de la République, nous avons l'impression que les agissements de ces minuscules détenteurs de l'autorité ne sont pas ignorés de leurs chefs, et que même ils sont, sinon encouragés, tout au moins couverts et approuvés par ces derniers.

Aussi, nous n'apprenons rien à M. le Gouverneur Général et à M. le Préfet de Constantine en leur disant que plusieurs dizaines de mille musulmans subissent l'autorité tyrannique, l'arbitraire, les exactions, de quelques brutes galonnés qui accomplissent là-bas, sous l'œil impuissant des élus musulmans indépendants, une triste besogne et qui commettent des faits rappelant les plus sombres jours de l'Inquisition.

Ce n'est pas donc au chef de la Colonie et à son éminent subordonné que nous signalons ces faits douloureux, mais à l'opinion publique d'ici et de la Métropole, à M. Sarraut qui, nous dit-on, tout en étant décidé à maintenir le prestige de sa Patrie, est pleinement résolu à redresser la situation de notre pays, à réprimer les abus, à mettre fin aux agissements coupables des flibustiers qui terrorisent nos frères.

Nous avons déjà signalé le cas d'un jeune « alem », Si Omar Dardour qui, sous la simple déposition d'une demi-douzaine de faux témoins, dont quelques-uns se sont d'ailleurs rétractés devant le juge d'instruction de Batna, a été arrêté, maltraité, injurié, et incarcéré sous l'inculpation d'outrage aux représentants de l'autorité.

Bien que des centaines d'honorables musulmans ayant assisté à la conférence de Si Omar Dardour soient prêts à affirmer qu'à aucun moment le jeune conférencier n'a tenu le moindre propos de diffamation à l'adresse de l'autorité, « L'INCULPE » est toujours en prison. Nul ne sait à quelle date finira ce calvaire. (Suite page 2).

Au pro

La Justice s'e

On était sûr, les dirigeants du P.P le jugement rendu av Les avocats pla fendit au nom de la la loi scélérate de l' en scène : Messali é entre les bureaux de Beauvau. Personne n sue de ce procès : m telle cruauté : même mite, la limite humain On attendait donc de tence d'équité, qui r justice ; mais la just cun lien de parenté a

Réflexion

Comment l'Africa

Tout le monde est d'accord, aujourd'hui pour reconnaître la menace qui pèse sur l'Afrique du Nord. L'opinion généralement admise aujourd'hui et que les événements récents viennent confirmer chaque jour, c'est qu'elle sera à la fois le théâtre et l'enjeu décisif de la prochaine guerre. Ni l'Allemagne ni l'Italie ne cachent d'ailleurs leurs visées sur les possessions françaises Nord-Africaines. La première convoite la Tunisie où elle a déjà plus de cent mille nationaux, jouissant d'un statut spécial et installée comme par hasard sur le littoral ; l'Allemagne, elle, en

liaire le te ment Ce polit est n Nord repè re ta puis pres teme plus plus torité

- جريدة النجاح، العدد رقم 740، الاثنين 20 ماي 192.

سراب السياسة والدعوة إلى هداية القراء.

— أخي المسلم:

رأيت أن السياسة قد أخذت مكانا كبير في النفوس وتسلطت على كثير من العقول وبدأت تستغل الأعمال على اختلاف ضروبها ورأيت لها نتائج ليست بمفرحة من إضرار الأهواء وإثارة الضغائن وفصم الروابط وإفساد الأموال - إذن فكيف أصبو لها وأترنم بذكرها وأنا لي ضمير ينشد الحق و لا يجب الغرور - وكيف لا أخاف من تيارها الجارف وأنا أود لمواطني وإخواني في الدين.

(التعاون على البر والتقوى) واحلم بالتحقيق الواقعي لقول الجليل "إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون" إني لا أنكر أن السياسة تستهويني فان السياسة ساحرة خالابة و أنا لست بمعصوم فاني بشر ضعيف أحس بما تحس به الناس وانجذب بما تنجذب إليه الناس ولكني لا أحب الكذب ولا النفاق ولا الخيانة ولا الإصرار على المنكر ولذلك فاني عزمت على الجمهور بمساويها - إزالة للغرور - وتذكير مواطني المسلمين بان صلاحنا الحقيقي ليس في السياسة - إثباتا للحق إذا نظرنا إلى المظاهر السياسية الفاخرة والى بهرجة الاحتفالات والى الخطابات الرنانة الساحرة والى تسهيل وتوفير السياسة لمرافق الحياة الاجتماعية وإذا تذكرنا أخبار ديموستين وبريكليس (Pericles et Demosthene) مثلا وكساهما خيالنا عزا وجمالا وإذا تذكرنا في مواقفهما العامة اهتزت نفوسنا طربا وصحنا من غير تردد إن السياسة هي الحياة

إن السياسة هي الفخار إن السياسة هي الكمال ولكن إذا اخترنا الواقع بكل صدق واستشهدنا التاريخ بكل تحقيق واستجلينا خافيات نفوسنا وجدنا أن السياسة سراب كاذب فما هي طبعاً وعادة إلا مظهرها عمليا للطبائع والعادات فالسياسة البشرية صادرة عن البشرية إذن فما هي إلا أغراض ومصالح وأهواء تستخدم العلوم وتعبث بالعقول وتلعب بالكلام ألعابا إذن فالثقة بها غرور والاعتقاد بما تزعمه من الإصلاح للحيلة الدنيا والإسعاد للناس فيها وهم وضلال - أخي المسلم المنتور - لعلك تستغرب مني هذا التصريح ولعلك تقول في نفسك إني لا اعرف قدر السياسة فاني أجيبك أن السياسة لها تعريفان - تعريف أهل الفكر وتعريف أهل الواقع فأهل الفكر يرون أنها خدمة المصالح الوطنية العامة - وأهل الواقع يشهدون أنها - خدمة الحياة الدنيا - وأن الحياة الدنيا كما يقول المثل العربي وصائل لا فضائل وإن لم يقنعك هذا الجواب فإني أزيدك بيانا فأقول - إن كبار أساتذة الغرب قد أنكروا السياسة وحكموا عليها حكما باتا لا هوادة فيه فإن (Auguste Comte) أوغيست

كونت وشارل رونوفي (Charles Renouvier) وهيوليت طان (Hippolyte Taine) وهيجل (Hegel) الألماني قد شهدوا عليها بما هو مبسوط في كتبهم وأما سياسة الانتخابات فان المؤرخ الكبير فستال دي كولانج (Fustel de Coulanges) قد كتب عنها كلاما لا مزيد عليه في تبيان خباثتها ونتائجها الوخيمة وان الكاتب الفرنسي جورج اودار (Georges Oudard) قد شخص لنا روايته القصصية انتخاب ما يستشبعه حتى مشغوفو السياسة إن كان له ضمير وعقل و لا أخالك إلا موافقا لي في هذا كله. ولكن قد يذهب بك ميلك للسياسة _ وهو فيها أرى من تأثيرات العصر _ إلى أنني كراهية لمساوئ السياسة أريد أن اهجرها وامتنع عنها أو بعبارة أوضح إني ادعوك إلى الامتناع عن السياسة أو "الابستسيونيسم" (L'abstentionnisme) كما يقول الفرنسيون .

إني لا أكتمك أي في كثير من الأحيان أي كلما شاهدت من سياستنا الأهلية ما يزهدي جدا فيها أميل إلى هذا مذهب الامتناع عن السياسة واستحسن العاملين به وكيف لا أميل إلى هذا المذهب إذا رأيت ما هو معلوم للخاص والعام من أن تعاطي السياسة أكثر ضرر واكل نفعا من تركها _ ورب قائل من ممارسي الحياة الخبيرين حسيا بأحوالها يقول لي _ إن هذا الميل إذا قوي واشتد أمره زهدنا في القيام بالمصالح العامة والدفاع عن الحقوق الاجتماعية وصرنا عضوا عاطلا أشلا في مجتمع سياسي لا بد فيه من إعداد القوة للمحافظة أو التوازن أو التوسع والاستيلاء ولا بد فيه من المعارك الحيوية فاني أجيبه إنني لا أنكر أن الحياة تنازع للبقاء واختيار للأقوى والأصلح طبيعيا وان التنازع وهذا الاختيار يستلزمون نوعا ما من السياسة هي ضروريات الحياة الاجتماعية _ ورب قائل آخر من محبي السياسة يقول لي إن الامتناع عن السياسة وتركها بتاتا من علامات القنوط أو مهانة النفس أو الركون إلى الخمول والاستسلام الكلي لتيارات الحوادث وان حب السلامة يثني عزم صاحبه وان علو الهمة يحتم حب المعالم والسعي لارتقائها وان _ هذا كلام تبرر بل تمجد به أصحاب الطموحات الأنانية ولكن حقيقته تنكشف إذا سبرته (البسكولوجيا) النقادة التجريبية فرى حينئذ أن حب المعالي كما يشهد الواقع والتاريخ لا كما تشهد الشعراء وغنم الغرور _ ما هو إلا حب الجاه وإرادة التسلط _ كما يقول نيتشه ورغبة التوسع واستخدام الغير (الأخ كما تقول الآداب الكاذبة) _ إذن فأين الإخلاص _ أين روح النصح والتضحية _ وأين حب الإنسانية الصادق _ إذا أردت أن تعرفه يا أخي المسلم المتنور فاخرج من سوق السياسة وتوجه إلى حيث تجد الحيلة القومية فانظر إلى (Pasteur) باستور في معماه يبحث عن أسرار الأمراض وانظر إلى القديس (فانسان دي بول (Saint Vincent de Paul) في حرصه على جمع اللقطاء والاعتناء بهم كأنهم أبناء ملوك كما قال الكاتب الفرنسي الشهير موريس باريس (Maurice Paris) وانظر إلى ابراهم لينكولن (Abraham

Lincoln الحطاب المسكين الذي توصل بإرادته العالية إلى رئاسة الجمهورية لا لإشباع شهواته وتاليه نفسه بضروب المفاحرات بل لمقاومة الاسترقاق في أمريكا وانظر إلى روبرال واوان (Robert Owen) بانكلترا يكون شركات اسعافية للعملة ونقابات تدافع عنهم وانظر إلى ((ليون تولستوي (Leon Tolstoi) يهب أملاكه الترابية للفقراء وينقطع للبحث عن الحق وخدمة الشعب وإصلاح شؤونه بما أمكن وانظر إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يستوحي من الذكر الحكيم روحا جديدا حكيما لينعش ويصلح به الشرق الإسلامي وانظر إلى قارون أمريكا الصالح المثري الكبير كارنيجي (Carnegie) يحسب للمشاريع الإنسانية الكثيرة أموالا عظيمة وانظر إلى نابغة الشرق سيرجقاديس شندربوز (Sir Jagadish Chanda Bose) في معهده العلمي يحي للهند مجدها الفكري القديم _هاته الأعمال النبيلة تعرفنا يقينا إن حب المعالي الحقيقي هو أن يتعالى المرء عن إنسانيته الحيوانية جامعلا نفسه في صالح الأعمال ليزداد زيادة ثانية كما يقول الإنجيل _ليبغ (ما فوق الإنساني) كما يقول نيتشه Nitetshe _هاته الأمثال النورانية تعرفنا أن الأحوال البشرية ما تحسنت حقيقة إلا من العمل الصالح أخلاقيا كان أو فكريا أو اجتماعيا وان هذا العمل الصالح في غنى عن السياسة فهل يحتاج أولئك الصالحون المذكورون أنفا للسياسة للقيام بما استشعرته نفوسهم من واجبات نحو بني الإنسان _بل كافتهم كما يقول المحترم (فرديند بويسون) (Ferdinand Buisson) وكالة ضميرهم وإذا كان العمل الصالح في أحواله العامة يحتاج لسياسة تضمه وتقويه وتوسع دائرته فما هي إلا سياسة التعاون للمبرات والتعاقد لإذلال مصاعب الحياة كما يقول (قوستاف لوبون (Gustave Lebon) التشاور لجمع التجارب والآراء والمعلومات واختيار الأكفاء المخلصين بضروب الامتحانات _هاته السياسة يمكننا إن نستنبطها استنباطا من القراءان الحكيم فالله تعالى يقول _وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ((وسياسة الأحزاب أليست في كثير من الحيات كذبا وبهتانا وتدليس وإيهاما بل إثما وعدوانا _ ويقول (وأمرهم شورى بينهم)) والشورى ليست الانتخاب المعروف عندنا لأنها لا تنتج تسلط الأكثرية على الأقلية ذلك التسلط الذي يلجم الضعيف الحق ويشير العداوات ولأنها لا تقضي الاستهواء والإفساد والتفريق _ ويقول ((والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله مع المحسنين)) والجهد والاجتهاد والإحسان لا تستلزم نيابات رسمية ولا مكافأة بل تصدر بكل حرية عن كرم الطبع وقوة الإرادة وحياء القلب _ ويقول ((فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه _ وأتباع أحسن الأقوال يستلزم طبعاً ترجيع الأصلح علماً وأدباً لإدارة المصالح العامة _ ويقول "وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر" و التواصي بالحق والتواصي بالصبر لهما مقتضيات منها _أدبياً _ضبط الأهواء والزهد في الحظوظ الفانيات _ وعلمياً _الاستنارة بأصح ماتنتجه العقول أو تثبته العلوم _ ويقول "ولا تلقوا بأيديكم إلى

التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين " _ وفي هذين التعليمين مبادئ سامية لسياسة سليمة _ ترضي الناس _ وقانونية _ ترتاح له الحكومات _ واحسانية _ تشفع للإسلام وتمجد ذكره _ تلك سياسة رشيدة لا تحتم تكوين الأحزاب ولا الدخول في معمة الانتخابات ولا استعطاف الممولين والحكومات وإنما تطلب منا قلوبا مهذبة _ للنصيحة _ ولا عقولا مثقفة _ للتدبير _ وعزائم ثابتة _ للعمل _ تلك سياسة قرآنية مبادئها أخلاقية وغايتها إنسانية وأساليبها علمية تلك سياسة تنافي (السياسة) لأنها تخاطب منا اشرف الميول والعواطف لا اخسها وتستلزم منا التواضع والتضحيات لا الطمع وحب الرئاسة وتدعوننا إلى جعل فخارنا في خدمة العدل والسلام والمؤاخاة لا في نيل المناصب والألقاب والوسامات _ إذن فمن النزاهة أن نتمنع عن كل سياسة لا تتفق وروح القران ومن إصابة الرأي أن نقول بإفلاسها ومن الواجب علينا أن نستبدلها بالهداية الإسلامية التي تتضمن سياسة هي أوفق من غيرها لحالتنا الأدبية والاجتماعية وأصلح لبقائنا القومي وانفع عاجلا وأجلا للأفراد والجماعات وتلك السياسة ترمي وتدعو إلى طلب العلم الصحيح _ لتثقيف العقول _ وإحياء الدين القويم _ لتربية القلوب _ الإقدام إلى الحياة الجدية من أعمال اجتماعية وتنظيمات مالية ورياضات بدنية واختبارات واقعية _ لتثبيت العزائم _ فبأنوار العلم ومبرات الضمير وقوة الإرادة وصحة الأبدان لا بالأكاذيب والتلونات و المخاتلات والحيل تجمع وتحفظ الأموال وتصنع الآلات وتبني المدن وتعمر الحقول وتنظم المبادلات وتساس الناس سياسة رشيدة نزيهة صالحة يبقى لها التاريخ ذكرا مجيدا.

آخي المسلم المنتور:

إني قد بينت لك بما استطعت أفكارني في السياسة وقدمتها لك لتأمل فيها بجد وترنمها بميزاني العقل والعلم لعلك ترى إنني أفرطت في تنقيص شأن السياسة وإنني اعتقد أن السياسة غير لازمة وان العمل بها ما هو إلا اشتغال المرء بما لا يعنيه وربما ذكرتني بكلمة شيخ الفلاسفة أرسطو (Aristote) الإنسان حيوان سياسي وقلت لي بابتسامة تحكيمية إنني أهييم مع الأحلام الفلسفية العالية وذكريات بل أساطير الأيام الماضية غير ما تفتت إلى الطبيعة الآدمية الحالية فأقول لك وان كنت قد تأثرت بأحلام جمهورية ((أفلاطون ونجيات (Platon) (توماس مورس (Thomas) Moris) والأسقف (فينيلون (Fenelon) وروسو (Rousseau) و(كوندورسي (Condorcet) فإني _ والله الحمد _ لم تذهب بي نزعاتهم العاطفية القوية إلى الثقة العمياء بالطبيعة البشرية فإني لازلت اعتقد التعليم الأساسي للقرآن الحكيم _ إن النفس لأمارة بالسوء ومادام هذا الاعتقاد حيا راسخا فإني أرجو أن لا يزيغ نظري في الحكم على الأحوال السياسية و الآن قبل أن أودعك بسلام فإني أقول لك بكل

صراحة إذا أرادت حقا الإصلاح الصحيح الغير الوهمي فلا تعطي للسياسة المنزلية وتدبر جيدا قوله تعالى _ "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" واعمل بمقتضاه صابر محتسبا وما صلاحنا إلا في العمل الصالح والصلحات هن الباقيات "يا أيها الذين امنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطيع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما".

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

الوثائق الأرشيفية:

أرشيف سجل تلاميذ مدرسة النشاء الجديد مكان تواجده مدرسة الامير عبد القادر باتنة.

أرشيف ولاية قسنطينة:

- A.W.C 4/34
- A.W.C, 4/35
- A.W.C,13/35
- A.W.C,14/35
- A.W.C,15/35
- A.W.C,6/32
- A.W.C,9/35
- A.W.C. Inventaire analytique des archives privées saisies en Mai 1945 boîte N° 05 Mohamed ben Ahmed El Mansouri El Ghassiri Constantine.
- Archives de Constantine, départements de laures, AN67, 1937.

الأرشيف التونسي:

- Archives National de Tunisie, carton N°271, Dossier N°06 administration général, indigènes algériens instruction interdiction du territoire résidence au Tolbas Algériens.

- Archives Outre Mer Aix en provence أرشيف ما وراء البحار آكس أون برفانس
- A.N.O.M : 93/4496 Le problème des Oulama et la question religieuse.
- A.N.O.M : 11H74 Synthèse des renseignements généraux Alger -
- A.N.O.M : 93/4496 : Enseignement de la langue arabe dans différents établissements scolaires Benbadis et autres
- A.N.O.M : F80/505, Cercle de Batna, année 1856
- A.N.O.M :F 80 506 , cercle de Tébessa, rapport du 4eme trimestre 1857 .-
- A.N.O.M :93/2522, Bulletin mensuel des questions islamiques, Septembre 1950. -
- A.N.O.M 93/2522 Bulletin mensuel des questions islamiques, Juillet 1950
- A.N.O.M : 10H/90, GGA une nouvelle phase de l'Histoire turbulente de l'Aurès : le conservatisme berbère aux prises avec le réformisme des Oulémas 1938
- A.N.O.M 1H2864 Grands traits de la situation religieuse dans l'est algérien
- A.N.O.M 93 / 4496 L' activité des Ulémas Algériens 1938.

● المصادر باللغة العربية:

- ابن أبي زيد القيرواني: الثمر الداني في شرح رسالة أبي زيد القيرواني، تحقيق صالح عبد السميع الآبي الأزهري، مطبعة المنار، بلات ط.
- ابن القيم الجوزية: الطب النبوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1957.
- آثار الإمام ابن باديس، ج4، دار الطباعة للنشر والتوزيع قسنطينة، الجزائر، 1991.
- آثار الإمام ابن باديس، ج5، دار الطباعة للنشر والتوزيع قسنطينة، الجزائر، 1991.
- أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، ج2، الشركة الوطنية للتوزيع الجزائر، 1977.

قائمة المصادر والمراجع

- أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر، دار البصائر، الجزائر،
- بيار كاستال: حوز تبسة دراسة وصفية جغرافية تاريخية لإقليم تبسة وأعراشه "من فجر التاريخ إلى بداية القرن العشرين، تع وتحت وتر العربي عقون، دار المثقف للنشر والتوزيع ط2، 2020
- حمدان بن عثمان، خوجة: المرأة، ترجمة محمد العربي الزبيري، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر
- دوارد، دونوفو: الإخوان (دراسة انثروبولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر)، ترجمة وتحقيق كمال فيلاي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2003.
- عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير من كلام الحكيم النذير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط1، الجزائر، 1983،
- عبد الرحمان بن إبراهيم العقون: الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر (الفترة الأولى 1920-1936، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984
- العربي التبسي: مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، القسم الثاني، جمع وتعليق أحمد شرقي الرفاعي، ط1، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة.
- علي حراز بن العربي برادة: جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، ج2، مطبوعات سالم الحبيب الجزائري، دار التجاني للطباعة والنشر والتوزيع، تغزوت، الوادي، الجزائر.
- القرآن الكريم.
- مالك بن نبي: مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر المعاصر، لبنان، بلات.
- مالك بن نبي: العفن، ترجمة نور الدين خندودي، دار الأمة، ط1، الجزائر، 2007.
- مبارك الملي: رسالة الشرك ومظاهره، ط3، دار البعث قسنطينة، الجزائر، 1978
- محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1929-1940)، ج1، جم وتق أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997.
- محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1929-1940)، ج2، جم وتق أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
- محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام البشير الإبراهيمي (1954-1962)، ج3، جم وتق أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
- محمد البشير الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- محمد البشير الإبراهيمي: سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام بناي الترقى بالجزائر، دار الكتب، ط2، 1982
- محمد البشير الإبراهيمي: في قلب المعركة (1954-1964)، جمع وتصدير أبو القاسم سعد الله، ط1، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1995.

قائمة المصادر والمراجع

- محمد المنصور الغسيري: صورة من حياة ونضال الزعيم الإسلامي المصلح الديني الكبير الشيخ ابن باديس، تقديم وتعليق مسعود فلوسي، ط1، مطابع عمار قرني، باتنة، 2006
- محمد، خير الدين: مذكرات، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، بلات.
- محمد، خير الدين: مذكرات، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، بلات.

● المذكرات الشخصية:

- أحمد بن السعدي ميمون: حياة المجاهد الإمام المصلح الشيخ " أحمد الميموني الغسيري الأوراسي "، مذكرات شخصية غير منشورة.

● المجلات المصدرية:

- البصائر العدد 15، السنة الأولى 1935.
- البصائر العدد 5، السنة الأولى 1935.
- البصائر العدد 6، السنة الأولى 1935.
- البصائر العدد 9، السنة الأولى 1935.
- البصائر العدد 10، السنة الأولى 1935.
- البصائر العدد 11، السنة الأولى 1935.
- البصائر العدد 12، السنة الأولى 1935.
- البصائر العدد 13، السنة الأولى 1935.
- البصائر العدد 16، السنة الأولى 1935.
- البصائر العدد 20، السنة الأولى 1935.
- البصائر العدد 525، السنة الأولى 1935.
- البصائر، العدد2، السنة1، 1936.
- البصائر، العدد 4 ، 24\01\1936.
- البصائر، العدد 16، السنة الأولى، 24أفريل 1936.
- البصائر، السنة الأولى، العدد 18، يوم 08 ماي 1936.
- البصائر، العدد49، السنة2، 1جانفي 1937.
- البصائر، العدد46، السنة2، 23 افريل 1937.
- البصائر، السنة 03، العدد 121، 1938م.
- البصائر، العدد 08، 07 افريل 1938.

قائمة المصادر والمراجع

- البصائر، العدد108، السنة2، 15 افريل 1938.
- البصائر 4-5 جوان -جويلية 1938
- البصائر، العدد124، 29 جويلية 1938.
- البصائر، العدد 134، السنة الثالثة، الجمعة 07 أكتوبر 1938.
- البصائر، العدد02، 1947م
- البصائر، العدد8، السنة1، 26 سبتمبر 1947.
- البصائر، العدد11، السنة 1، 20 أكتوبر، 1947.
- البصائر، السنة2، سنة 1948.
- البصائر، العدد5، 18 جانفي 1948.
- البصائر، العدد90، السنة02، السلسلة2، 5 سبتمبر 1948.
- البصائر، العدد57، السنة2، 24 جانفي، 1949.
- البصائر، العدد93، السنة3، السلسلة2، 1949.
- البصائر، العدد 125، 21 ماي 1951.
- البصائر، العدد172-173، السنة4، 15 أكتوبر 1951.
- البصائر، العدد 239، السنة السادسة، 4 سبتمبر 1953.
- البصائر، العدد 244، السنة السادسة، 23 أكتوبر 1953.
- البصائر، العدد 286، سنة 02، سبتمبر 1954،
- الشهاب: العدد 3، 26 نوفمبر 1925
- الشهاب، العدد 6، السنة الأولى، 18 ديسمبر 1925.
- الشهاب، العدد 09، 07 جانفي 1926
- الشهاب، مج 1، ع31، 27 جوان 1926.
- الشهاب :ج9، سنة 1929.
- الشهاب، مج6، السنة 6، نوفمبر 1930.
- الشهاب، ج11، م 6، ديسمبر 1930.
- الشهاب، المجلد 7، السنة السابعة، 1931
- الشهاب ج 1 الشهاب، ج11، م10، 10 أكتوبر 1934
- الشهاب، نوفمبر 1931
- الشهاب، 14 جوان 1934، ج7، م10
- الشهاب، ج11، مجلد 10، 10 أكتوبر 1934

قائمة المصادر والمراجع

- الشهاب، أكتوبر 1934
 - الشهاب، ج 8، مج 11، نوفمبر 1935
 - الشهاب، ج 1، أبريل 1936
 - الشهاب، ج 4 و 5، المجلد 14، جوان - جويلية 1936.
 - الشهاب ج 6، مجلد 12، أوت وسبتمبر 1936
 - الشهاب، سبتمبر 1936.
 - الشهاب، ج 4، م 5، جوان-جويلية 1938
 - الشهاب : ج 1، المجلد 5، فيفري 1939
 - ذوالفقار، ع 1، 05 أكتوبر 1913.
 - ذوالفقار، ع 3، 14 جويلية 1914.
 - جريدة المجاهد العدد 33، 8 ديسمبر 1958
 - جريدة المجاهد، العدد 83، 1958م.
 - جريدة النجاح العدد رقم 740 الاثنين 20 ماي 1929.
 - النجاح: الثلاثاء 1925/10/27.
 - المنار، العدد 13، السنة الأولى، 4 جانفي 1952.
- المعاجم ودوائر المعارف:
- بيل: دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، دار الشرق، القاهرة، 1933.
 - عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن 20 م، ط 1، منشورات المكتب التجاري، بيروت 1971.
- المصادر باللغة الفرنسية:
- Carette, Le commerce de l'Algérie avec l'Afrique centrale et les états barbaresques, Paris, 1844.
 - Colonel De Lartigue : Monographie de L'Aurès, Constantine, 1904.
 - Jacques Soustelle : Aimée et souffrante Algérie paris typographie ; plan 8 rue garancière ; 1956.

قائمة المصادر والمراجع

- Jean, Boisson : Les nomades des départements sahariens, TXVII, 1er et 2eme semestre, 1958.
- Louis Rinn : Marabouts et Khouans, Adolphe Jourdan, libraire-éditeur, Alger, 1884.
- Mathea, Gaudry: la femme Chaouia de l'Aurès, Chihab-awal, Algérie 1998.
- Octave Depont, Coppolani Xavier, les confréries religieuses musulmanes, Jourdan, Alger, 1897.

• الصحف الفرنسية:

- LE MONDE : 13/07/1955, LES ULÉMAS ONT FANATISÉ LES BERBÈRES de l'Aurès aujourd'hui en rébellion contre la France nous déclare M. Jean SERVIER.

• المراجع باللغة العربية:

- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الحديث , بداية الاحتلال, معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة
- أبو القاسم سعد الله: أفكار جامعة، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1999م، الجزائر.
- أبو القاسم، سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (1830_1900)، ج1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015.
- أبو القاسم، سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983
- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930)، ج2، دار الغرب الإسلامي، الجزائر ط4، 1992
- أبو القاسم، سعد الله: الحركة الوطنية (1930-1945)، ج3، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، ط1، القاهرة مصر، 1975.
- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، (دب)، 1996
- أبو القاسم سعد الله : أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1990.
- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1996.

قائمة المصادر والمراجع

- أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16م_20 م)، ج2، الجزائر، 1981.
- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1830_1954، ج3، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954)، ج4، ط1، دار الغرب الإسلام، (دب)، 1998.
- أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954)، ج7، ط1، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1954م-1962م، ج09، عالم المعرفة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2015م.
- أبو القاسم، الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج2، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991
- أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر
- أحمد صاري : شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصرة ، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 2004
- أحمد طالب الإبراهيمي: مذكرات جزائري أحلام ومحن 1932-1965، ج1، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006-2007م
- أحمد عيساوي: منارات من شهاب البصائر (1891-1957) مطبعة الوليد، الجزائر، 2006.
- أحمد مريوش: الحياة الثقافية والاجتماعية في الجزائر خلال العهد العثماني، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.
- أحمد مريوش: الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية، دار هومة، الجزائر، 2007.
- أحمد مهساس: الحقائق الاستعمارية والمقاومة، دار المعرفة، الجزائر، 2007
- أزغيد محمد لحسن: مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية 1956-1962، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005.
- أندري ديرليك: عبد الحميد بن باديس 1307-1358 هـ 1889-1940 م مفكر الإصلاح وزعيم القومية الجزائرية، تقديم وترجمة مازن بن صلاح المطبقاني، عالم الأفكار، الجزائر 2013
- إيف، لاکوست وآخرون: الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي، دار المعارف، بيروت، لبنان.
- إيفون تيران، المجاهبات الثقافية في الجزائر المستعمرة (المدارس و الممارسات الطبية و الدين (1830-
- 1880م)، ترجمة: محمد عبد الكريم أوزغلة، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007م.

قائمة المصادر والمراجع

- باعيز بن عمر: من ذكرياتي من الإمامين الرئيسين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، منشورات الحبر، الجزائر، 2006م
- بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، ط2، دار النفائس، (دت)، 1983.
- بشير كاشة الفرحي: الإمام المفتي الشيخ الطاهر مسعودان الحركاتي، دار الأفاق الجزائر
- بن أشنهو، عبد اللطيف : تكوين التخلف في الجزائر (محاولة لدراسة جذور التنمية الرأسالية في الجزائر (1830-1962) , ترجمة نخبة من الأساتذة ' الشركة الوطنية للنشر والتوزيع , الجزائر , 1979
- بوعلام بن حمودة: الثورة الجزائرية أول نوفمبر 1954: معالمها الأساسية، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، 2012
- توفيق، حامد المرعشلي : صفحات في تاريخ مصر، شركة ماهية مصرية ، مطبعة مصر ، 1929.
- جمال خرشي: الاستعمار وسياسة الاستيعاب في الجزائر (1830-1962)، ترجمة عبد السلام عزيزي، دار القصبه، الجزائر، 2009.
- جمال قنان: قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994.
- جيلالي صاري ومحفوظ قداش: المقاومة السياسية 1900-1954 الطريق الإصلاحي والطريق الثوري، ترجمة عبد القادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1987،
- حميدة، عميراي: جوانب من السياسة الفرنسية وردود الفعل الوطنية في قطاع الشرق الجزائري (بداية الاحتلال)، دار البعث والنشر، قسنطينة ، ط1، 1984.
- خمري، الجمعي: نماذج من الجمعيات والنوادي الثقافية لحركة الجزائر الفتاة في مطلع القرن العشرين، ملتقى المراكز الثقافية والعلمية في العالم العربي عبر العصور، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، مصر 2001
- رابح التركي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس فلسفته و جهوده في التربية و التعليم، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ط02، الجزائر.
- رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الجزائرية (1931_1956) دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر، ط1981، 2
- رابح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال، الجزائر، ط01، 2005.
- رابح تركي: عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم (1900 م-1940 م)، ط01، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر
- رابح تركي، جمعية العلماء المسلمين التاريخية1930-1956 ورؤساؤها الثلاثة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، ط1، 2004

قائمة المصادر والمراجع

- سعيد بوزيان: نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فرنسا 1936-1954، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، بلات ط
- شارل رويبر أجيرون: الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871-1919، ج2، دار الرائد للكتاب، الجزائر
- شارل رويبر أجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة: عيسى عصفور، منشور عويدات، باريس، ط1، 1982.
- صالح بن نبيلي فركوس: تاريخ الثقافة الجزائرية من العهد الفينيقي إلى غاية الاستقلال 814 ق.م- 1962م، ج2، ايدكوم للنشر والتوزيع- وزارة الثقافة، الجزائر، 2013م.
- صالح فركوس: تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال (المراحل الكبرى)، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005
- صلاح العقاد: المغرب العربي بين التضامن الإسلامي و الاستعمار الفرنسي، ج2، المكتبة الأنغلو مصرية، دار الطباعة الحديثة، بلات.
- عباس كحول: قراءة في مقاومة الصادق بن الحاج " بالزاب وأحمر خدو والأوراس 1844-1859م، دار علي بن زيد لطباعة والنشر، بسكرة، الجزائر، ط1، 2015
- عبد الاله بلقزيز: الدولة في الفكر الإسلامي المعاصر، ط1، مركز الدراسات للوحدة العربية بيروت، 2002.
- عبد الاله بلقزيز: تكوين المجال السياسي الإسلامي (النبوة والسياسة)، ط1، مركز الدراسات للوحدة العربية بيروت، 2005.
- عبد الباسط دردور: نبذة عن حياة الشيخ عمر دردور، أعضاء على نشاط الحركة الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في منطقة الأوراس، الرياض للطباعة و النشر و التوزيع، باتنة.
- عبد الحميد زوزو: الأوراس إبان فترة الاحتلال الفرنسي (التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية) 1837-1939، تر مسعود حاج مسعود، ج1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005.
- عبد الحميد زوزو: الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي (التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية) 1837-1939، ترجمة مسعود حاج مسعود، ج 02، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م.
- عبد الحميد زوزو: الثقافة والتعليم الحر والرسمي في العهد الفرنسي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2017.
- عبد الحميد، (زوزو): ثورة الأوراس 1979، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
- عبد الحميد، زوزو: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1900)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007

قائمة المصادر والمراجع

- عبد الرحمان بن إبراهيم العقون: الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر (الفترة الأولى 1920-1936، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984
- عبد الرحمن، رزاقى : تجارة الجزائر الخارجية (صادرات الجزائر فيما بين الحربين)، الشركة الوطنية
- عبد السلام بوشارب: تبسة معالم ومآثر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والتوزيع، وحدة الطباعة الروبية، الجزائر، 1996
- عبد القادر جغلول: الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، تر سليم قسطون، دار الحداثة لبنان، ط1، 1984.
- عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، شركة دار الأمة للطباعة والتوزيع، الجزائر، 1999
- عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث والمعاصر (محمد عبدو وعبد الحميد بن باديس) نموذجان، ج1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2005،
- عبد الكريم بوصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945، ط1، دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة الجزائر، 1981.
- عبد الكريم بوصفصاف: رواد النهضة والتجديد في الجزائر 1889-1965، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2007،
- عبد المالك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954م، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983
- عبد الوهاب بن خليف: الوجيز في تاريخ الجزائر، دار بني مزغنة، الجزائر، 2005.
- عدي، الهواري : الاستعمار الفرنسي في الجزائر (سياسة التفكك الاقتصادي والاجتماعي (1830-1960)، ترجمة جوزيف عبد الله ، ط1، دار الحداثة ، لبنان ، 1983 .
- علي، مراد: الحركة الإصلاحية الجزائرية من 1925 -1940، ترجمة محمد يحياتن، دار الحكمة الجزائر، 2007
- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، (د.ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997
- عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج1، ط1، دار اليقظة العربية، بيروت 1968
- عمار عمورة، الجزائر بوابة التاريخ إلى 1962، ج2، دار المعرفة، الجزائر، 2006
- عمار ملاح: قادة جيش التحرير الوطني، ج06، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2014م.
- عمار، هلال: أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1962، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995
- عمر بن قينة: صوت الجزائر في الفكر الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م.

قائمة المصادر والمراجع

- فاني، كولونا: مثقفون في الأطراف ، من كتاب الأنتلجانسيا في المغرب العربي، ط1 ، دار الحدائة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1984.
- فيلاي، مختار :نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني، ط1، دار الفن القرافيكي للطباعة والنشر باتنة، الجزائر، ص53.
- كمال عجال: الفكر الإصلاحي في الجزائر: الشيخ الطيب العقبي بين الأصالة والتجديد، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007
- لحسن بن علجية: الشيخ عمر دردور، دار الهدى للطباعة والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 1914
- مارسيل اجريتو، الجزائر الوطن، ترجمة عبد الله نوار، سلسلة كتب سياسية، القاهرة، 1959م.
- مالك بن نبي: شروط النهضة، دار الفكر المعاصر البنان بلات
- محفوظ قداش والجيلالي، صاري: المقاومة السياسية (1900-1954) الطريق الإصلاحي والطريق الخوري، ترجمة عبد القادر بن حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987.
- محفوظ قداش وجيلالي صاري: الجزائر صمود ومقاومات 1830-1962، ترجمة أوزاينية خليل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012
- محفوظ قداش: تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية (1919-1939)، ترجمة محمد بن البار، ج1، دار الأمة، الجزائر، 2008.
- محمد الأمين بشيشي: ذكريات مع العلامة الشهيد العربي التبسي - طيب الله ثراه- وشذرات عما عرفته من مسيرته، أشغال الملتقى الوطني للفكر الإصلاحي في الجزائر، الجمعية الثقافية العربي التبسي ولاية تبسة، أفريل 2003، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر
- محمد الحسن فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر القطاع الجزائري، ج1، ط1، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، 1999.
- محمد الحسن فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر القطاع الجزائري، ج2، ط1، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، 1999.
- محمد الحسن فضلاء: المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر القطاع الجزائري، ج3، ط1، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، 1999.
- محمد الحسن فضلاء: من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب وتطويرها وزارة الثقافة الجزائر، 2002،
- محمد الحسن فضلاء: من أعلام الإصلاح في الجزائر، دار هومة، ج1، الجزائر
- محمد الصالح الجابري: النشاط العلمي الفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس (1900م-1962م)، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1983م.

قائمة المصادر والمراجع

- محمد الصغير هلايلي: شاهد على الثورة في الأوراس "مذكرات الرائد هلايلي محمد الصغير"، دار القدس العربي وهران، الجزائر، 2012
- محمد العربي الزيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري من 1792 إلى 1830، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984
- محمد العربي زيري: تاريخ الجزائر المعاصرة، إتحاد كتاب العرب، دمشق، 1999
- محمد المهدي بن شعيب: تاريخ قسنطينة أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، ، 1980 .
- محمد الهادي الحسني: من وحي البصائر، دار الامة، الجزائر، 2004.
- محمد الهادي شريف : تاريخ تونس، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجيبه، ط3، دار سراس للنشر تونس، 1993،
- محمد بلقاسم حسن، بملول : القطاع التقليدي في الزراعة بالجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، 1985.
- محمد بهي الدين سالم: ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، ط1، دار الشرق، مصر، 1999
- محمد عابد الجابري : العصبية والدولة ، معالم نظرية ابن خلدون في التاريخ الإسلامي ، ط1، دار الثقافة الدار البيضاء ، المغرب.
- محمد علي ديبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج1، عالم المعرفة، الجزائر، 2013
- محمد علي ديبوز: أعلام الإصلاح، ج3، ط1، المطبعة العربية، 1969
- محمد علي ديبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ط1، المطبعة العربية، 1969
- محمد مهري: ومضات من دروب الحياة " مذكرات المحامي النقيب الأستاذ محمد مهري "، ط1، منشورات السائحي، الجزائر، 2013.
- محمد مواعدة: محمد الخضر حسين حياته وآثاره، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974
- محمود السيد: تاريخ دولة المغرب العربي، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية، 2010
- محمود الواعي: حياة الشيخ الهاشمي بن علي دردور، تاريخ الأوراس ونظام التركيبة الاجتماعية والإدارية في أثناء فترة الاحتلال الفرنسي من (1837- 1954)، دار الشهاب، باتنة .
- مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة حنفي بن عيسى، دار القصبه للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2007
- مصطفى حميداتو: عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، ط1، كتاب دار الأمة، قطر، 1997
- مصطفى عشوي: المدرسة الجزائرية إلى أين ؟، دار الأمة، الجزائر، بلات ط
- موساوي زروق: مسيرة مقاوم من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 2015
- مولود عويمر: عبد الحميد بن باديس مسار وأفكار، جسور للنشر والتوزيع، ط2016، 2.

قائمة المصادر والمراجع

- نذير، طيار: شاهد القرن من سقوط أم الحواضر إلى علم سقوط الحضارات، كتاب قيد الطبع .
- نور الدين الدقي: المغرب العربي والاستعمار الفرنسي، سراش للنشر، تونس، 1997
- يحي بوعزيز: السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري 1830-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991
- يحي، بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1999.
- يحي، بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2004
- يحي، بوعزيز: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830 - 1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007
- يوسف حميطوش: منابع الثقافة السياسية و الخطاب الوطني، دار الامة، الجزائر، ط1، 2003.
- الرسائل الجامعية:
- أحمد مريوش: الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، معهد التاريخ بوزريعة جامعة الجزائر، 1991 - 1992.
- رضا الغول: الجمعيات الخيرية في تونس قبل الاستقلال الهياكل والوظائف، مذكرة لنيل الكفاءة في البحث، جوان 1993، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس.
- زغب عثمان: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة وادي سوف (1918- 1947) وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم التاريخ وعلم الاثار جامعة الحاج لخضر باتنة، السنة الجامعية 2006 -2007.
- محمد القرصو: الحركة الإصلاحية الجزائرية: تأسيس ونشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة وهران 1931-1935، شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ، جوان 1977، جامعة وهران.
- مهديد ابراهيم، الجزائريون في القطاع الوهراني بين 1900-1948، الجذور الثقافية والهوية الوطنية والنشاط السياسي، رسالة دكتوراه دولة في تاريخ المعاصر، وهران، 2000.
- موسى بن موسى: الحركة الإصلاحية في وادي سوف، نشأتها وتطورها (1900 - 1939)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، السنة الجامعية 2005-2006.

• المصادر باللغة الفرنسية:

- Busson Henri, les vallées de l'Aurès, annales de géographie, t, IX, année 1900.
- Colonna, Fanny, Les débuts de L'Islah dans L'Aurès 1936-1938 Revue Algérienne des sciences juridiques économiques et politiques V X I V N° 2 Juin 1977 office des publications universitaires Algérie.
- Cote Marc, l'Aurès, une montagne atypique, revue Aouras, Société d'étude et de recherches sur l'Auras Antique, N 02, Décembre, Paris, 2004.
- Masqueray, Emile, voyage dans l'Auras, études historique, bulletin de la société de géographie de Paris, T14eme, Imprimerie de Martinet Paris1876
- Mesnard. P L :Ecole française S'adapte aux masses musulmanes en Algérie in Etudes, Juin 1948.

• لغات أجنبية أخرى:

- Abdullah Emin Çimen: Tahir el-Cezairi ve Tefsir İlmindeki Yeri Sayfa Dijital Baskı İstanbul 2008.

• التسجيلات الصوتية:

- عمر، دردور: تسجيل إذاعي (حصة نور ومنار تقديم يحياوي)، إذاعة الأوراس، الحلقة الأولى سنة 1996.
- تسجيل خاص لشهادة المجاهد الصيد الربيعي حول الشيخ سعد حب الدين: تم تسجيله من قبل محمد الطيب حب الدين نجل مترجمنا، بلقرين، أولاد فاضل 1987م.
- تسجيل خاص لشهادة غضبان محمد الطاهر حول الشيخ سعد حب الدين: تم تسجيله من قبل محمد الطيب حب الدين نجل مترجمنا، بوعقال باتنة، 2000م.

قائمة المصادر والمراجع

● المقابلات:

- مقابلة شخصية مع السيد عبد الرحمان شيبان، حسين داي، الجزائر العاصمة يوم 2008/6/12.
- مقابلة شخصية مع السيد علي بن بلقاسم صحفي و كاتب من جلساء الشيخ حمودة بن الساعي، باتنة، 2008/5/03.
- مقابلة شخصية مع مسعود بن عبيد تلميذ ومعلم سابق بمدارس جمعية العلماء ومحافظ سياسي بالثورة التحريرية، باتنة، 28 أوت 2017.
- مقابلة شخصية مع السيدة فاطمة ميمون، أخت مترجمنا أحمد ميمون، بسكرة 12 ماي 2014م.
- مقابلة شخصية مع السيد محمد بن علي عمايري، مجاهد و أحد أعيان غسيرة تتلمذ بها في مدارس جمعية العلماء، باتنة، 2014/12/26م.
- مقابلة شخصية مع شلواي عبد المجيد، مجاهد و مثقف مهتم بتاريخ منطقة بني فرح متحف المجاهد، بسكرة، 2015/12/11م.
- مقابلة شخصية مع السيد بشير زاغر مجاهد و رئيس جمعية أول نوفمبر 1954م، بسكرة، 2015/12/11م.
- مقابلة شخصية مع السيد العربي دحو تلميذ سابق بمدارس الثور ومجاهد وأستاذ وباحث جامعي، باتنة 23 فيفري 2015.
- مقابلة شخصية مع السيد عمار ملاح باتنة 2008/05/17.
- مقابلة شخصية مع السيد نور الدين مسعودان باتنة 2008/05/21.
- مقابلة شخصية مع السيد لخضر مدور ورقة 2008/05/25 .
- مقابلة شخصية مع السيد محمد مدور ورقة 2009/06/26.
- مقابلة السابقة مع السيد علي أوجيت باتنة 2009/07/26.
- مقابلة شخصية مع السيد دروف محمد الهاشمي بسكرة 2009/8/20.
- مقابلة شخصية مع السيد محمد نذير السبع: باتنة يوم 2009/08/24.
- مقابلة شخصية مع السيد صالح تمقلين باتنة يوم 2009/08/ 25.
- مقابلة شخصية مع السيد عبد المالك بورزام، انقاوس يوم 2009/08/28.
- مقابلة شخصية مع السيد شرفي الرفاعي ، قسنطينة الدقسي 2009/08/ 30.
- مقابلة شخصية مع السيدان صالح مدور وعلي مدور، ورقة 2009/10/18 .
- مقابلة شخصية مع السيدة فيالي بن فيفي أرملة مترجمنا يوم 2014/04/22م.
- مقابلة شخصية مع عبد الباسط دردور تازولت يوم 27 - 08 - 2009

قائمة المصادر والمراجع

- مقابلة شخصية مع السيد عبد الحق بن باديس الأخ الصغير للشيخ عيد الحميد، مؤسسة ابن باديس قسنطينة 21 مارس 2015.

- مقابلة شخصية مع السيد عمار طالي أحد تلاميذ جمعية العلماء وباحث في تراث رئيسها ابن باديس، عين ارنات سطيف 27 نوفمبر 2015.

● المجلات دراسات في:

- مجلة الأصاله، العدد 32، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر

- مجلة الأصاله، العدد 63، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر

- مجلة التراث، تصدر عن جمعية التاريخ والتراث الأثري لمنطقة الأوراس، العدد 09، نوفمبر 119.

- مجلة الثقافة، العدد 94، يوليو - أغسطس 1986 وزارة الشؤون الدينية، الجزائر .

- مجلة الثقافة، العدد 35، أكتوبر، نوفمبر 1976 وزارة الشؤون الدينية، الجزائر .

- مجلة الثقافة، العدد 45، السنة الثامنة، (يونيو - يوليو 1978م) وزارة الشؤون الدينية، الجزائر .

- مجلة الثقافة، العدد 84، نوفمبر - ديسمبر، 1984،

- مجلة الثقافة، العدد 94، يوليو 1986م وزارة الشؤون الدينية، الجزائر .

- المجلة العربية لحقوق الإنسان، السنة الرابعة، العدد 4، فيفري، 1997

- المجلة المغاربية للمخطوطات، العدد 05، جوان 2017م

- مجلة المنهل المجلد 2 العدد 1 جوان 2016

- مجلة الهجرة والرحلة، جامعة منتوري قسنطينة، العدد الأول، أفريل 2005،

- مجلة سيرتا مجلة تاريخية اجتماعية يصدرها دوريا معهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسنطينة، العدد 9/8 السنة الخامسة، ديسمبر 1983.

- مجلة سيرتا، السنة الأولى، العدد 02، نوفمبر 1979، معهد العلوم الاجتماعية قسنطينة.

● الجرائد واليوميات:

- جريد الشروق اليومي، العدد 5071، 16 أفريل 2016

- جريدة الاوراس، عدد 173، من 19 أفريل إلى 25 أفريل 1993

- جريدة الأوراس، العدد 303، 2015م.

- جريدة البصائر، عدد 786، 2015

- جريدة النهار 18 سبتمبر 2010م.

- جريدة النور، العدد، 24، 1991.

- جريدة رسالة الأطلس، العدد 189، 18 الى 24 ماي 2008 .

قائمة المصادر والمراجع

• المقالات غير المنشورة:

- جمعة بن زروال: الشيخ أحمد بن السعدي ميمون الغسيري ودوره في الحركة الإصلاحية والتعليمية في منطقة الأوراس والزيان، مداخلة بملتقى العربي التبسي بجامعة العربي التبسي تبسة المنعقد يومي 5-6 أفريل 2011م.
- درر عبد الباسط: الشيخ المجاهد سعد حب الدين، محاضرة بمناسبة عيد العلم ببلدية أولاد فاضل 16 أفريل 2015.
- علي بن بلقاسم: محاضرة بعنوان معالم الشيخ الطاهر مسعودان الحركاتي، ناظرة الشؤون الدينية باتنة، 1993
- علي شيخ: محاضرة مطبوعة بعنوان "المرحوم الإمام الشيخ الطاهر مسعودان الحركاتي"، ملتقى ذكرى علماء الأوراس، رجال الفكر و الإصلاح، تنظيم نظارة الشؤون الدينية لولاية باتنة، 1996م.
- فرحات نجاحي: محاضرة بعنوان "حياة مناضل، أحمد السرحاني"، 8 ماي 1996م
- مصطفى تيمقلين وصلاح تيمقلين: محاضرة بعنوان نبذة عن حياة الشيخ أحمد تيمقلين السرحاني، 19 أكتوبر 1996.

• المراجع باللغة الفرنسية:

- Ageron Charles Robert, l'Algérie algérienne de napoléon 3 à Charles de Gaule, édition Sindbad ,France ,1980.
- Collot Claude et Jean Robert Henry, Le mouvement nationale Algérien (Textes 1912_1954) Préface de Ahmed Mahiou, OP U Alger 1978.
- Hadad Mostfa, L'émergence de L'Algérie moderne le constantinois entre les deux guerres 1919-1939 Tome I 1ere édition Guerfi, Batna 2001.
- Hellal Amar, Le mouvement réformiste algérien les hommes et l'histoire (1831-1957), O.P.U, Alger, 2002.
- Merred Ali, le réformisme musulman en Algérie, les éditions el hikma, Alger, 1999.
- Turin Yvonne , Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale : Ecoles, Médecines, Religion 18830-1880, F. Maspero, Paris, 1971.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الصفحة	المحتويات
	الإهداء
	الشكر والعرفان
أ	المقدمة
18	الباب الأول: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (النشأة والمشروع).
20	الفصل الأول: الحياة العامة في الجزائر قبيل نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
21	المبحث الأول: الحياة السياسية
21	أولاً: السياسة الاستعمارية الأهلية (1900 إلى 1930م).
25	ثانياً: ظهور الحركة الوطنية الجزائرية
29	المبحث الثاني: الحياة الاقتصادية
29	أولاً: الملكية العقارية و تأثيرها على الإنتاج الفلاحي
32	ثانياً: الثروة المنجمية وتأثيرها على الواقع الصناعي
35	المبحث الثالث: الحياة الاجتماعية.
35	أولاً: مجتمع الكولون "تشكيله وهيمنته"
37	ثانياً: تدهور الوضع الاجتماعي للمجتمع الأهالي
39	المبحث الرابع: الحياة الثقافية.
39	أولاً: حالة التعليم في الجزائر
48	ثانياً: الصحافة في الجزائر
50	ثالثاً: السياسة الثقافية الفرنسية في الجزائر
56	الفصل الثاني: المشروع الإصلاحى في الجزائر (الجدور والتوطين)
57	المبحث الأول: جذور الفكرة الإصلاحية في الجزائر
66	المبحث الثاني: ابن باديس وعوامل توجيهه الإصلاحى
73	المبحث الثالث: جهود الشيخ ابن باديس في توطين الفكر الإصلاحى في الجزائر
83	المبحث الرابع: نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.
83	المطلب الأول: فكرة الجمعيات بالوسط الأهلى في فترة الاستعمار
87	المطلب الثاني: مخاض تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
91	المطلب الثالث: ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

فهرس الموضوعات

94	المطلب الرابع: أهداف ومبادئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
95	أولا: أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
97	ثانيا: مبادئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
99	الفصل الثالث: المشروع والفكر التعليمي عند ج ع م ج.
100	المبحث الأول: الرؤية التعليمية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين
100	المطلب الأول: الفكرة الوطنية والدينية في الرؤية التعليمية للجمعية
104	المطلب الثاني: تحديث جهاز التعليم
104	أولا_ الفضاء التعليمي
106	ثانيا_ الإطار التعليمي
108	المبحث الثاني: نماذج من التجارب التعليمية لقادة ج ع م ج
108	المطلب الأول: التجربة التعليمية للشيخ عبد الحميد بن باديس
108	أولا_ جهده التعليمي
112	ثانيا_ موصفات الدرس الباديسي
114	المطلب الثاني: التجربة التعليمية للشيخ محمد البشير الإبراهيمي
114	أولا_ نشأته وتكوينه
117	ثانيا_ مواصفات الدرس التعليمي للشيخ الإبراهيمي
120	ثالثا_ التعليم عند الإبراهيمي (المرامي والغايات)
121	المطلب الثالث: التجربة التعليمية للشيخ الطيب العقبي
126	المطلب الرابع: التجربة التعليمية للشيخ مبارك الميلي
126	أولا _ نشأته وتكوينه
129	ثانيا_ جهوده في التعليم
140	المطلب الخامس: التجربة التعليمية للشيخ العربي التبسي
140	أولا _ نشأته وتكوينه
142	ثانيا_ جهوده التعليمية
151	الفصل الرابع: نظام ومناهج التعليم وواقع مؤسساته عند جمعية العلماء
152	المبحث الأول: المقررات والبرامج
153	أولا - المقررات والبرامج في التعليم المسجدي
153	ثانيا- المقررات والبرامج في التعليم المدرسي

فهرس الموضوعات

161	المبحث الثاني: التنظيم التربوي والتعليمي.
161	أولا_ تنظيم العطل الأسبوعية والسنوية
162	ثانيا: توظيف المعلمين
164	ثالثا: الامتحانات والشهادات
166	رابعا: التفتيش والمهام البيداغوجية
168	خامسا_ تمويل التعليم
170	المبحث الثالث: المؤسسات التعليمية لجمعية العلماء (1931 الى 1956).
170	المطلب الأول: التعليم المدرسي
170	أولا_ مراحل تطور التعليم المدرسي لدى الجمعية
190	ثانيا_ تطورات أخرى في ميدان تعليم جمعية العلماء
196	المطلب الثاني: التعليم من خلال المساجد و النوادي والكشافة الإسلامية
204	المبحث الرابع: موقف الإدارة الاستعمارية من تعليم الجمعية العلماء
209	الباب الثاني: تعليم ج م ع م في الأوراس (الواقع والأثر)
211	الفصل الأول: تطورات الأوضاع في الأوراس عشية حضور ج ع م ج في المنطقة
212	المبحث الأول: الحالة العامة للأوراس قبيل دخول ج ع م ج
212	المطلب الأول: التحديد الجغرافي والوضع الاقتصادي لأوراس
212	أولا_ التحديد الجغرافي للأوراس
213	ثانيا_ الأوضاع الاقتصادية
221	المطلب الثاني: الأوضاع الاجتماعية
221	أولا: الوضعية الديموغرافية
223	ثانيا: الفئات الاجتماعية
225	ثالثا: التغذية
226	رابعا: السكن
227	خامسا: القلعة
229	المطلب الثالث: الأوضاع الثقافية
229	أولا: الطرق الصوفية
239	ثانيا: التعليم العربي الإسلامي
243	ثالثا: التعليم الفرنسي

فهرس الموضوعات

244	رابعاً_النشاط التبشيري بالأوراس
248	خامساً_الطب
251	المبحث الثاني: بواذر انتشار فكر ومؤسسات ج ع م ج في منطقة الأوراس
251	المطلب الأول: شخصيات إصلاحية وتعليمية باكرة في الأوراس
260	المطلب الثاني: نماذج من الطلائع الأولى للطلبة الأوراسيين للجامع الأخضر
266	المطلب الثالث: دور الطلبة في نشر الفكر الإصلاحي لج ع م ج في الأوراس
276	الفصل الثاني: جهود رجال منطقة الأوراس في التعليم.
277	المبحث الأول: التعليم المسجدي بالأوراس .
279	المطلب الأول: جهود الشيخ محمد الطاهر مسعودان الحركاتي
279	أولاً_النشأة ورحلة التعلم
281	ثانياً: جهوده التعليمية
288	المطلب الثاني: الشيخ علي مدور بن شكشوك
288	أولاً_نشأته وتعليمه
288	ثانياً: جهوده التعليمية
290	المطلب الثالث: توسع التعليم المسجدي بالمنطقة
293	المبحث الثاني: التعليم المدرسي بالأوراس .
293	المطلب الأول: الشيخ عمر دردور
293	أولاً: النشأة والتعليم:
296	ثانياً: جهوده في النشاط التعليمي الإصلاحي
302	المطلب الثاني: جهود محمد يكن الغسيري
302	أولاً: النشأة والتكوين
303	ثانياً: جهوده في التعليم
310	المطلب الثالث: جهود الشيخ أحمد السرحاني
310	أولاً: نشأته وتعليمه
312	ثانياً: جهوده التعليمية
318	المطلب الرابع: الشيخ أحمد بن السعدي الغسيري
318	أولاً: نشأته وتكوينه
320	ثانياً: نشاطه التعليمي

فهرس الموضوعات

327	المطلب الخامس: الشيخ سعد حب الدين
327	أولا:نشأته وتعليمه
329	ثانيا: نشاطه التعليمي
332	المطلب السادس: نماذج أخرى من المعلمين الأوراسيين
337	الفصل الثالث: مدرسة ج ع م ج والمجتمع في الأوراس؛ حدود الأثر والتفاعل
338	المبحث الأول: واقع التعليم المدرسي لج ع م ج بالأوراس
338	المطلب الأول: مدرسة العلماء بالأوراس
344	المطلب الثاني: المعلمون والمتعلمون
344	أولا_المعلمون
349	ثانيا: التلاميذ (المتعلمون)
354	المبحث الثاني: المدرسة الإصلاحية في الأوراس بين الأثر الثقافي والاجتماعي
354	المطلب الأول: الأثر الاجتماعي للمدرسة الإصلاحية في الأوراس
357	المطلب الثاني: التأثير اللغوي والقيمي في تعليم الجمعية على المجتمع الأوراسي
360	المبحث الثاني: دور تعليم جمعية العلماء في تطوير تعليم الجهات (المنظمات) الأخرى
360	المطلب الأول: دور تعليم جمعية العلماء في تطوير تعليم مدارس الزوايا
366	المطلب الثاني: دور جمعية العلماء في تطوير تعليم مدارس حزب الشعب وحركة الانتصار والحريات
373	المطلب الثالث: دور تعليم جمعية العلماء في تطوير التعليم في الثورة
380	المطلب الرابع: أثر تعليم جمعية العلماء في الجهود التعليمية للشخصيات الحرة "حمودة بن الساعي نموذجاً"
380	أولا:النشأة والتكوين
382	ثانيا: جهوده التعليمية
385	الخاتمة
392	الملاحق
445	قائمة المصادر والمراجع
464	فهرس الموضوعات